الرافدين على الجلالين

بسم الله الرحمن الرحيم

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٣٦هـ-٢٠١٥م

رقم الإيداع: ٨٣٤٠/ ٢٠١٣م
الترقيم الدولي: ٨-٢٥-٦٢٥٤-٩٧٧-٩٧٨

ISBN 978-977-6354-99-9

9 789776 354999 >

الدار العلمية للنشر والتجليد

العالمية للثقافة الدولية

002-0122-165-3339
Email: abdallaelnady@gmail.com

الرافدين على الجلالين

تأليف

محمد بن نصر أبي جبل

الجزء الثلاثون

بسم الله الرحمن الرحيم

إِلَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ (٤٠).

{إلَّا عِبَاد الله الْمُخْلَصِينَ} أَيْ الْمُؤْمِنِينَ اسْتِثْنَاء منقطع أي ذكر جزاؤهم في قوله.

أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ (٤١).

{أُولَئِكَ لَهُمْ} فِي الْجَنَّة {رِزْق مَعْلُوم} بُكْرَة وعشيا.

فَوَاكِهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ (٤٢).

{فَوَاكِه} بَدَل أَوْ بَيَان لِلرِّزْقِ وَهُوَ مَا يُؤْكَل تَلَذُّذًا لَا لِحِفْظِ صِحَّة لِأَنَّ أَهْل الْجَنَّة مُسْتَغْنَوْنَ عَنْ حِفْظهَا بِخَلْقِ أَجْسَامهمْ لِلْأَبَدِ {وهم مكرمون} بثواب الله سبحانه وتعالى.

فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٤٣).

{في جنات النعيم}.

عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ (٤٤).

{عَلَى سُرَر مُتَقَابِلِينَ} لَا يَرَى بَعْضهمْ قَفَا بعض.

يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ (٤٥).

{يُطَاف عَلَيْهِمْ} عَلَى كُلّ مِنْهُمْ {بِكَأْسٍ} هُوَ الْإِنَاء بِشَرَابِهِ {مِنْ مَعِين} مِنْ خَمْر يَجْرِي عَلَى وَجْه الْأَرْض كَأَنْهَارِ الْمَاء.

بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ (٤٦).

{بَيْضَاء} أَشَدّ بَيَاضًا مِنْ اللَّبَن {لَذَّة} لَذِيذَة {لِلشَّارِبِينَ} بِخِلَافِ خَمْر الدُّنْيَا فَإِنَّهَا كَرِيهَة عِنْد الشرب.

لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ (٤٧).

{لَا فِيهَا غَوْل} مَا يَغْتَال عُقُولهمْ {وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ} بِفَتْحِ الزَّاي وَكَسْرهَا مِنْ نَزَفَ الشَّارِب وَأَنْزَفَ أَيْ يَسْكَرُونَ بِخِلَافِ خَمْر الدنيا.

وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ (٤٨).

{وَعِنْدهمْ قَاصِرَات الطَّرْف} حَابِسَات الْأَعْيُن عَلَى أَزْوَاجهنَّ لَا يَنْظُرْنَ إلَى غَيْرهمْ لِحُسْنِهِمْ عِنْدهنَّ {عِين} ضِخَام الْأَعْيُن حِسَانهَا.

كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ (٤٩).

{كَأَنَّهُنَّ} فِي اللَّوْن {بِيض} لِلنَّعَام {مَكْنُون} مَسْتُور بِرِيشِهِ لَا يَصِل إلَيْهِ غُبَار وَلَوْنه وَهُوَ الْبَيَاض فِي صُفْرَة أَحْسَن أَلْوَان النِّسَاء[1].

---

(١)قوله تعالى: {إِلَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ} [الصافات: ٤٠].

قال الطبري:"يقول: إلا عباد الله الذين أخلصهم يوم خلقهم لرحمته، وكتب لهم السعادة في أم الكتاب، فإنهم لا يذوقون العذاب، لأنهم أهل طاعة الله، وأهل الإيمان به".

قال مقاتل:"استثنى المؤمنين فقال: {إلا عباد الله المخلصين} بالتوحيد، لا يذوقون العذاب".

قال ابن كثير:"أي: ليسوا يذوقون العذاب الأليم، ولا يناقشون في الحساب، بل يتجاوز عن سيئاتهم، إن كان لهم سيئات، ويجزون الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، إلى ما يشاء الله تعالى من التضعيف".

عن قتادة: " {إلا عباد الله المخلصين}، قال: هذه ثنية الله".

قال يحيى:"استثنى المؤمنين، وهم من كل ألف واحد".

قوله تعالى: {أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ} [الصافات: ٤١]، أي:"أولئك المخلصون لهم في الجنة رزق معلوم لا ينقطع".

=

=

قال يحيى:"الجنة".

عن قتادة والسدي: " {أولئك لهم رزق معلوم}، في الجنة".

قال الطبري:"يقول: هؤلاء هم عباد الله المخلصون لهم رزق معلوم؛ وذلك الرزق المعلوم: هو الفواكه التي خلقها الله لهم في الجنة".

قال مقاتل:"يعني بـ «المعلوم»: حين يشتهونه يؤتون به".

قال السمعاني:"{معلوم} أي: مقدر، ورزقهم المقدر هو رزقهم بكرة وعشيا".

قال النسفي: " يجوز أن يراد رزق معلوم منعوت بخصائص خلق عليها من طيب طعم ورائحة ولذة وحسن منظر وقيل معلوم الوقت كقوله {وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا} [مريم: ٦٢]،والنفس إليه أسكن".

قوله تعالى: {فَوَاكِهُ} [الصافات: ٤٢]، أي:"ذلك الرزق فواكه متنوعة".

قال السمعاني:"الفواكه: جمع الفاكهة".

قال الصابوني:"وخصَّ الفواكه بالذكر لأن كل ما يؤُكل في الجنة إِنما هو على سبيل التفكه والتلذذ".

قال النسفي: " فسر الرزق المعلوم بالفواكه وهي كل ما يتلذذ به ولا يتقوت لحفظ الصحة يعني أن رزقهم كله فواكه لأنهم مستغنون عن حفظ الصحة بالأقوات لأن أجسادهم محكمة مخلوقة للأبد فما يأكلونه للتلذذ".

قوله تعالى: {وَهُمْ مُكْرَمُونَ} [الصافات: ٤٢]، أي:"وهم مكرمون بكرامة الله لهم".

قال الطبري:"يقول: وهم مع الذي لهم من الرزق المعلوم في الجنة، مكرمون بكرامة الله التي أكرمهم الله بها".

قال السمعاني:"{وهم مكرمون} أي: بإدخالهم الجنة".

قال النسفي: أي:"منعمون".

=

=

قال ابن كثير:"أي: يُخْدمون ويرزقون ويرفهون وينعمون ".

قوله تعالى: {فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ} [الصافات: ٤٣]، أي:"في رياضٍ وبساتين يتنعمون فيها".

قال الطبري:"يعني: في بساتين النعيم".

قال السمعاني:"يعني: إنهم في جنات النعيم".

عن مالك بن دينار، قال: " جنات النعيم بين جنان الفردوس وبين جنات عدن، وفيها جواري خلقن من ورد الجنة، قيل: فمن يسكنها؟ قال: الذين عملوا بالمعاصي فلما ذكروا عظمتي راقبوني والذين انثنت أصلابهم من خشيتي وعزتي إني لأهم بعذاب أهل الأرض فإذا نظرت إلى أهل الجوع والعطش من مخافتي صرفت عنهم العذاب".

قوله تعالى: {عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ (٤٤)} [الصافات: ٤٤].

قال الطبري:"يعني: أن بعضهم يقابل بعضا، ولا ينظر بعضهم في قفا بعض".

قال يحيى:"السرر مرمولة بالذهب وبقضبان اللؤلؤ الرطب، {متقابلين}: لا ينظر بعضهم إلى قفا بعض. وقال بعضهم: ذلك في الزيارة إذا تزاوروا".

قال مقاتل:"في الزيارة".

قال الزجاج: السرر: جمع سرير، مثل كثيب وكثب. ومعنى {متقابلين}، ينظر بعضهم إلى وجوه بعض ولاينظر في أقفاء بعض، وصفوا مع نعمهم بحسن العشرة وتهذيب الأخلاق، وصفاء المودة".

عن مجاهد، قوله: " {على سرر متقابلين}، قال: لا يرى بعضهم قفا بعض".

عن زيد بن أبي أوفى قال: "خرج علينا رسول الله ﷺ فتلا هذه الآية {عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ}، ينظر بعضهم إلى بعض".

=

=

عن أبي صلح في قوله: {إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِين} [الحجر: ٤٧]، قال: "عشرة: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وطلحة، والزبير، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن مالك، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل، وعبد الله بن مسعود".

قوله تعالى: {يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ} [الصافات: ٤٥]، أي:"يدار عليهم في مجالسهم بكؤوس خمر، من أنهار جارية".

قال الطبري: يقول:"يطوف الخدم عليهم بكأس من خمر جارية ظاهرة لأعينهم غير غائرة، والكأس عند العرب: كل إناء فيه شراب، فإن لم يكن فيه شراب لم يكن كأسا، ولكنه يكون إناء".

قال ابن كثير:"أي: بخمر من أنهار جارية، لا يخافون انقطاعها ولا فراغها ".

قال يحيى:"هي الخمر، و «المعين»: الجاري الظاهر".

قال أبو عبيدة:"الكأس الإناء بما فيه والمعين الماء الطاهر الجاري".

قال الزجاج:"{من معين}، أي: من خمر تجري كما يجري الماء على وجه الأرض من العيون".

عن قتادة: " {يطاف عليهم بكأس من معين}، قال: كأس من خمر جارية، والمعين: هي الجارية".

عن السدي، قوله: " {بكأس من معين}، قال: الخمر".

قال سعيد بن جبير:"المعين: الخمر".

قال الضحاك:"كل كأس في القرآن فهو خمر".

قال الزجاج:"الكأس: الإناء إذا كانت فيه خمر فهو كأس، ويقع الكأس لكل إناء مع شرابه، فإن كان فارغا فليس بكأس".

=

=

قال مالك، عن زيد بن أسلم: "خمر جارية بيضاء، أي: لونها مشرق حسن بهي لا كخمر الدنيا في منظرها البشع الرديء، من حمرة أو سواد أو أصفرار أو كدورة، إلى غير ذلك مما ينفر الطبع السليم".

قوله تعالى: {بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ} [الصافات: ٤٦]، أي:"هذه الخمر بيضاء في لونها، لذيذة في شربها".

قال الطبري: "يعني بالـ «بيضاء»: الكأس، {لذة للشاربين}، يقول: هذه الخمر لذة يلتذها شاربوها".

قال يحيى:"{بيضاء}، يعني: الخمر".

قال الزجاج:"{لذة للشاربين}، أي: ذات لذة".

قال ابن كثير:"أي: طعمها طيب كلونها، وطيب الطعم دليل على طيب الريح، بخلاف خمر الدنيا في جميع ذلك".

قال السدي: "في قراءة عبد الله: «صفراء» ".

قوله تعالى: {لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ} [الصافات: ٤٧]، أي:"ليس فيها ما يغتال عقولهم فيفسدها، ولا هم يسكرون بشربها كما تفعل خمر الدنيا".

وفي قوله تعالى: {لَا فِيهَا غَوْلٌ} [الصافات: ٤٧]، وجوه من التفسير:

أحدها: أي: ليس فيها صداع، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس.

الثاني: ليس فيها وجع البطن، قاله ابن عباس -أيضا-، ومجاهد، وابن زيد.

قال ابن زيد:"الغول: ما يوجع البطون، وشارب الخمر ههنا يشتكي بطنه".

الثالث: ليس فيها أذى ولا مكروه، قاله سعيد بن جبير.

قال الماوردي:"وهذه الثلاثة متقاربة لاشتقاق الغول من الغائلة.

الرابع: ليس فيها وجع بطن، ولا صداع رأس. قاله قتادة.

وقال سعيد بن جبير-في رواية-:"وجع بطن ولا هم".

=

=

الخامس: أنها لا تغتال عقولهم، قاله السدي، وأبو عبيدة، والطبري، ومنه قول الشاعر:

وما زالت الكأس تغتالنا... وتذهب بالأول الأول

قال الطبري:"يقول: لا تذهب هذه الخمر بعقول شاربيها كما تذهب بها خمور أهل الدنيا إذا شربوها فأكثروا منها".

قال ابن قتيبة:"أي" لا تغتال عقولهم فتذهب بها. يقال: الخمر غول للحلم، والحرب غول للنفوس. وغالني غولا. و «الغول»:البعد".

قال السجستاني:"غول: إذهاب الشيء. يقال: الخمر غول للحلم، والحرب غول للنفوس. وقوله جل وعز: {لا فيها غول}، أي: لا تغتال عقولهم فتذهب بها".

السادس: أي: لا تذهب بها عقولهم، ولا يصيبهم منها وجع. قاله الزجاج.

السابع: ليس فيها إثم، قاله الكلبي.

قال الطبري:"ولكل هذه الأقوال التي ذكرناها وجه، وذلك أن الغول في كلام العرب: هو ما غال الإنسان فذهب به، فكل من ناله أمر يكرهه ضربوا له بذلك المثل، فقالوا: غالت فلانا غول، فالذاهب العقل من شرب الشراب، والمشتكي البطن منه، والمصدع الرأس من ذلك، والذي ناله منه مكروه كلهم قد غالته غول. فإذا كان ذلك كذلك، وكان الله تعالى ذكره قد نفى عن شراب الجنة أن يكون فيه غول، فالذي هو أولى بصفته أن يقال فيه كما قال جل ثناؤه: {لا فيها غول} فيعم بنفي كل معاني الغول عنه، وأعم ذلك أن يقال: لا أذى فيها ولا مكروه على شاربيها في جسم ولا عقل، ولا غير ذلك".

وفي قوله تعالى: {وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ} [الصافات: ٤٧]، وجوه من التفسير:

أحدها: لا تذهب عقولهم بالسكر، قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والسدي، ومقاتل، ومنه قول الشاعر:

=

=

لعمري لئن أنزفتم أو صحوتُم... لبئس الندامى كنتم آل أبجرا

قال ابن قتيبة:"أي: لا تذهب خمرهم وتنقطع ولا تذهب عقولهم. يقال: نزف الرجل؛ إذا ذهب عقله وإذا نفد شرابه".

قال أبو عبيدة:"تقول العرب: لا يقطع عنه وينزف سكرا".

قال الفراء:"العرب تقول: شرب فلان حتى نزف، إذا ذهب عقله من السكر".

الثاني: لا يقيئون. قاله ابن عباس.

قال ابن عباس:"في الخمر أربع خصال. السكر، والصداع، القيء، والبول، فنزه الله خمر الجنة عنها {لا فيها غول}: لا تغول عقولهم من السكر، {ولا هم عنها ينزفون}: لا يقيئون، عنها كما يقئ صاحب خمر الدنيا، عنها، والقيء مستكره".

الثالث: لا يبولون، حكاه الماوردي.

وفي الحديث: "إن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون ولا يتفلون ولا يبولون ولا يتغوطون ولا يمتخطون" قالوا: فما بال الطعام؟ قال: "جشاء ورشح كرشح المسك".

الرابع: معناه: لا مكروه فيها ولا أذى. قاله سعيد بن جبير.

الخامس: أي: لا تفنى، مأخوذ من: نزف الركية، قاله أبو عمرو بن العلاء، ومنه قول الشاعر:

دَعِينِي-لَا أَبَا لكِ -لَنْ تُطِيقِي... لحاكِ اللهِ! قَدْ أنزفْتِ رِيقِي

وقد يختلف هذا التفسير باختلاف القراءة، فقرأ حمزة والكسائي: «ينزفون» -بكسر الزاي-، وقرأ الباقون: «يُنزَفون» -بفتح الزاي-، والفرق بينهما أن الفتح من: نزف فهو منزوف، إذا ذهب عقله بالسكر، والكسر من: أنزف فهو منزوف، إذا فنيت خمره.

=

=

قال الماوردي:"وإنما صرف الله تعالى السكر عن أهل الجنة لئلا ينقطع عنهم التذاذ نعيمهم".

قال ابن كثير:"فنزه الله خمر الآخرة عن الآفات التي في خمر الدنيا، من صداع الرأس ووجع البطن - وهو الغول - وذهابها بالعقل جملة".

قوله تعالى: {وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ} [الصافات: ٤٨]، أي:"وعندهم في مجالسهم نساء عفيفات، لا ينظرن إلى غير أزواجهن حسان الأعين".

قال مقاتل:"حافظات النظر من الرجال غير أزواجهن لا يرون غيرهم من العشق، حسان الأعين".

قال يحيى بن سلام:"يعني: الأزواج، قصر طرفهن على أزواجهن لا يردن غيرهم. {عين} عظام العيون".

قال الطبري: يقول:"وعند هؤلاء المخلصين من عباد الله في الجنة قاصرات الطرف، وهن النساء اللواتي قصرن أطرافهن على بعولتهن، لا يردن غيرهم، ولا يمددن أبصارهن إلى غيرهم، يعني بالـ «عين»: النجل العيون عظامها، وهي جمع عيناء، والعيناء: المرأة الواسعة العين عظيمتها، وهي أحسن ما تكون من العيون".

قال ابن كثير:"أي: عفيفات لا ينظرن إلى غير أزواجهن، حسان الأعين".

عن ابن عباس: " {وعندهم قاصرات الطرف عين} ، يقول: عن غير أزواجهن".

عن مجاهد: " {وعندهم قاصرات الطرف عين} ، قال: على أزواجهن؛ زاد الحارث في حديثه: لا تبغي غيرهم".

قال قتادة:"قصرن طرفهن على أزواجهن، فلا يردن غيرهم".

قال السدي:"قصرن أبصارهن وقلوبهن على أزواجهن، فلا يردن غيرهم".

قال ابن زيد:"لا ينظرن إلا إلى أزواجهن، قد قصرن أطرافهن على أزواجهن، ليس كما يكون نساء أهل الدنيا".

=

=

وفي «العين»، وجهان من التفسير:

أحدهما: العظام الأعين، قاله السدي، وابن زيد، ويحيى بن سلام، والأخفش، وقطرب، وأبو عبيدة.

قال ابن زيد:"العيناء: العظيمة العين".

قال يحيى:"بلغني عن عبد الله بن عمرو قال: شفر عينها أطول من جناح النسر".

وروي عن أم سلمة زوج النبي ﷺ أنها قالت: قلت: "يا رسول الله أخبرني عن قول الله: {حور عين}، قال: «العين: الضخام العيون؛ شفر الحوراء بمنزلة جناح النسر» ".

الثاني: الحسان العيون، قاله مجاهد، ومقاتل، وابن كثير.

قال ابن كثير:"أي: حسان الأعين، وقيل: ضخام الأعين. هو يرجع إلى الأول، وهي النجلاء العيناء، فوصف عيونهن بالحسن والعفة، كقول زليخا في يوسف حين جملته وأخرجته على تلك النسوة، فأعظمنه وأكبرنه، وظنن أنه ملك من الملائكة لحسنه وبهاء منظره، قالت: {فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ} [يوسف: ٣٢]، أي: هو مع هذا الجمال عفيف تقي نقي، فأرتهن جماله الظاهر وأخبرتهن بجماله الباطن، وهكذا الحور العين {خَيْرَاتٌ حِسَانٌ} [الرحمن: ٧٠]، ولهذا قال: {وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ} ".

قال الزجاج:"«عين»: كبار الأعين حسانها. الواحدة: عيناء".

قوله تعالى: {كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ} [الصافات: ٤٩]، أي:"كأنهن بَيْض مصون لم تمسه الأيدي".

قال ابن كثير:"وصفهن بترافة الأبدان بأحسن الألوان ".

وفي قوله تعالى: {كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ} [الصافات: ٤٩]، وجهان من التفسير:

أحدهما: يعني: اللؤلؤ، وبه شبهن في بياضه وصفائه، قاله ابن عباس.

=

=

عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا أول الناس خروجا إذا بعثوا، وأنا خطيبهم إذا وفدوا، وأنا مبشرهم إذا حزنوا، وأنا شفيعهم إذا حبسوا. لواء الحمد يومئذ بيدي، وأنا أكرم ولد آدم على ربي عز وجل ولا فخر، يطوف علي ألف خادم كأنهن البيض المكنون- أو: اللؤلؤ المكنون».

الثاني: يعني: البيض المعروف في قشره، و «المكنون»: المصون.

عن السدي:"{كأنهن بيض مكنون}، قال: البيض في عشه".

قال مقاتل:"شبهن ببياض البيض الذي الصفرة في جوفه".

وفي تشبيههم بـ «البيض المكنون»، أربعة أوجه:

أحدها: تشبيهًا ببيض النعام يُكنّ بالريش من الغبار والريح فهو أبيض إلى الصفرة، قاله الحسن، وابن زيد.

عن الحسن وزيد بن اسلم:"{كأنهن بيض مكنون}، قال: محصون، لم تمرته الأيدي".

قال ابن زيد:"البيض الذي يكنه الريش، مثل بيض النعام الذي قد أكنه الريش من الريح، فهو أبيض إلى الصفرة فكأنه يبرق، فذلك المكنون".

قال ابن قتيبة:"العرب تشبه النساء ببيض النعام. قال امرؤ القيس:

كبِكْرِ المُقَانَاتِ البَيَاضُ بِصُفْرةٍ... غَذَاها نمِيرُ الماءِ غيرَ مُحَلَّلِ

و «المكنون»: المصون. يقال. كننت الشيء؛ إذا صنته؛ وأكننته: أخفيته".

الثاني: شبهن ببطن البيض في البياض، وهو الذي داخل القشر، وذلك أن ذلك لم يمسه شيء، قاله سعيد بن جبير، وقتادة.

قال سعيد بن جبير:"كأنهن بطن البيض".

قال قتادة:"لم تمر به الأيدي ولم تمسه، يشبهن بياضه".

الثالث: تشبيهًا ببياض البيض حين ينزع قشرة قبل أن تمسه الأيدي، قاله السدي.

=

=

الرابع: تشبيهًا بالسخاء الذي يكون بين القشرة العليا ولباب البيض، قاله عطاء الخراساني.

قال الطبري:"وأولى الأقوال في ذلك بالصواب عندي قول من قال: شبهن في بياضهن، وأنهن لم يمسهن قبل أزواجهن إنس ولا جان بيباض البيض الذي هو داخل القشر، وذلك هو الجلدة الملبسة المح قبل أن تمسه يد أو شيء غيرها، وذلك لا شك هو المكنون؛ فأما القشرة العليا فإن الطائر يمسها، والأيدي تباشرها، والعش

يلقاها، والعرب تقول لكل مصون مكنون ما كان ذلك الشيء لؤلؤا كان أو بيضا أو متاعا، وتقول لكل شيء أضمرته الصدور: أكننته، فهو مكن".

قال أبو عبيدة:"كل لؤلؤ أو بيض أو متاع صنته، فهو مكنون، وكل شئ أضمرته فى نفسك فقد أكننته. قال أبو دهبل:

وهى زهراء مثل لؤلؤة الغوّ... اص ميزت من جوهر مكنون".

عن أم سلمة "قلت: يا رسول الله أخبرني عن قوله: {كأنهن بيض مكنون}، قال:"رقتهن كرقة الجلدة التي رأيتها في داخل البيضة التي تلي القشر وهي الغرقئ".

قال العثيمين: قوله تعالى: {إِلَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ (٤٠)} قال المصنف رحمه الله: [أي المؤمنين استثناء منقطع]، قوله تعالى: {إِلَّا عِبَادَ اللهِ} هذا استثناء منقطع، والاستثناء المنقطع هو الذي يحل محله، (لكن).

فإن قيل: لماذا لم يعبر بـ (لكن بدل إلا؟ مادام أن المعنى على الاستدراك؛ لأن الاستثناء منقطع فلماذا لم يؤت بحرف الاستدراك الأصلي الذي هو لكن؟

قلنا في الجواب على ذلك: إنه أتى ليفيد قوة اتصال الثاني بما بعده؛ لأن الأصل في الاستثناء الاتصال، والأصل في (لكن) الانقطاع. فإذا جاءت (لكن) فصلت بين ما

=

=

قبلها وما بعدها، لكن إذا جاءت (إلا) صار في ذلك إشارة إلى قوة اتصال ما بعدها بما قبلها وهو كذلك، فإنه لما ذكر جزاء المجرمين ذكر جزاء المخلصين، وهذا من كون القرآن العظيم مثاني تثنى فيه المعاني المتقابلة إذا ذكر الوعيد ذكر الوعد، وإذا ذكر المؤمن ذكر الكافر، وإذا ذكرت الجنة ذكر النار، وهكذا، فهو مثاني، لأنه لو جاء الكلام على نسق واحد في ذكر الخوف والنار لغلب على القارئ جانب الخوف وأدى ذلك إلى القنوط من رحمة الله. ولو جاء الكلام على نسق واحد في الوعد والترغيب لأدى ذلك إلى الرجاء فيقع الإنسان في الأمن من مكر الله عز وجل. فكان القرآن يأتي بهذا وبهذا، جنبًا إلى جنب، من أجل أن يكون الإنسان دائمًا بين الخوف والرجاء.

وقوله: {إِلَّا عِبَادَ اللهِ} المراد بالعبودية هنا عبودية الشرع، لأن العبودية نوعان: عبودية القدر، وعبودية الشرع.

فعبودية القدر شاملة لكل أحد. يعني للمؤمن والكافر، والبر والفاجر، كما قال تعالى: {إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا (٩٣)} [مريم: ٩٣] فالكل خاضعون لقدر الله عز وجل، لا يمكنهم الفرار منه ولا مصادمته ولا الاستكبار عنه.

أما عبودية الشرع فهي خاصة بمن أطاع الله عز وجل وتعبد لله بشرعه، فيخرج منها الكافرون؛ لأن الكافر لا يتعبد لله بشرعه، بل هو مستكبر عن شرعه، هذه الآية: {إِلَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ (٤٠)} من عبودية الشرع يعني إلا الذين تعبدوا لله بشرعه وأخلصهم الله تعالى لطاعته، فهؤلاء ليسوا كمن سبق.

قال: {إِلَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ (٤٠)} قال المصنف: رحمه الله[أي المؤمنين] ولكن المخلَص فيه نوع اصطفاء أخلصهم الله لنفسه، فكانوا عبادًا لله لا لغيره؛ لأن التزام طاعة الله هو تحقيق عبادة الله تعالى، والإنسان العاصي لله تعالى عنده من

=

=

الخروج عن عبادة الله بقدر ما حصل منه من المعصية؛ لأن الله تعالى قال: {أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَى عِلْمٍ} [الجاثية: ٢٣]. فهذا يدل على أن كل إنسان عصى الله فهو إنما يعصيه لهوى في نفسه، فإنه قد نقص من عبودية الله بقدر ما فعل من المعصية.

إذًا فالمخلص فيه نوع من الاصطفاء. أخلصهم الله لنفسه فكانوا عبادًا لله تعالى حقًّا، ولهذا قال {الْمُخْلَصِينَ (٤٠)}. وعباد الله المخلصون هم الذين أخلصهم الله لنفسه، فلم يجعل للشيطان عليه سلطانًا، كما قال تعالى في حق الشيطان: {لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣)} [ص: ٨٢ - ٨٣] فالمخلص محفوف برعاية الله سبحانه وتعالى وحمايته عن الشيطان، والمخلص أشد وقعًا من المؤمن.

{أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ (٤١)} أولئك الضمير يعود على عباد الله المخلصين، وأتى بأولئك الدال على البعد مع قرب ذكرهم ولم يقل: (هؤلاء)، بل قال: {أُولَئِكَ} تعظيمًا لشأنهم وبيانًا لعلو مرتبتهم. والإشارة بالبعيد تأتي لتعلية الشأن وتعظيمه، كما قال الفرزدق يخاطب جريرًا:

أولئك آبائي فجئني بمثلهم ... إذا جمعتنا يا جرير المجامع

قال: أولئك آبائي أشار إليهم بإشارة البعيد، تعظيمًا لشأنهم وتعلية لهم.

قوله تعالى: {أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ (٤١)} (أي عطاء)، قال المصنف: رحمه الله[في الجنة]، والأولى أن تطلق كما أطلق الله عز وجل.

وقد يقال: يجازون أيضًا في الدنيا، لكن ظاهر سياق الآية: {فَوَاكِهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ (٤٢) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٤٣)} يدل على أنه المراد الرزق الحاصل لهم في الجنة.

وقوله: {رِزْقٌ} بمعنى عطاء {مَعْلُومٌ}، يقول المصنف: [بكرة وعشيًّا]، فكأنه يشير إلى أن المراد بالمعلوم معلوم الوقت. ولو قيل: إنه أعم فهو معلوم الوقت

=

=

ومعلوم النوع ومعلوم في الدنيا ومعلوم عند ملاقاته لكان أشمل، فإن هذا الرزق معلوم في الدنيا لأن الله تعالى أعلمنا به وهو أيضًا معلوم الوقت لقوله: {وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا (٦٢)}، [مريم: ٦٢] وهو معلوم العين والنوع إذا لاقوه. كما قال تعالى في سورة البقرة: {وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا} [البقرة: ٢٥] فهو معلوم لديهم في الدنيا وكذلك في الآخرة، {فَوَاكِهُ} قال المصنف رحمه الله[بدل أو بيان للرزق وهو ما يؤكل تلذذًا لا لحفظ الصحة]، {فَوَاكِهُ} بالرفع بدل، أو بيان للرزق؛ لأن كلمة رزق أعم من الفواكه، فيكون {فَوَاكِهُ} بدل بعض من كل، لأن الرزق أعم.

{فَوَاكِهُ} هنا لم تنون؛ لأنها ممنوعة من الصرف صيغة منتهى الجموع. {فَوَاكِهُ} على وزن فواعل.

وقال المصنف رحمه الله في الفاكهة [هي ما يؤكل تلذذًا لا لحفظ صحة] يعني أن الفاكهة ما يأكله الإنسان للتلذذ لا للتقوت به، فهو عبارة عن أكل كمالي، وهكذا أهل الجنة يأكلون ما يأكلون فيها من باب التفكه لا لحفظ الصحة؛ لأن صحتهم مضمونة، فإن لهم أن يصحوا فلا يسقموا أبدًا، وأن يعيشوا فلا يموتوا أبدًا، فيكون كل ما يأكلونه في الجنة من قسم الفاكهة؛ لأن أهل الجنة؛ كما يقول المصنف -: [مستغنون عن حفظها -أي حفظ الصحة- بخلق أجسامهم للأبد]. ولهذا جاء في الحديث: "أنهم لا يبولون ولا يتغوطون، وإنما يخرج ما يأكلونه رشحًا -يعني عرقًا- كَريح المسك" فيتنعمون بهذا الأكل عند أكله وعند خروجه؛ لأنه يخرج رشحًا كرائحة المسك، كما لو طُلِي الإنسان بالمسك، فإنه يجد لذة ورائحة طيبة.

{وَهُمْ مُكْرَمُونَ (٤٢)} بثواب الله في جنات النعيم. وجملة {وَهُمْ مُكْرَمُونَ (٤٢)} جملة اسمية تفيد الثبوت والاستمرار، يعني هم مكرمون في هذه الجنة من كل وجه من قبل الله عز وجل، يكرمهم الله سبحانه وتعالى فينظرون إليه، ويعدهم

=

=

رضوانه فلا يسخط عليهم أبدًا، ومكرمون من قبل الملائكة، {وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ (٢٤)}.

مكرمون من جهة الخدم {يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ (١٧) بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ (١٨)} مكرمون من كل وجه لا يجدون يومًا من الأيام لحظة من اللحظات شيئًا من الإهانة، بل هم في غاية الإكرام من كل وجه، لو لم يكن إلا أن الله عز وجل أكرمهم وأباح لهم النظر إلى وجهه، ويتحدث إليهم عز وجل، وهذا غاية ما يكون من السرور، لا شيء أسر ولا أنعم ولا أفضل من مناجاة الله عز وجل، وهم ينظرون إلى وجهه.

{فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٤٣)} الجنات جمع جنة، والجنة في اللغة العربية البستان الكثير الأشجار، وسمي بذلك؛ لأنه يجن من فيه، أي يستره ويغطيه، وأصل هذه المادة الجيم والنون أصلها من الستر، ولذلك تجد كل معانيها تعود إلى هذا، فالجنان القلب وهو مستتر، والجنة ما يجتن به المقاتل ويستتر به عن السهام، والجن عالم غيبي مستتر، والجنة بستان مستور بالأشجار، ولكن لا نفسر جنَّة النعيم بهذا، بل نقول: هي "الدار التي أعدها الله لأوليائه، وفيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر"؛ لأنك لو قلت: إنها البستان الكثير الأشجار فإن الشوق إليها والنظر إليها يضعف، إذ إن المخاطب يتصور أن هذه الجنة كبساتين الدنيا، فيجول في بساتين الناس أي بستان أعظم؟ بستان فلان بن فلان فلا يتجاوز قلبه أو يتصوره هذا البستان، مع أن الجنة فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، كما قال الله عز وجل: {فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٧)} [السجدة: ١٧] وقال الله تعالى في الحديث القدسي: "أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر". فالأحسن أن نفسر جنة الخلد بأنها الدار

=

=

التي أعدها الله تعالى لأوليائه، وفيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

وقوله: {النَّعِيمِ (٤٣)} هذا من باب إضافة الشيء إلى نوعه، أي جنات نعيم لا بؤس فيها ولا شقاء، نعيم للقلب وهو السرور، نعيم للبدن لأنهم يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤ ولباسهم فيها حرير. فهم منعمون في أبدانهم، ومنعمون فى قلوبهم، وانظر إلى قوله تعالى: {عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا (٢١)} [الإنسان: ٢١] وقال تعالى أيضًا: {وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا (١١)} [الإنسان: ١١] فالنضرة في الوجه وهو الحسن، والسرور في القلب، فكان الحسن فيهم ظاهرًا وباطنًا، ولهذا سميت جنة النعيم لتنعم الإنسان فيها ظاهرًا وباطنًا، فقلبه منعَّم بالسرور، وبدنه منعَّم بالنضرة ولباس الحرير. {عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ (٤٤)} {عَلَى سُرُرٍ} جمع سرير وهي الكراسي التي يجلس عليها، ولكن ليست كسرر الدنيا، بل {عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ (١٥)} [الواقعة: ١٥] مخروزة من الذهب، ولا يمكن أن تتصور حسن هذه السرر؛ لأن فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وما لم يخطر على قلب بشر لا يمكن أن يتصوره الإنسان؛ لأنه فوق ما يتصور، فكل شيء تقدره من النعيم والحسن فالجنة أعلى وأعظم، وقوله: {مُتَقَابِلِينَ (٤٤)} حال من الضمير المستتر في قوله: {عَلَى سُرُرٍ} يعني: حال كونهم متقابلين، وهذا يدل على كمال أدبهم وسعة مجالسهم. على كمال الأدب؛ لأنهم متقابلون لا يولي أحدهم قفاه للآخر، كذلك أيضًا يدل على سعة المجالس؛ لأنهم إذا كانوا كثيرين وصاروا متقابلين لابد أن تكون الدائرة واسعة، إذًا فالمجالس واسعة مهما جاء من الناس، فإنها تسعهم ويتقابلون فيها، والظاهر أن جلوس الإنسان مع أهله وخاصته على هذا الوجه متقابلين لكمال أدبهم.

=

{يُطَافُ عَلَيْهِمْ} يطاف: فعل مضارع مبني للمجهول، ولم يذكر من يطوف عليهم، لكن ذكر في آية أخرى أنه {وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنْثُورًا (١٩)} [الإنسان: ١٩] نسأل الله من فضله. ولدان يعني: غلمان صغار كأنهم لؤلؤ مكنون، إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤًا منثورًا من جمالهم وصفائهم وحسنهم. منثورًا لتفرقهم في خدمة أسيادهم. واللؤلؤ إذا نثر تبعثر في الأرض فهم متبعثرون في خدمة أسيادهم كل له عمل، وهذا يَسرُّ الإنسان أن يجد هؤلاء الغلمان كل في عمله، ليس فيهم متعطل، وليس فيهم منتظر للآخر. ليسوا كغلمان الدنيا يتزاحمون كل واحد ينتظر الأجر، بل كل في خدمة معينة، وهذا ألذ ما يكون للسيد إذا رأى هؤلاء الغلمان قائمين بخدمته على هذا الوجه، {إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنْثُورًا (١٩)} [الإنسان: ١٩].

وقوله: {بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ (٤٥)} قال المصنف: رحمه الله[هو الإناء بشرابه]، الكأس معروف وهو الإناء بشرابه، وقد بين الله سبحانه وتعالى أن هذا الكأس دهاق {وَكَأْسًا دِهَاقًا (٣٤)} [النبأ: ٣٤] أي مملوءة. ومع ذلك مملوءة بقدر معلوم ليست كبيرة، فإذا شربها الإنسان تعب، وإن أبقى منها فضلة صارت غير شهية، وليست صغيرة بحيث لا ترويه، وهم لا يعطشون، ولكن تلذذًا، بل قال الله تعالى: {مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا (١٦)} [الإنسان: ١٦] يعني: جُعِلَتْ بقدر ما يتلذذ به الشارب لا كبيرة ولا صغيرة.

وقوله: {بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ (٤٥)} قال المصنف رحمه الله: [من خمر يجري على وجه الأرض كأنهار الماء]، المعين في الأصل الماء الجاري، والمراد هنا بكأس من معين أي من خمر {مَعِينٍ} كعين الماء يجري. وقد بين الله سبحانه وتعالى في سورة القتال أنهار الجنة {مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ

=

مُصَفًّى} [محمد: ١٥] أنهار تجري. والذي خلق من هذا الطائر الذي يشبه الذباب هذه الكميات الكثيرة من العسل قادر على أن يخلق أنهارًا من العسل في الجنة وليس هذا بغريب، وليست هذه الأنهار تأتي من نحل، لكن تأتي بقول الله: كن فيكون، عسل مصفى لا شمع فيه ولا شوائب من أحسن ما يكون رؤية وطعمًا ورائحة. وقد قال ابن القيم رحمه الله في النونية بناء على حديث ورد في ذلك:

أنهارها في غير أخدود جرت ... سبحان ممسكها عن الفيضان

يعني: ليست كأنهار الدنيا تحتاج إلى أخدود تمنعها من الذهاب يمينًا وشمالًا، أو حفرة تحفر للنهر؛ لئلا تجري على سطح الأرض، بل على حسب ما يريده أهلها من غير عمال يوجهونها حفرًا أو إقامة أخدود، بل تجري على ما تريد من غير تعب.

قال: سبحان ممسكها عن الفيضان. والذي أمسك البحر أن يغرق أهل الأرض - وهو ليس بشيء بالنسبة للجنة- قادر على أن يمسك هذه الأنهار لا تزيغ يمينًا ولا شمالًا.

قوله تعالى: {بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ (٤٦)}. {بَيْضَاءَ} قال المصنف رحمه الله: [أشد بياضًا من اللبن] هكذا قال المصنف: إنها أشد بياضًا من اللبن. والواقع أن الآية لا تدل على أنها أشد بياضًا، وإنما جاء أشد بياضًا من اللبن في وصف حوض النبي ﷺ الذي يكون في عرصات القيامة، فقد جاء في وصفه أنه أشد بياضًا من اللبن، وأحلى من العسل، وأطيب من رائحة المسك، أما الخمر في الجنة فوصفه الله تعالى بالبياض فقط، قال: {بَيْضَاءَ} و {لَذَّةٍ} لذيذة وهنا عبّر بلذة المصدر عن اسم الفاعل أو اسم المفعول؛ لأن لذيذ يصلح لاسم الفاعل واسم المفعول، لأن الوصف بالمصدر أبلغ من الوصف بالمشتق من المصدر، فأنت إذا قلت: فلان عدل. أبلغ من إذا قلت: فلان عادل. كأنك جعلته هو العدل بنفسه، فهنا وصف

=

=

هذا الخمر أو هذه الكأس بأنها لذة يعني كأنها هي اللذة لا الشيء المتصف باللذة، فالتعبير بالوصف عن الموصوف أبلغ من التعبير بالموصوف؛ لأنه تعبير بالأصل عما تفرع منه، فالمشتق متفرع من المصدر، {لِلشَّارِبِينَ (٤٦)} هذا من باب التوكيد يعني أنهم في حال شربهم إياها يتلذذون بها. قال المصنف: [بخلاف خمر الدنيا، فإنها كريهة عند الشرب]، أما خمر الآخرة فهي لذة للشاربين. وهي سالمة من الآثار السيئة كما قال تعالى: {لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ (٤٧)}.

{يُنْزَفُونَ} قال المصنف رحمه الله: [بفتح الزاي وكسرها من نزف الشارب وأنزف أي: يسكرون بخلاف خمر الدنيا] قال الله تعالى: {لَا فِيهَا غَوْلٌ} يعني ليس في هذه الكأس، والمراد الخمر الذي فيها غول، ورفعت غول مع أن (لا) نافية؛ لأنه يشترط لعملها عمل (إنّ) الترتيب، يعني أن يتقدم الاسم على الخبر، فإن تأخر وجب الرفع، وقوله {غَوْلٌ} أي: [ما يغتال عقولهم]، ففسر المصنف الغول بأنه ما يؤثر على العقل. أي يسكرون، والسكر هو اغتيال العقل، فالقول الراجح في هذه الآية أن المراد بالغول ما يغتال أبدانهم من صداع في الرأس ووجع في البطن فخمر الآخرة لا غول فيها بخلاف خمر الدنيا، فإنه يكون فيها صداع، ويكون فيها وجع للبطن، كما ذكر ذلك ابن كثير وغيره، أما النزف فقال: {وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ (٤٧)} يقول المصنف: [من نزف الشارب وأنزف إذا سكر بخلاف خمر الدنيا]، فإن الإنسان يسكر فيها ويزول عقله. أما في الآخرة فهي خالية من هذا، إذًا يصدق عليها ما وصفها الله عز وجل في قوله: {وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا} [الإنسان: ٢١] أي: مطهرًا من كل ما يحصل من خمر الدنيا.

قال: {وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ (٤٨)} (عندهم) أي: عند أصحاب الجنة الذين هم عباد الله المخلصون، لأن الله قال: {إِلَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ (٤٠)} ثم ذكر ما لهم من الثواب فيكون الضمير عائدًا على عباد الله المخلصين، {وَعِنْدَهُمْ

=

=

قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ} قال المصنف رحمه الله: [حابسات الأعين على أزواجهن، لا ينظرن إلى غيرهم لحسنهم عندهن].

قوله: {قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ} قاصرات اسم فاعل مضاف إلى فاعله، أي التي قصرت أطرافهن على أزواجهن، يعني أنهن لا ينظرن إلى غير أزواجهن، وهذا لا شك أنه من نعمة الله على الزوج، ومن كمال السعادة ألا تنظر المرأة إلى غير زوجها؛ لأنها إذا نظرت إلى غير زوجها فسوف يلقي الشيطان في قلبها مودة هذا المنظور وكراهة الزوج، فإذا كانت قد قصرت طرفها على زوجها فإن هذا من كمال السعادة الزوجية.

ومن وجه آخر أنهن {قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ} أي قاصرات أطراف أزواجهن أي أن الزوج لا ينظر إلى سواها، فهو قد قصر طرفه عليها، وذلك لكمالها وحسنها في نظره، وحينئذ يكون لقاصرات الطرف معنيان:

المعنى الأول: أنهن قد قصرن أطرافهن على أزواجهن.

المعنى الثاني: أن أزواجهن قد قصروا أطرافهم عليهن وكلا المعنيين صحيح.

{عِينٌ} جمع عيناء، والمعنى أنهن حسنات العيون، وحسن العين يكون بأمرين:

١ - سعة الأعين.

٢ - حسن الأعين، يعني: أن العين واسعة ومع سعتها فإنها جميلة حسنة. ولا شك أن حسن العين يوجب حسن الوجه ويزيده حسنًا إلى حسن، كالقلادة مثلًا تزيد المرأة حسنًا إلى حسنها، وقال: {كَأَنَّهُنَّ} قال المصنف: رحمه الله[أي في اللون بيض للنعام {مَكْنُونٌ (٤٩)} مستور بريشه لا يصل إليه غبار، ولونه وهو البياض فيه صفرة أحسن ألوان النساء]. لما وصف هؤلاء النساء بأنهن عين وصف بقية أجسامهن فقال: {كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ (٤٩)} وكأنَّ هذه للتشبيه، والبيض في الآية الكريمة مُنكَّر، ولكن المصنف حمله على بيض معين، وهو بيض النعام، وببيض

=

فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٥٠).

{فَأَقْبَلَ بَعْضهمْ} بَعْض أَهْل الْجَنَّة {عَلَى بَعْض يَتَسَاءَلُونَ} عَمَّا مَرَّ بِهِمْ فِي الدُّنْيَا.

قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ (٥١).

{قَالَ قَائِل مِنْهُمْ إنِّي كَانَ لِي قَرِين} صاحب ينكر البعث.

يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ (٥٢).

{يقول} لي تبكيتا {أئنك لمن المصدقين} بالبعث.

أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ (٥٣).

{أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا} فِي الْهَمْزَتَيْنِ فِي الثَّلَاثَة مَوَاضِع مَا تَقَدَّمَ {لَمَدِينُونَ} مَجْزِيُّونَ وَمُحَاسَبُونَ أَنْكَرَ ذَلِكَ أَيْضًا.

=

النعام أبيض في صفرة، قالوا: وهذا أحسن ألوان النساء. والذي خصصه ببيض النعام؛ لأن هذا هو المعروف عند العرب.

وقيل: إن البيض مطلق، والمعنى أنهن يشبهن في البياض والرقة البيض، وليس المراد البيض القشور، بل البيض الذي هو بياض البيضة لرقته وبيانه وحسنه، {مَكْنُونٌ (٤٩)} بما على البيضة من القشرة. وهذا الأخير هو الأقرب لظاهر اللفظ؛ لأن الله عز وجل أطلق قال: {كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ} ولو كان المراد ما قاله المصنف -رحمه الله تعالى- بيضًا معينًا لقال: كأنهن البيض المكنون، لتكون "ال" دالة على معهود ذهني، فالصواب أنه عام، وأنهن لرقتهن وبياضهن ونعومة الملمس كأنها البيض أي البياض الذي في البيض وهو مكنون بقشره، أما على رأي المصنف فهو المكنون بالريش الذي تضعه النعامة على بيضها حتى لا يأتيه الغبار.

قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ (٥٤).

{قَالَ} ذَلِكَ الْقَائِل لِإِخْوَانِهِ {هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ} مَعِي إِلَى النَّار لِنَنْظُر حَاله فَيَقُولُونَ لَا.

فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ (٥٥).

{فَاطَّلَعَ} ذَلِكَ الْقَائِل مِنْ بَعْض كُوَى الْجَنَّة {فَرَآهُ} أَيْ رَأَى قَرِينه {فِي سَوَاء الْجَحِيم} فِي وَسَط النَّار.

قَالَ تَاللهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ (٥٦).

{قَالَ} لَهُ تَشْمِيتًا {تَاللهِ إِنْ} مُخَفَّفَة مِنْ الثقيلة {كدت} قاربت {لتردين} لتهلكني بإغوائك.

وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (٥٧).

{وَلَوْلَا نِعْمَة رَبِّي} عَلَيَّ بِالْإِيمَانِ {لَكُنْت مِنَ الْمُحْضَرِينَ} مَعَك فِي النَّار وَتَقُول أَهْل الْجَنَّة.

أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ (٥٨).

{أفما نحن بميتين}.

إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٥٩).

{إِلَّا مَوْتَتنَا الْأُولَى} أَيْ الَّتِي فِي الدُّنْيَا {وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ} هُوَ اسْتِفْهَام تَلَذُّذ وَتَحَدُّث بِنِعْمَةِ الله تَعَالَى مِنْ تَأْبِيد الْحَيَاة وَعَدَم التعذيب.

إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٦٠).

{إن هذا} الذي ذكرت لأهل الجنة {لهو الفوز العظيم}.

لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ (٦١).

{لمثل هذا فليعمل العاملون} قيل يقال لَهُمْ ذَلِكَ وَقِيلَ هُمْ يَقُولُونَهُ(١).

---

(١)ذكر سبب النزول.

عن عطاء؛ قال: كان رجلان شريكين، وكان لهما ثمانية آلاف دينار، فاقتسماها، فعمد أحدهما فاشترى بألف دينار أرضًا، فقال صاحبه: اللهم إن فلانًا اشترى بألف دينار أرضًا، وإني أشتري منك بألف دينار أرضًا في الجنة؛ فتصدق بألف دينار، ثم ابتنى صاحبه دارًا بألف دينار، فقال هذا: اللهم إن فلانًا ابتنى دارًا بألف دينار وإني أشتري منك دارًا في الجنة بألف دينار؛ فتصدق بألف دينار، ثم تزوج صاحبه امرأة فأنفق عليها ألف دينار، فقال: اللهم إن فلانًا تزوج امرأة فأنفق عليها ألف دينار، وإني أخطب إليك من نساء الجنة بألف دينار؛ فتصدق بألف دينار، ثم اشترى خدمًا ومتاعًا بألف دينار، وإني أشتري منك خدمًا ومتاعًا في الجنة بألف دينار؛ فتصدق بألف دينار، ثم أصابته حاجة شديدة، فقال: لو أتيت صاحبي هذا لعله ينالني معروف، فجلس على طريقه، فمر به في حشمه وأهله، فقام إليه الآخر، فنظر فعرفه، فقال: فلان...؟! فقال: نعم، فقال: ما شأنك؟ فقال: أصابتني بعدك حاجة، فأتيتك لتصيبني بخير، قال: فما فعل المال؛ فقد اقتسمناه مالًا واحدًا، فأخذت شطره وأنا شطره؟! فقال: اشتريتُ دارًا بألف دينار، ففعلت: أنا كذلك، وفعلت أنا كذلك، فقص عليه القصة، فقال: إنك لمن المصدقين بهذا، اذهب فوالله لا أعطيك شيئًا، فرده فقضي لهما أن توفيا؛ فنزل فيهما: {فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ} حتى بلغ: {أَإِنَّا لَمَدِينُونَ}، قال: لمحاسبون.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٧/ ٩٠ - ٩١) ونسبه لعبد الرزاق وابن المنذر. وعطاء هو ابن مسلم الخراساني؛ لم يدرك أحدًا من الصحابة؛ فهو على هذا معضل.

* قوله تعالى: {فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ} [الصافات: ٥٠].

=

=

قال الطبري: يقول:"فأقبل بعض أهل الجنة على بعض يتساءلون، يقول: يسأل بعضهم بعضا".

قال يحيى:"يعني: أهل الجنة".

قال مقاتل:"أي: أهل الجنة حين يتكلمون، يكلم بعضهم بعضا".

عن قتادة وابن زيد: " {فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون}، أهل الجنة".

قال ابن كثير:"يخبر تعالى عن أهل الجنة أنه أقبل بعضهم على بعض يتساءلون، أي: عن أحوالهم، وكيف كانوا في الدنيا، وماذا كانوا يعانون فيها؟ وذلك من حديثهم على شرابهم، واجتماعهم في تنادمهم وعشرتهم في مجالسهم، وهم جلوس على السرر، والخدم بين أيديهم، يسعون ويجيئون بكل خير عظيم، من مآكل ومشارب وملابس، وغير ذلك مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر".

قال السعدي:"قوله: {فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ} وحذف المعمول، والمقام مقام لذة وسرور، فدل ذلك على أنهم يتساءلون بكل ما يلتذون بالتحدث به، والمسائل التي وقع فيها النزاع والإشكال. ومن المعلوم أن لذة أهل العلم بالتساؤل عن العلم، والبحث عنه، فوق اللذات الجارية في أحاديث الدنيا، فلهم من هذا النوع النصيب الوافر، ويحصل لهم من انكشاف الحقائق العلمية في الجنة ما لا يمكن التعبير عنه".

قوله تعالى: {قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ} [الصافات: ٥١]، أي:"قال قائل من أهل الجنة: لقد كان لي في الدنيا صاحب ملازم لي".

قال الطبري: يقول:"قال قائل من أهل الجنة إذ أقبل بعضهم على بعض يتساءلون: {إني كان لي قرين} ".

واختلف أهل التفسير في القرين الذي ذكر في هذا الموضع، على أقوال:

=

=

أحدها: أنه الشيطان كان يغويه فلا يطيعه، قاله مجاهد.

الثاني: شريك له كان يدعوه إلى الكفر فلا يجيبه، قاله ابن عباس.

قال ابن عباس:"هو الرجل المشرك يكون له الصاحب في الدنيا من أهل الإيمان، فيقول له المشرك: إنك لتصدق بأنك مبعوث من بعد الموت أئذا كنا ترابا؟ فلما أن صاروا إلى الآخرة وأدخل المؤمن الجنة، وأدخل المشرك النار، فاطلع المؤمن، فرأى صاحبه في سواء الجحيم: {قال تالله إن كدت لتردين} ".

وقال يحيى:"صاحب في الدنيا".

قال ابن كثير:"ولا تنافي بين كلام مجاهد، وابن عباس؛ فإن الشيطان يكون من الجن فيوسوس في النفس، ويكون من الإنس فيقول كلاما تسمعه الأذنان، وكلاهما متعاديان، قال الله تعالى: {يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا} [الأنعام: ١١٢] وكل منهما يوسوس، كما قال تعالى: {قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ مَلِكِ النَّاسِ إِلَهِ النَّاسِ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ} [الناس: ١ - ٦] ".

الثالث: ما رواه خصيف، عن فرات بن ثعلبة البهراني في قوله:"{إني كان لي قرين}، قال: إن رجلين كانا شريكين، فاجتمع لهما ثمانية آلاف دينار، وكان أحدهما له حرفة، والآخر ليس له حرفة، فقال الذي له حرفة للآخر: ليس لك حرفة، ما أراني إلا مفارقك ومقاسمك، فقاسمه وفارقه؛ ثم إن الرجل اشترى دارا بألف دينار كانت لملك قد مات فدعا صاحبه فأراه، فقال: كيف ترى هذه الدار ابتعتها بألف دينار؟ قال: ما أحسنها؛ فلما خرج قال: اللهم إن صاحبي هذا قد ابتاع هذه الدار بألف دينار، وإني أسألك دارا من دور الجنة، فتصدق بألف دينار؛ ثم مكث ما شاء الله أن يمكث، ثم إنه تزوج امرأة بألف دينار، فدعاه وصنع له طعاما؛ فلما أتاه قال: إني تزوجت هذه المرأة بألف دينار؛ قال: ما أحسن هذا؛ فلما

=

=

انصرف قال: يا رب إن صاحبي تزوج امرأة بألف دينار، وإني أسألك امرأة من الحور العين، فتصدق بألف دينار؛ ثم إنه مكث ما شاء الله أن يمكث، ثم اشترى بستانين بألفي دينار، ثم دعاه فأراه، فقال: إني ابتعت هذين البستانين، فقال: ما أحسن هذا؛ فلما خرج قال: يا رب إن صاحبي قد اشترى بساتين بألفي دينار، وأنا أسألك بستانين من الجنة، فتصدق بألفي دينار؛ ثم إن الملك أتاهما فتوفاهما؛ ثم انطلق بهذا المتصدق فأدخله دارا تعجبه، فإذا امرأة تطلع يضيء ما تحتها من حسنها، ثم أدخله بستانين، وشيئا الله به عليم، فقال عند ذلك: ما أشبه هذا برجل كان من أمره كذا وكذا. قال: فإنه ذاك، ولك هذا المنزل والبستانان والمرأة. قال: فإنه كان لي صاحب يقول: {أئنك لمن المصدقين}، قيل له: فإنه في الجحيم، قال: فهل أنتم مطلعون؟ فاطلع فرآه في سواء الجحيم، فقال عند ذلك: {تالله إن كدت لتردين ولولا نعمة ربي لكنت من المحضرين} .... الآيات".

قال الطبري:"وهذا التأويل الذي تأوله فرات بن ثعلبة يقوي قراءة من قرأ: «إنك لمن المصدقين»، بتشديد الصاد بمعنى: لمن المتصدقين، لأنه يذكر أن الله تعالى ذكره إنما أعطاه ما أعطاه على الصدقة لا على التصديق".

وقال حفص: "سألت إسماعيل السدي عن هذه الآية: {قال قائل منهم إني كان لي قرين. يقول أإنك لمن المصدقين}، قال: فقال لي: ما ذكرك هذا؟ قلت: قرأته آنفا فأحببت أن أسألك، عنه؟ فقال: أما فاحفظ، كان شريكان في بني إسرائيل، أحدهما مؤمن والآخر كافر، فافترقا على ستة آلاف دينار، كل واحد منهما ثلاثة آلاف دينار، فمكثا ما شاء الله أن يمكثا، ثم التقيا فقال الكافر للمؤمن: ما صنعت في مالك؟ أضربت به شيئا؟ أتجرت به في شيء؟ فقال له المؤمن: لا، فما صنعت أنت؟ فقال: اشتريت به أرضا ونخلا وثمارا وأنهارا. قال: فقال له المؤمن: أو فعلت؟ فقال: نعم. قال: فرجع المؤمن حتى إذا كان الليل صلى ما شاء الله أن

=

=

يصلي، فلما انصرف أخذ ألف دينار فوضعها بين يديه، ثم قال: اللهم إن فلانا يعني شريكه الكافر اشترى أرضا ونخلا وثمارا وأنهارا بألف دينار، ثم يموت غدا ويتركها، اللهم إني اشتريت منك بهذه الألف دينار أرضا ونخلا وثمارا في الجنة قال: ثم أصبح فقسمها في المساكين. قال: ثم مكثا ما شاء الله أن يمكثا ثم التقيا فقال الكافر للمؤمن: ما صنعت في مالك، أضربت به في شيء؟ أتجرت به في شيء؟ قال: لا، فما صنعت أنت. قال: كانت ضيعتي قد اشتد علي مؤنتها، فاشتريت رقيقا بألف دينار، يقومون بي فيها، ويعملون لي فيها فقال له المؤمن: أو فعلت؟ قال: نعم. قال: فرجع المؤمن حتى إذا كان الليل صلى ما شاء الله أن يصلي، فلما انصرف أخذ ألف دينار فوضعها بين يديه، ثم قال: اللهم إن فلانا يعني شريكه الكافر اشترى رقيقا من رقيق الدنيا بألف دينار، يموت غدا ويتركهم أو يموتون فيتركونه، اللهم وإني أشتري منك بهذه الألف الدينار رقيقا في الجنة ثم أصبح فقسمها في المساكين. قال: ثم مكثا ما شاء الله أن يمكثا، ثم التقيا فقال الكافر للمؤمن: ما صنعت في مالك؟ أضربت به في شيء؟ اتجرت به في شيء؟ قال: لا، فما صنعت أنت؟ قال: أمري كله قد تم إلا شيئا واحدا، فلانة قد مات، عنها زوجها فأصدقتها ألف دينار فجاءتني بها ومثلها معها. فقال له المؤمن: أو فعلت؟ قال: نعم: فرجع المؤمن حتى إذا كان الليل صلى ما شاء الله أن يصلي فلما انصرف أخذ الألف دينار الباقية، فوضعها بين يديه، وقال: «اللهم إن فلانا يعني شريكه الكافر- تزوج زوجة من أزواج الدنيا فيموت غدا فيتركها، أو تموت فتتركه، اللهم وإني أخطب إليك بهذه الألف الدينار حوراء عيناء في الجنة، ثم أصبح فقسمها بين المساكين. قال: فبقي المؤمن ليس، عنده شيء. قال: فلبس قميصا من قطن وكساء من صوف ثم أخذ مرا فجعله على رقبته، يعمل الشيء ويحفر الشيء بقوته. قال: فجاءه رجل فقال: يا عبد الله أتؤاجرني نفسك مشاهرة

=

=

شهرا بشهر تقوم على دواب لي تعلفها وتكنس سرقينها؟ قال: نعم: قال فواجره نفسه مشاهرة شهر بشهر، يقوم على دوابه قال: فكان صاحب الدواب يغدو كل يوم ينظر إلى دوابه، فإذا رأى منها دابة ضامرة، أخذ برأسه فوجأ، عنقه، ثم يقول له: سرقت شعير هذه البارحة؟ فلما رأى المؤمن هذه الشدة قال: لاتين شريكي الكافر فلأعملن في أرضه فيطعمني هذه الكسرة يوما، ويكسوني هذين الثوبين إذا بليا قال: فانطلق يريده فلما انتهى إلى بابه وهو ممس فإذا قصر مشيد في السماء، وإذا حوله البوابون فقال لهم: استأذنوا لي صاحب هذا القصر، فإنكم إذا فعلتم سره ذلك. فقالوا له: انطلق إن كنت صادقا فنم في ناحية، إذا أصبحت فتعرض له، قال: فانطلق المؤمن، فألقى نصف كسائه تحته، ونصفه فوقه، ثم نام فلما أصبح أتى شريكه فتعرض له، فخرج شريكه الكافر وهو راكب، فلما رآه عرفه فوقف عليه وسلم عليه وصافحه، ثم قال: ألم تأخذ من المال مثل ما أخذت؟ قال: بلى وهذه حالي وهذه حالك؟ قال: أخبرني ما صنعت في مالك؟ قال: لا تسألني، عنه. قال: فما جاء بك؟ قال: جئت أعمل في أرضك هذه، فتطعمني هذه الكسرة يوما بيوم، وتكسوني هذين الثوبين إذا بليا. قال: لا، ولكن أصنع بك ما هو خير من هذا، ولكن لا ترى مني خيرا حتى تخبرني ما صنعت في مالك؟ قال: أقرضته قال: من؟ قال: الملئ الوفي. قال: من؟ قال: الله ربي. قال وهو مصافحه، فانتزع يده من يده، ثم قال: أإنك لمن المصدقين. أإذا متنا وكنا ترابا وعظاما أإنا لمدينون، قال السدي: محاسبون قال: فانطلق الكافر وتركه. قال: فلما رآه المؤمن ليس يلوي عليه رجع وتركه، يعيش المؤمن في شدة من الزمان، ويعيش الكافر في رخاء من الزمان، قال: فإذا كان يوم القيامة وأدخل الله المؤمن الجنة يمر فإذا هو بأرض ونخل وثمار وأنهار، فيقول: لمن هذا؟ فيقال: هذا لك: فيقول: يا سبحان الله. أو بلغ من فضل عملي أن أثاب بمثل هذا؟! قال: ثم يمر فإذا هو برقيق لا تحصى =

=

عدتهم، فيقول: لمن هذا؟ فيقال: هؤلاء لك. فيقول: يا سبحان الله، أو بلغ من فضل عملي أن أثاب بمثل هذا؟! قال: ثم يمر فإذا هو بقبة من ياقوتة حمراء مجوفة، فيها حوراء عيناء، فيقول: لمن هذه؟ فيقال: هذه لك. فيقول: يا سبحان الله! أو بلغ من فضل عملي أن أثاب بمثل هذا؟! قال: ثم يذكر المؤمن شريكه الكافر فيقول: {إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ. يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ. أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ}، قال: فالجنة عالية، والنار هاوية، قال: فيريه الله شريكه في وسط الجحيم، من بين أهل النار، فإذا رآه المؤمن عرفه، فيقول: {تَاللهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ. وَلَوْلا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ. أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ. إِلا مَوْتَتَنَا الأولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ. إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ. لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ}، بمثل ما من عليه. قال: فيتذكر المؤمن ما مر عليه في الدنيا من الشدة فلا يذكر مما مر عليه في الدنيا من الشدة أشد عليه من الموت".

الثالث: أنهما اللذان في سورة الكهف: {واضرب لهم مثلًا رجلين}، إلى آخر قصتهما، فقال المؤمن منهما في الجنة للكافر في النار. قاله مقاتل.

قال مقاتل:"وذلك أن أخوين من بني إسرائيل اسم أحدهما فطرس والآخر سلخا ورث كل واحد منهما عن أبيه أربعة آلاف دينار، فأما أحدهما فأنفق ماله في طاعة الله- عز وجل-، والمشرك الآخر أنفق ماله في

معصية الله- عز وجل- ومعيشة الدنيا، وهما اللذان ذكرهما الله- عز وجل- فى سورة الكهف، فلما صارا إلى الآخرة أدخل المؤمن الجنة، وأدخل المشرك النار، فلما أدخل الجنة المؤمن ذكر أخاه، فقال لإخوانه من أهل الجنة: {إني كان لي قرين}، يعني: صاحب".

قوله تعالى: {يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ} [الصافات: ٥٣]، أي:"يقول: كيف تصدِّق بالبعث الذي هو في غاية الاستغراب؟ ".

=

=

قال مقاتل: "بالبعث".

قال يحيى:"على الاستفهام".

قال ابن كثير:"أي: أأنت تصدق بالبعث والنشور والحساب والجزاء؟! يعني: يقول ذلك على وجه التعجب والتكذيب والاستبعاد، والكفر والعناد ".

قوله تعالى: {أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ} [الصافات: ٥٣]، أي:"أإذا متنا وتمزقنا وصرنا ترابًا وعظامًا، نُبعث ونُحاسب ونُجازى بأعمالنا؟ ".

قال الطبري:"{أئنا لمدينون}، يقول: أإنا لمحاسبون ومجزيون بعد مصيرنا عظاما ولحومنا ترابا".

قال يحيى:"أي: لا نبعث ولا نحاسب وهما اللذان في سورة الكهف: {وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ} [الكهف: ٣٢]، إلى آخر قصتهما".

قال مقاتل: " يعنى: المحاسبين في أعمالنا".

قال السدي: يعني:"لمحاسبون".

عن ابن عباس، قوله، " {أئنا لمدينون}، يقول: أئنا لمجازون بالعمل، كما تدين تدان".

عن قتادة، قوله: " {أئنا لمدينون}: أئنا لمحاسبون".

قال أبو عبيدة: " أي: مجزيّون، يقال: دنته، أي: جزيته بكذا وكذا".

قال ابن قتيبة:"أي: مجزيون بأعمالنا. يقال: دنته بما صنع؛ أي جزيته".

قوله تعالى: {قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ} [الصافات: ٥٤].

قال ابن كثير:"أي: مشرفون. يقول المؤمن لأصحابه وجلسائه من أهل الجنة".

قال الطبري: " قال هذا المؤمن الذي أدخل الجنة لأصحابه: {هل أنتم مطلعون} في النار، لعلي أرى قريني الذي كان يقول لي: إنك لمن المصدقين بأنا مبعوثون بعد الممات".

=

=

قال مقاتل: " ثم قال المؤمن لإخوانه في الجنة: {هل أنتم مطلعون} إلى النار، فتنظرون منزلة أخي فردوا عليه أنت أعرف به منا، فاطلع أنت، ولأهل الجنة في منازلهم كوى فإذا شاءوا نظروا إلى أهل النار".

عن ابن عباس، قوله:"{هل أنتم مطلعون}، يقول: مطلعون إليه حتى أنظر إليه في النار".

قال قتادة:"سأل ربه أن يطلعه".

قوله تعالى: {فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ} [الصافات: ٥٥]، أي:"فنظر فأبصر صاحبه الكافر في وسط الجحيم يتلظى سعيرها".

قال مقاتل: " {فاطلع} المؤمن {فرآه} فرأى أخاه {في سواء}، يعني: في وسط الجحيم، أسود الوجه أزرق العينين مقرونا مع شيطانه في سلسلة".

قال الطبري: " يقول: فاطلع في النار فرآه في وسط الجحيم. وفي الكلام متروك استغني بدلالة الكلام عليه من ذكره، وهو فقالوا: نعم".

عن ابن عباس والحسن، قوله: " {في سواء الجحيم}، يعني: في وسط الجحيم".

عن قتادة، قوله: " {في سواء الجحيم}، وسطها".

وقال قتادة: " ذكر لنا أن كعب الأحبار رضي، عنه قال: في الجنة كوى. فإذا أراد أحد من أهلها أن ينظر إلى عدوه في النار اطلع فازداد شكرا".

قال أبو عبيدة: "سمعت عيسى ابن عمر، يقول: كنت وأنا شاب أقعد بالليل فأكتب حتى ينقطع سوائى، أي: وسطى".

قال مطرف بن عبد الله: "والله لولا أنه عرفه ما عرفه، لقد غيرت النار حبره وسبره".

=

=

عن قتادة، عن خليد العصري، قال: "لولا أن الله عرفه إياه ما عرفه، لقد تغير حبره وسبرة بعده، وذكر لنا أنه اطلع فرأى جماجم القوم، فقال: {تالله إن كدت لتردين ولولا نعمة ربي لكنت من المحضرين} ".

قال السدي:"كان ابن عباس يقرؤها: «هل أنتم مطلعونى فاطلع فرآه في سواء الجحيم»، قال: في وسط الجحيم".

قوله تعالى: {قَالَ تَاللهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ} [الصافات: ٥٦].

قال الطبري:"يقول: فلما رأى قرينه في النار قال: تالله إن كدت في الدنيا لتهلكني بصدك إياي عن الإيمان بالبعث والثواب والعقاب".

قال ابن كثير:"يقول المؤمن مخاطبا للكافر: والله إن كدت لتهلكني لو أطعتك".

قال أبو عبيدة:"أرديته: أهلكته، وردى هو، أي: هلك".

قال ابن قتيبة:"{إن كدت لتردين} أي لتهلكني. يقال: أرديت فلانا، أي أهلكته. و"الردى": الموت والهلاك".

قال الطبري:"يقال منه: أردى فلان فلانا: إذا أهلكه، وردي فلان: إذا هلك، كما قال الأعشى:

أفي الطوف خفت علي الردى... وكم من رد أهله لم يرم

يعني بقوله: «وكم من رد»: وكم من هالك".

قال يحيى: {لَتُرْدِينِ} :"لتباعدني من الله، يقوله المؤمن لصاحبه".

عن السدي، قوله: " {إن كدت لتردين} ، قال: لتهلكني".

وقال السدي:"يعني: تالله لقد كدت تغوين".

وفي قراءة عبد الله: «إن كدت لتغوين» ".

=

=

قوله تعالى: {وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ} [الصافات: ٥٧]، أي:"ولولا فضل ربي بهدايتي إلى الإيمان وتثبيتي عليه، لكنت من المحضرين في العذاب معك".

قال الطبري:"يقول: ولولا أن الله أنعم علي بهدايته، والتوفيق للإيمان بالبعث بعد الموت، لكنت من المحضرين معك في عذاب الله".

قال ابن كثير:"أي: ولولا فضل الله علي لكنت مثلك في سواء الجحيم حيث أنت، محضر معك في العذاب، ولكنه تفضل عليّ ورحمني فهداني للإيمان، وأرشدني إلى توحيده {وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللهُ} [الأعراف: ٤٣] ".

قال الفراء:"{لكنت من المحضرين}، أي: معك في النار محضرا".

قال الزجاج:"أي: أحضر العذاب كما أحضرت".

عن قتادة: " {لكنت من المحضرين}، أي: في عذاب الله".

عن السدي، قوله: " {لكنت من المحضرين}، قال: من المعذبين".

قوله تعالى: {أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ (٥٨) إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٥٩)} [الصافات: ٥٨ - ٥٩]، أي:"أحقًا أننا مخلَّدون منعَّمون، فما نحن بميتين إلا موتتنا الأولى في الدنيا، وما نحن بمعذَّبين بعد دخولنا الجنة؟ ".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره مخبرا عن قيل هذا المؤمن الذي أعطاه الله ما أعطاه من كرامته في جنته سرورا منه بما أعطاه فيها: أفما نحن بميتين غير موتتنا الأولى في الدنيا، وما نحن بمعذبين بعد دخولنا الجنة".

وفي تفسير قوله تعالى: {أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ (٥٨) إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٥٩)} [الصافات: ٥٨ - ٥٩]، وجوه:

أحدها: أنه إذا ذبح الموت، قال أهل الجنة: {أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ (٥٨) إلا مَوْتَتَنَا الأولَى} التي كانت في الدنيا {وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ}، فيقال لهم: لا، فعند ذلك

=

=

قالوا: {إِنَّ هَـذَا لَهُـوَ الْفَـوْزُ الْعَظِـيمُ}، فيقـول الله تعـالى: {لمثـل هـذا فليعمـل العاملون}، قاله ابن السائب.

قال ابن الجوزي:"وقيل: يقول ذلك للملائكة".

وروي عن عكرمة قال: "قال ابن عباس -رضي الله عنهما-، في قول الله تبارك وتعالى لأهل الجنة: {كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [الطور: ١٩]، قال ابن عباس، -رضي الله عنهما-: قوله: {هَنِيئًا}، أي: لا يموتون فيها. فعندها قالوا: {أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ. إِلا مَوْتَتَنَا الأولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ} ".

والثاني: أنه قول المؤمن لأصحابه، فقالوا له: إنك لا تموت، فقال: {إِنَّ هَـذَا لَهُـوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}، قاله مقاتل.

وقال مقاتل:"ثم أقبل المؤمن على أصحابه فقال: {أفما نحن بميتين}، عرف المؤمن أن كل نعيم معه الموت فليس بتام، {إلا موتتنا الأولى} التي كانت في الدنيا، {وما نحن بمعذبين} ".

وقال أبو سليمان الدمشقي: "إنما خاطب المؤمن أهل الجنة بهذا على طريق الفرح بدوام النعيم، لا على طريق الاستفهام، لأنه قد علم أنهم ليسوا بميتين، ولكن أعاد الكلام ليزداد بتكراره على سمعه سرورا".

والثالث: أنه قول المؤمن لقرينه الكافر على جهة التوبيخ بما كان ينكره، ذكره الثعلبي.

وقال الصابوني:"أي: هل لا تزال على اعتقادك بأننا لن نموت إلا موتةً واحدة، وأنه لا بعث ولا جزاء ولا حساب ولا عذاب؟ وهو أسلوب ساخر لاذع يظهر فيه التشفي من ذلك القرين الكافر، والتحدث بنعمة الله عليه".

=

=

قال ابن كثير:"قوله: {أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ. إِلا مَوْتَتَنَا الأولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ}، هذا من كلام المؤمن مغبطا نفسه بما أعطاه الله من الخلد في الجنة والإقامة في دار الكرامة، لا موت فيها ولا عذاب".

قوله تعالى: {إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [الصافات: ٦٠]، أي:"إنَّ ما نحن فيه من نعيم لهُوَ الظَّفَر العظيم".

قال الطبري:"يقول: إن هذا الذي أعطاناه الله من الكرامة في الجنة، أنا لا نعذب ولا نموت لهو النجاء العظيم مما كنا في الدنيا نحذر من عقاب الله، وإدراك ما كنا فيها، نؤمل بإيمانناً، وطاعتنا ربنا".

وقال مقاتل: " فقيل له: إنك لا تموت فيها، فقال عند ذلك: إن هذا لهو الفوز العظيم".

عن قتادة، قوله:"{أفما نحن بميتين} إلى قوله: {الفوز العظيم}، قال: هذا قول أهل الجنة".

قال الحسن البصري: "علموا أن كل نعيم بعد الموت يقطعه، فقالوا: {أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ. إِلا مَوْتَتَنَا الأولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ}، قيل: لا. قالوا: {إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} ".

قال السعدي:"فهل فوز يطلب فوقه؟ أم هو غاية الغايات، ونهاية النهايات، حيث حل عليهم رضا رب الأرض والسماوات، وفرحوا بقربه، وتنعموا بمعرفته واستروا برؤيته، وطربوا لكلامه؟ ".

قوله تعالى: {لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ (٦١)} [الصافات: ٦١].

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: لمثل هذا الذي أعطيت هؤلاء المؤمنين من الكرامة في الآخرة، فليعمل في الدنيا لأنفسهم العاملون، ليدركوا ما أدرك هؤلاء بطاعة ربهم".

=

=

قال السمعاني:"أي: لمثل هذا المنزل، ولمثل هذا النعيم، فليعمل العاملون".

قال البغوي:"أي: لمثل هذا المنزل ولمثل هذا النعيم الذي ذكره من قوله: {أولئك لهم رزق معلوم} إلى {فليعمل العاملون} ".

قال الفراء:"وهذا من قول الله".

قال القشيري:"يقال: بل الملائكة يقولون لهم هذا، ويقال: الحقّ- سبحانه- إذا أراهم مقامهم في الجنة يقول لهم: {لِمِثْلِ هذا فَلْيَعْمَلِ الْعامِلُون} ".

قال السعدي:"فهو أحق ما أنفقت فيه نفائس الأنفاس وأولى ما شمر إليه العارفون الأكياس، والحسرة كل الحسرة، أن يمضي على الحازم، وقت من أوقاته، وهو غير مشتغل بالعمل، الذي يقرب لهذه الدار، فكيف إذا كان يسير بخطاياه إلى دار البوار؟ ".

قال العثيمين: قوله تعالى: {فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٥٠)}.

سبق أن أهل الجنة على سرر متقابلين، لكن الإقبال هنا فسر بقوله: {يَتَسَاءَلُونَ (٥٠)} يعني: صار بعضهم يسأل بعضًا مع اتجاه بعضهم إلى بعض، كما هو الأدب في المخاطبة أنك إذا خاطبت شخصًا فلا تخاطبه إلا وأنت مقبل عليه، بجملتك، فهم كذلك {فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٥٠)} قال المصنف رحمه الله: [عمَّا مر بهم في الدنيا] وإن شئت فقل: يتساءلون عن كل أحوالهم في الدنيا وفي الآخرة؛ لأن الآية مطلقة، وما أطلقه الله فإنه لا ينبغي أن يقيد، ويكون ما ذكر من القصة مثلًا من الأمثال التي يتحدثون بها.

{قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ (٥١) يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ (٥٢)} يعني من جملة ما يتحدثون به ما يجري لبعضهم من محاولة صده عن سبيل الله تعالى وكفره بالله عز وجل.

=

{قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ} أي من أهل الجنة {إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ (٥١)} في الدنيا، لأن (كان) فعل ماضٍ {لِي قَرِينٌ (٥١)} قال المصنف: رحمه الله[صاحب ينكر البعث] هذا القرين هل هو قرين جني أو إنسي؟.

قيل: إنه جني، لقول الله تعالى: {وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ (٣٦)}. [الزخرف: ٣٦].

وقيل: إنه إنسي يعني يقارنه ويوسوس له، والآية تحتمل معنيين، والقاعدة عندنا في التفسير: أن الآية إذا كانت تحتمل معنيين لا ينافي أحدهما الآخر، ولا مرجح لأحدهما فإن الواجب حملها عليهما، ولا شك أن للإنس شياطين كما أن للجن شياطين، وأن شياطين الإنس يوسوسون كما يوسوس شياطين الجن، إذًا فالآية عامة، قرين إما من الإنس، أو من الجن، أو منهما جميعًا، وقول المصنف: [قرين صاحب] مشكل إذ كيف يكون المؤمن مصاحبًا لمشرك، لأن الواجب أن يكون بين المؤمنين والكافرين التباعد وعدم المصاحبة، لقول الله تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ} [المائدة: ٥١] ولقوله تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ}. [الممتحنة: ١].

لكن قيل: إن المراد بالقرين هنا هو الشريك في المال، أو سفر أو ما أشبه ذلك، وليس المراد بذلك الصحبة التي تستوجب الموالاة أو المحبة. يقول هذا القرين: {أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ (٥٢)}.

قال المصنف: [تبكيتًا] يعني يبكته ويلومه ويوبخه كيف تصدق بذلك؟

وقيل: بل يقول هذا نفيًا، وإنكارًا والآية تحتمل هذا وهذا، تحتمل أن هذا الفريق إذا عرض عليه المؤمن أن يؤمن بالبعث قال له هذا الكلام استبعادًا وإنكارًا له. ويحتمل أنه يبكته ويلومه ويوبخه على أن يصدق، يقول: {أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ

=

(٥٢)}. {أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ (٥٣)} مرَّ علينا أن مثل هذا الاستفهام المقرون بإن أو غيرها من أدوات التوكيد أنه استفهام يؤكد فيه المستفهم الإنكار، يقول: كيف تثبت وتصدق وتؤكد كذا وكذا مع أنه ليس بصحيح؟ ومنه قول أخوة يوسف: {أَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي} [يوسف: ٩٠] هذا {يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ (٥٢)} يعني كيف تصدق تصديقًا مؤكدًا بأن واللام في هذا الأمر البعيد المنكر؟ وقوله: [بالبعث] إنما قيّد المصنف ذلك بالبعث لقوله: {أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا} فيكون الذي خصص التصديق بالبعث قرينة السياق.

قوله {أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ (٥٣)}، أنكر ذلك أيضًا فانظر إلى هذا القرين المشؤوم -والعياذ بالله- الذي يبكّت ويوبخ وينكر هذا الأمر المؤكد الذي دل عليه الكتاب والسنة والعقل، فيقول كيف نبعث ونجازى بعد أن كنا ترابًا وعظامًا؟ ومناسبة الابتداء بالتراب قبل العظام؛ لأنه أبلغ في الحيلولة، أي بدأ بالأبعد فالأبعد فكونهم تراب أبعد من أن يخلقوا من كونهم عظامًا.

{قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ (٥٤)} يقول هذا الرجل لأصحابه الذين معه في الجنة: {هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ (٥٤)}. والاستفهام هنا للعرض يعني يعرض عليهم أن يطلعوا معه إلى هذا القرين، وإنما عرض عليهم ذلك من أجل أن يتبين قدر نعمة الله تعالى عليهم، لأن الإنسان إذا رأى هذا القرين الذي كان معه في الدنيا. يقول له ما ذكر، إذا رآه في النار وهو في أكمل النعيم لا شك أنه يزداد شكرًا لله عز وجل على نعمته إذ لو شاء لجعله مثله، لاسيما وأن هذا الرجل يحاول بكل ما يستطيع أن يصد هذا عن سبيل الله عز وجل، فيكون للاطلاع فائدة عظيمة، وهي معرفة قدر نعمة الله عليهم بهذا النعيم، وليس المراد بهذا الاطلاع الشماتة بهذا الرجل، لأنه لو كان المراد الشماتة لكان في هذا نوع فخر على هذا الرجل واستطالة، ولكن

=

=

المراد أن يعرفوا قدر نعمة الله عليهم، لأن الأشياء تتبين بضدها. {هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ (٥٤)}. قال المصنف رحمه الله: [فيقولون: لا]. أتى بهذا من قوله: {فَاطَّلَعَ} ولم يقل: فاطلعوا.

ولكن الجزم بأنهم قالوا: لا. فيه نظر، لاحتمال أنهم سكتوا، ولما علم أنه لا رغبة لهم في الاطلاع ذهب واطلع. ويحتمل أنهم مشوا معه ووقفوا ولكن لم يطلعوا، فلهذا لا ينبغي أن نجزم بأنهم قالوا: لا. لاسيما وأن المعروف من أدب أهل الجنة بعضهم مع بعض أنهم فوق هذا المستوى الذي يطلب منهم ويعرض عليهم عرضًا أن يطلعوا إلى هذا الرجل الذي كان يبكته وينكر البعث، لينظر ماذا فعل الله به؟ وما فعل الله بهذا المصدق حتى يتبين بذلك قدر نعمة الله عليه، وكمال حكمته بتعذيب هذا الرجل المنكر، يبعد أن يقولوا: لا، فإما أن يقال: إنهم قاموا واطلعوا، ولكنه لما كان هو المعني بهذا الأمر نسب الأمر إليه، فقال: {فَاطَّلَعَ}، ويحتمل أنهم قاموا معه ولم يطلعوا، بل وقفوا عند المكان الذي وقف عليه، ويحتمل أنهم سكتوا وعرف أنهم لا يريدون ذلك، ثم تقدم. المهم أن لا نجزم بهذا القول الذي قاله المصنف رحمه الله.

{فَاطَّلَعَ} قال المصنف رحمه الله: [ذلك القائل من بعض كوى الجنة]، كُوّة يعني أن هذا الرجل اطلع على هذا {فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ (٥٥)} رأى قرينه رؤية عين {فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ (٥٥)} أي وسط النار يعذب، ولهذا قال له: {تَاللهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ (٥٦) وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (٥٧)}.

قال المصنف: [قال له تشميتًا]، هذا ما ذهب إليه رحمه الله إنه قال ذلك يشمت به، ويحتمل أنه قال: تحدثًا بنعمة الله {تَاللهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ (٥٦)} ولكن الله منَّ عليَّ فلم تستطع أن ترديني، وهذا هو الأقرب، قوله: {تَاللهِ} هذا قسم بحرف التاء. والقسم هو: تأكيد الشيء بذكر معظم بصيغة مخصوصة، وكان القسم

=

=

تأكيدًا، لأن المقسم كأنه يقول بلسان حاله: إن منزله هذا عندي وقدره عندي أؤكد به ما أخبرت به إذا كان خبرًا، أو ما سأفعله إن كان إنشاء.

{قَالَ تَاللهِ إِنْ كِدْتَ} يقول المصنف: [إن مخففة من الثقيلة] أي فأصلها إنَّ، وهي تفيد التوكيد، وإنما قال مخففة من الثقيلة؛ لأن (إن) تأتي على أوجه متعددة:

و{كِدْتَ} قال المصنف رحمه الله: [قاربت]، لأن كاد تدل على المقاربة، فهي من أفعال المقاربة، وقد اشتهر عند النحويين أن نفيها إثبات، وإثباتها نفي.

فإذا قلت: كاد يفعل، فهذا إثبات لكنه يدل على أنه لم يفعل.

وإذا قلت: لم يكد يفعل كذا، فهذا نفي لكنه يدل على أنه فعل، لقوله تعالى: {فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ (٧١)}. [البقرة: ٧١]

لكن هذا الذي اشتهر ليس بصحيح، فهي كغيرها من الأفعال: إثباتها إثبات، ونفيها نفي. فإذا قلت: كاد يفعل كذا، فإنها إذا كانت بمعنى قارب تدل بمادتها على أنه لم يفعل، لأن من قارب الشيء لم يدخل فيه.

وعلى هذا فإثباتها إثبات.

فهي أثبتت المقاربة. والمقاربة تدل على عدم الفعل.

وأما لم يكد يفعل كذا، فهذه تدل أيضًا على انتفاء الفعل، وأنه ما قارب أن يفعل هذا الشيء، لكن إن وجد قرينة تدل على الفعل مثل: {فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ (٧١)} فالإثبات جاء من كلمة {فَذَبَحُوهَا} لا من كلمة {وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ (٧١)}.

ولهذا قال الله تعالي: {أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا} [النور: ٤٠] فهل نقول إنه يراها؟ لا، بل نقول لا يقارب أن يراها يعني هذه الظلمات العظيمة لو تضع يدك إلى جنب عينك ما رأيتها. فهذا القول المشهور ليس بصحيح، بل

=

=

نقول: إن (كاد) كغيرها من الأفعال إثباتها إثبات، ونفيها نفي، لكن معناها معنى قرب. قال: {إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ (٥٦)} (اللام) هذه للتوكيد، لكن يعبر عنها بعض النحويين بقولهم: اللام فارقة، أو اللام لام الفرق، يعنون بذلك أنها تفرق بين "إن" النافية وبين "إن" المخففة من الثقيلة؛ لأنها إذا جاءت بعد "إن" فإنها تدل على أنها مخففة من الثقيلة وليست بنافية؛ لأن النفي لا يؤكد باللام.

وهل تجب هذه اللام الفارقة في خبر "إن"؟

نقول في هذا تفصيل: إن كان المعنى واضحًا فإنها لا تجب، وإن كان المعنى خفيًّا فإنها تجب أي إن احتمل السياق أن تكون "إن" للنفي وجب الإتيان بها باللام الفارقة، وإن لم يكن يحتمل لم يجب.

فقول الشاعر:

وإن مالك كانت كرام المعادن هذه لم تأتِ بها اللام، لأن السياق يراد به مدح هؤلاء الجماعة أو هؤلاء القبيلة، والمدح لا يناسبه النفي، وإنما يناسبه الإثبات، لكن إذا قلت إن زيد قائم؛ وجب عليك الإتيان باللام فتقول: إن زيد لقائم لأنك لو لم تأتِ باللام لاحتمل أن يكون معنى قولك: إن زيد قائم. ما زيد قائم، ولهذا سماها بعض النحويين (لام الفرق) أو (اللام الفارقة).

ولهذا قال ابن مالك:

وخففت إن فقل العمل ... وتلزم اللام إذا ما تهمل

وربما استغنى عنها إن بدا ... ما ناطق أراده معتمدا

فبيّن رحمه الله أن اللام تلزم إذا أهملت، أما إذا أعملت فالأمر واضح.

وخلاصة هذه المسألة النحوية أن نقول: "إن" المخففة من الثقيلة تعمل ولكن عملها قليل، فإذا أهملت وجبت اللام في خبرها إلا إذا كان المعنى واضحًا. فإذا قلت: إن زيدًا قائمًا، لم تجب اللام، لأن إن النافية لا تنصب المبتدأ فالمعنى

=

=

واضح أنها مخففة. وإذا قلت: إن زيد قائم، وجب الإتيان باللام لأنك لو حذفتها احتمل أن يكون للنفي وأن يكون للإثبات.

وإذا كان الرجل يمتدح شخصًا ويقول: إن زيد كريم، فلا يحتاج إلى اللام لأن المدح يقتضي أن تكون "إن" مخففة من الثقيلة لا نافية والله أعلم.

قوله تعالى: {وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (٥٧)} لولا: حرف امتناع لوجود. إذا قلت: لولا زيد لقمت. امتنع القيام لوجود زيد. لأنها حرف امتناع لوجود.

{وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي} قلنا: إن لولا حرف امتناع لوجود. فالموجود النعمة، والممتنع: كونه من المحضرين.

قال أهل النحو: ولولا: خبر المبتدأ بعدها يحذف وجوبًا فى الغالب. قال ابن مالك: وبعد لولا غالبًا حذف الخبر حتم.

إذًا (نعمة) مبتدأ والخبر محذوف، وتقديره: ولولا نعمة ربي عليّ، أو كائنة أو ما أشبه ذلك.

{نِعْمَةُ رَبِّي} . النعمة: هي ما يكون بالإنعام، أي أثر إنعام الله عز وجل على العبد، وتنقسم إلى قسمين: نعمة عامة، ونعمة خاصة:

أما النعمة العامة فهي الشاملة لكل أحد من المؤمن والكافر، والبر والفاجر، فكل الناس يعيشون بنعمة الله عز وجل، وأما النعمة الخاصة فهرو التي أنعم الله بها على المؤمنين، ومنها قوله تعالى: {صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ} [الفاتحة: ٧] ثم هذه النعمة الخاصة أيضًا فيها ما هو أخص، وهي نعمة الله على الرسل -عليهم الصلاة والسلام-، ومنها قوله تعالى: {مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (٢)} [القلم: ٢] فإن هذه النعمة أخص النعم.

=

=

والنعمة في هذه الآية {وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي} من الخاصة؛ لأن نعمة الله العامة كائنة حتى على هذا القرين الرديء، ولكن هذه نعمة خاصة.

قال المصنف رحمه الله: [{وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي} عليَّ بالإيمان لكنت من المحضرين معك في النار]. اللام واقعة في جواب لولا، لأن (لكنت) هي جواب لولا، {لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (٥٧)} معك في النار. وإن شئت فقل: لكنت من المحضرين معك في العذاب، ليكون أشد، فإن العذاب أعم وأشد من عذاب النار، وإن كان من في النار فهو معذب -والعياذ بالله-.

قوله: {أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ (٥٨) إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَى} الهمزة في {أَفَمَا} للاستفهام، والفاء: عاطفة و (ما): نافية حجازية ترفع الاسم وتنصب الخبر، وهي هنا عاملة لتمام الشروط.

{أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ (٥٨)} هذا الاستفهام يقول المصنف: رحمه الله[هو استفهام تلذذ وتحدث بنعمة الله تعالى من تأبيد الحياة وعدم التعذيب]. أي: أنهم يتلذذون بانتفاء الموت عنهم، ولا شك أن انتفاء الموت والخلود والتأبيد من أكبر ما يسر به الإنسان. ولهذا جاء في الحديث: "أنه إذا كان يوم القيامة جيء بالموت على صورة كبش فيوقف بين الجنة والنار، وينادى هؤلاء وهؤلاء فيقال لهم: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم، هذا الموت، فيذبح، ويقال: يا أهل الجنة خلود ولا موت، ويا أهل النار خلود ولا موت، فيزداد أهل النار غمًّا إلى غمهم، ويزداد أهل الجنة فرحًا إلى فرحهم" لأنهم أمنوا من الموت، فهنا يتحدثون بهذه النعمة، وهي انتفاء الموت عنهم {أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ (٥٨)}.

{إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَى} هذا الاستثناء كقوله تعالى: {لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (٥٦)} [الدخان: ٥٦] وعلى هذا فالاستثناء منقطع، يعني لكن موتتنا الأولى حصلت وتمت في الدنيا.

=

وقوله: {وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٥٩)} معطوفة على: {أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ (٥٨)} أي: وكذلك ما نحن بمعذبين، فانتفى عنهم الموت المستلزم للتأبيد، والعذاب المستلزم للتنعيم.

{إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٦٠)}.

{إِنَّ هَذَا} المشار إليه ما ذكر من النعيم لأهل الجنة، ومنه انتفاء الموت والتعذيب {لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٦٠)}. اللام: مؤكدة وإن: مؤكدة وهو: ضمير فصل. وعلى هذه فتكون هذه الجملة مؤكدة بثلاث مؤكدات "إن"، و"اللام" و"ضمير الفصل" ثم إن المبتدأ والخبر كلاهما معرفة، فيدل على أن هذا الفوز فوز خاص بأهل الجنة. {إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ} الخاص على هذا الوجه هو الفوز العظيم، فإذا قيل: ما هو الفوز؟ قلنا: إن الفوز هو حصول المطلوب وزوال المرهوب.

وقوله: {الْعَظِيمُ (٦٠)} مأخوذ من العظمة، لأنه لا فوز أعظم من ذلك، قال الله تعالى: {فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ} [آل عمران: ١٨٥].

وبهذه المناسبة أنبه إلى أن ضمير الفصل له ثلاث فوائد:

١- التوكيد.

٢- الحصر.

٣- التمييز بين الخبر والصفة، لأنك إذا قلت مثلًا: (زيد فاضل) فإن الفاضل يحتمل أن تكون صفة وتكون خبرًا، فإذا قلت: (زيد هو الفاضل) تعين أن تكون خبرًا، وحصل بذلك التمييز بين الخبر والصفة، ثم قال عز وجل: {لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ (٦١)} لمثل هذا المشار إليه ما ذكر من النعيم، وقوله: {لِمِثْلِ هَذَا} قال بعضهم: إن (مثل) هنا زائدة أي: لهذا فليعمل.

وقيل: بل هي غير زائدة أصلية، وأن (مثل) يؤتى بها للتعظيم والمبالغة، فإذا كان الإنسان يطلب منه أن يعمل العمل لمثل هذا، فما بالك بنفس هذا.

=

يقولون: إن المثل ملحق بمثيله إلحاقًا، كالمشبه ملحق بالمشبه به. فمرتبة المشبه به أعلى من مرتبة المشبه.

المثيل الذي قيل هذا مثل هذا أعلى من مماثله، لأنك إذا قلت هذا مثل هذا، فقد ألحقت الأول بالثاني. فإذا قيل لمثل هذا وصار الإنسان مطلوبًا منه أن يعمل لمثل هذا الشيء، فطلبه أن يعمل لهذا الشيء نفسه من باب أولى. فيقولون: إن هذا من باب التوكيد، وهذا كقوله تعالى: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} . [الشورى: ١١].

فإن مثل ليست بزائدة، ولكنه جئ بها للمبالغة إذا كان مثله سبحانه وتعالى -لو فرض له مثل- لا يماثله شيء، فما بالك به هو نفسه؟ فيكون هذا من باب التوكيد.

إذًا: (لمثل هذا) نقول هذا من باب التوكيد والمبالغة أي: أن الإنسان مطلوب منه أن يعمل لمثل هذا، فكيف بنفس هذا الشيء، فتكون مثل على هذا ليست بزائدة، بل هي أصلية، وفائدتها، التوكيد والمبالغة. ولهذا يقال للشخص: مثلك لا يبخل، ويريدون هو لا يبخل لكن أتوا بمثل من باب المبالغة يعني إذا كان المتشبه بك لا يبخل فأنت: من باب أولى وأحرى، فمثل هذا التركيب في اللغة العربية يقصد به المبالغة وليس هناك زيادة.

إذا لمثل هذا الفوز العظيم النبيل والنعيم العظيم {فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ} و (الفاء) عاطفة و (اللام) لام الأمر.

وقوله: {فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ (٦١)} أى: بشرع الله فإن هذا لو تذهب فى النفوس والأنفاس والنفائس لكان ذلك رخيصًا فى جانب هذا الفوز العظيم. فالواحد منا يسعى جهده ليحصل الدرهم والدينار فيشبع فى بطنه، ويكسو به عورته، وينعم به بدنه ذلك النعيم الزائف الزائل، وتجده يسهر في الليل ويتعب فى النهار من أجل الوصول إلى هذا الغرض لكن ثواب الآخرة أعظم وأعظم ومع ذلك فعملنا قليل، وقد وبخنا الله عز وجل بقوله-: {بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (١٦) وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ

=

أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ (٦٢).

{أَذَلِكَ} الْمَذْكُور لَهُمْ {خَيْر نُزُلًا} وَهُوَ مَا يُعَدّ لِلنَّازِلِ مِنْ ضَيْف وَغَيْره {أَمْ شَجَرَة الزَّقُّوم} الْمُعَدَّة لِأَهْلِ النَّار وَهِيَ مِنْ أَخْبَث الشَّجَر الْمُرّ بِتُهَامَة يُنْبِتهَا الله فِي الْجَحِيم كما سيأتي.

إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ (٦٣).

{إِنَّا جَعَلْنَاهَا} بِذَلِكَ {فِتْنَة لِلظَّالِمِينَ} أَيْ الْكَافِرِينَ مِنْ أَهْل مَكَّة إِذْ قَالُوا النَّار تُحْرِق الشَّجَر فَكَيْفَ تُنْبِتهُ.

إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ (٦٤).

{إِنَّهَا شَجَرَة تَخْرُج فِي أَصْل الْجَحِيم} أَيْ قَعْر جَهَنَّم وَأَغْصَانهَا تَرْتَفِع إِلَى دَرَكَاتهَا.

طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ (٦٥).

{طلعها} المشبه بطلع النخل {كأنه رؤوس الشَّيَاطِين} الْحَيَّات الْقَبِيحَة

=

وَأَبْقَى (١٧)} [الأعلى: ١٦ – ١٧] فالذي ينبغي له العمل حقيقة بل الذي يجب على العاقل أن يعمل له هو ثواب الآخرة.

وهذه الآية {لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ (٦١)} كقوله تعالى {وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ (٢٦)} [المطففين: ٢٦] هذا هو محل التنافس، وهذا هو محل العمل، وهو الجدير بذلك.

{لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ (٦١)} قال المصنف رحمه الله: [قيل: يقال لهم ذلك، وقيل هم يقولونه] وعلى كل حال فسواء هم الذين يقولونه، أو يقال لهم فإنه يفيد أن هذا الجزاء وهذا النعيم، وهذا الفوز هو الذي ينبغي أن تفنى فيه النفوس والأنفاس والنفائس.

الْمَنْظَر.

فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ (٦٦).

{فَإِنَّهُمْ} أَيْ الْكُفَّار {لَآكِلُونَ مِنْهَا} مَعَ قُبْحهَا لشدة جوعهم {فمالئون منها البطون}.

ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ (٦٧).

{ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيم} أَيْ مَاء حَارّ يَشْرَبُونَهُ فَيَخْتَلِط بِالْمَأْكُولِ مِنْهَا فَيَصِير شَوْبًا لَهُ.

ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ (٦٨).

{ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعهمْ لَإِلَى الْجَحِيم} يُفِيد أَنَّهُمْ يَخْرُجُونَ مِنْهَا لِشُرْبِ الْحَمِيم وَأَنَّهُ خَارِجهَا.

إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ (٦٩).

{إنهم ألفوا} وجدوا {آباءهم ضالين}.

فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ (٧٠).

{فَهُمْ عَلَى آثَارهمْ يُهْرَعُونَ} يُزْعَجُونَ إِلَى اتِّبَاعهمْ فيسرعون إليه.

وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ (٧١).

{وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلهمْ أَكْثَر الْأَوَّلِينَ} مِنْ الْأُمَم الماضية.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ (٧٢).

{وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ} مِنْ الرُّسُل مُخَوِّفِينَ.

فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ (٧٣).

{فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَة الْمُنْذَرِينَ} الْكَافِرِينَ أَيْ عاقبتهم العذاب.

إِلَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ (٧٤).

{إِلَّا عِبَاد الله الْمُخْلَصِينَ} أَيْ الْمُؤْمِنِينَ فَإِنَّهُمْ نَجَوْا مِنْ الْعَذَاب لِإِخْلَاصِهِمْ فِي الْعِبَادَة أَوْ لِأَنَّ الله أَخْلَصَهُمْ لَهَا عَلَى قِرَاءَة فَتْح اللام[1].

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن قتادة في قوله: {أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ (٦٢)} حتى بلغ: {فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ}؛ قال: لما ذكر شجرة الزقوم؛ افتتن الظلمة، فقالوا: ينبئكم صاحبكم هذا أن في النار شجرة، والنار تأكل الشجرة؛ فأنزل الله ما تسمعون: {إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ (٦٤)} غذيت بالنار ومنها خلقت.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٣/ ٤٠ - ٤١): ثنا بشر العقدي ثنا يزيد بن زريع ثنا سعيد بن أبي عروبة عن قتادة به. وهذا مرسل صحيح الإسناد.

وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٧/ ٩٥) وزاد نسبته لعبد بن حميد وابن أبي حاتم.

وعن السدي؛ قال: قال أبو جهل لما نزلت: {أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ (٦٢)} قال: تعرفونها في كلام العرب، أنا آتيكم بها، فدعا جارية فقال: ايتني بتمر وزبد، فقال: دونكم تزقموا، فهذا الزقوم الذي يخوفكم به محمد؛ فأنزل الله تفسيرها: {أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ (٦٢) إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ (٦٣)}، قال: لأبي جهل وأصحابه.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٣/ ٤١) من طريق أسباط بن نصر عن السدي به.

وهذا سند ضعيف جدًا؛ فيه علتان:

الأولى: الإعضال.

الثانية: أسباط بن نصر؛ صدوق كثير الخطأ يغرب.

* قوله تعالى: {أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ (٦٢)} [الصافات: ٦٢].

=

قال الطبري: يقول:"أهذا الذي أعطيت هؤلاء المؤمنين الذين وصفت صفتهم من كرامتي في الجنة، ورزقتهم فيها من النعيم خير، أو ما أعددت لأهل النار من الزقوم".

قال يحيى:"أي: إنه خير نزلا من شجرة الزقوم".

قال ابن كثير:"يقول الله تعالى: أهذا الذي ذكره من نعيم الجنة وما فيها من مآكل ومشارب ومناكح وغير ذلك من الملاذ - خير ضيافة وعطاء {أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ}؟ أي: التي في جهنم، وقد يحتمل أن يكون المراد بذلك شجرة واحدة معينة، كما قال بعضهم من أنها شجرة تمتد فروعها إلى جميع محال جهنم كما أن شجرة طوبى ما من دار في الجنة إلا وفيها منها غصن، وقد يحتمل أن يكون المراد بذلك جنس شجر، يقال له: الزقوم، كقوله تعالى: {وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِلآكِلِينَ} [المؤمنون: ٢٠]، يعني الزيتونة.

ويؤيد ذلك قوله تعالى: {ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ. لآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ} [الواقعة: ٥١، ٥٢] ".

قال البيضاوي:"{شجرة الزقوم} شجرة ثمرها نزل أهل النار، وانتصاب {نزلا} على التمييز أو الحال، وفي ذكره دلالة على أن ما ذكر من النعيم لأهل الجنة بمنزلة ما يقام للنازل ولهم وراء ذلك ما تقصر عنه الأفهام، وكذلك الزقوم لأهل النار، وهو: اسم شجرة صغيرة الورق دفر مرة تكون بتهامة سميت به الشجرة الموصوفة".

قال يحيى: "بلغني أنها في الباب السادس وأنها تحيا بلهب النار كما يحيا شجركم ببرد الماء، قال: فلا بد لأهل النار من أن ينحدروا إليها، يعني: من كان فوقها، فيأكلون منها".

قوله تعالى: {إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ (٦٣)} [الصافات: ٦٣].

=

قال الطبري: " ذكر أن الله تعالى لما أنزل هذه الآية قال المشركون: كيف ينبت الشجر في النار، والنار تحرق الشجر؟ فقال الله: {إنا جعلناها فتنة للظالمين}، يعني: لهؤلاء المشركين الذين قالوا في ذلك ما قالوا".

قال ابن قتيبة: {فتنة للظالمين}، "أي: عذابا".

قال البيضاوي:"محنة وعذابا لهم في الآخرة، أو ابتلاء في الدنيا فإنهم لما سمعوا أنها في النار قالوا كيف ذلك والنار تحرق الشجر، ولم يعلموا أن من قدر على خلق حيوان يعيش في النار ويلتذ بها فهو أقدر على خلق الشجر في النار وحفظه من الإحراق".

قال ابن كثير:"معنى الآية: إنما أخبرناك يا محمد بشجرة الزقوم اختبارا تختبر به الناس، من يصدق منهم ممن يكذب، كقوله تعالى: {وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ
وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلا طُغْيَانًا كَبِيرًا} [الإسراء: ٦٠]. وقوله: {إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ}، أي: أصل منبتها في قرار النار، {طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ} تبشيع لها وتكريه لذكرها".

قال يحيى:"{للظالمين}: للمشركين".

عن مجاهد، قوله: " {إنا جعلناها فتنة للظالمين}، قال: قول أبي جهل: إنما الزقوم التمر والزبد أتزقمه".

قال مقاتل:"{إنا جعلناها}، يعني: الزقوم، {فتنة للظالمين}، يعنى: لمشركي مكة منهم عبد الله ابن الزبعري، وأبو جهل بن هشام، والملأ من قريش الذين مشوا إلى أبي طالب، وذلك أن ابن الزبعري قال: إن الزقوم بكلام اليمن التمر والزبد. فقال أبو جهل: يا جارية، ابغنا تمرا وزبدا، ثم قال لأصحابه: تزقموا من هذا الذي

=

=

يخوفنا به محمد. يزعم أن النار تنبت الشجر والنار تحرق الشجر، فكان الزقوم فتنة لهم".

قوله تعالى: {إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ} [الصافات: ٦٤]، أي:"إنها شجرة تنبت في قعر جهنم".

قال القرطبي:"أي: قعر النار ومنها منشؤها ثم هي متفرعة في جهنم".

قال السعدي:"فهذا مخرجها، ومعدنها أشر المعادن وأسوؤها، وشر المغرس، يدل على شر الغراس وخسته، ولهذا نبهنا الله على شرها بما ذكر أين تنبت به، وبما ذكر من صفة ثمرتها".

قوله تعالى: {طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ} [الصافات: ٦٥]، أي:"ثمرها قبيح المنظر كأنه رؤوس الشياطين".

قال قتادة:"أي: غذيت بالنار، ومنها خلقت".

قال الطبري: يقول:"كأن طلع هذه الشجرة، يعني شجرة الزقوم في قبحه وسماجته رءوس الشياطين في قبحها".

قال السعدي:"فلا تسأل بعد هذا عن طعمها، وما تفعل في أجوافهم وبطونهم، وليس لهم عنها مندوحة ولا معدل".

قال الماوردي:"يعني: بالطلع الثمر".

قال ابن قتيبة:"{طلعها}، أي: حملها. سمي طلعا لطلوعه في كل سنة".

قال ابن الجوزي:"{طلعها}، أي: ثمرها، وسمي طلعا، لطلوعة كأنه رؤس الشياطين".

قال البيضاوي:"{طلعها}: حملها مستعار من طلع التمر لمشاركته إياه في الشكل، أو الطلوع من الشجر. كأنه رؤس الشياطين في تناهي القبح والهول، وهو تشبيه بالمتخيل كتشبيه الفائق الحسن بالملك".

=

=

قال يحيى:"أي: ثمرتها، {كأنه رءوس الشياطين}، يقبحها بذلك".
قال ابن فورك:"قيل: لشجرة الزقوم ثمرة مرة خشنة منتنة الرائحة".
عن قتادة، قوله: " {طلعها كأنه رءوس الشياطين}، قال: شبهه بذلك".
عن وهب بن منبه، قوله:"{طلعها كأنه رؤس الشياطين}، قال: شعور الشياطين، قائمة إلى السماء".
وفي وجه تشبيه شجرة الزقوم برؤوس الشياطين، أقوال:
أحدها: أنه أراد الشياطين بأعيانها موصوفة بالقبح وإن كانت لا تُرى، والشيء إذا استقبح شبه بالشياطين، فيقال: كأنه شيطان، والشيطان لا يُرى ولكنه يُستشعر أنه أقبح ما يكون من الأشياء لو رُئي لرُئِي في أقبح صوره، قال امرؤ القيس:
أيقتُلني والمشرفيّ مضاجعي... ومسنونةٍ زُرقٍ كأنياب أغوال
فشبها بأنياب الأغوال وإن لم يرها الناس.
قال الزجاج:"ولم ير الغول قط ولا أنيابها ولكن التمثيل بما يستقبح أبلغ في باب المذكر، يمثل بالشيطان وفي باب ما يستقبح في المؤنث يشبه بالغول".
قال النحاس:"المقصود هو ما وقع عليه التعارف من المعاني فإذا قيل فلان شيطان فقد علم أن المعنى فلان قبيح خبيث ومنه قولهم تشيطن إذا تخبث".
قال ابن أبي زمنين:"الشيء إذا استقبح يقال: كأنه وجه شيطان، وكأنه رأس شيطان، والشيطان لا يرى، ولكنه يستشعر أنه أقبح ما يكون من الأشياء لو نظر إليه".
الثاني: أنه أراد رأس حية تسمى عندالعرب شيطانًا وهي قبيحة الرأس، وبها يضرب المثل في القبح، فشبه طلعها برءوس الحيات. ذكره الفراء، والزجاج.
قال الفراء:"العرب تسمي بعض الحيات شيطانا، وهو حية ذو عرف،، كما قال الشاعر وهو يذم امرأة له:

=

عنجرد تحلف حين أحلف... كمثل شيطان الحماط أعرف".

قال الواحدي:"عنجرد: سليطة وثَّابة، والحماط: شجر، وأعرف: ذو عرف. والعرب تقول إذا رأت منظرًا قبيحًا كأنه شيطان الحماطة".

الثالث: أنه أراد شجرًا يكون بين مكة واليمن يسمى: «رؤوس الشياطين»، قاله مقاتل، وابن السائب.

قال النحاس:"وقد قيل: هو نبت باليمن قبيح المنظر شبهت به يقال له: الأستن والشيطان، وليس ذلك بمعروف عند العرب".

قال الفراء:"والأوجه الثلاثة يذهب إلى معنى واحد في القبح".

قال ابن كثير:"وإنما شبهها برءوس الشياطين وإن لم تكن معروفة عند المخاطبين؛ لأنه قد استقر في النفوس أن الشياطين قبيحة المنظر. وقيل: المراد بذلك ضرب من الحيات، رءوسها بشعة المنظر، وقيل: جنس من النبات، طلعه في غاية الفحاشة.

وفي هذين الاحتمالين نظر، وقد ذكرهما ابن جرير، والأول أقوى وأولى، والله أعلم".

قال ابن فورك:"قيل: قد دل الله أنه سوء خلق الشياطين في النار حتى لو رآهم راء من العباد لاستوحش غاية؛ فلذلك شبه برءوسهم".

قال القشيري:"ذكر صفة هوان الأعداء، وما هم به من صفة المذلة والعذاب في النار من أكل الضريع، ومن شراب الزقوم التي هي في قبح صورة الشياطين".

في قراءة عبد الله: «إنها شجرة نابتة في أصل الجحيم».

قوله تعالى: {فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ} [الصافات: ٦٦]، أي:"فإن المشركين لآكلون من تلك الشجرة، فمالئون منها بطونهم".

=

قال الطبري: يقول:"فإن هؤلاء المشركين الذين جعل الله هذه الشجرة لهم فتنة، لآكلون من هذه الشجرة التي هي شجرة الزقوم، فمالئون من زقومها بطونهم".

قال البيضاوي:"{لآكلون منها}، من الشجرة أو من طلعها. {فمالؤن منها البطون}، لغلبة الجوع أو الجبر على أكلها".

قال ابن كثير:"ذكر تعالى أنهم يأكلون من هذه الشجرة التي لا أبشع منها، ولا أقبح من منظرها، مع ما هي عليه من سوء الطعم والريح والطبع، فإنهم ليضطرون إلى الأكل منها، لأنهم لا يجدون إلا إياها، وما في معناها، كما قال تعالى: {لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلا مِنْ ضَرِيعٍ. لا يُسْمِنُ وَلا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ} [الغاشية: ٦، ٧] ".

عن ابن عباس، رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية، وقال: "اتقوا الله حق تقاته، فلو أن قطرة من الزقوم قطرت في بحار الدنيا، لأفسدت على أهل الأرض معايشهم فكيف بمن يكون طعامه؟ ".

قوله تعالى: {ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ} [الصافات: ٦٧]، أي:"ثم إنهم بعد الأكل منها لشاربون شرابًا خليطًا قبيحًا حارًّا".

قال الطبري: يقول:"ثم إن لهؤلاء المشركين على ما يأكلون من هذه الشجرة شجرة الزقوم شوبا، وهو الخلط من الماء المحموم".

قال ابن قتيبة:"أي: خلطا من الماء الحار يشربونه عليها".

قال البيضاوي:"{ثم إن لهم عليها}، أي: بعد ما شبعوا منها وغلبهم العطش وطال استسقاؤهم، ويجوز أن يكون: {ثم} لما في شرابهم من مزيد الكراهة والبشاعة. {لشوبا من حميم}: لشرابا من غساق، أو صديد مشوبا بماء حميم يقطع أمعاءهم".

قال الماوردي:"يعني: لمزاجًا من حميم، و «الحميم»: الحار الداني من الإحراق، قال الشاعر:

=

=

كأن الحميم على متنها.... إذا اغترفته بأطساسها

جُمان يجول على فضة... عَلَتْه حدائد دوّاسها

ومنه سمي: القريب حميمًا، لقربه من القلب، وسمي المحموم لقرب حرارته من الإحراق، قال الشاعر:

أحم الله ذلك من لقاءٍ... آحاد آحاد في الشهر الحلال

أي: أدناه فيمزج لهم الزقوم بالحميم ليجمع لهم بين مرارة الزقوم وحرارة الحميم تغليظًا لعذابهم وتشديدًا لبلاتهم".

قال السدي:"الشوب: الخلط، وهو المزج".

عن قتادة، قوله: " {ثم إن لهم عليها لشوبا من حميم}، قال: مزاجا من حميم".

عن ابن عباس، قوله: " {ثم إن لهم عليها لشوبا من حميم}، يقول: لمزجا".

قال ابن عباس:"يعني: شرب الحميم على الزقوم".

قال يحيى:"{حميم}: وهو الماء الحار فيقطع أمعاءهم، كقوله: {وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا} [مُحَمَّد: ١٥]: حارا، {فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ} [مُحَمَّد: ١٥]، والحميم: الحار الذي لا يستطاع من حره".

عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ أنه كان يقول: «يقرب يعني إلى أهل النار- ماء فيتكرهه، فإذا أدنى منه شوى وجهه، ووقعت فروة رأسه فيه، فإذا شربه قطع أمعاءه حتى تخرج من دبره».

قال ابن زيد:"حميم يشاب لهم بغساق مما تغسق أعينهم، وصديد من قيحهم ودمائهم مما يخرج من أجسادهم".

قوله تعالى: {ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ} [الصافات: ٦٨]، أي:"ثم إن مردَّهم بعد هذا العذاب إلى عذاب النار".

قال الطبري: يقول:"ثم إن مآبهم ومصيرهم لإلى الجحيم".

=

=

قال البيضاوي: أي:"إلى دركاتها أو إلى نفسها، فإن الزقوم والحميم نزل يقدم إليهم قبل دخولهم، وقيل الحميم خارج عنها لقوله تعالى: هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون يطوفون بينها وبين حميم آن يوردون إليه كما تورد الإبل إلى الماء ثم يردون إلى الجحيم، ويؤيده أنه قرئ «ثم إن منقلبهم» ".

قال ابن كثير:"أي: ثم إن مردهم بعد هذا الفصل لإلى نار تتأجج، وجحيم تتوقد، وسعير تتوهج، فتارة في هذا وتارة في هذا، كما قال تعالى: {يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ} [الرحمن: ٤٤]. هكذا تلا قتادة هذه الآية عند هذه الآية، وهو تفسير حسن قوي".

قال قتادة:"فهم في عناء وعذاب من نار جهنم، وتلا هذه الآية: {يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ} [الرحمن: ٤٤] ".

وقال مقاتل:"{ثم إن مرجعهم}، بعد الزقوم وشرب الحميم {لإلى الجحي}، وذلك قوله- عز وجل-: {يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ} [الرحمن: ٤٤] ".

قال القرطبي:"قيل: إن هذا يدل على أنهم كانوا حين أكلوا الزقوم في عذاب غير النار ثم يردون إليها".

قال سعيد بن جبير:"إذا جاع أهل النار استغاثوا بشجرة الزقوم، فأكلوا منها فاختلست جلود وجوههم، فلو إن مارا يمر بهم يعرفهم لعرف وجوههم فيها، ثم يصب عليهم العطش، فيستغيثون فيغاثون بماء كالمهل. - وهو الذي قد انتهى حره- فإذا أدنوه من أفواههم اشتوى من حره لحوم وجوههم التي قد سقطت، عنها الجلود، ويصهر ما في بطونهم، فيمشون تسيل أمعاؤهم، وتتساقط جلودهم ثم يضربون بمقامع من حديد، فيسقط كل عضو على حياله، يدعون بالثبور".

قال السدي:"في قراءة عبد الله: «ثم إن منقلبهم لإلى الجحيم»، وكان عبد الله يقول: والذي نفسي بيده، لا ينتصف النهار يوم القيامة حتى يَقِيلَ أهلُ الجنة في

=

الجنة، وأهل النار في النار، ثم قال: {أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلا} ".

عن أبي عبيدة، قال: "قال عبد الله بن مسعود: لا ينتصف النهار حتى يقيل أهل الجنة وأهل النار ثم قرأ: {أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلا}، ثم قرأ: {إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ} [الصافات: ٦٨] ".

وقال الزمخشري:"فإن قلت: ما معنى حرف التراخي في قوله: {ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا}، وفي قوله: {ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ}،

قلت: في الأوّل وجهان:

أحدهما: أنهم يملئون البطون من شجر الزقوم، وهو حارّ يحرق بطونهم ويعطشهم، فلا يسقون إلا بعد ملىّ تعذيبا بذلك العطش، ثم يسقون ما هو احرّ وهو الشراب المشوب بالحميم.

والثاني: أنه ذكر الطعام بتلك الكراهة والبشاعة، ثم ذكر الشراب بما هو أكره وأبشع، فجاء بثم للدلالة على تراخى حال الشراب عن حال الطعام ومباينة صفته لصفته في الزيادة عليه.

ومعنى الثاني: أنهم يذهب بهم عن مقارّهم ومنازلهم في الجحيم، وهي الدركات التي أسكنوها إلى شجرة الزقوم، فيأكلون إلى أن يتملئوا، ويسقون بعد ذلك، ثم يرجعون إلى دركاتهم، ومعنى التراخي في ذلك بين".

قوله تعالى: {إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ} [الصافات: ٦٩]، أي:"إنهم وجدوا آباءهم على الشرك والضلال".

قال الطبري:"يقول: إن هؤلاء المشركين الذين إذا قيل لهم: قولوا لا إله إلا الله يستكبرون، وجدوا آباءهم ضلالا عن قصد السبيل، غير سالكين مَحَجَّة الحق".

=

قال ابن كثير:"أي: إنما جازيناهم بذلك لأنهم وجدوا آباءهم على الضلالة فاتبعوهم فيها بمجرد ذلك، من غير دليل ولا برهان".

عن أنس، قوله:"{إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ}، قال: وجدوا آباءهم".

قال يحيى:"{إِنَّهُمْ أَلْفَوْا} وجدوا، أدركوا".

قال مقاتل:"يقول: يسعون في مثل أعمال آبائهم".

قال القرطبي:"أي: صادفوهم كذلك فاقتدوا بهم".

عن مجاهد، قوله:"{إنهم ألفوا آباءهم ضالين}، قال جاهلين".

قال الزمخشري:"علل استحقاقهم للوقوع في تلك الشدائد كلها بتقليد الآباء في الدين، واتباعهم إياهم على الضلال، وترك اتباع الدليل. و «الإهراع»: الإسراع الشديد، كأنهم يحثون حثا".

قال البيضاوي:"الإهراع: الإسراع الشديد كأنهم يزعجون على الإسراع على آثارهم، وفيه إشعار بأنهم بادروا إلى ذلك من غير توقف على نظر وبحث".

قوله تعالى: {فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ} [الصافات: ٧٠]، أي:"فهم يُسرعون في اتباع خطاهم من غير دليل ولا برهان".

قال الطبري:"يقول: فهؤلاء يُسْرع بهم في طريقهم، ليقتفوا آثارهم وسنتهم؛ يقال منه: أهرع فلان: إذا سار سيرا حثيثا فيه شبه بالرعدة".

قال ابن قتيبة:"أي: يسرعون، و «الإهراع»: الإسراع، وفيه شبيه بالرعدة".

عن السديّ، قوله: " {يُهْرَعُونَ}، قال: يُسْرِعون".

قال ابن زيد:"يستعجلون إليه".

عن مجاهد:"{فهم على آثارهم يهرعون}، قال: كهيئة الهرولة".

عن قتادة:"{فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ}، أي: يُسرعون إسراعا في ذلك".

قال أبو عبيدة:"يستحثون من خلفهم ويعطف أوائلهم".

=

=

قال الكلبي: "يعملون مثل أعمالهم".

قوله تعالى: {وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ (٧١)} [الصافات: ٧١]

قال الطبري: يقول:"ولقد ضل يا محمد عن قصد السبيل ومَحجة الحق قبل مشركي قومك من قريش أكثر الأمم الخالية من قبلهم".

قال يحيى:"{ولقد ضل قبلهم}: قبل مشركي العرب. {أكثر الأولين}، كقوله: {كان أكثرهم مشركين} [الروم: ٤٢]".

قال الزمخشري:"{وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُم}، قبل قومك قريش".

قال السدي:"يعني: غوي قبلهم أكثر الأولين فكفروا".

قال ابن كثير:"يخبر تعالى عن الأمم الماضية أن أكثرهم كانوا ضالين يجعلون مع الله آلهة أخرى".

قوله تعالى: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ (٧٢)} [الصافات: ٧٢].

قال الطبري: "يقول: ولقد أرسلنا في الأمم التي خلت من قبل أمتك، ومن قبل قومك المكذبيك منذرين تنذرهم بأسنا على كفرهم بنا، فكذبوهم ولم يقبلوا منهم نصائحهم، فأحللنا بهم بأسنا وعقوبتنا".

قال مقاتل:"رسلا ينذرونهم العذاب".

قال يحيى:"في الذين قبلهم. {منذرين}، يعني: الرسل، أي: فكذبوهم".

قال الزمخشري:". {مُنْذِرِينَ} أنبياء حذروهم العواقب".

قال الشوكاني:"أي: أرسلنا في هؤلاء الأولين رسلا أنذروهم العذاب وبينوا لهم الحق فلم ينجع ذلك فيهم".

قال ابن كثير:"ذكر تعالى أنه أرسل فيهم منذرين، ينذرون بأس الله، ويحذرونهم سطوته ونقمته، ممن كفر به وعبد غيره".

=

=

قال الالوسي: أي:"أنبياء أنذروهم سوء عاقبة ما هم عليه من الباطل، وتكرير القسم لإبراز كمال الاعتناء بتحقيق مضمون كل من الجملتين".

قوله تعالى: {فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ (٧٣)} [الصافات: ٧٣].

قال الطبري: "يقول: فتأمل وتبين كيف كان غِبُّ أمر الذين أنذرتهم أنبياؤنا، وإلام صار أمرهم، وما الذي أعقبهم كفرهم بالله، ألم نهلكهم فنصيرهم للعباد عبرة ولمن بعدهم عظة؟ ".

قال الالوسي: أي:"من الهول والفظاعة لما لم يلتفتوا إلى الإنذار ولم يرفعوا إليه رأسا، والخطاب إما لسيد المخاطبين ﷺ أو لكل من يتأتى منه مشاهدة آثارهم، وحيث كان المعنى أنهم أهلكوا إهلاكا فظيعا".

قال الزمخشري:"{الْمُنْذَرِينَ}، الذين أنذروا وحذروا، أى أهلكوا جميعا".

قال الشوكاني:"أي: الذين أنذرتهم الرسل فإنهم صاروا إلى النار. قال مقاتل: يقول كان عاقبتهم العذاب، يحذر كفار مكة".

قال مقاتل:"فكذبوا الرسل فعذبهم الله- عز وجل- في الدنيا، يحذر كفار مكة لئلا يكذبوا محمدا- ﷺ- فينزل بهم العذاب في الدنيا".

قال الحسن:"كيف عذب الله قوم نوح، وقوم لوط، وقوم صالح، والأمم التي عذب الله".

قال يحيى:"كان عاقبتهم أن دمر الله عليهم ثم صيرهم إلى النار".

قال ابن كثير:"أي: تمادوا على مخالفة رسلهم وتكذيبهم. فأهلك المكذبين ودمرهم".

قوله تعالى: {إِلَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ (٧٤)} [الصافات: ٧٤]؟

قال الطبري:"يقول تعالى: فانظر كيف كان عاقبة المنذَرين، إلا عباد الله الذين أخلصناهم للإيمان بالله وبرسله".

=

=

قال ابن كثير:"ونجى المؤمنين ونصرهم وظفرهم".

قال البغوي: أي:"الموحدين نجوا من العذاب".

قال القرطبي:"أي: الذين استخلصهم الله من الكفر".

قال مقاتل:"ثم استثنى فقال- جل وعز-: {إلا عباد الله المخلصين}: الموحدين، فإنهم نجوا من العذاب بالتوحيد".

قال يحيى:"استثنى من آمن وصدق الرسل".

قال الزمخشري: أي:"الذين آمنوا منهم وأخلصوا دينهم لله، أو أخلصهم الله لدينه على القراءتين".

قال البيضاوي: أي:"إلا الذين تنبهوا بإنذارهم فأخلصوا دينهم لله، والمقصود خطاب قومه فإنهم أيضا سمعوا أخبارهم ورأوا آثارهم".

قال الشوكاني:"أي: إلا من أخلصهم الله بتوفيقهم إلى الإيمان والتوحيد، وقرئ «المخلصين»، بكسر اللام، أي: الذين أخلصوا لله طاعاتهم ولم يشوبوها بشيء مما يغيرها".

قال السعدي:"أي: الذين أخلصهم الله، وخصهم برحمته لإخلاصهم، فإن عواقبهم صارت حميدة".

قال الالوسي:"أي: الذين أخلصهم الله تعالى بتوفيقهم للإيمان والعمل بموجوب الإنذار".

عن السديّ، قوله: " {إِلا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ}، قال: الذين استخلصهم الله".

قال القاسمي:"فإنه تعالى نصرهم وجعل العاقبة لهم".

قال أبو العالية:"أسس الدين على الإخلاص لله وحده لا شريك له".

قال العثيمين: قوله تعالى: {أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ (٦٢)}.

=

=

الجواب: ذلك بلا شك، ولكنه ذكر إما على سبيل التهكم بمن تنعموا في الدنيا ونسوا نعيم الآخرة، وإلا فلا أحد يشكل عليه أن ذلك خير من شجرة الزقوم، وهو كقوله تعالى: {آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ (٥٩)} [النمل: ٥٩] فإنه من المعلوم لكل أحد أن الله خير، لكن هذا ذكر على سبيل التهكم بهؤلاء، وأن معبوداتهم ليس فيها خير إطلاقًا. {أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُزُلًا} {أَذَٰلِكَ خَيْرٌ} مبتدأ وخبر. {نُزُلًا} تميز؛ لأنها جاءت بعد اسم التفضيل، فإن خير اسم تفضيل، حذفت منها الهمزة لكثرة الاستعمال، وأصل خير "أخير"، مثل شر أصلها "أشر"، {نُزُلًا}. النزل: هو ما يعد للضيف من التكرمة: كالأكل والشرب والفراش والمسكن وما أشبه ذلك، {أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ (٦٢)} قال المصنف رحمه الله: [المعدّة لأهل النار، وهي من أخبث الشجر المرّ بتهامة، ينبتها الله في الجحيم كما سيأتي]. شجرة الزقوم: شجرة خبيثة المنظر، كريهة الرائحة، مرة الطعم، إن نظر إليها إنسان لم يسر بها، وإن تذوقها فهي مرة، وإن شمها فهي كريهة، فهي إذًا بشعة المذاق، كريهة الرائحة، مشوهة المنظر، ومع ذلك إذا وصلت إلى بطونهم فإنها لا تفيدهم شيئًا فهي لا تسمن ولا تغني من جوع، ومع ذلك فإنها تزيدهم التهابًا وعطشًا -والعياذ بالله- كما ذكر الله تعالى في آية أخرى.

وسميت شجرة الزقوم قال العلماء: لأنهم يتزقمونها تزقمًا، أي: يتجرعونها تجرعًا؛ لأنها كريهة، لكن يحملهم عليها الجوع -والعياذ بالله- فيظنون أن هذه تسمن أو تغني من الجوع، وهي لا تسمن ولا تغني من جوع، فيتزقمونها تزقمًا. والعياذ بالله.

قوله تعالى: {إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ (٦٣)} قال المصنف رحمه الله: [أي للكافرين من أهل مكة، إذ قالوا: النار تحرق الشجر فكيف تنبته].

=

=

شجرة الزقوم جعلها الله فتنة للظالمين أي اختبارًا يُختبرون بها، وفتنة أي سببًا للضلال، لأن الفتنة تطلق على الاختبار وتطلق على ما كان سببًا للضلال، {إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ} [البروج: ١٠] أي كانوا سببًا في إضلالهم، ويقول الله تعالى: {وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ} [الدخان: ١٧] أي اختبرناهم. أو إن شئت قل أضللناهم؛ لأن الله اختبر آل فرعون ولكنهم ضلوا -والعياذ بالله- فأضلهم الله.

{فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ (٦٣)} أي: اختبارًا لهم وسببًا لضلالهم، اختبارًا لهم لأنهم لو آمنوا لصدقوا ولم يعترضوا، وسببًا لضلالهم لأنها جعلتهم يتخذون من هذا طعنًا فيما أخبر به الرسول عليه الصلاة والسلام، يقولون: هذا محمد يزعم أن الأشجار تنبت في النار، والعادة أن النار تحرق الأشجار فكيف تنبت في النار؟! ومعلوم أن الجواب على هذا يسير بالنسبة لنا، نقول: إن الله على كل شيء قدير، وهي شجرة نارية توافق طبيعتها النار ولا تناقضها، قال الله عز وجل: {إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ (٦٣)} المراد بالظالمين هنا الكفار، ولا شك أن الكفر ظلم، قال تعالى: {إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣)} [لقمان: ١٣] ومعلوم أيضًا أن الظلم يختلف، فهو درجات متفاوتة عظيمة، منها ما يصل إلى الكفر، ومنها ما يصل إلى الفسق، ومنها ما هو دون ذلك.

سؤال: يقول بعض الناس: كيف يعذب الله إبليس وهو مخلوق من النار في النار؟.

الجواب أن يقال: إنّ مادته لم تجعله نارًا. كما أن مادة الطين لم تجعل الآدمي طينًا.

قوله تعالى: {إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ (٦٤)} هذه الجمل عن شجرة الزقوم بينها انقطاع بلاغي؛ لأن الاتصال هو العطف بالواو، وهنا كل جملة مستقلة، والحكمة من ذلك من أجل أن يعلم الإنسان عن هذه الشجرة من كل آية

=

=

بصفة مستقلة، كأن كل صفة مستقلة تغني عن بقية الصفات. فكونها فتنة للظالمين هذا من أعظم ما يكون من الأوصاف التي يخاف منها عند إنكار هذه الشجرة، {إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ (٦٤)} قال المصنف رحمه الله[أي: قعر جهنم وأغصانها ترتفع إلى دركاتها]، وهل هذه الشجرة واحدة للشخص، أو هي واحدة بالنوع والجنس؟

في ذلك احتمالان:

الأول: يحتمل أنها شجرة كبيرة تملأ النار كلها، ويتفرع منها أغصان في دركاتها كما هو ظاهر كلام المصنف.

الثاني: يحتمل أنها شجرة متعددة، لكن أفردت باعتبار نوعها، كما تقول -مثلًا- إذا شاهدت شجرة: هذه مذاقها مر، مذاقها حلو، مذاقها كذا، لا تريد هذه الشجرة الواحدة، بل تريد هذا الجنس وهذا النوع، فشجرة الزقوم يحتمل أنها شجرة واحدة قد ملأت النار بأغصانها والله على كل شيء قدير، وإلا فإن النار بعيدة القعر، كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: كنا مع النبي ﷺ فسمعنا وجبة فقال: "أتدرون ما هذا؟ " قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: "هذا حجر رمي به في النار حتى وصل إلى قعرها منذ سبعين خريفًا" يعني سبعين سنة وهو يهوي في النار ما وصل إلى قعرها، هذه الشجرة إذا قلنا: إنها واحدة وأن أغصانها ملأت دركات النار فالله على كل شيء قدير، وإن قلنا: إنها واحدة بالجنس والنوع فليس في ذلك إشكال.

يقول جل وعلا: {إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ (٦٤)} وما ظنك بهذه الشجرة النارية التي تخرج في أصل الجحيم، فيكون لمنبتها أثر فيها؛ لأن المنبت يؤثر على النابت، حتى إن النوع الواحد إذا غرس في هذه الأرض اختلف عما إذا غرس في أرض أخرى وهو نوع واحد، هذه الشجرة التي تخرج في أصل الجحيم

=

=

سوف يكون لمنبتها أثر فيها، ولهذا قال الله عز وجل {فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ (٦٤)} ولم يقل: في الجحيم، ليبين أنها عميقة الجذور -والعياذ بالله- في النار.

قوله تعالى: {طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ (٦٥)} قال المصنف رحمه الله: [المشبه بطلع النخل كأنه رؤوس الشياطين أي: الحيات القبيحة المنظر]، {طَلْعُهَا} يعني الثمر الذي يشبه طلع النخل كأنه رؤوس الشياطين، والشياطين جمع شيطان، وهل المراد الشيطان الحقيقي، أو المراد نوع من الحيات كما قال المصنف؟ إذا نظرنا إلى ظاهر اللفظ قلنا: إن المراد الشيطان الحقيقي، واحتمال أن يكون المراد نوع من الحيات قبيحة المنظر وارد، لأن السيئ من الحيوان قد يسمى شيطانًا، كما قال النبي عليه الصلاة والسلام: "الكلب الأسود شيطان" ولكن الواجب علينا إجراء القرآن على ظاهره، وأن نقول المراد بالشياطين: الشيطان المعروف، وإنما شبهت برؤوس الشياطين مع عدم رؤية الناس لها، لأن كل أحد يعرف أن ما ينسب إلى الشيطان فهو قبيح منفر، لا يركن إليه أحد، فالتشبيه هنا تشبيه بما يتخيل فكرًا، لا بما يعلم حسًّا، وعلى هذا فهو من أبلغ ما يكون من التشبيه في القبح ولا حاجة إلى أن نقول: إنها حيات، حتى لو قلنا بأنها حيات فهل هذه الحيات معلومة لكل أحد؟ إن حيات لا يعرفها إلا النادر من الناس لا ينفر الناس منها، بل إن المصنف لما قال: إنها حيات، هبطت قيمة هذا القبح في نفس الإنسان، لكن كأنها رؤوس الشياطين، يقشعر جسم الإنسان ويقف شعره عندما يسمع هذا التشبيه القبيح، وعلى هذا فالصحيح أن المراد بذلك رؤوس الشياطين الحقيقية، ولكنها شبهت بها للعلم بأنها قبيحة عند جميع الناس وأنها منفرة.

قوله تعالى: {فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ (٦٦)} {فَإِنَّهُمْ} أي: الكفار {لَآكِلُونَ مِنْهَا} مع قبحها لشدة جوعهم، الجملة هنا اسمية مؤكدة بـ (إنّ)

=

=

و (اللام) لإفادة أن أكلهم مستمر، لأن الجملة الاسمية تفيد الثبوت والاستمرار، وأكدت بـ (إنّ) و (اللام) للدلالة على أنهم يأكلون منها أكلًا مؤكدًا مع أنها قبيحة المنظر، كريهة الطعم والرائحة، لكن -والعياذ بالله- الجوع الشديد يضطرهم إلى أن يأكلوا منها قصرًا من غير شهوة ومن غير لذة، لكن لملء بطونهم فقط، وأكد أكلهم منها لئلا يقول قائل: إنها ما دامت على هذا الوصف فلن يأكل منها أحد، ومع ذلك فإن الإنسان لو كان في الدنيا ربما يفضل الموت على الأكل من هذا. لكن في النار يعذبون بالأكل فيها، ولهذا قال تعالى: {فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ (٦٦)} يعني: أنهم لا يشبعون ولا يقتصرون على الضرورة، وأنت عندما يعرض لك في الدنيا وأنت جائع جوعًا شديدًا لحم منتن لا تملأ منه البطن وإنما تأكل بقدر الضرورة فقط، لو حاولت أن تملأ بطنك أبت عليك نفسك، ولو أنك ملأته لأوشك أن تتقيأه، لكن في النار يعذبون بذلك فلا يأكلون بقدر الحاجة بل يملؤون بطونهم، يأكل ويقول: هات هات، كما أنهم يجبرون على شرب الحميم ويشربونه شرب الهيم، شرب الإبل الهائمة العطشى، وهذا من شدة عذابهم -والعياذ بالله- أن تصل بهم الحال إلى الجوع الشديد الذي يضطرهم إلى أكل هذه الشجرة الخبيثة يملؤون بطونهم منها، وإلى العطش الشديد الذي يضطرهم إلى شرب الحميم، وهو الماء الحار الذي لا يستفيدون منه، بل قد قال الله تعالى: {وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ (١٥)}. [محمد: ١٥] وقال عز وجل في اغتسالهم {يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ (١٩) يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ (٢٠)} [الحج: ١٩ - ٢٠] تصل حرارته إلى ما في البطون مع حيلولة بقية الجسم دونها لكن تصل الحرارة إلى ذلك، كما قال الله تعالى: {نَارُ اللهِ الْمُوقَدَةُ (٦) الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ (٧)} [الهمزة: ٦ - ٧] تصل إلى القلوب، نسأل الله السلامة، اللَّهم نجنا من النَّار.

=

يقول تعالى: {فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ (٦٦)} قوله: {الْبُطُونَ (٦٦)} "ال" هنا للعهد الذهني، ولا يمكن أن نقول: إن "ال" العهد الذكري لأنَّه؛ سبق ما يدل على البطن لأنَّ العهد الذكري لابد أن يتقدم نفس اللفظ، وهنا لم يتقدم اللفظ، لكن تقدم ما يدل عليه في قوله: {فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ} لأنَّه لا يأكل إلَّا من له بطن.

قوله تعالى: {فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا} هنا أكد الله عز وجل أنهم سيأكلون؛ لأنَّ المقام مقام استبعاد للأكل، فقد يستبعد الإنسان أن يأكل هؤلاء من هذه الشجرة التي تخرج في أصل الجحيم وطلعها كأنه رؤوس الشياطين. فأكد الله ذلك بـ (إن) و (اللام) وأتى أيضًا بالجملة الاسمية الدّالة على استمرار أكله.

٣- من فوائد الآية الكريمة: أن الله يعذب أهل النَّار بالأكل من هذه الشجرة بكونهم لا يشبعون، لقوله: {فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ (٥٣)} فلا يأكلون منها بقدر الضرورة كما يأكل المضطر من الميتة بقدر الضرورة، ولكن يأكلون أكلًا يملأ بطونهم، كلما فرغ البطن قليلًا أكلوا.

قوله تعالى: {ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ (٦٧)} (ثم): حرف عطف يدل على الترتيب والتراخي، مما يدل على أنهم إذا أكلوا عطشوا، وإذا عطشوا لا يأتيهم الماء في الحال، بل يأتيهم بعد مهلة بيّنها الله عز وجل بقوله: {وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ} [الكهف: ٢٩] فهم ليسوا إذا أكلوها وعطشوا بها أعطوا الماء بسرعة، بل يستغيثون ويدعون أن يأتيهم ماء يبرد عليهم لهيب العطش، ولكن إذا أعطوا هذا الماء يعطونه شوبًا من حميم، يعني: ماءً حارًّا حرارة عظيمة، والشوب: وهج النَّار. وهذا الوهج يبينه الله في الآية التي سقتها إذا قرب الماء من وجوههم ليشربوه شوى وجوههم -والعياذ بالله- شواها حتَّى إن لحومها لتتساقط من شدة حرارته، فإذا شربوه فإن أمعاءهم تستقبله لكنها تتقطع به {وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ (١٥)} [محمد: ١٥] كل هذا سيكون، ليس

=

خبر الأولين، ولهذا يجب علينا إذا قرأنا مثل هذه الآيات أن نشعر بأن هذا هو علم اليقين، وأنَّه سيكون حق اليقين، هذا الأمر بعد أن يعطشوا ويستغيثوا لا يغاثون بماء بارد ولا بماء عذب، بل بشوب من حميم أي: ماءً حارًا، فيشربونه فيختلط بالمأكول منها فيصير شوبًا له، فسر المصنف رحمه الله الشوب هنا بالخلط، ومنه شبت الماء باللبن أبي خلطه، وهو يصلح بهذا وهذا، فهو خلط، وهو أيضًا وهج حرارة هذا الحميم كل ذلك يكون، فالوهج يكون قبل الشرب، والشوب بعد الشرب.

{ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ (٦٨)} يعني ثم بعد ذلك مرجعهم إلى الجحيم، والجملة جملة اسمية لم يقل ثم يرجعون، بل قال: {ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ (٦٨)} مؤكدة بمؤكدين وهما: (إنّ) و (اللام)، وهذا التَّرتيب فيُه إشكال، فهل هو ترتيب ذكري أو هو معنوي؟ المصنف يرى أنَّه ترتيب معنوي؛ أي: أنهم يخرجون من النَّار لشرب الحميم، ويحتمل أن يكون ترتيبًا ذكريًّا يعني بعد أن ذكر الله عز وجل ما لهم من هذا العذاب بين أن مرجعهم في يوم القيامة إلى هذا الجحيم لا يرجعون إلى سواه. أما المصنف رحمه الله فيقول: [يفيد أنهم يخرجون منها لشرب الحميم وأنَّه خارجها]، وهذه الفائدة فائدة ضعيفة بالواقع، وكوننا نستفيد هذه الفائدة من هذه الجملة ليس بمتعين، والله عز وجل يقول: {وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ (٤٨)} [الحجر: ٤٨] فكيف يقال: إنهم يخرجون ويشربون الحميم ثم يردون، هذا بعيد جدًا، لكن إما أن نجعل التَّرتيب هنا للترتيب الذكري، أي: أن الله بعد أن ذكر أنواعًا من العقوبات لهم بين أن مآلهم إلى الجحيم الذي فيه هذه العقوبات.

والترتيب الذكري موجود في اللغة العربي، ومنه قول الشَّاعر:

إن من ساد ثم ساد أبوه ... ثم ساد من بعد ذلك جده

=

وسيادة الأب سابقة على سيادته، وسيادة الجد سابقة على سيادة الأب.

أو يقال: إنهم كما قال الله عنهم: {كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا} [السجدة: ٢٠] وأنهم يقربون من أبوابها ويسقون هذا الحميم فيقربون لتتطلع نفوسهم إلى الخروج، فيكون عندهم بعض الأمل، فإذا أمّلوا هذا الأمل ثم ردوا إلى أصل الجحيم صار هذا أشد عذابًا عليهم، لأن حصول اليأس بعد الأمل أشد من بقاء اليأس؛ لأن الأمل يرفع اليأس، وإذا أعيد إلى العذاب عاد اليأس، فكان أشد وقعًا.

أرأيت لو أن رجلًا مغلولًا بين يديك، وصرت تحاول فك عنقه، فإنه يفرح، لكن إذا عدت ثم شددته ربطًا وأتيت بغلٍّ آخر ازداد يأسًا وغمًّا إلى غمه، بعد أن رأى بصيص الأمل يعاد فيهان هؤلاء -والعياذ بالله- كلما أرادوا أن يخرجوا منها وحصل لهم بعض الأمل أعيدوا فيها، فيكون {ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ (٦٨)} أي: إلى أصل الجحيم الذي كانوا قد أملوا أن يخرجوا منه حين قربوا من أبوابها.

قوله تعالى: {إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ (٦٩) فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ (٧٠)} {إِنَّهُمْ} أي: هؤلاء الظالمين الذين يعذبون بهذا العذاب {أَلْفَوْا} أي: وجدوا آباءهم ضالين تائهين عن الحق، وألفى بمعنى وجد، ومنه قوله تعالى: {وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ} [يوسف: ٢٥] {وَأَلْفَيَا} وجدا سيدها.

{فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ (٧٠)} هم وجدوا آباءهم ضالين بعد أن قامت عليهم الحجة بضلال آبائهم، ولكن لم يتبعوا الحجة. قال: {فَهُمْ} يعني بعد أن وجدوا آباءهم ضالين -والعياذ بالله- هم {عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ (٧٠)} أي: يساقون ويزعجون، وهرع بمعنى عجّل وأسرع في الشيء، فهم على آثار آبائهم وعلى ما كانوا عليه من الشرك والظلم {يُهْرَعُونَ (٧٠)} أي: يساقون بشدة ويسرعون إلى

=

اقتفاء آثارهم، وقد جاءتهم الرسل بالحجة، ولكن قالوا: {إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ (٢٣)} [الزخرف: ٢٣] وفي الآية الأخرى: {وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ (٢٢)} [الزخرف: ٢٢] فهم علموا أن آباءهم ضالين، ومع ذلك بقوا على ما هم عليه، بل صاروا يسابقون ويتمسكون أشد بما كان عليه آباؤهم.

قوله تعالى: {وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ (٧١)} هذه الجملة مؤكدة بثلاثة مؤكدات: اللام، وقد، والقسم المقدر، ففي هذه الآية الكريمة تأكيد ضلال من خالف الرسل -عليهم الصَّلاة والسلام-، وفيها تسلية النَّبيُّ ﷺ؛ لأنَّ كل ما سبق فيه التحدث من أخبار قريش، فأراد الله عز وجل أن يسلي رسوله ﷺ بأن قومك ليسوا أول من ضل، بل قد ضل قبلهم أكثر الأولين.

وفيها تأكيد لخبر هؤلاء الأمم الماضية التي قد يشك في خبرها من يشك.

كما أن فيها أيضًا زيادة تهديد لهؤلاء المكذبين؛ لأنَّ الله تعالى قال: ({وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ (٧٢)} وأكد أيضًا هذه الجملة بالوجوه الثلاثة التي قد أشرنا إليها في قوله: {وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ (٧١)}.

وقوله: {ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ (٧١)} يعني لا كلهم، فإن من الأولين من اهتدى، ولكن أكثرهم ضل حتَّى قال رسول الله ﷺ حين عرضت عليه الأمم: "رأيت النَّبيُّ ومعه الرهط، والنبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي وليس معه أحد" وقوله: {أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ (٧١)} أي: السابقين، فكل من سبق هذه الأمة فإنَّه يعتبر من الأولين.

قوله تعالى: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ (٧٢)} هذه الجملة مؤكدة بما سبق بالقسم، واللام، وقد.

وقوله: {أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ (٧٢)} يعني رسلًا منذرين، كما قال الله تعالى: {رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ} [النساء: ١٦٥] لكنَّه هنا لم يذكر البشارة؛ لأنَّ المقام

=

مقام تهديد، فكان طي البشارة أنسب والاقتصار على الإنذار أنسب، فقال: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ (٧٢)} والرسول قال أهل العلم: الذي أوحي إليه بالشرع وأُمِرَ بتبليغه، فإن قلت: ماذا نصنع في قوله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ}؟ [الحج: ٥٢] حيث قال: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ} [الحج: ٥٢] فهو يقتضي أيضًا أن النَّبِيُّ وهو الذي أوحي إليه بالشرع ولم يؤمر بالتبليغ قد أرسل.

فالجواب: أن تقدير الآية: وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبأنا من نبي. فهو على حد قول الشَّاعر:

(علفتها تبنًا وماءً باردًا)

فالماء البارد لا يعلف ولكنه يسقى، وهو على تقدير: وسقيتها ماء باردًا.

ومن المعلوم أن حذف ما يعلم جائز، كما قال ابن مالك رحمه الله في ألفيته:

وحذف ما يعلم جائز كما ... تقول: زيد بعدما من عندكما.

{مُنْذِرِينَ (٧٢)} اسم فاعل من أنذر ينذر، والمنذر المخوف، أي مخوفين من خالف بالعقوبة وحرمان الثواب، فالرسل -عليهم الصَّلاة والسلام- كلهم ينذرون من خالفهم بالعقوبة، وحرمان الثواب، لأنَّ العاصي يحرم من ثواب الطاعة، إذ لو شاء لأحل محل المعصية طاعة، وكذلك يعاقب بما تقتضيه هذه المعصية.

قوله تعالى: {فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ (٧٣)} الخطاب هنا موجه لواحد مذكر فمن هو؟ أهو الرسول عليه الصلاة والسلام أم من يصح أن يوجه إليه الخطاب؟ الجواب: الثَّاني أعم. أي: فانظر أيها المخاطب، أو أيها السامع كيف كان عاقبة المنذرين، وهنا قال: {كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ (٧٣)} ولم يقل: (ماذا كان) أي: انظر إلى الكيفية وإلى الغاية.

=
لأنَّ من نظر إلى الكيفية نظر إلى الغاية، لو قال: ماذا كان عقابهم؟ لكان الجواب: الهلاك. لكن كيف عقابهم؟ انظر إليه: إلى الكيفية. {فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا} [العنكبوت: ٤٠] فانظر إلى كيفية العاقبة لتستفيد بهذا النظر شدة العقوبة وملاءمتها للذنب؛ لأنَّ الله قال: {فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ} [العنكبوت: ٤٠] أي: إن عقوبته ملائمة لذنبه، وأنت إذا تأملت هذا وجدت الأمر كما قال الله عز وجل، فمثلًا كانت عاد تفتخر بقوتها وتقول: من أشد منا قوة؟ فأهلكوا بألطف الأشياء وهي الرِّيح، أرسل الله عليهم ريحًا فدمرتهم، فأصبحوا لا يرى إلَّا مساكنهم، وكان فرعون يفتخر بالأنهار التي تجري من تحته، فأهلك بما كان يفتخر به وهو الماء، وهكذا كلما تأملت هلاك القوم المكذبين للرسل وجدت أن عقوبتهم مناسبة تمامًا لذنوبهم.
إذا (انظر كيف) أبلغ من (انظر ماذا كان عاقبتهم)، وجه ذلك أنَّها تدل على شدة الأخذ وعلى مناسبته للذنب، ثم إنك إذا نظرت إلى الكيفية ستنظر إلى العاقبة لكن إذا قيل: انظر إلى عاقبتهم، لم تأمر إلَّا بالنظر إلى عاقبتهم فقط.
وقوله: {كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ (٧٣)} الجملة هنا استفهامية ولكنها في محل نصب مفعول، (انظر)، وهذا النظر بالقلب، والغالب أن النظر بالعين يعدى بـ (إلى) فيقال: نظر إليه، وأن نظر القلب يكون متعديًا بنفسه. {قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [يونس: ١٠١] يعني بالقلوب، أما بالأعين فلا يفيد إذا لم يتأثر بذلك القلب.
وقوله: {كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ (٧٣)} المنذرين هنا اسم مفعول، الذين أنذروا وخوفوا، ولكن لم يخافوا ولم يؤثر فيهم الإنذار، فكيف كان عاقبتهم، قال
=

=

المصنف رحمه الله: [أي عاقبتهم العذاب]. يعني: أن العاقبة كانت وخيمة -والعياذ بالله-، عوقبوا بالعذاب المدمر المهلك.

ثم قال سبحانه وتعالى: {إِلَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ (٧٤)} فسرها المصنف: باسم الفاعل أي المؤمنين، إشارة إلى أن المخلص هنا اسم فاعل، لأنَّ المفسِّر يطابق المفسَّر فيقول: {إِلَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ (٧٤)} الاستثناء هنا منقطع؛ لأن ما بعده من غير جنس ما قبله. وإذا كان ما بعد إلَّا من غير جنس ما قبلها فهو استثناء منقطع، والاستثناء المنقطع يكون علامته أن يحل محل لكن، ولكن لماذا يؤتى بـ (إلا) بدل لكن؟ إشارة إلى قوة اتصال ما بعدها بما قبلها، فهي تفيد الاستدراك مع ارتباط ما قبلها بما بعدها، من حيث المعنى وإن كان هذا يختلف عن ذلك.

وقوله: {إِلَّا عِبَادَ اللهِ} المراد بالعبودية هنا الخاصة. بدليل قوله تعالى: {الْمُخْلَصِينَ (٧٤)}.

وسبق لنا قريبًا بيان أن العبودية تنقسم إلى عامة وخاصة. أي: المؤمنين، فإنهم نجوا من العذاب لإخلاصهم في العبادة. وهذا على قراءة كسر اللام، أو لأنَّ الله أخلصهم له على قراءة فتح اللام، فأفاد المصنف رحمه الله أن في الآية قراءتين:

المخلِصين والمخلَصين، لكن لم يصرح بهما، وإنما أتى بمضمونهما. ففي الآية قراءتان في {مخلِصين} لإخلاصهم لله، لأنهم أخلصوا القصد لله عز وجل رب العباد، إليه الوجه والعمل، فلم يلتفتوا إلى ما سوى الله، والإنسان المخلص لله الذي أخلص قلبه له يوفق وتكون عاداته عبادات؛ لأنَّه دائمًا مع الله ودائمًا يتفكر في آيات الله، ودائمًا يحب القرب من الله، فيسعى إلى أن يكون قوله وفعله وتركه كله لله عز وجل، وهذا في الحقيقة هو الرابح الذي ربح الوقت وربح العمر لم تضع عليه لحظة من اللحظات إلَّا وهو كاسب فيها، ولكن أكثر الناس في غفلة عن هذا الشيء، لم يخلصوا أنفسهم لله عز وجل، بل إن من الناس من قد تكون

=

وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ (٧٥).

{وَلَقَدْ نَادَانَا نُوح} بِقَوْلِهِ رَبّ إنِّي مَغْلُوب فَانْتَصِرْ {فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ} لَهُ نَحْنُ أَيْ دَعَانَا عَلَى قَوْمه فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِالْغَرَقِ.

وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (٧٦).

{وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْله مِنَ الْكَرْب الْعَظِيم} أَيْ الْغَرَق.

وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ (٧٧).

{وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّته هُمُ الْبَاقِينَ} فَالنَّاس كُلّهمْ مِنْ نَسْله عَلَيْهِ السَّلَام وَكَانَ لَهُ ثَلَاثَة أَوْلَاد سَام وَهُوَ أَبُو الْعَرَب وَالْفُرْس وَالرُّوم وَحَام وَهُوَ أَبُو السُّودَان ويافث وَهُوَ أَبُو التُّرْك وَالْخَزَر وَيَأْجُوج وَمَأْجُوج وَمَا هُنَالِكَ.

وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (٧٨).

{وَتَرَكْنَا} أَبْقَيْنَا {عَلَيْهِ} ثَنَاء حَسَنًا {فِي الْآخِرِينَ} مِنْ الْأَنْبِيَاء وَالْأُمَم إلَى يَوْم الْقِيَامَة.

=

العبادات في حقه عادات يقوم ويتوضأ ويصلي لأنَّ هذه عادته كأن هذه العبادات عمل يومي يقوم به، ولهذا لا نجدها تؤثر في القلب للغفلة الشديدة عن الإخلاص لله عز وجل، فهم مخلصون لله بالعبادة، وكذلك مخلصون أخلصهم الله، قال المصنف: رحمه الله[لها] أي: العبادة ولو قيل معنى أسمى من هذا لكان أولى، أخلصهم الله لنفسه واختصهم من بين سائر العباد. {وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ} [ص: ٤٧] الذين اصطفاهم الله وجعلهم صفوة عباده لنفسه، وهذا أبلغ في الثّناء مما قال المصنف رحمه الله من أن الله أخلصهم للعبادة، بل نقول: أخلصهم له من بين سائر العباد.

سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ (٧٩).

{سلام} منا {على نوح في العالمين}.

إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٨٠).

{إنا كذلك} كما جزيناهم {نجزي المحسنين}.

إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (٨١).

{إنه من عبادنا المؤمنين}.

ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ (٨٢).

{ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ} كُفَّار قَوْمه[1].

---

(١) قوله تعالى: {وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ} [الصافات: ٧٥].

قال يحيى بن سلام: "يعني: حيث دعا على قومه".

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: لقد نادانا نوح بمسألته إيانا هلاك قومه، فقال: {رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلا وَنَهَارًا فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلا فِرَارًا}... إلى قوله: {رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا} ".

قال النحاس: "{وَلَقَدْ نادانا نُوحٌ}، من النداء الذي هو استغاثة ودعاء".

قوله تعالى: {فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ} [الصافات: ٧٥]، أي: "فلنعم المجيبون له نحن".

قال الطبري: "يقول: فلنعم المجيبون كنا له إذ دعانا، فأجبنا له دعاءه، فأهلكنا قومه".

قال الزجاج: "المعنى: فلنعم المجيبون نحن".

قال الكسائي: "فلنعم المجيبون له كنا".

قال تاج القراء: "أي: فلنعم المجيبون نحن لمن دعانا".

=

=

قال يحيى:"أجبناه فأهلكناهم".

عن قتادة: " {وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ}، قال: أجابه الله".

قال الزمخشري:"{فلنعم المجيبون}، على التعظيم".

قال السمعاني:"وإنما قال: {المجيبون} على ما يقول الملوك والعظماء، ويخبرون عن أنفسهم بلفظ الجماعة".

قال القشيري:"فلنعم المجيب كان لنا ولنعم المجيبون كنّا له! ".

قوله تعالى: {وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (٧٦)} [الصافات: ٧٦]

قال الطبري:"{وَأَهْلَهُ}، يعني: أهل نوح الذين ركبوا معه السفينة، وقوله {مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ}، يقول: من الأذى والمكروه الذي كان فيه من الكافرين، ومن كرب الطُّوفان والغرق الذي هلك به قوم نوح".

قال الجصاص:"فسمى جميع من ضمه منزله وسفينته من أهله".

عن السديّ: {وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ}، قال: من الغرق"، وفي رواية:"من غرق الطوفان".

قال مقاتل:"{الْكَرْبِ الْعَظِيمِ}، الهول الشديد وهو الغرق".

قال الزجاج:"يعني: كرب الغرق الذي هو عذاب".

قال الواحدي:"الغم العظيم الذي لحق قومه، وهو الغرق".

قال ابن كثير:"{الْكَرْبِ الْعَظِيمِ}: هو التكذيب والأذى ".

قال ابن عطية:"ومن الْكَرْبِ تكذيب الكفرة وركوب الماء وهوله".

قال الرماني: "الْكَرْبِ: الحر الثقيل على القلب".

قوله تعالى: {وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ (٧٧)} [الصافات: ٧٧].

قال الطبري:"يقول: وجعلنا ذريّة نوح هم الذين بقوا في الأرض بعد مَهْلِك قومه، وذلك أن الناس كلهم من بعد مَهْلِك نوح إلى اليوم إنما هم ذرية نوح، فالعجم

=

=

والعرب أولاد سام بن نوح، والترك والصقالبة والخَزَر أولاد يافث بن نوح، والسودان أولاد حام بن نوح، وبذلك جاءت الآثار، وقالت العلماء".

قال مقاتل: يعني:"ولد نوح {هم الباقين}، وذلك أن أهل السفينة ماتوا ولم يكن لهم نسل غير ولد نوح وكان الناس من ولد نوح".

قال يحيى:"فالناس كلهم ولد سام، وحام، ويافث".

قال القشيري:"لأنّ الناس كلهم من أولاد نوح، فإنّ من كان معه في السفينة لم يتناسلوا".

قال الزجاج:"لما جاء الطوفان لم يبق ألا نوح وذرئته، والخلق الباقون من ذرئة نوح".

عن سَمُرة، عن النبي ﷺ، في قوله:" {وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ}، قال: «سام وحام ويافث» ".

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ولد نوح ثلاثة: سام، وحام، ويافث. فولد سام العرب وفارس والروم والخير فيهم، وولد يافث يأجوج ومأجوج، والترك والصقالبة ولا خير فيهم، وأما ولد حام فالقبط، والبربر، والسودان».

عن ابن عباس، قوله: " {وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ}، يقول: لم يبق إلا ذرية نوح".

قال قتادة:"فالناس كلهم من ذرية نوح".

عن سعيد بن المسيّب في قوله جلّ وعزّ: {وَجَعَلْنا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْباقِينَ} :"أنّ الناس كلّهم من ولد نوح ﷺ، وأنهم كلّهم من ثلاثة أولاد لنوح سام وحام ويافث فالعرب يعني يمنيها ونزارها والروم والفرس من ولد سام، والسودان يعني أجناسهم من السند والهند والزغاوة وغيرهم والبربر والقبط من ولد حام، والصقالب والترك ويأجوج ومأجوج من ولد يافث. والخير في ولد سام".

=

=

قوله تعالى: {وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (٧٨)} [الصافات: ٧٨].

قال الطبري: يعني:"وأبقينا على نوح ذكرا جميلا وثناء حسنا فيمن تأخَّر بعده من الناس يذكرونه به".

قال الزجاج:"أي: تركنا عليه الذكر الجميل إلى يوم القيامة، وذلك الذكر قوله: {سلام على نوح في العالمين} ".

قال الزمخشري:"أي: لقينا له ثناء حسنا وذكرا جميلا فيمن بعده من الأنبياء والأمم".

عن ابن عباس، قوله:"{وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِين}، يقول: يُذْكَر بخير".

قال السدي:"الثناء الحسن".

قال قتادة:"أبقى الله عليه الثناء الحسن في الآخرين".

وقال مجاهد:"جعلنا لسان صدق للأنبياء كُلِّهم".

قوله تعالى: {سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ (٧٩)} [الصافات: ٧٩].

قال السدي:"يعني: ما كان بعد نوح الثناء الحسن، يقال لنوح من بعده في الناس".

قال الطبري:"يقول: أمنة من الله لنوح في العالمين أن يذكره أحد بسوء".

قال الزجاج:"المعنى: تركنا عليه في الآخرين أن يصلى عليه إلى يوم القيامة".

قال السمعاني:"أي: السلامة له منا في العالمين، ويقال: السلام منا عليه في العالمين".

قال القرطبي:"أي: تركنا عليه ثناء حسنا سلاما، وقيل: {في آخرين}، أي: في أمة محمد ﷺ. وقيل: في الأنبياء إذ لم يبعث بعده نبي إلا أمر بالاقتداء به".

قال ابن عطية:"هذا جزاء ما صبر طويلا على أقوال الكفرة الفجرة".

قال ابن كثير:"قوله تعالى: {سَلامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ} مفسر لما أبقى عليه من الذكر الجميل والثناء الحسن أنه يسلم عليه في جميع الطوائف والأمم".

=

قال يحيى بن سلام:"«العالمين» -هاهنا- يعني: ما كان بعد نوح، يعني: الثَّناء الحَسَن، يقال لنوح من بعده في الناس".

قال البيضاوي:"{في العالمين}: متعلق بالجار والمجرور، ومعناه: الدعاء بثبوت هذه التحية في الملائكة والثقلين جميعا".

قال الشوكاني:"قيل: المراد بـ {الْآخِرِينَ} [الصافات: ٧٨]: أمة محمد ﷺ، و {فِي الْعَالَمِين} [الصافات: ٧٩] متعلق بما تعلق به الجار والمجرور الواقع خبرا، وهو على نوح، أي: سلام ثابت أو مستمر أو مستقر على نوح في العالمين من الملائكة والجن والإنس، وهذا يدل على عدم اختصاص ذلك بأمة محمد ﷺ".

وقرأ ابن مسعود: «سلامًا»، بالنصب".

قال سعيد بن المسيب: "وبلغني أنه من قال حين يسمي: {سلام على نوح في العالمين}، لم تلدغه عقرب".

قوله تعالى: {إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٨٠)} [الصافات: ٨٠].

قال الطبري: يقول: "إنا كما فعلنا بنوح مجازاة له على طاعتنا وصبره على أذى قومه في رضانا {وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ} وأبقينا عليه ثناء في الآخرين {كَذَلِكَ نَجْزِي} الذين يحسنون فيطيعوننا، وينتهون إلى أمرنا، ويصبرون على الأذى فينا".

قال تاج القراء:"أي: جزاء كذلك نجزي".

قال ابن عطية:"{كَذَلِكَ}: إشارة إلى إنعامه على نوح بالإجابة كما اقترح، وأثنى تعالى على نوح بالإحسان، لصبره على أذى قومه ومطاولته لهم وغير ذلك من عبادته وأفعاله ﷺ".

قال ابن كثير:"أي: هكذا نجزي من أحسن من العباد في طاعة الله، نجعل له لسانَ صدْق يذكر به بعده بحسب مرتبته في ذلك".

=

قال الشوكاني:"هذه الجملة تعليل لما قبلها من التكرمة لنوح بإجابة دعائه، وبقاء الثناء من الله عليه، وبقاء ذريته، أي: إنا كذلك نجزي من كان محسنا في أقواله وأفعاله راسخا في الإحسان معروفا به".

قال البيضاوي: قوله: {إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ} "تعليل لما فعل بنوح من التكرمة بأنه مجازاة له على إحسانه".

قال النسفي:"علل مجازاته بتلك التكرمة السنية بأنه كان محسنا".

قوله تعالى: {إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (٨١)} [الصافات: ٨١].

قال الطبري: " يقول: إن نوحا من عبادنا الذين آمنوا بنا، فوحدونا، وأخلصوا لنا العبادة، وأفردونا بالألوهة".

قال ابن كثير:"أي المصدقين الموحدين الموقنين".

قال الشوكاني:"هذا بيان لكونه من المحسنين وتعليل له بأنه كان عبدا مؤمنا مخلصا لله".

قال البيضاوي: قوله: {إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ} "تعليل لإحسانه بالإيمان إظهارا لجلالة قدره وأصالة أمره".

قال النسفي:"ثم علل كونه محسنا بأنه كان عبدا مؤمنا ليريك جلالة محل الإيمان وأنه القصارى من صفات المدح والتعظيم".

عن سعيد بن جبير، {المؤمنين}، يعني: المصدقين".

قوله تعالى: {ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ (٨٢)} [الصافات: ٨٢].

قال الطبري: يقول: " ثم أغرقنا حين نجَّينا نوحا وأهله من الكرب العظيم من بقي من قومه".

قال ابن كثير:"أي: أهلكناهم، فلم تبْق منهم عين تطرف، ولا ذكر لهم ولا عين ولا أثر، ولا يعرفون إلا بهذه الصفة القبيحة".

=

=

قال البيضاوي: " يعني: كفار قومه".

قال الشوكاني:"أي: الكفرة الذين لم يؤمنوا بالله ولا صدقوا نوحا".

قال يحيى:"يعني: من سوى الذين كانوا معه في السفينة".

قال قتادة:"أنجاه الله ومن معه في السفينة، وأغرق بقية قومه".

قال ابن عطية:"قوله تعالى: {ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ}، يقتضي أنه أغرق قوم نوح وأمته ومكذبيه، وليس في ذلك نص على أن الغرق عم جميع أهل الأرض، ولكن قد قالت جماعة من العلماء وأسندت أحاديث بأن الغرق عم جميع الناس إلا من كان معه في السفينة، وعلى هذا ترتب القول بأن الناس اليوم من ذريته، وقالوا لم يكن الناس حينئذ بهذه الكثرة لأن عهد آدم كان قريبا، وكانت دعوة نوح ونبوءته قد بلغت جميعهم لطول المدة واللبث فيهم فكان الجميع كفرة عبدة أوثان لم يثنهم الحق إلى نفسه فلذلك أغرق جميعهم".

قال العثيمين: قوله تعالى: {وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ (٧٥)} هذه الجملة كالتفصيل لقوله: {وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ (٧١)} فهنا شرع الله عز وجل يبين كيف كان هذا الضلال؟ ومتى كان؟ كان من أول رسول أرسله الله إلى أهل الأرض، وهو نوح -عليه الصَّلاة والسلام-، ونوح أول رسول أرسله الله إلى أهل الأرض بدليل الكتاب والسنة.

أما الكتاب فقوله تعالى: {إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ} [النساء: ١٦٣] إذا ليس هناك نبي مرسل قبل نوح عليه السلام.

وقوله تعالى: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ} [الحديد: ٢٦].

=

=

فإذا كانت النبوة والكتاب في ذريتهم، فليس قبل نوح أحد أوتي النبوة والكتاب، والمراد بالنبوة نبوة الرسالة، أم نبوة الوحي والعبادة فقد سبقت لآدم، فإن آدم نبي مكلم لكنَّه ليس نبيًّا مرسلًا.

وأمَّا من السنة فقد صح عن رسول الله ﷺ في حديث الشفاعة: "أن النَّاس يأتون إلى نوح ويقولون: أنت أول رسول أرسله الله إلى أهل الأرض".

فنوح عليه الصلاة والسلام هو أول الرسل ولبث في قومه ألف سنة إلَّا خمسين عامًا، يدعوهم ليلًا ونهارًا.

{قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا (٥) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا (٦)} [نوح: ٥ - ٦] يدعوهم سرًّا وعلنًا {ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا (٩)} [نوح: ٩] ولكنهم -والعياذ بالله- لا يزيدهم ذلك إلَّا نفورًا واستكبارًا مع قوة الرسالة والآيات العظيمة نكصوا واستكبروا، وما آمن معه إلَّا قليل، ولما رأى عليه الصلاة والسلام ما حصل من قومه وأيس منهم دعا عليهم:

{وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (٢٦) إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا (٢٧)} [نوح: ٢٦ - ٢٧].

وقال: {فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ (١٠)} [القمر: ١٠] فأجاب الله تعالى دعاءه، ولهذا قال: {وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ (٧٥)} فانتصر الله له وأجاب دعاءه، قال الله تعالى: {فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ (١١) وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (١٢)} [القمر: ١١ - ١٢] ماء ينزل من السماء، وماء ينبع ويفور من الأرض فورانًا عظيمًا، يشمل كل الأرض حتَّى التنور الذي هو موضع إيقاد النَّار صار يتفجر ماء، والسماء تهطل بماء منهمر عظيم، فالتقى الماء حتَّى بلغ قمم الجبال، ولم ينجُ منه أحد إلَّا من كان مؤمنًا فإنَّه

=

=

مع نوح عليه الصلاة والسلام في السفينة. ولهذا قال تعالى: {وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ (٧٥)}.

فنوح هو أول الرسل وآخرهم محمَّد ﷺ. قال الله تعالي: {مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ} [الأحزاب: ٤٠] ولم يقل: وخاتم المرسلين، مع قوله: {وَلَكِنْ رَسُولَ اللهِ} إشارة أنَّه لا يمكن أن يأتي بعده لا نبي ولا رسول.

الجملة: {وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ} مؤكدة بثلاثة مؤكدات كما سبق: القسم، واللام، وقد، ونقول في توجيه التوكيد ما قلناه فيما سبق.

وقوله: {فَلَنِعْمَ} الفاء: حرف عطف تفيد التَّرتيب والتّعقيب، واللام: موطئة للقسم، وتقدير الكلام: فوالله لنعم المجيبون.

والمجيبون: فاعل نعم، ونعم وبئس وشبههما. تحتاجان إلى فاعل وإلى مبتدأ لتكون جملتهما خبرًا عنه. هذا المبتدأ يسمى المخصوص. بالمدح أو بالذم.

فأين المخصوص في هذه الآية؟ يقول المصنف: رحمه الله (نحن) أي: فلنعم المجيبون نحن، وصدق ربنا عز وجل نعم المجيب: الله سبحانه وتعالى فإن إجابته ليست كإجابة غيره إجابة محققة، لكن بشرط أن تتم شروط الإجابة وأن تنتفي الموانع. فإن لم تتم شروط الإجابة فإنَّه لا يجيب عز وجل؛ لأنَّ إجابته كسائر أفعاله مبنية على الحكمة، والحكمة وضع الشيء في موضعه، فإذا تمت شروط الاستجابة صار للاستجابة محل فحلت الإجابة. وإذا لم تتم لم يكن للإجابة محل، فلم تتحقق الإجابة.

ولابد من انتفاء الموانع وسيأتي -إن شاء الله تعالى- ذكر هذه الشروط والموانع عند ذكر الفوائد، فالله تعالى أثنى على نفسه بأنه نعم المجيب وصدق الله العظيم،

=

=

فإنَّه تعالى نعم المجيب: يجيب عباده إذا اقتضت الحكمة ذلك بوجود الشروط وانتفاء الموانع.

{فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ (٧٥)} فهو قال المصنف رحمه الله[له نحن أي دعانا على قومه فأهلكناهم بالغرق]. دعا الله على قومه فأهلكهم بالغرق، فغرقوا عن آخرهم. وذكر أن النَّبيَّ ﷺ قال. "لو كان الله تعالى منجيًا أحدًا من الغرق لأنجى أم الصبي".

وأم الصبي امرأة كان معها صبي فلما رأت الماء يتزايد خافت على نفسها من الغرق، فلجأت إلى جبل فارتفع الماء حتَّى وصل إليها، ثم ارتفعت حتَّى وصلها الماء، ثم ارتفعت حتَّى وصلها الماء حتَّى بلغت قمة الجبل فوصلها الماء، فلما رأت الماء قد وصلها وألجمها رفعت الصبي فوق يدها لتغرق قبله، قال النَّبيُّ ﷺ فيما يذكر عنه: "لو رحم الله أحدًا لرحم أم الصبي" لأنَّ هذا من أبلغ ما يكون في الرحمة، أن تجعل موتها قبل موته، ترفعه على يديها حتَّى يدركها الغرق قبله.

فهؤلاء وغيرهم من الأمم لا ينفعهم الإيمان إذا رأوا البأس، وانظر إلى فرعون لما أدركه الغرق قال الله تعالى: {آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩٠)}. [يونس: ٩٠] لكن ما نفعه ذلك، قيل له: {آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ}. [يونس: ٩١] لم يكن أحد من الأمم نفعهم إيمانهم لما رأوا البأس {إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ (٩٨)}. [يونس: ٩٨] قال أهل العلم: والحكمة من ذلك: أن نبيهم خرج منهم مغاضبًا قبل أن يؤذن له، فلم تحق عليهم الكلمة لعدم تمام الإنذار في حقهم، فلهذا لما آمنوا كشف الله عذاب الخزي في الحياة الدُّنيا ومتعهم إلى حين، وسيجدون ما يستحقونه من العقوبة أو المثوبة.

=

قال الله عز وجل: {وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (٧٦)}. الأهل هنا هل نقول: المراد المؤمنون؟ أو نقول: إن الأهل هم خاصة الرجل، لأنَّ هناك فرقًا بين آل وأهل، آل: أتباع، وأهل: هم الخواص، خاصة الرجل كما قال الله تعالى: {إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ} [الأحزاب: ٣٣] أهل البيت الخاصة لا يشمل الأمة كلها. فهل نقول: المراد أهله الذين هم خاصته؟ هذا هو الأقرب من الآية، لكن في آيات أخرى تدل على أن الذي نجا هو ومن آمن معهم.

يستثنى من أهل نوح، ابنه الذي كفر به فإنَّه أدركه الغرق، ولما سأل نوح عليه الصلاة والسلام ربه قال: {رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ (٤٥) قَالَ يَانُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٤٦)}، [هود: ٤٥ - ٤٦] ويستثنى من ذلك امرأته كما قال الله تعالى في سورة التحريم. {ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا} [التحريم: ١٠] أي: بالكفر لا بالفاحشة والزنى، لأنَّه من المستحيل أن يجعل الله امرأة نبي تزني، لأنَّ الزنى خبث، وقد قال الله تعالى: {الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ} [النور: ٢٦] فخيانة امرأة نوح وامرأة لوط كانت بالكفر، والكفر قد يكون في امرأة النَّبيُّ وهو لا يعلم، ولهذا قال: {فَخَانَتَاهُمَا} يعني أخفت الكفر عن نوح وعن لوط -عليهما الصَّلاة والسلام-.

فـ (أهل) هنا ليس على عمومه، وإنَّما هو عام مخصوص، لأنَّ العام الذي أريد به الخاص لابد أن يكون معلومًا للمخاطب أنَّه لم يرد به إلَّا الخاص من أول الأمر، فأمَّا الشيء الذي لم يعلم إلَّا بنص آخر فإن هذا يسمى عامًا مخصوصًا.

{مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (٧٦)}.

=

الكرب: ضد السعة، والإنسان المكروب هو الذي أصابه ما يكرب به، ولا شيء أعظم من كرب الموت.

وهذا الكرب الذي أصاب قومه كرب عظيم؛ لأنَّه غرق يموت الإنسان وهو ينظر، وموت الإنسان بمرض يعلم أنَّه لا قدرة له على إزالته، لكن بالغرق يموت وهو يؤمل أن ينجو، ولهذا تجده بكلِّ قواه يحاول النجاة ولكن لا تحصل، فكأنه يموت ويقطعه الموت وهو ينظر إليه، فلهذا صار كربًا عظيمًا؛ لأنَّه بالغرق، ومثله الموت بالحرق بالنار فإن الإنسان يموت بأمر يشعر بنفسه أنَّه يستطيع التخلص منه، ولكن يعجز فيكون وقع الموت عليه أشد، {وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ (٧٧)} في الآية إشكال إعرابي، وهو أن الباقين منصوبة مع أنَّها بعد {هُمُ} وهم يكون مبتدأ، والمبتدأ خبره مرفوع، وجاءت منصوبة هنا لأن (هم) ضمير فصل، وضمير الفصل ليس له محل من الإعراب، وعلى هذا فتكون الباقين المفعول الثَّاني لجعلنا؛ لأنَّ جعلنا من أفعال التصيير، فهي بمعنى صيرنا وتنصب مفعولين: المفعول الأوَّل ذريته، والمفعول الثَّاني الباقين.

وقوله: {هُمُ الْبَاقِينَ (٧٧)} (هم): ضمير فصل، وضمير الفصل ليس له محل من الإعراب، لكن له محل من المعنى، فهو يميز بين الخبر والصفة، ويفيد التوكيد، ويفيد الحصر.

{ذُرِّيَّتَهُ} أي: نسله فقد جعل نسل نوح عليه الصلاة والسلام هم الباقين، ولهذا يقال: إن نوحًا عليه الصلاة والسلام هو الأب الثَّاني للبشرية، والأب الأوَّل آدم عليه الصلاة والسلام.

ويقال: إن إبراهيم عليه الصلاة والسلام أبو الأنبياء ولا يقال: أبو البشرية؛ لأنَّ البشر لم ينحصروا في ذرية إبراهيم عليه الصلاة والسلام لكنَّه أبو الأنبياء، لأنَّ الأنبياء من بعده كلهم من ذريته كما قال تعالى: {وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ

=

وَالْكِتَابَ} [الحديد: ٢٦] فما قبل إبراهيم عليه الصلاة والسلام من الأنبياء فهم من ذرية نوح عليه الصلاة والسلام؛ وما بعد إبراهيم عليه الصلاة والسلام من ذرية إبراهيم ونوح -عليهما الصَّلاة والسلام-؛ لأنَّ إبراهيم عليه الصلاة والسلام من ذرية نوح عليه الصلاة والسلام {وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ (٧٧)} قال المصنف: رحمه الله[فالناس كلهم من نسله عليه السلام وكان له ثلاثة أولاد: سام، وهو أبو العرب والفرس والروم، وحام: وهو أبو السودان، ويافث: وهو أبو الترك والخزر ويأجوج ومأجوج وما هنالك]. ما ذكره رحمه الله هو المشهور عند المؤرخين أن أولاد نوح عليه الصلاة والسلام كانوا ثلاثة: سام، وحام، ويافث، لكن لم يأتِ هذا بسنة صحيحة عن النَّبي ﷺ ولا في القرآن ما يدل على ذلك، فالأولى أن نقول: إن الناس بعد نوح من ذريته، وأمَّا هذا التقسيم فيحتاج إلى دليل، وليس هناك دليل من كتاب الله تعالى ولا سنة رسوله ﷺ على ذلك، والله سبحانه وتعالى ذكر أن الأمم السابقة لا يعلمهم إلا الله، فقال جل وعلا: {أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ} [إبراهيم: ٩] فإذا نفى الله علم أحد بهم إلَّا الله سبحانه وتعالى وجب أن يتلقى علمهم من الله سبحانه وتعالى لا من غيره، فنرجع إلى الوحي، وعلى هذا ما في كتب المؤرخين من أحوال الأمم الماضية إذا لم يكن عليه دليل من الكتاب والسنة فإنَّه مما يتوقف فيه، ولا يلزم به، كحديث بني إسرائيل، فهؤلاء الثلاثة الأبناء لنوح ممن يتوقف فيهم، ونحن لا يهمنا الباقون من أولاده ثلاثة أو ثلاثون، المهم أن نؤمن بما دل عليه كتاب الله وهو أن ذرية نوح هم الذين بقوا، وأمَّا من آمن معه فإما أنه ليس له ذرية أو قد يكون لهم ذرية ولكن لم تبق، فالله أعلم، ومن الجائز أن يكون له ابن ثم ينقطع نسله، فلا نعلم لكن الذي بقي نسله هو نوح.

=

{وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (٧٨)} يعني أبقينا له ثناء حسنًا، ولم يقل: تركنا له بل قال: {وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (٧٨)} إشارة إلى أن تركنا مضمنة معنى يناسب حرف الجر المذكور، فلابد أن يضمن تركنا معنى مناسب لعلى، والمعنى المناسب لعلى هو الثّناء، يعني: أثنينا عليه ثناءً متروكًا في الآخرين، وهو كذلك. فإن الله سبحانه وتعالى أثنى عليه ثناء من أفضل الثّناء، قال -عز وجل-: {ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا (٣)} [الإسراء: ٣] هذا ثناء أعظم ما يكون من الثّناء، وأشرف ما يكون من الفخر أن الله يصف واحدًا من بني آدم فيقول: {إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا (٣)} يعني: قائمًا بالعبودية، وقائمًا بالشكر، عليه الصلاة والسلام. فالله أبقى عليه ثناء حسنًا في الآخرين إلى آخر الأمم بل إلى يوم القيامة؛ لأنَّ هذا الكتاب سيبقى إلى أن يرفعه الله عند قرب قيام الساعة.

{فِي الْآخِرِينَ (٧٨)} [من الأنبياء والأمم إلى يوم القيامة]، والظاهر من الآيات الكريمة أن جميع الأنبياء الذين جاءوا من بعد نوح عليه الصلاة والسلام كان يذكر فيهم نوح بالثناء الحسن، فتكون الأنبياء كلهم والأمم يطرون نوحًا عليه الصلاة والسلام بما أثنى الله به عليه؛ لأنَّه مذكور في كل الكتب {سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ (٧٩)} (سلام) مبتدأ، ونُكِّر من أجل التعظيم أي: سلام عظيم، لأنَّه سلام من الله عز وجل، وهذا السَّلام معناه: أن الله سلَّمه من القوادح التي تقدح فيه، وحل محل هذه القوادح من البشر الثّناء من الله سبحانه وتعالى، فجمع الله له بين أمرين:

الثّناء، وبين تسليمه مما يقدح فيه، ولهذا نقول: {سَلَامٌ} بمعنى تسليم، أي: أن الله سلمه من كل ما يضره من القوادح التي تقدح فيه من بني آدم.

{فِي الْعَالَمِينَ (٧٩)}. المراد بالعالمين هنا: مَن بعد نوح لا مَن قبله فيما يظهر، وعلى هذا فيكون عامًّا يراد به الخاص.

=

=

{إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٨٠)} المراد بالجمع {إِنَّا} التعظيم، فإن الله واحد سبحانه وتعالى، ولكنه إذا ذكر اسمه بما يدل على الجمع فالمراد به التعظيم.

{كَذَلِكَ} أي: مثل هذا الجزاء نجزي {الْمُحْسِنِينَ (٨٠)} فكل من أحسن فإن الله سبحانه وتعالى يجزيه كما جزى نوحًا عليه الصلاة والسلام، وقد جزى الله نوحًا بأمرين: بما ترك عليه في الآخرين، وبما سلمه في العالمين. فكذلك من كان مؤمنًا بالله عز وجل، محسنًا في عبادته، وإلى عباده فإن الله تعالى يجزيه كما جزى نوحًا، ولذلك تجد أن الله تعالى وضع في قلوب الناس وألسنتهم الثّناء على أئمة المسلمين على الرغم من أن من النَّاس من يقدح فيهم، لأنَّ كل واحد من أهل الخير لابد أن يقدح فيه واحد من أهل الشر {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ} [الفرقان: ٣١] وكذلك كل من تمسك بهدي نبي فإن له عددًا من المجرمين بلا شك. لكن يقيض الله سبحانه وتعالى لهذا المؤمن من يبدل هذا القدح بالثناء، ومن يدفع هذا القدح. ولهذا قال عز وجل: {إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٨٠)} الذين أحسنوا، والإحسان ينقسم -كما تقدم- إلى قسمين:

١- إحسان في عبادة الله تعالى.

٢- إحسان إلى عباد الله تعالى.

فالإحسان في عبادة الله لا نفسره بأحسن من تفسير رسول الله ﷺ حيث قال: "الإحسان أن تعبد الله كأنَّك تراه، فإن لم تكن تراه فإنَّه يراك".

والعبادة في قوله: "أن تعبد الله كأنَّك تراه" عبادة طلب كأنَّك تراه، ومعلوم أن الله سبحانه وتعالى تشتاق إليه النفوس، فإذا كان يعبد الله كأنه يراه فسوف يلح في العبادة ليصل إلى محبوبه وهو الله عز وجل، "فإن لم تكن تراه" يعني إن لم تصل إلى هذه الدرجة وهي عبادة الرغبة والطلب، "فإنَّه يراك" فاعبده عبادة هرب وخوف منه، وهذا ليس كالأول؛ لأنَّ هذا يعبد الله خوفًا منه، والأول يعبده طمعًا،

=

وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ (٨٣).

=

فالمرتبة الأولى أكمل من المرتبة الثَّانية، ولهذا جعلها النَّبيُّ ﷺ في الدرجة الثَّانية، إن لم تكن تراه وتعبده كأنَّك تراه فإنَّه يراك. فإياك أن تخالفه أو تقع في معصيته. أما الإحسان إلى عباد الله فهو بذل المعروف إليهم بالمال والبدن والجاه، وبعضهم قال: هو بذل الندى، وكف الأذى، وطلاقة الوجه.

بذل الندى: يعني العطاء، وكف الأذى: ألا تؤذي أحدًا لا بقولك ولا فعلك، وطلاقة الوجه: ألا تقابل الناس بوجه عابس مكفهر، لأنَّ الإنسان مهما كان إذا لقي الناس بوجه عابس مكفهر فليس محسنًا إليهم، بل إن الله سبحانه وتعالى عاتب النَّبيُّ ﷺ وهو أفضل الخلق حين حصل له ما حصل مع عبد الله بن أم مكتوم، رضي الله عنه مع أن الرسول ﷺ حصل له ما حصل اجتهادًا منه، فقال الله تعالى في ذلك {عَبَسَ وَتَوَلَّى (١) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى (٣) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى (٤) أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى (٥) فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى (٦) وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى (٧) وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى (٨) وَهُوَ يَخْشَى (٩) فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى (١٠)} [عبس: ١ - ١٠] كلمات عظيمة لكنها مع ذلك خففها الله عز وجل بأن بدأها بضمير الغيبة فقال: {عَبَسَ} كأنما يتحدث عن شخص آخر لا عن الرسول ﷺ، ولم يقل: عبست وتوليت، لأنَّه كما مر علينا كثيرًا بأن المخاطب بصيغة الخطاب أعظم وأشد من التحدث بضمير الغيبة.

أما قولهم: الإحسان إلى عباد الله هو: بذل المعروف إليهم بالمال والبدن والجاه.

أما بالمال فظاهر، وبالبدن أن تخدمهم، ومع هذا إذا خدمت الإنسان وأعنته فأنت مأجور، كما قال الرسول ﷺ: "وتعين الرجل في دابته فتحمله عليها، أو ترفع له عليها متاعه صدقة". ومن البذل البدني: طلاقة الوجه؛ لأنَّها تتعلق بالبدن. أما الجاه بأن تنفع النَّاس بالتوسط والشفاعة فيما فيه الخير لهم ولك.

{وَإِنَّ مِنْ شِيعَته} أَيْ مِمَّنْ تَابَعَهُ فِي أَصْل الدِّين {لَإِبْرَاهِيم} وَإِنْ طَالَ الزَّمَان بَيْنهمَا وَهُوَ أَلْفَانِ وَسِتّمِائَةِ وَأَرْبَعُونَ سَنَة وَكَانَ بَيْنهمَا هود وصالح.

إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٤).

{إِذْ جَاءَ رَبّه} أَيْ تَابَعَهُ وَقْت مَجِيئِهِ {بِقَلْبٍ سَلِيم} مِنْ الشَّكّ وَغَيْره.

إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ (٨٥).

{إِذْ قَالَ} فِي هَذِهِ الْحَالَة الْمُسْتَمِرَّة لَهُ {لأبيه وقومه} موبخا {ماذا} ما الذي {تعبدون}.

أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللهِ تُرِيدُونَ (٨٦).

{أئفكا} فِي هَمْزَتَيْهِ مَا تَقَدَّمَ {آلِهَة دُون الله تُرِيدُونَ} وَإِفْكًا مَفْعُول لَهُ وَآلِهَة مَفْعُول بِهِ لِتُرِيدُونَ وَالْإِفْك أَسْوَأ الْكَذِب أَيْ أَتَعْبُدُونَ غَيْر الله.

فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٨٧).

{فَمَا ظَنّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ} إِذْ عَبَدْتُمْ غَيْره أَنَّهُ يَتْرُككُمْ بِلَا عِقَاب لَا وَكَانُوا نَجَّامِينَ فَخَرَجُوا إِلَى عِيد لَهُمْ وَتَرَكُوا طَعَامهمْ عِنْد أَصْنَامهمْ زَعَمُوا التَّبَرُّك عَلَيْهِ فَإِذَا رَجَعُوا أَكَلُوهُ وَقَالُوا لِلسَّيِّدِ إبْرَاهِيم اُخْرُجْ مَعَنَا.

فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ (٨٨).

{فَنَظَرَ نَظْرَة فِي النُّجُوم} إيهَامًا لَهُمْ أَنَّهُ يَعْتَمِد عَلَيْهَا لِيَعْتَمِدُوهُ.

فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ (٨٩).

{فَقَالَ إِنِّي سَقِيم} عَلِيل أَيْ سَأَسْقَمُ.

فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ (٩٠).

{فَتَوَلَّوْا عنه} إلى عيدهم {مدبرين}.

فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (٩١)

{فَرَاغَ} مَالَ فِي خُفْيَة {إِلَى آلِهَتهمْ} وَهِيَ الْأَصْنَام وَعِنْدهَا الطَّعَام {فَقَالَ} اسْتِهْزَاء {أَلَا تَأْكُلُونَ} فلم ينطقوا.

مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ (٩٢).

فَقَالَ {مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ} فَلَمْ يُجَبْ.

فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ (٩٣).

{فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ بِالْقُوَّةِ فَكَسَرَهَا فَبَلَغَ قَوْمه مِمَّنْ رَآهُ.

فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ (٩٤).

{فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ} أَيْ يُسْرِعُونَ الْمَشْي فَقَالُوا لَهُ نَحْنُ نَعْبُدهَا وَأَنْت تَكْسِرهَا.

قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ (٩٥).

{قَالَ} لَهُمْ مُوَبِّخًا {أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ} مِنْ الْحِجَارَة وَغَيْرهَا أَصْنَامًا.

وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ (٩٦).

{وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ} مِنْ نَحْتكُمْ وَمَنْحُوتكُمْ فَاعْبُدُوهُ وَحْده وَمَا مَصْدَرِيَّة وَقِيلَ مَوْصُولَة وَقِيلَ موصوفة.

قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ (٩٧).

{قالوا} بينهم {ابنوا له بنيانا} فاملأوه حَطَبًا وَأَضْرِمُوهُ بِالنَّارِ فَإِذَا الْتَهَبَ {فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيم} النَّار الشَّدِيدَة.

فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ (٩٨).

{فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا} بِإِلْقَائِهِ فِي النَّار لِتُهْلِكهُ {فَجَعَلْنَاهُمْ الْأَسْفَلِينَ} الْمَقْهُورِينَ فَخَرَجَ مِنْ النَّار سَالِمًا.

وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ (٩٩).

{وَقَالَ إِنِّي ذَاهِب إِلَى رَبِّي} مُهَاجِر إِلَيْهِ من دار الكفر {سيهدين} إِلَى حَيْثُ أَمَرَنِي رَبِّي بِالْمَصِيرِ إِلَيْهِ وَهُوَ الشَّام فَلَمَّا وَصَلَ إِلَى الْأَرْض الْمُقَدَّسَة قَالَ.

رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠٠).

{رَبّ هَبْ لِي} وَلَدًا {مِنَ الصَّالِحِينَ}.

فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ (١٠١).

{فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَام حَلِيم} أَيْ ذِي حِلْم كَثِير.

فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَابُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَاأَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢).

{فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْي} أَيْ أَنْ يَسْعَى مَعَهُ وَيُعِينهُ قِيلَ بَلَغَ سَبْع سِنِينَ وَقِيلَ ثَلَاث عَشْرَة سَنَة {قَالَ يَا بُنَيّ إِنِّي أَرَى} أَيْ رَأَيْت {فِي الْمَنَام أَنِّي أَذْبَحك} وَرُؤْيَا الْأَنْبِيَاء حَقّ وَأَفْعَالهمْ بِأَمْرِ الله تَعَالَى {فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى} مِنْ الرَّأْي شَاوَرَهُ لِيَأْنَس بِالذَّبْحِ وَيَنْقَاد لِلْأَمْرِ بِهِ {قَالَ يَا أَبَتِ} التَّاء عِوَض عَنْ يَاء الْإِضَافَة {افْعَلْ مَا تُؤْمَر} بِهِ {سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ الله مِنَ الصَّابِرِينَ} عَلَى ذَلِكَ.

فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١٠٣).

{فَلَمَّا أَسْلَمَا} خَضَعَا وَانْقَادَا لِأَمْرِ الله تَعَالَى {وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ} صَرَعَهُ عَلَيْهِ وَلِكُلِّ إِنْسَان جَبِينَانِ بَيْنهمَا الْجَبْهَة وَكَانَ ذَلِكَ بِمِنًى وَأَمَرَّ السِّكِّين عَلَى حَلْقه فَلَمْ تَعْمَل شَيْئًا بِمَانِعٍ مِنْ القدرة الإلهية.

وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَاإِبْرَاهِيمُ (١٠٤).

{وناديناه أن يا إبراهيم}.

قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٠٥).

{قَدْ صَدَّقْت الرُّؤْيَا} بِمَا أَتَيْت بِهِ مِمَّا أَمْكَنَك مِنْ أَمْر الذَّبْح أَيْ يَكْفِيك ذَلِكَ

فَجُمْلَة نَادَيْنَاهُ جَوَاب لِمَا بِزِيَادَةِ الْوَاو {إِنَّا كَذَلِكَ} كَمَا جَزَيْنَاك {نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ} لِأَنْفُسِهِمْ بِامْتِثَالِ الْأَمْر بِإِفْرَاجِ الشِّدَّة عَنْهُمْ.

إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (١٠٦).

{إِنَّ هَذَا} الذَّبْح الْمَأْمُور بِهِ {لَهُوَ الْبَلَاء الْمُبِين} أَيْ الِاخْتِبَار الظَّاهِر.

وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧).

{وَفَدَيْنَاهُ} أَيْ الْمَأْمُور بِذَبْحِهِ وَهُوَ إِسْمَاعِيل أَوْ إِسْحَاق قَوْلَانِ {بِذِبْحٍ} بِكَبْشٍ {عَظِيم} مِنْ الْجَنَّة وَهُوَ الَّذِي قَرَّبَهُ هَابِيل جَاءَ بِهِ جِبْرِيل عَلَيْهِ السَّلَام فَذَبَحَهُ السَّيِّد إِبْرَاهِيم مُكَبِّرًا.

وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٠٨).

{وَتَرَكْنَا} أَبْقَيْنَا {عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ} ثَنَاء حَسَنًا.

سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ (١٠٩).

{سلام} منا {على إبراهيم}.

كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١١٠).

{كذلك} كما جزيناه {نجزي المحسنين} لأنفسهم.

إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١١١).

{إنه من عبادنا المؤمنين}.

وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ (١١٢).

{وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ} اُسْتُدِلَّ بِذَلِكَ عَلَى أَنَّ الذَّبِيح غَيْره {نَبِيًّا} حَال مُقَدَّرَة أَيْ يُوجَد مُقَدَّرًا نبوته {من الصالحين}.

وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ (١١٣).

{وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ} بِتَكْثِيرِ ذُرِّيَّته {وَعَلَى إِسْحَاق} وَلَده بِجَعْلِنَا أَكْثَر الْأَنْبِيَاء مِنْ

نَسْله {وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِن} مُؤْمِن {وَظَالِم لِنَفْسِهِ} كَافِر {مُبِين} بَيِّن الْكُفْر(١).

---

(١)قوله تعالى: {وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ} [الصافات: ٨٣].

قال الطبري: يقول:"وإن من أشياع نوح على منهاجه وملته والله لإبراهيمَ خليل الرحمن".

وفي تفسير قوله تعالى: {مِنْ شِيعَتِهِ} [الصافات: ٨٣]، وجهان:

أحدهما: معناه: من أهل دينه، قاله ابن عباس، وقتادة، والسدي.

وقال قتادة:"على دينه وملته".

الثاني: على منهاجه وسنته، قاله مجاهد.

وفي أصل «الشيعة» -في اللغة-، قولان:

أحدهما: أنهم الأتباع. ومنه قول الشاعر:

قال الخليط غدًا تصدُّ عَنّا... أو شيعَه أفلا تشيعنا

قوله: أو شيعه، أي: اليوم الي يتبع غدًا، قاله ابن بحر.

الثاني: -وهو قول الأصمعي- الشيعة: الأعوان، وهو مأخوذ من الشياع وهو الحطب الصغار الذي يوضع مع الكبار حتى يستوقد لأنه يعين على الوقود.

ثم اختلف أهل التفسير في قوله تعالى: {وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ} [الصافات: ٨٣]، على قولين:

أحدهما: إن من شيعة محمد لإبراهيم عليهما السلام، قاله الكلبي، والفراء.

قال الفراء:"يقول: إن من شيعة محمد لإبراهيم ﷺ، يقول: على دينه ومنهاجه، فهو من شيعته، وإن كان إبراهيم سابقا له، وهذا مثل قوله: {وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ} [يس: ٤١]، أي: ذرية من هو منهم، فجعلها ذريتهم وقد سبقتهم".

=

=

وقال ابن عباس:"كل من كان على دين رجل فهو من شيعته، كل نبي من شيعة إبراهيم صاحبه، فإبراهيم من شيعة محمد، ومحمد من شيعة إبراهيم- عليهما السلام-".

الثاني: من شيعة نوح لإبراهيم، قاله مجاهد، ومقاتل.

قال ابن الجوزي:"الهاء في «شيعته» عائدة على نوح في قول الأكثرين".

قوله تعالى: {إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ} [الصافات: ٨٤]، أي:"حين جاء ربه بقلب بريء من كل اعتقاد باطل وخُلُق ذميم".

عن مجاهد، قوله:"{إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ}، قال: ليس فيه شك".

قوله تعالى: {إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ} [الصافات: ٨٥]، أي:"حين قال لأبيه وقومه منكرًا عليهم: ما الذي تعبدونه من دون الله؟ ".

قال الطبري:"يقول حين قال: يعني إبراهيم لأبيه وقومه: أي شيء تعبدون".

قوله تعالى: {أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللهِ تُرِيدُونَ} [الصافات: ٨٦]، أي:"أتريدون آلهة مختلَقَة تعبدونها وتتركون عبادة الله المستحق للعبادة وحده؟ ".

قال الطبري:"يقول: أكذبا معبودا غير الله تريدون؟ ".

قال ابن عطية:"{أَإِفْكًا}: استفهام بمعنى التقرير، أي: أكذبا ومحالا آلِهَةً دُونَ اللهِ تُرِيدُون".

عن قتادة:"{أئِفْكًا آلِهَةً}، قال: أكَذِبًا آلهة دون الله تريدون".

قوله تعالى: {فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ} [الصافات: ٨٧]، أي:"فما ظنكم برب العالمين أنه فاعل بكم إذا أشركتم به وعبدتم معه غيره؟ ".

قال الطبري:"يقول: فأي شيء تظنون أيها القوم أنه يصنع بكم إن لقيتموه وقد عبدتم غيره؟ ".

قال قتادة: يقول: إذا لقيتموه وقد عبدتم غيره".

=

=

قال ابن عطية:"توبيخ وتحذير وتوعد".
قوله تعالى: {فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ (٨٨) فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ (٨٩)} [الصافات: ٨٨ - ٨٩].

قال الطبري:"ذكر أن قومه كانوا أهل تنجيم، فرأى نجما قد طلع، فعصب رأسه وقال: إني مَطْعُون، وكان قومه يهربون من الطاعون، فأراد أن يتركوه في بيت آلهتهم، ويخرجوا عنه، ليخالفهم إليها فيكسرها".

قال الرازي: " وهاهنا سؤالان الأول: أن النظر في علم النجوم غير جائز فكيف أقدم عليه إبراهيم والثاني: أنه عليه السلام ما كان سقيما فلما قال إني سقيم كان ذلك كذبا، واعلم أن العلماء ذكروا في الجواب عنهما وجوها كثيرة الأول: أنه نظر نظرة في النجوم في أوقات الليل والنهار وكانت تأتيه سقامة كالحمى في بعض ساعات الليل والنهار، فنظر ليعرف هل هي في تلك الساعة وقال: إني سقيم فجعله عذرا في تخلفه عن العيد الذي لهم وكان صادقا فيما قال، لأن السقم كان يأتيه في ذلك الوقت، وإنما تخلف لأجل تكسير أصنامهم الوجه الثاني: في الجواب أن قوم إبراهيم عليه السلام كانوا أصحاب النجوم يعظمونها ويقضون بها على غائب الأمور، فلذلك نظر إبراهيم في النجوم أي في علوم النجوم وفي معانيه لا أنه نظر بعينه إليها، وهو كما يقال فلان نظر في الفقه وفي النحو وإنما أراد أن يوهمهم أنه يعلم ما يعلمون ويتعرف من حيث يتعرفون حتى إذا قال: إني سقيم سكنوا إلى قوله....".

وفي قوله تعالى: {فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ} [الصافات: ٨٨]، وجوه من التفسير:
أحدها: أنها كلمة من كلام العرب إذا تفكر الرجل في أمره وتدبر ماذا يفعل، قالوا: قد نظر في النجوم، قاله قتادة، والخليل، والمبرد.
وثم في معناه وجهان:

=

=

الوجه الاول: معناه: فنظر فيما نجم من الأشياء فعلم أن لها خالقا ومدبرا، وأنه يتغير كتغيرها. حكاه القرطبي.

الوجه الثاني: معناه: أنه نظر فيما نجم من قولهم، أي: ظهر، وذلك أنهم لما كلفوه أن يخرج معهم تفكر نبي الله-عليه السلام-فيما يعمل، فعلم أن كل شيء يسقم، فقال: إني سقيم. حكاه الماوردي عن الحسن.

الثاني: معناه: نظر إلى النبات، كقوله: {وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدانِ} [الرحمن: ٦]، وأراد بـ «النجم»: ما لا ساق له من النبات، وبـ «الشجر»: ما له ساق. وهذا قول أبو عمرو بن العلاء.

الثالث: أنه نظر في علم النجوم أو في كتبها أو في أحكامها على ما ينظر فيه أهل النجوم، وكايدهم بذلك عن دينه، وكانوا أهل نجوم، ويزعمون أن الأحكام تصدر منها، والحوادث تكون عنها؛ فنظر في النجوم، وقال هذه المقالة ليتركوه، ويتوصل بذلك إلى كيد أصنامهم. وهذا قول سعيد بن المسيب.

عن قتادة، عن سعيد بن المسيب:"أنه رأى نجما طلع فقال: {إني سقيم}، قال: كايد نبي الله عن دينه، فقال: إني سقيم".

قال الكلبي:"كانوا بقرية بين البصرة والكوفة يقال لها: هرمزخرد، وكانوا ينظرون في النجوم قال: {فنظر نظرة في النجوم {٨٨} فقال إني سقيم {٨٩}} [الصافات: ٨٨ - ٨٩]، أي: مطعون".

قال ابن قتيبة:"كان العصر الذي بعث الله، عز وجل، فيه إبراهيم، ﷺ، عصر نجوم وكهانة، وإنما أمر نمروذ بقتل الولدان في السنة التي ولد فيها إبراهيم، ﷺ، لأن المنجمين والكهان قالوا: إنه يولد في تلك السنة من يدعو إلى غير دينه، ويرغب عن سنته، وكان القوم يعظمون النجوم، ويقضون بها على غائب الأمور، ولذلك نظر إبراهيم نظرة في النجوم فقال: {إِنِّي سَقِيم} [الصافات: ٨٩]، وكان القوم

=

=

يريدون الخروج إلى مجمع لهم، فأرادوه على أن يغدو معهم، وأراد كيد أصنامهم خلاف مخرجهم، فنظر نظرة في النجوم، يريد علم النجوم، أي: في مقياس من مقاييسها، أو سبب من أسبابها، ولم ينظر إلى النجوم أنفسها، يدلك على ذلك قوله: {فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ} [الصافات: ٨٨]، ولم يقل: إلى النجوم. وهذا كما يقال: فلان ينظر في النجوم، إذا كان يعرف حسابها، وفلان ينظر في الفقه والحساب والنحو، وإنما أراد بالنظر فيها: أن يوهمهم أنه يعلم منها ما يعلمون، ويتعرف في الأمور من حيث يتعرفون، وذلك أبلغ في المحال، وألطف في المكيدة ".

قال ابن عطية:"قال الجمهور نظر نجوم السماء، وروي أن علم النجوم كان عندهم منظورا فيه مستعملا فأوهمهم هو من تلك الجهة، وذلك أنهم كانوا أهل رعاية وفلاحة، وهاتان المعيشتان يحتاج فيهما إلى نظر في النجوم".

وفي قوله تعالى: {فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ} [الصافات: ٨٩]، وجوه من التفسير:

أحدها: أنه استدل بها على وقت حمى كانت تأتيه، إذ أعلمه الله عز وجل أنه يمتحنه بالسقم إذا طلع نجم يعرفه، فلما رأى النجم، علم أنه سيسقم. قاله ابن الانباري.

قال القرطبي:"قيل: كانت الساعة التي دعوه إلى الخروج معهم فيها ساعة تغشاه فيها الحمى".

قال أبو السعود:"قيل كانت له عليه الصلاة والسلام حمى لها نوبة معينة في بعض ساعات الليل فنظر ليعرف هل هي تلك الساعة فإذا هي قد حضرت، {فقال إنى سقيم} وكان صادقا في ذلك فجعله عذرا في تخلفه عن عيدهم".

الثاني: معناه: سأسقم سقم الموت، لأن من كتب عليه الموت يسقم في الغالب ثم يموت، وهذا تورية وتعريض. قاله الضحاك، وابن قتيبة، وضعّفه الطبري.

=

=

قال الضحاك:"قالوا لإبراهيم وهو في بيت آلهتهم: أخرج معنا، فقال لهم: إني مطعون، فتركوه مخافة أن يعديهم".

قال ابن قتيبة:"أي: سأسقم فلا أقدر على الغدوّ معكم. هذا الذي أوهمهم بمعاريض الكلام، ونيّته أنه سقيم غدا لا محالة، لأن من كانت غايته الموت ومصيره إلى الفناء- فسيسقم. ومثله قوله تعالى: {إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ} [الزمر: ٣٠] ولم يكن النبي، ﷺ، ميّتا في ذلك الوقت، وإنما أراد: أنك ستموت وسيموتون".

قال السمعاني: معناه:"سأسقم، ولا بد لكل صحيح أن يسقم".

الثالث: معناه: سقيم النفس بما أرى من قبح أفعالكم في عبادة غير الله، فظهر لهم من كلامه أنه أراد سقما بالجسد حاضرا وهكذا هي المعاريض. حكاه الماوردي.

قال ابن عطية:"وهذا التأويل لا يرده الحديث وذكر الكذبات لأنه قد يقال لها كذب على الاتساع بحسب اعتقاد المخبر، والكذب الذي هو قصد قول الباطل، والإخبار بضد ما في النفس بغير منفعة شرعية، هو الذي لا يجوز على الأنبياء صلوات الله عليهم".

الرابع: أن المعنى: إني سقيم القلب عليكم إذ تكهنتم بنجوم لا تضر ولا تنفع. قاله ابن الأنباري".

الخامس: أنه سقم لعلة عرضت له. حكاه الماوردي.

السادس: أنه أشار لهم إلى مرض وسقم يعدي كالطاعون، وكانوا يهربون من الطاعون. قاله ابن عباس، وابن جبير، والضحاك، وسفيان، وزيد بن أسلم.

قال زيد بن أسلم:"أرسل إليه ملكهم، فقال: إن غدا عيدنا، فاحضر معنا، قال: فنظر إلى نجم فقال: إن ذلك النجم لم يطلع قط إلا طلع بسقم لي، فقال: {إِنِّي سَقِيمٌ} ".

=

=

قال السمعاني: قيل:"أنه كان نجم يطلع في ذلك الزمان، وكان كل من نظر إليه يزعمون أنه يصيبه الطاعون، ويقال: إنه كان زحل؛ فقوله: {فنظر نظرة في النجوم} أي: نظر إلى النجم: {فقال إني سقيم} أي: أصابني الطاعون على ما تزعمون، وكانوا يفرون من المطعون فرارا عظيما، ويزعمون أنه يعدي".

قال الزجاج: قال لقومه -وقد رأى نجما-: إني سقيم، فأوهمهم أن الطاعون به".

قال الثعلبي:"الصحيح أنه لم يكن سقيما، لما روي عن النبي -عليه السلام- أنه قال: «لقد كذب إبراهيم ثلاث كذبات، ما منها واحدة إلا وهو بماحل وناصل بها عن دينه» ".

قال الطبري:"قوله {إِنِّي سَقِيمٌ} : أي: طعين، أو لسقم كانوا يهربون منه إذا سمعوا به، وإنما يريد إبراهيم أن يخرجوا عنه، ليبلغ من أصنامهم الذي يريد".

وروى أبو هريرة عن النبي -ﷺ-، أنه قال:"لم يكذب إبراهيم غير ثلاث: ثنتين في ذات الله عز وجل، قوله: {إِنِّي سَقِيم} ، وقوله: {بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا} ، وقوله في سارة: هِي أُخْتِي".

قال الضحاك:"قالوا لإبراهيم وهو في بيت آلهتهم: أخرج معنا، فقال لهم: إني مطعون، فتركوه مخافة أن يعديهم".

عن سفيان، قوله: " {إني سقيم} ، قال: طعين، وكانوا يفرون من المطعون".

قوله تعالى: {فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ} [الصافات: ٩٠]، أي:"فتركوه وراء ظهورهم".

قال الطبري:"يقول: فتولوا عن إبراهيم مدبرين عنه، خوفا من أن يعدِيَهُمْ السقم الذي ذكر أنه به".

قال القرطبي:"أي: فارين منه خوفا من العدوى".

عن قتادة: " {فَتَوَلَّوْا} ، فنكصوا عنه، {مُدْبِرِينَ} : منطلقين".

=

=

عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس:" {إِنِّي سَقِيمٌ}، يقول: مطعون فتولَّوا عنه مدبرين، قال سعيد: إن كان الفرار من الطاعون لقديما".

قوله تعالى: {فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ} [الصافات: ٩١]، أي:"فمال مسرعًا إلى أصنام قومه فقال مستهزئًا بها: ألا تأكلون هذا الطعام الذي يقدمه لكم سدنتكم؟ ".

قال مقاتل:"إلى الصنم الكبير وهو في بيت، فقال للآلهة: لآألا تأكلون} الطعام الذي بين أيديكم".

قال ابن كثير:"أي: ذهب إليها بعد أن خرجوا في سرعة واختفاء، {فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ}، وذلك أنهم كانوا قد وضعوا بين أيديها طعاما قربانا لتُبرّك لهم فيه".

قال الطبري: يقول:"فمال إلى آلهتهم بعد ما خرجوا عنه وأدبروا، فقرّب إليها الطعام فلم يرها تأكل، فقال لها: {أَلَا تَأْكُلُونَ} فلما لم يرها تأكل قال لها: ما لكم لا تأكلون، وأصل قوله «فَرَاغَ» من قولهم: راغ فلان عن فلان: إذا حاد عنه، فيكون معناه إذا كان كذلك: فراغ عن قومه والخروج معهم إلى آلهتهم؛ كما قال عدي بن زيد:

حِينَ لا يَنْفَعُ الرَّوَاغُ وَلا يَنْ... فَعُ إلا المُصَادِقُ النِّحْرِير

يعني بقوله: «لا ينفع الرّوَاغ»: الحِياد".

عن قتادة: " {فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ}، أي: فمال إلى آلهتهم، قال: ذهب، {قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ}، يستنطقهم".

عن السديّ، قوله: " {فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ}، قال: ذهب".

قال الزمخشري:"فذهب إلى أصنامهم التي هي في زعمهم آلهة في خفية، من روغة الثعلب".

=

=

قوله تعالى: {مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ} [الصافات: ٩٢]، أي:"ما لكم لا تنطقون ولا تجيبون مَن يسألكم؟ ".

قال مقاتل:"ما لكم لا تكلمون؟ ما لكم لا تردون جوابا، أتأكلون، أولا تأكلون".

قال الطبري:"فلم يرها تنطق، فقال لها: {مَا لَكُمْ لا تَنْطِقُونَ}، مستهزئا بها".

قال الزمخشري:"قوله: {أَلا تَأْكُلُونَ ما لَكُمْ لا تَنْطِقُونَ}، استهزاء بها وبانحطاطها عن حال عبدتها ".

قوله تعالى: {فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ (٩٣)} [الصافات: ٩٣].

قال الفراء:"أي: مال عليهم ضربا، واغتنم خلوتهم من أهل دينهم".

قال أبو عبيدة:"أي: أجال عليهم ضربا للآلهة".

قال الطبري: يقول:"فمال على آلهة قومه ضربا لها باليمين بفأس في يده يكسرهن".

قال الزمخشري:"معنى «ضربا بِالْيَمِينِ»: ضربا شديدا قويا، لأن اليمين أقوى الجارحتين وأشدّهما. وقيل: بالقوّة والمتانة: وقيل: بسبب الحلف، وهو قوله: {تَاللهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنامَكُمْ} ".

قال ابن كثير:"وإنما ضربهم باليمين لأنها أشد وأنكى؛ ولهذا تركهم جذاذا إلا كبيرا لهم لعلهم إليه يرجعون".

قال ابن قتيبة:"لأن في اليمين القوة وشدّة البطش، فأخبرنا عن شدة ضربه بها. وقال الشّمّاخ:

إذا ما راية رفعت لمجد... تلقّاها عرابة باليمين

أي: أخذها بقوة ونشاط".

قال يحيى:"فكسرها إلا كبيرهم".

قال ابن عباس:"لما خلا جعل يضرب آلهتهم باليمين".

=

=

قال قتادة:"فأقبل عليهم يكسرهم". وفي رويتة:"أي: فأقبل عليهن فكسرهن".

قال ابن إسحاق:"ثم أقبل عليهم كما قال الله ضربا باليمين، ثم جعل يكسرهنّ بفأس في يده".

قال خالد بن عبد الله الجُشَمِي: "سمعت الحسن قرأ: «فَرَاغَ عَلَيْهِمْ صَفْقًا بِالْيَمِينِ»، أي: ضربا باليمين".

قوله تعالى: {فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ (٩٤)} [الصافات: ٩٤].

قال البغوي:"{فأقبلوا إليه} يعني: إلى إبراهيم {يزفون} يسرعون، وذلك أنهم أخبروا بصنيع إبراهيم بآلهتهم فأسرعوا إليه ليأخذوه".

قال ابن كثير:"فإنهم لما رجعوا ما عرفوا من أول وهلة من فعل ذلك حتى كشفوا واستعلموا، فعرفوا أن إبراهيم، عليه السلام، هو الذي فعل ذلك".

اختلف أهل العلم في تفسير الآية على أقوال:

أحدها: معناه: فأقبل قوم إبراهيم إلى إبراهيم يَجْرُون، قاله ابن عباس.

الثاني: معناه: يمشون. قاله السدي.

وقال مقاتل:"يمشون إلى إبراهيم يأخذونه بأيديهم.

الرابع: معناه: يسعون، قاله قتادة، والضحاك.

الخامس: معناه: يبتدرونه. قاله الحسن.

السادس: معناه: يسرعون إليه. قاله محمد بن يزيد،وأبو عبيدة، وابن قتيبة،والزجاج.

قال محمد بن يزيد: "الزفيف: الإسراع".

قال ابن قتيبة:"أي: يسرعون إليه في المشي. يقال: زفت النعامة".

قال أبو عبيدة:"تقول العرب للنعامة: تزفّ وهو أول عدوها وآخر مشيها، وجاءني الرجل يزفّ زفيف النعامة، أي: من سرعته".

=

=

قال الواحدي:"معنى يزفون في قول أهل اللغة: يسرعون".

السابع: يتسللون، حكاه ابن عيسى.

الثامن: يرعدون غضبًا، حكاه يحيى بن سلام.

التاسع: يختالون، وهو مشي الخيلاء، قاله ابن مجاهد عن أبيه، ومنه: أخذ زفاف العروس إلى زوجها، وقال الفرزدق:

وَجَاءَ قَرِيعُ الشَّوْلِ قَبْلَ إِفَالِهَا... يَزِفُّ وَجَاءَتْ خَلْفَهُ وَهِيَ زُفَّفُ

وقرئ: «يُزِفُّونَ»، بضم الياء وتشديد الفاء، من: أزف فهو يزف.

قال مجاهد:"الوزيف: النَّسَلان".

قوله تعالى: {قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ} [الصافات: ٩٥].

قال ابن كثير:"فلما جاءوا ليعاتبوه أخذ في تأنيبهم وعيبهم، فقال: أتعبدون من دون الله من الأصنام ما أنتم تنحتونها وتجعلونها بأيديكم؟! ".

عن قتادة:"{أتعبدون ما تنحتون}: من الأصنام".

قوله تعالى: {وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ} [الصافات: ٩٦]، أي:"وتتركون عبادة ربكم الذي خلقكم، وخلق عملكم؟ ".

قال قتادة:"خلقكم وخلق ما تعملون بأيديكم".

قال البغوي:"{والله خلقكم وما تعملون} بأيديكم من الأصنام، وفيه دليل على أن أفعال العباد مخلوقة لله تعالى".

قال السمعاني:"{والله خلقكم وما تعملون} من هذه الأصنام، فإذا كان الله خلقها فلا يصلح أن تتخذوها آلهة، وفي الآية دليل على أهل الاعتزال في أن أعمال العباد مخلوقة لله تعالى والدليل في ذلك واضح، وهو معلوم في الكتب".

قال ابن جزي الكلبي:"ذهب قوم إلى أن ما مصدرية والمعنى: الله خلقكم وأعمالكم، وهذه الآية عندهم قاعدة في خلق أفعال العباد، وقيل: إنها موصولة

=

=

بمعنى الذي والمعنى: الله خلقكم وخلق أصنامكم التي تعملونها، وهذا أليق بسياق الكلام، وأقوى في قصد الاحتجاج على الذين عبدوا الأصنام، وقيل: إنها نافية، وقيل: إنها استفهامية، وكلاهما باطل".

قال ابن كثير:"يحتمل أن تكون «م» مصدرية، فيكون تقدير الكلام: والله خلقكم وعملكم. ويحتمل أن تكون بمعنى "الذي" تقديره: والله خلقكم والذي تعملونه. وكلا القولين متلازم، والأول أظهر؛ لما رواه البخاري في كتاب «أفعال العباد»،.. عن حذيفة مرفوعا قال: «إن الله يصنع كل صانع وصنعته» ".

قوله تعالى: {قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ (٩٧)} [الصافات: ٩٧].

قال الطبري:"قال قوم إبراهيم- لما قال لهم إبراهيم: {أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ} -: ابنوا لإبراهيم بنيانا؛ ذكر أنهم بنوا له بنيانا يشبه التنور، ثم نقلوا إليه الحطب، وأوقدوا عليه {فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ}، والجحيم عند العرب: جمر النار بعضُه على بعض، والنار على النار".

قال القرطبي:"أي: تشاوروا في أمره لما غلبهم بالحجة: {قالوا ابنوا له بنيانا} تملئونه حطبا فتضرمونه، ثم ألقوه فيه وهو الجحيم، والألف واللام في «الجحيم» تدل على الكناية، أي في جحيمه، أي في جحيم ذلك البنيان".

قال ابن ابي زمنين:"فجمعوا الحطب زمانا، ثم جاءوا بإبراهيم، فألقوه في تلك النار".

قال ابن كثير:"فعند ذلك لما قامت عليهم الحجة عدلوا إلى أخذه باليد والقهر، فقالوا: {ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ} ".

قال يحيى بن سلام:"{ابنوا له بنيانا}: يقوله بعضهم لبعض".

قال الزجاج:"كل نار بعضها فوق بعض، وهي جحم".

قال السمعاني:"{بنيانا} أي: حظيرة، وقيل: إيوانا".

=

=

قال ابن جزي الكلبي:"البنيان في موضع النار، وقيل: بل كان للمنجنيق، الذي رمى عنه".

قال ابن عباس: بنوا حائطا من حجارة طوله في السماء ثلاثون ذراعا، وعرضه عشرون ذراعا {فألقوه في الجحيم} في نار عظيمة".

قال الحسن: فجمعوا الحطب زمانا حتى إن الشيخ الكبير الذي لم يخرج من بيته قبل ذلك زمانا كان يجيء بالحطب، فيلقيه يتقرب به إلى آلهتهم فيما يزعم، ثم جاءوا بإبراهيم، فألقوه في تلك النار".

قال يحيى: "بلغني أنهم رموا به في المنجنيق، فكان ذلك أول ما صنع المنجنيق".

قوله تعالى: {فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا} [الصافات: ٩٨]، أي:"فأراد قوم إبراهيم به كيدًا لإهلاكه".

قال ابن جزي الكلبي:"يعني: حرقه بالنار".

قال الطبري: يقول:"فأراد قوم إبراهيم كيدًا، وذلك ما كانوا أرادوا من إحراقه بالنار".

قال القرطبي:"الكيد: المكر، أي: احتالوا لإهلاكه".

قوله تعالى: {فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ} [الصافات: ٩٨]، أي:"فجعلناهم المقهورين المغلوبين، وردَّ الله كيدهم في نحورهم، وجعل النار على إبراهيم بردًا وسلامًا".

قال الطبري: "أي: فجعلنا قوم إبراهيم الأذلين حجة، وغَلَّبنا إبراهيم عليهم بالحجة، وأنقذناه مما أرادوا به من الكيد".

قال الزمخشري:"الأسفلين: المقهورين".

قال القرطبي:"الأسفلين: المقهورين المغلوبين إذ نفذت حجته من حيث لم يمكنهم دفعها، ولم ينفذ فيه مكرهم ولا كيدهم".

قال ابن كثير:"نجاه الله من النار وأظهره عليهم، وأعلى حجته ونصرها ".

=

=

قال قتادة:"فما ناظرهم الله بعد ذلك حتى أهلكهم".

قال مقاتل:"وعلاهم إبراهيم- عليه السلام- وسلمه الله- عز وجل- وحجزهم عنه فلم يلبثوا إلا يسيرا حتى أهلكهم الله- عز وجل- فما بقيت يومئذ دابة إلا جعلت تطفئ النار عن إبراهيم- عليه السلام-، غير الوزغ كانت تنفخ النار على إبراهيم، فأمر النبي- ﷺ- بقتلها".

قال القشيري:"ردّ الله كيدهم إلى نحورهم. وقد تعرّض له جبريل- عليه السلام- وهو في الهواء وقد رمى من المنجنيق فعرض عليه نفسه قائلا: هل من حاجة؟ فأجاب: أمّا إليك.. فلا! ".

قال قتادة:"ذاهب بعمله وقلبه ونيته".

وقال سليمان بن صُرَد: "لما أرادوا أن يُلْقوا إبراهيم في النار {قَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ}، فجمع الحطب، فجاءت عجوز على ظهرها حطب، فقيل لها: أين تريدين؟ قالت: أريد أذهب إلى هذا الرجل الذي يُلْقَى في النار؛ فلما ألقي فيها، قال: حَسْبِيَ الله عليه توكلت، أو قال: حسبي الله ونعم الوكيل، قال: فقال الله: {يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ}، قال: فقال ابن لُوط، أو ابن أخي لوط: إن النار لم تحرقه من أجلي، وكان بينهما قرابة، فأرسل الله عليه عُنُقا من النار فأحرقته".

قوله تعالى: {رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ} [الصافات: ١٠٠]، أي:"رب أعطني ولدًا صالحًا".

قال الطبري:"وهذا مسألة إبراهيم ربه أن يرزقه ولدا صالحا؛ يقول: قال: يا رب هب لي منك ولدا يكون من الصالحين الذين يطيعونك، ولا يعصونك، ويصلحون في الأرض، ولا يفسدون".

عن السديّ، قوله: " {رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ}، قال: ولدا صالحا".

=

قال ابن كثير:"يعني: أولادا مطيعين عوَضًا من قومه وعشيرته الذين فارقهم".
قوله تعالى: {فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ (١٠١)} [الصافات: ١٠١].
قال الطبري: يقول:"فبشَّرنا إبراهيم بغلام ذي حِلْم إذا هو كَبِر، فأما في طفولته في المهد، فلا يوصف بذلك".
قال الحسن:"بولادة إسحاق عليه السلام".
قال عكرمة:"هو إسحاق".
قال قتادة:"بشر بإسحاق، قال: لم يُثْن بالحلم على أحد غير إسحاق وإبراهيم".
وقال الشعبي:"هو إسماعيل -عليه السلام-، قال: وبشره الله بنبوة إسحاق بعد ذلك".
عن ابن عباس، قال: «الذبيح إسماعيل» وهو قوله {فبشرناه بغلام حليم} [الصافات: ١٠١]، يعني: «إسماعيل» ".
قال ابن كثير:"وهذا الغلام هو إسماعيل عليه السلام، فإنه أولُ ولد بشر به إبراهيم، عليه السلام، وهو أكبر من إسحاق باتفاق المسلمين وأهل الكتاب، بل في نص كتابهم أن إسماعيل وُلِدَ ولإبراهيم، عليه السلام، ست وثمانون سنة، وولد إسحاق وعمْر إبراهيم تسع وتسعون سنة. وعندهم أن الله تعالى أمر إبراهيم أن يذبح ابنه وحيده، وفي نسخة: بكْره، فأقحموا هاهنا كذبا وبهتانا «إسحاق»، ولا يجوز هذا لأنه مخالف لنص كتابهم، وإنما أقحموا «إسحاق»، لأنه أبوهم، وإسماعيل أبو العرب، فحسدوهم، فزادوا ذلك وحَرّفوا وحيدك، بمعنى الذي ليس عندك غيره، فإن إسماعيل كان ذهب به وبأمه إلى جنب مكة وهذا تأويل وتحريف باطل، فإنه لا يقال: «وحيد» إلا لمن ليس له غيره، وأيضا فإن أول ولد له معزة ما ليس لمن بعده من الأولاد، فالأمر بذبحه أبلغ في الابتلاء والاختبار، وقد ذهب جماعة من أهل العلم إلى أن الذبيح هو إسحاق، وحكي ذلك عن =

=

طائفة من السلف، حتى نقل عن بعض الصحابة أيضا، وليس ذلك في كتاب ولا سنة، وما أظن ذلك تُلقى إلا عن أحبار أهل الكتاب، وأخذ ذلك مسلما من غير حجة. وهذا كتاب الله شاهد ومرشد إلى أنه إسماعيل، فإنه ذكر البشارة بالغلام الحليم، وذكر أنه الذبيح، ثم قال بعد ذلك: {وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ}. ولما بشرت الملائكة إبراهيم بإسحاق قالوا: {إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ عَلِيمٍ} [الحجر: ٥٣]. وقال تعالى: {فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ} [هود: ٧١]، أي: يولد له في حياتهما ولد يسمى يعقوب، فيكون من ذريته عقب ونسل. وقد قدمنا هناك أنه لا يجوز بعد هذا أن يؤمر بذبحه وهو صغير؛ لأن الله تعالى قد وعدهما بأنه سيعقب، ويكون له نسل، فكيف يمكن بعد هذا أن يؤمر بذبحه صغيرا، وإسماعيل وصف هاهنا بالحليم؛ لأنه مناسب لهذا المقام".

قوله تعالى: {فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ} [الصافات: ١٠٢]، أي:"فلما ترعرع وشبَّ وبلغ السنَّ الذي يمكنه أن يسعى مع أبيه في أشغاله وحوائجه".

قال الطبري: "يقول: فلما بلغ الغلام الذي بشر به إبراهيم مع إبراهيم العمل، وهو السعي، وذلك حين أطاق معونته على عمله".

قال ابن كثير:"أي: كبر وترعرع وصار يذهب مع أبيه ويمشي معه. وقد كان إبراهيم، عليه السلام، يذهب في كل وقت يتفقد ولده وأم ولده ببلاد «فاران» وينظر في أمرهما، وقد ذكر أنه كان يركب على البراق سريعا إلى هناك، فالله أعلم".

وفي تفسير قوله تعالى: {فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ} [الصافات: ١٠٢]، وجوه:

أحدها: يمشي مع أبيه، قاله قتادة، والسدي، وابن قتيبة.

=

=

الثاني: أدرك معه العمل، قاله ابن عباس -في رواية-، وعكرمة، ومجاهد، والفراء، وأبو عبيدة، والزجاج.

قال مجاهد:"لما شبّ حتى أدرك سعيه سَعْي إبراهيمَ في العمل".

وقال مجاهد:"لما عمل مثل عمل إبراهيم".

قال أبو عبيدة:"أدرك ما أن يسعى على أهله أدرك وأعانه".

قال الفراء:"يقول: أطاق أن يعينه على عمله وسعيه. وكان إسماعيل يومئذ ابن ثلاث عشرة".

الثالث: أنه سعي العمل الذي تقوم به الحجة، قاله الحسن.

الرابع: أنه السعي في العبادة، قاله ابن زيد.

قال ابن عباس: صام وصلى، ألم تسمع الله يقول: {وسعى لها سعيها} [الإسراء: ١٩]".

قوله تعالى: {قَالَ يَابُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ} [الصافات: ١٠٢]، أي:"قال له أبوه: إني أُمرت في المنام أنْ أذبحك".

قال ابن الجوزي:"أكثر العلماء على أنه لم ير أنه ذبحه في المنام. وإنما المعنى أنه أمر في المنام بذبحه، ويدل عليه قوله تعالى: {افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ} [الصافات: ١٠٢]، وذهب بعضهم إلى أنه رأى أنه يعالج ذبحه، ولم ير إراقة الدم".

قال قتادة:"رؤيا الأنبياء حق إذا رأوا في المنام شيئا فعلوه".

عن عبيد بن عمير، قال: "رؤيا الأنبياء وحي، ثم تلا هذه الآية: {إني أرى في المنام أني أذبحك} ".

عن ابن عباس رضي الله، عنهما قال: «قال رسول الله ﷺ رؤيا الأنبياء وحي».

قوله تعالى: {فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى} [الصافات: ١٠٢]، أي:"فانظر في الأمر، ما رأيك فيه؟ ".

=

=

قال ابن كثير:"وإنما أعلم ابنه بذلك ليكون أهون عليه، وليختبر صبره وجلده وعزمه من صغره على طاعة الله تعالى وطاعة أبيه".

قوله تعالى: {قَالَ يَاأَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ} [الصافات: ١٠٢]، أي:"فقال إسماعيل مُرْضيًا ربه، بارًّا بوالده، معينًا له على طاعة الله: أمض ما أمرك الله به مِن ذبحي، ستجدني -إن شاء الله- صابرًا طائعًا محتسبًا".

قال ابن كثير:"أي: امض لما أمرك الله من ذبحي، سأصبر وأحتسب ذلك عند الله عز وجل. وصدق، صلوات الله وسلامه عليه، فيما وعد؛ ولهذا قال الله تعالى: {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولا نَبِيًّا وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا} [مريم: ٥٤، ٥٥] ".

قوله تعالى: {فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١٠٣)} [الصافات: ١٠٣].

فلما استسلما لأمر الله وانقادا له، وألقى إبراهيم ابنه على جبينه -وهو جانب الجبهة- على الأرض؛ ليذبحه.

قوله تعالى: {فَلَمَّا أَسْلَمَا} [الصافات: ١٠٣]، أي:"فلما استسلما لأمر الله وانقادا له".

قال الطبري: يقول:"فلما أسلما أمرهما لله وفوّضاه إليه واتفقا على التسليم لأمره والرضا بقضائه".

قال ابن كثير:"أي: فلما تشهدا وذكرا الله تعالى إبراهيم على الذبح والولد على شهادة الموت. وقيل: {أَسْلَمَا}، يعني: استسلما وانقادا؛ إبراهيم امتثل أمْرَ الله، وإسماعيل طاعة الله وأبيه".

قال السدي:"يقول: أسلما لأمر الله".

قال مجاهد:"أسلما ما أمرا به".

=

=

قال قتادة:"أسلم هذا نفسه لله، وأسلم هذا ابنه لله".

عن أبي صالح، قوله: " {فَلَمَّا أَسْلَمَا} ، قال: اتفقا على أمر واحد".

قال ابن إسحاق:"أي سلم إبراهيم لذبحه حين أمر به وسلم ابنه للصبر عليه، حين عرف أن الله أمره بذلك فيه".

قال عكرمة:"أسلما جميعا لأمر الله ورضي الغلام بالذبح، ورضي الأب بأن يذبحه، فقال: يا أبت اقذفني للوجه كيلا تنظر إلي فترحمني، وأنظر أنا إلى الشفرة فأجزع، ولكن أدخل الشفرة من تحتي، وامض لأمر الله، فذلك قوله: {فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ} ، فلما فعل ذلك {وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ} ".

قوله تعالى: {وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ} [الصافات: ١٠٣]، أي:"ألقى إبراهيم ابنه على جبينه -وهو جانب الجبهة- على الأرض؛ ليذبحه".

قال ابن كثير:"أي: صرعه على وجهه ليذبحه من قفاه، ولا يشاهد وجهه عند ذبحه، ليكون أهون عليه".

قال أبو عبيدة:"أي: صرعه وللوجه جبينان والجبهة بينهما قال ساعدة بنى جوءيّة الهذلي:

وطلّ تليلا للجبين".

قال الطبري:"يقول: وصَرَعَه للجَبِين، والجبينان ما عن يمين الجبهة وعن شمالها، وللوجه جبينان، والجبهة بينهما".

عن ابن عباس: " {وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ} ، قال: أكبه على جبهته". وفي رواية:"صرعه".

قال ابن زيد:"أخذ جبينه ليذبحه".

قال قتادة:"أي: وكبه لفيه وأخذ الشفرة".

=

=

قال مجاهد:"وضع وجهه للأرض، قال: لا تذبحني وأنت تنظر إلى وجهي عسى أن ترحمني، ولا تجهز عليّ، اربط يدي إلى رقبتي ثم ضع وجهي للأرض".

عن القاسم بن أبي بزة ، قال: "قال إبراهيم لإسحاق: «اعجل علي يا بني ، لا يدخل الشيطان فيما بيننا» ".

قال ابن عباس:"إن إبراهيم لما أُمر بالمناسك عرض له الشيطان عند المسعى فسابقه، فسبقه إبراهيم، ثم ذهب به جبريل إلى جمرة العقبة، فعرض له الشيطان، فرماه بسبع حَصَيَات حتى ذهب، ثم عرض له عند الجمرة الوُسْطَى، فرماه بسبع حَصَيَات حتى ذهب، ثم تلَّه للجَبِين، وعلى إسماعيل قَميص أبيض، فقال له: يا أبت إنه ليس لي ثوب تكفنني فيه غير هذا، فاخلعه حتى تكفنني فيه، فالتفت إبراهيم فإذا هو بكبش أعْيَن أبيض فذبحه، فقال ابن عباس: لقد رأيتنا نتبع هذا الضرب من الكِباش".

وفي الذبيح قولان:

أحدهما: أنه إسحاق-عليه السلام-. قاله العباس بن عبدالمطلب، وعلي بن ابي طالب-في رواية-، وعبد الله بن مسعود-في رواية-، وابن عباس-في رواية-، وكعب الأحبار، وسعيد بن المسيب-في رواية-، ومسروق، وعبيد بن عمير، وابن أبي الهذيل، وابن سابط، وأبو ميسرة، وابن زيد.

قال أبو الأحوص: "افتخر رجل عند ابن مسعود، فقال: أنا فلان بن فلان ابن الأشياخ الكرام، فقال عبد الله: ذاك يوسف بن يعقوب بن إسحاق ذبيح الله بن إبراهيم خليل الله".

قال أبو ميسرة:"قال يوسف للملِك في وجهه: ترغب أن تأكل معي، وأنا والله يوسف بن يعقوب نبيّ الله، ابن إسحاق ذبيح الله، ابن إبراهيم خليل الله".

=

=

الثاني: أنه إسماعيل-عليه السلام-. قاله علي -رضي الله عنه-، وعبد الله بن مسعود، وأبو هريرة، وابن عباس-في رواية-، وابن عمر، والحسن، وأبو الطفيل، وسعيد بن المسيب، وسعيد بن جبير، ومجاهد، وعامر الشعبي، ومحمد بن كعب القرظي، وأبو جعفر محمد بن علي، وأبو صالح.

قال ابن عباس:"المَفْدِيّ إسماعيل، وزعمت اليهود أنه إسحاق وكذبت اليهود".

قال محمد بن كعب:"إن الذي أمر الله إبراهيم بذبحه من بنيه إسماعيل، وإنا لنجد ذلك في كتاب الله في قصة الخبر عن إبراهيم وما أُمر به من ذبح ابنه إسماعيل، وذلك أن الله يقول، حين فرغ من قصة المذبوح من إبراهيم، قال: {وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ}، يقول: بشرناه بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب، يقول: بابن وابن ابن، فلم يكن ليأمره بذبح إسحاق وله فيه من الله الموعود ما وعده الله، وما الذي أمر بذبحه إلا إسماعيل".

قال أبو حاتم:"الصحيح أن الذبيح إسماعيل عليه السلام".

قال الشعبي:"هو إسماعيل، قال: وكان قَرْنا الكبش مَنُوطَيْن بالكعبة".

قال ابن الجوزي:"لكل قوم حجة ليس هذا موضعها، وأصحابنا ينصرون القول الأول".

قال الزجاج:"وحجة من قال إنه إسماعيل قوله: {وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ} [الصافات: ١١٢]، وحجة من قال إنه اسحاق، قال: كانت في إسحاق بشارتان الأولى فبشرناه بغلام حليم، فلما استسلم للذبح واستسلم إبراهيم لذبحه بشر به نبيا من الصالحين. والقول فيهما كثير والله أعلم أيهما كان الذبيح".

قال الطبري:"وأولى القولين بالصواب في المَفْديّ من ابني إبراهيم خليل الرحمن على ظاهر التنزيل قول من قال: هو إسحاق، لأن الله قال: {وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ} فذكر أنه فدَى الغلامَ الحليمَ الذي بُشِّر به إبراهيم حين سأله أن يهب له ولدًا

=

=

صالحًا من الصالحين، فقال: {رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ} فإذ كان المفديّ بالذبح من ابنيه هو المبشَّر به، وكان الله تبارك اسمه قد بين في كتابه أن الذي بُشِّر به هو إسحاق، ومن وراء إسحاق يعقوب، فقال جل ثناؤه: {فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ} وكان في كل موضع من القرآن ذكر تبشيره إياه بولد، فإنما هو معنيّ به إسحاق، كان بيِّنا أن تبشيره إياه بقوله: {فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ} في هذا الموضع نحو سائر أخباره في غيره من آيات القرآن.

وبعد: فإن الله أخبر جل ثناؤه في هذه الآية عن خليله أنه بشَّره بالغلام الحليم عن مسألته إياه أن يهب له من الصالحين، ومعلوم أنه لم يسأله ذلك إلا في حال لم يكن له فيه ولد من الصالحين، لأنه لم يكن له من ابنيه إلا إمام الصالحين، وغير موهم منه أن يكون سأل ربه في هبة ما قد كان أعطاه ووهبه له. فإذ كان ذلك كذلك فمعلوم أن الذي ذكر تعالى ذكره في هذا الموضع هو الذي ذكر في سائر القرآن أنه بشَّره به وذلك لا شك أنه إسحاق، إذ كان المفديّ هو المبشَّر به. وأما الذي اعتلّ به من اعتلّ في أنه إسماعيل، أن الله قد كان وعد إبراهيم أن يكون له من إسحاق ابن ابن، فلم يكن جائزا أن يأمره بذبحه مع الوعد الذي قد تقدم؛ فإن الله إنما أمره بذبحه بعد أن بلغ معه السعي، وتلك حال غير ممكن أن يكون قد وُلد لإسحاق فيها أولاد، فكيف الواحد؟ وأما اعتلال من اعتل بأن الله أتبع قصة المفديّ من ولد إبراهيم بقوله {وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا} ولو كان المفديّ هو إسحاق لم يبشَّر به بعد، وقد ولد، وبلغ معه السعي، فإن البشارة بنبوه إسحاق من الله فيما جاءت به الأخبار جاءت إبراهيم وإسحاق بعد أن فُدِي تكرمة من الله له على صبره لأمر ربه فيما امتحنه به من الذبح، وقد تقدمت الرواية قبلُ عمن قال ذلك. وأما اعتلال من اعتلّ بأن قرن الكبش كان معلقا في الكعبة فغير مستحيل أن يكون حُمل من الشام

=

=

إلى الكعبة. وقد رُوي عن جماعة من أهل العلم أن إبراهيم إنما أمر بذبح ابنه إسحاق بالشام، وبها أراد ذبحه".

قال ابن جريج: ذبح إبراهيم ابنه إسحاق وهو ابن سبع سنين وولدته سارة وهي بنت تسعين سنة".

قال ابن عباس:"الصخرة التي بمنى بأصل ثبير هي الصخرة التي ذبح عليها إبراهيم فداء ابنه، هبط عليه من ثبير كبش أعين أقرن، له ثغاء، فذبحه، وهو الكبش الذي قربه ابن آدم فتقبل منه، فكان مخزونا حتى فدى به إسحاق".

عن العباس بن عبد المطلب قال: "قال رسول الله ﷺ قال نبي الله داود: يا رب أسمع الناس يقولون: رب إبراهيم، وإسحاق، ويعقوب، فاجعلني رابعا قال: إن إبراهيم ألقي في النار فصبر من أجلي، وإن إسحاق جاد لي بنفسه، وإن يعقوب غاب، عنه يوسف وتلك بلية لم تنلك".

عن ابن أبي حاتم بسند ضعيف عن أبي هريرة رضي الله، عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "إن الله خيرني بين أن يغفر لنصف أمتي أو شفاعتي فاخترت شفاعتي ورجوت أن تكون أعم لأمتي ولولا الذي سبقني به العبد الصالح لعجلت دعوتي إن الله لما فرج عن إسحاق كرب الذبح قيل له: يا أبا إسحاق، سل تعطه قال: أما والله لا تعجلها قبل نزغات الشيطان، اللهم من مات لا يشرك بك شيئا قد أحسن، فاغفر له".

قوله تعالى: {وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَاإِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا} [الصافات: ١٠٤ - ١٠٥]، أي:"وناديناإبراهيم في تلك الحالة العصيبة: أن يا إبراهيم، قد فعلتَ ما أُمرت به وصَدَّقْتَ رؤياك".

قال يحيى بن سلام:"وهذا وحي مشافهة من الملك، ناداه به الملك من عند الله".

قال ابن قتيبة:"أي: حقَّقْتَ الرؤيا. أي صدقتَ الأمرَ في الرؤيا وعملتَ به".

=

=

قال ابن كثير:"أي: قد حصل المقصودُ من رؤياك بإضجاعك ولدك للذبح".

عن ابن زيد، قوله: {صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا}، قال:"ابتليتَ ببلاء عظيم أمرت أن تذبح ابنك، قال: وهذا من البلاء المكروه وهو الشرّ وليس من بلاء الاختبار".

عن ابن عباس رضي الله، عنهما قال: «قال رسول الله ﷺ رؤيا الأنبياء وحي».

قال ابن عباس:"لما أمر إبراهيم عليه السلام بالمناسك عرض له الشيطان، عند المسعى، فسابقه فسبقه إبراهيم عليه السلام، ثم ذهب به جبريل عليه السلام إلى جمرة العقبة فعرض له الشيطان، فرماه بسبع حصيات حتى ذهب، ثم عرض له عند الجمرة الوسطى، فرماه بسبع حصيات ثم تله للجبين وعلى إسماعيل عليه السلام قميص أبيض فقال: يا أبت ليس لي ثوب تكفني فيه غيره، فأخلعه حتى تكفني فيه، فعالجه ليخلعه، فنودي من خلفه: أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا فالتفت فإذا كبش أبيض، أعين أقرن فذبحه".

قوله تعالى: {إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ} [الصافات: ١٠٥]، أي:"إنا كما جزيناك على تصديقك نجزي الذين أحسنوا مثلك، فنخلِّصهم من الشدائد في الدنيا والآخرة".

قال ابن كثير:"أي: هكذا نصرف عمن أطاعنا المكاره والشدائد، ونجعل لهم من أمرهم فرجا ومخرجا، كقوله تعالى: {وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا. وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا} [الطلاق: ٢، ٣]، وقد استدل بهذه الآية والقصة جماعة من علماء الأصول على صحة النسخ قبل التمكن من الفعل، خلافا لطائفة من المعتزلة، والدلالة من هذه ظاهرة، لأن الله تعالى شرع لإبراهيم ذَبْحَ ولده، ثم نسخه عنه وصرفه إلى الفداء، وإنما كان المقصود من شرعه أولا إثابة الخليل على الصبر على ذبح ولده وعزمه على ذلك".

=

=

قوله تعالى: {إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (١٠٦)} [الصافات: ١٠٦].

قال مقاتل:"يعني: النعيم المبين حين عفا عنه وفدى بالكبش".

قال يحيى بن سلام:"النعمة البينة عليك من الله إذ لم تذبح ابنك".

قال ابن قتيبة:"أي: الاختبار العظيمُ".

قال ابن كثير:"أي: الاختبار الواضح الجلي؛ حيث أمر بذبح ولده، فسارع إلى ذلك مستسلما لأمر الله، منقادا لطاعته؛ ولهذا قال تعالى: {وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى} [النجم: ٣٧] ".

قال ابن زيد:"هذا في البلاء الذي نزل به في أن يذبح ابنه".

قوله تعالى: {وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧)} [الصافات: ١٠٧].

قال الطبري:"يقول: وفدينا إسحاق بذبح عظيم، والفدية: الجزاء، يقول: جزيناه بأن جعلنا مكان ذبحه ذبح كبش عظيم، وأنقذناه من الذبح".

قال الفراء:"الذبح: الكبش، وكل ما أعددته للذبح فهو ذبح".

قال أبو عبيدة:"الذبح: المذبوح، والذّبح: الفعل، تقول العرب: قد كان بين بنى فلان وبين بنى فلان ذبح عظيم قتلى كثيرة".

الخليل بن مرة، قال: قال رسول الله ﷺ: "هو إسحاق".

قال العباس بن عبد المطلب: "أن الذي فدى إسحاق".

عن ابن عباس، قال: "ابن إبراهيم الذي أراد ذبحه هو إسحاق".

عن ابن عباس: " {وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ}، قال: كبش". وفي رواية:"ذبح كبش".

قال ابن عباس: "سمع صوتا، وقد أضجعه ليذبحه، فالتفت، فإذا هو بكبش فأخذه فذبحه". وفي رواية:"فالتفت إبراهيم فإذا هو بكبش أبيض، أعين، أقرن، فذبحه".

قال ابن عباس: "هو إسماعيل وكان ذلك بمنى".

قال عبيد بن عمير: "ذُبِح بالمَقام".

=

=

وقال مجاهد: "ذبح بمنًى في المَنْحَر".

وقال كعب: "هو إسحاق ، وكان ذلك بالشام".

قال الحسن:"كان اسم كبش إبراهيم: جرير".

اختلف أهل العلم في {وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ} [الصافات: ١٠٧]، على أقوال:

أحدها: أنه فدى بوعل أنزل عليه من ثبير، قاله ابن عباس.

قال الزجاج:"الأوعال: التيوس الجبلية".

قال الحسن:"ما فدي إسماعيل إلا بتيس من الأرويّ أهبط عليه من ثبير".

وقال مقاتل:"الكبش اسمه: رزين، وكان من الوعل رعي في الجنة أربعين سنة قبل أن يذبح".

الثاني: أنه فدي بكبش. قاله علي بن ابي طالب، وابن عباس-في رواية-، والسدي، وحكاه النحاس عن أهل التفسير.

قال ابن كثير:"والصحيح الذي عليه الأكثرون أنه فُدي بكبش".

قال ابن عباس:"التفتَ فإذا كبش، فأخذه فذبحه".

قال علي:"كبش أبيض أقرن أعين مربوط بسَمُرَة في ثَبِير".

قال السدي:"التفت، -يعني ابراهيم-، فإذا بكبش، فأخذه وخلَّى عن ابنه".

قال ابن إسحاق: "ويزعم أهل الكتاب الأول وكثير من العلماء أن ذبيحة إبراهيم التي فدى بها ابنه كبش أملح اقرن أعين".

قال ابن عباس:"خرج عليه كبش من الجنة قد رعاها قبل ذلك أربعين خريفا، فأرسل إبراهيم ابنه واتبع الكبش، فأخرجه إلى الجمرة الأولى فرمي بسبع حصيات، فأفلته عنده، فجاء الجمرة الوسطى، فأخرجه عندها، فرماه بسبع حصيات، ثم أفلته فأدركه عند الجمرة الكبرى، فرماه بسبع حصيات، فأخرجه عندها، ثم أخذه فأتى به المنحر من مِنَى، فذبحه؛ فوالذي نفس ابن عباس بيده،

=

=

لقد كان أوّل الإسلام، وإن رأس الكبش لمعلق بقرنيه عند ميزاب الكعبة قد حُشّ، يعني يبس".

عن صفية بنت شيبة قالت: "أخبرتني امرأة من بني سليم - وَلدت عامة أهل دارنا - أرسل رسول الله ﷺ إلى عثمان بن طلحة - وقال مرة: إنها سألت عثمان: لم دعاك النبي ﷺ؟ قال: قال: "إني كنتُ رأيت قرني الكبش، حين دخلت البيت، فنسيت أن آمرك أن تخمرهما، فَخَمَّرْهما، فإنه لا ينبغي أن يكون في البيت شيء يشغل المصلي". قال سفيان: لم يزل قرنا الكبش معلقين في البيت حتى احترق البيت، فاحترقا".

الثالث: أنه فدي بكبش أنزل عليه من الجنة، وهو الكبش الذي قربه هابيل بن آدم فتقبل منه، وكان يرعى في الجنة حتى فدى به إسماعيل. قاله ابن عباس.

قال ابن عباس:"الكبش الذي ذبحه إبراهيم هو الكبش الذي قربه ابن آدم فتقبل منه".

قال مقاتل:"ببيت المقدس الكبش، اسمه رزين، وكان من الوعل رعي في الجنة أربعين سنة قبل أن يذبح".

الرابع: أنه فدي بشاة: وهي الأنثى من الضأن من الغنم. وهذا قول مجاهد.

قال مجاهد:"الذبح العظيم: شاة".

عن ابن عباس: "لو تمت تلك الذبيحة لكانت سنة وذبح الناس أبناءهم".

وفي قوله: {عَظِيمٍ} [الصافات: ١٠٧]، خمسة وجوه:

أحدها: لأنه قد رعى في الجنة، قاله ابن عباس.

قال سعيد بن جبير:"كان الكبش الذي ذبحه إبراهيم رعى في الجنة أربعين سنة، وكان كبشا أملح، صوفه مثل العِهْنِ الأحمر".

قال علي بن ابي طالب:"كبش قد رعي في الجنة أربعين خريفا".

=

=

الثاني: لأنه ذبح بحق وذلك ذبحه بدين إبراهيم، قاله الحسن.
عن عمرو بن عبيد، عن الحسن أنه كان يقول: "ما يقول الله: {وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ} لذبيحته التي ذبح فقط، ولكنه الذَّبح على دينه، فتلك السُّنَّة إلى يوم القيامة، فاعلموا أن الذبيحة تدفع مِيتة السُّوء، فضحُّوا عباد الله".
الثالث: لأنه ذبح متقبل، قاله مجاهد.
الرابع: لأنه عظيم البركة. حكاه الماوردي.
الخامس: لأنه وقع فداء عن ولد إبراهيم. حكاه الزمخشري.
السادس: لأنه ضخم الجثة سمين، وهي السنة في الأضاحى. حكاه الزمخشري.
قال الطبري:"ولا قول في ذلك أصح مما قال الله جلّ ثناؤه، وهو أن يقال: فداه الله بذِبح عظيم، وذلك أن الله عم وصفه إياه بالعظم دون تخصيصه، فهو كما عمه به".
عن عكرمة، "أن ابن عباس كان أفتى الذي جعل عليه أن ينحر نفسه، فأمره بمئة من الإبل، قال: فقال ابن عباس بعد ذلك: لو كنت أفتيته بكبش لأجزأه أن يذبح كبشا، فإن الله قال في كتابه: {وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ} ".
قال الحسن: "بشر إبراهيم بإسحاق مرتين: مرة حيث ولد، وبشر أنه سيكون نبيا، ذكر كيف رأى في المنام أن يذبحه، وكيف كان أراد ذبحه، وكيف فدي، فقص قصته، ثم قال: {وبشرناه بإسحاق نبيا} [الصافات: ١١٢]، أي: وبشرناه به نبيا، أي: بأنه نبي".
قوله تعالى: {وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٠٨)} [الصافات: ١٠٨].
قال الطبري: يقول:"وأبقينا عليه فيمن بعده إلى يوم القيامة ثناءً حسنا".
قال السعدي:"أي: وأبقينا عليه ثناء صادقا في الآخرين، كما كان في الأولين، فكل وقت بعد إبراهيم عليه السلام، فإنه فيه محبوب معظم مثني عليه".

=

=

قال الشوكاني: {فِي الْآخِرِينَ} " أي: في الأمم الآخرة التي تأتي بعده".

قال قتادة:"أبقى الله عليه الثناء الحسن في الآخرين".

قال ابن زيد:"سأل إبراهيمُ، فقال: {وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ}، قال: فترك الله عليه الثناء الحسن في الآخرين، كما ترك اللسانَ السَّوْء على فرعون وأشباهه كذلك ترك اللسان الصدق والثناء الصالح على هؤلاء".

وفي قوله تعالى: {وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ} [الصافات: ١٠٨]، قولان:

أحدهما: هو السلام على إبراهيم. حكاه الطبري.

الثاني: الثناء الحسن، قاله قتادة، والسدي، ومقاتل.

قال ابن عباس:"يُذْكَر بخير".

قال يحيى ين سلام:"أي: وأبقينا عليه في الآخرين الثناء الحسن".

قال مقاتل:"الثناء الحسن يقال له من بعد موته فى الأرض فذلك قوله- عز وجل {سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ} [الصافات: ١٠٩]".

قال ابن قتيبة:"أي: أبقينا له ذكرا حسنا في الآخرين، كأنه قال: تركنا عليه ثناء حسنا، فحذف الثناء الحسن لعلم المخاطب بما أراد".

وقال الحسن: "وسن يفتدى بها إلى يوم القيامة".

قوله تعالى: {سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ (١٠٩)} [الصافات: ١٠٩].

قال الطبري: يقول:"أمَنَة من الله في الأرض لإبراهيم أن لا يذكر من بعده إلا بالجميل من الذكر".

قال المراغي:"أي: وقلنا له: عليك السلام في الملائكة والإنس والجن".

قال السعدي:"أي: تحيته عليه كقوله: {قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى} ".

قال الشوكاني:"«السلام»: الثناء الجميل".

=

=

قال مقاتل:"يعني بـ «السلام»: الثناء الحسن، يقال له من بعده في أهل الأديان، في الناس كلهم".

قال أبو هلال العسكري:"أراد الثناء الحسن عليهم، ويجوز أن يكون أراد قول المسلمين عند ذكر الأنبياء عليهم السلام".

قال الألوسي:"ولعل ذكر في العالمين هناك وعدم ذكره هنا لما أن لنوح عليه السلام من الشهرة لكونه كآدم ثان للبشر ونجاة من نجا من أهل الطوفان ببركته ما ليس لإبراهيم عليه السلام".

قوله تعالى: {كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١١٠)} [الصافات: ١١٠].

قال الطبري: " يقول: كما جزينا إبراهيم على طاعته إيانا وإحسانه في الانتهاء إلى أمرنا، كذلك نجزي المحسنين".

قال الشوكاني:"أي: مثل ذلك الجزاء العظيم نجزي من انقاد لأمر الله".

قال الألوسي:"«ذلك»: إشارة إلى إبقاء ذكره الجميل فيما بين الأمم".

قال السعدي:"{الْمُحْسِنِينَ} في عبادة الله، ومعاملة خلقه، أن نفرج عنهم الشدائد، ونجعل لهم العاقبة، والثناء الحسن".

قوله تعالى: {إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١١١)} [الصافات: ١١١].

قال الطبري: " يقول: إن إبراهيم من عبادنا المخلصين لنا الإيمان".

قال مقاتل:"يعني: المصدقين بالتوحيد".

قال الشوكاني:"أي: الذين أعطوا العبودية حقها، ورسخوا في الإيمان بالله وتوحيده".

قال السعدي: أي:"بما أمر الله بالإيمان به، الذين بلغ بهم الإيمان إلى درجة اليقين، كما قال تعالى: {وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ} ".

=

قوله تعالى: {وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ (١١٢)} [الصافات: ١١٢].
وبشَّرنا إبراهيم بولده إسحاق نبيًّا من الصالحين؛ جزاء له على صبره ورضاه بأمر ربه، وطاعته له.
قال الطبري: يقول: " وبشَّرنا إبراهيم بإسحاق نبيا شكرا له على إحسانه وطاعته".
قال الشوكاني:"أي: بشرنا إبراهيم بولد يولد له ويصير نبيا بعد أن يبلغ السن التي يتأهل فيها لذلك".
قال السعدي:"هذه البشارة الثانية بإسحاق، الذي من ورائه يعقوب، فبشر بوجوده وبقائه، ووجود ذريته، وكونه نبيا من الصالحين، فهي بشارات متعددة".
قال مقاتل:"يقول: وبشرنا إبراهيم بنبوة إسحاق بعد العفو عنه".
عن السديّ: " {وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ} ، قال: بنبوته".
قال قتادة:"بشر به بعد ذلك نبيا. بعد ما كان هذا من أمره لما جاد لله بنفسه".
قال ابن عباس:"بشر به مرتين، حين ولد، وحين نبئ".
قال ابن عباس:"إنما بشره به نبيا حين فداه من الذبح، ولم تكن البشارة بالنبوة عند مولده".
قال ابن عباس:"قال بُشِّر بنبوته. قال: وقوله: {وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا} ، قال: كان هارون أكبر من موسى، ولكن أراد وهب الله له نبوته".
عن ضرار، عن شيخ من أهل المسجد، قال: "بُشِّر إبراهيم لسبع عشرة ومئة سنة".
القرآن
{وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ (١١٣)} [الصافات: ١١٣]
التفسير:

=

وأنزلنا عليهما البركة. ومِن ذريتهما من هو مطيع لربه، محسن لنفسه، ومَن هو ظالم لها ظلمًا بيِّنًا بكفره ومعصيته.

قوله تعالى: {وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ} [الصافات: ١١٣]، أي:"وأنزلنا على إبراهيم وإِسحاق بركات الدنيا والدين".

قال الطبري: يقول:"وباركنا على إبراهيم وعلى إسحاق".

قال السعدي:"أي: أنزلنا عليهما البركة، التي هي النمو والزيادة في علمهما وعملهما وذريتهما، فنشر الله من ذريتهما ثلاث أمم عظيمة: أمة العرب من ذرية إسماعيل، وأمة بني إسرائيل، وأمة الروم من ذرية إسحاق".

قال المراغي:"أي: وأفضنا عليهما بركات الدنيا والآخرة، فكثرنا نسلهما وجعلنا منه أنبياء ورسلا، وطلبنا من المسلمين في صلواتهم أن يدعوا لهم بالبركة فيقولوا: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم في العالمين".

قوله تعالى: {وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ} [الصافات: ١١٣]، أي:"ومِن ذريتهما من هو مطيع لربه، محسن لنفسه، ومَن هو ظالم لها ظلمًا بيِّنًا بكفره ومعصيته".

قال المراغي:"أي: ومن ذريتهما من أحسن في عمله فآمن بربه وامتثل أوامره واجتنب نواهيه، ومن ظلم نفسه ودساها بالكفر والفسوق والمعاصي. وفي ذلك تنبيه إلى أن النسب لا أثر له في الهدى والضلال، وأن الظلم في الأعقاب لا يعود إلى الأصول بنقيصة، ولا عيب عليهم في شيء منه كما قال: {وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى} [الأنعام:،الإسراء: ١٥، فاطر: ١٨، الزمر: ٧١٦٤]".

قال السعدي:"أي: منهم الصالح والطالح، والعادل والظالم الذي تبين ظلمه، بكفره وشركه، ولعل هذا من باب دفع الإيهام، فإنه لما قال: {وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وعلى

=

=

إسحاق} اقتضى ذلك البركة في ذريتهما، وأن من تمام البركة، أن تكون الذرية كلهم محسنين، فأخبر الله تعالى أن منهم محسنا وظالما، والله أعلم".

قال السدي:"المحسن: المطيع لله، والظالم لنفسه: العاصي لله".

قال قتادة:"أي: مؤمن، وكافر".

قال الطبري: " {وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ}، يعني بالمحسن: المؤمن المطيع لله، المحسن في طاعته إياه، {وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ}، ويعني بالظالم لنفسه: الكافر بالله، الجالب على نفسه بكفره عذاب الله وأليم عقابه، {مبين}، يعني: الذي قد أبان ظلمه نفسه بكفره بالله".

قال العثيمين: قوله تعالى: {وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ (٨٣)} هذه الجملة مكونة من (إنَّ) واسمها وخبرها، واسمها متأخر: إبراهيم والخبر مقدم "من شيعته"، واللام هنا لام التوكيد، أي: أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام من شيعة نوح عليه الصلاة والسلام، والشيعة تطلق في اللُّغة على كل من شايع الإنسان وتابعه وأعانه وناصره فهو شيعته. وإبراهيم عليه الصلاة والسلام من شيعة نوح عليه الصلاة والسلام أي: من أتباعه وأشكاله وناصري ما جاء به من الشرع، فإن من نصر الشرع في أي زمان ومكان فإنَّه ناصر لجميع الشرائع؛ لأنَّ تأييد الشرع الذي جاء من الله في أي زمان ومكان تأييد لشرع الله كله، ولهذا نحن نفرح بانتصار الرسل -عليهم الصَّلاة والسلام- وأتباعهم ولو كانوا في زمن بعيد، ولو كانوا ليسوا من الذين أرسلوا إلينا خاصة، فإبراهيم عليه الصلاة والسلام من شيعة نوح أي: من مؤيديه وأتباعه فيما جاء به، وليس في نفس الشريعة، ولكن في الجنس أي أنَّه يؤيد وينصر الوحي الذي هو من جنس الوحي الذي جاء به نوح عليه الصلاة والسلام، ولهذا قال المصنف: رحمه الله[أي: ممن تابعه في أصل الدين] وهو قبول وحي الله عز وجل والعمل به والدعوة إليه، إذ جميع الرسل بعضهم لبعض شيعة، لأنهم

=

=

كلهم يتناصرون ويؤمنون بالوحي كله. وقوله رحمه الله: [وإن طال الزمان بينهما وهو ألفان وستمائة وأربعون سنة وكان بينهما هود وصالح]. وقوله: [وإن طال الزمان بينهما] هذا صحيح ولا شك أن بين نوح عليه الصلاة والسلام وإبراهيم زمانًا طويلًا، لكن تقييدها بما ذكره المصنف يحتاج إلى دليل صحيح، إمَّا من كتاب الله أو سنة رسول الله ﷺ، ولا نعلم لهذا أصلًا في القرآن ولا في السنة، فإن قيل: فإنَّما هو مما نقل عن بني إسرائيل فإننا لا نصدق به ولا نكذب به. وقوله: [وكان بينهما هود وصالح]، دليل ذلك أن الله سبحانه وتعالى يقرن قصَّة هود دائمًا بقصة نوح، ومن بعدها قصَّة صالح، وهذا مما يدل على أن هؤلاء الثلاثة قبل إبراهيم.

أما نبي الله إدريس فقد ذكر بعض المؤرخين أنَّه كان قبل نوح، ولكنه قول ضعيف جدًا؛ لأنَّه سبق لنا أن نوحًا عليه الصلاة والسلام هو أول رسول أرسله الله إلى أهل الأرض، والقول بأن إدريس قبله قول ضعيف، بل هو باطل في الواقع، فنوح أول الرسل، وإدريس يظهر والله أعلم أنَّه من أنبياء بني إسرائيل.

{إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٤)} قال المصنف رحمه الله[أي تابعه وقت مجيئه] يحتمل ما قال المصنف، وأن في {إِذْ} متعلقة بقول {شِيعَتِهِ} أي: وممن شايعه حين جاء ربه بقلب سليم إبراهيم.

ويحتمل أن {إِذْ} استئنافية، وأن تقدير الكلام: اذكر إذ جاء ربه بقلب سليم، وهذا هو الأصح، فالصحيح أنها ليست متعلقة بذلك، وأنَّه من شيعته وقت المجيء، بل هو من شيعته وقت المجيء وغيره، لكن أراد الله تعالى أن ينوه بهذا الوصف العظيم لإبراهيم عليه الصلاة والسلام {إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٤)} ومتى مجيئه لربه هل المراد جاء ربه حين لاقاه بعد الموت، أو جاء ربه حين آذاه قومه وهددوه بالإحراق، أم نطلق كما أطلق الله؟

=

=

الأولى أن نطلق كما أطلق الله ونقول: جاء ربه في الوقت الذي يعلم الله مجيئه فيه بقلب سليم. قال المصنف: [سليم من الشَّك وغيره] والصحيح أن السلامة أعم مما قال المصنف، فهو سليم من الشبهات، ليس فيه شك بأي وجه من الوجوه، بل هو على علم ويقين بما آمن به. وسليم من الشهوات ليس في قلبه هوى يخالف ما جاء به الوحي، وهذه هي سلامة القلب أن يكون سالمًا من الشبهات التي تعرض له، والشكوك فيكون مؤمنًا حقًا، ويكون سالمًا من الشهوات، والشهوات هي: الإرادات المخالفة لما جاء به الوحي، وليس كل قلب يهوى ما جاء به الوحي. فالقلوب جوَّالة يمينًا وشمالًا، أحيانًا قلب الإنسان نفسه يتجول، في بعض الأحيان يكون مقبلًا غاية الإقبال على الوحي محبًّا له مطبقًا له، وأحيانًا يجد فتورًا عن الإقبال على الوحي وفتورًا عن تطبيق ما جاء به الوحي، ولهذا ينبغي للإنسان دائمًا أن يسأل الله تعالى الثبات على الأمر وثبات القلب؛ لأنَّ القلب بين أصبعين من أصابع الله يقلبهما كيف يشاء. فعلى الإنسان ألا يغتر بنفسه ولا يعجب بعقيدته، بل عليه أن يسأل الله دائمًا الثبات؛ لأنَّ القلب يعتريه شبهات ويعتريه شهوات، فأحيانًا يكون الإنسان مؤمنًا حقًّا ثم يلقي الشَّيطان في قلبه شبهة فيعمى - والعياذ بالله-، ويضل، وأحيانًا يكون الإنسان صالحًا مستقيما على أمر الله فيلقي الشَّيطان في قلبه شهوة فيضل، ويتبع الشهوات، فالقلب السليم: هو السالم من الشبهات والشهوات، فيكون إذا سلم من ذلك مستقيمًا على طاعة الله سبحانه وتعالى.

{إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ (٨٥)} {إِذْ} نقول فيه كما قلنا في قوله: {إِذْ جَاءَ رَبَّهُ} أنَّه جملة استئنافية لبيان حال إبراهيم عليه الصلاة والسلام، فكان قلبه سليمًا صالحًا في نفسه، ومع ذلك يحاول إصلاح غيره قال المصنف رحمه الله: [موبخًا لهم]، فالاستفهام هنا بمعنى التوبيخ، والتوبيح يستلزم الإنكار عليهم وزيادة،

=

=

لأنك قد تنكر على الإنسان بدون توبيخ، ولكن إذا وبخته فإن توبيخك مستلزم للإنكار عليهم، قوله: {إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ} سمى الله هذا الأب في سورة الأنعام فقال: {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا} [الأنعام: ٧٤] وكان أبوه مشركًا ووعده عليه الصلاة والسلام أن يستغفر له، {سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا (٤٧)} [مريم: ٤٧] فاستغفر له، ولكنه لما تبيّن له أنَّه عدو لله تبرأ منه، ومحاورته بينه وبين أبيه في سورة مريم واضحة كيف كان يخاطبه بالرفق واللين، ولكن ذلك يخاطبه بالشدة والعنف، {لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي} [مريم: ٤٦] أي: دعني واتركني {مَلِيًّا} أي زمنًا طويلًا.

{مَاذَا تَعْبُدُونَ (٨٥)} أن هذه الجملة استفهامية، ولكن هل (ذا) ملغاة، أو اسم موصول؟ يجوز الوجهان، فإن جعلناها اسمًا موصولًا أعربنا "ما": مبتدأ، و"ذا" خبره، وجعلنا العائد محذوفًا، والتقدير: ما الذي تعبدونه.

وإن جعلناها ملغاة فإننا نعرب "ماذا" جميعًا، ونقول: "ماذا" اسم استفهام، مفعول مقدم لتعبدون، أو نقول "ما" اسم استفهام مقدم لتعبدوه و (ذا) لا محل لها من الإعراب، حرف أو بمنزلة الحرف، ليس لها محل من الإعراب، والمعنى أنَّه أنكر عليهم وقال: ما الذي تعبدون؟ هل تعبدون إلهًا حقًّا أو تعبدون إلهًا باطلًا {أَئِفْكًا} قال المصنف رحمه الله[في همزتيه ما تقدم] وهو التحقيق، وتسهيل الثَّانية، وإدخال الفاء بينهما في التحقيق والتسهيل، فتكون القراءات أربعًا.

يقول: قال المصنف: [إفكا مفعول له، وآلهة مفعول به لتريدون. والإفك أسوأ الكذب أي تعبدون غير الله].

المصنف رحمه الله أعرب لنا هذه الجملة فقال: إن "إفكًا" مفعول له أي مفعول لأجله، وأن قوله "آلهة" مفعول لتريدون، و"دون الله" صفة لآلهة والاستفهام في

=

=

قوله: {أَئِفْكًا آلِهَةً} كالذي قبله، يعني أتريدون آلهة غير الله من أجل الإفك والكذب، ويحملكم على هذا الإفك، وهو أسوأ الكذب.

والمعنى: أتريدون آلهة دون الله تعبدونها، فالإرادة هنا بمعنى القصد، والآلهة بمعنى المألوهة أي: المعبودة تريدون ذلك للإفك الذي أفكتموه وهو أسوأ الكذب، ولا شك أن أسوأ الكذب وأظلم الكذب من جعل مع الله إلهًا آخر فإنَّه أكذب الكاذبين، وأظلم الكاذبين، قال الله تعالى: {إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣)} [لقمان: ١٣] وهنا قال: {دُونِ اللهِ} أي سواه وغيره، وربما تشعر بدون المنزلة أنَّها لا تساوي الله عز وجل فكيف تريدونها آلهة وتقصدونها.

{فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٨٧)} الاستفهام هنا استفهام تهديد على كلام المصنف، يعني ماذا تظنون أن الله فاعل بكم إذا عبدتم غيره، أتظنون أن يترككم؟ والجواب: لا.

ويحتمل أن المعنى إذا اتخذتم مع الله غيره إلهًا فما ظنكم به؟ أتظنون أنَّه يقبل هذه الشركة، فالله عز وجل لن يقبل، قال الله تعالى: في الحديث القدسي: "أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملًا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه".

أو {فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٨٧)}؟ فما ظنكم بعظمته وجلاله، لو كنتم عظمتموه حق تعظيمه ما أشركتم به غيره.

فالاستفهام في قوله: {فَمَا ظَنُّكُمْ} تشمل كل هذه المعاني:

١- ما ظنكم به أن يترككم هملًا بدون عقاب.

٢- ما ظنكم به إذا اتخذتم معه غيره أنكم تنقصتموه.

٣- ما ظنكم به أنَّه يرضى أن تعبدوا معه غيره، كل هذا أمر إن كانوا يظنونه فقد أساءوا الظن بالله، ولم يقدروا الله حق قدره، ولكن هذه الظنون تلزمهم إذا اتخذوا مع الله غيره ولا يمكن أن يفروا عنها. وقوله: {بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٧)} سبق لنا أن

=

=

المراد بالعالم هنا ما سوى الله عز وجل فكل ما سوى الله فهو عالم، وسُمّوا عالمًا؛ لأنهم علم على الله، فيستدل بمخلوقاته سبحانه وتعالى عليه، كما قال تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ} [فصلت: ٣٧].

{وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ (٢٠)} [الروم: ٢٠] {وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ (٢٢)} [الروم: ٢٢] إلى آخر ما استدل الله به على نفسه من آياته.

فقوله: {بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٨٧)} الربوبية هنا عامة، ولم يقل: ما ظنكم بالله إشارة إلى أن هذه الآلهة المعبودة مربوبة لله عز وجل، فكيف تكون معبودة من دونه؟

وقد ضرب الله سبحانه وتعالى مثلًا في الإنسان المملوك هل يرضى سيده أن يشاركه أحد فيما يختص به؟ {ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ} [الروم: ٢٨] الجواب: لا، فليس لنا مما ملكت أيماننا من شركاء فيما رزقنا الله.

وتأمل قوله (فيما رزقكم الله) يتبين لك أن هذا رزق الله ومع ذلك يحتكره الأسياد عن العبيد {فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ} وهذا هو محط الاستفهام، والجواب: لا.

وإنَّما قلنا: هذا محط الاستفهام؛ لأنهم شركاء فيما رزقهم الله، لكن بقدر القوت والضرورة، فالعبد يشارك سيده، يأكل ويشرب ويلبس كما يفعل السيد، وهذا كله مشاركة في رزق الله لكن هل هم مساوون لأسيادهم في ذلك؟ لا، إذا كان هكذا فلماذا تساوون غير الله مع الله في عبادته؟ فالمهم أنَّه عليه الصلاة والسلام أراد إقامة البرهان على أن هذه الآلهة لا تصح أن تكون آلهة؛ لأنَّها مربوبة لله عز وجل والمربوب عبد لا يصح أن يكون ربًّا.

=

=

قال المصنف: رحمه الله[وكانوا نجامين فخرجوا إلى عيد لهم وتركوا طعامهم عند أصنامهم، زعموا التبرك عليه فإذا رجعوا أكلوه، وقالوا للسيد إبراهيم: أخرج معنا {فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ (٨٨)}. إيهامًا لهم أنَّه يعتمد عليها ليعتمدوه].

قوله رحمه الله[قالوا للسيد إبراهيم]. تسمية إبراهيم عليه الصلاة والسلام بالسيد فيه نظر، ولو أنَّه قال: إبراهيم الخليل أو الرسول، أما السيد في هذا المقام فممَّا لم يرد، ولا شك أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام سيد من سادات الخلق، لكن أن نعبر عنه بهذا الوصف عند ذكره عليه الصلاة والسلام وندع وصفه بالرسالة أو بالعبودية فهذا فيه نظر.

وهذا الكلام المتقدم الذي ذكر المصنف أنَّه محذوف من باب الإيجاز بالحذف يحتاج إلى دليل يثبت أن هؤلاء القوم صنعوا طعامًا ووضعوه عند هذه الأصنام للتبرك عليه، وأنهم أرادوا أن يأكلوه بعد رجوعهم وطلبوا خروج إبراهيم معهم، كل هذا يحتاج إلى دليل، وذكرنا فيما سبق أن قصص الأنبياء السابقين لا يعلمها إلَّا الله {أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللهُ} [إبراهيم: ٩] فإذا كان الأمر كذلك فإننا لا نتلقى أخبار هؤلاء إلَّا من الوحي، إمَّا بالكتاب وإما بالسنة، وما جاء من أخبارهم من غير هذا الطَّريق - أي طريق الوحي- فإننا نتوقف فيه ما لم نعلم مناقضته للشرائع، فإن علمنا مناقضته للشرائع وجب علينا رده، فإذًا نقتصر في القصة على ما ذكره الله عز وجل، وأن إبراهيم عليه السلام في يوم من الأيَّام نظر نظرة في النجوم من أجل محاجة قومه وإظهار عجزهم، فهو كما ذكر الله سبحانه وتعالى في سورة الأنعام عن محاجة إبراهيم لقومه لما جنّ عليه الليل رأى كوكبًا فقال: هذا ربي، فلما أفل - أي غاب- قال: لا أحب الآفلين؛ لأنَّ الرب لا يمكن أن يغيب عن مربوبه، فلما غاب هذا النجم علم أنَّه ليس برب، لأن الرب لابد أن يكون له كمال الرِّعاية لمن

=

=
كان ربًّا له، فلما رأى القمر بازغًا، قال: هذا ربي والقمر أظهر وأبين من الكوكب، فلما أضل قال: {لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧)}. [الأنعام: ٧٧]

وهذا تعريض لقومه بالضلال. فانظر التدرج كيف يكون؟ قال: لا أحب الآفلين، يعني هو تبرأ من ذلك، ثم عرَّض بأن قومه ضالون {لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧)}. [الأنعام: ٧٧].

{فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ} [الأنعام: ٧٨] وهو صحيحٌ، فالشمس أعظم من القمر، فلما أفلت قال: يا قوم إنِّي بريء مما تشركون، فأعلن بشركهم وبالبراءة منهم، وهذا من كمال محاجته.

فلا يبعد أن تكون هذه الآية {فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ (٨٨)} من جنس المحاجة المذكورة في سورة الأنعام.

{فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ (٨٨)} أي: إبراهيم عليه الصلاة والسلام نظر نظرة في النجوم، أي: نظر إليها، وإنَّما فعل ذلك؛ لأنَّ قومه كانوا يعبدون النجوم، ويضعون لها الهياكل في الأرض، وأصل العبادة للنجوم، فنظر في هذه النجوم فلما نظر قال: {إِنِّي سَقِيمٌ (٨٩)} وإنما نظر فيها وهو لا يعتقد عليه الصلاة والسلام من باب التورية، وهذا تورية بالفعل، فكما تكون التورية بالقول تكون التورية بالفعل.

فالتورية بالقول كثيرة معروفة، التورية بالفعل: أن يري الإنسان غيره أنَّه يرى شيئًا وهو لا يريده، أو أنَّه معرضًا عن شيء وهو قد وضع باله عليه.

فهذا من التورية بالفعل، لأنك أظهرت لغيرك خلاف ما يراه، والتورية بالقول أظهرت لغيرك خلاف ما يسمعه، فإبراهيم عليه الصلاة والسلام ورّى بالنظر بالنجوم ثم قال: {إِنِّي سَقِيمٌ (٨٩)}.
=

=

وفسّر المصنف رحمه الله (سقيم) بمعنى سأسقم وهذه تورية قولية، لأنَّ ظاهر اللفظ (إنِّي سقيم) يعني الآن، ولا أستطيع الخروج معكم، ولكنه يريد سأسقم، لأنَّ اسم الفاعل صالح للزمان الحاضر والزمان المستقبل، فيصح أن تقول: إنِّي حاضر الآن، وإني حاضر غدًا، فلما كان صالحًا للأمرين، ونظر نظرة في النجوم وقال: إنِّي سقيم، تولوا عنه وتركوه وهو يريد عليه الصلاة والسلام بفعله هذا أمرًا سيتبين فيما بعد {فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ (٩٠)} {فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ} أي: مال في خفية إلى آلهتهم وهي الأصنام التي يعبدونها قال المصنف: [وعندها الطَّعام]. فأخذ المصنف من قوله: {أَلَا تَأْكُلُونَ (٩١)} أن الطَّعام عندها، لأنَّ عرض الأكل عليهم يدل على أن الأكل كان موجودًا. {فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ} أي: مال بخفية وانطلق بخفية، والروغان كما هو معروف هو: سرعة الإنسان لكن على وجه لا أحد يَحْس به، فقال: {أَلَا تَأْكُلُونَ (٩١)}؟ و"ألا" هنا للعرض، وهذا القول ليس على سبيل الإلزام، ولا يمكن أن يلزمها بأن تأكل لأنَّه يعلم أنَّها لن تأكل، ولكنه قاله على سبيل الاستهزاء والسخرية، وإلزام هؤلاء العابدين بأن هذه الأصنام لا تستحق العبادة، لا لأنها مستغنية عن الطَّعام ولكن لأنها لا تعقل ولا تعلم، والذي لا يعقل ولا يعلم لا يمكن أن يكون معبودًا، ثم إن صح وضع الطَّعام عندها من قبلهم فإن هذا دليل على أنَّها ليست صالحة للألوهية؛ لأنَّ الإله مستغن عن غيره، ولهذا أقام الله تعالى الدليل على أن عيسى ابن مريم وأمه ليس بإلهين بكونهما يأكلان الطَّعام، وأنَّه سبحانه وتعالى وحده الإله الحق بكونه يُطْعِم ولا يُطْعَم، فاحتياج ما يعبد إلى الطعام دليل على نقص وأنه لا يصح أن يكون إلهًا. لكن هم من سخافتهم يجعلون هذا الطعام عندها كأنها تحتاجه وتأكله وتتصرف فيه. {مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ} الاستفهام هنا للتحقير، أي أنه يحقرها لكونها لا تنطق، وخاطب هذه الأصنام مخاطبة العقلاء في قوله: {مَا لَكُمْ} ولم يقل: مالكن. تنزلًا مع

=

=

أصحابها الذين يجعلونها من ذوات العلم وذوات القبول والدفع عنهم. {مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ} يعني أي شيء يمنعكم من النطق إن كنتم آلهة؟

فإذا قال قائل: هذا الخطاب لهذه الأصنام هل كان في غيبة عابديها؟ إن قلت: نعم، فما فائدة هذا الخطاب؟ وإن قلت: لا، فكيف الجواب عن قوله: {فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ (٩٠)}؟

والجواب: أن نقول: إن عابديها لم ينصرفوا كلهم عنها، بل كان عندها من الحراس ما يقتضي أن يتكلم إبراهيم عليه الصلاة والسلام على هذه الأصنام بمثل هذا الكلام، وإلا لو لم يكن عندها أحد لكان كلامه هذا لغوًا لا فائدة منه، لكن عندها من الحراس من يستطيع أن يعلم عنها ما علمه إبراهيم، بسبب أنه عرض عليهم الأكل، وإن هذه لم تنطق، وإذا كانت لم تنطق وليس لها إرادة ولا شعور لم تكن صالحة للعبادة. {فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ (٩٣)} في أول الآيات يقول: {فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ} أي: مال بخفية و (إلى) للغاية أما هنا فقال {فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا} وإنما قال: "عليهم" دون "إليهم" لوقوع ذلك الضرب على هذه الأصنام ليكسرها عليه الصلاة والسلام، {فَرَاغَ عَلَيْهِمْ} أي: على هذه الآلهة، وكما أشرت أولًا أنه خاطبها مخاطبة العاقل فأتى بميم الجمع. {فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ (٩٣)}، قوله: "ضربًا" مصدر في موضع الحال، أي: فراغ عليهم ضاربًا باليمين، ويجوز أن تكون مصدرًا لفعل محذوف، والتقدير: فراغ عليهم يضرب ضربًا.

وقول المصنف: رحمه الله {باليمين} [بالقوة] لا يتعين، بل يجوز أن يكون باليمين أي باليد اليمنى، وضرب بها لأن اليد اليمين هي آلة العمل غالبًا، ولأن اليد اليمنى أقوى من اليد اليسرى في الغالب، ولهذا تجد من النادر أن يكون بعض الناس أعسر يعمل بيده اليسرى عمله بيده اليمنى، {فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ (٩٤)} لما بلغ قومه ما صنع أقبلوا {إِلَيْهِ يَزِفُّونَ (٩٤)} أي: يسرعون على وجه الجماعات

=

=

بدليل قوله: {فَأَقْبَلُوا} بالواو فهم أقبلوا إليه مسرعين للإنكار عليه، لماذا كسرها؟ وقد ذكر الله تعالى في سورة الأنبياء عنهم: {قَالُوْا مَن فَعَلَ هَـذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِين} [الأنبياء: ٥٩] فجعلوا ذلك ظلمًا وعدوانًا، فجاءوا يزفون لينتصروا لآلهتهم، وهكذا العابدون للأصنام ينتصرون للأصنام، والأصنام لا يستطيعون نصرهم، لكن هم جند محضرون لها. فهؤلاء أقبلوا يزفون إلى إبراهيم لينتصروا لآلهتهم، ولكنه عليه الصلاة والسلام كان قويًّا في ذات الله، {قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ (٩٥)} والاستفهام هنا للتوبيخ والإنكار، والاستهزاء بهم: كيف تعبدون شيئًا أنتم تنحتونه بأيديكم؟ وهل يليق عقلًا أن يكون المعبود مصنوعًا لعابده؟ هذا لا يليق، ولا يفعل هذا إِلَّا أسفه السفهاء. شيء تصنعه أنت بيدك ثم تعبده وتتضرع إليه وتنيب وتتعلق به وترجو منه النفع والضرر، هذا من السفه، ولكن -والعياذ بالله- الإنسان إذا أعمى الله بصيرته لا يغنيه بصر العين، وكانوا في الجاهلية يفعلون شبه هذا الفعل، كانوا إذا نزلوا أرضًا في سفر جمعوا أربعة أحجار، ثلاثة منها للقدر، وواحدًا للعبادة، فصار هذا الحجر المعبود مساويًا لمناصب القدور، وبعضهم كانوا يعجنون إلهًا من العجوة يعني من التمر، يعبدونه من دون الله، فإذا جاعوا أكلوه، ولم يقولوا: أطعمنا، أو هيئ لنا طعامًا. هو نفسه يؤكل، هذا من السفه، كذلك قوم إبراهيم عليه السلام صنعوا أصنامًا بأيديهم ثم صاروا يعبدونها.

وقول المصنف: رحمه الله[أصنامًا] إشارة إلى أن {تنحتون} تنصب مفعولين: أحدهما: العائد للموصول الذي تقديره: ما تنحتونه، والثاني: هذا المحذوف الذي قدره المصنف: أتعبدون ما تنحتون أصنامًا.

{وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعمَلُونَ} قال المصنف رحمه الله[من نحتكم ومنحوتكم فأعبدوه وحده، وما مصدرية، وقيل: موصولة، وقيل: موصوفة].

=

=

{وَاللهُ خَلَقَكُمْ} إذا كان الله هو الخالق فهو أحق بالعبادة، هل الأحق بالعبادة من خلقكم أو من خلقتموه؟ من خلقكم، ولهذا قال: {وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ (٩٦)} قول المصنف: [من نحتكم ومنحوتكم].

أتى رحمه الله بالمصدر وأتى باسم المفعول من نحتكم إشارة إلى أن (ما) يجوز أن تكون مصدرية، ويجوز أن تكون موصولة، فإذا جعلناها مصدرية صار التقدير: من نحتكم، وإذا جعلناها موصولة صارت: من منحوتكم.

وإذا جعلنا التقدير: والله خلقكم وعملكم، صارت (ما) مصدرية. وإذا جعلنا التقدير: والله خلقكم ومعمولكم، صارت (ما) موصولة. وإذا جعلنا (ما) موصولة فلابد من عائد يعود على (ما) وهو في الآية محذوف؛ أي: وما تعملونه، واللازم واحد على الاحتمالين، فإذا قلنا: إن المعنى "والله خلقكم وعملكم" فإن خالق العمل خالق للمعمول. وإذا جعلنا المعنى "والله خلقكم ومعمولكم"، فإنه إذا كان الله قد خلق المعمول وهم الذين باشروا عمله دل ذلك على خلق العمل وخلق العامل أيضًا.

قال أبو عبيد في غريب الحديث: ٢/ ٢٣٤: بعد أن ذكر حديثا لحذيفة رضي الله عنه: وفي هذا الحديث تكذيب لقول المعتزلة(١) الذين يقولون: إن أعمال العباد ليست بمخلوقة، ومما يصدق قول حذيفة ويكذب قول أولئك قول الله تبارك وتعالى: { والله خلقكم وما تعملون } ألا ترى أنهم كانوا ينحتون الأصنام ويعملونها بأيديهم، ثم قال لهم: { والله خلقكم وما تعملون } وكذلك قول حذيفة: (ويصنع كل صنعة).

والقول بأن أفعال العباد مخلوقة لله تعالى هو اعتقاد أهل السنة والجماعة، خلافا للمعتزلة.

قال البغوي عند تفسيره للآية: (وفيه دليل على أن أفعال العباد مخلوقة لله تعالى).

=

=

وقال ابن كثير: (ويحتمل أن تكون (ما) مصدرية، فيكون تقدير الكلام: والله خلقكم وعملكم. ويحتمل أن تكون بمعنى (الذي) تقديره: والله خلقكم والذي تعملونه.

وكلا القولين متلازم، والأول أظهر؛ لما رواه البخاري في كتاب: "أفعال العباد" - ثم ساق حديث حذيفة - (إن الله يصنع كل صانع وصنعته).

وعلى كل تقدير ففي الآية إقامة الحجة على أن هذه الأصنام لا تصلح أن تكون معبودة؛ لأنها معمولة، وقوله: [وقيل: موصوفة]. الموصوفة هي التي يعبر عنها بالنكرة بالموصوف. يعني خلقكم وصنمًا تعملونه، أو وأصنامًا تعملونها، ولا نقول: والذي تعملون بل نقول: وأصنامًا تعملونها، وأفادنا المصنف الآن أن لـ (ما) ثلاثة معانٍ: أن تكون مصدرية، وموصولة، وموصوفة، وهذه ثلاثة من عشرة لأن (ما) لها عشرة معاني.

محامل ما عشر إذا رمت عدها ... فحافظ على بيت سليم من الشعر

ستفهم شرط الوصل فاعجب لنكرها ... بكف ونفي زيد تعظيم مصدر

(ستفهم) الاستفهامية مثل: ما هذا (شرط) الشرطية {وَمَا تَفعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يعْلَمْهُ اللهُ}. [البقرة: ١٩٧] (الوصل): موصولة.

(فاعجب): التعجبية مثل: ما أحسن هذا!!

(لنكرها): النكرة الموصوفة. أو النكرة الواصفة.

تقول: مررت بما معجب لك، أي بشيء معجب لك.

وتقول: عرفته نوعًا ما، يعني نوعًا قليلًا، فهي نكرة واصفة.

(بكف) كافة مثل: {إِنَّمَا اللهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ} [النساء: ١٧١] فهنا كفت (ما) عن العمل.

(ونفي): نافية: ما حضر زيد.

=

=

(زيد): زائدة {وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ} [الشورى: ٣٧] ويا طالبًا خذ فائدة: ما بعد إذًا زائدة.
(تعظيم) يعني أنها تأتي للتعظيم، وهذه غير التعجب مثل أن تقول: مررت بما مذهل، أي بعظيم مذهل.
وربما نقول: إن ما التعجبية فيها نوع من التعظيم فإنها تدل على التعظيم والتعجب.
(مصدر): المصدرية ومنه هذه الآية: {وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعمَلُونَ}. [الصافات: ٩٦].
فهذه محامل (ما) عشرة وينبغي لطالب النحو أن يحفظ مثل هذه الأبيات، لأنه تحصل له المعاني.
قوله تعالى: {قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ (٩٧)} أي: قال بعضهم لبعض: {ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا}. الأمر هنا إن كان من الرؤساء فهو أمر حقيقي، وإن كان من غير الرؤساء أو من الرؤساء بعضهم لبعض فهو أمر مشورة والتزام، وليس أمر إلزام، وذلك لأن أمر الإلزام إنما يكون من الأعلى إلى من دونه. وقالوا: {ابْنُوا لَهُ} اللام هنا ليست للملك، ولكنها للتعليل أي ابنوا لأجله بنيانًا، هذا البنيان بنوه من أجل أن يملؤوه حطبًا ثم يوقدوه على إبراهيم عليه الصلاة والسلام، فبنوا بنيانًا وأضرموا النار في الحطب، كما أشار بعضهم على بعض، {فَأَلْقُوُه فِي الْجَحِيمِ} يقول المصنف: [ابنوا له بنيانًا فاملؤوه حطبًا وأضرموه بالنار، فإذا التهب فألقوه في الجحيم في النار الشديدة]، قوله: {ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ} هذه الآية فيها إيجاز حذف قدره المفسر، التقدير: [فاملؤوه حطبًا وأضرموه بالنار، فإذا التهب فألقوه في الجحيم]، وفي الإتيان بالفاء عقب قوله: ابنوا له بنيانًا، وحذف ما توسط بينهما إشارة إلى أنهم أرادوا الإسراع العظيم في هذا الأمر، كأنهم قالوا: ابنوا بنيانًا

=

=

وألقوه مباشرة، وليس يلقى بالبنيان فقط ليتمتع فيه، ولكن بعد إيقاد النار فيه، وإنما أرادوا بهذا الإسراع والمبادرة كأنهم طووا ذكر ما بين البناء والإلقاء لعدم وجوده من سرعة المبادرة.

ويدل بذلك أيضًا قوله: {فَأَلْقُوهُ} والفاء تدل على الترتيب والتعقيب، قال: {فِي الْجَحِيمِ} أي النار الشديدة. ففعلوا ذلك وألقوه في النار، ولكن خالق النار قال للنار: {كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ}، [الأنبياء: ٦٩] فكانت بردًا وسلامًا عليه، لم تكن بردًا شديدة البرودة حتى يهلك، ولم تكن حارة، بل كانت على عكس ما يريد به الأعداء أرادوا بالنار أن تكون حارة مهلكة، والله عز وجل أراد أن تكون باردة مسلّمة، {كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ} [الأنبياء: ٦٩] فكانت بردًا وسلامًا عليه، وهنا نقف لنبين أن بعض المفسرين قالوا: إنه في تلك اللحظة صارت جميع النيران في جميع أقطار الدنيا باردة، ولكن هذا قول ضعيف جدًّا، مخالف للقرآن، لأن الله تعالى قال: {يا نار} وهذا النداء يكون موجه للمقصود بالنداء، ولهذا يسميها أهل النحو: نكرة مقصودة، فالمراد تلك النار التي خوطبت فقط، فصارت تلك النار التي خوطبت بردًا وسلامًا، وأما الزعم أن جميع النيران في جميع أقطار الدنيا صارت بردًا مخالف لظاهر القرآن، وليس له أي فائدة.

{فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ (٩٨)}.

الكيد في الأصل: "التوصل إلى الإيقاع بالخصم من حيث لا يدري" والكيد والمكر والخداع بمعنى واحد، أو بمعنى متقارب، لكنها كلها تدل على أن الإنسان يوقع خصمه من حيث لا يشعر، هذا في الأصل، قال تعالى: {إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا (١٥) وَأَكِيدُ كَيْدًا (١٦)} [الطارق: ١٥ - ١٦] ولكنهم هم أرادوا بذلك إهلاكًا لإبراهيم عليه الصلاة والسلام.

=

=

ويحتمل أنهم لما بنوا هذا البناء والنار في وسطه لا تشاهد فيظن الإنسان إذا رآه أنه قصر فيقدم على أن يستسلم للإلقاء، لأنه اعلم ما في جوفه لكان يهرب أو يدافع، فيكون هذا معنى الكيد أي أنهم لم يشقوا الأرض كما فعل أصحاب الأخدود ويضعوا فيها الحطب ويوقدوه، ولكن بنوا بنيانًا من رآه من الخارج ظن أنه منزل سكن، ولكنه في الواقع حسب صنعهم نار تتأجج. فيمكن أن يقال: إن هذا هو المراد من قولهم: {كَيْدًا} لأن الكيد كما أسلفنا هو التوصل إلى الإيقاع بالخصم من حيث لا يشعر، ولكن الله تعالى جعلهم {الْأَسْفَلِينَ} وذلك بعدم نيل مرادهم بخروج إبراهيم سالمًا، فكان العلو له من وجهين:

الوجه الأول: أنه سلم مما أرادوا من إهلاكه.

الوجه الثاني: أن الله عز وجل أكرمه بأمر لم يكن معهودًا عند البشر، وهو سلامته من النار التي ظنوا أنها ستحرقه، فصاروا أسفلين من هذين الوجهين أنه سلم، وأن الله تعالى أكرمه بأمر لم يكن معهودًا، وهذا بلا شك يوجب أن يكون عاليًا عليهم، بل عاليًا علوًّا بالغًا؛ لأنه قال: {الْأَسْفَلِينَ} والأسفلين هذه اسم تفضيل أي البالغ في السفل غايته.

قوله تعالى: {وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ} أي قال إبراهيم معلنًا هجرته من بلدهم إلى بلد الشام، وإنما قال ذلك لأنهم بلغوا إلى حد يكون به اليأس من هدايتهم، فإن قومًا أضرموا النار ليحرقوا بها داعيهم إلى الله قوم لا يرجى فيهم خير، ولهذا قال: {إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ}.

فإن قلت: هل أُمر بذلك أو أُذن له بذلك؟

فالجواب: نعم، أُذن له بذلك، والدليل أن الله سبحانه وتعالى أقره فلم ينكر عليه، لكن يونس عليه الصلاة والسلام لما ذهب من غير أن يُؤذن له بين الله سبحانه

=

=

وتعالى أن ذهابه عن غير إذن، فقال: {وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ}. [الأنبياء: ٨٧].

ولما ذكر هجرة إبراهيم عليه الصلاة والسلام لم يذكر ما فيه انتقاد عليه، ولهذا قال: {وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ} قال المصنف: [مهاجر إليه من دار الكفر {سَيَهْدِينِ} إلى حيث أمرني ربي بالمصير إليه وهو الشام، فلما وصل إلى الأرض المقدسة قال: {رَبِّ هَبْ لِي}]

{إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي} ولم يقل: إلى الله، لأن المقام يختص بالربوبية أكثر، إذ إن الربوبية مقتضاها التدبير، وهو الآن يحتاج إلى مدبر يدبره إلى ما فيه مصلحته، فقال: {ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي} والإضافة هنا إضافة تعطف وتحنن، وهي من الربوبية الخاصة، يعني إلى الرب الذي أرجو منه أن يهديني ويدلني لما فيه الخير.

وقوله: {سَيَهْدِينِ} السين هذه للتنفيس وتفيد أمرين:

تحقق الوقوع وقربه.

والمراد بالهداية هنا هداية الدلالة، أي سيهدين إلى ما فيه الخير والصلاح لهذه الدعوة، وربما يقال: إنها تشمل هداية الدلالة وهداية التوفيق.

قوله تعالى: {رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ} هو قال المصنف رحمه الله: [هب لي ولدًا من الصالحين]، أشار المصنف بقوله [ولدًا] إلى أن المفعول الثاني لهب محذوف تقديره: ولدًا.

وقوله: {مِنَ الصَّالِحِينَ}، الصالح: هو الذي صلح ظاهره وباطنه، ولزم من صلاحه أن يكون قائمًا بحقوق الله وحقوق عباده، وهو ضد الفاسد، وفساد كل شيء بحسبه، وصلاح كل شيء بحسبه، فصلاح الإنسان أن يكون مستعدًا لما أمر به قائمًا بأمر الله في حقوقه وحقوق عباده.

=

=

{فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ} الفاء في قوله: {فَبَشَّرْنَاهُ} تدل على الترتيب والتعقيب. وربما أيضًا تدل على السببية أي بسبب دعائه لله، أجاب الله دعوته وبشره {بِغُلَامٍ حَلِيمٍ}.

{فَبَشَّرْنَاهُ} البشارة هي الإخبار بما يسر، هذا هو الأصل إذا أخبر الإنسان بما يسر قيل: بُشر، وإذا أخبر بما يخوف قيل له: أُنذر، ولهذا يذكر الله عز وجل دائمًا التقابل بين البشارة والإنذار {إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا} [البقرة: ١١٩] {رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ} [النساء: ١٦٥] فالبشارة في الأصل هي الإخبار بما يسر، وقد تطلق على الإخبار بما يسوء كقوله تعالى: {فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٤)} [الانشقاق: ٢٤] إما من باب التهكم بهم كما تقول مثلًا للشخص: أبشر بالعقوبة. تتهكم به، وإما من باب الجامع بينهما، وهو أن كلًّا منهما يؤثر على البشرة تأثيرًا يظهر، فالبشارة تؤثر سرورًا وفرحًا واستنارة وجه وراحة قلب، والإنذار بالعكس يظلم الوجه ويصفر، ويحصل فيه الغم.

{فَبَشَّرْنَاهُ} أي بشرنا إبراهيم {بِغُلَامٍ حَلِيمٍ} قال المصنف -رحمه الله تعالى-[أي ذي حلم كثير]. وأشار بذلك إلى أن {حليم} صيغة مبالغة ولكن يحتمل أن تكون صفة مشبهة، أي بغلام صفته الدائمة المستمرة الحلم.

والحلم: هو التأني وعدم التسرع في مقابلة الأمور، بل يتلقاها الإنسان بطمأنينة واتزان وتصرف رشيد.

وضد الحليم سريع الغضب سريع الانفعال الذي لا يتأنى في الأمور ولا يتروى فيها فتجده يرد الشيء مبادرة. أو يقبله مبادرة، فالحلم في الحقيقة هو غاية ما يكون من الرشد. ووصف الله هذا الغلام هنا بالحلم، وفي آيتين من كتاب الله وصف الغلام الذي لإبراهيم بالعلم، وذلك لأن الغلامين اثنان: أحدهما وصف بالعلم، والثاني: وصف بالحلم. والذي وصف بالحلم سيأتينا إن شاء الله بيان منه، وأما

=

=

الذي وصف بالعلم فهو إسحاق عليه الصلاة والسلام، كما تفيد الآيات التي جاء في سياقها.

وقد اختلف العلماء في أي الابنين أمر إبراهيم بذبحه على قولين:

القول الأول: أن الذبيح إسحاق، وهو قول لابن عباس، وابن مسعود، وكعب الأحبار، وسعيد بن جبير، وهو اختيار الطبري، والقرطبي، وهو الظاهر من كلام ابن عقيل.

القول الثاني: أن الذبيح إسماعيل وهو قول لابن عباس أيضا، وابن عمر، ومجاهد، والحسن، وهو ترجيح أحمد بن حنبل، وابن القيم.

والقول بأن الذبيح إسماعيل هو الراجح لأمور منها:

١- قوة ما احتج به من قال إن الذبيح إسماعيل.

٢- إمكان الإجابة على ما احتج به قال إن الذبيح إسحاق.

فقولهم: إن المبشر به هو إسحاق والمبشر به هو المأمور بذبحه، غير مسلم؛ لأن من تأمل الآيات تبين له أن إبراهيم بشر مرتين، فليس المبشر به إسحاق فحسب، فقد بشر إبراهيم بإسماعيل مرة، وبشر بإسحاق أخرى، وسياق الآيات يؤيد أن المبشر به المأمور بذبحه هو إسماعيل؛ لأنه بشره بالغلام الحليم ثم جاءت قصة ذبحه ثم عطف عليها البشارة بإسحاق، فدل على أن البشارة الأولى غير الثانية، لأنه لا يجوز حمل كتاب الله على أن معناه فبشرناه بإسحاق ثم بعد انتهاء قصة ذبحه يقول أيضا: {وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين (١١٢)} [الصافات:١١٢]، فهو تكرار لا فائدة فيه، ينزه عنه كلام الله، والتأسيس أولى من التأكيد إلا لدليل يجب الرجوع إليه، ومعلوم في اللغة العربية أن العطف يقتضي المغايرة، ففي هذا دلالة واضحة أن الذبيح هو إسماعيل.

=

=

وما أحسن توجيه ابن القيم حيث يقول في إغاثة اللهفان ص ٦٩٦: (سأل إبراهيم ربه الولد فأجاب الله دعاءه وبشره، فلما بلغ معه السعي أمره بذبحه قال تعالى: {وقال إني ذاهب إلى ربي سيهدين (٩٩) رب هب لي من الصالحين (١٠٠) فبشرناه بغلام حليم} [الصافات:٩٩ - ١٠١] فهذا دليل على أن هذا الولد إنما بشر به بعد دعائه وسؤاله ربه أن يهب له ولدا، وهذا المبشر به هو المأمور بذبحه قطعا بنص القرآن، وأما إسحاق فإنما بشر به من غير دعوة منه، بل على كبر السن وكون مثله لا يولد له، وإنما كانت البشارة به لامرأته سارة، ولهذا تعجبت من حصول الولد منها ومنه، قال تعالى: {ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا سلاما قال سلام فما لبث أن جاء بعجل حنيذ (٦٩) فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط (٧٠) وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب (٧١) قالت ياويلتا أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخا إن هذا لشيء عجيب (٧٢) قالوا أتعجبين من أمر الله} [هود:٦٩ - ٧٣] فتأمل سياق هذه البشارة وتلك، تجدهما بشارتين متفاوتتين، مخرج إحداهما غير مخرج الأخرى، والبشارة الأولى: كانت له، والثانية: كانت لها، والبشارة الأولى: هي التي أمر بذبح من بشر فيها دون الثانية).

وأما ما روي عن النبي ﷺ: أنه إسحاق، فلم يثبت ولو ثبت لأخذنا به.

قال ابن كثير: (وقد ورد في ذلك - أنه إسحاق - حديث لو ثبت لقلنا به على الرأس والعين، ولكن لم يصح سنده.. ففي إسناده ضعيفان وهما: الحسن بن دينار البصري متروك، وعلي بن زيد بن جدعان منكر الحديث).

وقد بين ابن القيم أن لفظة إسحاق تحريف من اليهود حيث قال: (إسحاق زيادة منهم في لفظ التوراة، وهي باطلة قطعا من عشرة أوجه ...).

=

=

قال محمد بن كعب القرظي: سأل عمر بن عبد العزيز يهوديا أسلم فحسن إسلامه وكان يرى أنه من علماء يهود: أي ابني إبراهيم أمر بذبحه؟ فقال: إسماعيل والله يا أمير المؤمنين، وإن يهود لتعلم بذلك، ولكنهم يحسدونكم معشر العرب على أن يكون أباكم الذي كان من أمر الله فيه، والفضل الذي ذكره الله منه، لصبره لما أمر به، فهم يجحدون ذلك ويزعمون أنه إسحاق؛ لأن إسحاق أبوهم فالله أعلم أيهما كان؟ كل قد كان طاهرا طيبا مطيعا لربه.

قال ابن كثير: (وقد ذهب جماعة من أهل العلم إلى أن الذبيح هو إسحاق، وحكي ذلك عن طائفة من السلف، حتى نقل عن الصحابة أيضا، وليس ذلك في كتاب ولا سنة، وما أظن ذلك تلقي إلا عن أحبار أهل الكتاب، وأخذ ذلك مسلما من غير حجة..).

وقال أيضا: (والذي استدل به محمد بن كعب القرظي على أنه إسماعيل أثبت وأصح وأقوى).

٣- ومن المرجحات أيضا: أن إسماعيل أول ولد بشر به إبراهيم وهو أكبر من إسحاق باتفاق المسلمين وأهل الكتاب؛ فالجمع بين كونه مأمورا بذبح بكره وتعيينه بإسحاق جمع بين النقيضين.

٤- أن الله حكى عن إبراهيم أنه قال: {رب هب لي من الصالحين (١٠٠)} [الصافات:١٠٠] وهذا السؤال إنما يحسن قبل أن يحصل له الولد، والإجماع أن إسماعيل متقدم في الوجود على إسحاق، فثبت أن المطلوب بهذا الدعاء هو إسماعيل.

٥- أن قصة الذبح كانت بمكة قطعا ولهذا جعل الله تعالى ذبح الهدايا والقرابين بمكة تذكيرا للأمة بما كان من قصة أبيهم إبراهيم مع ولده، والذي بمكة إسماعيل وليس إسحاق.

=

=

٦- أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام إنما رزق إسحاق عليه السلام على الكبر، وإسماعيل عليه السلام رزقه في عنفوانه وقوته، والعادة أن القلب أعلق بأول الأولاد وهو إليه أميل وله أحب، بخلاف من يرزقه على الكبر والأمر بذبحه أبلغ في الابتلاء والاختبار.

٧- ومما يستأنس به في ترجيح أن الذبيح هو إسماعيل: أن المواضع التي ذكر فيها إسحاق يقينا عبر عنه في كلها بالعلم لا الحلم، وهذا الغلام الذبيح وصفه بالحلم لا العلم.

قال الكرماني: (والأظهر أن الحليم إسماعيل، والعليم إسحاق).

٨- أن الله وصف إسماعيل بالصبر دون إسحاق فقال: {وإسماعيل وإدريس وذا الكفل كل من الصابرين (٨٥)} [الأنبياء:٨٥]، وهو صبره على الذبح، ووصفه أيضا بصدق الوعد فقال: {واذكر في الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولا نبيا (٥٤)} [مريم:٥٤]؛ لأنه وعد أباه من نفسه الصبر فوفى به.

وهذا ما رجحه ابن كثير حيث قال: (وهو الصحيح المقطوع به).

وقال الشنقيطي: (والتحقيق أن الذبيح هو إسماعيل، وقد دلت على ذلك آيتان من كتاب الله تعالى دلالة واضحة لا لبس فيها..).

وقال أيضا: (فلا ينبغي للمنصف الخلاف في ذلك بعد دلالة هذه الأدلة القرآنية على ذلك والعلم عند الله تعالى).

{فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ} الضمير في {بَلَغَ} يعود على الغلام والضمير في {مَعَهُ} يعود على إبراهيم. والسعي إما أن يراد به الكسب، وإما أن يراد به المشي، وكلاهما صحيح، ولكن الأقرب عندي أن المراد به المشي، فإن السعي يطلق على المشي كثيرًا، كما في قوله تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللهِ} [الجمعة: ٩] وكذلك قال تعالى: {وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى

=

=

فِي الْأَرْضِ} [البقرة: ٢٠٥] فالمراد بالسعي: يعني المشي، ولكن كلمة مع: تفيد المصاحبة، يعني صار تابعًا لأبيه يسير معه؛ لأن ليس صغيرًا، قد مكث في مكانه، وليس كبيرًا انفرد بنفسه، فالصغير الذي في المهد لا يبلغ السعي مع أبيه، والكبير الذي انفرد يبلغ السعي لا مع أبيه لأنه منفرد، أما هذا فقد بلغ مع أبيه السعي، وكان ملازمًا له، وهذا أشد ما يكون الأب تعلقًا بابنه إذا كان في مثل هذا السن؛ لأن الصغير الذي في المهد لا تتعلق به النفس تمامًا، والكبير الذي انفرد كذلك لا تتعلق به النفس تمامًا، وإنما تتعلق بمن كان في متل هذا السن، وهذه من حكمة الله عز وجل أن ابتلي إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه بهذا البلاء المبين.

قال: {فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ} قال المصنف رحمه الله[أي أن يسعى معه ويعينه، قيل: بلغ سبع سنين، وقيل: ثلاث عشرة سنة] ويحتمل أن يكون ما بين السبع إلى ثلاث عشرة سنة، لأنه إذا زاد على ذلك فقد يستقل بنفسه، وما دون السبع يحتاج إلى من يعوله، ولا تتعلق به النفس كثيرًا لاسيما نفس الأب، أما الأم فقد يكون تعلق نفسها بالصغير أكثر من تعلقها بالكبير، ولكن الأب تتعلق نفسه بمن في مثل هذا السن.

{فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ} امتحن الله إبراهيم بمحنة عظيمة لا يصبر عليها إِلَّا من كان في مثل حاله، واعلم أن هذا الولد هو بكر إبراهيم، يعني أنه أول مولود وُلد له.

وولد له كما قيل على كبر السن، يعني أنه كان كبيرًا، ولد له هذا المولود البكر الذي ليس له ولد سواه فامتحنه الله، فأراه الله سبحانه وتعالى في المنام أنه يذبح هذا الولد، وهذا خبر بمعنى الأمر، لأن الذبح هنا مجرد فعل، رأى في المنام أنه يذبح ولده، فهو كما لو أُخْبِرَ بأنه يذبح ولده.

والإراءة إخبار بالفعل، ولهذا قيل: الخبر ما ترى لا ما تسمع.

=

=

فالله عز وجل أراه أنه يذبحه، وهذا خبر بمعنى الأمر، كما سيأتي إن شاء الله في قوله: {افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ} أراه الله ذلك فلم ينزعج إبراهيم ولم يتأثر واطمأن إلى هذا، ثم عرض الأمر على هذا الابن لا للاستشارة ولكن للاختبار، وإذ لا يمكن أن يستشير إبراهيم ابنه فيما أمره الله به. وإنما عرض عليه الأمر ليختبره بهذا وينظر مدى قوة تحمله لهذا الأمر العظيم.

فلما بلغ معه السعي وأُري ما رأى، {قَالَ يَابُنَيَّ إِنِّي أَرَى} أي: رأيت في المنام {أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَاأَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢)} انظر هذا التلطف {يَابُنَيَّ}، ليبعد عن ابنه أنه ذكر ذلك عن جفاء؛ لأن الإنسان إذا كان يبغض ابنه فإنه لا يهمه أن يعذبه أو أن يذبحه ولا يتأثر بذلك، لكنه قال: {يَابُنَيَّ} من باب التلطف به، وبيان أن الحنان قد بلغ في قلبه كل مبلغ وصغّره فقال: {يَابُنَيَّ}، ولم يقل: "يا ابني" زيادة في التلطف، قال: {يَابُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ} قال المفسر: [أي رأيت] ولكنه عبر بالمضارع عن الماضي ليدل على استمرار حكم هذه الرؤية. وأنه مستمر على تنفيذ حكم هذه الرؤية، أو أنه نزَّل الماضي منزلة الحال، كأنه الآن يرى أنه يذبحه، وعلى كل حال فإن أرى هنا أبلغ من رأيت، لأن (رأيت) شيء مضى، أما (أرى) فهو شيء حاضر يدل على الاستمرار، وأنه سينفذ حكم ما رأى.

قال المصنف: [ورؤيا الأنبياء حق، وأفعالهم بأمر الله تعالى]. هاتان كلمتان تعبران عن سؤال مقدر، أولًا: قوله: {إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ} قد يقول قائل: رؤيا المنام أضغاث أحلام، فأجاب عن ذلك بقوله: رؤيا الأنبياء حق، أنا لو رأيت في منامي أني أعتقت عبدي أو أوقفت دوري فلا يكون ذلك نافذًا؟ ولا أومر بذلك من أجل هذه الرؤيا، لكن رؤيا الأنبياء حق يعني أنها وحي. والثاني: [وأفعالهم بأمر الله] وهو أيضًا جواب عن سؤال مقدر، وإذا كانت هذه الرؤيا حقًّا فهل يثبت

=

=

بها حكم شرعي فأجاب المصنف بما يقتضي: نعم. لأن أفعال الأنبياء بأمر الله لاسيما مثل هذا الفعل العظيم. هذا الفعل العظيم هو من أكبر الكبائر، لأنه قتل نفس بغير حق، وليست نفسًا بعيدة، بل قتل نفس قريبة، فهو جامع بين قتل النفس وبين قطيعة الرحم، لأن من قتل أجنبيًّا ليس كمن قتل قريبًا، لكن هذا القتل، هذا الذنب العظيم إذا كان بأمر الرب الذي له ملكوت السموات والأرض صار طاعة كما أن السجود لغير الله شرك، ولما كان بأمر الله تعالى كان تركه كفرًا، {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٣٤)} [البقرة: ٣٤].

والمهم أن المصنف أجاب عن هذه الرؤيا بأنها فعل من نبي، وأفعال الأنبياء تقع بأمرِ الله عز وجل لأنهم معصومون.

قال: {فَانظر مَاذَا تَرَى} من الرأي، يعني فكر في أمرك وانظر ماذا ترى؟ فكان جوابه جوابًا عجيبًا عظيمًا، {قَالَ يَاأَبَتِ افْعَل مَا تُؤمَرُ} وهذا شبيه بما وقع من عائشة رضي الله عنها حين خيّرها النبي ﷺ بين أن تبقى معه وأن تفارقه للدنيا، وقال لها: "استأمري أبويك"، يعني استشيريهم فقالت رضي الله عنها: أفي هذا أستأمر أبوي، إني أختار الله ورسوله والدار الآخرة.

{فَانظُرْ مَاذَا تَرَى} وهذا من باب الاختبار في حال هذا الابن وتهيئته لتنفيذ ما أمر الله به أباه، قال المصنف: [من الرأي، شاوره ليأنس بالذبح وينقاد للأمر به]. أي لو أنه حين قام من النوم جَرَّ ابنه وذبحه بدون أن يخبره لفات في ذلك فائدتان عظيمتان:

الفائدة الأولى: عدم ظهور تقبل هذا الابن لأمر الله عز وجل.

الفائدة الثانية: أنه إذا أتاه بغتة صار أشد وقعًا في نفسه وأشد ألمًا مما لو أخبر به؛ لأن الإنسان إذا أخبر بالشيء قبل أن يقع واستعدت نفسه له وتهيأت، صار الوارد

=

=

العظيم يرد على النفس وهي متهيأة فيسهل عليها، بخلاف ما إذا ورد على غرة فإنه يكون أشد وقعًا، وأشد ألمًا، ولهذا قال المصنف رحمه الله: [ليأنس بالذبح وينقاد للأمر به]. قال: {يَاأَبَتِ} التاء عوضًا عن ياء الإضافة، وأصلها يا أبي، ولكن العرب قد يبدلون الياء تاءً فيقولون: يا أبتي، وعلى هذا فالتاء بدلًا عن الياء فهي ياء المتكلم. {افْعَل مَا تُؤْمَرُ} سبحان الله! لم يقل: يا أبت لا مانع عندي، بل قال: "افعل" فحثه على أن يفعل ولم يقل: افعل ما رأيت، بل قال: {تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ} حثًّا لإبراهيم على أن يفعل؛ لأنه إذا ذكره أن هذا أمر الله فإنه يزيده قوة في تنفيذ هذا الأمر، لأن إسماعيل عليه الصلاة والسلام خاف أن تدرك إبراهيم عليه الصلاة والسلام رحمة الولد فيراجع الله عز وجل في ذلك، فأشار عليه أن يبادر بفعل ما أُمر به (افعل)، ولم يقل: ما رأيت، ليكون هذا أشد حثًّا لإبراهيم على الإقدام، ولهذا {سَتَجِدُنِي}، السين كما قلنا فيما سبق قريبًا للتنفيس، وتفيد شيئين: التوكيد، وقرب الوقوع.

والتأكيد يعني تحقق هذا الشيء، ولكنه لما كان أمرًا مستقبلًا والإنسان لا يثق أن يقوم بالأمر المستقبل، قال: {إِن شَاءَ اللهُ}. وأتى بالاستثناء قبل ذكر المفعول الثاني للمبادرة به {سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ} ولم يقل: ستجدني من الصابرين إن شاء الله فبدأ بالاستثناء الدال على الاستدراك يعني إن لم يشأ الله لم تجدني كذلك، ولكن {سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ} وقوله: {إِن شَاءَ اللهُ} جملة معترضة بين مفعولي تجد، لأن المفعول الأول الياء، والثاني من الصابرين. أي من الصابرين على بلاء الله، وعلى هذا الأمر العظيم، لأن هذا من البلاء العظيم أن يصبر الإنسان على أن يقتل امتثالًا لأمر الله سبحانه وتعالى، وهنا لم يقل ستجدني إن شاء الله صابرًا، بل قال: {مِنَ الصَّابِرِينَ} إشارة إلى أنه عليه الصلاة والسلام سيكون له تأسٍ بمن سبق حتى يكون من جملة المتصفين بهذا الوصف

=

وهو الصبر، قال الله تعالى: {فَلَمَّا أَسْلَمَا} يعني استسلما لأمر الله وانقادا لأمره، عن رضا ورغبة من الأب الذي عزم على أن ينفذ أمر الله عز وجل، والابن الذي تقبل هذا الأمر بانشراح صدر، وحث لأبيه على أن يفعل ما أمره الله به تعالى، وهذا غاية ما يكون من الاستسلام، وهذا استسلام القلب {وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ} هذا استسلام الجوارح يعني أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام تل ابنه للجبين، يعني صرعه على الأرض على جبينه ليذبحه، وإنما صرعه على جبينه من أجل أن لا يرى وجهه حين يذبحه، ولئلا يرى الابن السكين فيفزع، ومعلوم أن رؤية المذبوح السكين تريعه، ويروى عن النبي ﷺ أنه رأى رجلًا يحد الشفرة ليذبح شاة فقال: "أتريد أن تميتها ميتتان" وإبراهيم عليه الصلاة والسلام تل ابنه للجبين بسرعة وقوة في تنفيذ أمر الله عز وجل. قال المصنف رحمه الله: {وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ} [صرعه عليه، ولكل إنسان جبينان بينهما الجبهة، وكان ذلك بمنى، وأمر السكين على حلقه فلم تعمل شيئًا بمانع من القدرة الإلهية] ونحن نقول وقلنا سابقًا: إن قصص الأنبياء السابقين إنما تؤخذ من الكتاب والسنة الصحيحة، لقوله تعالى: {أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ} [إبراهيم: ٩] ونحن في قصة إبراهيم عليه الصلاة والسلام لا ينبغي لنا أن نتجاوز القرآن ولا أن نقدر شيئًا لا يقتضيه السياق فهنا نقول: {وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ} صرعه على جبينه، والجبين هو طرف الجبهة يعني القرنين، وتقدم ذكر الحكمة في تله هكذا، وأما قول المصنف: [وذلك بمنى]، فهذا يحتاج إلى دليل، وهو لا شك أنه بمكة، لأن إسماعيل نشأ بمكة من صغره، ولكن كونه في منى هذا يحتاج إلى دليل من الكتاب أو السنة، وإلا وجب التوقف فيه، وقوله: [وأمر السكين على حلقه فلم تعمل شيئًا بمانع من القدرة الإلهية] هذا أيضًا يحتاج إلى دليل، وليس في القرآن الكريم أنه أمرَّ السكين على حلقه، فالواجب علينا أن نتوقف في هذا، لا

=

نصدق ولا نكذب؛ لأن القرآن لم يصدق ذلك ولم يكذبه، لكن عندي -والله أعلم- أن هذا لو وقع لكان من الحكمة أن يذكر، لأن فيه دلالة على آية من آيات الله عز وجل، وهي عدم تأثير السكين في حلقه، ولو وقع مثل هذا لذكره الله عز وجل لما فيه من الدلالة على آية عظيمة من آيات الله، والذي نجزم به أنه تله للجبين ليذبحه فقط، وكفى بذلك فخرًا أنه لم يبق إِلَّا أن يمر السكين على حلقه فماذا كان؟

قال الله تعالى: {وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَاإِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ}، قوله: {فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ} لما شرطية تحتاج إلى شرط وجوابه، فشرطها قوله: {أَسْلَمَا} {وَتَلَّهُ} معطوف عليه، {وَنَادَيْنَاهُ} لا يستقيم أن نجعله معطوفًا على {أَسْلَمَا} ولكن اختلف العلماء في الواو هنا فقيل: إنها زائدة وتقدير الكلام: فلما أسلما وتله للجبين وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا.

وقال آخرون: ليست بزائدة؛ لأن زيادة الحروف المعنوية التي تقتضي المغايرة لا يمكن أن يقع في القرآن الكريم، بل هي معطوفة على شيء مقدر والتقدير: فلما أسلما وتله للجبين، تحقق تنفيذ أمر الله، أو ما أشبه ذلك من الكلام المناسب، ثم عطف على الجواب المحذوف قوله: {وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَاإِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا}.

(لطيفة): قال ابن رجب في الذيل على طبقات الحنابلة ١/ ١٦٥: قال ابن عقيل: قال لي ابني لما تقارب أجله: يا سيدي قد أنفقت وبالغت في الأدوية والطب والأدعية، ولله تعالى في اختيار، فدعني مع اختياره، قال: فوالله ما أنطق الله سبحانه وتعالى ولدي بهذه المقالة التي تشاكل قول إسحاق لإبراهيم: {افعل ما تؤمر} [الصافات:١٠٢] إلا وقد اختاره الله تعالى للحظوة ا.هـ.

=

=

ثم قال تعالى: {وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَاإِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٠٥)}.

{وَنَادَيْنَاهُ} ضمير الفاعل يعود على الله عز وجل.

والنداء يكون بالصوت العالي للمنادى، بخلاف المناجاة، فتكون بالصوت المنخفض، ولا شك أن الصوت العالي يقال لمن كان بعيدًا، والصوت المنخفض يقال لمن كان قريبًا.

وقوله: {أَنْ يَاإِبْرَاهِيمُ} أن هذه تفسيرية، لأن التفسيرية هي التي تأتي بعد فعل، أو بعد عامل يتضمن معنى القول دون حروفه، فهي بمعنى: أي {قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا} صدقتها أي فعلت ما يقتضي تصديق هذه الرؤيا، وقد رأى أنه يذبح ابنه وعزم على ذلك، وقام ببعض العمل الذي يكون بين يدي الذبح، فجعل الله سبحانه وتعالى ذلك تصديقًا.

والرؤيا: ما يراه الإنسان في منامه.

وما يراه الإنسان في منامه وينقسم إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: رؤيا.

القسم الثاني: حلم.

القسم الثالث: يكون عن حديث النفس، لقول النبي ﷺ: "الرؤيا ثلاث: فالرؤيا الصالحة بشرى من الله، ورؤيا تخويف من الشيطان، ورؤيا مما يحدث المرء نفسه".

أما الأول فإنه من الله، وقد أخبر النبي عليه الصلاة والسلام أن الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوة.

=

=

وأما الثاني فهو من الشيطان، وغالبًا ما يكون هذا فيما يمتنع شرعًا، أو حسًّا، أو عقلًا، أي أن الشيطان يصور للشخص شيئًا ممتنعًا في الشرع، أو ممتنعًا في العقل، أو ممتنعًا بالحس.

أو من أجل إحزان الرائي وإخلال عقله، وقد حدَّث رجل النبي ﷺ أنه رأى في منامه أنه قد ذبح وأن رأسه تدحرج وأنه يشتد وراء رأسه، فقال النبي ﷺ: "لا تحدث الناس بما يتلاعب بك الشيطان في منامك" لأن هذا الشيء غير معقول، إنسان قطع رأسه وهرب الرأس وذهب يشتد وراءه ليأخذه ويضعه على رقبته، هذا شيء ينافي العقل.

وأحيانًا يضرب لك الشيطان مثلًا بما يمتنع شرعًا كما يذكر عن عبد القادر الجيلاني رحمه الله أنه رأى نورًا عظيمًا وسمع من هذا النور قولًا يقول: إني أنا ربك. وحدثه، فقال: إنه قد وضح عنه الصلاة فقال له: كذبت ولكنك الشيطان وعرف أنه كاذب، لأنه حدثه بما يمتنع شرعًا، فإن وضع الصلاة لا يمكن أن يكون أبدًا وهي أهم أركان الإسلام، والوحي قد انقطع، فإذا رأى إنسان في منامه ما يمتنع شرعًا فإنه من الشيطان.

الثالث ما يريه الشيطان للإنسان في منامه، لأجل أن يحزن، وهذا كثير جدًّا، ودواء هذا ما أخبرنا به رسول الله ﷺ أن الإنسان إذا رأى في منامه ما يكره، فليقم وليتفل عن يساره ثلاثًا، وليقل: أعوذ بالله من شر الشيطان ومن شر ما رأيت، ثم ينقلب إلى الجنب الآخر، ولا يحدث الناس بما رأى، وبعد ذلك لا يضره هذا الحلم.

القسم الثالث: ما يحدث به الإنسان نفسه في اليقظة، فإنه لشدة تعلق نفسه به قد يراه في منامه وهذا كثير.

{قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا} قال المصنف رحمه الله[بما أتيت به بما أمكنك من أمر الذبح، أي يكفيك ذلك، فجملة (ناديناه) جواب (لما) بزيادة الواو] هذا سبق

=

=

البحث فيه، وبينا أن الصحيح فيه أن الواو ليست زائدة، ولكنها عاطفة على مقدر مناسب للمقام، لأن الواو من حروف المعاني وتفيد فائدة لا نستفيدها إذا قلنا بزيادتها، وما كان كذلك فإنه لا يمكن أن يكون زائدًا.

{إِنَّا كَذَلِكَ} أي: مثل جزائنا إياك {نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ} وذلك بإزالة الشدة عنهم إذا فعلوا ما أمروا به، وشاهد هذا قوله تعالى: {وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ} [الطلاق: ٢، ٣] {يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا (٤)} [الطلاق: ٤].

فهاتان آيتان تدلان أن الإنسان كلما اتقى الله زالت عنه الهموم وفرجت عنه.

وقوله: {الْمُحْسِنِينَ} يشمل الإحسان في عبادة الله، والإحسان إلى عباد الله. وقد تقدم ذلك.

{إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ}، هذه الجملة مؤكدة بثلاثة مؤكدات أولها: إن، والثاني: اللام، والثالث: ضمير الفصل.

{إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ} ولا شك أن الأمر كما قال ربنا عز وجل: إنه بلاء مبين، اختبار عظيم ظاهر أن أمر بذبح ابنه الذي فيه هلاكه وموته على يديه، والواحد منا قد لا يطيق الصبر على موت ابنه الذي جرى بفعل الله عز وجل فكيف يصبر على أن يذبح ابنه بيده؟! ولهذا قال الله تعالى: {إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ} وفسر المصنف المبين هنا بالبين، ولكن يحتمل أن يكون المراد به المبين: المظهر يعني الذي أظهر حقيقة إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وأنه يقدم محبة الله على ما يحب، قال أهل العلم: ولهذا جعله الله تعالى خليلًا له، والخلة هي أعلى أنواع المحبة، حيث قدم عليه الصلاة والسلام ما يحبه الله على ما تحبه نفسه.

=

=

{وَفَدَيْنَاهُ} قال المصنف رحمه الله[أي: المأمور بذبحه وهو إسماعيل أو إسحاق قولان (بذبح) بكبش عظيم من الجنة، وهو الذي قربه هابيل جاء به جبريل عليه السلام فذبحه السيد إبراهيم مكبرًا]. تسمية إبراهيم عليه السلام بالسيد فيه نظر، ولا شك أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام سيد من سادات الخلق، لكن كونه يعبر عنه بهذا الوصف عند ذكره وندع وصفه بالرسالة أو بالعبودية وما أشبه ذلك فيه نظر.

{وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ}، أي فدينا الذبيح، والذبيح الذي أمر بذبحه، أي جعل الله له فداء، فنقل الأمر من ذبح هذا الولد إلى ذبح الكبش؛ لأن الشيء الذي يقع فداء للشيء يكون بدلًا عنه ونائبًا منابه. فانتقل الأمر من ذبح هذا المولود إلى ذبح الكبش فصار فداءً له، وقول المصنف: [بكبش عظيم] الكبش: هو الكبير من الضأن، أي: الكبير الجسم، وزيد في ذلك قوله (عظيم) يعني أنه من عظيم الكباش، ويقول المصنف: [إنه الذي قرَّبه هابيل]، وهابيل هو أخو قابيل وكان هابيل قد قرب قربانًا فتُقبِّل منه، وقرب قابيل قربانًا فلم يتقبل منه، فحسده قابيل وقال له لأقتلنك، فقال له هابيل: {إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٢٧)} [المائدة: ٢٧]، يعني فلو اتقيت الله لقبل منك، والقصة معروفة في ابني آدم عليه الصلاة والسلام، ولكن ما قاله المصنف -رحمه الله تعالى- دعوى تحتاج إلى دليل، وليس هناك دليل من الكتاب والسنة، بل إن الدليل على خلافه، لأن القربان الذي تقرب به هابيل لا يتعين أن يكون كبشًا، ثم على فرض أنه كبش فإنه قد ذُبح وأُكل ولن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم. لكن هذا مما يأخذه بعض المفسرين رحمهم الله عن الإسرائيليات، ولا يجوز أن يؤخذ عن الإسرائيليات مثل هذا الكلام؛ لأن هذا كلام يقطع بكذبه، وأخبار بني إسرائيل إذا كان يقطع بكذبها لا يجوز نقلها، إلَّا على سبيل التكذيب لها.

=

=

وقول المصنف رحمه الله: [إن الكبش من الجنة] ليس هناك دليل على أنه من الجنة. ولا على أن في الجنة كباشًا، فالصواب أنه ذبح من بهيمة الأنعام الموجودة في وقته أمر إبراهيم عليه الصلاة والسلام أن يذبحه، وظاهر الآية الكريمة أنه ذبحه فداء عن إسماعيل، ويجوز أيضًا أن يكون مع الفداء شكرًا لله سبحانه وتعالى على نعمته بزوال هذا البلاء المبين.

وأما قول المصنف رحمه الله: [وهو إسماعيل أو إسحاق قولان] فالأمر كما ذكر اختلف العلماء رحمهم الله من هو الذي أُمر بذبحه هل هو إسماعيل أو إسحاق؟ والصحيح أنه إسماعيل بل إنه هو المتعين لعدة أوجه:

١- منها ما سيأتي في كلام المصنف في قوله: {وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ}. حيث قال المصنف: [استدل بذلك على أن الذبيح غيره].

٢- ومنها أن الله تعالى قال في إسحاق: {وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ (٢٨)} [الذاريات: ٢٨]، وفي الذبيح قال: {فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ (١٠١)} [الصافات: ١٠١]، وهذا غير هذا لأن الذي وصف بالحلم هو الذي صبر على الذبح، وتنفيذ أمر الله عز وجل.

٣- ومنها أن الله وصف إسماعيل بأنه صادق الوعد {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ} [مريم: ٥٤]، وهذا الوصف إنما يقال في أمر عظيم صدق به الإنسان، والوعد الذي وعد هو قوله لأبيه: {سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢)} وقد وفَّى بذلك.

٤- ومنها أن الله تعالى وصف إسماعيل بأنه من الصابرين، ولم يصف بذلك إسحاق، فقال تعالى: {وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ (٨٥)} [الأنبياء: ٨٥]، ولم يذكر إسحاق ولم يصفه بالصبر، ومعلوم أن الصبر الذي صبره إسماعيل هو الصبر الذي يستحق أن يثنى به عليه؛ لأنه صبر عظيم.

=

=

٥- ومنها أن الله سبحانه وتعالى بشر بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب، فقال: {وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ (٧١)} [هود: ٧١]، ولو كان إسحاق الذي أمر بذبحه لكان هناك تناقض؛ لأنه كيف يؤمر بذبحه وقد بشر بابن له أي: لإسحاق؛ لأن يعقوب بن إسحاق، فإذا كان قد بشر بأن له ولدًا اسمه يعقوب، فلا يليق أن يؤمر بذبحه.

وقد يقول قائل: إنه بشر بيعقوب باعتبار المآل؛ لأنه إذا نسخ وجوب الذبح بقي هذا الولد ورزق ولدًا.

فيقال: نعم هذا يمكن أن يرد به لكن تفوت البشارة عندما يؤمر بالذبح، ومعلوم أن الإنسان المبشر بالشيء لا يمكن أن يزعج بضده، فإذا أزعج بضده انقلبت البشارة سوءًا.

٦- قوله تعالى هنا: {وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ} بعد أن ذكر قصة الذبح كاملة، ولا يمكن أن يكون في القرآن تكرار.

٧- أن الله تعالى ذكر البشارة بإسحاق للأم {وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ} ولم يذكر ذلك في إسماعيل.

٨- أن الله تعالى قال في إسحاق: {وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ} وإذا كان قد بُشر بأنه نبي، فإنه لا يليق ولا يسوغ أن يؤمر بذبحه بعد أن بشر بنبوته.

قوله تعالى: {وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٠٨)} تركنا: قال المصنف: [أبقينا عليه في الآخرين ثناء حسنًا {سَلَامٌ} منا {عَلَى إِبْرَاهِيمَ}].

أفاد المصنف رحمه الله أن الترك هنا بمعنى الإبقاء، وأن مفعوله محذوف تقديره ثناءً حسنًا، وهذا أحد القولين في المسألة.

والقول الثاني: إن المفعول لتركنا هو قوله: {سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ} يعني أن الله ترك عليه في الآخرين السلام، أي أن يسلم من الثناء القبيح، ورجح هذا ابن القيم رحمه

=

=

الله في كتابه: "جلاء الأفهام" وقال: إن مفعول تركنا هو الجملة في قوله: {سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ} ولهذا يثنى عليه إلى يوم القيامة، ويقال: "اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد".

كما يقرأ في القرآن الكريم صفاته التي يثنى بها عليه.

وقوله: {سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ} السلام يعني السلامة من النقائص والعيوب التي تعتري البشر، ومن الثناء القبيح الواقع عليه من غيرهم، ولهذا إبراهيم عليه الصلاة والسلام كان الناس كلهم يفخرون بالانتساب إليه حتى اليهود قالوا نحن على ملة إبراهيم، والنصارى قالوا نحن على ملة إبراهيم.

قال الله تعالى: {مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٦٧)} [آل عمران: ٦٧].

{كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ} تقدم الكلام عليها.

{إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ} الجملة هذه استئنافية يقصد بها الثناء على إبراهيم بغاية ما يثنى به وهو الإيمان والعبودية. فالعبودية في قوله: {إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا}، والعبودية هنا العبودية الخاصة بل خاصة الخاصة؛ لأن العبودية تنقسم إلى قسمين: عامة مثل: {إِنَّ اللهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (٤٤)} [غافر: ٤٤]

وخاصة: مثل: {وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا}. [الفرقان: ٦٣]

ومنها ما هو أخص وهي عبودية الرسالة في قوله تعالى: {تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا (١)}. [الفرقان: ١]

وكلما كان أخص فهو أكمل، والأخص ينافي الأعم؛ لأن العبودية الخاصة في ضمن العبودية العامة، فكل من كان عبدًا لله بالمعنى الخاص فهو عبد له بالمعنى العام، ولا عكس يعني ليس كل من كان عبدًا لله في المعنى العام يكون عبدًا لله في المعنى الخاص.

=

=

{وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ} بشرنا إبراهيم بإسحاق يعني أعلمناه به على وجه يسر به بعد البشارة الأولى بإسماعيل، ولهذا كان إسماعيل أكبر من إسحاق عليهما الصلاة والسلام.

وقوله: {وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا} قال المصنف رحمه الله[نبيًا: حال مقدرة أي يوجد مقدرًا نبوته]. أي بولادته ووجوده نبيًّا حال من إسحاق، وأفادنا المصنف بأنها حال مقدرة، لكن لما كانت أمرًا واقعًا لا محالة وصف بها حال البشارة وإلا فإنه حال البشارة ليس بنبي إذ إنه صغير، ولكن سيكون نبيًّا، ولما كان هذا الأمر محققًا جعل كأنه حال واقعة وأمر واقع.

وقوله: {مِنَ الصَّالِحِينَ} أي: القائمين بحق الله تعالى وحق عباده.

{وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ} أي: على إبراهيم قال المصنف رحمه الله[بتكثير ذريته {وَعَلَى إِسْحَاقَ} ولده بجعلنا أكثر الأنبياء من نسله].

أي: بارك الله على إبراهيم عليه الصلاة والسلام حيث جعل في ذريته النبوة والكتاب، فكل الأنبياء بعد إبراهيم من نسله وعلى إسحاق عليه الصلاة والسلام -أيضًا؛ لأن أنبياء بني إسرائيل كلهم من نسل إسحاق، وليس من ولد إسماعيل نبي إلَّا محمد ﷺ.

قال: [{وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ} مؤمن {وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ} كافر {مُبِينٌ}، بين الكفر].

{وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا} أي: ذرية إبراهيم وإسحاق. {مُحْسِنٌ} أي: قائم بحق الله عز وجل وحق عباده، ومنهم {وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ} بارتكاب المعاصي والعدوان على الحق وعلى الخلق.

{مُبِينٌ} أي: بيّن الظلم كما قال المصنف. وعلى هذا فهي من أبان اللازم، ويجوز أن تكون من أبان المتعدي، ويكون المعنى: مظهر لظلمه، والواقع أن ذرية إسماعيل وإسحاق يتصفون بهذا الوصف: ظالم ومحسن. ولهذا لما قال إبراهيم

=

وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ (١١٤).

{وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ} بِالنُّبُوَّةِ.

وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (١١٥).

{وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمهمَا} بَنِي إِسْرَائِيل {مِنَ الْكَرْب الْعَظِيم} أَيْ استعباد فرعون إياهم.

وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ (١١٦).

{ونصرناهم} على القبط {فكانوا هم الغالبين}.

وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ (١١٧).

{وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَاب الْمُسْتَبِين} الْبَلِيغ الْبَيَان فِيمَا أَتَى بِهِ مِنْ الْحُدُود وَالْأَحْكَام وَغَيْرهَا وَهُوَ التَّوْرَاة.

وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (١١٨).

{وهديناهما الصراط} الطريق {المستقيم}.

وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ (١١٩).

{وَتَرَكْنَا} أَبْقَيْنَا {عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ} ثَنَاء حَسَنًا.

سَلَامٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ (١٢٠).

=

حين قال له الله عز وجل: {وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ (١٢٤)} [البقرة: ١٢٤]، فكان في قوله: {لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ (١٢٤)} [البقرة: ١٢٤] إشارة أنه سيكون من ذرية إبراهيم من هو ظالم لا يستحق أن يكون إمامًا في دين الله عز وجل.

{سلام} منا {على موسى} وهارون.

إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٢١).

{إنا كذلك} كما جزيناهما {نجزي المحسنين}.

إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١٢٢).

{إنهما من عبادنا المؤمنين}[1].

---

(١)قوله تعالى: {وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ} (١١٤).

قال يحيى بن سلام:"بالنبوة".

قال الواحدي:"أنعمنا عليهما بالنبوة".

قال الطبري: يقول:"ولقد تفضلنا على موسى وهارون ابني عمران، فجعلناهما نبيين".

قال ابن عطية:"المنة، على موسى وهارون هي في النبوءة وسائر ما جرى معها من مكانتها عند الله تعالى".

قال السمعاني:"{مَنَنَّا}، أي: أنعمنا".

قال الراغب:"المَنُّ: ما يوزن به، يقال: مَنٌّ، ومنّان، وأَمْنَانٌ، وربّما أبدل من إحدى النّونين ألف فقيل: مَنًا وأَمْنَاءٌ، ويقال لما يقدّر: ممنون كما يقال: موزون، والمِنَّةُ: النّعمة الثّقيلة، ويقال ذلك على وجهين:

أحدهما: أن يكون ذلك بالفعل، فيقال: منَّ فلان على فلان: إذا أثقله بالنّعمة، وعلى ذلك قوله: {لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ} [آل عمران: ١٦٤]، {كَذلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللهُ عَلَيْكُمْ} [النساء: ٩٤]، {وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلى مُوسى وَهارُونَ} [الصافات: ١١٤]، {يَمُنُّ عَلى مَنْ يَشاءُ}

[إبراهيم: ١١]، {وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا} [القصص: ٥]، وذلك على الحقيقة لا يكون إلّا لله تعالى.

=

=

والثاني: أن يكون ذلك بالقول، وذلك مستقبح فيما بين الناس إلّا عند كفران النّعمة، ولقبح ذلك قيل: «المِنَّةُ تهدم الصّنيعة»، ولحسن ذكرها عند الكفران قيل: إذا كفرت النّعمة حسنت المنّة. وقوله: {يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَن أَسْلَمُوا قُلْ لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ} [الحجرات: ١٧]، فالمنّة منهم بالقول.. ".

قوله تعالى: {وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ} [الصافات: ١١٥]، أي:"ونجيناهما وقومهما من الغرق، وما كانوا فيه من عبودية ومَذلَّة".

قال الطبري: يقول:"ونجيناهما وقومهما من الغم والمكروه العظيم الذي كانوا فيه من عُبودة آل فرعون، ومما أهلكنا به فرعون وقومه من الغرق".

عن السدّيّ، قوله: " {وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ}، قال: من الغرق".

وقال قتادة:"أي: من آل فرعون".

قال يحيى:"من فرعون وقومه".

قال السمعاني:"أي: من الغم العظيم، وهو الغرق والهلاك".

قال الواحدي: أي:"استعباد فرعون إياهم وما كان يصيبهم من جهته من البلاء".

قال الزمخشري: أي:"من الغرق. أو من سلطان فرعون وقومه وغشمهم ".

قال ابن عطية:" {الْكَرْبِ الْعَظِيمِ}، هو تعبد القبط لهم، ثم جيش فرعون لما قالت بنو إسرائيل: {إِنَّا لَمُدْرَكُونَ} [الشعراء: ٦١]، ثم البحر بعد ذلك".

قوله تعالى: {وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ (١١٦)} [الصافات: ١١٦].

قال الطبري: " يقول: ونصرنا موسى وهارون وقومهما على فرعون وآله بتغريقناهم، {فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ} لهم".

قال البغوي:" {ونصرناهم} يعني: موسى وهارون وقومهما، {فكانوا هم الغالبين} على القبط".

قال القاسمي:"أي: مع ضعفهم وقوة فرعون وقومه".

=

=

قال الزمخشري:"{وَنَصَرْناهُمْ}، الضمير لهما ولقومهما".

قال ابن عطية:"الضمير في {نَصَرْناهُمْ} عائد على الجماعة المتقدم ذكرها وهم «موسى وهارون وقومهما»، وقال قوم: أراد موسى وهارون ولكن أخرج ضميرهما مخرج الجمع تفخيما، وهذا مما تفعله العرب تكني عمن تعظم بكناية الجمع".

قال القرطبي: الصواب: أن "الضمير لموسى وهرون وقومهما، لأن قبله: {ونجيناهما وقومهما} ".

قال يحيى:"وكانا شريكين في الرسالة، وكان موسى أفضلهما ".

قال القشيري:"منّ عليهما بالنبوة، وبالنجاة من فرعون وقومه، وبنصرته عليهم".

قوله تعالى: {وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ} [الصافات: ١١٧]، أي:"وآتيناهما التوراة البينة".

قال الطبري: يقول:"وآتينا موسى وهارون التوراة المتبيِّن هُدَى ما فيه وتفصيله وأحكامه".

عن قتادة:"قوله: {وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِين}، قال: التوراة".

قال البغوي:"{الْكِتَابَ الْمُسْتَبِين}، أي: المستنير وهو التوراة".

قال الزمخشري: أي:"البليغ في بيانه وهو التوراة".

قال القرطبي: " {الْكِتَابَ الْمُسْتَبِين}: التوراة، يقال استبان كذا أي صار بينا، واستبانه فلان مثل تبين الشيء بنفسه وتبينه فلان".

قوله تعالى: {وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ} [الصافات: ١١٨]، أي:"وهديناهما الطريق المستقيم الذي لا اعوجاج فيه، وهو الإسلام دين الله الذي ابتعث به أنبياءه".

=

=

قال الطبري: يقول:"وهدينا موسى وهارون الطريق المستقيم، الذي لا اعوجاج فيه وهو الإسلام دين الله، الذي ابتعث به أنبياءه".

قال يحيى:"الإسلام، الطريق إلى الجنة".

عن قتادة: " {وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ}، الإسلام".

قال الزمخشري: أي:"صراط أهل الإسلام، وهي صراط الذين أنعم الله عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين".

قال القرطبي: أي:"الدين القويم الذي لا اعوجاج فيه وهو دين الإسلام".

قوله تعالى: {وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ} [الصافات: ١١٩]، أي:"وأبقينا لهما ثناءً حسنًا وذكرًا جميلا فيمن بعدهما".

قال السعدي:"أي: أبقى عليهما ثناء حسنا، وتحية في الآخرين، ومن باب أولى وأحرى في الأولين".

قال الطبري:"يقول: وتركنا عليهما في الآخرين بعدهم الثناء الحسن عليهما".

قال أبو عبيدة:"أي: تركناهم يقال لهم فى الآخرين.. {سَلامٌ عَلى مُوسى وَهارُونَ}، أي: يقال لهم هذا".

قال يحيى:"أي: وأبقينا عليهما الثناء الحسن".

قال قتادة:"أبقى الله عليهما الثناء الحسن في الآخرين".

قال ابن كثير:"أي: أبقينا لها من بعدهما ذكرا جميلا وثناء حسنا، ثم فسره بقوله: {سَلامٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ} [الصافات: ١٢٠ - ١٢٢]".

قال الفخر: قيل: "أن المراد وتركنا عليهما في الآخرين وهم أمة محمد ﷺ قولهم: سلام على موسى وهارون، وقيل: أن المراد وتركنا عليهما في الآخرين وهم أمة

=

=

محمد ﷺ الثناء الحسن والذكر الجميل، وعلى هذا التقدير فقوله بعد ذلك: {سَلَامٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ}، هو كلام الله تعالى".

قوله تعالى: {سَلَامٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ} [الصافات: ١٢٠]، أي:"تحيةٌ لموسى وهارون من عند الله، وثناءٌ ودعاءٌ لهما بالسلامة من كل آفة".

قال الشوكاني:"أي: أبقينا عليهما في الأمم المتأخرة الثناء الجميل".

قال الطبري:"وذلك أن يقال: سلام على موسى وهارون".

قال مقاتل:"يعني بـ «السلام»: الثناء الحسن".

قال أبو هلال العسكري:"أراد الثناء الحسن عليهم، ويجوز أن يكون أراد قول المسلمين عند ذكر الأنبياء عليهم السلام".

قوله تعالى: {إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ} [الصافات: ١٢١]، أي:"كما جزيناهما الجزاء الحسن نجزي المحسنين من عبادنا المخلصين لنا بالصدق والإيمان والعمل".

قال مقاتل:"هكذا نجزي كل من أحسن".

قال الطبري:"يقول: هكذا نجزي أهل طاعتنا، والعاملين بما يرضينا عنهم".

قال ابن فورك:"الجزاء: إعطاء المضمون على العمل من خير أو شر، فجزاء الإحسان بالحمد والنفع، وجزاء الإساءة بالسوء والضر".

قوله تعالى: {إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ} [الصافات: ١٢٢]، أي:"إنهما من عبادنا الراسخين في الإيمان".

قال الطبري:"يقول: إن موسى وهارون من عبادنا المخلصين لنا الإيمان".

قال الماتريدي:"أي: من عبادنا الذين حققوا الإيمان".

=

=

قال الفخر:"المقصود التنبيه، على أن الفضيلة الحاصلة بسبب الإيمان أشرف وأعلى وأكمل من كل الفضائل، ولولا ذلك لما حسن ختم فضائل موسى وهارون بكونهما من المؤمنين، والله أعلم".

قال العثيمين: قوله تعالى: {وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ (١١٤)} موسى وهارون -عليهما الصلاة والسلام- من ذرية إسحاق، وأكد الله تعالى منته عليهما باللام، وقد، والقسم المقدر.

والمنة هي: العطاء بلا ثمن، وأعظم عطاء يعطيه الله تعالى الإنسان هو النبوة، ولهذا قال المصنف: [بالنبوة]. {وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (١١٥)} ذكر الله منته على موسى وهارون بالنبوة ثم بنجاتهما وقومهما من الكرب العظيم.

والكرب يحتمل أنه الهلاك كما سبق في نظيرها، ويحتمل أنه ما لحقهما من الشدة من فرعون، فإن فرعون استعبد بني إسرائيل، وصار يقتل أبناءهم ويستحيي نساءهم، يذبح أبناءهم فأحيانًا يذبحهم ذبحًا كالغنم، وأحيانًا يقتلهم قتلًا، إما بأحجار، أو بغيرها، وكان يؤذيهم أشد الإيذاء، يسومهم سوء العذاب، ولا شك أن هذا سيكون فيه كرب عظيم على هؤلاء القوم، فنجاهم الله سبحانه وتعالى من ذلك. فذكر الله منته عليهم به.

{وَنَصَرْنَاهُمْ} الضمير يعود على موسى وهارون وقومهما أي: نصرناهم على عدوهم، وأعظم انتصار ما حصل في النهاية حيثما أمر موسى عليه الصلاة والسلام أن يخرج من مصر فاتجه إلى البحر الأحمر، ولما بلغه أمر بضربه فضربه فانفلق، فخرج موسى وقومه سالمين، ودخل فرعون وقومه فهلكوا حتى أراهم الله سبحانه وتعالى جثة فرعون فوق الماء؛ ليطمئنوا بموته ويتيقنوا ذلك، فلهذا كان ذلك نصرًا لهم.

=

=

وقوله: {فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ (١١٦)} الغالبين في النهاية، وإلا فإن أول الأمر كان فرعون قد سامهم سوء العذاب، لكن العبرة بالنهاية، والنهاية أنهم غلبوا؛ لأن الله عز وجل يقول في آل فرعون: {كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٢٥) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٢٦) وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ (٢٧)} [الدخان: ٢٥ - ٢٧] يعني الأمر، كذلك مؤكد، {كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ (٢٨)} [الدخان: ٢٨] وهؤلاء القوم هم بنو إسرائيل كما في آية الشعراء، فإذا من النصر العظيم أن الله تعالى يورث هؤلاء القوم الذين استضعفوا في الأرض، أرض هؤلاء العتاة الطغاة الفراعنة بكل سهولة.

{وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ (١١٧)} أي: أعطيناهما الكتاب المستبين، وهو التوراة وسماه كتابًا؛ لأن الله سبحانه وتعالى كتبه بيده كما جاء ذلك في بعض الآثار، فالله سبحانه وتعالى كتب التوراة بيده، قال الله تعالى: {وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ} [الأعراف: ١٤٥] فهي إذًا كتاب بمعنى مكتوب، ووصفه بأنه مستبين لأنه فيه تبيان كل شيء يحتاج إليه بنو إسرائيل، والمستبين أبلغ من المبين أو البيِّن؛ لأنه كلما كثرت الحروف كثرت المعاني في الغالب، ولهذا يقال: زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى، لكن هذا ليس دائمًا، بل في الغالب، فمثلًا كلمة (شجرة) حروفها أكثر من شجر ومع ذلك شجر أكثر من شجرة، وكذلك بقر ونمل وما أشبهه.

يقول الله تعالى: {الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ (١١٧)}.

قال المصنف رحمه الله: [البليغ البيان] أتى المصنف بكلمة: البليغ: البيان من قوله: {الْمُسْتَبِينَ (١٧)} لأن زيادة حروفها تدل على زيادة معناها [فيما أتى به من الحدود والأحكام وغيرها]، ولهذا يقال: إن أشمل كتاب بعد القرآن هو التوراة، وقد جعلها الله تعالى عمدة لبني إسرائيل {إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ

=

=

بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ} [المائدة: ٤٤].

{وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (١١٨)} الصراط: الطريق لكن قال العلماء: إنه ليس كل طريق صراطًا، بل هو الطريق الواسع المستقيم المعتدل، الذي ليس فيه اعوجاج، وذلك لأنه مأخوذ من سرط أو زرط بمعنى التقمته بسرعة، فالطريق الواسع المستقيم العدل يسمى صراطًا، ولا شك أن صراط الله عز وجل الذي وضعه لعباده طريق واسع يسع كل من تمسك به.

وقوله: {وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ} ولم يقل إلى الصراط؛ لأن المراد بذلك هداية التوفيق وهداية الدلالة، وإذا كان المراد بالهداية الهدايتان فإنه يتعدى بنفسه، فيقال: اهدنا الصراط. وانظر إلى قوله تعالى في سورة الفاتحة: {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦)} [الفاتحة: ٦] وقال في حق النبي ﷺ: {وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٢)} [الشورى: ٥٢] فإذا كانت الهداية بمعنى الدلالة تعدت بإلى، وإذا كانت بمعنى الدلالة والتوفيق تعدت بنفسها. ثم إنها إذا تعدت بنفسها تفيد الهداية إلى الصراط والهداية في الصراط، فتفيد المعنيين جميعًا: إلى الصراط بحيث يصل الإنسان إليه، وفيه بحيث لا يتجاوزه ولا يخرج عنه.

فحذف الجار فيه هذه الفائدة أن يكون أعم مما لو تعين الجار، فيكون شاملًا لهدايته إليه وللهداية فيه.

وقوله: {الْمُسْتَقِيمَ} وإذا جعلنا الصراط هو الطريق الواسع المعتدل صارت المستقيم بيانًا للواقع وصفة كاشفة؛ لأن لو حذفت وقيل: الصراط. لاستغني عنها إذا فسرنا الصراط بما ذكرنا.

أما إن فسر الصراط بمطلق الطريق فلابد من ذكرها.

=

وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٢٣).

{وَإِنَّ إِلْيَاس} بِالْهَمْزَةِ أَوَّله وَتَرْكَهُ {لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ} قيل هو بن أَخِي هَارُونَ أَخِي مُوسَى وَقِيلَ غَيْره أُرْسِلَ إِلَى قَوْم بِبَعْلَبَكّ وَنَوَاحِيهَا.

إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ (١٢٤).

{إِذْ} مَنْصُوب بِأُذْكُرْ مُقَدَّرًا {قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تتقون} الله.

أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ (١٢٥).

{أَتَدْعُونَ بَعْلًا} اسْم صَنَم لَهُمْ مِنْ ذَهَب وَبِهِ سُمِّيَ الْبَلَد أَيْضًا مُضَافًا إِلَى بَكّ أَيْ أَتَعْبُدُونَهُ {وَتَذَرُونَ} تَتْرُكُونَ {أَحْسَن الْخَالِقِينَ} فَلَا تعبدونه.

اللهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (١٢٦).

{الله رَبّكُمْ وَرَبّ آبَائِكُمْ الْأَوَّلِينَ} بِرَفْعِ الثَّلَاثَة عَلَى إِضْمَار هُوَ وَبِنَصْبِهَا عَلَى الْبَدَل مِنْ أحسن.

=

وقوله: {الْمُسْتَقِيمَ (١١٨)} يعني الذي استقام فليس فيه اعوجاج ولا انحراف، قال الله تعالى: {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ} [الأنعام: ١٥٣].

فالصراط المستقيم معتدل قائم، والسبل تخرج يمينًا وشمالًا، ولذلك من خرج عن الصراط المستقيم ضاع وتاه، قال الله تعالى: {كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى} [الأنعام: ٧١].

{وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ (١١٩)} قال المصنف رحمه الله: [أبقينا عليهما في الآخرين ثناءً حسنًا {سَلَامٌ} منا {عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ (١٢٠)}] يقال في هاتين الآيتين ما سبق، قال: [{إِنَّا كَذَلِكَ} كما جزيناهما {نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٢١) إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١٢٢)} أيضًا نقول فيها كما سبق.

فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٢٧).

{فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ} فِي النَّار.

إِلَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ (١٢٨).

{إلَّا عِبَاد الله الْمُخْلَصِينَ} أَيْ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُمْ فَإِنَّهُمْ نَجَوْا مِنْهَا.

وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٢٩).

{وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ} ثَنَاء حَسَنًا.

سَلَامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ (١٣٠).

{سَلَام} مِنَّا {عَلَى إلْ يَاسِين} قِيلَ هُوَ إلْيَاس الْمُتَقَدِّم ذِكْره وَقِيلَ هُوَ وَمَنْ آمَنَ مَعَهُ فَجَمَعُوا مَعَهُ تَغْلِيبًا كَقَوْلِهِمْ لِلْمُهَلَّبِ وَقَوْمه الْمُهَلَّبُونَ وَعَلَى قِرَاءَة آل يَاسِين بِالْمَدِّ أَيْ أَهْله الْمُرَاد بِهِ إلْيَاس أَيْضًا.

إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٣١).

{إنا كذلك} كما جزيناه {نجزي المحسنين}.

إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١٣٢).

{إنه من عبادنا المؤمنين}(١).

---

(١)قوله تعالى: {وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ} [الصافات: ١٢٣].

قال الطبري: يقول:"وإن إلياس، لمرسل من المرسلين".

قال الفراء:"ذُكِرَ أَنَّهُ نبيٌّ، وأنّ هَذَا الاسم اسم من أسماء العبرانية".

قال السمعاني:"في التفسير: أن إلياس كان من ولد هارون، وبعثه الله إلى بني إسرائيل، ويقال: بعثه الله إلى بعلبك، وهي بلدة، وقد كان أهلها يعبدون صنما يسمى: بعلا".

واختلف اهل التفسير في «إِلْيَاسَ» على اقوال:

=

=

أحدها: أنه إلياس بن ياسين بن فنحاص بن العيزار بن هارون بن عمران. قاله ابن إسحاق.

الثاني: أنه إدريس، كما أن إسرائيل هو يعقوب. وهذا قول عبد الله بن مسعود، وقتادة.

الثالث: أنه الخضر. حكاه النحاس.

الرابع: أنه جدّ نوح بن لمك بن متوشلخ بن أخنوخ، و «أخنوخ» هو «إدريس بن يرد بن مهلائيل». وهذا قول وهب بن منبه، وبه قال أهل الأنساب، وهو اختيار الطبري.

ورويت عن ابن مسعود أنه قرأ: «وإن إدريس»، ورويت: «سلام على إدراسين».

قوله تعالى: {إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ} [الصافات: ١٢٤]، أي:"إذ قال لقومه من بني إسرائيل: اتقوا الله وحده وخافوه، ولا تشركوا معه غيره".

قال الطبري:"يقول: حين قال لقومه في بني إسرائيل: ألا تتقون الله أيها القوم، فتخافونه، وتحذرون عقوبته على عبادتكم ربا غير الله، وإلهًا سواه".

قال السمعاني:"معناه: ألا تخافون الله وتحذرونه".

قوله تعالى: {أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ} [الصافات: ١٢٥]، أي:"كيف تعبدون صنمًا، وتتركون عبادة الله أحسن الخالقين -المتصف بأحسن الصفات وأكملها فلا تعبدونه! -".

قال ابن كثير:"أي: أتعبدون صنما؟ {وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ} ".

قال الطبري: {وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ}، "يقول: وتَدعون عبادة أحسن مَن قيل له خالق".

قال النحاس:"{أَتَدْعُونَ} بمعنى: أتسمّون، حكى ذلك سيبويه".

وفي قوله تعالى: {أَتَدْعُونَ بَعْلًا} [الصافات: ١٢٥]، وجوه من التفسير:

=

=

أحدها: معناه: أتدعون ربًّا؟. قاله عكرمة، ومجاهد، وقتادة، والسدي، ويحيى بن سلام.

قال عكرمة:"وهي لغة أهل اليمن، تقول: من بعل هذا الثور: أي: من ربُّه؟ ".

قال قتادة:"هذه لغة باليمانية: أتدعون ربا دون الله".

وعن قتادة:" {أتدعون بعلا} ، قال: ربا، بلغة أزد شنواة".

قال القاسم بن سلام:"يعني: ربا بلغة حمير، وقيل: بلغة أزد شنوءة".

وروي عن عبد الله بن أبي يزيد، قال: كنت عند ابن عباس فسألوه عن هذه الآية: {أَتَدْعُونَ بَعْلا} ، قال: فسكت ابن عباس، فقال رجل: أنا بعلها، فقال ابن عباس: كفاني هذا الجواب".

وقال مقاتل:"بلغة اليمن «الإله» يسمى: بعلا، وكان صنما من ذهب ببعلبك بأرض الشام فكسره إلياس، ثم هرب منهم".

قال ابو عبيدة:"يقال: أنا بعل هذه الدابة أي ربّها، والبعل الزوج ويقال: لما استبعل واستغنى بماء السماء من النخل ولم يكن سقيا فهو بعل والبعل هو العذىّ أيضا ما لم يسق".

قال ابن قتيبة:"يقال: أنا بعل هذه الناقة، أي ربها. وبعل الدار، أي: مالكها".

قال الضحاك:"مر رجل يقول: من يعرف البقرة؟ فقال رجل: أنا بعلها فقال له ابن عباس -رضي الله عنهما-: تزعم أنك زوج البقرة؟ قال الرجل: أما سمعت قول الله: {أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ} [الصافات: ١٢٥]، قال: تدعون بعلا، وأنا ربكم. فقال له ابن عباس رضي الله عنهما: صدقت".

عن عكرمة، عن ابن عباس -رضي الله عنهما-:"أنه أبصر رجلا يسوق بقرة، فقال: من بعل هذه؟ فدعاه فقال: ممن أنت؟ قال: من أهل اليمن، فقال: هي لغة: {أَتَدْعُونَ بَعْلًا} ، أي: ربا".

=

=

الثاني: أن «بعل» اسم صنمهم، وهذا قول الحسن،وزيد بن أسلم.

قال زيد بن أسلم:"صنمًا لهم كانوا يعبدونه في بعلبك، وهي وراء دمشق، فكان بها البعلُ الذي يعبدونه".

وروي عن ابن عباس، قوله: " {أتدعون بعلا}، قال: صنما".

قال النحاس:"روى الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس: {أَتَدْعُونَ بَعْلًا}، قال: صنما. وروى عطاء بن السائب عن عكرمة عن ابن عباس {أَتَدْعُونَ بَعْلًا}، قال: ربّا. قال النحاس: القولان صحيحان، أي: تدعون صنما عملتموه ربّا".

الثالث: أنه اسم امرأة كانوا يعبدونها، قاله ابن شجرة، وحكاه ابن إسحاق.

قوله تعالى: {اللهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ} [الصافات: ١٢٦]، أي:"ربكم الذي خلقكم، وخلق آباءكم الماضين قبلكم".

قال ابن كثير:"أي: هو المستحق للعبادة وحده لا شريك له".

عن محمد بن إسحاق، عن وهب بن منبه، قال: "إن الله قبض حِزْقيل، وعظمت في بني إسرائيل الأحداث، ونُسوا ما كان من عهد الله إليهم، حتى نصبوا الأوثان وعبدوها دون الله، فبعث الله إليهم إلياس بن ياسين بن فنحاص بن العيزار بن هارون بن عمران نبيا. وإنما كانت الأنبياء من بني إسرائيل بعد موسى يُبعثون إليهم بتجديد ما نُسوا من التوراة، فكان إلياس مع ملك من ملوك بني إسرائيل، يقال له: أحاب، كان اسم امرأته: أربل، وكان يسمع منه ويصدّقه، وكان إلياس يقيم له أمره، وكان سائر بني إسرائيل قد اتخذوا صنما يعبدونه من دون الله يقال له بعل.

ثم قال ابن إسحاق: "وقد سمعت بعض أهل العلم يقول: ما كان بعل إلا امرأة يعبدونها من دون الله؛ يقول الله لمحمد: {وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلا تَتَّقُونَ أَتَدْعُونَ بَعْلا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ اللهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ}،

=

=

فجعل إلياس يدعوهم إلى الله، وجعلوا لا يسمعون منه شيئا إلا ما كان من ذلك الملك، والملوك متفرّقة بالشام، كل ملك له ناحية منها يأكلها، فقال ذلك الملك الذي كان إلياس معه يقوم له أمره، ويراه على هدى من بين أصحابه يوما: يا إلياس، والله ما أرى ما تدعو إليه إلا باطلا والله ما أرى فلانا وفلانا، يعدّد ملوكًا من ملوك بني إسرائيل قد عبدوا الأوثان من دون الله- إلا على مثل ما نحن عليه، يأكلون ويشربون وينعمون مملكين، ما ينقص دنياهم أمرهم الذي تزعم أنه باطل، وما نرى لنا عليهم من فضل؛ فيزعمون- والله أعلم- أن إلياس استرجع وقام شعر رأسه وجلده، ثم رفضه وخرج عنه، ففعل ذلك الملك فعل أصحابه: عبد الأوثان، وصنع ما يصنعون، فقال إلياس: اللهمّ إن بني إسرائيل قد أبَوْا إلا أن يكفروا بك والعبادة لغيرك، فغير ما بهم من نعمتك أو كما قال.

قوله تعالى: {فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ} [الصافات: ١٢٧]، أي:"فكذب قوم إلياس نبيهم، فليجمعنهم الله يوم القيامة للحساب والعقاب".

قال الطبري:"يقول: فكَذّب إلياس قَومُهُ، فإنهم لمحضرون: يقول: فإنهم لمحضرون في عذاب الله فيشهدونه".

قال أبو عبيدة: معناه:"لمهلكون".

قال يحيى:"في النار".

عن قتادة: " {فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ}، في عذاب الله".

وقال ابن ابي زمنين:"يريد أنهم لمبعوثون".

قوله تعالى: {إِلَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ} [الصافات: ١٢٨]، أي:"إلا عباد الله الذين أخلصوا دينهم لله، فإنهم ناجون من عذابه".

قال أبو عبيدة:" {إِلَّا عِبادَ اللهِ} : استثناء".

قال يحيى:"استثنى الله من آمن منهم".

=

=

قال الطبري:"يقول: فإنهم يحضرون في عذاب الله، إلا عباد الله الذين أخلصهم من العذاب".

قال ابن ابي زمنين:"يريد: الذين صدقوا وأخلصوا لله بالتوحيد".

قال مقاتل:"يعني: المصدقين لا يحضرون النار".

قوله تعالى: {وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ} [الصافات: ١٢٩]، أي:"وجعلنا لإلياس ثناءً جميلا في الأمم بعده".

قال الطبري:"يقول: وأبقينا عليه الثناء الحسن في الآخرين من الأمم بعده".

قال يحيى:"أي: وأبقينا على آل ياسين في الآخرين الثناء الحسن".

قوله تعالى: {سَلَامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ} [الصافات: ١٣٠]، أي:"تحية من الله، وثناءٌ على إلياس".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: أمنة من الله لآل ياسين".

قال مقاتل:"يعنى بالسلام الثناء الحسن والخير الذي ترك عليه في الآخرين".

عن السديّ: " {سَلامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ}، قال: إلياس".

قال الالوسي:"المقصود هنا؛ أن هذا السلام- المأمور به خصوصا، والمشروع في الصلاة وغيرها عموما، على كل عبد صالح كقول المصلي السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين؛ فإن هذا -ثابت في التشهدات المروية عن النبي ﷺ".

قرأ نافع وابن عامر: «سلامٌ على آل ياسين»، بفتح الهمزة ومدها وكسر اللام، وقرأ الباقون بكسر الهمزة وتسكين اللام، وقرأ الحسن: «سلام على ياسين»، بإسقاط الألف واللام، وقرأ ابن مسعود: «سَلامٌ عَلى إِدْرَاسِينَ»، لأنه قرأ: «وإن إدريس لمن المرسلين».

فمن قرأ: «الياس»، ففيه وجهان:

=

=

أحدهما: أنه جمع يدخل فيه جميع آل إلياس بمعنى أن كل واحد من أهله يسمى الياس.

قال الزجاج:"وكذلك يجمع ما ينسب إلى الشيء بلفظ الشيء، تقول: رأيت المسامعة والمهالبة، تريد: بني المهلب وبني مسمع، وكذلك: رأيت المهلبين والمسمعين".

قال أبو عبيدة:"أي: سلام على الياسين وأهله وأهل دينه جمعهم بغير إضافة الياء على العدد، فقال سلام على الياسين قال الشاعر:

قدنى من نصر الخبيبين قدمى... ليس أميرى بالشّحيح الملحد

فجعل عبد الله بن الزّبير أبا خبيب ومن كان على رأيه عددا ولم يضفهم بالياء فيقول الخبيبيّون قال أبو عبيدة يعنى بالخبيبين أبا خبيب ومصعبا أخاه وقال أبو عمرو بن العلاء: نادى مناد يوم الكلاب: هلك اليزيدون يعنى يزيد ابن عبد المدار ويزيد بن هو بر ويزيد بن مخرّم: الحارثيون ويقال جاءتك الحارثون والأشعرون وكذلك يقال فى الاثنين وأسمائهما شتى قال قيس بن زهير:

جزانى الزّهدمان جزاء سوء... وكنت المرء يجزى بالكرامه

وإنما هما زهدم وكردم، العبسيّان أخوان. وقيل لعلى بن أبى طالب: نسلك فينا سنة العمرين، يعنون أبا بكر وعمر فإن قيل: كيف بدئ بعمر قبل أبى بكر وأبو بكر أفضل منه وهو قبله؟ فإن العرب تفعل هذا تقول: ربيعة ومضر وسليم يبدءون بالأخسّ وقيس وخندق، ولم يترك قليلا ولا كثيرا".

الثاني: أنه «إلياس» فغير بالزيادة لأن العرب تغير الأسماء الأعجمية بالزيادة كما يقولون ميكال وميكاييل وميكائين. قال الشاعر:

يقول أهلُ السوق لَمَّا جينا... هَذَا وَربِّ البيت إسرائينا

ومن قرأ: «آل ياسين»، ففي قراءته وجهان:

=

=

أحدهما: أنهم آل محمد-ﷺ-، قاله ابن عباس.

قال ابن عباس:"نحن آل محمد إل ياسين".

قال أبو عبيدة:"وقالت الشيعة آل محمد أهل بيته واحتجّوا بأنك تصغر «آل» فتجعله «أهيل» ".

الثاني: أنهم آل إلياس. قال الثعلبي:"وهو أليق بسياق الآية".

وروي عن الضحاك:"أنه قرأ: «سلام على آل يسين»، وقال: هو مثل إلياس مثل عيسى والمسيح، ومحمد، وأحمد، وإسرائيل، ويعقوب".

فعلى هذا في دخول الزيادة في: «ياسين» وجهان:

أحدهما: أنها زيدت لتساوي الآي، كما قال في موضع طور سيناء، وفي موضع آخر طور سينين، فعلى هذا يكون السلام على أهله دونه وتكون الإضافة إليه تشريفًا له.

الثاني: أنها دخلت للجمع فيكون داخلًا في جملتهم ويكون السلام عليه وعليهم.

قوله تعالى: {إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ} [الصافات: ١٣١]، أي:"وكما جزينا إلياس الجزاء الحسن على طاعته، نجزي المحسنين من عبادنا المؤمنين".

قال مقاتل:"هكذا نجزي كل محسن".

قال الطبري: يقول:"إنا هكذا نجزي أهل طاعتنا والمحسنين أعمالا".

قوله تعالى: {إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ} [الصافات: ١٣٢]، أي:"إنه من عباد الله المؤمنين المخلصين له العاملين بأوامره".

قال الطبري:"يقول: إن إلياس عبد من عبادنا الذين آمنوا، فوحَّدونا، وأطاعونا، ولم يشركوا بنا شيئا".

قال مقاتل:"المصدقين بالتوحيد".

=

=

قال العثيمين: قوله تعالى: {وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٢٣)} الجملة هذه مؤكدة بـ (إن) و (اللام). ويؤكد الله مثل هذه الأشياء التي يكفي فيها خبره - سبحانه وتعالى عن كل توكيد جريًا على عادة العرب في توكيدهم الأمور الهامة، أو الأمور التي يكون المخاطب فيها شاكًّا، أو يكون المخاطب فيها منكرًا، فهم يؤكدون الخبر لأسباب منها هذه الأسباب الثلاثة: أن يكون المخبر به أمرًا هامًّا، أو أن يكون المخبر شاكًّا في الخبر، أو أن يكون منكرًا له، فيؤكدونه زيادة في طمأنينة المخاطب، وإلا فإن مجرد خبر الله تعالى في الشيء يغني عن كل توكيد، وقوله: {إِلْيَاسَ} قال المصنف رحمه الله: [بالهمز أوله وتركه] يعني أن فيه قراءتين إلياس بهمزة قطع، وترك الهمزة {لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ} الذي يظهر أنه من أنبياء بني إسرائيل، قال المصنف: رحمه الله[قيل: هو ابن أخي هارون أخي موسى، وقيل: غيره، أرسل إلى قوم ببعلبك ونواحيها] ليس هناك دليل على أنه ابن أخي هارون أخي موسى لا من القرآن ولا من السنة، وذكر قصته بعد قصتهما لا يفيد ذلك فالله تعالى يذكر قصة هود بعد نوح ومع ذلك بينهما زمن طويل، ونحن لا يهمنا صلة هذا النبي بالنبي الآخر من حيث النسب، لكن الذي يهمنا صلة دعوتهما ببعض، كما قال تعالى في قصة إبراهيم: {وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ (٨٣)} [الصافات: ٨٣] فإن الأنبياء دعواهم واحدة، كلهم يدعون إلى توحيد الله، أما النسب فليس بهام.

فإلياس رسول أرسله الله تعالى إلى بعلبك -كما هو كلام المصنف-

{إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ} قال المصنف رحمه الله[إذ منصوب باذكر مقدرًا] أي اذكر إذ قال لقومه، وإذا قلنا: إنه منصوب باذكر مقدرًا فهل الخطاب للرسول ﷺ؟ يعني اذكر إلياس لقومك، أو الخطاب لكل واحد يصح خطابه، ويكون المراد بقوله: اذكر

=

=

المقدر أي: تذكر، يحتمل هذا وهذا، وعلى كل حال فإن الله أمر نبيه أن يذكر للناس هذه القصة، وأمر كل واحد أن يتذكر هذه القصة، لأن في ذلك عبرة.

{أَلَا تَتَّقُونَ (١٢٤)} {أَلَا} هنا: أداة تحضيض وليست أداة عرض؛ لأنه لا يقصد عرض التقوى عليهم، ولكن يحضهم على هذا، قال المصنف: (ألا تتقون الله) فقدر المفعول المحذوف باسم الجلالة، ولكن الأولى أن يقال: إنه أعم من ذلك، ألا تتقون الله، ألا تتقون النار، كما قال تعالى: {وَاتَّقُوا النَّار} [آل عمران: ١٣١] ألا تتقون يوم الحساب كما قال تعالى: {وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ} [البقرة: ٢٨١] فحذف المفعول أعم، ولا ينبغي إذا دلت الآية على معنى أعم أن نقيدها بمعنى أخص؛ لأن هذا يعتبر نقصًا في تفسير الآية، بل إذا جاءت الآية عامة فلتبقى على عمومها، مطلقة فلتبقى على إطلاقها.

والتقوى: اتخاذ وقاية من عذاب الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه.

{أَتَدْعُونَ بَعْلًا} الاستفهام هنا للتوبيخ والإنكار والتسفيه، وتدعون بمعنى تعبدون، فإن الدعاء يسمى عبادة. قال الله تعالى: {وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي} [غافر: ٦٠] ولم يقل: عن دعائي، وهذا يدل على أن الدعاء يراد به العبادة وهو كذلك، ويحتمل أن يكون المراد بدعوتهم لهذا الصنم دعوة المسألة، وأنهم يستغيثون بهذا الصنم، وإن لم يركعوا له ويسجدوا له، كما يوجد الآن في كثير من المسلمين مع الأسف من يدعو الأولياء في قبورهم وإن كانوا لا يركعون لهم، ولا يسجدون، فكوننا نجعل الدعاء بمعنى العبادة أعم من أن نجعله بمعنى السؤال؛ لأن السؤال نفسه عبادة كل إنسان يسأل الله ولو حاجة دنيوية، فإنه يعتبر عابدًا لله عز وجل مثنيًا عليه؛ لأنه جعله المرجع سبحانه وتعالى وجعله ملاذه.

=

=

{أَتَدْعُونَ بَعْلًا} قال المصنف رحمه الله[اسم صنم لهم من ذهب، وبه سمي البلد أيضًا مضافًا إلى (بك) أي أتعبدونه {وَتَذَرُونَ} أي: تتركون أحسن الخالقين.

وهنا قال: {أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ (١٢٥)} ولم يقل: تذرون الله، بل قال: أحسن الخالقين، فلابد أن يكون هناك نكتة، فالعدول عن اسم الله الذي يختص به وهو الله لابد أن يكون هناك نكتة، النكتة هنا هي: إقامة الحجة عليهم بعدم صلاحية معبودهم للعبادة، لأنه لا يستطيع الخلق، والله وحده هو الذي يقدر على الخلق وعلى أحسن الخلق، فالله تعالى أحسن الخالقين، وكل من خلق شيئًا فالله تعالى أحسن منه خلقًا حتى الذين يضاهئون بخلق الله لا يمكن أن يخلقوا مثل خلق الله، بل هم يقلدون على خلق الله، ولا يمكن أن يأتوا بمثله ولا أحسن منه، فالله سبحانه وتعالى هو أحسن الخالقين.

وفي قوله: {أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ} إشكال، وهو أنه قد يفهم فاهم من هذه الآية أنهم لو دعوا البعل ولم يذروا الله فلا إنكار عليهم، فما الجواب؟

الجواب أن يقال: يحتمل أن هؤلاء القوم يدعون البعل، ولا يدعون الله ولا يعبدون الله، كما يوجد الآن في طوائف الكفر من لا يرون أحدًا يطاع ويتقى إلا زعماؤهم ورؤساؤهم، فالدول الشيوعية مثلًا كانوا لا يعرفون إلا ستالين ومن سن لهم هذه القوانين، ويرون أنه هو الرب الذي يجب أن يطاع وأن يخشى، ولا يعرفون الله، وعلى هذا فيكون قوله: {أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ (١٢٥)} على ظاهره، أي أنهم يدعون هذا البعل، ولا يدعون الله.

ويحتمل أنهم يدعون البعل، ويدعون الله، ولكن من دعا غير الله ودعا الله فإن الله غني عنه، فيكون كالتارك لدعاء الله، كما صح الحديث عن رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه أنه قال: "أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملًا أشرك فيه

=

=

معي غيره تركته وشركه" وعلى هذا فيكون إلياس جعلهم تاركين لله لأنهم أشركوا به، ومن أشرك بالله معه غيره فالله غني عنه كأنه لم يعبد الله.

وعلى هذا فإما أن يكونوا قد تركوا الله على سبيل الحقيقة إذا كانوا يعبدون البعل ولا يعبدون الله، أو يكونوا تركوا الله على سبيل الحكم إذا كانوا يعبدون البعل ويعبدون الله، فإن هؤلاء حقيقة تركوا عبادة الله؛ لأن الله تعالى غني عنهم.

قوله تعالى: {اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (١٢٦)}.

قال المصنف: [برفع الثلاثة على إضمار هو، ونصبها على البدل من أحسن].

الثلاثة: الله، ربكم، ورب آبائكم.

يقول فيها قراءتان: الأولى: الرفع، على أنها خبر مبتدأ محذوف يعني هو رب، وتكون هذه الجملة منقطعة عما قبلها، استئنافية لبيان من هو أحسن الخالقين.

والقراءة الثانية بالنصب {اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (١٢٦)} على أنها بدل من أحسن. أي وتذرون {اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (١٢٦)}.

ومعنى الآية: فـ {اللَّهَ} بمعنى المألوه، وأصلها الإله، لكنها حذفت الهمزة للتخفيف لكثرة الاستعمال، {رَبَّكُمْ} أي: خالقكم ومالككم، والمدبر لأموركم، لأن الرب كما تقدم هو الخالق، المالك، المدبر، {اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (١٢٦)}، يعني السابقين وهم: الأجداد، وإنما قال: {وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (١٢٦)} إشارة إلى:

أولًا: أن الله عز وجل هو الذي بيده خلق الحياة والموت، فإن هؤلاء الآباء الأولين قد أماتهم الله، فيذكر هؤلاء بأنهم سوف يموتون كما مات آباؤهم الأولون، ومن المعلوم أن الإنسان إذا كان له قلب وذكر بالموت وأنه سوف ينتقل من هذه الحياة التي هي حياة العمل إلى حياة أخرى وهي حياة الجزاء فلابد أن

=

=

يلين قلبه، وأن يعمل للدار المستقبلة التي لابد أن يصير إليها، فكونه يذكر الآباء الأولين إشارة إلى تذكيرهم بأنهم سيموتون كما مات هؤلاء فليستعدوا.

ثانيًا: أن الله تعالى هو الخالق لموتهم وحياتهم، فإذا كان هو الخالق لذلك فإن الواجب أن يعبد وحده دون غيره، وهذا الصنم لا يخلق الموت ولا الحياة.

{فَكَذَّبُوهُ} أي: كذبوا ما جاء به خبرًا وطلبًا. كذبوه أنه رسول، وقالوا كما قال غيرهم -والعلم عند الله- {قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ (١٦٨)} [الشعراء: ١٦٨] بل كل الذين سبقوه من الرسل قيل لهم ذلك، قال الله تعالى: {أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (٩) قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ} [إبراهيم: ٩ - ١٠] فكل من سبق يكذبون رسلهم يقولون: أنتم بشر، يعني ولو شاء الله أن يرسل رسولًا لجعله ملكًا، ولكن الله رد على هؤلاء قال: {وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا} [الأنعام: ٩] أي في صورة الرجل؛ لأنه لا يتلاءم أن ينزل مَلَكٌ لبشر ليدلهم ويقودهم، وكيف يتبع الناس هذا الملك وهو على صورته الأصلية؟ لا يمكن لأنه لابد من التلاؤم، فلو أرسل الله ملكًا إلى البشر لجعله رجلًا مثلهم، وإذا جعله رجلًا عاد الأمر كما كان قالوا: نريد ملكًا، ولهذا قال: {وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ (٩)} [الأنعام: ٩] {فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٢٧)} (الفاء): هنا للسببية، أي: فبسبب تكذيبهم أنهم لمحضرون، أي محضرون إلينا يوم القيامة وسيجازون على ذلك.

وأما قول المصنف: [لمحضرون في النار] ففيه نظر؛ لأنه لم يسبق للنار ذكر، اللهم إلا أن يقال: إن الاستثناء {إِلَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ (١٢٨)} قد يدل على ذلك، لكن المعنى الذي أشرت إليه أولى: أي لمحضرون عندنا، كما قال الله تعالى:

=

=

{وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ (٣٢)}. [يس: ٣٢] والمهم أن الله تعالى أخبر عن هؤلاء بأنهم سوف يحضرون إلى الله، وسوف يجازيهم على أعمالهم.

{فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٢٧)} وهذه الجملة مؤكدة بمؤكدين: إنّ، واللام {إِلَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ (١٢٨)} أي: الذين أخلصهم الله لنفسه، فأخلصهم من الشرك ومن تكذيب الرسل، والعبودية هنا عبودية خاصة.

والاستثناء هنا متصل على كلام المصنف رحمه الله، وعلى ما أشرت إليه يكون منقطعًا، وجه ذلك أنه إذا قلنا: إنهم محضرون إلى الله فإنه لا يستثني أحد، كل سيحضر، وعلى هذا فيكون الاستثناء منقطعًا، يعني لكن عباد الله المخلصين سوف ينجون من هذا الحضور، أي من العذاب الذي يترتب على هذا الحضور والمجازاة.

أما على قول المصنف {فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٢٧)} في النار، فإن الاستثناء متصل، يعني أن قومه يحضرون في النار إلا المؤمن منهم {إِلَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ (١٢٨)}.

{وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٢٩)} قال المصنف رحمه الله: [ثناءً حسنًا {سَلَامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ (١٣٠)} هو إلياس المتقدم ذكره، وقيل: هو ومن آمن معه، فجمعوا معه تغليبًا، كقولهم للمهلب وقومه: المهلبون، وعلى قراءة (آل ياسين) بالمد، أي أهله المراد به إلياس أيضًا].

أفادنا المصنف أن في الآية قراءتين: الأولى إلياسين، والقراءة الثانية: آل ياسين، أما على القراءة الأولى إلياسين فهل إلياسين، هو إلياس؟ أو من قومه؟

فيه قولان للعلماء: فمن العلماء من قال إن إلياسين هو إلياس، فيكون كقوله تعالى: {سَلَامٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ (١٢٠)} وهنا لم يذكر إلياس قال: سلام على إلياس، لكن اختلف اللفظ؛ لأن الاسم أعجمي، والعرب إذا عربت الاسم

=

وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٣).

{وإن لوطا لمن المرسلين}.

إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (١٣٤).

=

الأعجمي صار فيه شيء من التصرف، مثل جهنم يقال أصلها جهنام، وأصلها الفارسي كهنام، وعلى هذا لا نحتاج إلى التعب، فنقول: من أين اشتقت جهنم؟
وعلى كل حال: إذا جعلنا إلياسين هو إلياس نفسه صار جاء مرة بإلياس ومرة بإلياسين بناء على أن العرب يتصرفون في الأسماء الأعجمية المعربة، وفيه معنى آخر على القراءة الأولى إلياسين على أن المراد قومه، وأن الياء والنون زيدت كما تزاد في مسلم فيقال: مسلمين، فتكون إلياسين جمع لإلياس كما قال المصنف: (المهلبون)، وأصلها يقال: المهلبيون، نسبة إلى المهلب، فآل ياسين أصلها إلياس ثم زيدت الياء والنون، وصار المراد بذلك قومه. هذا على قراءة إلياسين. فيكون فيها معنيان.

المعنى الأول: أنه إلياس نفسه، وهذا التصرف في اللفظ بناء على أنه اسم أعجمي، والعرب تتصرف بالأسماء الأعجمية عند تعريبها.

المعنى الثاني: أن المراد قومه وأنهم جمعوا باعتبار قومه.

أما على القراءة الثانية (آل ياسين) فهي أيضًا في كلمة ياسين تصرف تعريبي؛ لأن ياسين هو إلياس، وعلى هذا فيكون المراد بآل ياسين: إلياس وقومه، فآل الشخص يدخل فيهم، الشخص إلا إن ذكر معهم لم يدخل فيهم، كما تقول: اللهم صل على محمَّد وعلى آل محمَّد، أما إذا لم يذكر معهم فإنه يدخل فيهم كما في قوله تعالى: {أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ (٤٦)} [غافر: ٤٦] ومنهم فرعون بل هو أولهم: {يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ (٩٨)} [هود: ٩٨] يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار وبئس الورد المورود.

اذكر {إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ}.

إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ (١٣٥).

{إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ} أَيْ الْبَاقِينَ فِي الْعَذَاب.

ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ (١٣٦).

{ثُمَّ دَمَّرْنَا} أَهْلَكْنَا {الْآخَرِينَ} كُفَّار قَوْمه.

وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ (١٣٧).

{وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ} عَلَى آثَارهمْ وَمَنَازِلهمْ فِي أَسْفَاركُمْ {مُصْبِحِينَ} أَيْ وَقْت الصَّبَاح يَعْنِي بِالنَّهَارِ.

وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٣٨).

{وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ} يَا أَهْل مَكَّة مَا حل بهم فتعتبرون به[١].

---

(١)قوله تعالى: {وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ} [الصافات: ١٣٥].

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: وإن لوطا المرسل من المرسلين".

قال السمعاني:"أي: من جملة المرسلين، وهم الأنبياء".

قال ابن كثير:"ولوط هو ابن هاران بن آزر، وهو ابن أخي إبراهيم الخليل، عليهما السلام، وكان قد آمن مع إبراهيم، عليه السلام، وهاجر معه إلى أرض الشام، فبعثه الله تعالى إلى أهل "سَدُوم" وما حولها من القرى، يدعوهم إلى الله، عز وجل، ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عما كانوا يرتكبونه من المآثم والمحارم والفواحش التي اخترعوها، لم يسبقهم بها أحد من بني آدم ولا غيرهم، وهو إتيان الذكور. وهذا شيء لم يكن بنو آدم تعهده ولا تألفه، ولا يخطر ببالهم، حتى صنع ذلك أهل "سَدُوم" عليهم لعائن الله".

=

=

قال الوليد بن عبد الملك الخليفة الأموي، باني جامع دمشق: "لولا أن الله، عز وجل، قص علينا خبر لوط، ما ظننت أن ذكرًا يعلو ذكرًا".

قوله تعالى: {إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ} [الصافات: ١٣٥]، أي:"إذ نجيناه وأهله أجمعين من العذاب".

قال الطبري:"يقول: إذ نجَّينا لوطا وأهله أجمَعينَ من العذاب الذي أحللناه بقومه، فأهلكناهم به".

قال ابن كثير:"يخبر تعالى عن عبده ورسوله لوط، عليه السلام أنه بعثه إلى قومه. فكذبوه، فنجاه الله من بين أظهرهم هو وأهله".

قوله تعالى: {إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ} [الصافات: ١٣٥]، أي:"إلا عجوزًا هَرِمة، هي زوجته، هلكت مع الذين هلكوا من قومها لكفرها".

قال الطبري:"يقول: إلا عجوزا في الباقين، وهي امرأة لوط".

قال الزجاج:"أي: من الباقين في الموضع الذي عذبوا فيه".

قال النسفي:"{فى الغابرين} : في الباقين".

قال السمعاني:"أي: الباقين في العذاب والهلاك، ومعنى الآية: أنها لم تنج وبقيت في العذاب مع قوم لوط".

عن قتادة قوله: " {إلا عجوزا في الغابرين} ، قال: هي امرأته".

وفي قوله تعالى: {إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ} [الصافات: ١٣٥]، وجوه من التفسير:

أحدها: الهالكين، قاله السّدي.

الثاني: في الباقين في عذاب الله تعالى، قاله قتادة.

قال مقاتل:"يعني: من الباقين في العذاب، فهلك قوم لوط، ثم أهلكت بعد، بحجر أصابها فقتلها".

قال ابن جريج:"هي امرأته كانت في الغابرين في العذاب".

=

=

قال الفراء:"والغابرون الباقون. ومن ذَلِكَ قول الشاعر: وهو الحارث بن حِلِّزَة:

لا تكْسَعِ الشَّوْلَ بأغبارهَا... إنّك لا تدرى من الناتج

الأغبار:-ها هنا- بقايا اللبن فِي ضروع الإبل وغيرها، واحدها غُبْر. وأنشدني بعض بني أسد وهو أَبُو الْقَمْقام:

تَذُبُّ منها كُلَّ حَيزَبُونِ... مَانِعَةٍ لغبرها زبون".

الثالث: أي: امرأة لوط المغبرة الشقية، في الباقين الذين غبروا وأبقوا، قاله ابن زيد.

الرابع: في الماضين في العذاب، حكاه الماوردي.

الخامس: فيمن غبر فلم تذهب معهم. قاله قتادة.

وحكي الزجاج: أن المعنى: من الغابرين في النجاة، من قولهم: قد غبر عنا فلان زمانًا إذا غاب ، قال الشاعر:

أَفَبَعْدَنَا أو بَعْدَهُمْ... يُرْجَى لِغَابِرِنَا الْفَلاَحُ

وقال أبو عبيدة:"أي: كانت قد غبرت من كبرها فى الغابرين، فى الباقين حتى هرموا وهرمت، وهى قد أهلكت مع قومها فلم تغبر بعدهم فتبقى، ولكنها كانت قبل ذلك من الغابرين".

قال الضحاك:"يقول: إلا امرأته تخلَّفت فمسخت حجرا، وكانت تسمى هيشفع".

قال ابن عباس:"لما ولج رسل الله على لوط ظن أنهم ضيفان، قال: فأخرج بناته بالطريق وجعل ضيفانه بينه وبين بناته، قال: {وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ}، فقال: {هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُم} إلى قوله: {أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيد}، قال: فالتفت إليه جبريل، فقال: لا تخف {إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ}، قال: فلما دنوا طمس أعينهم فانطلقوا عميا يركب بعضهم بعضا، حتى خرجوا إلى الذين بالباب، فقالوا: جئناكم من عند أسحر الناس طمست أبصارنا، قال: فانطلقوا يركب

=

=

بعضكم بعضا حتى دخلوا المدينة. فكان في جوف الليل، فرفعت حتى إنهم ليسمعون صوت الطير في جو السماء، ثم قلبت عليهم فمن أصابته الائتفاكة أهلكته، قال: ومن خرج منها اتبعه حجر حيث كان فقتله. قال: وخرج لوط منها ببناته وهن ثلاث، فلما بلغ مكانا من الشام ماتت الكبرى فدفنها، فخرج عندها عين يقال لها عين «الربة»، قال: سمعت ابن عباس يقول: «ربثا»، قال: ثم انطلق حتى إذا بلغ مكانا آخر ماتت الصغرى، فدفنها، فخرج عندها عين يقال لها «الزغرية»، قال: سمعت ابن عباس يقول: «رغرثا»، قال: ولم يبق غير الوسطى".

قوله تعالى: {ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ (١٣٦)} [الصافات: ١٣٦].

قال الطبري:"يقول: ثم قذفناهم بالحجارة من فوقهم، فأهلكناهم بذلك".

قال مقاتل:"{ثم أهلكنا} بقيتهم بالخسف والحصب".

قال القرطبي:"أي: بالعقوبة".

قال السمعاني:"التدمير: هو الإهلاك بوصف التنكيل".

قال وهب بن منبه:"فأدخل ميكائيل وهو صاحب العذاب جناحه حتى بلغ أسفل الأرض، ثم حمل قراهم فقلبها عليهم، ونزلت حجارة من السماء فتبعث من لم يكن منهم في القرية حيث كانوا، فأهلكهم الله عز وجل ونجا لوط وأهله إلا امرأته".

القرآن

قوله تعالى: {وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ (١٣٧) وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٣٨)} [الصافات: ١٣٧ - ١٣٨]، أي:"وإنكم -يا أهل «مكة» - لتمرون فى أسفاركم على منازل قوم لوط وآثارهم وقت الصباح، وتمرون عليها ليلا".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره لمشركي قريش: وإنكم لتمرون على قوم لوط الذين دمرناهم عند إصباحكم نهارا وبالليل".

=

=

قال السمعاني:"أي: تمرون عليهم بالليل والنهار إذا ذهبتم إلى أسفاركم ورجعتم".

قال الواحدي: "أي: تمرون في ذهابكم ومجيئكم إلى الشام على قراهم ومنازلهم وآثارهم، مصبحين أي: نهارا، وبالليل وعشيا".

قال ابن كثير:"فإن الله تعالى أهلكهم بأنواع من العقوبات، وجعل محلتهم من الأرض بحيرة منتنة قبيحة المنظر والطعم والريح، وجعلها بسبيل مقيم يمر بها المسافرون ليلا ونهارا".

عن السديّ، قوله: " {لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ} ، قال: في أسفاركم".

قال قتادة:"نعم والله صباحا ومساء يطئونها وطْئًا، من أخذ من المدينة إلى الشام، أخذ على سدوم قرية قوم لوط".

قال الفخر الرازي:"وذلك لأن القوم كانوا يسافرون إلى الشام والمسافر في أكثر الأمر إنما يمشي في الليل وفي أول النهار، فلهذا السبب عين تعالى هذين الوقتين".

قال البيضاوي:"ولعلها وقعت قريب منزل يمر بها المرتحل عنه صباحا والقاصد لها مساء".

قوله تعالى: {أَفَلَا تَعْقِلُونَ} [الصافات: ١٣٨]، أي:". أفلا تعقلون، فتخافوا أن يصيبكم مثل ما أصابهم؟ ".

قال الواحدي: أي: "أفلا تعقلون فتعتبرون بهم".

قال الزمخشري: أي:"فما فيكم عقول تعتبرون بها".

قال ابن كثير:"أي: أفلا تعتبرون بهم كيف دمر الله عليهم وتعلمون أن للكافرين أمثالها؟ ".

قال الطبري:"يقول: أفليس لكم عقول تتدبرون بها وتتفكَّرون، فتعلمون أن من سلك من عباد الله في الكفر به، وتكذيب رسله، مسلك هؤلاء الذين وصف

=

صفتهم من قوم لوط، نازل بهم من عقوبة الله، مثل الذي نزل بهم على كفرهم بالله، وتكذيب رسوله، فيزجركم ذلك عما أنتم عليه من الشرك بالله، وتكذيب محمد عليه الصلاة والسلام".

قال ابن زيد:"أفلا تتفكَّرون ما أصابهم في معاصي الله أن يصيبكم ما أصابهم، قال: وذلك المرور أن يمر عليهم".

قال العثيمين: قوله تعالى: {وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٣)} سبق نظيرها في آيات أخرى وأن فيها توكيدًا من وجهين إن واللام. وأن التوكيد يؤتى به عند إنكار المخاطب أو شكه، أو أهمية المخبر به وإن لم يكن هناك شك أو إنكار. وقوله: {وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٣)} أي: لمن الذين أرسلهم الله تعالى، أرسل الله تعالى لوطا عليه الصلاة والسلام إلى قومه وكانوا -والعياذ بالله- يأتون الفاحشة وهي اللواط: يأتي الذكرُ الذكرَ، وهذه من أسفل الأخلاق -نسأل الله العافية-، ولهذا قال الله تعالى عن الزنا: {وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا (٣٢)} [الإسراء: ٣٢] وقال عن اللواط على لسان لوط: {أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ} [الأعراف: ٨٠]. يعني التي استقر فحشها في فطر الناس و (ال) تفيد التقبيح والتعظيم، ولا شك أن فاحشة اللواط أعظم من فاحشة الزنا؛ لأنها قلب للفطرة التي فطر الله تعالى الخلق عليها، ولأن فيها عزوفًا عما أحل الله عز وجل، وهكذا الإنسان المبتلى بالمحرم يبتلى -والعياذ بالله- بالعزوف عن الحلال، فتجده مستغنيًا بما حرم الله عما أحل الله، بخلاف الذي استغنى بالحلال عن الحرام، فإن الله تعالى يعينه ويجمل الحلال في عينه، ففي هذه الفاحشة عزوف الناس عن النساء، وبذلك يقل النسل وتقل الأمة وتضعف، وفي هذه الفاحشة أيضًا أسباب لأمراض كثيرة، فإن الإنسان -والعياذ بالله- إذا استعمل هذه الفاحشة فقد أتى الدبر الذي هو محل النجاسة والأذى، وإذا كان الله تعالى قال في المحيض {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ

=

قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ} [البقرة: ٢٢٢] فإن أذى العذرة أخبث من أذى الدم، فكان في هذا أذى وسبب لأمراض لا يعلم مداها إلا الله عز وجل، وفيها أيضًا قتل لمعنويات الرجال، فإن هذا المفعول به لن يبقى على حاله التي هو عليها، فسوف يكبر ويكون رجلًا فما مدى شعوره إذا قابل من كان يفعل به فعل الرجل بالمرأة؟! إنه ذل وخزي وعار -والعياذ بالله-، لهذا كانت هذه الفاحشة جديرة بأن يرسل الله تعالى رسولًا من أجل القضاء عليها، فإن لوطًا عليه الصلاة والسلام أرسله الله تعالى بالتوحيد وبالقضاء على هذه الفاحشة العظيمة، ومع ذلك لم يؤمن معه إلا قليل، حتى أهله الذين هم أهله لم يتمحض إيمانهم، بل كان فيهم من ليس بمؤمن وهي امرأته، وبهذا نعرف مدى ما يناله الدعاة إلى الحق من الأذى والرد، ولا ينبغي للإنسان أن يستحسر إذا لم يجد قبولًا من الناس، فإن الرسل -عليهم الصلاة والسلام- وهم أكرم الخلق على الله لا يجدون قبولًا من كل أحد، قال النبي ﷺ: "عرضت علي الأمم فرأيت النبي ومعه الرهط، والنبي ومعه الرجل والرجلان، والشعبي وليس معه أحد". بل إن من الأنبياء من يقتل، فجدير بنا ونحن نسمع هذه القصص أن لا نضجر إذا لم نجد قبولًا، وأن لا نضجر إن رأينا أذى، وأن لا نضجر إن رأينا عدوانًا، فلنصبر ولنحتسب، والوعد بالثواب أو بالعقاب يكون غدًا.

فلوط أرسله الله تعالى إلى قومه، ولكنهم لم يقبلوا قوله حتى إن الرسل الذين جاءوا إلى لوط جاءوا قومه يهرعون إليه، يسرعون يريدون هؤلاء الملائكة الذين أرسلهم الله تعالى على صورة شبان فتنة لهؤلاء، فراودوه عن ضيفه، فقال: هؤلاء بناتي إن كنتم فاعلين. أي خذوا النساء تزوجوهن، قالوا: لقد علمت ما لنا في بناتك من حق، وإنك لتعلم ما نريد. ولكن قال الله عز وجل: {فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ} [القمر: ٣٧] فهؤلاء الرجال الذين جاءوا قيل: إن جبريل عليه السلام ضربهم بجناحه.

=

وقيل: إن الله تعالى طمس على أعينهم والله أعلم بكيفية ذلك، وهذا القول أحسن إلا أن يصح عن الرسول عليه الصلاة والسلام، أن جبريل ضربهم، فهؤلاء رجعوا عميًا، طمس الله أعينهم حتى صاروا لا يبصرون، والحاصل أنه لم يستجب له أحد من قومه، ولهذا قال: {إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ (١٣٥)}.

{إِذْ نَجَّيْنَاهُ} (إذ) ظرف لفعل محذوف تقديره: "اذكر" ولا يصح أن تتعلق بالمرسلين؛ لأنه كان مرسلًا قبل أن ينجى {وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (١٣٤)} أي أهل بيته {إِلَّا عَجُوزًا} مستثنى من أهل، فإنها لم تنج، وذلك لأنها كانت كافرة على دين قومها، ولهذا وصفها الله تعالى في سورة التحريم بالخيانة، والمراد بالخيانة الخيانة في الدين لا في العرض {عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ (١٣٥)} قال المصنف رحمه الله: [أي الباقين في العذاب] وذلك أن لوطًا عليه الصلاة والسلام أمر أن يخرج من القرية هو وأهله إلا امرأته، فبقيت المرأة فأصابها ما أصاب قومها من العذاب، ولهذا قال: {إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ (١٣٥)} أي: من جملة الغابرين الذين هلكوا {ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ (١٣٦)} كلمة دمرنا تفيد معنى عظيمًا وهو أن هذا الإهلاك كان إهلاك تدمير لم يبق لهم قائمة بعده، وهي أشد وقعًا في النفوس من (أهلكنا) فهي كقوله تعالى: {وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا (١٦)} [الإسراء: ١٦] وأمر الله مترفيها أمر قدري وليس شرعي كما قاله بعض الناس، وليس المعنى كما قال بعضهم: أمرناهم بالشرع ففسقوا، لأن هذا يقتضي أن الله تعالى أمر بالشرع من أجل الفسق، والله تعالى أمر بالشرع من أجل الطاعة، ولكن الأمر هنا أمر كوني لقوله تعالى: {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٨٢)} [يس: ٨٢] {الْآخَرِينَ (١٣٦)} أي كفار قومه، وذلك أن الله سبحانه وتعالى أرسل عليهم حجارة من سجيل تضرب بيوتهم وتهدمها حتى جعل عاليها سافلها، لأن البناء إذا تهدم صار

=

أعلاه أسفله، فدمروا حتى هلكوا عن آخرهم، وهذا الجزاء موافق مناسب للعمل، لأن هؤلاء كما قلبوا فطرتهم التي خلقهم الله تعالى عليها قلبت منازلهم فجعل عاليها سافلها.

وقال بعض أهل العلم: إن جبريل عليه الصلاة والسلام حمل قراهم وهي سبع قرى حتى بلغ بها جو السماء ثم قلبها ثم أرسلت عليهم الحجارة. ولكن في هذا نظر؛ لأن إرسال الحجارة عليهم بعد أن يقلبوا من السماء لا فائدة منه، إذ سيهلكون بدون هذه الحجارة، فالظاهر ما ذهب إليه بعض العلماء من أن هذه الحجارة ضربت بيوتهم حتى هدمتها فصار أعلاها أسفلها. وقولهم. إن القرى سبع. ظاهر القرآن أنها قرية واحدة قال الله تعالى عن الملائكة الذين أرسلوا {إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَـٰذِهِ الْقَرْيَةِ}، [العنكبوت: ٣١] وفي قوله: {ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ (١٣٦)} دليل على أن التدمير كان بعد أن نُجِّيَ لوط عليه الصلاة والسلام، وهو كذلك، فإن لوطًا لما فارق هذه القرى وأهله نزل بهم العذاب، {وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ (١٣٧)} قال المصنف رحمه الله: [على آثارهم ومنازلهم في أسفاركم] {وَإِنَّكُمْ} الخطاب في هذه الآية الكريمة قال المصنف إنه لأهل مكة، ويمكن أن يقال: إنه عام لكل من يمر بقراهم إلى يوم القيامة؛ لأن هذا القرآن للأمة إلى يوم القيامة {لَتَمُرُّونَ} أكد المرور بمؤكدين: (إن) و (اللام).

فإن قال قائل: لماذا أكده بمؤكدين مع أنهم لا ينكرون أنهم يمرون؟

قيل: الجواب على ذلك: أن استمرارهم في تكذيب الرسول ﷺ مع أنهم يمرون على ديار الذين أهلكوا يشبه المنكر والمكذب، فنزلوا منزلة المنكر المكذب؛ لأنهم لم يعتبروا، ولم ينتفعوا بهذا المرور، فهو كقوله تعالى: {ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ (١٥)} [المؤمنون: ١٥]. فالموت لا ينكر، فكل يقر بالموت لكن العاصي فعله فعل المنكر؛ لأنه لم يرتدع ولم يقم بما يجب عليه.

=

{مُصْبِحِينَ (١٣٧)} حال. وأول المصنف رحمه الله الإصباح هنا إلى النهار، فيكون من باب التعبير بالبعض عن الكل، ولكن قد ينازع في ذلك، ويقال: إن الناس يمرون عليهم مصبحين، لأن أكثر سير الناس في السفر يكون في الليل وفي أول النهار، ولهذا قال النبي ﷺ: "استعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة، والقصد القصد تبلغوا" والغدوة أول النهار، والروحة آخر النهار، فوسط النهار يكون المسافر نازلًا للراحة "وشيء من الدلجة" يعني أول الليل وفي آخر الليل يكون مستريحًا "والقصد القصد تبلغوا" يعني لا ترهقوا أنفسكم فتعجزوا "إن المنبت لا أرضًا قطع، ولا ظهرًا أبقى".

فالأولى إبقاء الآية على ظاهرها وأنهم يمرون عليهم في الصباح أول النهار حين يكون السير أطيب {وَبِاللَّيْلِ} قال النحويون: إن الباء هنا بمعنى (في) فتكون للظرفية، و (في) تأتي بمعنى الباء فتكون للسببية مثل قوله ﷺ: "دخلت النار امرأة في هرة" ففي هنا بمعنى الباء، أي بسبب هرة.

{أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٣٨)} أي أفلا يكون لكم عقول، والمراد بالعقول هنا عقول الرشد لا عقول الإدراك، لأن عقل الإدراك موجود عند هؤلاء، وهم في الإدراك عقلاء أذكياء، ولكن عقول الرشد غير موجودة عندهم، لأن كل شخص يكفر بالله أو يعصي الله فإنه لا عقل عنده، لكن إن كان كافرًا فقد انتفى عنه العقل بالكلية، وإن كان عاصيًا فقد انتفى عنه من العقل بقدر معصيته. والاستفهام في قوله: {أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٣٨)} للتوبيخ، لأن شخصًا يمر على ديار المكذبين ويرى آثارهم ولا يتعظ يستحق أن يوبخ، و (الفاء) هنا حرف عطف، والمعطوف عليه قيل: على ما سبق أي على {لَتَمُرُّونَ} وعلى هذا الوجه تكون الهمزة في غير محلها، أي أن الفاء تقدر قبل الهمزة فيكون التقدير: "إنكم لتمرون عليهم أفلا تعقلون".

وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٩)

{وإن يونس لمن المرسلين}.

إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١٤٠).

{إِذْ أَبَقَ} هَرَبَ {إِلَى الْفُلْك الْمَشْحُون} السَّفِينَة الْمَمْلُوءَة حِين غَاضَبَ قَوْمه لَمَّا لَمْ يَنْزِل بِهِمْ الْعَذَاب الَّذِي وَعَدَهُمْ بِهِ فَرَكِبَ السَّفِينَة فَوَقَفَتْ فِي لُجَّة الْبَحْر فَقَالَ الْمَلَّاحُونَ هُنَا عَبْد أَبَقَ مِنْ سَيِّده تُظْهِرهُ الْقُرْعَة.

فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ (١٤١).

=

وقيل: إن الهمزة مدخولها محذوف والتقدير: أسفهتم أو جهلتم أو ما أشبه ذلك مما يقتضيه المعنى، والفاء عاطفة على ذلك المحذوف. وقد سبق لنا أن القول بأنها معطوفة على ما سبق أسهل؛ لأنه أحيانًا يصعب عليك أو يتعذر أن تدرك المعنى المناسب الذي يمكن أن يكون معطوفًا عليه، فلهذا نقول: إن القول بأنها معطوفة على ما سبق على تقدير تأخير الهمزة الأولى.

قوله تعالى: {فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ (٨٢)} [هود: ٨٢] ألا يدل أنهم قلبوا ثم أتبعوا بالحجارة؟ الجواب: لو كان العطف بـ (ثمَّ) لكان يدل على ذلك، لما أمطروا بالحجارة تهدمت بيوتهم فصار عاليها سافلها.

: أين مكان قرى لوط؟ الجواب: يقال: إن البحر الميت هو محل قرية قوم لوط.

إذا كانت قرية قوم لوط البحر الميت فكيف تمر عليهم قريش؟ الجواب: يقولون: إنهم في ذهابهم إلى الشام يمرون عليهم.

كيف يمرون على البحر هل هم في سفينة؟ الجواب: يمرون عليهم أي من عندهم في البر لا في السفينة.

{فَسَاهَمَ} قَارَعَ أَهْل السَّفِينَة {فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ} الْمَغْلُوبِينَ بِالْقُرْعَةِ فَأَلْقَوْهُ فِي الْبَحْر.

فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ (١٤٢).

{فَالْتَقَمَهُ الْحُوت} ابْتَلَعَهُ {وَهُوَ مُلِيم} أَيْ آتٍ بِمَا يُلَام عَلَيْهِ مِنْ ذَهَابه إلَى الْبَحْر وَرُكُوبه السَّفِينَة بِلَا إذْن مِنْ رَبّه.

فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣).

{فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ} الذَّاكِرِينَ بِقَوْلِهِ كَثِيرًا فِي بَطْن الْحُوت لَا إلَه إلَّا أَنْتَ سُبْحَانك إنِّي كُنْت مِنَ الظَّالِمِينَ.

لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤٤).

{لَلَبِثَ فِي بَطْنه إلَى يَوْم يُبْعَثُونَ} لَصَارَ بَطْن الْحُوت قَبْرًا لَهُ إلَى يَوْم الْقِيَامَة.

فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ (١٤٥).

{فَنَبَذْنَاهُ} أَيْ أَلْقَيْنَاهُ مِنْ بَطْن الْحُوت {بِالْعَرَاءِ} بِوَجْهِ الْأَرْض أَيْ بِالسَّاحِلِ مِنْ يَوْمه أَوْ بَعْد ثَلَاثَة أَوْ سَبْعَة أَيَّام أَوْ عِشْرِينَ أَوْ أَرْبَعِينَ يَوْمًا {وَهُوَ سَقِيم} عَلِيل كَالْفَرْخِ الممعط.

وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ (١٤٦).

{وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَة مِنْ يَقْطِين} وَهِيَ الْقَرْع تُظِلّهُ بِسَاقٍ عَلَى خِلَاف الْعَادَة فِي الْقَرْع مُعْجِزَة لَهُ وَكَانَتْ تَأْتِيه وَعِلَّة صَبَاحًا وَمَسَاء يَشْرَب مِنْ لَبَنهَا حَتَّى قَوِيَ.

وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ (١٤٧).

{وَأَرْسَلْنَاهُ} بَعْد ذَلِكَ كَقَبْلِهِ إلَى قَوْم بِنِينَوَى مِنْ أَرْض الْمُوصِل {إلَى مِائَة أَلْف أَوْ} بَلْ {يَزِيدُونَ} عِشْرِينَ أَوْ ثَلَاثِينَ أَوْ سَبْعِينَ ألفا.

فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ (١٤٨).

{فَآمَنُوا} عِنْد مُعَايَنَة الْعَذَاب الْمَوْعُـودِينَ بِـهِ {فَمَتَّعْنَـاهُمْ} أبقيناهم ممتعين بما لهم {إلى حين} تَنْقَضِي آجَالهمْ فِيهِ(١).

---

(١)قوله تعالى: {وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ} [الصافات: ١٣٩].

قال الطبري: يقول:"وإن يونس لمرسل من المرسلين إلى أقوامهم".

عن ابن عباس: أن النبي ﷺ قال: «لا ينبغي لأحد أن يقول إني خير من يونس بن متى نسبه إلى أمه ، أصاب ذنبا ثم اجتباه ربه».

قوله تعالى: {إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ} [الصافات: ١٤٠]، أي:"إذ هرب من بلده غاضبًا على قومه، وركب سفينة مملوءة ركابًا وأمتعة".

قال الطبري:"يقول: حين فرّ إلى السفينة المملوء من الحمولة المُوقَر".

عن السدي:"{الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ}، قال: الموقر".

قال قتادة:"كنَّا نحدّث أنه الموقر من الفُلك".

قال مقاتل:"الموقر من الناس والدواب".

قوله تعالى: {فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ (١٤١)} [الصافات: ١٤١].

قوله تعالى: {فَسَاهَمَ} [الصافات: ١٤١]، أي:"فقارع أهل السفينة".

قال الطبري:"يقول: فَقَارَعَ".

عن ابن عباس، قوله: " {فَسَاهَمَ}، يقول: أَقْرَعَ".

عن السديّ، قوله: " {فَسَاهَمَ}، قال: قارع".

قال قتادة:"فاحتبست السفينة، فعلم القوم أنما احتبست من حدث أحدثوه، فتساهموا، فقُرِعَ يونس، فرمى بنفسه، فالتقمه الحوت".

قوله تعالى: {فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ} [الصافات: ١٤١]، أي:"فكان من المغلوبين بالقرعة".

=

=

قال الطبري:"يعني: فكان من المسهومين المغلوبين، يقال منه: أدحض الله حجة فلان فدحضت: أي أبطلها فبطلت، والدَّحْض: أصله الزلق في الماء والطين، وقد ذُكر عنهم: دَحَض الله حجته، وهي قليلة".

عن ابن عباس والسدي، قوله: " {فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ}، يقول: من المقروعين".

قال مجاهد:"من المسهومين".

قال ابن كثير:"وذلك أن السفينة تَلَعَّبَت بها الأمواج من كل جانب، وأشرفوا على الغرق، فساهموا على من تقع عليه القرعة يلقى في البحر، لتخف بهم السفينة، فوقعت القرعة على نبي الله يونس، عليه الصلاة والسلام ثلاث مرات، وهم يضنون به أن يلقى من بينهم، فتجرد من ثيابه ليلقي نفسه وهم يأبون عليه ذلك، وأمر الله تعالى حوتا من البحر الأخضر أن يشق البحار، وأن يلتقم، يونس عليه السلام، فلا يَهْشِمُ له لحما، ولا يكسر له عظما، فجاء ذلك الحوت وألقى يونس، عليه السلام، نفسه فالتقمه الحوت وذهب به فطاف به البحار كلها. ولما استقر يونس في بطن الحوت، حسب أنه قد مات ثم حرك رأسه ورجليه وأطرافه فإذا هو حي، فقام يصلي في بطن الحوت، وكان من جملة دعائه: «يا رب، اتخذتُ لك مسجدا في موضع لم يبلغه أحد من الناس» ".

قال مقاتل:"وذلك أنه دخل السفينة فلف رأسه ونام في جانبها فوكل الله- عز وجل- به الحوت، واسمها اللخم فاحتبست سفينتهم ولم تجر، فخاف القوم الغرق، فقال بعضهم لبعض: إن فينا لعبدا مذنبا. قالوا: له وهو ناحيتها يا عبد الله من أنت؟ ألا ترى أنا قد غرقنا؟ قال: أنا المطلوب أنا يونس بن متى فاقذفوني في البحر. قالوا: نعوذ بالله أن نقذفك يا رسول الله، فقارعهم ثلاث مرات كل ذلك يقرعونه. فقالوا: لا، ولكن نكتب أسماءنا، ثم نقذف بها في الماء ففعل ذلك،

=

=

فقالوا: اللهم إن كان هذا طلبتك فغرق اسمه، وخرج أسماءنا فغرق اسمه وارتفعت أسماؤهم، ثم قالوا الثانية: اللهم إن كنت إياه تطلب فغرق أسماءنا وارفع اسمه فغرقت أسماؤهم، وارتفع اسمه، ثم قالوا الثالثة: اللهم إن كنت إياه تطلب فغرق اسمه وارفع أسماءنا، فغرق اسمه وارتفعت أسماؤهم، فلما رأوا ذلك ثلاث «مرات «٥»» أخذوا بيده ليقذفوه في الماء، ولم يكن أوحى الله إلى الحوت ماذا الذي يريد به؟ فلما قذف أوحى إلى الحوت- وليس بينه وبين الماء إلا شبران- لي في عبدي حاجة إني لم أجعل عبدي لك رزقا، ولكن جعلت بطنك له مسجدا فلا تحسري له شعرا وبشرا، ولا «تردي «٦»» عليه طعاما ولا شرابا، قال، فقال له الماء والريح: أين أردت أن تهرب، من الذي يعبد في السماء والأرض فوالله إنا لنعبده، وإنا لنخشى أن يعاقبنا. وجعل يونس «يذكر «١»» الله- عز وجل- ، ويذكر كل شيء صنع ولا يدعوه فألهمه الله- جل وعز- عند الوقت فدعاه ففلق دعاءه البحر والسحاب فنادى بالتوحيد، ثم نزه الرب- عز وجل- أنه ليس أهل لأن يعصى، ثم اعترف فقال: «... لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين".

قوله تعالى: {فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ (١٤٢)} [الصافات: ١٤٢].

قال الطبري:"يقول: فابتلعه الحوت؛ وهو مكتسب اللوم".

قال الفراء:"وهو الَّذِي قد اكتسبَ اللَّوْمَ وإن لَمْ يلم".

قال أبو عبيدة:"تقول العرب: ألام فلان فى أمره وذلك إذا أتى أمرا يلام عليه قال لبيد بن ربيعة:

سَفَها عَذَلْتَ ولُمْتَ غيرَ مُلِيمِ... وَهَداكَ قَبلَ الْيومِ غيرُ حَكيمِ".

قال ابن قتيبة:"أي مذنب. يقال: ألام الرجل؛ إذا أذنب ذنبا يلام عليه".

قال الزجاج:"أي: اللائمة لازمة له، أي ليس ذلك الذي فعل به بكفارة له. و «المليم» -في اللغة-: الذي يأتي بما يجب أن يلام عليه، ومعنى {نبذناهم}:

=

=

ألقيناهم، وكل شيء ألقيته تقول فيه قد نبذته، ومن ذلك نبذت النبيذ، ومن ذلك تقول للملقوط منبوذ لأنه قد رمي به".

عن ابن عباس، قوله:"{وَهُوَ مُلِيمٌ}، مسيئ".

عن قتادة: " {وَهُوَ مُلِيمٌ}، أي: في صنعه".

وفي رواية عن معمر: قال:"قتادة: أي: مسيء".

وقال قتادة:"مليم في عباد الله".

عن مجاهد، قوله: " {وَهُوَ مُلِيمٌ}، قال: مذنب".

قال ابن زيد:"وهو مذنب، والمليم: المذنب".

قوله تعالى: {فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ} [الصافات: ١٤٣]، أي:"فلولا ما تقدَّم له من كثرة العبادة والعمل الصالح قبل وقوعه في بطن الحوت، وتسبيحه، وهو في بطن الحوت بقوله: {لا إِلَهَ إِلا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ} ".

قال الطبري: يقول:"{فَلَوْلا أَنَّهُ} يعني: يونس {كَانَ مِنَ} الْمُصَلِّينَ لله قبل البلاء الذي ابتُلي به من العقوبة بالحبس في بطن الحوت".

قال ميمون بن مهران:"سمعت الضحاك بن قيس يقول على منبره: اذكروا الله في الرخاء يذكركم في الشدة، إن يونس كان عبدا لله ذاكرا، فلما أصابته الشدة دعا الله فقال الله: {لَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُون}، فذكره الله بما كان منه، وكان فرعون طاغيا باغيا فلما: {أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِين} قال الضحاك: فاذكروا الله في الرخاء يذكركم في الشدة".

واختلف أهل التفسير في قوله تعالى: {فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ} [الصافات: ١٤٣]، على وجوه:

=

=

أحدها: من القائلين: «لا إِلَهَ إِلا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ»، قاله الحسن، وسعيد بن جبير.

عن الحسن، قوله: " {فلولا أنه كان من المسبحين}، قال: ما كان إلا صلاة أحدثها في بطن الحوت، فذكر ذلك لقتادة رضي الله، عنه فقال: لا. إنما كان يعمل في الرخاء".

وقال الحسن:"كان يكثر الصلاة في الرخاء، فلما حصل في بطن الحوت، ظن أنه الموت، فحرك رجليه، فإذا هي تتحرك، فسجد وقال: يا رب اتخذت لك مسجدا في موضع لم يسجد فيه أحد".

عن سعيد بن جُبَير: " {فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ}، قال: قال: {لا إِلَهَ إِلا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ}، فلما قالها، قذفه الحوت، وهو مغرب".

الثاني: من المصلين قاله ابن عباس، وسعيد بن جبير، وقتادة، والسدي.

قال مقاتل:"يعني: من المصلين قبل المعصية وكان في زمانه كثير الصلاة والذكر لله- جل وعز- فلولا ذلك للبث في بطنه عقوبة فيه {إلى يوم يبعثون} الناس من قبورهم".

قال قتادة:"كان كثير الصَّلاةِ في الرّخاء، فنجَّاه الله بذلك؛ قال: وقد كان يقال في الحكمة: إن العمل الصالح يرفع صاحبه إذا ما عَثَر، فإذا صُرع وجد متكئا".

وقال قتادة:"كان طويل الصلاة في الرّخاء؛ قال: وإنّ العمل الصالح يرفع صاحبه إذا عثر، إذا صرع وجد متكئا".

الثالث: من العابدين، قاله وهب بن منبه.

قال وهب:""من العابدين، قال: فركن لعبادته".

وقال أبو العلية:"كان له عمل صالح فيما خلا".

وفي الحديث: «تعرف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة».

=

=

قال قتادة:"وبلغني أنه يقال: "إن في الحكمة: «العمل الصالح يرفع صاحبه ، كلما عثر وجد متكئا» ".

الرابع: من التائبين، قاله قطرب.

قال الماوردي: "وقيل: تاب في الرخاء فنجاه الله من البلاء".

الخامس: انه كان من المسبحين في جوف أبويه. حكاه ابن كثير.

وفي مدة لبثه في بطن الحوت أربعة أقوال:

أحدها: بعض يوم، قال الشعبي: " التقمه الحوت ضحى، ولفظه عشية، ما بات في بطنه".

الثاني: فالتقمه الحوت يقال له: نجم، وإنه لبث ثلاثة أيام في جوفه. قاله قتادة-في رواية-.

الثالث: أنه -عليه السلام- لبث في بطن الحوت سبعة أيام، فطاف به البحار كلها، ثم نبذه على شاطئ دجلة، قاله سعيد بن جبير.

الرابع: أربعون يومًا، قاله أبو مالك، وقتادة-في رواية أخرى-، وابن جريج.

قال قتادة:"مكث في بطنه أربعين يوما يتردد به في دجلة".

قال ابن جريج:"بلغني أن يونس مكث في بطن الحوت أربعين صباحا".

قال ابن كثير:"والله أعلم بمقدار ذلك. وفي شعر أمية بن أبي الصلت:

وَأَنْتَ بفَضلٍ منْكَ نَجَّيتَ يُونُسًا... وَقَدْ بَاتَ فِي أَضْعَاف حُوتٍ لياَلِيا".

قوله تعالى: {لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ} [الصافات: ١٤٤]، أي:"المكث في بطن الحوت، وصار له قبرًا إلى يوم القيامة".

قال الطبري:"يقول: لبقي في بطن الحوت إلى يوم القيامة، يوم يبعث الله فيه خلقه محبوسا، ولكنه كان من الذاكرين الله قبل البلاء، فذكره الله في حال البلاء، فأنقذه ونجَّاه".

=

=

قال قتادة:"لصار له بطن الحوت قبراً إلى يوم القيامة".

قوله تعالى: {فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ (١٤٥)} [الصافات: ١٤٥]

قال الطبري:"يقول: فقذفناه بالفضاء من الأرض، حيث لا يواريه شيء من شجر ولا غيره، وهو كالصبي المنفوس: لحم نِيء".

وفي قوله تعالى: {فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ} [الصافات: ١٤٥]، وجوه من التفسير:

أحدها: معناه: ألقيناه بالساحل، قاله ابن عباس.

الثاني: بالأرض، قاله السدي.

الثالث: موضع بأرض اليمن. حكاه الماوردي.

الرابع: نينوى على شط دجلة. قاله قتادة.

الخامس: بأرض ليس فيها شيء ولا نبات. قاله قتادة أيضا، وأبو عبيدة، والطبري.

قال الشاعر:

ورَفَعْتُ رِجْلا لا أخافُ عِثارَها... وَنَبَذْتُ بالبَلَدِ العَرَاءِ ثِيابِي

يعني بالبلد: الفضاء.

قال أبو عبيدة:"تقول العرب: نبذته بالعراء أي الأرض الفضاء".

قال مقاتل:"يعنى البراري من الأرض التي ليس فيها نبت".

وقال الزجاج:"يعني: بالمكان الخالي".

وفي قوله تعالى: {وَهُوَ سَقِيمٌ} [الصافات: ١٤٥]، وجوه:

أحدها: كهيئة الفرخ الممعوط الذي ليس عليه ريش، قاله ابن مسعود.

قال الماوردي:"لأنه ضعف بعد القوة، ورق جلده بعد الشدة".

الثاني: يعني: مستقام وجيع. قاله مقاتل.

الثالث: كهيئة الصبي، قاله السدي.

قال ابن كثير:"أي: ضعيف البدن".

=

=

قال يحيى:"وهو ضعيف مثل الصبي، فأصابته حرارة الشمس، فأنبت الله عليه {شجرة من يقطين} وهي القرع، فأظلته فنام فاستيقظ وقد يبست فحزن عليها، فأوحى الله إليه: أحزنت على هذه الشجرة وأردت أن أهلك مائة ألف من خلقي أو يزيدون؟ أي: بل يزيدون".

قال ابن عباس:"خرج به، -يعني الحوت-، حتى لفظه في ساحل البحر، فطرحه مثل الصبيّ المنفوس، لم ينقص من خلقه شيء".

قال ابن زيد:"ما لَفَظَه الحوت حتى صار مثل الصبيّ المنفوس، قد نشر اللحم والعظم، فصار مثل الصبيّ المنفوس، فألقاه في موضع، وأنبت الله عليه شجرة من يقطين".

قوله تعالى: {وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ (١٤٦)} [الصافات: ١٤٦].

قال الطبري: يقول:"وأنبتنا على يونس شجرة من الشجر التي لا تقوم على ساق، وكل شجرة لا تقوم على ساق كالدُّباء والبِطِّيخ والحَنْظَل ونحو ذلك، فهي عند العرب يَقْطِين، وقال ابن أبي الصلت قبل الإسلام في ذلك بيتا من شعر:

فَأَنْبَتَ يَقْطِينا عَلَيْه برَحْمَةٍ... مِنَ الله لَوْلا الله أُلْفِيَ ضَاحِيا".

قال ابن كثير:"وغير واحد قالوا كلهم: اليقطين هو القرع.. وذكر بعضهم في القرع فوائد، منها: سرعة نباته، وتظليلُ ورقه لكبره، ونعومته، وأنه لا يقربها الذباب، وجودة أغذية ثمره، وأنه يؤكل نيئا ومطبوخا بلبه وقشره أيضا. وقد ثبت أن رسول الله ﷺ كان يُحِبّ الدُّبَّاء، ويتتبعه من حَوَاشي الصَّحْفة ".

واختلف اهل التفسير في قوله تعالى: {شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ} [الصافات: ١٤٦]، على أقوال:

=

=

أحدها: أنه القرع، قاله ابن مسعود، وابن عباس، وسعيد بن جبير-في رواية-، ومجاهد-في رواية-، وقتادة، والضحاك، وابن زيد، والسدي، وعمرو بن ميمون الأودي، ومغيرة.

قال قتادة:"كنَّا نحدَّث أنها الدُّبَّاء، هذا القرع الذي رأيتم أنبتها الله عليه يأكل منها".

عن ابن قسيط، أنه سمع أبا هُرَيرة يقول: طرح بالعراء، فأنبت الله عليه يقطينة، فقلنا: يا أبا هريرة وما اليقطينة؟ قال: الشجرة الدُّبَّاء، هيأ الله له أروية وحشية تأكل من خَشاش الأرض -أو هَشاش- فتفشح عليه فترويه من لبنها كل عشية وبكرة حتى نبت".

قال ابن زيد:"أنبت الله عليه شجرة من يقطين؛ قال: فكان لا يتناول منها ورقة فيأخذها إلا أروته لبنا، أو قال: شرب منها ما شاء حتى نبت" ..

قال السدي:"هو القرع، والعرب تسميه: الدُّبَّاء".

الثاني: أنه كل شجرة ليس فيها ساق يبقى من الشتاء إلى الصيف، قاله سعيد بن جبير.

قال سعيد بن جبير:"كل شجرة لا ساق لها فهي من اليقطين، والذي يكون على وجه الأرض من البطيخ والقثاء".

وقال سعيد بن جبير:"كلّ شيء ينبت ثم يموت من عامه".

وقال مجاهد:"غير ذات أصل من الدُّبَّاء، أو غيره من نحوه".

قال أبو عبيدة:"كل شجرة لا تقوم على ساق فهى يقطين، نحو: الدبّا والحنظل والبطّيخ".

قال الزجاج:"كل شجرة لا تنبت على ساق، وإنما تمتد على وجه الأرض - نحو القرع والبطيخ والحنظل - فهو يقطين، وأحسب اشتقاقها من: قطن بالمكان إذا أقام به، فهذا الشجر كله على وجه الأرض، فلذلك قيل يقطين".

=

=

عن ابن عباس، قال: " {شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ}، فقالوا عنده: القرع؛ قال: وما يجعله أحقّ من البطيخ".

الثالث: أنها كل شجرة لها ورق عريض، حكاه الماوردي عن ابن عباس.

الرابع: أنه كل ما ينبسط على وجه الأرض من البطيخ والقثاء، رواه القاسم بن أبي أيوب عن سعيد بن جبير.

الخامس: أنها شجرة سماها الله تعالى يقطينًا أظلته رواه هلال بن خباب عن سعيد بن جبير.

قال سعيد بن جبير:"فيما ذُكر أرسل الله عليه دابة الأرض، فجعلت تقرض عروقها، وجعل ورقها يتساقط حتى أفضت إليه الشمس وشكاها، فقال: يا يونس جزعت من حرّ الشمس، ولم تجزع لمئة ألف أو يزيدون تابوا إليّ، فتبت عليهم؟ ".

قال الكرماني:"الجمهور: على أن اليقطين من الشجر، ما له ورق عريض منبسط على وجه الأرض، والأكثرون على أن المراد بها في السورة القرْع.

الغريب: خص بالقرع، لأنه لما خرج من بطن الحوت كان كالفرخ الممعَّط وكان يؤذيه وقوع الذباب عليه، وورق الدبا لا يحوم حوله الذباب ولا يقع عليه.

العجيب: كانت تختلف إليه، وعلة يشرب من لبنها ".

قوله تعالى: {وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ} [الصافات: ١٤٧].

قال الطبري: يقول:"فأرسلنا يونس إلى مئة ألف من الناس، أو يزيدون على مئة ألف".

قال قتادة:"أرسل إلى أهل نينوى من أرض الموصل".

واختلف اهل العلم في رسالته-عليه السلام-، هل كانت قبل التقام الحوت إياه، أم بعد ذلك؟ على قولين:

=

أحدهما: أنه أرسل إليهم بعدما نبذه الحوت بالعراء، قاله ابن عباس، شهر بن حوشب.

قال شهر بن حوشب:"أتاه جبرائيل، يعني يونس، وقال: انطلق إلى أهل نِينَوَى فأنذرهم أن العذاب قد حضرهم؛ قال: ألتمس دابة؛ قال: الأمر أعجل من ذلك، قال: ألتمس حذاء، قال: الأمر أعجل من ذلك، قال: فغضب فانطلق إلى السفينة فركب؛ فلما ركب احتبست السفينة لا تُقدم ولا تُؤخر؛ قال: فتساهموا، قال: فسُهم، فجاء الحوت يبصبص بذنبه، فنودي الحوت: أيا حوت إنا لم نجعل يونس لك رزقا، إنما جعلناك له حوزا ومسجدا؛ قال: فالتقمه الحوت، فانطلق به من ذلك المكان حتى مر به على الأيْلة، ثم انطلق به حتى مر به على دجلة، ثم انطلق به حتى ألقاه في نينوى".

الثاني: أنها كانت قبل التقام الحوت له. قاله الحسن، ومجاهد، وحكاه ابن الجوزي عن الاكثرين.

قال الحسن وقتادة:"بعثه الله تعالى قبل أن يصيبه ما أصابه، أرسل إلى أهل نينوى من أرض الموصل".

وحكي عن الحسن، قال: "أنه تعالى أعاد الله له الرسالة، فآمنوا عن آخرهم، لم يشذ منهم أحد".

قال السمعاني:"الأصح أنه كان نبيا من قبل، وقد دل على هذا قوله تعالى: {وإن يونس لمن المرسلين إذ أبق} ".

قال ابن الجوزي: القول الثاني هو "الأصح، والمعنى: وكنا أرسلناه إلى مائة ألف، فلما خرج من بطن الحوت، أمر أن يرجع إلى قومه الذين أرسل إليهم".

قال الطبري: المعنى:"أنه أرسله إلى قومه الذين وعدهم العذاب، فلما أظلهم تابوا، فكشف الله عنهم. وقيل: إنهم أهل نينَوَى".

=

وفي قوله تعالى: {أَوْ يَزِيدُونَ} [الصافات: ١٤٧]، ثلاثة وجوه:

أحدها: أن معناه: بل يزيدون، قاله ابن عباس، يحي بن سلام، ومقاتل، وعدد من أهل التفسير منهم الفراء، مثله قوله: {فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى} [النجم: ٩]، يعنى: «بل أدنى»، قال جرير:

اثعلبة الفوارس أو رياحا... عدلت بهم طهيّة والخشابا

والمعنى: أثعلبة بل رباحًا.

الثاني: أن «أو» -هاهنا- بمعنى: «الواو»، فكأنه قال: إلى مائة ألف ويزيدون. قاله ابن قتيبة. مثله قوله تعالى: {وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَب} [النحل: ٧٧]، أي:"وهو أقرب، ومنه قول الشاعر:

قرى عنكما شهرين أو نصف ثالث... إلى ذاكما قد غيّبتني غيابيا

أراد: قرى شهرين ونصفا، ولا يجوز أن يكون أراد قرى شهرين بل نصف شهر ثالث.

وقال أبو عبيدة:"{أو} -هاهنا- ليس بشكّ، وهى فى موضع آخر «بل يزيدون» وفى القرآن {قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ} [الذاريات: ٥٢]، ليس بشكّ وقد قالوهما جميعا فهى فى موضع «الواو» التي للموالاة".

قال الكرماني:"ويحتمل أن التقدير: ويزيدون على مرور الزمان، فيكون استئناف كلام".

الثالث: أن «أو» -ها هنا- على بابها، وأنه على شك المخاطبين، إذ كان الله تعالى لا يجوز عليك الشك، ومعناه: أو يزيدون في تقديركم وظنكم أنتم إذا رآهم الرائي، قال: هؤلاء مائة ألف أو يزيدون على المائة، فيكون الشك راجع إلى من رآهم لا إلى الله تعالى. وهذا قول محمد بن يزيد، وحكاه الزجاج.

قال الباقلاني:"وهذا أيضا وجه حسن".

=

=

قال النحاس: قيل:"أنّ المعنى: وأرسلناه إلى جماعة لو رأيتموهم لقلتم هم مائة ألف أو أكثر، وإنّما خوطب العباد على ما تعرفون".

الرابع: أنه للإبهام، كأنه قال: أرسلناه إلى أحد العددين.

قال النحاس: " أنه كما تقول: جاءني زيد أو عمرو، وأنت تعرف من جاءك منهما إلّا أنك أبهمت على المخاطب".

وقال النحاس:"وقول الفراء أنها بمعنى «بل»، وقول غيره أنها بمعنى: «الواو». وأنه لا يصحّ هذان القولان، لأن «بل» ليس هذا من مواضعها، لأنها للإضراب عن الأول والإيجاب لما بعده. وتعالى الله عز وجل عن ذلك أو الخروج من شيء إلى شيء، وليس هذا موضع ذلك. والواو معناها خلاف معنى «أو» فلو كانت إحداهما بمعنى الأخرى لبطلت المعاني، ولو جاز ذلك لكان وأرسلناه إلى أكثر من مائة ألف أخصر، وفي الآية قولان سوى".

واختلف من قال بهذا في قدر زيادتهم على مائة ألف على خمسة أقوال:

أحدها: يزيدون عشرين ألفًا، رواه أُبي بن كعب مرفوعًا، وبه قال مقاتل.

الثاني: يزيدون ثلاثين ألفًا، قاله ابن عباس.

الثالث: يزيدون بضعة وثلاثين ألفًا، قاله ابن عباس ايضا.

الرابع: بضعة وأربعين ألفًا. وهذا مروي عن ابن عباس أيضا.

الخامس: سبعين ألفًا، قاله سعيد بن جبير.

وقال سعيد بن جبير:"وقد كان العذاب أرسل عليهم، فلما فرقوا بين النساء وأولادها، والبهائم وأولادها، وعجُّوا إلى الله، كشف عنهم العذاب، وأمطرت السماء دما".

قوله تعالى: {فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ} [الصافات: ١٤٨]، أي:"فصدَّقوا وعملوا بما جاء به، فمتعناهم بحياتهم إلى وقت بلوغ آجالهم".

=

=

قال الطبري:"يقول: فوحدوا الله الذي أرسل إليهم يونس، وصدقوا بحقيقة ما جاءهم به يونس من عند الله، فأخرنا عنهم العذاب، ومتعناهم إلى حين بحياتهم إلى بلوغ آجالهم من الموت".

قال ابن كثير:"أي: فآمن هؤلاء القوم الذين أرسل إليهم يونس، عليه السلام، جميعهم. {فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ}، أي: إلى وقت آجالهم، كقوله: {فَلَوْلا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ} [يونس: ٩٨] ".

قال الحسن:"آمنوا عن آخِرهم، لم يَشُذَّ منهم أحدٌ".

عن قتادة والسدي: " {فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ}: الموت".

قال العثيمين: قوله تعالى: {وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٩)} هذه الجملة مؤكدة بمؤكدين: الأول: إن، والثاني: اللام، وسبب التأكيد أن إثبات الرسالة أمر ينكره كثير من الناس، والشيء الذي ينكر يجب أن يؤكد بما يدل على ثبوته، سواء كان ذلك عن طريق التأكيد اللفظي بأدوات مؤكدات، أو عن طريق التأكيد المعنوي بذكر الآيات والشواهد الدالة على ثبوته، والأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- قد ثبتت رسالتهم: أي بالتوكيد اللفظي والتوكيد المعنوي، فأيدهم الله تعالى بالآيات الكونية والشرعية، وأيد الله رسالتهم بالمؤكدات اللفظية، كما في هذه الآية.

{لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٩)} يعني لمن القوم الذين أرسلهم الله تعالى إلى عباده، ولم يبين إلى من أرسلوا، لكن قد ذكر في آيات أخرى أنه أرسل إلى قومه، وكذلك صح عن رسول الله ﷺ أن كل نبي يبعث إلى قومه خاصة إلا النبي ﷺ فإنه بعث إلى الناس عامة، ويونس عليه الصلاة والسلام هو أحد أنبياء بني إسرائيل، أرسله الله تعالى إلى قومه، وسيأتي -إن شاء الله تعالى- بيان قصته هنا.

=

=

{إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١٤٠)} قال المصنف رحمه الله: [هرب {إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١٤٠)}: السفينة المملوءة حين غاضب قومه] {إِذْ أَبَقَ} يحتمل أن تكون {إِذْ} متعلقة بالمرسلين، أي لمن المرسلين في هذه الحال، أي أن إيباقه لم يسلبه الرسالة، ويحتمل أنها متعلقة بمحذوف تقديره: اذكر إذ أبق إلى الفلك المشحون. وهذا أحسن أن تكون متعلقة بمحذوف؛ لأنه لما أثبت رسالته بين حالًا من حالاته وهو إيباقه عليه الصلاة والسلام، وعلى هذا فنقول {إِذْ أَبَقَ} ليست متعلقة بالمرسلين، لأن رسالته كانت قبل أن يأبق، لكنها متعلقة بمحذوف، التقدير: اذكر إذ أبق، والإيباق هو الهرب، وكأنه عليه الصلاة والسلام خرج مسرعًا؛ لأنه خرج مغاضبًا لقومه حين لم يؤمنوا ولم ينزل بهم العذاب. قال: {الْفُلْكِ} يعني السفينة وهي مراكب الماء، وقد أنعم الله على العباد بالفلك تجري في البحر بأمره، تحمل الأرزاق من جهة إلى جهة، وامتن الله بها على العباد وعظمت منته في عصرنا الحاضر، فإن الفلك في عصرنا الحاضر ليس كالفلك فيما سبق، فالفلك كان على الشراع والهواء، وكان له معوقات وفيه مخاطر عظيمة. أما الفلك الآن فعلى العكس من ذلك، ومنَّ الله أيضًا بالفلك على عباده في عصرنا الحاضر بأن تنوعت هذه الفلك فصارت فلكًا مائيًا، وفلكًا بريًّا، وفلكًا هوائيًّا، فالهوائي الطائرات، والبري السيارات، والمائي السفن، وكل هذا داخل في قوله تعالى: {وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ (١٢) لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ}. [الزخرف: ١٢ - ١٣].

{الْمَشْحُونِ (١٤٠)} يعني المملوء من الركاب، فركب البحر مغاضبًا لقومه لما لم ينزل بهم العذاب الذي وعدهم به، فركب السفينة فوقفت في لجة البحر، فقال الملاحون: هنا عبد أبق من سيده تظهره القرعة، هكذا قال المصنف رحمه الله: إن

=

=

السفينة وقفت في لجة البحر، وأن وقوفها كان بسبب إيباق يونس. فقال الملاحون وهم قواد السفينة: هنا عبد أبق من سيده تظهره القرعة، ولكن ما ذكره المصنف رحمه الله ليس عليه دليل، وهو من الإسرائيليات البعيدة، بل إن هذه السفينة المشحونة لما كانت في عرض البحر وهي مملوءة وصارت في لجة البحر ثقل الحمل، وإذا ثقل الحمل فلابد من أحد أمرين: إما أن يخفف الحمل، وإما أن يغرق الجميع، ولا شك أن تخفيف العمل أولى من غرق الجميع؛ لأنه إذا خفف الحمل نجا من بقي، وإذا بقي الحمل على ما هو عليه غرق الجميع، وبقاء البعض أولى من هلاك الكل، وهذا أمر عقلي، فاقترعوا إذ ليس إلقاء بعضهم في البحر أولى من إلقاء الآخر، فلا سبيل حينئذ إلى التخلص من هذه المشكلة إلا بالقرعة، فاقترعوا {فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ (١٤١)}.

أي: اقترعوا أيهم الذي يلقى. ومن المعلوم أننا إذا علمنا من يلقى علمنا من يبقى، ولهذا قال الله عز وجل: {فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ (١٤١)} قال المصنف رحمه الله: [ساهم أي قارع أهل السفينة {فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ (١٤١)} المغلوبين بالقرعة فألقوه في البحر].

وظاهر صنيع المصنف رحمه الله أنه لم يلق أحد سوى يونس، ولكن الآية تدل على خلاف ما يدل عليه كلام المصنف، لأنه {فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ (١٤١)} (من) هنا للتبعيض أي: بعضًا منهم، وهذا يدل على أن القرعة أصابته وأصابت غيره أيضًا، فالمسألة الآن واضحة فالفلك كان مملوءًا، ولابد أن يغرق إلا أن يلقى بعض ركابه، وإلقاء بعض الركاب أولى من هلاك الجميع. ولا سبيل إلى إلقاء البعض على التعيين؛ لأننا لو عينا أحدًا دون أحد كان في ذلك ظلم، وامتنع من عيناه، وصار في هذا خصومة، وربما غرقت السفينة في أثناء هذه الخصومة، إذًا فالطريق إلى تعيين من يلقى هو القرعة، فاقترعوا فأصابت القرعة قومًا ونجا منها

=

قوم، وكان يونس عليه الصلاة والسلام من جملة الذين أصابتهم القرعة، فكان من المدحضين فألقي في البحر، قال الله تعالى: {فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ} ابتلعه {وَهُوَ مُلِيمٌ (١٤٢)} قال المصنف رحمه الله: [أي آت بما يلام عليه من ذهابه إلى البحر وركوبه السفينة بلا إذن من ربه].

التقمه الحوت التقامًا ولم يمضغه؛ لأنه لو مضغه لتكسر وهلك، لكن الله تعالى سخر له هذا الحوت فالتقمه التقامًا وابتلعه حتى وصل إلى مقر بطنه دون أن يصيبه أذى.

وقوله: {وَهُوَ مُلِيمٌ (١٤٢)} الجملة هنا في موضع نصب على الحال من الهاء في قوله: {فَالْتَقَمَهُ} لا من الفاعل في التقمه، لأن الفاعل الحوت، والحوت ليس بمليم، بل المليم الملتقَم {فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ (١٤٢)} أي: يونس ومعنى (مليم): آت بما يلام عليه، كما يقال: (منجد) لمن دخل نجدًا مثلًا، فمفعل قد تأتي بمعنى التلبس بالشيء، فالمليم هو الذي فعل ما يلام عليه، والذي يلام عليه أنه خرج من قومه مغاضبًا لهم قبل أن يأذن الله له، وكان الواجب أن يصبر، ولهذا قال الله لنبيه ﷺ: {فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ (٤٨) لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ (٤٩) فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٥٠)}. [القلم: ٤٨ - ٥٠]

فيونس عليه الصلاة والسلام التقمه الحوت في حال يلام عليها، ووجه ذلك أنه خرج مغاضبًا من عند قومه بدون إذن من ربه عز وجل.

{فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤٤)}.

(لولا) ترد كثيرًا في القرآن الكريم، وفي السنة النبوية، وفي كلام الناس وهي ثلاث أدوات: (لو) و (لما) و (لولا):

* لو حرف امتناع لامتناع: لو جاء زيد لأكرمته، فالممتنع الإكرام لامتناع وجوده.

=

* ولما حرف وجود لوجود، لما جاء زيد أكرمته، فالذي وجد الإكرام لوجود المجيء.
* ولولا حرف امتناع لوجود تقول: لولا مجيء زيد لأكرمت فلانًا. فالذي امتنع إكرام فلان لوجود مجيء زيد.
وهنا {فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ}.
-ذكر أبو عبيد القاسم بن سلام أن تفسير المسبحين في قوله تعالى: { فلولا أنه كان من المسبحين } أي: المصلين. وهذا التفسير هو المروي عن ابن عباس - رضي الله عنهما - وقتادة، والسدي.
وبه قال الطبري، والسمعاني.
وروي عن مجاهد أن المراد بالمسبحين: العابدين.
وحكى القرطبي عن سعيد بن جبير أن المراد بالمسبحين: قوله: { لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين } [الأنبياء: ٨٧].
وبهذا المعنى قال أبو حيان، والشنقيطي.
والذي يظهر - والله أعلم - أن الآية تشمل جميع ما تقدم له من عمل صالح، فيدخل فيه الصلاة، والذكر، والعبادة، والتسبيح، ونحو ذلك.
وقد نسب ابن كثير القول بالعموم وذلك بقوله: (لولا ما تقدم له من العمل في الرخاء) - إلى الضحاك، وأبو العالية، وقتادة، وغير واحد.
وقد جمع السعدي بين المعاني الواردة في الآية بقوله: (أي في وقته السابق بكثرة عبادته لربه، وتسبيحه، وتحميده، وفي بطن الحوت حيث قال: { لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين }.-
* الذي منع اللبث وجود التسبيح، لولا أنه أي: يونس {كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣)} قال المصنف رحمه الله: [الذاكرين بقوله كثيرًا في بطن الحوت {أَنْ لَا

=

=

إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧)} [الأنبياء: ٨٧] يعني لولا أنه كان من المسبحين بهذا اللفظ أو بغيره، وهذا أولى أن نقول بهذا اللفظ أو بغيره، أي: كان ممن يسبح الله عز وجل. إما قبل أن يلتقمه الحوت، أو في أثناء وجوده في بطن الحوت لولا هذا {لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ} أي: في بطن الحوت {إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤٤)} لصار بطن الحوت قبرًا له إلى يوم القيامة. ولكن لوجود التسبيح السابق أنجاه الله سبحانه وتعالى، {فَنَبَذْنَاهُ} النبذ بمعنى الطرح والإلقاء، وهنا قال، {فَنَبَذْنَاهُ} بصيغة الجمع مع أن النابذ واحد، ولكن أتى بصيغة الجمع من باب التعظيم، وذلك لكمال صفاته وكثرة صفاته عظم نفسه، {بِالْعَرَاءِ} قال المصنف رحمه الله: [أي ألقيناه من بطن الحوت بالعراء بوجه الأرض أي بالساحل من يومه، أو بعد ثلاثة، أو سبعة أيام، أو عشرين، أو أربعين يومًا].

(العراء) وجه الأرض، والمراد به وجه الأرض الذي ليس فيه ما يظل من شجر ولا بناء، وسمي عراء لعروه عما يكسوه من الأشجار والبناء، فبقي عليه الصلاة والسلام على الساحل ليس عنده بناء ولا أشجار تظله بل عراء، ولكن الله سبحانه وتعالى لطف به؛ لأن رحمة الله سبقت غضبه. {رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا} [غافر: ٧] وأما قول المصنف: [إنه من يومه، أو بعد ثلاثة، أو سبعة، أو عشرين، أو أربعين يومًا] فهذه أقاويل وكلها ليس عليها دليل، لكن لا شك أن الله سبحانه وتعالى أبقاه في بطن الحوت ما شاء الله أن يبقى، وأما تعيين ذلك فلابد فيه من دليل عمن قوله حجة وهو الرسول ﷺ، وما عدا ذلك في مثل هذه الأمور فإنها لا تقبل.

{وَهُوَ سَقِيمٌ (١٤٥)} قال المصنف رحمه الله: [عليل كالفرخ الممعط]، قوله: عليل تفسير للسقيم، والسقم بمعنى: المرض والعلة، وأما كونه كالفرخ الممعط، يعني: المنتوف شعره، فهذا ليس في الآية ما يدل عليه، لكن لا شك أن المريض

=

=

يكون ضعيف البدن وليس عنده قدرة على مقاومة الشمس والهواء، وقوله: {وَهُوَ سَقِيمٌ (١٤٥)} يدل بظاهره على أن يونس بقي في بطن الحوت مدة أدت إلى سقمه.

{وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ} ولم يقل: (أنبتنا له)؛ لأنه بحاجة إلى ظل، فأنبت الله عليه ظلًا، {شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ (١٤٦)}، (من) لبيان الجنس، كما يقال: خاتم من حديد، واليقطين هو: القرع، والقرع أنواع منها قرع يسمى عندنا (قرع نجد) هذا له شجر، وأشجاره لينة كالإِبْرَيْسَم ويقال: إنه لا يقع عليه الذباب.

النوع الثاني: من القرع فهو قرع ورقه خشن، حتى إن الإنسان إذا لمسه بيده يحس بالخشونة، والظاهر أن الذي أنبت الله عليه من النوع الأول اللين الذي يكون كالإبريسم، وهو أيضًا بارد الظل، فأنبت الله عليه هذه الشجرة، وأما قول المصنف: [تظله بساقٍ على خلاف العادة] فهذا يحتاج إلى دليل، لكن لا شك أن الله أَنبت عليه شجرة تظله، ولابد أن يكون لها نوع من الارتفاع، قال رحمه الله: [وكانت تأتيه وعلة صباحًا ومساء يشرب من لبنها حتى قوي]. الوعلة: الأنثى من الظباء يعني أنثى الأوعال، فكانت تأتيه ويشرب من لبنها حتى قوي. وهذا الخبر يحتاج إلى دليل عن المعصوم، وليس فيه دليل عن رسول الله ﷺ، فهو خبر إسرائيلي نتوقف فيه لا نصدق ولا نكذب، إن كان الله تعالى قيض له ذلك، فالله على كل شيء قدير، وهذا سبب حسي؛ لأن الإنسان يحتاج إلى غذاء، وإن كان الله تعالى قد قواه على تحمل الجوع والعطش، فهذا أيضًا ليس ببعيد، وحينئذ نجعل الآية فيه: أن الله قواه على خلاف العادة. أما إذا جعلناها وعلة فهنا يكون بقاؤه وتغذيته على حسب العادة من وجه، ومعجزة من وجه آخر، حسب العادة، حيث تغذى باللبن كغيره من البشر، وعلى خلاف العادة حيث قيض الله له هذه الوعلة التي ليست من جنسه، تأتي حتى يشرب من لبنها، لكن إذا قلنا: إن الله قوَّاه على

=

=

تحمل الجوع والعطش صار هذا آية محضة، وليس هذا ببعيد، فإن النبي ﷺ لما نهى عن الوصال قالوا: يا رسول الله إنك تواصل، والوصال يعني أن يقرن الصائم بين يومين لا يفطر بينهما، قال: "إني ليست كهيئتكم إني يطعمني ربي ويسقيني" يعني بلا أكل ولا شرب، ومع ذلك يكتفي بما أودع الله في قلبه من محبة الله وذكره عن الغذاء الجسدي، أي يكتفي بالغذاء الروحي عن الغذاء الجسدي، فالله على كل شيء قدير، ونظير هذا من بعض الوجوه أن الله سبحانه وتعالى قال: {إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ} [التوبة: ٤٠] فهنا لم يذكر الله سبحانه وتعالى كيف نصره على قريش وهو في الغار، فعلى أي شيء يحمل؟ وردت أحاديث ضعيفة بأنه عششت عليه العنكبوت، وأنه صار على فم الغار حمامة، وأن الله أنبت شجرة تحجز رؤية المشركين للرسول ﷺ وصاحبه أبي بكر رضي الله عنه فهذه الثلاث أمور حسية تمنع من رؤية النبي ﷺ وصاحبه في الغار، ولكن وجودها في هذا الوقت آية، فالله عز وجل أنبت هذه الشجرة، وسخر هذه الحمامة لتقف على باب الغار، وسخر العنكبوت لتنسج على بابه، وهذه آية لا شك، ولكن هناك آية أعظم من هذا، وهي آية محضة وهي أن الله سبحانه وتعالى أعمى أبصارهم عن رؤية النبي ﷺ وصاحبه لأنهم وقفوا على الغار على أقدامهم حتى قال أبو بكر رضي الله عنه: "لو نظر أحدهم إلى قدمه لأبصرنا" كما صح ذلك عند البخاري ومسلم وغيرهما، وهذا مما يدل على ضعف قصة العنكبوت والحمامة والشجرة، لأن هذا الثاني أبلغ آية من الأول، وكلام أبي بكر رضي الله عنه يدل على أنه ليس هناك حاجز حسي يمنع من الرؤيا لا شجرة ولا عش عنكبوت، وليس هناك ما يبعد أن يوجد في الغار أحد من وقوع الحمامة على بابه، والحمامة قد تقع على باب الحجرة ولو كان فيها أحد - كما هو مشاهد كثير.

=

=

فالحاصل أن بعض الناس يأتون بمثل هذه الآيات ولا يفكرون بأنها تضعف جانب الآية، لأن كون الآية أن الله أعمى أبصار قريش عن رؤية الرسول ﷺ مع أنهم واقفون على الغار أبلغ بكثير من نسيج العنكبوت، أو الشجرة، أو الحمامة، وأحسن هذه الروايات من حيث السند نسج العنكبوت ومع ذلك فهو ضعيف، وإذا كان ضعيف السند وشاذ المتن لمخالفته ما جاء في الصحيحين فإنه لا يكون مقبولًا.

{وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ (١٤٧)} أي أرسله الله تعالى بعد ذلك إلى قومه، وأتم رسالته إلى مئة ألف، وقوله: {أَوْ يَزِيدُونَ (١٤٧)} اختلف العلماء هنا:

فقيل: إن (أو) بمعنى بل، كما قاله المصنف: [بل يزيدون عشرين، أو ثلاثين، أو سبعين] وتعيين الزيادة بعشرين أو ثلاثين أو سبعين ألفًا لا دليل عليه، ولا يمكن أن تكون الزيادة سبعين ألفًا. لأنه لو كانت الزيادة سبعين ألفًا ما صح أن يقال: مئة ألف أو يزيدون، بل يقال إلى مئة وسبعين ألفًا، لأن الفارق بين العدد الأول والثاني كثير، فعلى كلام المصنف يكون الله تعالى أرسله إلى أكثر من مئة ألف وتكون (أو) هنا بمعنى (بل)، والمراد ببل التي كانت (أو) بمعناها الإضراب الانتقالي، وليس الإضراب الإبطالي.

وذهب بعض العلماء إلى أن (أو) هنا للتحقيق، وليست للإضراب، أي إن لم يزيدوا على مئة ألف، لم ينقصوا، فكأن ما بعد (أو) لتأكيد ما قبلها، وليس للزيادة عليه، كما لو سألك سائل عن قوم: كم عددهم؟ فقلت: مئة ألف أو أكثر. يعني أنهم إن لم يزيدوا لم ينقصوا، وليس المراد إثبات الأكثرية أو الزيادة على هذا العدد، بل المراد تأكيد هذا العدد.

=

فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ (١٤٩).

{فَاسْتَفْتِهِمْ} اسْتَخْبِرْ كُفَّار مَكَّة تَوْبِيخًا لَهُمْ {أَلِرَبِّك الْبَنَات} بِزَعْمِهِمْ أَنَّ الْمَلَائِكَة بَنَات الله {وَلَهُمْ الْبَنُونَ} فَيَخْتَصُّونَ بِالْأَسْنَى.

أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ (١٥٠).

{أم خلقنا الملائكة إناثا وهم شاهدون} خلقنا فَيَقُولُونَ ذَلِكَ.

أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ (١٥١).

{ألا إنهم من أفكهم} كذبهم {ليقولون}.

وَلَدَ اللهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٥٢).

{وَلَدَ الله} بِقَوْلِهِمْ الْمَلَائِكَة بَنَات الله {وَإِنَّهُمْ لكاذبون} فيه.

أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ (١٥٣).

{أَصْطَفَى} بِفَتْحِ الْهَمْزَة لِلِاسْتِفْهَامِ وَاسْتُغْنِيَ بِهَا عَنْ هَمْزَة الْوَصْل فَحُذِفَتْ أَيْ أَخْتَار {الْبَنَات عَلَى البنين}.

=

وعلى هذا تكون (أو) هنا إما بمعنى (بل) وإما للتحقيق، أي: تحقيق العدد السابق.

فعلى القول الأول يكون المرسل إليهم زائدين على مئة ألف، وعلى الثاني يكون المرسل إليهم مئة ألف، لكن أكد ذلك بقوله: {أَوْ يَزِيدُونَ (١٤٧)}.

{فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ (١٤٨)} أي: أبقيناهم إلى حين، وهذا الحين هو وقت آجالهم التي قدرها الله لهم، يعني أنهم لم يهلكوا بهذا العذاب الذي أصابهم، كما قال تعالى: {فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ (٩٨)} [يونس: ٩٨].

مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (١٥٤).

{مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ} هَذَا الْحُكْم الْفَاسِد.

أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (١٥٥).

{أَفَلَا تَذَكَّرُونَ} بِإِدْغَامِ التَّاء فِي الذَّال أَنَّهُ سُبْحَانه وَتَعَالَى مُنَزَّه عَنْ الْوَلَد.

أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ (١٥٦).

{أَمْ لَكُمْ سُلْطَان مُبِين} حُجَّة وَاضِحَة أَنَّ لله ولدا.

فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٥٧).

{فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ} التَّوْرَاة فَأَرُونِي ذَلِكَ فِيهِ {إنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} فِي قَوْلكُمْ ذَلِكَ.

وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٥٨).

{وَجَعَلُوا} أَيْ الْمُشْرِكُونَ {بَيْنه} تَعَالَى {وَبَيْن الْجِنَّة} أَيْ الْمَلَائِكَة لِاجْتِنَانِهِمْ عَنْ الْأَبْصَار {نَسَبًا} بِقَوْلِهِمْ إنَّهَا بَنَات الله {وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّة إنَّهُمْ} أَيْ قَائِلِي ذَلِكَ {لَمُحْضَرُونَ} لِلنَّارِ يُعَذَّبُونَ فِيهَا.

سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٥٩).

{سُبْحَان الله} تَنْزِيهًا لَهُ {عَمَّا يَصِفُونَ} بِأَنَّ لله ولدا.

إِلَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ (١٦٠).

{إلَّا عِبَاد الله الْمُخْلَصِينَ} أَيْ الْمُؤْمِنِينَ اسْتِثْنَاء مُنْقَطِع أَيْ فَإِنَّهُمْ يُنَزِّهُونَ الله تَعَالَى عَمَّا يصفه هؤلاء.

فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ (١٦١).

{فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ} مِنْ الْأَصْنَام.

مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ (١٦٢).

{مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ} أَيْ عَلَى مَعْبُودكُمْ وَعَلَيْهِ مُتَعَلِّق بِقَوْلِهِ {بِفَاتِنِينَ} أَيْ أَحَدًا.

إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ (١٦٣).

{إلا من هو صال الجحيم} فِي عِلْم الله تَعَالَى.

وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ (١٦٤).

قال جبريل للنبي صلى الله عليه وسلم {وَمَا مِنَّا} مَعْشَر الْمَلَائِكَة أَحَد {إِلَّا لَهُ مَقَام مَعْلُوم} فِي السَّمَاوَات يَعْبُد الله فِيهِ لَا يَتَجَاوَزهُ.

وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ (١٦٥).

{وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ} أَقْدامنَا فِي الصَّلَاة.

وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ (١٦٦).

{وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ} الْمُنَزِّهُونَ الله عَمَّا لَا يَلِيق به.

وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ (١٦٧).

{وَإِنْ} مُخَفَّفَة مِنْ الثَّقِيلَة {كَانُوا} أَيْ كُفَّار مكة {ليقولون}.

لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ (١٦٨).

{لَوْ أَنَّ عِندنَا ذِكْرًا} كِتَابًا {مِنَ الْأَوَّلِينَ} أَيْ مِنْ كُتُب الْأُمَم الْمَاضِيَة.

لَكُنَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ (١٦٩).

{لكنا عباد الله المخلصين} العبادة له.

فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (١٧٠).

قال تعالى {فَكَفَرُوا بِهِ} بِالْكِتَابِ الَّذِي جَاءَهُمْ وَهُوَ الْقُرْآن الْأَشْرَف مِنْ تِلْكَ الْكُتُب {فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ} عَاقِبَة كفرهم[1].

---

(١) ذكر سبب النزول.

=

=

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما؛ قال: أنزلت هذه الآية في ثلاثة أحياء من قريش: سليم، خزاعة، وجهينة {وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا}.

ذكره السيوطي في "لباب النقول" (ص ١٣٨)، و"الدر المنثور" (٧/ ١٣٣) وقال: وأخرج جويبر عن الضحاك عن ابن عباس به.

وهذا سند ضعيف جدًا؛ فيه علتان:

الأولى: جويبر هذا؛ ضعيف الحديث جدًا.

الثانية: الضحاك لم يسمع من ابن عباس شيئًا.

وعن مجاهد في قوله: {وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا}؛ قال: قال كفار قريش: الملائكة بنات الله -تعالى-، فقال لهم أبو بكر الصديق رضي الله عنه: فمن أمهاتهم؟ فقالوا: بنات سَرَوَات الجن، فقال الله عز وجل: {وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ}، يقول: إنما ستحضر للحساب، قال: والجِنة هي الملائكة.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٣/ ٦٩)، والبيهقي في "شعب الإيمان" (١/ ١٦٦ رقم ١٤١) من طرق عن ابن أبي نجيح عن مجاهد به.

وهذا مرسل رجاله ثقات.

والحديث ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٧/ ١٣٣) وزاد نسبته لآدم بن أبي إياس وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

وعن يزيد بن أبي مالك؛ قال: كان الناس يصلون متبددين؛ فأنزل الله: {وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ}؛ فأمرهم أن يصفوا.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٧/ ١٣٦) ونسبه لابن أبي حاتم.

* قوله تعالى: {فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ (١٤٩)} [الصافات: ١٤٩].

قال الطبري:"يقول: يا محمد سلهم، وقل لهم: ألربي البنات ولكم البنون؟ ".

=

=

قال الزجاج:"أي: سلهم مسألة توبيخ وتقرير، لأنهم زعموا أن الملائكة بنات الله، تعالى الله عن ذلك".

قال قتادة:"لأنهم قالوا-يعني مشركي قريش-: لله البنات، ولهم البنون".

قال السدي:"كانوا يعبدون الملائكة".

قال الزمخشري:"{فَاسْتَفْتِهِمْ} معطوف على مثله في أوّل السورة، وإن تباعدت بينهما المسافة: أمر رسوله باستفتاء قريش عن وجه إنكار البعث أوّلا، ثم ساق الكلام موصولا بعضه ببعض، ثم أمره باستفتائهم عن وجه القسمة الضيزى التي قسموها، حيث جعلوا لله الإناث ولأنفسهم الذكور في قولهم: الملائكة بنات الله، مع كراهتهم الشديدة لهنّ، ووأدهم، واستنكافهم من ذكرهنّ.

ولقد ارتكبوا في ذلك ثلاثة أنواع من الكفر:

أحدها: التجسيم، لأن الولادة مختصة بالأجسام.

والثاني: تفضيل أنفسهم على ربهم حين جعلوا أوضع الجنسين له وأرفعهما لهم، كما قال: {وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ وَمَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ} [الزخرف: ١٧ - ١٨].

والثالث: أنهم استهانوا بأكرم خلق الله عليه وأقربهم إليه، حيث أنثوهم ولو قيل لأقلهم وأدناهم: فيك أنوثة. أو شكلك شكل النساء، للبس لقائله جلد النمر، ولانقلبت حماليقه، وذلك في أهاجيهم بين مكشوف، فكرّر الله سبحانه الأنواع كلها في كتابه مرّات، ودل على فظاعتها في آيات: {وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا (٨٨) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (٨٩) تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ (٩٠)} [مريم: ٨٨ - ٩٠]، {وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ} [الأنبياء: ٢٦]، {وَقَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [البقرة: ١١٦]، {بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ} [الأنعام: ١٠١] ".

=

قوله تعالى: {أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ (١٥٠)} [الصافات: ١٥٠].

قال الطبري: يقول:"أم شهد هؤلاء القائلون من المشركين: الملائكة بنات الله خلقي الملائكة وأنا أخلقهم إناثا، فشهدوا هذه الشهادة، ووصفوا الملائكة بأنها إناث".

قال يحيى:"أي: لم نفعل ولم يشهدوا خلقهم".

قال السمعاني:"معناه: أخلقنا الملائكة إناثا {وهم شاهدون} خلقنا إناثا، وقد كانوا يزعمون أن الملائكة بنات الله".

قال أهل التفسير: "ولم يكن يزعم هذا جميع قريش، وإنما قال هذا بعض قريش، وقوم من بني كنانة، وهم بنو مدلج".

قال البيضاوي:"وإنما خص علم المشاهدة لأن أمثال ذلك لا تعلم إلا بها، فإن الأنوثة ليست من لوازم ذاتهم لتمكن معرفته بالعقل الصرف مع ما فيه من الاستهزاء، والإشعار بأنهم لفرط جهلهم يبتون به كأنهم قد شاهدوا خلقهم".

قال أبو حيان:"فإن قلت: لم قال: وهم شاهدون، فخص علمهم بالمشاهدة؟ قلت: ما هو إلا استهزاء وتجهيل كقوله: {أَشَهِدُوا خَلْقَهُم} [الزخرف: ١٩]، وذلك أنهم كما لم يعلموا ذلك بطريق المشاهدة، لم يعلموه بخلق الله علمه في قلوبهم ولا بإخبار صادق، لا بطريق استدلال ولا نظر. ويجوز أن يكون المعنى أنهم يقولون ذلك، كالقائل قولا عن ثلج صدر وطمأنينة نفس لإفراط جهلهم، كأنهم قد شاهدوا خلقه".

قوله تعالى: {أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ (١٥١) وَلَدَ اللهُ} [الصافات: ١٥١ - ١٥٢].

قال الطبري: يقول:"ألا إن هؤلاء المشركين من كذبهم: {لَيَقُولُونَ وَلَدَ اللهُ} ".

=

قال أبو حيان:"ثم أخبر عنهم ثالثا بأعظم الكفر، وهو ادعاؤهم أنه تعالى قد ولد، فبلغ إفكهم إلى نسبة الولد".

قال ابن كثير:"فذكر الله عنهم في الملائكة ثلاثة أقوال في غاية الكفر والكذب، فأولا جعلوهم بنات الله، فجعلوا لله ولدًا. وجعلوا ذلك الولد أنثى، ثم عبدوهم من دون الله. وكل منها كاف في التخليد في نار جهنم".

قوله تعالى: {وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ} [الصافات: ١٥٢]، أي:"وهم كاذبون قطعًا في قولهم الملائكة بناتُ الله".

قال الطبري: أي:"في قيلهم ذلك".

عن قتادة: " {أَلا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ}، يقول: من كذبهم".

قال أبو حيان:"ولما كان هذا فاحشا، قال: {وإنهم لكاذبون} ".

قوله تعالى: {أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ (١٥٣)} [الصافات: ١٥٣].

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره موبّخا هؤلاء القائلين لله البنات من مشركي قريش: {أَصْطَفَى} الله أيها القوم {الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ}؟ ".

قال السمعاني:"معناه: أصطفى البنات على البنين، وهو استفهام بمعنى الزجر والتوبيخ".

قال ابن كثير:"أي: أيّ شيء يحمله عن أن يختار البنات دون البنين؟ كقوله: {أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلا عَظِيمًا} [الإسراء: ٤٠] ".

قال القرطبي:"«أصطفى»، على معنى التقريع والتوبيخ، كأنه قال: ويحكم {أصطفى البنات}، أي: اختار البنات وترك البنين".

قال قتادة:"يقول: كيف يجعل لكم البنين ولنفسه البنات".

قال يحيى:"أي: لم يفعل".

=

=

قال أبو السعود: قوله: {أَصْطَفَى البنات على البنين} "إثبات لإفكهم وتقرير لكذبهم فيما قالوا ببيان استلزامه لأمر بين الاستحالة هو اصطفاؤه تعالى البنات على النبين والاصطفاء أخذ صفوة الشئ لنفسه".

وقرئ: «إصطفى»، بكسر الألف على الخبر، ومعناه: إصطفى البنات على البنين في زعمكم وقولكم.

قوله تعالى: {مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (١٥٤)} [الصافات: ١٥٤].

قال قتادة:"إن هذا لحكم جائر".

قال الطبري:"يقول: بئس الحكم تحكمون أيها القوم أن يكون لله البنات ولكم البنون، وأنتم لا ترضون البنات لأنفسكم، فتجعلون له ما لا ترضونه لأنفسكم؟ ".

قال السمعاني:"أي: كيف تقولون أن الله تعالى اختار البنات على البنين، وأنتم لا تختارون إلا البنين".

قال ابن كثير:"أي: ما لكم عقول تتدبرون بها ما تقولون؟ ".

قال أبو السعود: " بهذا الحكم الذي يقضي ببطلانه بديهة العقل".

قوله تعالى: {أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (١٥٥)} [الصافات: ١٥٥].

قال السمعاني:"أي: أفلا تتعظون".

قال الطبري:"يقول: أفلا تتدبرون ما تقولون؟ فتعرفوا خطأه فتنتهوا عن قيله".

قال القرطبي:"{أفلا تذكرون} في أنه لا يجوز أن يكون له ولد".

قال أبو السعود: " أي: ألا تلاحظون ذلك فلا تتذكرون بطلانه فإنه مركوز في عقل كل ذكي وغبي".

قوله تعالى: {أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ (١٥٦)} [الصافات: ١٥٦].

قال الطبري:"يقول: ألكم حجة تبين صحتها لمن سمعها بحقيقة ما تقولون؟ ".

=

=

قال السمعاني:"أي: حجة بينة".

قال ابن كثير:"أي: حجة على ما تقولونه ".

عن قتادة: " {أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ}، أي: عذر مبين".

عن السديّ، قوله: " {سُلْطَانٌ مُبِينٌ}، قال: حجة".

عن أبي مالك، ومحمد بن كعب، وعكرمة، وسعيد بن جبير، والضحاك، والنضر بن عربي:"كل سلطان في القرآن حجة".

قال مجاهد:"«السلطان المبين»، البرهان والبينة، وقوله: {مَا لَمْ يُنزلْ بِهِ سُلْطَانًا} [آل عمران: ١٥١ :الأعراف: ٧ / الحج: ٧١]، قال: بينَةً وبرهانًا".

قال أبو السعود: " إضراب وانتقال من توبيخهم وتبكيتهم بما ذكر إلي تبكيتهم بتكليفهم ما لا يدخل تحت الوجود أصلا أي بل ألكم حجة واضحة نزلت عليكم من السماء بأن الملائكة بناته تعالى ضرورة أن الحكم بذلك لا بد له من سند حسي أو عقلي".

قوله تعالى: {فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٥٧)} [الصافات: ١٥٧].

قوله تعالى: {فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [الصافات: ١٥٧]، أي:"إن كانت لكم حجة في كتاب من عند الله فأتوا بها".

قال الطبري:"يقول: فأتوا بحجتكم من كتاب جاءكم من عند الله بأن الذي تقولون من أن له البنات ولكم البنين كما تقولون".

قال يحيى:"{فأتوا بكتابكم} الذي فيه حجتكم".

قال السمعاني:"أي: بكتاب من عندكم يدل على ما قلتموه".

قال ابن كثير:"أي: هاتوا برهانا على ذلك يكون مستندًا إلى كتاب مُنزل من السماء عن الله: أنه اتخذ ما تقولونه، فإن ما تقولونه لا يمكن استناده إلى عقل، بل لا يُجَوّزُه العقل بالكلية ".

=

قال أبو السعود: " وحيث انتفى كلاهما [أي: السند الحسي و العقلي] فلا بد من سند نقلي: {فأتوا بكتابكم} الناطق بصحة دعواكم ".

عن قتادة: " {فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ}، أي: بعذركم".

عن السديّ: " {فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ}، أن هذا كذا بأن له البنات ولكم البنون".

قوله تعالى: {إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [الصافات: ١٥٧]، أي:"إن كنتم صادقين في قولكم".

قال الطبري:"يقول: إن كنتم صادقين أن لكم بذلك حُجَّة".

قال يحيى:"{إن كنتم صادقين} أن الملائكة بنات الله، أي: ليس لهم بذلك حجة".

قال أبو السعود: " وفي هذه الآيات من الإنباء عن السخط العظيم والإنكار الفظيع لأقاويلهم والاستبعاد الشديد لأباطيلهم وتسفيه أحلامهم وتركيك عقولهم وأفهامهم مع استهزاء بهم وتعجيب من جهلهم ما لا يخفى على من تأمل فيها".

قوله تعالى: {وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا} [الصافات: ١٥٨]، أي:"وجعل المشركون بين الله والملائكة قرابة ونسبًا".

قال الطبري: يقول: " وجعل هؤلاء المشركون بين الله وبين الجنة نسبا".

قال ابن زيد:"بين الله وبين الجنة نسبا افتروا".

وفي قوله تعالى: {وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا} [الصافات: ١٥٨]، وجوه من التفسير:

أحدها: أنهم أطاعوا الشياطين في عبادة الأوثان، فجعلوهم شركاء لله، فهو النسب الذي جعلوه. قاله الحسن.

الثاني: أن اليهود قالت: إن الله تعالى تزوج إلى الجن فخرجت من بينهم الملائكة. قاله قتادة.

=

قال عطية:"قالوا: صاهر إلى كرام الجن".

قال الماوردي: وهو قول يهود أصبهان".

الثالث: إن الله تعالى وإبليس أخوان. قاله ابن عباس، والكلبي.

قال الماوردي:"وهو قول الزنادقة والذين يقولون: أن النور والخير النافع من خلق الله، والظلمة والشر والحيوان الضار من خلق إبليس".

قال ابن عباس:"زعم أعداء الله أنه تبارك وتعالى وإبليس أخوان".

الرابع: أن كفار قريش قالوا: الملائكة بنات الله، والجنة صنف من الملائكة يقال لهم: الجنة. قاله مجاهد.

قال السدي:"الجنة: الملائكة، قالوا: هنّ بنات الله".

وفي تسمية «الملائكة»، على هذا الوجه: «جنة»، ثلاثة وجوه:

أحدها: أنهم بطن من بطون الملائكة يقال لهم: الجنة، قاله مجاهد.

الثاني: لأنهم كانوا على الجنان، قاله أبو مالك.

وقال أبو مالك:"والملائكة كلهم أجنة".

الثالث: لاستتارهم عن العيون كالجن المستخفين.

قوله تعالى: {وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ} [الصافات: ١٥٨]، أي:"ولقد علمت الملائكة أن المشركين محضرون للعذاب يوم القيامة".

قال ابن كثير:"أي: إن الذين قالوا ذلك لمحضرون في العذاب يوم الحساب لكذبهم في ذلك وافترائهم، وقولهم الباطل بلا علم ".

وفي قوله تعالى: {وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ} [الصافات: ١٥٨]، وجهان:

أحدهما: معناه: ولقد علمت الجنة إنهم لمشهدون الحساب. قاله مجاهد.

=

=

الثاني: أنهم علموا أن قائل هذا القول سيُحضرون العذاب في النار. وهذا قول قتادة، والسدي.

قال الطبري:"وأولى القولين في ذلك بالصواب قول من قال: إنهم لمحضرون العذاب، لأن سائر الآيات التي ذكر فيها الإحضار في هذه السورة، إنما عُنِيَ به الإحضار في العذاب، فكذلك في هذا الموضع".

قوله تعالى: {سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٥٩)} [الصافات: ١٥٩].

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره تنزيهًا لله، وتبرئة له مما يضيف إليه هؤلاء المشركون به، ويفترون عليه، ويصفونه، من أن له بنات، وأن له صاحبة".

قال ابن كثير:"أي: تعالى وتقدس وتنزه عن أن يكون له ولد، وعما يصفه به الظالمون الملحدون علوا كبيرا ".

قال الزجاج:": تنزيه الله من السوء عن وصفهم".

عن قتادة:"{سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ}، قال: عما يكذبون".

قال قتادة: "سبح نفسه".

عن ميمون بن مهران: {سبحان الله}: اسم يعظم الله به ويحاشى به من السوء".

عن الحسن قال: " {سبحان الله}: اسم لا يستطيع الناس أن ينتحلوه".

قوله تعالى: {إِلَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ (١٦٠)} [الصافات: ١٦٠].

قال الطبري:"يقول: ولقد علمت الجنَّةُ أن الذين قالوا: إن الملائكة بنات الله لمحضرون العذاب، إلا عباد الله الذين أخلصَهُمْ لرحمته، وخلقهم لجنته".

قال ابن كثير:"استثناء منقطع، وهو من مثبت، إلا أن يكون الضمير في قوله: {عَمَّا يَصِفُونَ} عائدا إلى جميع الناس ثم استثنى منهم المخلصين، وهم المتبعون للحق المنزل على كل نبي ومرسل. وجعل ابن جرير هذا الاستثناء من قوله: {إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ. إلا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ}، وفي هذا الذي قاله نظر".

=

=

عن قتادة:"{إِلَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ}، قال: هذه ثنيا الله من الجن والإنس".

قوله تعالى: {فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ (١٦١) مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ (١٦٢) إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ (١٦٣)} [الصافات: ١٦١ - ١٦٣]؟

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: {فَإِنَّكُمْ} أيها المشركون بالله {وَمَا تَعْبُدُونَ} من الآلهة والأوثان، ما أنتم على ما تعبدون من دون الله بمضِلِّينَ أحدًا إلا أحدًا سبق في علمي أنه صال الجحيم".

قال الزجاج:"أي: ما أنتم بمضلين عليه ألا من أضل الله، {إلا من هو صال الجحيم}، أي: لستم تضلون إلا أهل النار".

قال السمعني:"{فإنكم وما تعبدون} أي: من الأصنام، ما أنتم على الله بمضلين إلا من أضله الله".

قال ابن كثير:"أي: ما ينقاد لمقالكم وما أنتم عليه من الضلالة والعبادة الباطلة من هو أضل منكم ممن ذُري للنار. {لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ} [الأعراف: ١٧٩]. فهذا الضرب من الناس هو الذي ينقاد لدين الشرك والكفر والضلالة، كما قال تعالى: {إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ} [الذاريات: ٨، ٩] أي: إنما يضل به من هو مأفوك ومبطل".

قال الزمخشري:"معناه: فإنكم ومعبوديكم ما أنتم وهم جميعا بفاتنين على الله إلا أصحاب النار الذين سبق في علمه أنهم لسوء أعمالهم يستوجبون أن يصلوها. فإن قلت: كيف يفتنونهم على الله؟ قلت. يفسدونهم عليه بإغوائهم واستهزائهم، من قولك يفتن فلان على فلان امرأته، كما تقول: أفسدها عليه وخيبها عليه".

قال السعدي:"أي: إنكم أيها المشركون ومن عبدتموه مع الله، لا تقدرون أن تفتنوا وتضلوا أحدا إلا من قضى الله أنه من أهل الجحيم، فينفذ فيه القضاء

=

=

الإلهي، والمقصود من هذا، بيان عجزهم وعجز آلهتهم عن إضلال أحد، وبيان كمال قدرة الله تعالى، أي: فلا تطمعوا بإضلال عباد الله المخلصين وحزبه المفلحين".

قال أبو البقاء العكبري:" {وما تعبدون}: الواو عاطفة، ويضعف أن يكون بمعنى: «مع»، إذ لا فعل هنا، و {ما أنتم}: نفي".

عن خالد، قال: "قلت للحسن، قوله: {مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ إِلا مَنْ هُوَ صَالِي الْجَحِيمِ}، إلا من أوجب الله عليه أن يَصْلَى الجحيم".

عن حميد، قال: "سألت الحسن، عن قول الله: {مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ إِلا مَنْ هُوَ صَالِي الْجَحِيمِ}، قال: ما أنتم عليه بمضلين إلا من كان في علم الله أنه سيصْلَى الجحيم".

عن إبراهيم:" {مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ إِلا مَنْ هُوَ صَالِي الْجَحِيمِ}: إلا من قدر عليه أنه يَصْلَى الجحيم". وفي رواية:"ما أنتم بمضلين إلا من كتب عليه إنه يصلى الجحيم".

وذكر أهل العلم في قوله تعالى: {مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ} [الصافات:١٦٢]، وجوها من التفسير:

أحدها: معناه: يا بني إبليس إنه ليس عليكم سلطان {إِلا مَنْ هُوَ صَالِي الْجَحِيمِ}. قاله الحسن.

الثاني: ما أنتم بمضلي أحد على إبليس {إِلا مَنْ هُوَ صَالِي الْجَحِيمِ}. حكاه يحيى بن سلام.

الثالث: أن الخطاب للمشركين، والمعنى: فإنكم ومعبوديكم ما أنتم على ما تعبدونه بمضلين أحدا {إِلا مَنْ هُوَ صَالِي الْجَحِيمِ}. وهذا قول ابن عباس، وقتادة، والضحاك، والسدي.

=

قال قتادة:"يقول: ما أنتم بمضلين أحدا من عبادي بباطلكم هذا، إلا من تولاكُم بعمل النار".

عن ابن عباس: " {فَإِنَّكُمْ} يا معشر المشركين {وَمَا تَعْبُدُونَ}، يعني: الآلهة، {مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ}: بمضلين، {إِلا مَنْ هُوَ صَالِي الْجَحِيمِ}، يقول: إلا من سبق في علمي أنه سيصلى الجحيم".

قال يحيى:"الفتنة، يعني: الضلالة، يعني: ما أنتم عليه بمضلِّين".

قال الماوردي:"{ما أنتم عليه بفاتنين}، أي: بمضلين، قال الشاعر:

فرد بنعمته كيده... عليه وكان لها فاتنا".

وفي قوله تعالى: {إِلا مَنْ هُوَ صَالِي الْجَحِيمِ} [الصافات:١٦٣]، وجهان من التفسير:

أحدهما: إلا من سبق في علم الله تعالى أنه يصلى الجحيم، قاله ابن عباس.

قال ابن زيد:"يقول: لا تفتنون به أحدا، ولا تضلونه، إلا من قضى الله أنه صال الجحيم، إلا من قد قضى أنه من أهل النار".

الثاني: إلا من تولاكُم بعمل النار. قاله قتادة.

قال النحاس:"أهل التفسير مجمعون فيما علمته على أن المعنى: ما أنتم بمضلّين أحدا إلّا من قدّر الله جلّ وعزّ عليه أن يضل".

عن جعفر، "عن العشرة الذين دخلوا على عمر بن عبد العزيز، وكانوا متكلمين كلهم، فتكلموا، ثم إن عمر بن عبد العزيز تكلم بشيء، فظننا أنه تكلم بشيء رد به ما كان في أيدينا، فقال لنا: هل تعرفون تفسير هذه الآية: {فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ إِلا مَنْ هُوَ صَالِي الْجَحِيمِ} قال: إنكم والآلهة التي تعبدونها لستم بالذي تفتنون عليها إلا من قَضَيْت عليه أنه يَصْلَى الجحيم".

=

عن عمر بن ذر ، أنه سمع عمر بن عبد العزيز ، يقرأ هذه الآية {ما أنتم عليه بفاتنين إلا من هو صال الجحيم} [الصافات: ١٦٣] ثم قال: " لو شاء الله أن لا يعصى لم يخلق إبليس ، وقد بين الله ذلك في آية من كتابه عقلها من عقلها وجهلها من جهلها ، ثم قال: {إنكم وما تعبدون} [الصافات: ١٦١] الآية".

عن الحسن أنه قرأ: «إلا مَنْ هُوَ صَالُ الجَحِيمِ» برفع اللام.

قوله تعالى: {وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ} [الصافات: ١٦٤].

قال الطبري:"هذا خبر من الله عن قيل الملائكة أنهم قالوا: وما منا معشر الملائكة إلا من له مقام في السماء معلوم".

قال الزجاج:"هذا قول الملائكة، وههنا مضمر، المعنى: ما منا ملك إلا له مقام معلوم".

قال ابن كثير:"قال تعالى مُنزها للملائكة مما نَسَبوا إليهم من الكفر بهم والكذب عليهم أنهم بنات الله: {وَمَا مِنَّا إِلا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ} أي: له موضع مخصوص في السماوات ومقامات العبادة لا يتجاوزه ولا يتعداه".

عن السديّ، قوله: " {وَمَا مِنَّا إِلا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ} ، قال: الملائكة".

قال ابن زيد:"هؤلاء الملائكة".

وفي قوله تعالى: قوله تعالى: {وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ} [الصافات: ١٦٤]، وجوه:

أحدها: معناه: ما منا ملك إلا له مكان معلوم يعبد الله فيه. قاله السدي.

وفي الحديث: «أطَّت السماء وحُقّ لها أن تَئِطّ، ليس فيها موضع قَدَم إلا عليه ملك راكع أو ساجد". ثم قرأ: {وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ} ».

الثاني: ما حكاه قتادة قال: "كان يصلي الرجال والنساء جميعًا حتى نزلت: {وَمَا مِنَّا إِلا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُوم} ، قال: فتقدم الرجال وتأخر النساء".

=

=

الثالث: وما منا يوم القيامة إلا من له فيها مقام معلوم بين يدي الله عز وجل. أفاده الماوردي.

وفي قراءة عبد الله: «وإنْ كُلَّنا لَمَّا لَهُ مقامٌ معلوم».

قوله تعالى: {وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ} [الصافات: ١٦٥]، أي:"وإنا لنحن الواقفون صفوفًا في عبادة الله وطاعته".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره مخبراً عن قيل ملائكته: {وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ} لله لعبادته".

قال ابن كثير:"أي: نقف صفوفًا في الطاعة".

عن ابن عباس، قوله:"{وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ}، قال: يعني الملائكة".

وفي قوله تعالى: {وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ} [الصافات: ١٦٥]، وجهان:

أحدهما: يعني: صفوف الملائكة في السموات، قيل: حول العرش ينتظرون ما يؤمرون به،

وقيل: في الصلاة مصطفين.

عن قتادة، قوله:": {وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ}، قال: صفوف في السماء".

قال مقاتل:"يعني: صفوف الملائكة في السموات في الصلاة".

قال الزجاج:"أي: نحن المصلون".

وفي الحديث: «"فُضِّلنا على الناس بثلاث: جُعلت صفوفنا كصفوف الملائكة، وجعلت لنا الأرض مسجدًا، وتربتها طهورا»".

عن جابر بن سَمُرَة قال: قال رسول الله ﷺ: "ألا تَصُفّون كما تصف الملائكة عند ربهم؟ " قلنا: وكيف تصف الملائكة عند ربهم؟ قال ﷺ: "يُتِمون الصفوف المتقدمة ويَتَراصون في الصف".

=

=

عن أبي نضرة، قال: "كان عمر إذا أقيمت الصلاة أقبل على الناس بوجهه، فقال: يا أيها الناس استوُوا، إن الله إنما يريد بكم هدى الملائكة {وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ} استوُوا، تقدّم أنت يا فلان، تأخر أنت أي هذا، فإذا استوُوا تقدّم فكبر".

الثاني: ما حكاه زيد بن مالك، قال: كان الناس يصلون متبددين فأنزل الله: {وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ}، فأمرهم أن يصفوا".

عن الوليد بن عبد الله بن أبي مغيث، قال: "كانوا لا يصفون في الصلاة حتى نزلت: {وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ} ".

عن ابن جريج، قال:"أنهم كانوا لا يصفون حتى نزلت {وإنا لنحن الصافون} ".

قوله تعالى: {وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ} [الصافات: ١٦٦]، أي:"وإنا لنحن المنزِّهون الله عن كل ما لا يليق به".

قال الطبري: "يعني بذلك: المصلون له".

قال ابن كثير:"أي: نصطف فنسبح الرب ونمجده ونقدسه وننزهه عن النقائص، فنحن عبيد له، فقراء إليه، خاضعون لديه".

وفي قوله تعالى: {وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ} [الصافات: ١٦٦]، وجهان:

أحدهما: المصلّون، قاله قتادة، والسدي، ومقاتل، والفراء، وابن قتيبة.

وقال قتادة:"هذا قول الملائكة يثنون بمكانهم من العبادة". وفي رواية: "يبينون مكانهم من العباد".

قال الضحاك:"كان مسروق بن الأجدع يروي عن عائشة أنها قالت: قال نبي الله ﷺ:"ما في سماء الدنيا موضع قدم إلا عليه ملك ساجد أو قائم". فذلك قول الملائكة: {وَمَا مِنَّا إِلا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُون} ".

=

=

قال عبد الله: "إن من السموات لسماء ما فيها موضع شبر إلا وعليه جبهة ملك أو قدمه قائما؛ قال: ثم قرأ: {وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ} ".

الثاني: الملائكة صافون تسَبِّح لله عز وجل. قاله ابن عباس.

قال الزجاج:"الممجدون لله، الذين ينزهونه عن السوء".

قال الماوردي: أي:"المنزِّهون الله عما أضافه إليه المشركون، أي: فكيف لا تعبدونه ونحن نعبده.

قوله تعالى: {وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ (١٦٧) لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ (١٦٨) لَكُنَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ (١٦٩)} [الصافات: ١٦٧ - ١٦٩]

قال الطبري: يقول:"وكان هؤلاء المشركون من قريش يقولون قبل أن يبعث إليهم محمد ﷺ نبيا، {لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا} كتابا أنزل من السماء كالتوراة والإنجيل، أو نبي أتانا مثل الذي أتى اليهود والنصارى {لَكُنَّا عِبَادَ اللهِ} الذين أخلصهم لعبادته، واصطفاهم لجنته".

قال الزجاج:"كان كفار قريش يقولون لو جاءنا ذكر كما جاء غيرنا من الأولين لأخلصنا العبادة لله عز وجل، فلما جاءهم كفروا به".

قال الزمخشري:"هم مشركو قريش كانوا يقولون: {لَوْ أَنَّ عِنْدَنا ذِكْرًا}، أى: كتابا، {مِنَ} كتب {الْأَوَّلِينَ} الذين نزل عليهم التوراة والإنجيل، لأخلصنا العبادة لله، ولما كذبنا كما كذبوا، ولما خالفنا كما خالفوا ".

قال ابن كثير:"أي: قد كانوا يتمنون قبل أن تأتيهم يا محمد لو كان عندهم من يذكرهم بأمر الله، وما كان من أمر القرون الأولى، ويأتيهم بكتاب الله، كما قال تعالى: {وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الأمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلا نُفُورًا} [فاطر: ٤٢]، وقال: {أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ. أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا

=

أُنزلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ} [الأنعام: ١٥٦، ١٥٧] ".

عن السدي:"{لو أن عندنا ذكرا من الأولين}، يعني: خبرا من الأولين".

قال السمعاني:"أي: كتابا ككتاب الأولين".

قال يحيى: "مثل: كتاب موسى وعيسى".

قال ابن زيد: "رجع الحديث إلى الأولين أهل الشرك: {وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ} ".

قال الضحاك:"هذا قول مشركي أهل مكة، فلما جاءهم ذكر الأولين وعلم الآخرين، كفروا به فسوف يعلمون".

قال قتادة:"قالت هذه الأمة ذاك قبل أن يبعث محمد ﷺ: لو كان عندنا ذكر من الأولين، لكنا عباد الله المخلصين؛ فلما جاءهم محمد ﷺ كفروا به، فسوف يعلمون".

قال السدي:"هؤلاء ناس من مشركي العرب قالوا: لو أن عندنا كتابا من كتب الأولين، أو جاءنا علم من علم الأولين قال: قد جاءكم محمد بذلك".

قوله تعالى: {فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (١٧٠)} [الصافات: ١٧٠].

فلما جاءهم ذكر الأولين، وعلم الآخرين، وأكمل الكتب، وأفضل الرسل، وهو محمد ﷺ، كفروا به، فسوف يعلمون ما لهم من العذاب في الآخرة.

قوله تعالى: {فَكَفَرُوا بِهِ} [الصافات: ١٧٠]، أي:"فلما جاءهم ذكر الأولين، وعلم الآخرين، وأكمل الكتب، وأفضل الرسل، وهو محمد ﷺ، كفروا به".

قال الفراء:"المعنى: وقد أرسل إليهم مُحَمَّد بالقرآن، فكفروا بِهِ".

قال يحيى: " {فكفروا به}: بالقرآن".

=

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: فلما جاءهم الذكر من عند الله كفروا به، وذلك كفرهم بمحمد ﷺ وبما جاءهم به من عند الله من التنزيل والكتاب".

قال الزمخشري: "فجاءهم الذكر الذي هو سيد الأذكار، والكتاب الذي هو معجز من بين الكتب، فكفروا به. ونحوه: {فَلَمَّا جاءَهُمْ نَذِيرٌ ما زادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا} ".

قال ابن عباس: "لما جاء المشركين من أهل مكة ذكر الأولين وعلم الآخرين كفروا بالكتاب".

قوله تعالى: {فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ} [الصافات: ١٧٠]، أي: "فسوف يعلمون ما لهم من العذاب في الآخرة".

قال الطبري: "يقول الله: فسوف يعلمون إذا وردوا عليّ ماذا لهم من العذاب بكفرهم بذلك".

قال الزجاج: "أي: سوف يعلمون مغبة كفرهم، وما ينزل بهم من العذاب والانتقام منهم في الدنيا والآخرة".

قال الزمخشري: "فسوف يعلمون مغبة تكذيبهم وما يحل بهم من الانتقام. وإن: هي المخففة من الثقيلة، واللام هي الفارقة. وفي ذلك أنهم كانوا يقولونه مؤكدين للقول جادّين فيه، فكم بين أوّل أمرهم وآخره".

قال السمعاني: قوله: {فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ} " تهديد من الله لهم".

قال ابن كثير: "{فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ}، وعيد أكيد وتهديد شديد، على كفرهم بربهم - سبحانه وتعالى - وتكذيبهم - رسوله ﷺ".

وعن ابن عباس، قوله: "{فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ}، لما جاء المشركين من أهل مكة ذكر الأولين وعلم الآخرين كفروا بالكتاب".

قال ابن عباس: "يقول: قد جاءكم محمد بذلك، فكفروا بالقرآن وبما جاء به محمد".

=

=

قال العثيمين: وله تعالى: {فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ (١٤٩)}. الأمر في قوله: {فَاسْتَفْتِهِمْ} يعود إلى رسول الله ﷺ والهاء في قوله: {فَاسْتَفْتِهِمْ} تعود إلى المشركين الذين جعلوا لله البنات ولهم البنون.

وقوله: {فَاسْتَفْتِهِمْ} أي اطلب منهم أن يفتوك. والفتوى في الأصل: بيان الحكم الشرعي. وتوجيه الاستفتاء إليهم من باب التهكم بهم، كأنهم نصبوا أنفسهم حكمًا يحكمون بما يشاؤون، وهذا كقوله تعالى: {ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ (٤٩)} [الدخان: ٤٩] على أحد القولين في تفسيرها، وإلا فإن هؤلاء ليسوا أهلًا للاستفتاء فضلًا على أن يستفتوا عن هذا الأمر العظيم، لكن هذا من باب التهكم ثم بين المستفتي عنه فقال: {أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ (١٤٩)} والاستفهام هنا للتوبيخ، يعني يوبخهم على هذا الحكم المعلوم من قبل، لأنهم جعلوا لله البنات، وجعلوا لهم البنين، ولهذا قال المصنف رحمه الله: [{فَاسْتَفْتِهِمْ} استخبر كفار مكة توبيخًا لهم] هذا يعود على الاستفهام، وأما التهكم فتوجيه الاستفتاء إليهم قال: {أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ (١٤٩)} بزعمهم أن الملائكة بنات الله، {وَلَهُمُ الْبَنُونَ (١٤٩)} فيختصون بالأسنى] أي بالأشرف، يعني هل هذا حكم صحيح عادل، أو حكم باطل جائز؟ والجواب: معلوم لكل أحد أن هذا حكم باطل جائر، ولهذا قال الله تعالى في سورة النجم: {أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى (٢١) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى} [النجم: ٢١، ٢٢] أي جائرة.

وقوله: {وَلَهُمُ الْبَنُونَ (١٤٩)} ليست الجملة حالية، بل هي معطوفة على الجملة التي قبلها، فهي داخلة في ضمن الاستفهام، يعني كيف يكون لله البنات ولهم البنون، فإن هذا حكم جائر، ولهذا قال: {أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ (١٥٠)} (أم) هنا منقطعة، و (أم) المنقطعة هي التي تكون للإضراب، ولهذا تقدر بـ (بل) والهمزة، فمثلًا: أم خلقنا الملائكة، تقدير الكلام: بل أخلقنا الملائكة إناثًا،

=

=

و (أم) تكون متصلة وتكون منقطعة، فإذا حل محلها بل وهمزة الاستفهام فهي منقطعة، وإذا كانت بمعنى (أو) فهي متصلة، تقول: أعندك زيد أم عمرو؟ يعني أو عمرًا {سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ} [المنافقون: ٦] يعني أو لم تستغفر لهم، والمتصلة تأتي بعد همزة التسوية غالبًا.

{أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا} أي: جعلناهم إناثًا، وعلى هذا فتكون إناثًا مفعولًا ثانيًا لخلقنا، ويجوز أن نجعل خلقنا على بابها، وتكون إناثًا منصوبة على الحال، يعني أم خلقنا الملائكة حال كونها إناثًا والجواب: لا ما خلق الله الملائكة إناثًا، بل ولا ذكورًا، ولهذا لا نصف الملائكة بالأنوثة ولا بالذكورة، لأن الملائكة لا يتوالدون ولا يأكلون ولا يشربون، لكن هم قالوا: إن الملائكة بنات الله، فجعلوا الملائكة إناثًا.

{وَهُمْ شَاهِدُونَ (١٥٠)} في موضع نصب على الحال، يعني هل خلقنا الملائكة إناثًا حال كون هؤلاء شاهدين على خلقنا إياهم إناثًا؟ والجواب: لا، فما خلق الله الملائكة إناثًا ولا شهدوا خلقهم، وهذا كقوله في الآية الأخرى: {وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ (١٩)} [الزخرف: ١٩] والحاصل أن الله سبحانه وتعالى بين لهؤلاء حالين:

الحال الأولى: الحكم الجائر الذي حكموا به بينهم وبين الله، حيث جعلوا لله الملائكة وجعلوا لأنفسهم البنين، وهذا جور، كما تدل عليه آية النجم.

الحال الثانية: جعلهم الملائكة إناثًا، سواء جعلوا لأنفسهم البنين أم لم يجعلوا، وهذا أيضًا كذب وافتراء، لأنهم لم يشهدوا خلقهم حتى يحكموا عليهم بأنهم إناثًا، ولهذا قال: {أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ (١٥٠)}.

والملائكة: عالم غيبي خلقَهم الله من نور، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون. فهم عالم غيبي لا نشاهدهم إلا أن يرينا الله إياهم على سبيل الكرامة، أو

=

=

على سبيل الآية، لأنه ما من إنسان إلا لديه ملكان عن اليمين وعن الشمال قعيد، وملائكة يحفظونه من بين يديه، يحفظونه من أمر الله، ومن خلفه، ونحن لا نشاهدهم، وملائكة يحضرون مجالس الذكر ولا نشاهدهم لأنهم عالم غيبي، والملائكة خلقوا من نور، كما ثبت ذلك عن رسول الله ﷺ، وخلقوا صمدًا يعني لا يأكلون ولا يشربون، لأنهم يسبحون الليل والنهار لا يفترون، والملائكة منهم من علمنا بأعيانهم ومنهم من لم نعلم، فمن علمنا بأعيانهم جبريل وميكائيل وإسرافيل الذي كان النبي ﷺ يسميهم في افتتاح صلاة الليل، فيقول: "اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي إلى صراط مستقيم" فجبريل عليه السلام موكل بما في حياة القلوب وهو الوحي. وميكائيل موكل بما فيه حياة الأرض وهو المطر والنبات، وإسرافيل بما فيه حياة الأجساد عند نفخ الصور، فإنه قد التقم الصور ينتظر متى يؤمر، فيجب علينا أن نؤمن بالملائكة إجمالًا فيما لم نعلم اسمه، وتعيينًا فيمن علمنا اسمه، ونؤمن أيضًا بما نعلم من أوصافهم كجبرائيل له ست مئة جناح قد سد الأفق، وبما نعلم من أحوالهم وعباداتهم، لأن هذا من أصول الإيمان التي بينها الرسول ﷺ لجبريل عليه السلام حين سأله عن الإيمان قال: "أن تؤمن بالله وملائكته" وعلينا أيضًا أن نحب هؤلاء الملائكة وأن نجلهم ونعظمهم لأنهم عباد الله، عباد مكرمون منقادون لأمر الله، فنحبهم لله عز وجل، وعلينا أن نكرمهم فنبغض من عاداهم كاليهود مثلًا الذين عادوا جبريل، ونبغض أيضًا كل من سبهم أو تعرض لأذاهم، لأنهم من أشرف عباد الله.

وقد اختلف العلماء: هل الملائكة أفضل. أم صالح البشر أفضل؟ والخلاف في هذا معروف مشهور، وأكثره خلاف جدلي، لأن المقام والمرتبة عند الله عز وجل

=

=

تدل على أن البشر أفضل، لأن البشر يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب، {وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ (٢٤)} [الرعد: ٢٣ - ٢٤].

ولهذا قال شيخ الإسلام رحمه الله: البشر أفضل باعتبار النهاية، والملائكة أفضل باعتبار البداية، لأن البشر خلقوا من طين والملائكة من نور، والنور أشرف من الطين.

ثم قال الله تعالى مبينًا حكمهم الباطل الذي قد علم مسبقًا قبل أن يستفتوا قال: {أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ (١٥١) وَلَدَ اللهُ} هذه الجملة مؤكدة بثلاثة مؤكدات: ألا، وإن، واللام.

أما (ألا) فإنها تأتي بلا شك للتوكيد، كما تأتي كذلك للتنبيه والاستفتاح، ولهذا يقال: ألا أداة استفتاح يراد بها التنبيه، والتوكيد، والتحقيق أي تحقق ما بعدها.

{أَلَا إِنَّهُمْ} أي هؤلاء الذين جعلوا الملائكة إناثًا، وهؤلاء الذين جعلوا لله البنات ولهم ما يشتهون {إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ} أي من كذبهم ليقولون ولد الله، وهنا قدم السبب على المسبب. السبب هو: الإفك، والمسبب القول، وقدم الإفك على القول لأهميته، ومن أجل أن يتبين للإنسان بطلانه من قبل أن يؤتى به، وإلا فمقتضي السياق أن يقال: "ألا إنهم ليقولون ولد الله"؛ لأن (ليقولون) خبر إن، وكان مقتضى السياق أن تباشر الاسم، لكن أخرت لبيان أن هذا القول باطل، حتى يرد على الذهن، وقد علم بطلانه، و (من) هنا للسببية، أي: ألا إنهم بسبب إفكهم. ويجوز أن تكون للتبعيض، يعني: ألا إنهم ليقولون هذا القول المأفوك من جملة إفكهم؛ لأن إفكهم كثير، فهم جعلوا لله ولدًا، وجعلوا لله شريكًا، وجعلوا لله زوجة، وكل هذا من الإفك.

=

=

فالحاصل أن {مِنْ}: يجوز أن تكون للتبعيض، ويجوز أن تكون سببية، وقوله: {مِنْ إِفْكِهِم} أي كذبهم، لأن الإفك هو الكذب، كما قال الله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ} [النور: ١١] أي بالكذب. {لَيَقُولُونَ (١٥١)} الجملة خبر إن، ومقول القول {وَلَدَ اللَّهُ} وعلى هذا فنقول: إن {وَلَدَ اللَّهُ} في محل نصب مقول القول.

وكيف قالوا: ولد الله؟ وبأي صيغة؟ قال المصنف رحمه الله: [بقولهم الملائكة بنات الله]، ومعلوم أن البنت من الولد فإن الولد في اللغة العربية يطلق على البنت والابن، قال الله تعالى: {يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ} [النساء: ١١].

{وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٥٢)}. هذه الجملة مؤكدة بمؤكدين: إن واللام، والمراد بها إبطال هذا القول، فيكون الله أبطل هذا القول قبل التحدث عن مقوله، وبعده، فأبطله قبل التحدث عن مقوله في قوله: {مِنْ إِفْكِهِم} وبعده بقوله: {وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٥٢)} ونحن نشهد أنهم كذابون في هذا، فإن الله تعالى واحد أحد صمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد. وقد برهن الله عز وجل على بطلان هذا في سورة الأنعام. فقال تعالى: {وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ (١٠٠) بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٠١)} [الأنعام: ١٠٠ - ١٠١]

فقال {أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ} [الأنعام: ١٠١] كيف يكون له ولد وليس له صاحبة، يعني زوجة؛ هذا مستحيل.

والثانية: {وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ} والخالق لكل شيء لا يمكن أن يكون له ولد؛ لأن الولد جزء من الوالد، وإذا كان جزءًا منه لم يكن شيئًا مخلوقًا، لأن جزء الخالق

=

يكون خالقًا مثله، قال الله تعالى: {وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ (١٥)} [الزخرف: ١٥].

{وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٠١)} [الأنعام: ١٠١]، وقد أعلمنا أنه ليس له ولد فكيف يكون خبره غير مطابق للواقع. فبرهن الله على امتناع وجود الولد من وجوه ثلاثة:

امتناع الصاحبة، وأنه خلق كل شيء، وأنه بكل شيء عليم، وعلمه بكل شيء وقد أخبرنا بأنه لم يلد يقتضي أنه لم يلد كذلك حقًا، لأن هذا الخبر لابد أن يكون مطابقًا لعلمه.

{أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ (١٥٣)} اصطفى أصلها اصتفى، وهي مأخوذة من الصفوة، وصفوة الشيء خياره، وعلى هذا فيكون معنى اصطفى اختار. وهنا قال: {أَصْطَفَى}، والمعروف أن همزة اصطفى همزة ووصل لا همزة قطع، فلماذا كانت هنا همزة قطع؟ قال رحمه الله: [بفتح الهمزة للاستفهام]. فالهمزة هنا ليست همزة الوصل التي يؤتى بها للتوصل إلى النطق بالساكن، ولهذا لا يكون ما بعدها إلا ساكن، فالهمزة هنا ليست همزة وصل، ولكنها همزة استفهام، فاستغني بها عن همزة الوصل؛ لأنها أي: -همزة الاستفهام- مفتوحة فيسهل النطق بالساكن بعدها، وأصل همزة الوصل جيء بها من أجل التوصل إلى النطق بالساكن، وإذا كان لدينا همزة قطع فإننا نستغني بها عن همزة الوصل، مع أنه يجوز وجه آخر في غير هذه الآية أصطفى البنات، فتقلب همزة الوصل إلى مد، ومنه قوله تعالي: {آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ (٥٩)} [النمل: ٥٩] {آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ (٥٩)} [يونس: ٥٩] قال المصنف رحمه الله: [{أَصْطَفَى} أي: أختار] أي هل يختار الله عز وجل البنات على البنين؟ يعني لو فرض فرضًا ممتنعًا غاية الامتناع أن الله يتخذ ولدًا فهل يصطفي البنات على البنين؟ لا، لأن البنين

=

أشرف من البنات، ولا يمكن أن يختار الله البنات على البنين، لو فرض الفرض الممتنع المقطوع بامتناعه أن الله يختار ولدًا ما اختار البنات على البنين، كما أنكم أنتم لم تختاروا البنات على البنين، جعلتم البنين لكم ولله البنات، ولهذا قال: {أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ (١٥٣)} الجواب لا، لا يمكن.

{مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (١٥٤)} (ما) استفهامية وليست نافية وهي مبتدأ، والجار والمجرور (لكم) خبر.

والمعنى: أي شيء لكم حتى تحكموا هذا الحكم فتقولوا: إن لله البنات وهم الملائكة، وهذا الاستفهام للتوبيخ والإنكار، {كَيْفَ تَحْكُمُونَ (١٥٤)} أي هذا الحكم الفاسد، وهذا الحكم الجائر {تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى (٢٢)} [النجم: ٢٢] فهو حكم فاسد جائر.

{أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (١٥٥)} الاستفهام هنا أيضًا للتوبيخ وكل الاستفهامات هنا تفيد التوبيخ والتقريع مع فائدة أخرى إذا دل المقام عليها.

{أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (١٥٥)} قال المصنف رحمه الله: [بإدغام التاء في الذال]. أصلها (تتذكرون)، فأدغمت التاء في الذال فصارت: تذكرون.

وفي قراءة {تَذَكَّرُونَ (١٥٥)} قراءة سبعية، وهي الموجودة عندنا في المصحف، ومر علينا أنه إذا جاءت قراءتان في آية فإن الأفضل أن تقرأ بهذه مرة وبهذه مرة، لنحافظ على ما جاء في القرآن الكريم، لأن الكل من عند الله، إلا أننا قلنا: إن هذا لا ينبغي عند العامة، لأنه يحصل به فتنة العامي لأنه لا يفهم، وربما يكون عاميًا عاطفيًا غيورًا، فيرى أنك تحرّف القرآن فطالب العلم الذي يعلم أن هذه قراءة سبعية ينبغي له أن يقرأ بها مرة، وبما في المصحف مرة أخرى، حتى يأتي بالقرآن على الوجوه التي نزل بها.

=

=

{أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (١٥٥)} التذكر يعني الاتعاظ، أي أفلا تتعظون، فتدركوا أن ما حكمتم به حكم جائر غير مقبول منكم، قال المصنف رحمه الله في قوله: {تَذَكَّرُونَ (١٥٥)} [أنه سبحانه منزه عن الولد]. فالله سبحانه وتعالى منزه عن الولد بدليل العقل ودليل النقل.

أما دليل النقل فما أكثر الآيات التي يكثر الله فيها أنه لم يتخذ ولدًا، ومن ذلك قوله تعالى: {قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ (١) اللهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ (٤)}. [الإخلاص: ١ - ٤].

أما الدليل العقلي فنقول:

أولًا: لو كان لله ولد لكان جزءًا منه، وكان مستحقًّا للعبادة، كما استحق ذلك والده.

ثانيًا: لو اتخذ الله ولدًا لكان هذا الولد حادثًا، والحدوث يمتنع أن يكون جزءًا من الله، لأن الله لم يزل ولا يزال موجودًا بذاته سبحانه وتعالى، فإذا قدر أنه اتخذ ولدًا صار هذا الولد حادثًا، فكيف يكون حادثًا وهو جزء من الله، لأن الولد جزء من الوالد، كما قال الله تعالى: {وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا} [الزخرف: ١٥] وكما قال النبي ﷺ: "إن فاطمة بضعة مني".

ثالثًا: يمتنع أيضًا أن يتخذ الله ولدًا، لأن الولد لابد أن يكون مشبهًا لأبيه، والله سبحانه وتعالى ليس له شبيه ولا يماثله أحد.

رابعًا: الولد إنما يتخذه من يحتاج إليه لبقاء النوع، والله سبحانه وتعالى غير محتاج لأحد، ولهذا إذا كان الإنسان عقيمًا انقطع أثره من الدنيا، لكن إذا كان ولودًا وتولد له ولد بعد ولد بقي أثره في الدنيا، ولهذا كان التوالد بين البشر هو السبب الوحيد لبقاء النوع الإنساني، فهذه وجوه أربعة عقلية تدل على امتناع الولد على الله سبحانه وتعالى.

=

=

{أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ (١٥٦)} هذا إضراب انتقالي، بل ألكم. والإضراب الانتقالي انتقل الله عز وجل من توبيخهم على ما حكموا به من الولد لله سبحانه وتعالى إلى طلب الحجة، أي: بل ألكم سلطان مبين، والمراد بالسلطان هنا ما تكون به السلطة، والسلطان في كل موضع بحسبه.

ففي باب الولايات تكون السلطة بالإمارة، فالأمير: سلطان، وفي باب الأعمال تكون السلطة بالقوة، القوي القادر له سلطة على العمل. وفي باب المحاجة وطلب الدليل تكون السلطة بالدليل، فهنا {سُلْطَانٌ مُبِينٌ (١٥٦)} أي دليل، يعني هل لكم دليل، لأن الدليل تكون به السلطة للمحاج يعني إذا حاجك إنسان وصار معه دليل صار له سلطان عليك أي سلطة، ولهذا قال: {أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ (١٥٦)} وكلمة {مُبِينٌ (١٥٦)} هنا يحتمل أن تكون من أبان اللازم ومن أبان المتعدي. لأن أبان الرباعي يكون لازمًا ويكون متعديًا، فإذا قلت: أبان الصبح. فهو لازم، وإذا قلت: أبان فلان الحق. هذا متعدٍّ. فكلمة {مُبِينٌ} هنا هل هي لازم أي إن المعنى {أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ} بين، أم متعدٍّ أي: ألكم سلطان يبين ما تقولون أو يبين الحجة لكم؟ المتعدي هنا أحسن؛ لأن المتعدي متضمن للازم، لأن ما أبان غيره فهو بين في نفسه {أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ (١٥٦)} قال المصنف رحمه الله: [حجة واضحة أن لله ولدًا]. وصنيع المصنف في قوله "واضحة" يدل على أنه جعل مبين من اللازم أي بين، ولكن الأرجح أنه من أبان المتعدي أي مبين، وذلك لأننا إذا جعلناه من المتعدي لزم منه وجود اللازم بخلاف العكس.

{فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ} هذا مفرع على قوله: {أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ (١٥٦)} يعني إن كان لكم سلطان مبين فأتوا بكتابكم الذي به السلطان، والأمر هنا للتحدي والإعجاز مثل قوله تعالى: {وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ} [البقرة: ٢٣] فقوله: {بِكِتَابِكُمْ} أي بكتابكم الذي به الحجة والسلطان،

=

=

وقول المصنف رحمه الله: [التوراة] هذا لا شك أنه وهم؛ لأن هذه الآية ليست تخاصم اليهود حتى نقول إن المراد بذلك التوراة، إنما تخاصم المشركين الذين جعلوا الملائكة بنات الله، ولهذا في بعض نسخ المصنف كلمة (التوراة) ساقطة، والنسخة التي سقطت منها أصح من النسخة التي ثبتت فيها، قال: [فأروني ذلك فيه] يعني أروني إن لله البنات في ذلك الكتاب الذي تأتون به، ثم أظهر إعجازهم بقوله: {إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٥٧)} في قولكم ذلك، وهذا يدل على أنه لا يمكن أن يأتوا بكتاب فيه أن الله جعل الملائكة بنات له، فهذا شيء مستحيل.

و(إن) في قوله {إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٥٧)} شرطية، وتحتاج إلى فعل الشرط وجوابه، ففعل الشرط موجود: {إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٥٧)} وجوابه قيل: إن جوابه محذوف دل عليه ما قبله، وهو: {فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ} والتقدير: {إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٥٧)} {فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ} فيكون محذوفًا دل عليه ما قبله، ولا ينبغي ذكره أيضًا، لأن ذكره تطويل مستغنى عنه.

وقيل: إنَّ (إنْ) الشرطية في مثل هذا التركيب لا تحتاج إلى جواب أصلًا فتكون مسلوبة الجواب، وعلى هذا القول لا يكون في مثل هذا الترتيب تقدير، ويكون هذا المحذوف لما كان معلومًا كان لا يحتاج إلى ذكره، وإذا لم نحتج إلى ذكره لم نحتج إلى تقديره.

{وَجَعَلُوا} الضمير يعود على المشركين الذين قالوا: إن الملائكة بنات الله.

فإن قال قائل: كيف يرجع الضمير إلى غير مذكور.

قلنا: إنه مذكور بالسياق فالسياق يعين مرجع الضمير، ولا يلزم في مرجع الضمير أن يكون اسمًا ظاهرًا بينًا، فإذا دل السياق على أن المراد به كذا عمل به. قال الله تعالى: {إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ (٣٢)}

=

=

[ص: ٣٢] فالفاعل في قوله: {تَوَارَتْ} يعود على الشمس مع أنه لم يسبق لها ذكر لأنه معروف.

وقال تعالى: {كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦)} [الرحمن: ٢٦] (عليها) أي على الأرض مع أنه لم يسبق لها ذكر قريب، ولكن السياق يدل عليها، إذًا مرجع الضمير قد يكون متعينًا بالسياق.

{وَجَعَلُوا بَيْنَهُ} أي بين الله {وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا} يقال: والجِنَّة والجَنَّة والجُنَّة، وكلها تدور حول الاستتار والخفاء، لأن هذه المادة الجيم والنون تدور على هذا المعنى: الاستتار والخفاء، ومنه الجنان: القلب، ومنه الجنين: الحمل، ومنه الجنة: الجن، ومنه الجَنة: البستان ذو الأشجار الكثيرة، ومنه الجُنَّة. ما يستتر به المقاتل عن السهام كالترس.

فما المراد بالجنة هنا؟ يقول المصنف: [الجنة أي الملائكة لاجتنانهم عن الأبصار] فهم عالم غيبي كالجن الذين هم ذرية الشيطان، هذا ما ذهب إليه المصنف رحمه الله ولكن هذا القول ضعيف جدًا، لأن الجنة اسم للجن لا للملائكة، قال الله تعالى: {الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ (٥)} [الناس: ٥ - ٦] يعني الجن، وقال تعالى: {أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ} [المؤمنون: ٧٠] أي جن أصابه بمس، ولا يمكن أن يعبر بالجن الذين خلقوا من نار عن الملائكة الذين خلقوا من نور، وهم من أشرف خلق الله عز وجل، قال الله تعالى: {بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ (٢٦) لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (٢٧) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ (٢٨)} [الأنبياء: ٢٦ - ٢٨] فالمراد بالجنة هنا الجن الذين هم: خلق غيبي خلقوا من نار، ولكن كيف جعلوا نسبًا؟ المراد بالنسب مجرد الصلة وليس النسب الذي هو القرابة، بل النسب الذي هو الصلة، وذلك أن المشركين لما قالوا: إن الملائكة بنات الله. قيل لهم: لا بنات

=

=

إلا بزوجة، قالوا: نعم إن الله -جل وعلا وسبحانه عما يصفون- تزوج من الجن جنية فولدت الملائكة -قاتلهم الله- هذا هو النسب الذي جعلوا بين الله وبين الجنة، فالمراد أن النسب هنا مطلق الصلة، لا صلة القرابة فقط، هذا هو المعنى الذي يدل عليه استعمال الجنة في كلام الله، وأن المراد بالجنة الجن، يقول المصنف رحمه الله موجهًا ما ذهب إليه من أن المراد بالجنة الملائكة قال: [لاجتنانهم عن الإبصار] وهذا لا يبرر أن نسمي الملائكة جنًّا.

يقول: [نسبًا بقولهم: إنها بنات الله] فجعل النسب هنا بمعنى القرابة، ولكن هذا القول ليس بصحيح.

{وَلَقَدِ} هذا الجملة مؤكدة بثلاثة مؤكدات:

اللام، وقد، وهما ظاهران، والقسم المقدر، والتقدير: والله لقد علمت الجنة إنهم لمحضرون، والتأكيد هنا لا شك أنه في غاية ما يكون من البلاغة، يعني أن هؤلاء الجن الذين جعلوا بينهم وبين الله نسبًا تعلم في حكم الله ما لا يعلمه هؤلاء، فإنهم يعلمون أن هؤلاء الذين كذبوا على الله عز وجل سوف يحضرون يوم القيامة، ويبعثون ويعذبون بما يقتضيه جرمهم {وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ} [أي قائلي ذلك {لَمُحْضَرُونَ (١٥٨)} للنار يعذبون فيها].

{سُبْحَانَ اللهِ} اسم مصدر سبح، ومعنى قولنا: اسم مصدر سبح، يعني أنه اسم مصدر فعله سبح، والمصدر من سبح تسبيحًا، لكن سبحان بمعنى تسبيح فهي اسم مصدر؛ لأن كل كلمة تضمنت معنى المصدر دون حروفه فهي اسم مصدر، وأمثلته كثيرة منها: كلام بمعنى تكليم، وسلام بمعنى تسليم.

وسبحان الله يقول المصنف رحمه الله[تنزيهًا له]. والذي ينزه الله عنه:

الأول: النقص فيما أثبت لنفسه من الكمال.

الثاني: مماثلة المخلوقين.

=

=

قال الله تعالى عن الأول: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ} [ق: ٣٨] وهذا يدل على كمال القدرة والقوة، {وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ (٣٨)} [ق: ٣٨] نفي لنقص القوة، يعني مع عظم هذه المخلوقات العظيمة وقصر المدة في خلقها لم يمس الله سبحانه وتعالى شيء من اللغوب يعني من التعب والإعياء وهذا تنزيه عن النقص، وقال تعالى عن الثاني: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} [الشورى: ١١] تنزيه عن مماثلة المخلوقين.

{عَمَّا يَصِفُونَ (١٥٩)} يعني عن النقص عما يصفون من النقص والمماثلة، بأن قالوا: إن لله ولدًا، وهذا وصف لا يليق بالله سبحانه وتعالى، لأن ثبوت الولد يتضمن المماثلة ويتضمن النقص أيضًا، فهم بدعواهم الولد لله وصفوا الله بالنقص ووصفوه بمماثلة المخلوقين.

{إِلَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ (١٦٠)} العبودية مأخوذة من الذل، فالعابد بمعنى الذليل، والتعبد بمعنى التذلل، والعبودية نوعان:

عبودية للقدر، وعبودية للشرع. يعني تذلل للقدر، وتذلل للشرع.

أما عبودية القدر فإنها عامة لكل أحد، فما من إنسان إلا وهو متذلل لقدر الله تعالى لا يمكن أن يتخلص منه إطلاقًا، ودليل هذه قوله تعالى: {إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا (٩٣)} [مريم: ٩٣]

كل من في السماوات والأرض فهو عابد لله ذليل له، ولا يمكن أن يخرج عن ذلة القدر، حتى أعتى الناس وأطغى الناس عبد لله بهذا المعنى، ففرعون عبد لله في هذا المعنى، ولهذا أدركه الغرق.

الثاني: عبودية الشرع يعني التعبد بشرع الله، وهذا خاص بالمؤمنين؛ لأن الكافرين لم يتعبدوا لله بشرعه، بل هم مستكبرون، ومن أمثلة ذلك وأدلته قوله تعالى: {وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا} [الفرقان: ٦٣] فالمراد

=

=

بالعبودية هنا عبودية الشرع. يعني الذين تعبدوا بشرع الله، وهذه خاصة بالمسلمين المنقادين لأمر الله، وهذه تنقسم إلى قسمين: قسم أخص من الآخر، فعبودية الرسالة والنبوة أخص من عموم عبودية الإسلام، فمثلًا قوله تعالى: {وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا} [البقرة: ٢٣] هذه عبودية رِسالة فهي أخص من قوله: {وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا} [الفرقان: ٦٣] وقوله تعالى: {تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ} [الفرقان: ١] هذه أيضًا عبودية خاصة الخاصة، أخص من قوله: {وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا} [الفرقان: ٦٣].

قوله تعالى: {إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ (٤٢)} [الحجر: ٤٢] إن جعلنا الاستثناء منقطعًا فالعبودية عبودية الشرع خاصة، وإن جعلنا الاستثناء متصلًا فهي عبودية القدر، ولذلك اختلف العلماء فيها هل الاستثناء منقطع أو متصل؟ هذه الآية أيضًا نظيرها {إِلَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ (١٦٠)} أي المؤمنين الذين أخلصهم الله تعالى لنفسه.

قال المصنف رحمه الله: [استثناء منقطع] والاستثناء المنقطع علامته: أن يكون ما بعد (إلا) من غير جنس ما قبلها، وأن تكون (إلا) بمعنى (لكن)، ولهذا نسميه استثناء منقطعًا، كأن ما بعدها انقطع عما قبلها، وعليه إذا كان الاستثناء منقطعًا كما قال المصنف نقول: {إِلَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ (١٦٠)} معناها لكن عباد الله المخلصين لم يصفوه بهذا الوصف. ولهذا قال المصنف رحمه الله[فإنهم ينزهون الله تعالى عما يصفه هؤلاء].

وذهب بعض العلماء إلى أن الاستثناء هنا متصل، فهو مستثنى من الواو في قوله: {سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٥٩)} ويكون المعنى سبحان الله عما يصفه الناس كلهم {إِلَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ (١٦٠)} يعني إلا ما يصفه به عباد الله المخلصون،

=

=

فإنه متصف به، وهذا احتمال. لكن ظاهر السياق ما ذهب إليه المصنف، وأن قوله: {سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٥٩)} عائد إلى المشركين الذين وصفوه بأن له بنات، وهؤلاء لا يدخل فيهم المؤمنون، فالمؤمنون ليسوا من جنس المستثنى منه، وحينئذ يكون الاستثناء منقطعًا، ويكون فائدة هذا الاستثناء المنقطع الثناء على عباد الله المخلصين، حيث لم يصفوه بما وصفه به هؤلاء.

قوله تعالى: {فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ (١٦١) مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ (١٦٢) إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ (١٦٣)} {فَإِنَّكُمْ} الخطاب هنا للكافرين، وفيه التفات من الغيبة إلى الحضور، لأن الكاف للمخاطب، والمخاطب حاضر، وما سبق الضمير فيه عائد على غائب: {وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٥٨) سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٥٩)} فكلها بضمير الغيبة.

والالتفات من الغيبة أو العكس له فائدة، وهي تنبيه المخاطب، ووجه ذلك أن الخطاب إذا كان على وتيرة واحدة لم يكن فيه ما يدعو إلى الانتباه، فإذا تغير الأسلوب انتبه الإنسان، وهذه الفائدة مطردة في كل موضع فيه التفات.

وهناك فائدة أخرى تكون بحسب السياق، وليست مطردة في كل موضع، والفائدة هنا: {فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ (١٦١)} هي أن الله سبحانه وتعالى لما تحدث عنهم بصيغة الغيبة، وكان الذي بعد ضمائر الغيبة أمرًا يظن صاحبه أنه قادر عليه خاطبه مخاطبة الحاضر إفادة إلى ذله وعدم قدرته على ما يقصد، فالكفار يحاولون فتن الناس عن دينهم بكل وسيلة، تارة بالدعاية لمعبوداتهم، وتارة بالقدح في عبادة الله، وتارة بالقدح في المسلمين وغير ذلك، فيظنون أنهم على شيء فخاطبهم الله تعالى بخطاب صريح إذلالًا لهم فقال: {فَإِنَّكُمْ} أيها المشركون {وَمَا تَعْبُدُونَ (١٦١)} من الأصنام وعبر بـ(ما) التي تستعمل غالبًا في غير العاقل؛ لأن أكثر معبود

=

=

المشركين من غير العاقل، ويحتمل أن تكون (ما) مصدرية، أي: فإنكم وعبادتكم ما أنتم فاتنين عليه أحدًا.

والمعنى على الوجهين واحد. يعني: أنتم وأصنامكم لا تفتنون الناس {إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ (١٦٣)}.

أو أنتم وعبادتكم لا تفتنون الناس عليها {إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ (١٦٣)} والكفار يعبدون الأصنام فينذرون لها ويركعون ويسجدون ويستغيثون بها ويجعلونها كالإله سواءً، ومع هذا فإن عقولهم قد لعبت بهم بل شياطينهم قد لعبت بهم حيث يقولون: {مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى}. [الزمر: ٣].

والحقيقة أن عبادتهم إياها تبعدهم من الله ولا تقربهم منه، قال المصنف رحمه الله[{مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ (١٦٢)} أي: على معبودكم، و (عليه) متعلق بقوله: {بِفَاتِنِينَ} أحدًا] و (إن) تحتاج إلى اسم وخبر، اسمها الكاف في: {إِنَّكُمْ} و {وَمَا تَعْبُدُونَ} معطوف عليه وجملة {مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ (١٦٢)} هي الخبر. يعني أنتم ومعبوداتكم لا تفتنون أحدًا عن دين الله {إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ (١٦٣)}.

وقوله رحمه الله[أي على معبودكم] ولم يقل: ما أنتم عليها أي معبوداتكم من أجل أن يشمل كل واحد على حدة، يعني أي واحد من هذه المعبودات لا يمكن أن تفتنوا عليه أحدًا من الناس، وقوله: {بِفَاتِنِينَ (١٦٢)} أي بصادين؛ لأن الفتنة تأتي بمعنى الصد، قال الله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ} [البروج: ١٠] أي صدوهم. وقال الأزهري: (والفتنة: الإضلال في قوله: { ما أنتم عليه بفاتنين }. وقالابن كثير: (يقول تعالى مخاطبا للمشركين: أي: ما ينقاد لمقالكم، وما أنتم عليه من الضلالة والعبادة الباطلة.

كما تأتي بمعنى الاختبار مثل: {إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ} [البقرة: ١٠٢] ولها معانٍ أخرى، لكن المراد بها هنا الصادّين، وقول المصنف: [عليه متعلق بفاتنين] فيكون

=

التقدير: ما أنتم بفاتنين عليه، وفاتن اسم فاعل من فتن، وهو فعل متعدٍّ ومفعوله محذوف قدَّره المصنف بقوله: [أي أحدًا]. ومعنى الآية على سبيل العموم أن الله خاطب هؤلاء المشركين بأنهم ومعبوداتهم مهما عملوا من الحيل والدعاية لن يفتنوا أحدًا حتى يعبدوا هذه الأصنام {إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ (١٦٣)} يعني إلا الذي هو صال الجحيم، وصال اسم فاعل، وحذفت الياء التي في آخر الفعل لالتقاء الساكنين. وهما: الياء وهمزة الوصل {إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ (١٦٣)}. وعلى كلام المصنف تكون (من) في محل نصب بدلًا من المفعول المحذوف (أحدًا) ما أنتم بفاتنين أحدًا إلا من هو.

وذهب بعض المعربين إلى أن (من) مفعول لفاتنين، على أنه استثناء مفرّغًا، والاستثناء المفرغ هو الذي يكون ما بعد إلا معمولًا لما قبلها. سواء كان فاعلًا أو مفعولًا أو مجرورًا. فإذا قلت: ما قام إلا زيد. فهذا استثناء مفرغ. فتقول: (ما قام) ما نافية وقام فعل ماض و (إلا) أداة حصر وليست أداة استثناء، وزيد فاعل. وتقول: ما رأيت إلا عمرًا رأيت فعل وفاعل و (إلا) أداة حصر، وعمرًا مفعول. وتقول: ما مررت إلا بزيد. (إلا) أداة حصر، بزيد جار ومجرور متعلق بمررت.

فعلى هذا تكون الآية {مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ (١٦٢) إِلَّا مَنْ هُوَ} كالمثال الذي مثّلنا وهو ما رأيت إلا زيدًا.

وهذا الذي ذهب إليه بعض المعربين أصح مما ذهب إليه المصنف، أي أن الاستثناء مفرغ، وعليه فلا نحتاج إلى تقدير المفعول به، فيكون (أحدًا) الذي قدره المصنف مستغنى عنه، لأن الاستثناء مفرغ فكما أنك لو قلت ما رأيت إلا زيدًا لا تحتاج إلى تقدير ما رأيت أحدًا إلا زيدًا، فكذلك {مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ (١٦٢) إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ (١٦٣)}.

=

وخلاصة المقام أن نقول: {مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ (١٦٢)} (ما) نافية و (أن) اسمها (بفاتنين) خبرها. وفاتن اسم فاعل يحتاج إلى مفعول، والمفعول (من) في قوله: {إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ (١٦٣)}.

وقوله: {صَالِ الْجَحِيمِ (١٦٣)} قال المصنف: [في علم الله تعالى]، وإنما احتاج إلى تقدير في علم الله، لأن صال اسم فاعل وهم لم يصلوها حتى الآن، لأنهم ما ماتوا، فالمفتون حي فكيف يقال: صال الجحيم، وهو لم يمت بعد. لذا قال المصنف: المراد صال الجحيم في علم الله، أي من علم الله أنه سيصلى الجحيم فهو الذي تفتنونه، وأما من علم الله أنه مؤمن فلن تفتنونه، وهذا كقوله تعالى: {مَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٧٨)} [الأعراف: ١٧٨].

قوله تعالى: {وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ (١٦٤)} لما ذكر الله عز وجل أن هؤلاء المجرمين الظالمين قالوا: إن الملائكة بنات الله، بيّن سبحانه وتعالى على لسان الملائكة ما حال الملائكة وما مقامهم وما عملهم تجاه الله سبحانه وتعالى، فقال: {وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ (١٦٤)} قال المصنف رحمه الله: [قال جبريل للنبي ﷺ: وما منا معشر الملائكة أحد، معشر يعني: جماعة، وأحد قدرها المصنف لدلالة السياق عليها، وهي مبتدأ خبره (منا) السابق وقوله: {إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ (١٦٤)} هذا الاستثناء مستثنى من أحد وهي جملة يمكن أن نجعلها دالة على الحال: حال هؤلاء الملائكة. وقوله: {إِلَّا لَهُ مَقَامٌ} أي: موضع قيام، لأن المقام مفعل يصح أن يكون اسم زمان واسم مكان، وهنا الظاهر اسم أنه مكان يعني إلا مكان قيام يقوم فيه يتعبد فيه لله عز وجل.

ويجوز أن نجعله اسم زمان أيضًا أي: وقتًا يقوم فيه لله، ومكانًا يقوم فيه لله، فتكون عبادة الملائكة مؤقتة بزمن، ومقيدة بمكان، ولا منافاة بين القولين، والقاعدة في

=

=

التفسير: أنه إذا كانت الآية صالحة لمعنيين لا ينافي أحدهما الآخر حملت عليهما جميعًا، ولأن حملها عليهما جميعًا أوسع في المعنى من تخصيصها بأحدهما، فإن كان أحدهما ينافي الآخر طلب الترجيح، فما رجحه المرجح أخذ به وترك الآخر.

{وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ (١٦٥)} (وإنا) الضمير يعود على الملائكة، {لَنَحْنُ الصَّافُّونَ (١٦٥)} يعني الذين يصفون عند الله سبحانه وتعالى، كما جاء عن رسول الله ﷺ قال: "ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربها" قالوا: يا رسول الله وكيف ذلك؟ قال: "يتمون الأول فالأول ويتراصون" هذا شأن الملائكة عند الله في مقام تعبدهم يصفون لله تعظيمًا له يكملون الأول فالأول [أقدمهم وأسباتهم أقربهم إلى الله عز وجل، وهكذا صفوف الصلاة، كلما كان أقدم وأقرب إلى الإمام فهو أفضل.

{وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ (١٦٥)} قال المصنف: رحمه الله[أقدامنا في الصلاة]، وكلمة [أقدامنا في الصلاة] تحتاج إلى دليل، لأن ظاهر الوصف {لَنَحْنُ الصَّافُّونَ (١٦٥)} أنه يعود على الملك نفسه لا على القدم، ثم إنا إذا قلنا أقدامنا نحتاج إلى إثبات أن للملائكة أقدامًا، والله سبحانه وتعالى قد وصف الملائكة أنهم أولو أجنحة، فيحتاج هذا إلى دليل.

وقوله: {وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ (١٦٥)} فيها مؤكدان: المؤكد الأول: إنا، والثاني: اللام في قوله: {لَنَحْنُ الصَّافُّونَ (١٦٥)}.

{لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ (١٦٦)} [الصافات: ١٦٦] الجملة مؤكدة بمثل ما أكدت الأولى. يعني وإنا معشر الملائكة لنحن المسبحون، قال المصنف رحمه الله: [المنزهون الله عما لا يليق به] لأن التسبيح بمعنى التنزيه.

=

=

وتنزيه الله معناه تنزيهه عما لا يليق به ومداره على أمرين: أحدهما: أن ينزه عن مماثلة المخلوقين، ودليله قوله تعالي: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١١)} [الشورى: ١١].

الثاني: أن ينزه عن نقص في كماله، ومنه قوله تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ (٣٨)} [ق: ٣٨] فلما ذكر خلقه لهذه السماوات العظيمة والأرَض في هذه المدة الوجيزة بين أنه لم يلحقه في ذلك تعب ولا إعياء، وهذا تنزيه لله عن النقص في كماله.

قال: {وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ (١٦٥) وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ (١٦٦)} الجملتان اسميتان، قال أهل العلم: والجملة الإسمية تدلَ على الثبوت والاستمرار، يعني أن هذا دأبهم، ويدل لذلك قوله تعالى في وصفهم: {وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ (١٩) يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ (٢٠)} [الأنبياء: ١٩ - ٢٠] فالملائكة دائمًا في عبادة ليسوا كالبشر عندهم غفلة ولهو وسهو، بل هم دائمًا في عبادة الله، فهنا ثلاثة أقسام من الخلق.

١- شياطين، فهؤلاء دائمًا في معصية.

٢- وملائكة، وهؤلاء دائمًا في طاعة.

٣- وبشر، وهؤلاء أحيانًا في طاعة، وأحيانًا في معصية، وأحيانًا في غفلة.

قوله تعالى: {وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ (١٦٧)}، إن هنا: مخففة من الثقيلة. فأصلها: وإنّهم كانوا، لكن: خففت فقيل: {وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ (١٦٧)}.

واسمها يكون محذوفًا، ويسمى ضمير الشأن، وضمير الشأن قالوا: إنه يكون مفردًا مذكرًا، لأن كلمة الشأن مفرد مذكر والتقدير: وإن كانوا، وإنه أي شأنهم ليقولون.

=

وقيل: إن ضمير الشأن يقدر بحسب السياق إن كان مفردًا مذكرًا فهو مفرد مذكر، وإن كان جمعًا فهو جمع، وبناء على هذا يكون تقدير الآية هنا: وإنهم كانوا ليقولون. (كانوا) فعل ناقص، الواو هي الاسم، واللام في قوله ليقولون لام التوكيد، وجملة يقولون: خبر كان، وكان واسمها وخبرها خبر إن المخففة من الثقيلة.

{كَانُوا} أي كفار مكة {لَيَقُولُونَ (١٦٧) لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ (١٦٨) لَكُنَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ (١٦٩)} يعني لو نزل علينا الكتاب ككتب الأولين لكنا عباد الله المنقادين لشرعه المخلصين له.

ولكن هذه الحجة مردودة بقوله تعالى: {وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٥٥) أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ (١٥٦) أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ} [الأنعام: ١٥٥ - ١٥٧] إذًا هذه الدعوة منهم مكابرة؛ لأنه أنزل عليهم كتاب أهدى الكتب وأقوم الكتب، ومع ذلك كفروا به {وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ (١٦٧) لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ (١٦٨)} أي ما يذكرنا، والذي يذكر هو الكتاب، قال الله تعالى: {وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ} [الأنبياء: ٥٠] فالمراد بالذكر هنا ما يتذكر به الإنسان وهو الكتاب، وقوله: {مِنَ الْأَوَّلِينَ (١٦٨)} قال المصنف: [من كتب الأمم الماضية] فيكون على تقدير مضاف من الأولين أي من كتبهم، وليس منهم أنفسهم، بل من الكتب التي نزلت إليهم، لو أن عندنا من هذا شيئًا {لَكُنَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ (١٦٩)} اللام واقعة في جواب (لو)، و (لو) هنا شرطية، أو مصدرية شرطية، والشرطية لا يليها إلا فعل، وهنا وليتها أن في قوله تعالى: {أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا} . فقالوا: وليتها أن، ولكنها على تقدير فعل، يعني لو ثبت أن عندنا ذكرًا {لَكُنَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ (١٦٩)}

=

كقوله: {وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا} [الحجرات: ٥] يعني لو ثبت أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيرًا لهم.

{لَكُنَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ (١٦٩)} أي: بالعبودية الشرعية؛ لأنهم بالعبودية القدرية كائنون فهم عبيد الله قدرًا، ولا يمكن أن يحيدوا عن قضاء الله وقدره، لكن لو كنا عباد الله شرعًا.

قال المصنف رحمه الله: [المخلصين العبادة له]، المخلصين بكسر اللام هكذا فسر المصنف، ولهذا قال العبادة له.

{الْمُخْلَصِينَ (١٦٩)} بالفتح الذين أخلصهم الله واصطفاهم.

فصار في المخلصين قراءتان: فتح اللام وكسرها، فعلى قراءة الفتح يكون المعنى: الذين أخلصهم الله تعالى لنفسه واصطفاهم، وعلى قراءة الكسر يكون معناه: الذين أخلصوا له العبادة، والمعنيان متلازمان، لأن كل من أخلص لله العبادة قد أخلصه الله لنفسه. قال المصنف رحمه الله: {فَكَفَرُوا بِهِ} [بالكتاب الذي جاءهم، وهو القرآن الذي أشرف من تلك الكتب {فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (١٧٠)} عاقبة كفرهم].

تقدير الآية: فقد جاءهم كتاب وجاءهم الذكر، ولكن لم يقبلوا هذا الذكر وكفروا به تكذيبًا في الخبر، واستكبارًا عن الأمر، فهم كذبوا الرسول عليه الصلاة والسلام لما قال: إنكم ستبعثون فقالوا: لا بعث، وقال: إنه حق. فقالوا: كاذب. وقال: اعبدوا الله وحده لا شريك له. فعبدوا الأصنام، فهم ما صدقوا بما أخبر الله به في كتابه، ولا امتثلوا الأمر وانقادوا له، بل جمعوا بين كفر الجحود والاستكبار، -والعياذ بالله- مع أن القرآن أشرف من الكتب التي ادعوا أنه لو أتاهم من جنسها لكانوا عباد الله المخلصين، ومع هذا كفروا بهذا الكتاب، وهذا يدل على أن

=

=

دعواهم هذه من أكذب الدعاوى. فقيل لهم: هذا ذكر، جاءكم ذكر أشرف الأذكار وأعظم الكتب السابقة، ومع ذلك كفرتم به.

قال الله تعالى: {فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (١٧٠)} الفاء في قوله تعالى: {فَكَفَرُوا} للترتيب، والفاء في قوله تعالى: {فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (١٧٠)} للترتيب والسببية، أي فبسبب كفرهم سوف يعلمون عاقبة أمرهم، وذلك بالذل في الدنيا والعذاب في الآخرة، وهذا الأمر حصل -ولله الحمد- فإن الله أذلهم في أعظم موقعة كانوا يفتخرون بها ويظنون فيها العزة والنصر في غزوة بدر، فإنهم خرجوا بصناديدهم وأشرافهم وكبرائهم، حتى قال أبو جهل لما أشير عليه بالرجوع قال: (والله لا نرجع حتى نقدم بدرًا فننحر فيها الجزور، ونشرب فيها الخمور، وتعزف علينا القيان، وتسمع بنا العرب، فلا يزالون يهابوننا أبدًا). فانظر إلى البطر والكبر. حصل أن قتل هو والزعماء والأشراف الذين معه، وسمعت بهم العرب، وتحدثت العرب. بأخبارهم بما فيه العار والخزي إلى يوم القيامة، فهذا من العواقب الوخيمة، وفي بلدهم مكة خرج النبي ﷺ منها خائفًا مستترًا، ودخلها ظافرًا منصورًا مؤزرًا، رفعت الراية عند مدخل مكة عند الحجون ودخل البيت وكسّر الأصنام، ووقف على الباب وقريش تحته ينتظرون ماذا يفعل. فقال: "ما ترون أني فاعل بكم معشر قريش" قالوا: خيرًا، أخ كريم وابن أخ كريم، فعفى عنهم عليه الصلاة والسلام وسموا الطلقاء، أي من القتل والأسر، فانظر كيف كانت هذه العاقبة، فالنبي ﷺ حماه الله منهم. تآمروا أن يقتلوه أو يثبتوه أو يخرجوه، ولكن صارت المؤامرة عليهم، هم الذينَ منَّ عليهم الرسول ﷺ فأطلقهم على أن ما في الآخرة أشد وأعظم، قال الله تعالى: {وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٤٧)} [الطور: ٤٧]، وقال تعالى: {وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ} [السجدة: ٢١] فعذاب الآخرة أشق -والعياذ بالله-،

=

وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١).

{وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتنَا} بِالنَّصْرِ {لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ} وَهِيَ لَأَغْلِبَن أَنَا وَرُسُلِي.

إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ (١٧٢).

أو هي قوله {إنهم لهم المنصورون}.

وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣).

{وَإِنَّ جُنْدنَا} أَيْ الْمُؤْمِنِينَ {لَهُمُ الْغَالِبُونَ} الْكُفَّار بِالْحُجَّةِ وَالنُّصْرَة عَلَيْهِمْ فِي الدُّنْيَا وَإِنْ لَمْ يَنْتَصِر بَعْض مِنْهُمْ فِي الدُّنْيَا فَفِي الْآخِرَة.

فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ (١٧٤).

{فَتَوَلَّ عَنْهُمْ} أَيْ أَعْرِض عَنْ كُفَّار مَكَّة {حَتَّى حِين} تُؤْمَر فِيهِ بِقِتَالِهِمْ.

وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (١٧٥).

{وَأَبْصِرْهُمْ} إذْ نَزَلَ بِهِمْ الْعَذَاب {فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ} عاقبة كفرهم.

أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ (١٧٦).

{فقَالُوا اسْتِهْزَاء مَتَى نُزُول هَذَا الْعَذَاب قَالَ تَعَالَى تَهْدِيدًا لَهُمْ {أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ}.

فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ (١٧٧).

{فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ} بِفِنَائِهِمْ قَالَ الْفَرَّاء الْعَرَب تَكْتَفِي بِذِكْرِ السَّاحَة عَنْ الْقَوْم {فَسَاءَ} بِئْسَ صَبَاحًا {صَبَاح الْمُنْذَرِينَ} فِيهِ إِقَامَة الظَّاهِر مَقَام المضمر.

=

والغرض من قوله تعالى: {فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (١٧٠)}، تهديد هؤلاء المكذبين للرسول ﷺ.

وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ (١٧٨).

{وتول عنهم حتى حين}.

وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (١٧٩).

{وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ} كُرِّرَ تَأْكِيدًا لِتَهْدِيدِهِمْ وَتَسْلِيَة لَهُ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٨٠).

{سُبْحَان رَبّك رَبّ الْعِزَّة} الْغَلَبَة {عَمَّا يَصِفُونَ} بِأَنَّ لَهُ وَلَدًا.

وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (١٨١).

{وَسَلَام عَلَى الْمُرْسَلِينَ} الْمُبَلِّغِينَ عَنْ الله التَّوْحِيد والشرائع.

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٨٢).

{وَالْحَمْد لِلَّهِ رَبّ الْعَالَمِينَ} عَلَى نَصْرهمْ وَهَلَاك الْكَافِرِينَ[١].

---

(١)ذكر سبب النزول.

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما؛ قال: قالوا: يا محمد! أرنا العذاب الذي تخوفنا به، عجله لنا؛ فنزلت (أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ) الآية.

ذكره السيوطي في "لباب النقول" (ص ١٨٣)، و"الدر المنثور" (٧/ ١٣٩) وقال: أخرج جويبر عن ابن عباس به.

وجويبر؛ متروك الحديث، وبين جويبر وابن عباس الضحاك؛ وهو لم يدرك ابن عباس.

* قوله تعالى: {وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣)} [الصافات: ١٧١ - ١٧٣]

=

=

قال الطبري: يقول:"ولقد سبق منا القول لرسلنا إنهم لهم المنصورون: أي مضى بهذا منا القضاء والحكم في أمّ الكتاب، وهو أنهم لهم النُّصرة والغَلبة بالحجج".

قال ابن كثير:"أي: تقدم في الكتاب الأول أن العاقبة للرسل وأتباعهم في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: {كَتَبَ اللهُ لأغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ} [المجادلة: ٢١]، وقال تعالى: {إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ} [غافر: ٥١]".

عن قتادة:"{وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ}، حتى بلغ: {لَهُمُ الْغَالِبُونَ}، قال: سبق هذا من الله لهم أن ينصرهم".

قال الزمخشري:"الكلمة: قوله: {إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ وَإِنَّ جُنْدَنا لَهُمُ الْغالِبُونَ}، وإنما سماها كلمة وهي كلمات عدّة، لأنها لما انتظمت في معنى واحد كانت في حكم كلمة مفردة".

وفي قوله تعالى: {وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ} [الصافات: ١٧١]، قولان:

أحدهما: سبقت بالحجج، قاله السدي.

الثاني: أنهم سينصرون، الثاني: أنهم سينصرون، قال الحسن: "لم يقتل من الرسل أصحاب الشرائع أحد قط".

في قراءة عبد الله: «ولقد سبقت كلمتنا على عبادنا المرسلين».

وقرأ الضحاك: «كلماتنا»، بألف على الجمع.

قوله تعالى: {إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ} [الصافات: ١٧٢]، أي:"إنهم هم المنصورون على أعدائهم بالحجة والقوة".

قال ابن كثير:"أي: في الدنيا والآخرة. كما تقدم بيان نصرتهم على قومهم ممن كذبهم وخالفهم، وكيف أهلك الله الكافرين، ونجى عباده المؤمنين".

=

=

وفي قوله تعالى: {إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ} [الصافات: ١٧٢]، قولان:

أحدهما: أنهم المنصورون بالحجج في الدنيا والعذاب في الآخرة، قاله السدي، والكلبي.

الثاني: بالظفر إما بالإيمان أو بالانتقام، وهو معنى قول قتادة.

قال قتادة:"كانت الأنبياء تقتل وهم منصورون، والمؤمنون يقتلون وهم منصورون نصروا بالحجج في الدنيا والآخرة، ولم يقتل نبي قط، ولا قوم يدعون إلى الحق من المؤمنين، فتذهب تلك الأمة والقرن، حتى يبعث الله قرنا ينتصر بهم منهم".

قال ابن عطية:"ثم أنس تعالى نبيه وأولياءه بأن القضاء قد سبق، والكلمة قد حقت في الأزل بأن رسل الله تعالى إلى أرضه {هم الْمَنْصُورُونَ} على من ناوأهم المظفرون بإرادتهم المستوجبون الفلاح في الدارين".

قوله تعالى: {وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ} [الصافات: ١٧٣]، أي:"وأن جندنا المجاهدين في سبيلنا لهم الغالبون لأعدائهم في كل مقام باعتبار العاقبة والمآل".

قال الطبري:"يقول: وإن حزبنا وأهل ولايتنا لهم الغالبون، يقول: لهم الظفر والفلاح على أهل الكفر بنا، والخلاف علينا".

قال ابن كثير:"أي: تكون لهم العاقبة".

قال ابن عطية:"وجند الله هم الغزاة لتكون كلمات الله هي العليا".

قوله تعالى: {فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ} [الصافات: ١٧٥]، أي:"فأعرض -أيها الرسول- عَمَّن عاند، ولم يقبل الحق حتى تنقضي المدة التي أمهلهم فيها، ويأتي أمر الله بعذابهم".

قال الطبري: يعني:"فأعرض عنهم إلى حين".

قال ابن الجوزي:"أي: أعرض عن كفار مكة حتى تنقضي مدة إمهالهم".

قال مجاهد:"قيل له أعرض، عنهم".

=

=

قال ابن كثير:"أي: اصبر على أذاهم لك، وانتظر إلى وقت مؤجل، فإنا سنجعل لك العاقبة والنصرة والظفر؛ ولهذا قال بعضهم: غيَّى ذلك إلى يوم بدر. وما بعدها أيضا في معناها".

وفي بيان هذا «الحين»، أقوال:

أحدها: أنه يوم بدر، قاله السدي.

الثاني: فتح مكة، حكاه النقاش.

الثالث: الموت، قاله قتادة.

الرابع: يوم القيامة، وهو قول زيد بن أسلم، وهو مروي عن السدي في رواية.

قال الطبري: "وقول السدي أشبه بما دلّ عليه ظاهر التنزيل، وذلك أن الله توعدهم بالعذاب الذي كانوا يستعجلونه، فقال: {أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ}، وأمر نبيه ﷺ أن يُعْرِض عليهم إلى مجيء حينه. فتأويل الكلام: فتول عنهم يا محمد إلى حين مجيء عذابنا، ونزوله بهم".

قوله تعالى: {وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ} [الصافات: ١٧٥]، أي:"وأنظرهم وارتقب ماذا يحل بهم من العذاب بمخالفتك؟ فسوف يرون ما يحل بهم من عذاب الله".

قال الطبري: يقول:"وأنظرهم فسوف يرون ما يحل بهم من عقابنا".

قال ابن الجوزي:"أي: انظر إليهم إذا نزل بهم العذاب، وقيل: أبصر حالهم بقلبك فسوف يبصرون ما انكروا".

قال ابن كثير:"أي: أنظرهم وارتقب ماذا يحل بهم من العذاب والنكال على مخالفتك وتكذيبك؛ ولهذا قال على وجه التهديد والوعيد: {فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ}".

قال ابن عطية:"وعد للنبي ﷺ ووعيد لهم، أي: سوف يرون عقبى طريقتهم".

=

=

عن قتادة: " {وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ}، حين لا ينفعهم البصر".

قال ابن زيد:"يقول: أنظرهم فسوف يبصرون ما لهم بعد اليوم، قال: يقول: يبصرون يوم القيامة ما ضيعوا من أمر الله، وكفرهم بالله ورسوله وكتابه، قال: فأبصرهم وأبصر، واحد".

وفي نسخ هذه الآية قولان:

أحدهما: أنها منسوخة، قاله قتادة، وزيد بن أسلم، والسدي-في رواية-، ومقاتل.

الثاني: أنها ثابتة. حكاه الماوردي.

قال ابن عطية:"قوله تعالى، {فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ}، وعد للنبي ﷺ وأمر بالموادعة، وهذا مما نسخته آية السيف".

قال المقري: في سورة «الصافات» " أربع آيات منسوخات منها آيتان متصلتان أوليان هما قوله تعالى: {فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ (١٧٤) {وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ} [الصافات: ١٧٤ - ١٧٥]، والآيتان المتصلتان الآخرتان قوله تعالى: {وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ (١٧٨) وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ} [الصافات: ١٧٨ - ١٧٩]، وبين الحينين فرق كبير، فالحين الأول: انتظار امر الله تعالى بقتالهم، والحين الثاني: كناية عن يوم بدر، والمشهور نسخت الآربع بآية السيف".

قوله تعالى: {أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ} [الصافات: ١٧٦]، أي: أفبنزول عذابنا بهم يستعجلونك أيها الرسول؟ ".

قال الطبري: " يقول: فبنزول عذابنا بهم يستعجلونك يا محمد، وذلك قولهم للنبي: {مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} ".

قال ابن كثير:"أي: هم إنما يستعجلون العذاب لتكذيبهم وكفرهم، فإن الله يغضب عليهم بذلك، ويعجل لهم العقوبة، ومع هذا أيضا كانوا من كفرهم وعنادهم يستعجلون العذاب والعقوبة".

=

=

قوله تعالى: {فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ} [الصافات: ١٧٧]، أي:"فإذا نزل عذابنا بهم، فبئس الصباح صباحهم".

قال الطبري: " يقول: فإذا نزل بهؤلاء المشركين المستعجلين بعذاب الله العذاب، فبئس صباح القوم الذين أنذرهم رسولنا نزول ذلك العذاب بهم فلم يصدقوا به".

قال ابن كثير:"أي: فإذا نزل العذاب بمحلتهم، فبئس ذلك اليوم يومهم، بإهلاكهم ودمارهم".

قال الثعلبي:"بساحتهم: بناحيتهم وفنائهم، فبئس {صباح} الكافرين".

قال النحاس:"{بساحتهم}، أي: بدارهم، و «الساحة» -في اللغة-: فناء الدار الواسع".

عن السديّ، قوله: " {فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ}، قال: بدارهم، {فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ}، قال: بئس ما يصبحون".

قال الزمخشري:"مثل العذاب النازل بهم بعد ما أنذروه فأنكروه بجيش أنذر بهجومه قومه بعض نصاحهم فلم يلتفتوا إلى إنذاره، ولا أخذوا أهبتهم، ولا دبروا أمرهم تدبيرا ينجيهم، حتى أناخ بفنائهم بغتة، فشنّ عليهم الغارة وقطع دابرهم، وكانت عادة مغاويرهم أن يغيروا صباحا، فسميت الغارة صباحا وإن وقعت في وقت آخر، وما فصحت هذه الآية ولا كانت لها الروعة التي تحس بها ويروقك موردها على نفسك وطبعك، إلا لمجيئها على طريقة التمثيل".

عن أنس رضي الله، عنه قال: "صبح رسول الله ﷺ خيبر وقد خرجوا بالمساحي، فلما نظروا إليه قالوا: محمد والخميس. فقال: الله أكبر خربت خيبر، إنا أنزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين فأصبنا

حمرا خارجة من القرية فطبخناها فيقال رسول الله ﷺ؟ إن الله ورسوله ينهاكم عن الحمر الأهلية، فإنها رجس من عمل الشيطان".

=

وقرأ ابن مسعود، وأبو عمران، والجحدري، وابن يعمر: «فإذا نزل»، برفع النون وكسر الزاي وتشديدها.

وقرأ ابن مسعود: «فبئس صباح».

قوله تعالى: {وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ} [الصافات: ١٧٩]، أي:"وأعرض عنهم حتى يأذن الله بعذابهم".

قال الطبري: " يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: وأعرض يا محمد عن هؤلاء المشركين، وخلهم وقريتهم على ربهم إلى حين يأذن الله بهلاكهم".

قال مقاتل:"أعرض عنهم إلى تلك المدة: القتل ببدر".

قال مجاهد:"قيل له: أعرِض عنهم".

قال السدي:"يعني: إلى حين آجالهم".

قال قتادة:"{وتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتّى حِينٍ} نسخها القتال، هي مثل الأولى".

قوله تعالى: {وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ} [الصافات: ١٧٩]، أي:"وأنظرهم فسوف يرون ما يحل بهم من العذاب والنكال".

قال الطبري: " يقول: وانظرهم فسوف يرون ما يحل بهم من عقابنا في حين لا تنفعهم التوبة، وذلك عند نزول بأس الله بهم".

قال ابن كثير:"قوله: {فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ. وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ} تأكيد لما تقدم من الأمر بذلك".

عن زيد بن أسلم، في قوله: " {وأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ}، قال: يقول: يوم القيامة؛ ما صنعوا مِن أمر الله وكفرهم بالله ورسوله وكتابه. قال: أبصِر وأبصِرهم واحد".

قوله تعالى: {سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٨٠)} [الصافات: ١٨٠].

=

قال الطبري: " يقول تعالى ذكره تنزيها لربك يا محمد وتبرئة له. ربّ القوّة والبطش عمَّا يصف هؤلاء المفترون عليه من مشركي قريش، من قولهم ولد الله، وقولهم: الملائكة بنات الله، وغير ذلك من شركهم وفريتهم على ربهم".

قال مقاتل:"ثم نزه نفسه عن قولهم فقال- جل وعز-: {سبحان ربك رب العزة}، يعني: عزة من يتعزز من ملوك الدنيا، {عما يصفون}: عما يقولون من الكذب إن الملائكة بنات الله- عز وجل- ".

قال ابن كثير:"ينزه تعالى نفسه الكريمة ويقدسها ويبرئها عما يقوله الظالمون المكذبون المعتدون - تعالى وتقدس عن قولهم علوا كبيرا - ولهذا قال: {سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ}، أي: ذي العزة التي لا ترام، {عَمَّا يَصِفُونَ} أي: عن قول هؤلاء المعتدين المفترين".

عن قتادة: " {سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ}، أي: عما يكذبون، يسبح نفسه إذا قيل عليه البهتان". وفي رواية:"يسبح نفسه إذ كذب عليه، وقيل عليه البهتان عما يصفون قال: عما يكذبون".

قال الزمخشري:"أضيف الرب إلى العزة لاختصاصه بها كأنه قيل: ذو العزة، كما تقول: صاحب صدق، لاختصاصه بالصدق. ويجوز أن يراد أنه ما من عزة لأحد من الملوك وغيرهم إلا وهو ربها ومالكها، كقوله تعالى: {تُعِزُّ مَنْ تَشاءُ} ".

قال الفخر:"قوله: {رب العزة} يدل على أنه القادر على جميع الحوادث، لأن الألف واللام في قوله: {العزة} تفيد الاستغراق، وإذا كان الكل ملكا له وملكا له لم يبق لغيره شيء، فثبت أن قوله: {سبحان ربك رب العزة عما يصفون}، كلمة محتوية على أقصى الدرجات وأكمل النهايات في معرفة إله العالم".

قوله تعالى: {وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (١٨١)} [الصافات: ١٨١].

قال مقاتل:"الذين بلغوا عن الله التوحيد ".

=

=

قال البغوي:"الذين بلغوا عن الله التوحيد والشرائع".

قال الطبري:"يقول: وأمة من الله للمرسلين الذين أرسلهم إلى أممهم الذي ذكرهم في هذه السورة وغيرهم من فزع يوم العذاب الأكبر، وغير ذلك من مكروه أن ينالهم من قبل الله تبارك وتعالى".

قال ابن كثير:"أي: سلام الله عليهم في الدنيا والآخرة؛ لسلامة ما قالوه في ربهم، وصحته وحقيته".

قال السمعاني:"{المرسلين}، أي: الأنبياء الذين أرسلوا إلى الخلق".

قال القرطبي:"أي: الذين بلغوا عن الله تعالى التوحيد والرسالة".

قال البيضاوي:"{وسلام على المرسلين}، تعميم للرسل بالتسليم بعد تخصيص بعضهم".

عن السُّدِّيّ: " {وَسَلامٌ عَلى الْمُرْسَلِينَ}، يعني: الثناء الحسن".

عن قتادة: " {سَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ}، قال رسول الله ﷺ: «إذا سلمتم عليّ فسلموا على المرسلين فإنما أنا رسول من المرسلين» ".

قال الفخر:"واعلم أن أكثر الخلق ناقصون ولا بد لهم من مكمل يكملهم، ومرشد يرشدهم، وهاد يهديهم، وما ذاك إلا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وبديهة الفطرة شاهدة بأنه يجب على الناقص الاقتداء بالكامل، فنبه على هذا الحرف بقوله: {وسلام على المرسلين}، لأن هذا اللفظ يدل على أنهم في الكمال اللائق بالبشر فاقوا غيرهم، ولا جرم يجب على كل من سواهم الاقتداء بهم".

قوله تعالى: {وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٨٢)} [الصافات: ١٨٢].

قال مقاتل:"على هلاك الآخرين الذين لم يوحدوا ربهم".

قال البغوي:"على هلاك الأعداء ونصرة الأنبياء عليهم السلام".

=

=

قال البيضاوي:"على ما أفاض عليهم وعلى من اتبعهم من النعم وحسن العاقبة ولذلك أخره عن التسليم، والمراد تعليم المؤمنين كيف يحمدونه ويسلمون على رسله".

قال القرطبي:"أي: على إرسال المرسلين مبشرين ومنذرين. وقيل: أي على جميع ما أنعم الله به على الخلق أجمعين. وقيل: أي على هلاك المشركين، دليله: {فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين}، [الأنعام: ٤٥]. قلت: والكل مراد والحمد يعم".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: والحمد لله رب الثقلين الجن والإنس، خالصا دون ما سواه، لأن كلّ نعمة لعباده فمنه، فالحمد له خالص لا شريك له، كما لا شريك له في نعمه عندهم، بل كلها من قبله، ومن عنده".

قال ابن كثير:"أي: له الحمد في الأولى والآخرة في كل حال. ولما كان التسبيح يتضمن التنزيه والتبرئة من النقص بدلالة المطابقة، ويستلزم إثبات الكمال، كما أن الحمد يدل على إثبات صفات الكمال مطابقة، ويستلزم التنزيه من النقص – قرن بينهما في هذا الموضع، وفي مواضع كثيرة من القرآن؛ ولهذا قال: {سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ. وَسَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ. وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} ".

قال الزمخشري:"اشتملت السورة على ذكر ما قاله المشركون في الله ونسبوا إليه مما هو منزه عنه، وما عاناه المرسلون من جهتهم، وما خوّلوه في العاقبة من النصرة عليهم، فختمها بجوامع ذلك من تنزيه ذاته عما وصفه به المشركون، والتسليم على المرسلين {وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ} على ما قيض لهم من حسن العواقب، والغرض تعليم المؤمنين أن يقولوا ذلك ولا يخلوا به ولا يغفلوا عن مضمنات كتابه الكريم ومودعات قرآنه المجيد".

=

=

قال كعب: "«الحمد لله»: ثناء على الله".

قال الضحاك: "«الحمد لله»: رداء الرحمن".

وفي قوله تعالى: {رَبِّ الْعَالَمِينَ} [الصافات: ١٨٢]، وجوه:

أحدها: أن «العالمين»: ألف أمة، فستمائة في البحر وأربعمائة في البر. رواه مغيث بن شمس عن تبيع.

الثاني: أن «رب العالمين»: ما وصف من خلقه. قاله قتادة.

الثالث: أن «رب العالمين»: الجن والإنس، وهذا قول مجاهد.

قال العثيمين: قوله تعالى: {وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١)} أي: تقدمت في الأزل، وكلمة الله بينها هنا بقوله: {إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ (١٧٢)}، هذه هي الكلمة السابقة التي قضى بها الله عز وجل في الأزل.

وقوله: {وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا} الجملة هنا فيها عدة مؤكدات وهي: اللام، وقد، والقسم المقدر. والتقدير: وتالله لقد سبقت، أو ووالله لقد سبقت، وكل جملة تأتي على هذا الوجه، ففيها هذه المؤكدات: القسم، واللام، وقد.

وقوله: {كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١)} المراد بالعباد هنا: العبودية الخاصة، بل أخص الخاصة وهي عبودية الرسالة.

وعبودية الخلق لله عز وجل عبودية كونية، وهذه عامة شاملة لجميع الخلق فما من مخلوق إلا وهو ذال لله قدرًا، وعبودية شرعية، وهي خاصة بمن يطيع الله، وأخص هذا النوع عبودية الرسالة؛ لأن الرسل مكلفون بما لم يكلف به غيرهم، فهم مكلفون بتحمل الرسالة وإبلاغها إلى الخلق ودعوة الناس إليها، ولهذا لا يرسل الله رسولًا إلا وهو يعلم أنه أهل للرسالة، كما قال تعالى: {اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ} [الأنعام: ١٢٤] وقال الله لنبيه: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا (٢٣) فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ} [الإنسان: ٢٣، ٢٤] فلما ذكر أنه نزل عليه القرآن لم يقل:

=

=

فاشكر الله على هذه النعمة، بل قال: {فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ} [الإنسان: ٢٤] إشارة إلى أن تنزيل القرآن عليه أمر يحتاج إلى صبر؛ لأنه يحتاج إلى معاناة ومجابهة الناس، ومن تأمل ما حصل للرسول ﷺ من منابذة قومه له، وإيذائهم إياه تبين له الحكمة في أنه قال: {فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ} [الإنسان: ٢٤].

قال المصنف رحمه الله: [ولقد سبقت كلمتنا بالنصر لعبادنا المرسلين وهي: {لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي} [المجادلة: ٢١] أو هي قوله: {إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ (١٧٢)}] فـ (أو): هنا للتردد يعني هل الكلمة هي قوله تعالى: {كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي} [المجادلة: ٢١] أو أن الكلمة هي قوله: {إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ (١٧٢)} والاحتمال الثاني أولى؛ لأن الاحتمال الثاني يجعل تفسير الكلام في ضمن الكلام، والأول يجعل تفسير الكلام منفصلًا عنه، وإذا كان تفسيره متصلًا كان أولى، وعلى هذا فتكون الكلمة: {إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ (١٧٢)} وهي جزء من قوله تعالى: {كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي} [المجادلة: ٢١]

وقوله: {إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ (١٧٢)} هذه الجملة مؤكدة بثلاثة مؤكدات: الأول: إن، والثاني: اللام في (لهم)، والثالث: هم، لأن (هم) ضمير فصل، ثم هي أيضًا من حيث بنيتها. جملة توكيدية، لأنها جملة اسمية، والجملة الاسمية تفيد الثبوت والاستمرار.

فـ (إن) للتوكيد، واللام للتوكيد، وهم ضمير الفصل للتوكيد، وضمير الفصل من حيث الإعراب ليس له محل من الإعراب، ومن حيث المعنى يفيد ثلاثة أشياء: التوكيد، والحصر، والفصل بين الخبر والصفة، ولهذا سمي ضمير فصل.

{إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ (١٧٢)} الهاء اسم إنّ، واللام للتوكيد، وهم ضمير فصل لا محل له من الإعراب. والمنصورون خبر إن.

=

يقول الله عز وجل {إِنَّهُمْ لَهُمُ} يعني لا غيرهم {الْمَنْصُورُونَ} أي: الذين ينصرهم الله عز وجل بما يقدره من الآيات، أو بما يرسله من الجنود، ففي بدر أرسل الله الملائكة فقاتلت مع النبي ﷺ، وفي الأحزاب أرسل الله تعالى الريح الشديدة ومعها جنود، {فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا} [الأحزاب: ٩] فجمع الله في الأحزاب بين الملائكة تدخل الرعب في قلوب هؤلاء الأعداء، وبين الريح التي تزلزلهم حتى لم يقر لهم قرار فهربوا، فهم منصورون من قبل الله بما يرسل من الآيات، أو من الملائكة.

وقوله: {وَإِنَّ جُنْدَنَا} الجند هم المدافعون عمَّن هم جند له، الذين ينصرونه ويدافعون عنه، ومنه جنود الأمير والسلطان وما أشبه ذلك، وهنا يقول: {وَإِنَّ جُنْدَنَا} أي: جند الله، وهؤلاء الجند ليسوا جندًا لله لحاجة الله إليهم. ولكن لأنهم يدافعون عن شرعه فصاروا جندًا له، وهؤلاء الجند هم الغالبون لكونهم جند الله، والله سبحانه وتعالى له الغلبة: {كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي} [المجادلة: ٢١] فجند الله الذين يذبون عن شريعته لابد أن تكون لهم الغلبة. ولهذا قال: {لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣)} والجملة كالأولى مؤكدة بثلاثة مؤكدات: إن، واللام، وضمير الفصل.

والغالبون اسم فاعل من غلب، وغلب فعل متعد، والفعل المتعدي لابد فيه من فاعل ومفعول. فالفاعل الجند {وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣)} لكن الغالبون بأمر الله لا شك، والمفعول محذوف والتقدير: كما قال المصنف رحمه الله: [الغالبون الكفار بالحجة والنصرة عليهم في الدنيا، وإن لم ينتصر بعض منهم في الدنيا ففي الآخرة]. أشار المصنف إلى إشكال كنا نريد أن نؤخره إلى الفوائد، لكن الآن لابد من الكلام عليه.

{وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣)} فبين الله بيانًا مؤكدًا بثلاثة مؤكدات أن جنده المؤمنين الذين يدافعون عن دينه هم الغالبون، وأكد فيما قبل أن الرسل هم المنصورون، فإذا قال قائل: هل هذا الكلام المؤكد من الرب عز وجل مطابق للواقع، أو أن في الواقع ما يخالفه؟

فإذا قلت: مطابق للواقع ورد عليه في أُحد كانت الغلبة للمشركين، وفي الأنبياء من قتل {وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ} [آل عمران: ١١٢] وفي أهل الخير من قتل {وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ} [آل عمران: ٢١] فما هو الجواب عن هذا؟

الجواب عن هذا من وجوه:

الوجه الأول: إما أن يكون النصر الذي وعد الله به الرسل، بناء على الأكثر، فإن الأغلب الأكثر بلا شك انتصار الرسل على أعدائهم واقرأ الآيات في الرسل تجد أن الله تعالى يقول: {وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ (٦٥) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ (٦٦)} [الشعراء: ٦٥ - ٦٦] وهذا انتصار بلا شك.

الوجه الثاني: أن يقال: إن المراد بالنصر نصر من أمروا بالجهاد، فمن أمر بالجهاد فإن الله قد تكفل لهم بالنصر، وأما من لم يؤمروا به فليس هناك مغالبة بينهم وبين أعدائهم حتى يقال: إنهم انتصروا، ويكون قتلهم غير منافٍ للآية.

الوجه الثالث: أن يقال: إن المراد بالنصر المطلق هو نصر الآخرة، أما نصر الدنيا فليس بمضمون.

الوجه الرابع: أن المراد بالنصر انتصارهم بالحجة لا بالشخص، يعني انتصار ما جاءوا به، وظهوره دون الغلبة الحسية، فإن ذلك ليس بذي أهمية بالنسبة لغلبة ما جاءوا به من الشريعة.

=

فهذه أربعة أوجه في الجواب عن الواقع، الذي قد يخالف ظاهر الآية، ويجب أن نعلم أنه لا يمكن أن يوجد في القرآن شيء صريح يخالف الواقع ولا في السنة شيء صحيح صريح يخالف الواقع.

وتأمل القيد في قولنا بالنسبة للسنة: "صحيح"، لأنه قد يأتي في السنة أحاديث غير صحيحة، فلهذا احتجنا أن نقول صحيح، أما في القرآن فلا يحتاج نقول صحيح، لأنه منقول بالتواتر فكله صحيح.

إذًا لا يمكن أن يوجد في القرآن شيء صريح يخالف الواقع ولا في السنة شيء صحيح صريح يخالف الواقع، فإن وجد ما ظاهره مخالفة الواقع فاعلم أنه إما أن يكون مخالفة ولكن المخالفة من وهمك، بمعنى أن يكون الواقع غير مخالف لظاهر القرآن، أو يكون ما ظننته صريحًا من القرآن غير صريح، فمثلًا كثير من العلماء -وليس أكثر العلماء- يقولون: إن الأرض ليست كروية، لأن الله يقول {أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (١٧) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (١٨) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (١٩) وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ (٢٠)} [الغاشية: ١٧ - ٢٠].

والسطحية تنافي الكروية فإذًا من قال: إن الأرض كروية فقد خالف صريح القرآن، لأن الله يقول: {سُطِحَتْ (٢٠)} فأنكروا أن تكون الأرض كروية بناء على فهمهم أن القرآن صريح في ذلك.

ومن العلماء من قال: إنها كروية، والواقع يشهد لقول هؤلاء؛ لأنه لا يمكن أن نقول الآن: إنها غير كروية، إذ لو أنك لو قمت من مطار جدة متجهًا إلى الغرب في طائرة فيكون منتهاك إلى جدة فترجع إلى جدة، إذًا هي كروية، فالشاهد الواقع المحسوس يشهد لهذا، فنقول: إذًا لابد أن يكون القرآن الذي زعموا أنه صريح بأنها ليست كروية لابد أن يكون على خلاف ما فهموا ولا يمكن أن يقول قائل: إن

=

=

الواقع المحسوس كذب ولو قال: إن الواقع المحسوس كذب؛ لرماه الناس بالحجارة فضلًا عن حجارة الأفواه، وحينئذ يتعين علينا أن نقول: إن القرآن ليس صريحًا في هذا، فتحمل السطحية فيه على ما يحتاج الإنسان إليه من الأرض، فكل ما تحتاجه إليه من الأرض فهو سطح، يعني ما جعلت الأرض مسطحة مثل ظهر الجبل، أو مثل سفح الجبل، في صعودًا أبدًا، فكل ما تحتاج إليه فهو مسطح، ثم نقول في القرآن ما يدل على أنها كروية، مثل قوله تعالى: {إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ (١) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (٢) وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ (٣) وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ (٤)} [الانشقاق: ١ - ٤] فيفهم من قوله: {وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ (٣)} [الانشقاق: ٣] أنها غير ممدودة، ولهذا جاء في الحديث "إنه إذا كان يوم القيامة فإن الله يمد الأرض مد الأديم" مد الأديم يعني الجلد تمد هكذا تكون سطحًا واحدًا. وأيضًا دليل آخر مثل قوله: {يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ} [الزمر: ٥] والتكوير: التدوير، ومعلوم أن الليل والنهار يدور على الأرض، فإذا كان هذا يدور فالذي يدور عليه يكون مستديرًا ولابد، المهم القاعدة عندنا أنه لا يمكن أبدًا أن يوجد في الواقع المحسوس ما يخالف صريح المنقول أبدًا، كما أنه لا يوجد في صريح المعقول ما يخالف صحيح المنقول، فالأولى نخاطب بها أهل المادة، والثانية نخاطب بها أهل العقول الذين يدعون أنهم أصحاب العقول كالمتكلمين وغيرهم، نقول: ليس في صريح القرآن ولا في صريح صحيح السنة ما يخالف المعقول. ونخاطب بهذا أهل الكلام وغيرهم ممن يتكلمون في العقائد في المعقولات.

وليس في صريح القرآن ولا في صريح صحيح السنة ما يخالف المحسوس، ونخاطب به أصحاب المادة الذين ليس عندهم إلا ما يشاهدونه بأعينهم، أو

=

=

يسمعونه بآذانهم، وعلى هذا يكون قوله تعالى: {إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣)} محمول على أحد المحامل الأربعة.

{فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ (١٧٤)} [الصافات: ١٧٤] الخطاب للرسول ﷺ و {عَنْهُمْ} الضمير يعود على أهل مكة، والمراد بالتولي ما فسره المصنف رحمه الله بقوله: [أي أعرض عن كفار مكة].

{حَتَّى حِينٍ (١٧٤)} يعني إلى حين غير مبين، لكن علمه عند الله عز وجل، ولهذا قال المصنف: [{حَتَّى حِينٍ (١٧٤)} تؤمر فيه بقتالهم، وعلى هذا فتكون الآية منسوخة بآيات السيف، فإن الرسول ﷺ لم يؤمر بالقتال إلا حين كان له قوة، وكان له شوكة، وذلك بعد هجرته إلى المدينة، أما في مكة فلم يؤمر بالقتال، لأن الحكمة لا تقتضيه وعلى هذا فيكون الحين الذي أُجل إليه التولي هو الأمر بقتالهم.

{وَأَبْصِرْهُمْ} يعني انظر إليهم إذا نزل بهم العذاب، وعلى هذا فيكون الإبصار البصر بالرؤية، يعني أنك ستبصرهم إذا نزل بهم العذاب، فيكون أمرًا للنبي ﷺ بالإبصار حينما ينزل بهم العذاب، والمراد بقوله: {وَأَبْصِرْهُمْ} تسلية الرسول عليه الصلاة والسلام وتطمينه بأن هؤلاء سوف يرون جزاءهم.

وقيل: إن المراد بالإبصار هنا الإنظار، {وَأَبْصِرْهُمْ} يعني أنظرهم أي: أمهلهم، كما في قوله: {فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا (١٧)} [الطارق: ١٧] وكما في قوله تعالى: {قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (٢٩)} [السجدة: ٢٩] وغاية القولين واحدة، يعني سواء قلنا: أبصرهم بعينك حين ينزل بهم العذاب، أو أنظرهم حتى يأتيهم العذاب.

=

وقوله: {فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (١٧٥)} هذه الجملة يراد بها: تهديد هؤلاء بأنهم سوف يبصرون عاقبة أمرهم، وذلك بالذل والخزي والعار في الدنيا، وكذلك في الآخرة بالعذاب.

قال المصنف رحمه الله: [فقالوا استهزاء: متى نزول هذا العذاب؟ قال الله تعالى تهديدًا لهم: {أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ (١٧٦)} الهمزة في قوله: {أَفَبِعَذَابِنَا} للاستفهام، والفاء عاطفة، وقد ذكر أهل العلم أن همزة الاستفهام إذا دخلت على حرف العطف، فإنه يجوز في إعرابها وجهان:

الوجه الأول: أن يكون المعطوف عليه مقدرًا بين الهمزة وحرف العطف، ويقدر بما يناسب.

الوجه الثاني: أن تكون الجملة معطوفة على ما سبق بدون تقدير، ويكون محل الهمزة بعد حرف العطف، وعلى هذا يكون التقدير: فـ (أبعذابنا) يستعجلون.

وعلى الأول تقدر ما يناسب المقام فتقول: أسخروا فبعذابنا يستعجلون.

واستعجالهم العذاب على وجهين:

الوجه الأول: أن يكون بالقول، فيقولون: الوعد {مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٥)} [الملك: ٢٥] أين العذاب الذي تعدوننا به؟!

الوجه الثاني: أن يكون بالفعل وذلك بتماديهم بالمعصية، لأن المتمادي بالمعصية هو مستعجل للعذاب في حقيقة الأمر؛ لأن المعاصي سبب للعذاب، كما قال الله تعالى: {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٦)} [الأعراف: ٩٦].

فاستمرار هؤلاء بتكذيب الرسول عليه الصلاة والسلام يقتضي أن يتعجل لهم العذاب، وهذا استعجال بالفعل، فهؤلاء جمعوا بين الوجهين: الاستعجال بالفعل وبالقول.

=

{أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ (١٧٦)} (نا) هنا للتعظيم وليست للجمع؛ لأن الله تعالى واحد، وكل ضمير أضافه الله إلى نفسه بصيغة الجمع فالمراد به التعظيم.

{فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ (١٧٧)} {فَإِذَا نَزَلَ} الفاء تعود على العذاب، أي: إذا نزل العذاب بساحتهم، والساحة ساحة القوم أي: فناءهم، وهو ما قرب من بيوتهم وأرضهم، وهذا يعبر عنه بالتهديد والوعيد، فيقال: نزل العدو بساحتهم، كما في الحديث الصحيح في قصة خيبر أن النبي ﷺ لما أقبل عليهم جعلوا يركضون إلى مخابئهم يقولون: جاء محمد والخميس، فقال النبي ﷺ: "إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين". فهنا يقول الله عز وجل: {فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ} أي: حل العذاب بهم، وبساحتهم أي بفنائهم، وهذه الكلمة يقولها العرب للتهديد، قال المصنف رحمه الله[قال الفراء: العرب تكتفي بذكر الساحة عن القوم]، (الفراء أحد علماء اللغة العربية وهو حجة فيما يقول).

فكأنه يقول: تقدير الآية: فإذا نزل بهم، ولكن لا حاجة إلى أن نقول هذا القول؛ لأنه من المعروف أن العدو إذا نزل في القوم ليس ينزل في دورهم من أول وهلة، ولكنه ينزل بساحتهم ومنازلهم، ثم يهجم عليهم ويغير عليهم، وفي هذا استعارة – كما يقول البلاغيون– حيث شبه العذاب بعدو ينزل بهم يعني بساحتهم، ثم حذف المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو النزول بالساحة، ومثل هذه الاستعارة يسمونها استعارة مكنية؛ لأنه حذف فيها المشبه به ورمز له بشيء من لوازمه.

{فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ (١٧٧)} قال المصنف رحمه الله: في {فَسَاءَ} [بئس صباحًا، {صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ (١٧٧)}] وذلك لأن ساء من أفعال الذم، وأفعال الذم تحتاج إلى شيئين:

فاعل، وتمييز، فقدر المصنف التمييز بقوله [صباحًا]، وأما الفاعل فهو في الآية، وهو قوله: {صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ (١٧٧)} أي: بئس صباح المنذرين صباحًا، أو ساء

=

=

صباح المنذرين صباحًا، فالمصنف قدّر التمييز، ولكن هل هذا التقدير لازم؟ الصحيح أنه ليس بلازم، وأن الفاعل يسد مسده، كما في هذه الآية وفي كثير من الآيات أيضًا مثل: {نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (٤٤)}. [ص: ١١] ولم يقل: نعم العبد عبدًا.

{فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ (١٧٧)}: المنذرين اسم مفعول أي ساء صباح القوم الذين لا حجة لهم، لأنهم أُنذروا وقامت عليهم الحجة فليس لهم عذر. قال المصنف رحمه الله: [فيه إقامة الظاهر مقام المضمر]. لأن مقتضى السياق أن يقول: فإذا نزل بساحتهم فساء صباحهم، لكنه قال: {فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ (١٧٧)} فأقام الظاهر مقام المضمر.

وإقامة الظاهر مقام المضمر لابد لها من فائدة: إما لفظية، وإما معنوية، وإما لفظية معنوية، وهنا إقامة الظاهر مقام المضمر له فائدة لفظية ومعنوية، فاللفظية هي: مراعاة فواصل الآيات. لأن الله تعالى يعبر بالكلمة والظاهر خلاف التعبير بها من أجل مراعاة الفواصل. {قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى (٧٠)} [طه: ٧٠] ومن المعلوم أن موسى أفضل من هارون، وهو يقدم عليه في كتاب الله، لكن في هذه الآية قدم هارون على موسى مراعاة للفواصل؛ لأن سورة طه فواصلها غالبها بالألف. وهنا نقول: (فساء صباحهم) لم تنسجم الفاصلة مع التي قبلها والتي بعدها، فقال: {فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ (١٧٧)} وهذه فائدة لفظية.

أما المعنوية فهي التعميم وانطباق الوصف عليهم وإقامة الحجة على هؤلاء الذين نزل العذاب بساحتهم، وهي أنهم قد أنذروا ولم يكن لهم عذر، واستحقوا العذاب بعدل الله عز وجل {فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ (١٧٧)}.

والإنذار يقول العلماء: هو: الإعلام المقرون بالتخويف. والبشارة هي: الإعلام المقرون بما يفرح ويسر. فالبشارة بالسار، والإنذار بخلافه.

=

=

إذًا {الْمُنْذَرِينَ} الذين أنذروا بإقامة الحجة عليهم أي: أعلموا بما يخوفهم إذا خالفوا أمر الله.

قال: {وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ (١٧٨) وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (١٧٩)} كرر تأكيدًا لتهديدهم، وتسلية لرسولَ الله ﷺ، والآية التي قبلها يقول: {فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ (١٧٤) وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (١٧٥)} وهنا قال {وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ (١٧٨) وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (١٧٩)} فلم تختلف عنها إلا بحرف العطف الأول (فتول) والثاني و (تول)، والأولى قال: {أَبْصِرْهُمْ} والثانية (وأبصر)، فأطلق وإلا فهي هي، والفائدة من التكرار هو تكرار إنذارهم وذلك بتهديدهم، وتسلية الرسول ﷺ لأنه كلما كرر الكلام ازداد توكيدًا.

{سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٨٠)} سبحان: اسم مصدر سبح. وهي منصوبة على أنها مفعول مطلق لفعل محذوف وجوبًا، ولهذا لا يجمع بين سبحان وسبح، ما يقال: سبح سبحان، و {سُبْحَانَ رَبِّكَ} أي تنزيهًا له، وقد تقدم ماذا ينزه الله عنه، وقوله: {رَبِّكَ} أضاف الربوبية إلى الرسول ﷺ فيكون المراد بها ربوبية خاصة؛ لأن الربوبية تنقسم إلى قسمين: عامة لجميع الخلق وهذه ربوبية السلطة والتدبير، وخاصة وهي ربوبية التربية والعناية، وقد اجتمع النوعان في قوله تعالى عن سحرة فرعون قالوا {قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٧) رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ (٤٨)} [الشعراء: ٤٧، ٤٨] فالأولى عامة {بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٧)}، والثانية خاصة {رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ (٤٨)}، ولهذا صار من مقتضى هذه الربوبية أن الله تعالى قال لهما: {لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى (٤٦)} [طه: ٤٦] قال: {سُبْحَانَ رَبِّكَ} والخطاب للرسول ﷺ أي تنزيهًا لربك الذي شملك برعايته وعنايته ثم قال: {رَبِّ الْعِزَّةِ} أي الغلبة، ورب هنا بمعنى صاحب، وليست بمعنى خالق، وهي في القرآن تأتي بمعنى خالق ومالك ومدبر إلا في هذا الموضع فالمراد

=

=

بها صاحب فقط، ولا يمكن أن تكون بمعنى خالق؛ لأن العزة صفة من صفات الله -عز وجل، وصفات الله عز وجل غير مخلوقة فيتعين أن يكون المراد بالرب في قوله: {رَبِّ الْعِزَّةِ} صاحب العزة، وليس خالق، لأن صفات الرب غير مخلوقة وقوله: {رَبِّ الْعِزَّةِ} أضاف الرب هنا إلى العزة دون غيرهما من صفاته؛ لأن المقام يقتضي ذلك، فإن المقام الآن في ذكر مآل النبي ﷺ ومآل المكذبين له، وأن مآله أن ينصره الله وأن تكون الغلبة له، وأن يكون الذل والخذلان لأعدائه، فالمقام هنا يقتضي الصفة التي تكون بها الغلبة وهي العزة، قال الله عز وجل في سورة المنافقين: {يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ} [المنافقون: ٨] وهذه حقيقة يخرج الأعز الأذل، لكن من الأعز {وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ} [المنافقون: ٨] وأما المنافقون فلا عزة لهم، وعلى هذا فنقول: إن الله ذكر هنا صفة العزة دون غيرها؛ لأن المقام يقتضي ذلك، حيث إنه في سياق الغلبة للرسول ﷺ والذل لأعدائه، ومن أسماء الله تعالى: العزيز، وما أكثر وروده في الكتاب العزيز، قال العلماء وللعزة ثلاثة معانٍ:

الأول: عزة الغلبة.

الثاني: عزة القدر.

الثالث: عزة الامتناع.

فعزة الغلبة معناها: أن الله تعالى غالب لكل شيء. وعزة القدر أن الله تعالى فوق كل شيء قدرًا. وعزة الامتناع أن الله تعالى ممتنع أن يناله أحد بسوء. ومن الثالث قولهم: أرض عزاز يعني صلبة قوية ما تؤثر فيها المعاول.

{عَمَّا يَصِفُونَ (١٨٠)} يجوز في (ما) أن تكون مصدرية ويكون تقدير الكلام: سبحان ربك رب العزة عن وصفهم.

=

=

ويجوز أن تكون (ما) موصولة، ويكون العائد محذوفًا، والتقدير: عما يصفونه به.
وقول المصنف: [بأن له ولدًا] هذا كالمثال لما يصفون الله به مما ينزه عنه، وإلا فهم يقولون: إن له ولدًا، وله زوجة، وله شريكًا، وله معينًا وهكذا، فكل وصف لا يليق بالله فإن الله عز وجل منزه عنه، وإن وصفه به هؤلاء الأفاكون الكذابون.
{وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (١٨١)} {وَسَلَامٌ} مبتدأ، و {عَلَى الْمُرْسَلِينَ (١٨١)} خبره، والسلام هنا بمعنى التسليم، فهو اسم مصدر سلم مثل: كلام بمعنى التكليم ومعنى السلام عليهم: أن ما قالوه في ذات الله وفي صفات الله سالم من كل نقص.
فيكون الله تعالى قد سبح نفسه عما وصفه به المخالفون للرسول، ثم سلم على الرسل -عليهم الصلاة والسلام- لسلامة ما قالوه من نقص وعيب، فليس فيه كذب، وليس فيه سوء، ولهذا قال المصنف رحمه الله: [{وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (١٨١)} المبلغين عن الله التوحيد والشرائع].
ولما ذكر التنزيه فيما وصف به نفسه وفيما وصفته به رسله -عليهم الصلاة والسلام- ذكر بعد ذلك الحمد الذي هو وصف المحمود بالكمال مع المحبة والتعظيم، فيكون في الآيات جمع بين التنزيه عن صفات النقص وبين إثبات صفات الكمال، وأتى بإثبات صفات الكمال بعد التنزيه؛ لتكون التحلية بعد التخلية، يعني التزين بعد إزالة الأذى.
{وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٨٢)} الحمد: وصف المحمود بالكمال المحبة والتعظيم، وكمال الله سبحانه وتعالى يدور على أمرين: كمال ذاتي، وكمال فعلي:
أما الكمال الذاتي فهو سبحانه وتعالى كامل في ذاته المتصفة بكل صفة كمال.
والكمال الفعلي أن الله تعالى كامل في أفعاله، فله الفضل على عباده بجلب ما ينفعهم ودفع ما يضرهم، ولهذا شرع للإنسان إذا انتهى من الأكل والشرب أن

=

=

يحمد الله سبحانه وتعالى على ما رزقه من الطعام والشراب، وإن شئت فقل: إنك تحمد الله الذي لا يحتاج إلى ما تحتاج إليه من الأكل والشرب.

{رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٨٢)} أي: خالقهم ومالكهم ومدبر أمورهم.

والعالم كل من سوى الله، وسموا عالمًا؛ لأنهم علم على خالقهم عز وجل، ففي كل شيء من مخلوقات الله آية تدل على وحدانيته وكماله.

{وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٨٢)} قال المصنف رحمه الله: [على نصرهم -أي نصر الرسل- وهلاك الكافرين] ولو أن المصنف جعلها مطلقة {وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٨٢)} على كل شيء حتى على ما يقدره أحيانًا من غلبة أعدائه على أوليائه فإنه يحمد على ذلك، لما يترتب عليه من المصالح العظيمة كما في غزوة أحد التي ذكر الله تعالى فيها من الحكم أشياء كثيرة، ذكر منها جزءًا كبيرًا ابن القيم رحمه الله في زاد المعاد.

والفائدة من قوله: {وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٨٢)} بعد قوله: {سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٨٠)} أن يثبت لنفسه صفات الكمال بعد أن نفى عن نفسه صفات النقص، ليجمع فيما وصفه به نفسه بين النفي والإثبات.

(تتمة): قال الغرناطي في ملاك التأويل القاطع: الآية الأولى منها - قوله تعالى: (وَقَالُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ * أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ) (الصافات: ١٥ - ١٦)، وقال فيما بعد: (قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ * يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ * أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ) (الصافات: ٥١ - ٥٣)، للسائل أن يسأل عن قوله أولًا: (أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ) وثانيًا: (أَإِنَّا لَمَدِينُونَ) لم اختلفا مع أن مرادهم في الموضوعين إنكار البعث بعد الموت؟

والجواب: أن االموضع الأول لم يتقدمه شيء يوجد عدولهم عن التعبير عن معتقاداتهم (في إنكار الإحياء بعد الموت فورد على ما يطابق معتقادهم)، وأما

=

=

الآية الأخرى فقد تمهد قبلها ذكر الجزاء الأخراوي وذكر السؤال، فأول ذلك ذكر ما يقال لهم إذا حشروا قال تعالى: (وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ) (الصافات: ٢٤) وقول بعد: (وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ) (الصافات: ٣٩)، وقوله بعد: (وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ) (الصافات: ٢٧)، وهذا في الأخرة إلى قوله: (قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ يَقُولُ) (الصافات: ٥١ - ٥٢)، وهذا قول الكافر وقد باشر العذاب، فأخبر عن قرينه الذي قيد له المشار إليه بقوله: (وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ) (الزخرف: ٣٦)، فأخبر عنه سبحانه أنه كان يقول له في دنياه: (أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ * أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ) (الصافات: ٥٢ - ٥٣) أي لم لمجزيون بأعمالهم وما إجترحناه في دنيانا، وفي طي قولهم: (أَإِنَّا لَمَدِينُونَ) إنكار للبعث لإنكارهم ما ينبني عليه ويترتب بعده من الجزاء، وقد تقدم ذكر الجزاء فناسبه ذكر تعجبهم منكرين وقوعه، ولم يكن ليحسن وقوع (لَمَدِينُونَ) في الآية الأولى إذا كان يكون هناك غير مفصح بإنكارهم البعث ولا ورد قبلهع ما يستدعيه، فجاء كل على ما يجب ويناسبه، والله أعلم.

الآية الثانية (من سورة الصافات) قوله تعالى في ختام قصة نوح، عليه السلام: (إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ) (الصافات: ٨٠) ثم أعقب القصص الثلاث بمثل هذا، أعني قصة إبراهيم وقصة موسى وهارون وقصة إلياس، إلا أنه ورد في قصة إبراهيم عليه السلام: (سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ * كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ) (الصافات: ١٠٩ - ١١٠)، فسقط منه لفظ (إن) وثبت في القصص الأخر، فيسأل عن وجه القصاص في قصة إبراهيم دون غيرها بذلك؟

والجواب، والله أعلم: أنه تقدم في قصة إبراهيم بعينها قوله: (وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ) (الصافات: ١٠٤ - ١٠٥)، ثم

=

=

لما كرر ليبني عليه قوله: (إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ) (الصافات: ١١١)، كما في نظائره من ختام القصص الآخر كرر قوله (كذلك) لبناء علة الجزاء وموجبه عليه، كما تكرر قوله: (أنكم) في قوله: (أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ) (المؤمنون: ٣٥)، (فكرر) (أنكم) تأكيدًا ليبني عليه الخبر فكذلك كررت هنا الجملة (بأسرها) وهي قوله (كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ) ليبني عليها ما ورد علة موجبه لجزائهم لتجري هذه القصة مجرى نظائرها، ولم يكرر حرف التأكيد والضمير المنصوب به إيجازًا واختصارًا لذكره فيما تقدم في القصة نفسها، فوضح أنه لا فرق بينها وبين ما اكتنفها من القصص الوارد فيها ذكر (إن) بوجه.

فإن قيل: ولم آخر قوله: (إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ) (الصافات: ١١١)، عن قوله أولًا (إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ) (الصافات: ١٠٥) من الجمل الوارده مورد جمل الإعتراض إشادة بجلالة إبراهيم وإعلامًا بعظيم (جلاله فقال تعالى: (إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ) (الصافات: ١٠٦)، ثم أكد) عظيم الإعتناء به فقال: (وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ * وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ * سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ) (الصافات: ١٠٧ – ١٠٩)، ولما طال الكلام بما ورد تتميمًا وتكميلًا لحاله، عليه السلام، وبعد عن قوله: (كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ) أعيد منه الجملة الواقعة خبرًا لأن ينبني عليه ما بني على نظائره من قوله (إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ) فقصة إبراهيم عليه السلام، أوفى هذه القصص تعريفًا بكمال الحال، ولم ينقص منها شيء من الأخبار بصفة الجزاء وسببه كما في غيرها زاد فيها ما ورد اعتراضًا كما تبين وذلك لما زاد في قصته من عظيم ابتلاءه زياده والله أعلم بما اراد،

الآية الثالثة من سورة الصافات – غ – فقوله تعالى: (فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ) (الصافات: ١٠١)، وفي الذاريات: (قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ) =

=

(الذاريات: ٢٨) والمبشر به واحد والقصة واحدة. فللسائل أن يسأل عن موجب إختلاف الصفتين في السورتين؟

والجواب أن موجب تخصيص الآية الأولى بصفة الحلم ما اقترن بها من قوله تعالى: (فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى) (الصافات: ١٠٢)، وجواب أبنه، عليهما السلام، بقوله: (يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ) (الصافات: ١٠٢) وأتباعه ذلك تسلية لأبنه وامتثالًا لأمر ربه: ((سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ) (الصافات: ١٠٢)، فلما دل جوابه على عظيم حاله) وتلقيه عظيم هذا الأبتلاء بالرضا والصبر التام إمتثلًا لأمر ربه (وإرضاء لأبنه، كان ذلك مبينًا لجليل حلمه ووفور كماله) في حاله ما وصفه في سنه بالأولية والابتداء. أما آية سورة الذاريات فلم يقع فيها ذكر هذه القصة، فورد فيها وصفه بالعلم المحرز بجليل نبوته، ولو ورد في السورتين عكس الوصف الوارد لما ناسب هذه المناسبة الحاصلة، والله أعلم.

الآية الرابعة من سورة الصافات: (وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ) (الصافات: ١٧٥) ثم قال: (وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ) (الصافات: ١٧٩)، يسأل عن الضمير المفعول وثبوته أولا في قوله: (وأبصرهم) وسقوطه ثانيًا في قوله (وأبصر)؟ وعن وجه التكرار؟

والجواب عن ذلك: أن التكرار تأكيد وتشديد في الوعيد، وتناسب ذلك بين مألوف في كلام العرب، وأما سقوط الضمير في الثاني فيحرز عمومًا لهم ولغيرهم في الوعيد لأن قوله: (وأبصرهم) المراد به أمره، عليه السلام، بأن يترقب ما ينزل (بهم) ويحل بساحتهم من الانتقام، وإعلامه ﷺ، في بكفايته إياهم كما قال تعالى: (إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ) (الحجر: ٩٥) فكان كذلك، وقال تعالى: (سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ) (القمر: ٤٥)، ففعل بهم ذلك يوم بدر، فقدم (الله) سبحانه تأنيس

=

=

نبيه، عليه السلام، بإخباره إياه في هذا الوعيد (لهم) بأخذهم وقطع دابرهم، ثم أردف هذا الوعيد بوعيد ثان فيه عموم يشملهم ولا يرجع عن تناول غيرهم ممن سلك مسلكهم، ويشعر بحاله هو، عليه السلام، وحال من أذعنواستجاب له فقال: (وأبصر) أي ترقب ما أفعل لك من تأييدك ونصرك وجزائك الأخراوي وجزاء من آمن بك بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وما أفعل بمن عاداك وعاندك ممن باشرك بتمرده وطغيانه أو بعد عنك، من أخذهم وقطع دابرهم ووبيل جزائهم الأخراوي، هذا مفهوم لا يرجع إطلاق قوله: (وأبصر) عن عطائه وتعميمه، ذلك كله مما يعتضد من مواضع أخر، وتأمل ما فعل سبحانه بكسرى حين مزق كتابه ﷺ تمردًا وطغيانًا وإن لم يباشره، لما جاوز حد كفره إلى التمرد والطغيان مُزق هو وآله كل ممزق.

أما قوله: (وأبصرهم) فخص التناول للمباشرين لمكان القييد بإعمال الفعل في ضميرهم، فهو وإن تناول أخذهم في الدنيا وتمكين نبيه والمسلمين منهم، ثم عقابهم الأخراوي ليبلغ بالتهديد والوعيدأقصى ما يحتلمه، فإنه لا يتعداهم إلى غيرهم وأما قوله (وأبصر) بإطلاق الفعل عن التقييد فقابل غير ممتنع عن تناولهم ومن سواهم من كل من خالفه، عليه السلام، وعاداه، ومقتضى الوعيد لهم ومقصود بشارته له، عليه السلام، يحبذان أن إطلاق الأمرين وتعميم الطرفين من الوعيد والبشارة، فقد وضح أنه لا تكرار في الحقيقة، بل ورد ذلك كله على ما يلائم ويناسب، وعبر عن ذلك كله بعبارة الإبصار إشعارًا بقربه، فكأنه بمنزلة المعاين المدرك بالبصر لتعجيل الدنياوي منه وتحقيق وقوع الأخراوي وتيقنه، فكل هذا على أوضح مناسبة والله أعلم. ا.هـ من ملاك التأويل (٢/ ٤١٠-٤١٣).

سُورَة ص(١)

(١)قال ابن عطية:"هذه السورة مكية بإجماع من المفسرين".
قال ابن الجوزي:"هي مكية كلها بإجماعهم".
قال الفيروزآبادي:"السورة مكية إجماعا".
* آياتها ثمان وثمانون فى عدّ الكوفة، وستّ فى عدّ الحجاز، والشأم، والبصر، وخمس فى عَدّ أَيّوب بن المتوكِّل وحده. وكلماتها سبعمائة واثنتان وثلاثون. وحروفها ثلاثة آلاف وسبع وستّون. المختلف فيها ثلاث: الذكر، وغوّاص، {والحق أَقُولُ} مجموع فواصل آياتها (صدّ قُطْرُب مَن لجّ)
* أسماء السورة.
تسمى «سورة صاد» سميت في المصاحف وكتب التفسير وكتب السنة والآثار عن السلف سورة (صاد) كما ينطق باسم حرف (الصاد) تسمية لها بأول كلمة منها هي (صاد) (بصادٍ، فألفٍ، فدالٍ ساكنة سكون وقف) شأن حروف التهجي عند التهجي بها أن تكون موقوفة.
قال الفيروزآبادي:"سميّت «سورة صاد»؛ لافتتاحها بها".
وتسمى «سورة داود» قال الفيروزآبادي:"سميّت «سورة داود»؛ لاشتمالها على مقصد قصته فى قوله: {وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ} [ص: ١٧]".
ونقل السيوطي في "الإتقان" عن كتاب "جمال القراء" لـ السخاوي: أن سورة (ص) تسمى أيضًا سورة داود، قال: "وذلك يحتاج إلى مُسْتَنَد من الأثر".
وكتب اسمها في المصاحف بصورة حرف (الصاد) مثل سائر الحروف المقطعة في أوائل السور؛ اتباعًا لما كتب في المصحف.
* معظم مقصود السورة: بيان تعجّب الكفَّار من نبوّة المصطفى - ﷺ، ووصف المنكرين رسول الله - ﷺ - بالاختلاق والإفتراءِ، واختصاص الحقِّ تعالى بمُلْك
=

=

الأَرض والسّماءِ، وظهور أَحوال يوم القضاءِ، وعجائب حديث داود وأُوريَا وقصّة سليمان فى حديث المَلَك، على سبيل المِنَّة والعطاءِ، وذكر أَيّوب فى الشفاءِ، والابتلاءِ، وتخصيص إِبراهيم وأَولاده من الأَنبياءِ، وحكاية أَحوال ساكنى جَنَّةِ المأْوَى، وعجز حال الأَشقياءِ فى سقر ولَظَى، وواقعة إِبليس مع آدم وحوّاء وتهديد الكفَّار على تكذيبهم للنبىّ المجتبى فى قوله: {إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ}.

* المتشابهات: قوله تعالى: {وعجبوا أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الكافرون} بالواو، وفى ق: (فقال) بالفاءِ؛ لأَنَّ اتَّصاله بما قبله فى هذه السّورة معنوى، وهو أَنَّهم عجِبُوا من مجئ المنذر وقالوا: هذا المنذر ساحر كذاب، واتِّصاله فى ق معنوىّ ولفظىّ؛ وهو أَنهم عجبُوا، فقالوا: هذا شئ عجيب. فراعى المطابقة بالعَجُزِ والصّدر، وختم بما بدأَ به، وهو النّهاية فى البلاغة.

قوله: {أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذكر مِن بَيْنِنَا} وفى القمر {أَأُلْقِيَ} لأَنَّ ما فى هذه السّورة حكاية عن كفَّار قريش يُجيبون محمّدا - ﷺ - حين قرأَ عليهم {وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذكر لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ} فقالوا: أَأُنزل عليه الذكر. ومثله {الحمد لِلَّهِ الذي أَنْزَلَ على عَبْدِهِ الكتاب} و {تَبَارَكَ الذي نَزَّلَ الفرقان على عَبْدِهِ} هو كثير. وما فى القمر حكاية عن قوم صالح. وكان يأْتى الأَنبياءَ يومئذ صحفٌ مكتوبة، وأَلواح مسطورة؛ كما جاءَ إِبراهيمَ وموسى. فلهذا قالوا: {أَأُلْقِيَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ} مع أَنَّ لفظ الإِلقاءِ يستعمل لما يستعمل له الإِنزال.

قوله: {وَمِثْلَهُمْ مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا}، وفى الأَنبياءِ: {مِنْ عِنْدِنَا}؛ لأَنَّ الله - سبحانه وتعالى - ميّز أَيُّوب بحسن صبره على بلائه، من بين أَنبيائه، فحيث قال لهم: من عندنا قال له: منَّا، وحيث لم يقل لهم: من عندنا قال له: من عندنا [فخصت هذه

=

مَكِّيَّة وَآيَاتهَا ٨٦ أَوْ ٨٨ آيَة نَزَلَتْ بَعْد الْقَمَر .

بسم الله الرحمن الرحيم[١]

ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ (١).

{ص} الله أَعْلَم بِمُرَادِهِ بِهِ[٢] ، {وَالْقُرْآن ذِي الذِّكْر} أَيْ الْبَيَان أَوْ الشَّرَف وَجَوَاب هَذَا الْقَسَم مَحْذُوف أَيْ مَا الْأَمْر كَمَا قَالَ كُفَّار مَكَّة مِنْ تَعَدُّد الْآلِهَة.

بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ (٢).

{بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا} مِنْ أَهْل مَكَّة {فِي عِزَّة} حَمِيَّة وَتَكَبُّر عَنْ الْإِيمَان

=

السورة بقوله: منا لما تقدم فى حقهم (من عندنا)] فى مواضع. وخُصّت سورة الأنبياء بقوله: (من عندنا) لتفرّده بذلك.

قوله {كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وفِرْعَوْنُ ذُو الأوتاد} وفى ق: {كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرس} إلى قوله: {فَحَقَّ وَعِيْد} قال الإمام: سورة ص بُنيت فواصلها على رَدْف أَواخرها [بالألف؛ وسورة ق على ردف أواخرها] بالياءِ والواو. فقال فى هذه السّورة: الأَوتاد، الأَحزاب، عقاب، وجاءَ بإِزاءِ ذلك فى ق: ثمود، وعيد، ومثله فى الصافات: {قَاصِرَاتُ الطرف عِينٌ} وفى ص {قَاصِرَاتُ الطرف أَتْرَابٌ} فالقصد إِلى التَّوفيق بين الأَلفاظ مع وضوح المعانى.

قوله فى قصّة آدم: {إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ} قد سبق. بصائر ذوي التمييز (١/ ٣٩٩ - ٤٠٢).

(١)تقدم تفسير البسملة في أول سورة الفاتحة.

(٢)تقدم القول في الحروف المقطعة بتوسع تحت الآية رقم (١) من سورة البقرة.

{وَشِقَاق} خِلَاف وَعَدَاوَة لِلنَّبِيِّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[١].

---

(١)ذكر سبب النزول.

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما؛ قال: لما مرض أبو طالب؛ دخل عليه رهط من قريش؛ منهم: أبو جهل، قال: فقالوا: إن ابن أخيك يشتم آلهتنا، ويفعل ويفعل، ويقول ويقول، فلو بعثت إليه فنهيته، فبعث إليه أو قال: جاء النبي ﷺ فدخل البيت، وبينهم وبين أبي طالب مجلس رجل، قال: فخشي أبو جهل إن جلس النبي ﷺ إلى جنب أبي طالب أن يكون أرق له عليه؛ فوثب فجلس في ذلك المجلس، ولم يجد النبي ﷺ مجلسًا قرب عمه، فجلس عند الباب، قال أبو طالب: أي ابن أخي! ما بال قومك يشكونك؟ يزعمون أنك تشتم آلهتهم، وتقول وتقول، وتفعل وتفعل، قال: فأكثروا عليه من اللحو، قال: فتكلم النبي ﷺ، فقال: "يا عم! إني أريدهم على كلمة واحدة يقولونها؛ تدين لهم بها العرب، وتؤدي إليهم بها العجم الجزية"، قال: ففزعوا لكلمته ولقوله، قال: فقال القوم: كلمة واحدة! نعم وأبيك وعشرًا، قالوا: وما هي؟ قال أبو طالب: وأي كلمة هي يا ابن أخي؟ قال: "لا إله إلا الله"، قال: فقاموا فزعين ينفضون ثيابهم وهم يقولون: {أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ (٥)}، قال: وقرأ من هذا الموضع إلى قوله: {لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ}.

وفي رواية: قال: مرض أبو طالب فجاءته قريش وجاءه النبي ﷺ، وعند أبي طالب مجلس رجل؛ فقام أبو جهل كي يمنعه، وشكوه إلى أبي طالب، فقال: يا ابن أخي! ما تريد من قومك؟ قال: "إني أريد منهم كلمة واحدة تدين لهم بها العرب، وتؤدي لهم العجم الجزية"، قال: كلمة واحدة؟ قال: كلمة واحدة، قال: "يا عم! يقولوا: لا إله إلا الله"، فقالوا: {أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا} {مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ (٧)}، قال: فنزل فيهم القرآن: {ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ =

=

(١) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ (٢) كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوْا وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ (٣) وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (٤) أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ (٥) وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ (٦) مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ (٧) أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ (٨)}.

أخرجه أحمد (١/ ٢٢٧، ٢٢٨، ٣٦٢)، وابن أبي شيبة (٣/ ٣٥٩، ١٤/ ٢٩٩)، والترمذي (٣٢٣٢)، والنسائي في الكبرى (٨٧٦٩)، والطبري في تفسيره (٢٣/ ٧٩)، وأبو يعلى (٢٥٨٣) والطحاوي في المشكل (٢٠٢٩، ٢٠٣٠)، والحاكم (٢/ ٤٣٢)، والبيهقي في الكبرى (٩/ ١٨٨)، والضياء في المختارة (١٠/ ٣٨٨ رقم ٤١٤) والحديث حسنه الترمذي، وصححه الحاكم وأقره الذهبي، وضعفه العلامة الألباني في ضعيف الترمذي، وتعقب الحويني في النافلة تحت الحديث رقم (١٦٢) الترمذي والحاكم والذهبي بقوله: وليس كما قالوا، لما تقدم من حال يحيى بن عمارة يقصد أنه مجهول، لم يرو عنه غير الأعمش، وضعفه صاحبا الإستيعاب في بيان الأسباب (٣/ ١٦٣ - ١٦٤)، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (٣/ ٤٥٨): إسناده ضعيف، يحيي بن عمارة، ويقال: يحيي بن عباد، ويقال: عباد، تفرد عنه الأعمش فهو في عداد المجهولين وإن ذكره ابن حبان في "الثقات".

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما؛ قال: نزل {ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ (١)} فيهم وفي مجلسهم ذلك؛ يعني: مجلس أبي طالب وأبي جهل واجتماع قريش إليهم حين نازعوا رسول الله ﷺ.

=

=

أخرجه الحاكم في "المستدرك" (٢/ ٤٣٢) من طريق إسحاق بن راهويه: أنبأ وهب بن جرير حدثني أبي؛ قال: سمعت محمد بن إسحاق؛ قال: حدثني العباس بن عبد الله بن معبد عن ابن عباس به. وهذا سند حسن؛ صرح ابن إسحاق فيه بالتحديث كما ترى.

وقال الحاكم: "هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه"، ووافقه الذهبي، وقال: "والعباس ثقة". ابن إسحاق لم يخرج له مسلم في الأصول وإنما أخرج له متابعة.

وعن السدي: أن أناسًا من قريش اجتمعوا؛ فيهم: أبو جهل بن هشام، والعاص بن وائل، والأسود بن المطلب، والأسود بن عبد يغوث في نفر من مشيخة قريش، فقال بعضهم: انطلقوا بنا إلى أبي طالب فلنكلمه فيه، فلينصفنا منه؛ فيأمره، فليكف عن شتم آلهتنا وندعه والذي يعبد؛ فإنا نخاف أن يموت هذا الشيخ فيكون منا شيء؛ فتعيرنا العرب، فيقولون: تركوه، حتى إذا مات عمه؛ تناولوه، قال: فبعثوا رجلًا منهم يدعى: المطلب فاستأذن لهم على أبي طالب، فقال: هؤلاء مشيخة قومك وسرواتهم يستأذنون عليك، قال: أدخلهم، فلما دخلوا عليه؛ قالوا: يا أبا طالب! أنت كبيرنا وسيدنا؛ فأنصفنا من ابن أخيك؛ فمره فليكف عن شتم آلهتنا وندعه وإلهه، قال: فبعث إليه أبو طالب، فلما دخل عليه رسول الله ﷺ؛ قال: يا ابن أخي! هؤلاء مشيخة قومك وسرواتهم وقد سألوك النصف؛ أن تكف عن شتم آلهتهم ويدعوك وإلهك، قال: فقال: "أي عم! أوَ لا أدعوهم إلى ما هو خير لهم منها؟ "، فقال: وإلامَ تدعوهم؟ قال: "أدعوهم إلى أن يتكلموا بكلمة تدين لهم بها العرب ويملكون العجم"، قال: فقال أبو جهل -من بين القوم-: ما هي وأبيك لنعطينكها وعشر أمثالها، قال: "تقولون: لا إله إلا الله"، قال: فنفروا، وقالوا: سلنا غير هذه، قال: "لو جئتموني بالشمس حتى تضعوها في يدي ما

=

=

سألتكم غيرها"، قال: فغضبوا وقاموا من عنده غضابًا، وقالوا: والله لنشتمنك والذي يأمرك بهذا و {وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ (٦)} إلى قوله: {إِلَّا اخْتِلَاقٌ} وأقبل على عمه، فقال له عمه: يا ابن أخي! ما شططت عليهم، فأقبل على عمه فدعاه، فقال: "قل كلمة أشهد لك بها يوم القيامة، تقول: لا إله إلا الله"، فقال: لولا أن تعيبكم بها العرب يقولون جزع من الموت؛ لأعطيتكها؛ ولكن على ملة الأشياخ، قال: نزلت هذه الآية: {إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ} [القصص: ٥٦].

أخرجه الطبري في "تاريخ الأمم والملوك" (١/ ٥٤٤)، و"جامع البيان" (٢٣/ ٨٠، ٨١)، وابن أبي حاتم في "تفسيره"؛ كما في "الدر المنثور" (٧/ ١٤٢، ١٤٣) من طريق أحمد بن المفضل قال: ثنا أسباط بن نصر عن السدي به. وهذا إسناد ضعيف جدًا؛ فيه علتان:

الأولى: الإعضال.

الثانية: أسباط بن نصر؛ ضعيف.

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما؛ قال: نزلت حين انطلق أشراف قريش إلى أبي طالب يكلموه في النبي ﷺ.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٣/ ٨١). وسنده ضعيف جدًا؛ مسلسل بالعوفيين الضعفاء.

* قوله تعالى: {وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ} [ص: ٢]، أي: "والقرآن المشتمل على تذكير الناس بما هم عنه غافلون".

عن عبد الله بن عباس -رضي الله عنهما-؛ قال: نزل {ص والقرآن ذي الذكر} فيهم وفي مجلسهم ذلك؛ يعني: مجلس أبي طالب وأبي جهل واجتماع قريش إليهم حين نازعوا رسول الله ﷺ.

=

=

قال ابن كثير:"أي: والقرآن المشتمل على ما فيه ذكر للعباد ونفع لهم في المعاش والمعاد".

وفي قوله تعالى: {وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ} [ص: ٢]، وجوه من التفسير:

أحدها: ذي الشرف، قاله ابن عباس، وسعيد بن جبير، والسدي، واختاره ابن قتيبة.

الثاني: ذي البيان، قاله قتادة، يحيى بن سلام، ومقاتل.

قال يحيى:"الذكر، يعني: البيان من الله".

الثالث: ذي التذكير، ذكَّركمُ الله به، ومثله قوله تعالى: {لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُم} [الأنبياء: ١٠]. وهذا قول الضحاك.

قال الطبري:"معناه: ذي التذكير لكم، لأن الله أتبع ذلك قوله: {بل الذين كفروا في عزة وشقاق}، فكان معلوما بذلك أنه إنما أخبر عن القرآن أنه أنزله ذكرًا لعباده ذكرهم به، وأن الكفار من الإيمان به في عزّة وشقاق".

الرابع: ذكرت فيه أقاصيص الأولين والآخرين وما يحتاج إليه في الحلال والحرام. حكاه الزجاج.

الخامس: فيه ذكر ما قبله من الكتب. حكاه ابن قتيبة.

قال قتادة: "ها هنا وقع القسم".

واختلف أهل التفسير في جوابه على قولين:

أحدهما: أن جواب القسم محذوف وحذفه أفخم له، لأن النفس تذهب فيه كل مذهب. ومن قال بحذفه اختلفوا فيه على قولين:

أحدهما: أن تقدير المحذوف منه: لقد جاء الحق.

الثاني: تقديره ما الأمر كما قلتم، بل أنتم في عزة وشقاق. اختاره الطبري.

=

=

والقول الثاني: من الأصل أن جواب القسم مظهر، ومن قال بإظهاره اختلفوا فيه على قولين:

أحدهما: قوله تعالى: {كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ} [ص: ٣]، ومعناه: لكم أهلكنا قبلهم من قرن. فلما طال الكلام بينهما حذفت اللام. قاله الفراء.

الثاني: من قوله تعالى: {إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ} [ص: ٦٤]. قاله الزجاج.

قوله تعالى: {بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ} [ص: ٢]، أي:"ولكن الكافرين متكبرون على الحق مخالفون له".

قال الطبري: يقول:"بل الذين كفروا بالله من مشركي قريش في حمية ومشاقة، وفراق لمحمد وعداوة، وما بهم أن لا يكونوا أهل علم، بأنه ليس بساحر ولا كذاب".

قال ابن كثير:"أي: إن في هذا القرآن لذكرًا لمن يتذكر، وعبرة لمن يعتبر. وإنما لم ينتفع به الكافرون لأنهم {فِي} استكبار عنه وحمية ومخالفة له ومعاندة ومفارقة".

عن مجاهد، قوله: " {في عزة وشقاق}، قال: مُعَازِّين".

وفي قوله تعالى: {بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ} [ص: ٢]، وجوه:

أحدها: يعني: في حمية وفراق، قاله قتادة، ومقاتل، وسهل بن عبد الله.

الثاني: في تعزز واختلاف، قاله السدي.

عن ابن وهب، قال: "قال ابن زيد، في قوله: {بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ}، قال: يعادون أمر الله ورسله وكتابه، ويشاقون، ذلك عزّة وشِقاق، فقلت له: الشقاق: الخلاف، فقال: نعم".

الثالث: في أنفة وعداوة. حكاه الماوردي.

وقال ابن قتيبة:"{وشقاق} عداوة ومباعدة".

=

=

الرابع: في امتناع ومباعدة. أفاده الماوردي.

قال ابن الجوزي:"العزة: الحمية والتكبر عن الحق، والشقاق: الخلاف والعداوة لرسول الله ﷺ".

قال العثيمين: قوله تعالى: {وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ} الواو هنا: حرف قسم ولهذا جَرَّت الكلمة التي بعدها "القرآن". والواو حرف قسم لا تدخل إلا على الاسم الظاهر، ولا يُذكر معها فعل القسم، بخلاف باء القسم، فإنها تدخل على الاسم الظاهر، وعلى الضمير، ويُذكر معها فعل القسم، ويحذف، وتدخل على كل اسم. قال الله تعالى: {وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ} [الأنعام: ١٠٩] فذكر معها فعلُ القسم. وتقول: ربي به لأفعلنَّ، أو أقسم به لأفعلن، فهنا دخلت على الضمير. أما التاء فهي أخص أدوات القسم، لا تدخل إلا على لفظ الجلالة "الله"، ولا يُذكر معها فعلُ القسم. وقيل: تدخل على لفظ الجلالة "الله" وعلى "ربّ" قال ابن مالك: والتاءُ لله وربِّ، وأكثر ما يقسم اللهُ به الواو، وذلك لأنها الأكثر على الألسن، فجاءت الأكثر في القرآن. {وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ} ذي بمعنى صاحب، وهي مجرورة، لكنها مجرورة بالحرف نيابة عن الكسرة، وقوله: {ذِي الذِّكْرِ} قال المصنف: [أي: البيان أو الشرف] يعني أن القرآن ذو ذكر، أي: ذو بيان للناس، يُذكِّرهم ويتذكَّرون به، أو ذو شرف لشرفه وشرف من يعمل به. قال الله تعالى: {وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ} [الزخرف: ٤٤] فهو ذكر: يُذْكَرُ به ما ينفع الناس في معاشهم ومعادهم. وذكر: يتذكَّر به الناس ويتعظون به، وهو أعظم موعظة. وذكر: أي شرف لمن تمسك به.

قال المصنف: [وجواب هذا القسم محذوف، إنما قال المصنف: وجواب هذا القسم؛ لأنه ما من قسم إلا وله جواب. إذ إن القسم أركانه أربعة: مُقْسِم، ومُقْسَم به، ومُقْسَم عليه، وصيغة. فكل قَسَم لا بد فيه من هذه الأركان، والمقسم عليه هو

=

=

جواب القسم إذن لا بد لكل قسمٍ من جواب، والجواب إن كان مذكورًا فهو معلوم، وإن كان محذوفًا فيعيّنه السياق. قال تعالى: {وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ} [النور: ٥٣] الجواب هنا مذكور {لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ}، وفي قوله تعالى: {قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ} [التغابن: ٧] مذكور، جواب القسم {لَتُبْعَثُنَّ}.

وفي هذه الآية قد وجد المُقْسَم به والصيغة {وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ} والمُقْسِم هو الله عز وجل. بقي المُقْسَم عليه، وهو جواب القسم.

يقول المصنف: [إنه محذوف، وتقديره ما الأمر كما قال كفار مكة من تعدّد الآلهة] وحسب هذا التقدير يكون جواب القسم جملة منفية: ما الأمر كما قال كفار مكة من تعدّد الآلهة، لكن الأمر أن الإله واحد، وهو الله، وهذا التقدير الذي ذكره المصنف لا يتعيَّن، يعني لو قال قائل: التقدير والقرآن ذي الذكر إن إلهكم لواحد. لو قال قائل هكذا، حصل به ما حصل من قول المصنف: ما الأمر كما قال كفار مكة من تعدد الآلهة.

وذهب بعض العلماء إلى أن مثل هذا القسم لا يحتاج إلى جواب؛ لأن جوابه معلوم منه كقوله تعالى: {لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ (١) وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ (٢) أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ} [القيامة: ١ - ٣]، وقوله تعالى: {وَالْفَجْرِ (١) وَلَيَالٍ عَشْرٍ (٢) وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ (٣) وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ (٤) هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ} [الفجر: ١ - ٥]، جواب القسم محذوف، فيكون المُقْسَم به متضمنًا للجواب، كيف يكون متضمنًا للجواب في هذه الجملة القسمية {وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ}؟ يعني أنكم قد ذُكِّرتم بهذا القرآن الذي من جملة ما ذُكِّر به أن الله واحد، ولهذا ذهب ابن القيم رحمه الله في كتابه "التبيان في أقسام القرآن" إلى أن القسم

=

=

أحيانًا لا يحتاج إلى ذكر الجواب، بل ولا يحتاج إلى تقديره؛ لأنه يعلم من السياق المُقْسَم عليه.

قال الله تعالى: {بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ (٢)} بَلِ: هنا للإضراب، والإضراب نوعان: إبطالي وانتقالي، فالإبطالي إبطال لما قد سبق كأنه مسحه وأتى ببدله، والانتقالي إقرار لما سبق لكن انتقل من شيء إلى آخر، وما قبل هذا الإضراب يبقى كما هو لا يبطل.

قال المصنف: [{بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا} من أهل مكة] وتقييد المصنف للذين كفروا بأهل مكة فيه نظر، والأولى الأخذ بالعموم، وسلوك هذه الطريق، أعني أن يُخَصَّ القرآن ببعض أفراد العام ليس بسديد ولا جيد، وذلك لأنه نقص في التفسير، إلا أن يقوم دليل على ذلك، فإذا قام دليل على ذلك وجب الأخذ بالدليل، أما إذا لم يقم دليل على ذلك فالواجب الأخذ بالعموم، لأنه أعمّ وأكثر معنىً، فالذين كفروا من أهل مكة وغيرهم إلى يوم القيامة {فِي عِزَّة} ولكنها ليست عزة غلبة كالعزة التي في قوله تعالى: {وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ} [المنافقون: ٨] وإنما هي عزة أنفه وكبرياء وعناد، ولهذا قال المصنف: [{فِي عِزَّةٍ} حميةٍ وتكبُّرٍ عن الإيمان] وهذه العزة مذمومة؛ لأنها عزة تمنع صاحبها من قبول الحق. وأما العزة التي هي عزة النصر فهي تأييد لصاحبها. وبينهما فرق كبير.

قوله: {فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ} يعني مشاقة، فالشقاق مصدر شاقّ، كقتال مصدر قاتل، والمعنى مشاقة لله ولرسوله. قال الله تعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللهَ وَرَسُولَهُ} [الحشر: ٤] وهنا قال المصنف: [خلاف وعداوة للنبي ﷺ]، وهذا أيضًا فيه نظر. لأنه خصّ الشقاق بالنبي ﷺ مع أن الكافرين يشاقون الله ورسوله، فهم في أنفة وكبرياء وحمية ومشاقة لله ورسوله. يعني أنهم يجُانبون ما أمر الله به ورسولُه، كأنما يكونون في شِقّ، وما جاء به الوحي في شِقٍّ آخر، وربما يقول قائل: إنهم أيضًا

=

كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوْا وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ (٣).

{كَمْ} أَيْ كَثِيرًا {أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلهمْ مِنْ قَرْن} أَيْ أُمَّة مِنْ الْأُمَم الْمَاضِيَة {فَنَادَوْا} حِين نُزُول الْعَذَاب بِهِمْ {وَلَاتَ حِين مَنَاص} أَيْ لَيْسَ الْحِين حِين فِرَار وَالتَّاء زَائِدَة وَالْجُمْلَة حَال مِنْ فَاعِل نَادَوْا أَيْ اسْتَغَاثُوا وَالْحَال أَنْ لَا مَهْرَب وَلَا مَنْجَى وَمَا اعْتَبَرَ بِهِمْ كُفَّار مَكَّة[1].

=

في شقاق فيما بينهم، ولا سيما اليهود، فإن الله تعالى قال: {تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى} [الحشر: ١٤].

(١) قوله تعالى: {كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ} [ص: ٣].

قال ابن كثير: "ثم خوفهم ما أهلك به الأمم المكذبة قبلهم بسبب مخالفتهم للرسل وتكذيبهم الكتب المنزلة من السماء فقال: {كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ} أي: من أمة مكذبة".

وللمفسرين في المراد بـ «القرن»، أقوال:

أحدها: أنه أربعون سنة، حكاه ابن سيرين والزهراوي عن النبي -ﷺ-.

الثاني: ثمانون سنة، رواه أبو صالح عن ابن عباس، واختاره الفراء.

الثالث: مائة سنة، قاله عبد الله بن بسر المازني، وأبو سلمة بن عبد الرحمن، وهو قول الجمهور.

الرابع: مائة وعشرون سنة، قاله زرارة بن أوفى، وإياس بن معاوية.

الخامس: عشرون سنة، حكاه الحسن البصري.

السادس: سبعون سنة، قاله قتادة، وذكره الفراء عن بعضهم.

السابع: أن القرن: أهل كل مدة كان فيها نبي، أو طبقة من العلماء، قلّت السنون، أو كثرت بدليل قوله -ﷺ-: «خيركم قرني» يعني: أصحابي «ثم الذين يلونهم» =

=

يعني: التابعين «ثم الذين يلونهم» يعني: الذين أخذوا عن التابعين. وهذا قول الزجاج.

فالقرن: "مقدار التوسط في أعمار أهل الزمان فهو في كل قوم على مقدار أعمالهم".

الثامن: أن القرن: أمد. قاله أبو مالك.

واشتقاق القرن: من الاقتران. وفي معنى ذلك «الاقتران» قولان:

أحدهما: أنه سمي قرنا، لأنه المقدار الذي هو أكثر ما يقترن فيه أهل ذلك الزمان في بقائهم. هذا اختيار الزجاج.

والثاني: أنه سمي قرنا، لأنه يقرن زمانا بزمان، وأمة بأمة، قاله ابن الأنباري.

وقال أبو عبيدة:"يرون أن أقل ما بين القرنين: ثلاثون سنة".

قوله تعالى: {فَنَادَوْا وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ} [ص: ٣]، أي:"فاستغاثوا حين جاءهم العذاب ونادوا بالتوبة، وليس الوقت وقت قَبول توبة، ولا وقت فرار وخلاص مما أصابهم".

قال ابن قتيبة:"أي: نادوا حين لا مهرب".

قال الطبري: يقول:"كثيرا أهلكنا من قبل هؤلاء المشركين من قريش الذين كذّبوا رسولنا محمدا ﷺ فيما جاءهم به من عندنا من الحقّ من الأمم الذين كانوا قبلهم، فسلكوا سبيلهم في تكذيب رسلهم فيما أتوهم به من عند الله، فعجوا إلى ربهم وضجوا واستغاثوا بالتوبة إليه، حين نزل بهم بأس الله وعاينوا به عذابه فرارا من عقابه، وهربا من أليم عذابه، وليس ذلك حين فرار ولا هرب من العذاب بالتوبة، وقد حَقَّت كلمة العذاب عليهم، وتابوا حين لا تنفعهم التوبة، واستقالوا في غير وقت الإقالة".

=

قال ابن كثير:"، {فَنَادَوْا} أي: حين جاءهم العذاب استغاثوا وجأروا إلى الله. وليس ذلك بمجد عنهم شيئا. كما قال تعالى: {فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ}] الأنبياء: ١٢ [أي: يهربون، {لا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ}] الأنبياء: ١٣] ".

وقوله تعالى: {فَنَادَوْا وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ} [ص: ٣]، يحتمل وجهين:

أحدهما: استغاثوا.

الثاني: دعوا.

قال ابن عباس:"نادوا والنداء حين لا ينفعهم".

عن التميمي عن ابن عباس، قوله:"{حين مناص}، قال: نادوا وليس بحين نزو ولا فرار".

قال الزجاج:"في التفسير: {لات حين نداء}، معناه: لات حين نداء ينجي".

والتاء من «لات» مفصولة من «الحاء»، وهي كذلك في المصحف، ومن وصلها بـ «الحاء»، وفيها وجهان:

أحدها: أنها بمعنى: «لا»، وهو قول أبي عبيدة.

الثاني: أنها بمعنى: ليس، ولا تعمل إلا في الحين خاصة. ذكره الأخفش، والفراء.

ومنه قول الشاعر:

تذكَّرَ حبّ ليلى لاتَ حينا... وأضحى الشيب قد قطعَ القرينَا

قال الفراء:"قَالَ الفراء: أقف عَلَى (لاتَ) بالتاء، وَالْكِسَائي يقف بالهاء".

وفي تفسير قوله تعالى: {فَنَادَوْا وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ} وجوه:

أحدها: وليس حين منجى، قاله زيد بن أسلم.

وقال قتادة:"فنادوا في غير نداء". وفي رواية:"نادوا حين لاحين نداء". قال النحاس: أي:"في غير نداء ينجي".

=

قال أبو عبيدة:"المناص: مصدر ناص ينوص، وهو المنجاة والفوت. قال عمرو بن شأى الأسديّ:

تذكّرت ليلى لات حين تذكر

وقال أبو النّجم:

آساد غيل حين لا مناص

أي: لا تحرك".

قال الزجاج:"قال أهل اللغة: ولات حين منجى ولا فوت".

الثاني: أنهم نادوا بالتوبة وليس حين توبة ولا ينفع العمل. قاله الحسن.

الثالث: ليس حين انقلاب. قاله عكرمة.

الرابع: وليس حين مَغاث، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس، ومنه قول علي -رضي الله عنه- في رجز له:

لأصبحنّ العاصي بن العاصي... سبعين ألفًا عاقِدي النواصي

قد جنبوا الخيل على الدلاصِ... آساد غيل حين لا مناص

الخامس: وليس حين زوال، رواه أبو قابوس عن ابن عباس، ومنه قول الشاعر:

فهم خشوع لدية لا مناص لهم... يضمهم مجلس يشفي من الصيد

السادس: ليس حين نزو ولا فرار، قاله ابن عباس-في رواية التميمي والعوفي-.

وروي من طريق أبي ظبيان، عن ابن عباس: " {ولات حين مناص}، قال: لا حين فرار".

قال الفراء: "يقول: لَيْسَ بحين فِرار. والنَوْص: التأخّر فِي كلام العرب، والبَوْص: التقدم وقد بُصْته."، وأنشد قول امريء القيس:

أَمِن ذكر ليلى إذ نَأَتكَ تَنُوص... وتَقْصُر عنها خُطوةً وتَبُوص

=

=

فجمع في هذا البيت بين «البوص» و «النوص»، فهو بالنون: التأخر، وبالباء: التقدم.

السابع: ليس بحين فرار ولا إجابة. قاله مجاهد.

الثامن: أن «النوص» بالنون: التقدم، و «البوص» بالباء: التأخر، وهو من الأضداد، وكانوا إذا أحسوا في الحرب بفشل قال بعضهم لبعض: مناص: أي: حملة واحدة، فينجو فيها من نجا ويهلك فيها من هلك، حكاه الكلبي.

قال الماوردي:"فصار تأويله على هذا الوجه ما قاله السدي: أنهم حين عاينوا الموت لم يستطيعوا فرارًا من العذاب ولا رجوعًا إلى التوبة".

قال النحاس-بعد ان ذكر بعض الاقوال السابقة-:"هذه الأقوال متقاربة، أي: ليس حين نداء منجي، والمعنى: ليس حين فوت".

قال العثيمين: قوله تعالى: {كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ} قال المصنف: [{كَمْ} أي: كثيرًا {أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ} أي: أمّة من الأمم الماضية] قوله: {كَمْ أَهْلَكْنَا} قدره المصنف بقوله: كثيرًا، وعلى هذا تكون كم تكثيرية، وهي في محل نصب على أنها مفعول مقدم لـ {أَهْلَكْنَا} و {مِنْ قَبْلِهِمْ} متعلق بـ {أَهْلَكْنَا}، و {مِنْ قَرْنٍ} تمييز لـ {كَمْ}، لأن كم اسم مبهم تحتاج إلى تمييز، أي: إلى شيء يبينها ويميزها، فلو قيل: كم أهلكنا من قبلهم، لم يتبين الكلام، ماذا أهلك؟ فإذا قال: {مِنْ قَرْن}، تبين الكلام، ولهذا نقول: إن {مِنْ قَرْنٍ} تمييز لـ {كَمْ} مجرور بـ {مِنْ}.

{كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ} أي: من قبل الكفار الذين كانوا في عهد النبي ﷺ وقوله: {مِنْ قَرْنٍ} أي: من أمة. والمعنى أن الله أهلك كثيرًا من الأمم قبل هؤلاء، ومَن أهلك كثيرًا من الأمم قبل هؤلاء فإنه حَرِيّ أن يُهلك هؤلاء، لكن إهلاك الأمم السابقة كان بعذاب من الله، وإهلاك المكذبين لرسول الله ﷺ كان بأيدي

=

=

المؤمنين، فالحروب والقتال الذي وقع بينهم وبين الرسول ﷺ كان عذابًا لهؤلاء المكذبين، وكان على يدي النبي ﷺ وأصحابه، كما قال الله تعالى: {قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ (١٤) وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} [التوبة: ١٤ - ١٥] ولا شك أن عذاب الأعداء على يد النبي ﷺ وأصحابه أشفى لصدورهم مما لو كان العذاب من الله سبحانه وتعالى. وهذا شيء مشاهد. إذا كانت غلبة عدوك على يدك، كان ذلك أشفى لصدرك، وأحيا لنفسك وأقوى وأعز، مما لو أهلكه الله بعذاب من عنده. فلهذا كان هلاك المكذبين لرسول الله ﷺ على يد الرسول ﷺ وأصحابه.

قوله تعالى: {مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوْا}، الضمائر تعود على الألفاظ باعتبار لفظها، ويجوز أن تعود على الألفاظ باعتبار معناها. ألم تروا إلى قوله تعالى: {وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا} [الحجرات: ٩]، قال: {اقْتَتَلُوا} ولم يقل: اقتتلا، لو قال: اقتتلا لكان الضمير عائدًا على اللفظ {طَائِفَتَانِ}، ولما قال: {اقْتَتَلُوا} صار عائدًا على المعنى، لأن الطائفة جماعة. إذًا قوله: {فَنَادَوْا} أي: القرن، فأعاد الضمير عليها باعتبار المعنى.

وقوله: {فَنَادَوْا} يقول المصنف: [حين نزول العذاب بهم] ولكن نادوا مَنْ؟ هل المعنى نادى بعضهم بعضًا؟ يستغيث بعضهم ببعض، أو المعنى أنهم نادوا الله، أي: دعوه أن يغيثهم، أو المعنى أنه حصل منهم الأمران؟

القاعدة عندنا في التفسير متى كان اللفظ صالحًا لمعنيين فأكثر فإنه يحمل عليهما جميعًا. وعلى هذا يكون (نادوا) محذوف المفعول من أجل العموم، أي: أن بعضهم ينادي بعضًا: يا فلان أغثني أغثني، وكذلك ينادون الله، لأن الله يقول: {فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللهِ وَحْدَهُ} [غافر: ٨٤].

=

=

ولكن قال الله تعالى: {فَنَادَوْا وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ (٣)} لات: (لا) النافية زيدت عليها تاء التأنيث لتأنيث اللفظ، كما زيدت تاء التأنيث في "رُبَّتَ" وفي "ثُمَّتَ" لتأنيث اللفظ. تقول: رُبّ رجل لقيته، وتقول: رُبَّتَ رجل لقيته، وتقول: قام زيد ثمَّ قام عمرو، وتقول: قام زيد ثُمَّتَ قام عمرو. فإذًا هي (لا) النافية زيدت عليها تاء التأنيث، لتأنيث اللفظ فتصبح "لات"،و (لا) النافية تعمل عمل ليس، واسمها محذوف في هذه الآية، وخبرها: {حِينَ مَنَاصٍ} والتقدير: [أي: ليس الحينُ حينَ فرار] فسره المصنف بالمعنى، فعليه تكون "لا" بمعنى "ليس" واسمها محذوف تقديره الحينُ، وخبرها موجود، وهو قوله: {حِينَ مَنَاصٍ} والغالب أن خبر "لا" يكون زمانًا نحو: لات حين، ولات أوان، قال الشاعر.

نَدِمَ البغاةُ ولاتَ ساعةَ مَنْدَمِ ... والبغيُ مَرْتَعُ مبتغيه وَخيمُ

يعني وليست الساعةُ ساعةَ مَنْدَم.

وقوله: {مَنَاصٍ} المناص: الفرار والنجاة. يعني ليس الحينُ حينَ فرار ونجاة، لأنه بعد نزول العذاب لا ينفع نفس إيمانها. قال المصنف -رحمه الله تعالى-: [أي: ليس الحينُ حينَ فرار، والتاء زائدة لتأنيث اللفظ، والجملة حال من فاعل "نادوا"] وعلى هذا تكون في محل نصب؛ لأن الجملة الحالية دائمًا في محل نصب. يعني نادوا في حال لا مناص لهم مما نزل بهم، ولهذا قدّر المصنف: [أي: استغاثوا والحالُ أن لا مهربَ ولا منجى]. هذا ما قدّره المصنف في جملة {وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ} أي: أنها حالية، فتكون مقيدة بحال مناداتهم، ولكن يجوز أن تكون استئنافية، فنادوا، ثم يخبر الله عز وجل أن هذا الوقت ليس وقت مفر، والفرق بين قولنا استئنافية أو حالية: أنه إذا كانت حالية صارت قيدًا للمناداة. يعني نادوا في حال لا ينفعهم فيه النداء، وإذا كانت استئنافية تكون منفصلة من حيث القيدية عما

=

وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (٤).

{وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِر مِنْهُمْ} رَسُول مِنْ أَنْفُسهمْ يُنْذِرهُمْ وَيُخَوِّفهُمْ النَّار بَعْد الْبَعْث وَهُوَ النَّبِيّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ {وَقَالَ الْكَافِرُونَ} فيه وضع الظاهر موضع المضمر {هذا ساحر كذاب}[1].

=

قبلها، فيكون الله قد أخبر بأنهم نادوا، ثم أخبر بأنهم في حال ليسوا متمكنين من الفرار.

قال المصنف: [وما اعتبر بهم كفار مكة] وهذه الثمرة من ذكر أن الله أهلك قرونًا كثيرة فيما سبق، ومع هذا لم يعتبر بذلك أهل مكة، بل كذبوا الرسول ﷺ وآذوه وقالوا: إنه مجنون، وإنه ساحر، وإنه كذاب، وإنه شاعر، وإنه كاهن، وكل وصف ينفّر الناسَ عنه وصفوه به ﷺ، ولم يعتبروا بمن سبق، بل زادوا على هذا.

(١)قوله تعالى: {وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ} [ص: ٤].

قال الطبري: يقول:"وعجب هؤلاء المشركون من قريش أن جاءهم منذر ينذرهم بأس الله على كفرهم به من أنفسهم، ولم يأتهم ملك من السماء بذلك".

عن قتادة: " {وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ}، يعني: محمدا ﷺ".

قوله تعالى: {وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ} [ص: ٤]، أي:"وقالوا: إنه ليس رسولا بل هو كاذب في قوله، ساحر لقومه".

قال الطبري: " يقول: وقال المنكرون وحدانية الله: هذا، يعنون محمدا ﷺ، ساحر كذّاب".

قال ابن كثير:"أي: أزعم أن المعبود واحد لا إله إلا هو؟! أنكر المشركون ذلك – قبحهم الله تعالى – وتعجبوا من ترك الشرك بالله، فإنهم كانوا قد تلقوا عن آبائهم عبادة الأوثان وأشربته قلوبهم فلما دعاهم الرسول ﷺ إلى خلع ذلك من قلوبهم وإفراد الله بالوحدانية أعظموا ذلك وتعجبوا وقالوا: {أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ

=

=

هَـذَا لَـشَيْءٌ عُجَـابٌ وَانْطَلَـقَ الْمَـلأُ مِـنْهُمْ} وهـم سـادتهم وقـادتهم ورؤسـاؤهم وكـبراؤهم قـائلين: {[أن] امْـشُوا} أي: اسـتمروا علـى ديـنكم {وَاصْـبِرُوا عَلَـى آلِهَتِكُمْ} ولا تستجيبوا لما يدعوكم إليه محمد من التوحيد".

عن السديّ، قوله:" {سَاحِرٌ كَذَّابٌ}، يعني: محمدا ﷺ".

قال العثيمـين: قولـه تعـالى: {وَعَجِبُـوا أَنْ جَـاءَهُمْ مُنْـذِرٌ مِـنْهُمْ} العجـب يكـون لـه سببان: السبب الأول: الإنكار، والسبب الثاني: الاستحسان، يعني يقال: عجب من كذا، أي: استحسنه، وعجب من كذا، أي: أنكره، فهـو شـبيه بأفعـال الأضـداد، لأن في اللغة العربية كلماتٍ تدل على المعنى وضـده، تـسمى عنـد علمـاء العربيـة: الأضداد في اللغة.

فالعجب تارة يكون استحسانًا، وتارة يكون استنكارًا، فقول عائشة رضي الله عنها: كان النبيّ ﷺ يعجبه التيامن في تنعله وترجله. المراد بالإعجاب هنـا الاسـتحسان، وفي قولـه تعـالى: {وَعَجِبُـوا أَنْ جَـاءَهُمْ مُنْـذِرٌ} هـذا عجـب اسـتنكار وردٍّ، ولـيس عجب رضًا واستحسان، وهذا نظير قوله تعالى في سورة قَ: {بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ} [ق: ٢].

قوله: {وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ} أَنْ مصدرية على تقدير مِنْ، أي عجبوا مِنْ أن جاءهم، وقلنا: إنها مصدرية؛ لأن ما بعـدها يُحـوَّل إلـى مـصدر، أي عجبـوا مـن مجيء المنذر منهم، وقوله: {مُنْذِرٌ} المنذر: هو المخبر بالخبر للتخويـف، ولهـذا نقول: إن الإنذار خبر مقرون بتخويف، والنبي ﷺ كان منذرًا، وكان مبشرًا، ولكن الكفـار يليـق بحـالهم الإنـذار، قـال تعـالى: {لِيُنْـذِرَ بَأْسًـا شَـدِيدًا مِـنْ لَدُنْـهُ وَيُبَـشِّرَ الْمُـؤْمِنِينَ الَّـذِينَ يَعْمَلُـونَ الـصَّالِحَاتِ} [الكهـف: ٢] والتبـشير يكـون للمـؤمنين. وهنا قال: {وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ} لأن هـذا هـو اللائـق بحـالهم، وقولـه:

=

=

{مِّنهُم} نسبًا وجنسًا، فهو منهم جنسًا؛ لأنه بشر، ولم يُنزِل الله رسولًا على البشر من الملائكة. ونسبًا؛ لأنه من قريش فهو منهم جنسًا ونسبًا، ومع ذلك عجبوا.

قال المصنف: [رسولٌ من أنفسهم ينذرهم ويخوِّفهم النارَ بعد البعث] أي: بعد أن يبعثوا [وهو النبي ﷺ]، عجبوا عجب استنكار ورفض ورَدٍّ مع أنهم كانوا يصفون الرسول ﷺ بالصادق الأمين، ولما جاءهم بالرسالة صار كاذبًا خائنًا -والعياذ بالله- إذًا معاداتهم له ليس لشخصه، ولكن لِمَا جاء به.

قوله تعالى: {وَقَالَ الْكَافِرُونَ} فيه وَضْعُ الظاهر موضع المضمر، ويكون الكلام لو أُتِيَ بالمضمر، وعجبوا أن جاءهم منذر منهم، وقالوا: هذا ساحر كذاب، لكن قال: {وَقَالَ الْكَافِرُونَ} والفائدة من الإظهار في موضع الإضمار:

أولًا: تنبيه المخاطب، لأن الكلام إذا تغير نسقُه أوجب للسامع أن ينتبه بخلاف ما إذا كان على نسق واحد، فقد يأتيه النوم، لكن إذا اختلف انتبه.

ثانيًا: التسجيل على هؤلاء بالكفر لأنه لو قال: وقالوا هذا ساحر كذاب، لم نعرف حكمهم، أما إذا قال: {وَقَالَ الْكَافِرُونَ} عرفنا أنهم كافرون.

ثالثًا: أن الحامل لهم على هذا هو الكفر، فلا يبعد أن يأتي مِن غيرهم مثل ما أتى منهم، لأن العلة واحدة، فمتى وجدت هذه العلة حصل المعلول من أي شخص كان، فهذه فوائد الإظهار في مواضع الإضمار.

{وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (٤)} يشيرون إلى المنذر منهم، وهو الرسول ﷺ {سَاحِرٌ كَذَّابٌ} جمعوا بين وصفين ذميمين: ساحر؛ لأنه يسبي عقول الناس، وكذاب، لأن ما جاء به كذب غير مطابق للواقع، فصار الرسول عليه الصلاة والسلام الذي هو أصدق الخلق، صار عندهم كذابًا، ولم يقولوا: كاذبًا، لأن كذابًا تكون صفة للمتصف بصفة الكذب، كما تقول: نجار وحداد وما أشبه ذلك مما يكون صفة لازمة، فهم قالوا: إنه ساحر لقوة تأثيره على سامعه، فإن الرسول ﷺ

=

أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ (٥).

{أَجَعَلَ الْآلِهَة إِلَهًا وَاحِدًا} حَيْثُ قَالَ لَهُمْ قُولُوا لَا إِلَه إِلَّا الله أَيْ كَيْف يَسَع الْخَلْق كُلّهمْ إِلَه وَاحِد {إِنَّ هَذَا لَشَيْء عُجَاب} أَيْ عَجِيب.

وَانْطَلَقَ الْمَلأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ (٦).

{وَانْطَلَقَ الْمَلَأ مِنْهُمْ} مِنْ مَجْلِس اجْتِمَاعهمْ عِنْد أَبِي طَالِب وَسَمَاعهمْ فِيهِ مِنْ النَّبِيّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قُولُوا لَا إِلَه إِلَّا الله {أَنِ امْشُوا} يَقُول بَعْضهمْ لِبَعْضٍ امْشُوا {وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتكُمْ} أُثْبُتُوا عَلَى عِبَادَتهَا {إِنَّ هذا} المذكور من التوحيد {لَشَيْء يُرَاد} مِنَّا[1].

=

كان إذا سمع الناسُ قراءته تأثروا بها تأثرًا عظيمًا، وكانت النساء والصبيان يجتمعون إلى بيت الرسول ﷺ ليسمعوا قراءته، وكانوا يتأثرون بهذه القراءة، فكان كفار قريش يقولون: إن محمدًا سحر أبناءنا ونساءنا، وأنه ساحر، لقوة تأثيره فيهم، وكذاب، يعني أن ما جاء به فهو كذب لا حقيقة له. والكاذب هو المخبر بخلاف الواقع. فكل من أخبرك بخلاف الواقع فقد كذبك.

(١)قوله تعالى: {أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا} [ص: ٥].

قال الطبري:"يقول: وقال هؤلاء الكافرون الذين قالوا: محمد ساحر كذاب: أجعل محمد المعبودات كلها واحدا، يسمع دعاءنا جميعنا، ويعلم عبادة كل عابد عبدَه منا".

قال مقاتل:"يعني: وصف محمد الآلهة إلها واحدا".

قال ابن كثير:"أي: أزعم أن المعبود واحد لا إله إلا هو؟! أنكر المشركون ذلك - قبحهم الله تعالى - وتعجبوا من ترك الشرك بالله، فإنهم كانوا قد تلقوا عن آبائهم

=

=

عبادة الأوثان وأشربته قلوبهم فلما دعاهم الرسول ﷺ إلى خلع ذلك من قلوبهم وإفراد الله بالوحدانية أعظموا ذلك وتعجبوا".

قوله تعالى: {إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ} [ص: ٥]، أي:"إنَّ هذا الذي جاء به ودعا إليه لَشيء عجيب".

قال الطبري:"أي: إن هذا لشيء عجيب، وكان سبب قيل هؤلاء المشركين ما أخبر الله عنهم أنهم قالوه، من ذلك، أن رسول الله ﷺ قال لهم: «أسألكم أن تجيبوني إلى واحدة تدين لكم بها العرب، وتعطيكم بها الخراج العجم»، فقالوا: وما هي؟ فقال: «تقولون لا إله إلا الله»، فعند ذلك قالوا: {أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا} تعجبا منهم من ذلك ".

قال مقاتل:"إن هذا الذي يقول {لشيء عجاب}، يعنى: لأمر عجب، بلغة أزد شنوءة، أن تكون الآلهة واحدا".

قال قتادة:"عجب المشركون أن دُعوا إلى الله وحده، وقالوا: يسمع لحاجاتنا جميعا إله واحد! ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة".

قال ابن عباس:"لما مرض أبو طالب دخل عليه رهط من قريش فيهم أبو جهل بن هشام فقالوا: إن ابن أخيك يشتم آلهتنا، ويفعل ويفعل، ويقول ويقول، فلو بعثت إليه فنهيته؛ فبعث إليه، فجاء النبي ﷺ فدخل البيت، وبينهم وبين أبي طالب قدر مجلس رجل، قال: فخشي أبو جهل إن جلس إلى جنب أبي طالب أن يكون أرق له عليه، فوثب فجلس في ذلك المجلس، ولم يجد رسول الله ﷺ مجلسا قرب عمه، فجلس عند الباب، فقال له أبو طالب: أي ابن أخي، ما بال قومك يشكونك؟ يزعمون أنك تشتم آلهتهم، وتقول وتقول؛ قال: فأكثروا عليه القول، وتكلم رسول الله ﷺ فقال:"يا عَمّ إنّي أُرِيدهُمْ عَلى كَلِمَةٍ وَاحِدةٍ يَقُولُونَهَا، تَدِينُ لَهُمْ بِها العَرَبُ، وتُؤَدِّي إلَيْهِم بِها العَجَمُ الجِزْيَةَ"، ففزعوا لكلمته ولقوله، فقال

=

=

القوم: كلمة واحدة؟ نعم وأبيك عَشْرًا؛ فقالوا: وما هي؟ فقال أبو طالب: وأيّ كلمة هي يا ابن أخي؟ قال:"لا إلَـهَ إلا الله"؛ قال: فقاموا فزِعين ينفضون ثيابهم، وهم يقولون: {أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ}، قال: ونزلت من هذا الموضع إلى قوله {لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ}. -اللفظ لأبي كريب-".

قوله تعالى: {وَانْطَلَقَ الْمَلأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ} [ص: ٦]، أي:"وانطلق رؤساء القوم وكبراؤهم يحرِّضون قومهم على الاستمرار على الشرك والصبر على تعدد الآلهة".

قال الطبري: يقول:"وانطلق الأشراف من هؤلاء الكافرين من قريش، القائلين: {أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا} بأن امضُوا فاصبروا على دينكم وعبادة آلهتكم، وذُكر أن قائل ذلك كان عُقْبَة بن أبي مُعيط ".

قال ابن كثير:"{وَانْطَلَقَ الْمَلأُ مِنْهُمْ}، وهم سادتهم وقادتهم ورؤساؤهم وكبراؤهم قائلين: {أن امْشُوا}، أي: استمروا على دينكم {وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ} ولا تستجيبوا لما يدعوكم إليه محمد من التوحيد".

عن مجاهد: " {وَانْطَلَقَ الْمَلأُ مِنْهُمْ}، قال: عقبة بن أبى معيط".

عن ابن عباس: قوله:"{وَانْطَلَقَ الْمَلأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ}، قال: نزلت حين انطلق أشراف قريش إلى أبي طالب فكلموه في النبي ﷺ".

وفي قراءة عبد الله: «وَانْطَلَقَ الْمَلأُ مِنْهُمْ يَمْشُونَ أَنِ اصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ» ".

قال العثيمين: قوله تعالى: {أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا} هذا مصب الإنكار. هذا الاستفهام يحمل معنيين:

المعنى الأول: التعجب الاستنكاري.

=

والثاني: الإنكار البليغ على رسول الله ﷺ، حيث جعل الآلهة إلهًا واحدًا. هنا قال: {أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا} جعل نصبت مفعولين: الأول: الآلهة، والثاني: إلهًا واحدًا. يعني أصيّر محمد الآلهة إلهًا واحدًا! وهم يعبدون آلهة متعددة: اللات والعُزَّى ومناة وهبل وغيرها من الأصنام. كيف يأتي محمد ويقول: ليس هناك آلهة إلا الله. هذا عندهم من أكبر الكذب، حيث قال لهم: "قولوا: لا إله إلا الله" أي: كيف يسع الخلق كلّهم إلهٌ واحد؟ وهذا من جهلهم وغباوتهم أن ينكروا كون الآلهة إلهًا واحدًا، فنقول لهم: من الخالق؟ وكم؟ يقولون: الخالق هو الله؟ وإنه واحد. فإذا كان الخالق هو الله، وهو واحد كما تؤمنون به، فإنه لا غرابة أن يكون الإله هو الله وهو واحد، ومن وسع الخَلْقَ خَلْقًا وسعهم تعبُّدًا، فإذا كانت الآلهة لم تخلق شيئًا بإقراركم، فكيف تستحق أن تكون آلهة، وإذا كان يمكن انحصار الخلق في واحد، فإنه يمكن أن تنحصر العبادة في واحد، ولهذا قال: {أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ (٥)} إن هذا: المشار إليه جَعْله الآلهة إلهًا واحدًا {لَشَيْءٌ عُجَابٌ} أي: عجيب، لكن كلمة عجاب أبلغ من كلمة عجيب، لأنها تدل على المبالغة، أي: لا شيء يتعجب منه الإنسان عجبًا عظيمًا كثيرًا، ولهذا عدلوا عن عجيب إلى عجاب {إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ (٥)}.

قال الله تعالى: {وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ} لم يذكر مكان الانطلاق؛ ليعم كل مكان يجتمعون فيه ويذكرون مثل هذا الشيء، فكلما اجتمعوا في مكان وتذاكروا فيما بينهم ما جاء به الرسول ﷺ من التوحيد، انطلقوا من هذا المكان وهم يتواصون بالباطل والصبر عليه، ولهذا قال: {وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ} والملأ هم الأشراف والكبراء والوجهاء، وهم الذين كانوا يقابلون الرسل بالردّ والرفض خوفًا على مكانتهم من أن تزول باتباع الرسل.

=

ولو تأملتم القرآن لوجدتم أن الذين يقومون في وجوه الرسل هم الملأ والأشراف. أما الضعفاء من النساء والأولاد والفقراء فهم الذين يكونون أول من ينقاد للرسل.

وأما قول المصنف: [{وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ} من مجلس اجتماعهم عند أبي طالب وسماعهم فيه من النبي ﷺ: "قولوا: لا إله إلا الله"] فهذا تقييد لمطلق، وقد ذكرنا أن تفسير القرآن بما هو أخص تفسير قاصر؛ لأنه يقصر المعنى المطلق على هذا المعنى المقيد، أو المعنى العامّ على المعنى الخاصّ، وهذا نقص بلا شكّ، إلا إذا قام الدليل على ذلك فليتبع الدليل.

فقوله تعالى: {الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ} [آل عمران: ١٧٣] هذا عامّ، ولكن إذا طبقنا هذا الكلام على الواقع وجدنا أن المرادَ بالناس الخاصّ. {قَالَ لَهُمُ النَّاسُ} القائل واحد {إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ} أيضًا ليس كل الناس قد جمعوا لرسول الله ﷺ، الذين لم تبلغهم الدعوة لم يجمعوا له، فيكون تفسيرنا الناس بخاصٍّ في هذه الآية، تفسيرًا دلّ عليه الواقع، أما إذا لم يكن دليل فإن الواجب إبقاء القرآن على عمومه إنْ كان من العامّ، وعلى إطلاقه إنْ كان من المطلق.

هنا نقول: إن المصنف رحمه الله جعل الانطلاق من مجلس خاصٍّ، وهو المجلس الذي اجتمعوا فيه مع رسول الله ﷺ عند أبي طالب حين قال: "قولوا: لا إله إلا الله" ولكن الأولى أن نجعله عامًّا يشمل هذا المجلس وغيره.

قوله تعالى: {أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ} أن امشوا واصبروا هل المراد هنا المشي بالقدم؟ أو المراد المشي على الطريقة؟ بمعنى سيروا على طريقتكم واصبروا على آلهتكم، من نظر إلى الانطلاق، {وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ} قال: إن المراد بذلك المشي بالقدم، بمعنى أنهم إذا انطلقوا حثَّ بعضهم بعضًا على المشي والسير؛ لئلا يعودوا فيعرِّجوا على ما انطلقوا منه، كأنهم إنما ينطلقون

=

مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ (٧).

{مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ} أَيْ مِلَّةِ عِيسَى {إِنْ} مَا {هَذَا إِلَّا اخْتِلَاق} كذب.

=

فرارًا، فيوصي بعضهم بعضًا بالمشي. وإذا نظرنا إلى المعنى أو إلى عموم أحوالهم قلنا: إن المراد بذلك المشي على الطريقة، يعني سيروا على طريقتكم ولا يهمنكم أحد.

قوله تعالى: {وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ} يعني: احبسوا أنفسكم عليها لا تحيدوا عنها. وهذا من باب التواصي بالباطل، يقول بعضهم لبعض: امشوا واصبروا على آلهتكم واثبتوا على عبادتها. إن هذا المذكور من التوحيد لشيء يراد {وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ} يعني اثبتوا عليها في عبادتها، والدفاع عنها، وعدم قبول كل شيء يبطلها. اصبروا {إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ} هذا المشار إليه، ما جاء به النبي ﷺ من التوحيد.

{لَشَيْءٌ يُرَادُ} أي: يريده مَن جاء به، وهذا يدل على صدق الرسول ﷺ. معناه أن هذا الرجل قال قولًا يريده، فهو جادّ في قوله، والشيء الذي يراد لا بد أن يسعى مريدُه ليحققه، بخلاف الإنسان الذي يقول القول باللسان لا بالقلب، ولهذا تجد الذي يقول القول بلسانه وقلبه، يصمم ويعزم على أن ينفذ ما قال. لكن الذي لا يريد يكون قوله بلسانه سطحيًا، فقولهم: {إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ} أي يريده قائله وهو النبي عليه الصلاة والسلام، وإذا صدر القول عن إرادة فهذا يعني أن صاحبه مصمم عليه، وعلى غلبته، وأن يكون هذا القول هو القول السائد الذي يمشي عليه الناس، بخلاف مَن قال قولًا لا يريده، مثل أن يقول القول مجاملة، أو من أجل إمضاء الوقت أو ما شابه ذلك. فإنه لا يكون عنده العزم الصادق على تنفيذ ما قاله.

أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ (٨).

{أَأُنْزِلَ} بِتَحْقِيقِ الْهَمْزَتَيْنِ وَتَسْهِيل الثَّانِيَة وَإِدْخَال أَلِف بَيْنهمَا عَلَى الْوَجْهَيْنِ وَتَرْكه {عَلَيْهِ} عَلَى مُحَمَّد {الذِّكْر} أَيْ الْقُرْآن {مِنْ بَيْنِنَا} وَلَيْسَ بِأَكْبَرِنَا ولا أشرفنا أي لم ينزل عليه قال تعالى {بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي} وَحْيِي أَيْ الْقُرْآن حَيْثُ كَذَّبُوا الْجَائِي بِهِ {بَلْ لَمَّا} لَمْ {يَذُوقُوا عَذَاب} وَلَوْ ذَاقُوهُ لَصَدَّقُوا النَّبِيّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا جَاءَ بِهِ وَلَا يَنْفَعهُمْ التَّصْدِيق حِينَئِذٍ[1].

(١)قوله تعالى: {مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ} [ص: ٧].

قال ابن كثير:"أي: ما سمعنا بهذا الذي يدعونا إليه محمد من التوحيد في الملة الآخرة".

وفي قوله تعالى: {مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ} [ص: ٧]، وجوه:

أحدها: معناه: ما سمعنا بهذا الذي يدعونا إليه محمد من البراءة من جميع الآلهة إلا من الله تعالى ذكره، وبهذا الكتاب الذي جاء به في الملة النصرانية، لأنها كانت آخر الملل، قاله ابن عباس، ومجاهد-في رواية-، والسدي، ومحمد بن كعب.

قال ابن عباس:"فقالوا: لو كان هذا القرآن حقا أخبرتنا به النصارى".

قال مقاتل:"لأن النصارى يزعمون أن مع الله عيسى بن مريم".

قال ابن زيد:"الملة الآخرة: الدين الآخر. والملة: الدين".

الثاني: فيما بين عيسى ومحمد عليهما السلام، قاله الحكم.

الثالث: في ملة قريش، قاله مجاهد.

الرابع: في ديننا هذا، ولا في زماننا قَطّ. قاله قتادة.

=

=

الخامس: معناه: أننا ما سمعنا أنه يخرج ذلك في زماننا، قاله الحسن.

قوله تعالى: {إِنَّ هَـذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ} [ص: ٦]، أي:"ويقولون إن ما جاء به هذا الرسول شيء مدبَّر يقصد منه الرئاسة والسيادة".

قال الطبري:"أي: إن هذا القول الذي يقول محمد، ويدعونا إليه، من قول لا إله إلا الله، شيء يريده منا محمد يطلب به الاستعلاء علينا، وأن نكون له فيه أتباعا ولسنا مجيبيه إلى ذلك".

قال السمعاني:"أي: أمر محمد شيء، يراد بالناس فيه الشر والهلاك".

قوله تعالى: {إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ} [ص: ٧]، أي:"ما هذا إلا كذب وافتراء".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره مخبرا عن قيل هؤلاء المشركين في القرآن: ما هذا القرآن إلا اختلاق: أي كذب اختلقه محمد وتخرَّصه".

عن ابن عباس، قوله: " {إِنْ هَذَا إِلا اخْتِلاقٌ}، يقول: تخريص".

عن مجاهد، قوله:"{إِنْ هَذَا إِلا اخْتِلاقٌ}، قال: كذب".

قال ابن زيد:"قالوا: إن هذا إلا كذب".

قال قتادة:"إلا شيء تخْلُقه".

قال السدي:"اختلقه محمد ﷺ".

قوله تعالى: {أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا} [ص: ٨].

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره مخبرا عن قيل هؤلاء المشركين من قريش: أأنزل على محمد الذكر من بيننا فخصّ به، وليس بأشرف منا حسبا".

قال مقاتل:"قال الوليد: {أأنزل عليه الذكر}، يعني: النبي- ﷺ- {من بيننا}، ونحن أكبر سنا وأعظم شرفا".

قال السمعاني:"معناه: أن أهل مكة قالوا: أأنزل على محمد القرآن من بيننا، وليس بأفضلنا ولا أشرفنا؟ ".

=

قال ابن كثير:"يعني: أنهم يستبعدون تخصيصه بإنزال القرآن عليه من بينهم كلهم كما قالوا في الآية الأخرى: {لَوْلا نزلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ} [الزخرف: ٣١] قال الله تعالى: {أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ} [الزخرف: ٣٢] ".

قوله تعالى: {بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي} [ص: ٨]، أي:"بل هم في ريب من وحيي إليك -أيها الرسول- وإرسالي لك".

قال السمعاني:"أي: مما أنزلت".

قال الطبري: يقول:"ما بهؤلاء المشركين أن لا يكونوا أهل علم بأن محمدا صادق، ولكنهم في شك من وحينا إليه، وفي هذا القرآن الذي أنزلناه إليه أنه من عندنا".

قوله تعالى: {بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ} [ص: ٨]، أي:"بل قالوا ذلك؛ لأنهم لم يذوقوا عذاب الله، فلو ذاقوا عذابه لما تجرؤوا على ما قالوا".

قال السمعاني:"أي: لم يذوقوا عذابي وسيذقونه".

قال الطبري:"يقول: بل لم ينزل بهم بأسنا، فيذوقوا وبال تكذيبهم محمدا، وشكهم في تنزيلنا هذا القرآن عليه، ولو ذاقوا العذاب على ذلك علموا وأيقنوا حقيقة ما هم به مكذِّبون، حين لا ينفعهم علمهم".

قال ابن كثير:"أي: إنما يقولون هذا لأنهم ما ذاقوا إلى حين قولهم ذلك عذاب الله ونقمته سيعلمون غب ما قالوا، وما كذبوا به يوم يُدَعّون إلى نار جهنم دَعّا".

قال العثيمين: ثم قال الله تبارك وتعالى حاكيًا عن قريش ما كانوا يتواصون به من الصبر على آلهتهم، والثبات عليها، نقل عنهم من جملة كلامهم: {مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ} ما سمعنا بهذا، والمشار إليه التوحيد، أي: أنه لا إله إلا الله {فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ} الملة: هي الدين الذي يكون عليه الإنسان، كما قال الله تعالى: {ثُمَّ

=

أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا} [النحل: ١٢٣]، وتطلق الملة على الحقّ وعلى الباطل، فالكفار على ملةٍ والمسلمين على ملة، وفي كلام أهل الفقه في الفرائض: لا يتوارث أهل مِلَّتين، وجاء في ذلك حديث عن رسول الله ﷺ، فالملة هي الدين الذي يكون عليه المَرْء من عقائد وعبادات وأخلاق.

وقوله: {فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ} قال المصنف: [أي: ملة عيسى عليه السلام] لأن عيسى هو آخر الرسل قبل محمد ﷺ، لم يكن بينه وبين محمد ﷺ نبي، وما قيل عن نبوة بعض العرب مثل خالد بن سنان أو غيره فإنه لا صحة له، وذلك لأن العرب ليس فيهم رسول إلا إسماعيل عليه الصلاة والسلام ومحمد ﷺ، وما سوى ذلك فكل ما يُدَّعَى من أن في العرب رسولًا أو نبيًا فهو كذب.

يقول: {فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ} أي: ملة عيسى عليه الصلاة والسلام، وذلك أن الذي سمعوه في ملة عيسى هو أن الله ثالث ثلاثة، وهذا ليس بتوحيد. والعجب من ضلال النصارى حيث يقولون: إننا نوحّد الله، وهم يقولون: إن الله ثالث ثلاثة، فأين التوحيد في ثلاثة، لا يمكن أن تجعل الثلاثة واحدًا؟! ولهذا يعتبر هذا من أضل ما ضل فيه النصارى، وهم كما هو معلوم ضالون، ولكن هذا من أشد ما يكون من الضلال. كيف تقول: إنك موحد وأنت تقول: إن الله ثالث ثلاثة: مريم وابنها والله، فالعرب الذين في عهد الرسول ﷺ ما سمعوا في ملة عيسى توحيدًا، وإنما سمعوا فيها تثليثًا، فكأنهم يقولون: أنت يا محمد أتيت بملة لم تكن لمن قبلك، فالذين من قبلك آخرهم الملة النصرانية، وهم لا يقولون بالتوحيد.

{إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ (٧)}. إنْ يقول المصنف: [ما] وعلى هذا فهي نافية، وعلامة "إن" النافية أن يأتي بعدها الإثبات بـ "إلَّا" أو نحوها، وهنا أتى بعدها الإثبات بـ "إلَّا" {إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ (٧)} أي: ما هذا إلا اختلاق، و"إن" تأتي في اللغة العربية على أوجه: نافية، وزائدة، وشرطية، ومخففة من الثقيلة، فهنا "إنْ" نافية

=

=

وفي قولك: إن أكرمتني أكرمتك؛ شرطية، وفي قوله تعالى: {وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا} [الإسراء: ٥٢] نافية: إذا أثبت "إلَّا" فهي نافية. وفي قول الشاعر:

أنا ابنُ أُباةِ الضيمِ من آلِ مالكٍ ... وإنْ مالكٌ كانت كرامَ المعادنِ

إنْ مالكٌ مخففة من الثقيلة، وفي قول الشاعر:

بني غُدانة ما إنْ أنتُمُ ذهبًا ... ولا صريفًا ولكن أنتُمُ الخزفُ

قال المصنف هنا: [{إِنْ}: ما {هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ (٧)}: كذب] هذا المشار إليه ما جاء به الرسول ﷺ من التوحيد، وقوله: {إِلَّا اخْتِلَاقٌ} أي إلاّ كذب، يقال: اختلق الكلام، أي: افتراه وكذبه، وهذا بناء مبني على قوله فيما سبق {وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (٤)}، والكذاب لا يأتي إلا بالكذب والاختلاق، ولما أنكروا التوحيد أنكروا الرسالة أيضًا فقالوا: {أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا} هذا الاستفهام للنفي لكنه أتى بصيغة الاستفهام مبالغة في نفيه، كأنهم يتعجبون كيف ينزل عليه الذكر من بيننا ولم ينزل على أحد غيره؟! وهذا كقوله تعالى حكاية لقولهم: {وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ} [الزخرف: ٣١] القريتين: هما مكة والطائف.

يقولون: لولا نزل هذا القرآن على رجل من الأكابر والأشراف، لا على هذا الغلام الذي يعتبر من أصغر القوم، فكيف ينزل عليه الذكر من بيننا.

وقوله: {أَأُنْزِلَ} ذكر المصنف فيها قراءات قال: [بتحقيق الهمزتين]: أي: همزة الاستفهام وهمزة الفعل، والتحقيق أن تقرأه هكذا {أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ} [وتسهيل الثانية] تسهيل الثانية بأن تمر عليها مرًا فلا يظهر أنك حذفتها ولا أنك بيَّنتها، [وإدخال ألف بينهما على الوجهين] أي: وجهي التحقيق والتسهيل. ألف بينهما، أي: بين الهمزتين فتقول على قراءة التحقيق {أَأُنْزِلَ} وعلى قراءة التسهيل

=

=

{أَأُنْزِلَ} فالقراءات إذن أربع: تحقيق الهمزتين بلا ألف، وتحقيق الهمزتين بألف، وتسهيل الثانية بدون ألف، وتسهيلها مع ألف.

{أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ} عليه: على محمد ﷺ الذي جاء بهذا القرآن الذي يذكّرهم به.

{الذِّكْرُ}: القرآن. وهذا إقرار منهم بأن القرآن ذكر، وإن كان يحتمل أن يكونوا قالوه على سبيل الاستهزاء والتهكم، وأنهم لا يؤمنون بأنه ذكر، وأيًّا كان فالمقصود بذلك نفي أن يكون محمد ﷺ هو الرسول.

يقول المصنف: {مِنْ بَيْنِنَا} وليس بأكبرنا ولا أشرفنا] ويريدون أن يكون نزول القرآن على أكبرهم وأشرفهم، ولكن الذي نتيقن أنه لو نزل على أشرفهم وأكبرهم لكذبوا أيضًا، لكذبوا كما قال تعالى: {وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ (٨) وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ} [الأنعام: ٨ – ٩] فهم معاندون لا يريدون الحق، ونعلم أنه لو نزل على غير محمد ﷺ لطلبوا أن يكون نزل على غيره؛ لأنهم لم ينفوا الرسالة حقيقة من أجل شخصية محمد ﷺ، فإن شخصيته عندهم من أفضل الشخصيات، وأقواها أمانة، وأحسنها خلقًا، ولكن يقولون هذا على سبيل العناد والمكابرة، فهو كقولهم لما حدثوا بالبعث: {قَالُوا ائْتُوا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [الجاثية: ٢٥] وهذا مكابرة منهم، لأنهم لم يُحَدَّثوا بالبعث الآن، وإنما حُدِّثوا بالبعث يوم القيامة، فلم يأتِ الموعد الذي حُدِّد للبعث حتى يتحدوا بهذا التحدي فيقال لهم: إن الله يميتكم ثم يحييكم ثم يجمعكم إلى يوم القيامة، والرسل ما قالت لهم: إنكم تبعثون الآن حتى تقولوا: هاتوا آبائنا، وإنما يقولون: ستبعثون يوم القيامة، وسيأتي الله بآبائهم ومن سبقهم.

وقول المصنف رحمه الله: [ليس بأكبرنا ولا أشرفنا]، أما قولهم: ليس بأكبرنا، إن كانوا قالوه فهم صادقون، فالرسول ليس بأكبرهم سنًا، فيهم من يكبره سِنًّا، وأما

=

=

قولهم: ولا أشرفنا، فهم كاذبون، فإن محمدًا ﷺ أشرف الخلق. قال النبي ﷺ: "إن الله اصطفى بني إسماعيل، واصطفى من بني إسماعيل كِنانة، واصطفى من كنانة قريشًا، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم"، وقال تعالى: {اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ} [الأنعام: ١٢٤] فلم يجعل رسالته إلا في أحق الناس بها، وأجدرهم بها، وأولاهم بها.

يقول المصنف: [أي: لم يُنزل عليه] هذا تفسير للاستفهام في قولهم: {أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا} أي: أن الاستفهام للنفي، لكنه جاء على سبيل الاستفهام؛ للتعجب والاستبعاد من أن يُنزل عليه الذكرُ من بينهم.

قال الله تعالى: {بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي} بل: إغراء لإبطال ما ادعوه من كونهم يريدون أن ينزل القرآن على أشرفهم. يقول: هم في شك من ذكري، فكيف يقولون: لو نزل على أشرفنا، لو نزل على غير محمد، والشَّاكُّ في الأصل لا يطلب الفرع أصلًا، فإذا كانوا في شك من نزول هذا الذكر، بقطع النظر عن كونه من محمد ﷺ فكيف يقولون: {أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا} وعلى هذا فقولهم ليس مبني على أصل. يعني أنهم لم يؤمنوا بهذا الذكر أصلًا فضلًا عن أن يكون أنزل على محمد أو غيره.

{مِنْ ذِكْرِي} قال المصنف: [وَحْيِيْ، أي: القرآن، حيث كذبوا الجائي به]، فإن من كذب من جاء بالشيء فإنه منكر للشيء؛ لأنه لو قال لك قائل: قَدِم فلان اليوم، فقلت: أنت كاذب، هل تكون مؤمنًا بقدومه؟ لا، لا تكون مؤمنًا بقدومه، وكيف تكون مؤمنًا بقدومه وهو لم يأتك إلا من هذا الطريق الذي زعمت أن صاحبها كذاب، ولهذا إذا كان هذا الذكر لم يأتِ إلا عن طريق محمد ﷺ، وقالوا: إنه كاذب، وإنه ليس برسول، وليس له حق في الرسالة؛ لأنه يوجد مَن هو أحق منه،

=

=

فكيف تقولون بأنه ذِكْر. إذًا هم في شك من هذا الذكر، وهل هذا الشك حقيقة أو على سبيل العناد؟

الظاهر -والله أعلم- أنه على سبيل العناد، لكن منهم من يشك لقوة الدعاية المضادة، ولا سيما إذا جاءت من أكابر، فسوف يلحق العامة شك من هذا القول.

وقوله: {مِنْ ذِكْرِي} أي: من الذكر الذي أنزلتُ، وهو القرآن، والشك هو التردد وعدم الجزم.

وقد قيل: إن الإدراك ينقسم إلى خمسة أقسام: إدراك الشيء على ما هو عليه إدراكًا جازمًا، وإدراك الشيء على خلاف ما هو عليه، وإدراك الشيء برجحان، وإدراك الشيء بمرجوحية، وإدراك الشيء على السواء، فهذه خمسة أقسام.

فإدراك الشيء على ما هو عليه إدراكًا جازمًا يسمى علمًا، كإدراكنا أن الواحد نصف الاثنين، هذا علم. وإدراك الشيء على خلاف ما هو عليه جهل مركب، مثل: أن تدرك أن غزوة بدر مثلًا في السنة الثالثة للهجرة، هذا نسميه جهلًا مركبًا، وعدم إدراكه بالكلية هذا جهل بسيط، وإدراك الشيء مع رجحان ظن، وإدراكه مع المرجوحية وهم، وإدراكه مع التساوي شك، فهذه ستة أقسام. إدراكه على ما هو عليه، وعلى خلاف ما هو عليه، وعدم الإدراك بالكلية، والإدراك برجحان، والإدراك بمرجوحية، والإدراك بالتساوي.

والشك أحيانًا يراد به التساوي، وأحيانًا يطلق على الراجح والمرجوح والمساوي، وهذا ما يكون في كلام الفقهاء عندما يتحدثون عن الشك في الحدث أو الشك في نجاسة الطاهر، فإنهم يريدون الشك الراجح والمرجوح والمساوي، أي: بمعنى أنه إذا شككت في نجاسة الماء الطاهر ولو غلب على ظنك أنه نجس فهو طاهر، وإذا شككت هل أحدثتَ، ولو غلب على ظنك أنك أحدثت فأنت

=

طاهر، وعللوا ذلك بأن الرسول ﷺ قال: "لا ينصرف حتى يسمع صوتًا أو يجد ريحًا" يعني حتى يتيقن ولا عبرة بالظن.

يقول الله تعالى: {بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ (٨)} بل: للإضراب الانتقالي لا الإبطالي {بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ} قال المصنف: أي: [لم] وهذا تفسير ببعض المعنى؛ لأن "لما" و"لم " تشتركان في النفي لكنهما تختلفان فيما عداه، لأن "لم" لنفي غير المتوقع، و"لما" لنفي المتوقع القريب، فإذا قلت: لم يقم زيد، فهذا نفي لقيامه على وجه لا يتوقع منه القيام، وإذا قلت: لما يقم زيد، فهو نفي لقيامه على وجه يتوقع منه القيام عن قرب، وعلى هذا فقوله: {لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ} أي: لم يذوقوه ولكن سيذوقونه قريبًا.

قالوا: و"لما" تأتي على أوجه: تأتي نافية فتجزم الفعل المضارع كما تجزمه "لم"، وتأتي بمعنى حين، وتأتي شرطية، وتأتي استثنائية. هذه أربعة أوجه. تأتي نافية كنفي "لم" لكنها تختلف عنها بأن منفي "لم" لا يتوقع، ومنفيها يتوقع قريبًا، مثل هذه الآية، وتأتي شرطية كقوله تعالى: {فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا} [هود: ٨٢]، وتأتي استثنائية كقوله تعالى: {إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ} [الطارق: ٤] أي: ما كل نفس إلا عليها حافظ، وتأتي بمعنى "حين" فتقول: قدمت البلد لما طلعت الشمس، أي: حين طلعت الشمس. قال: {بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ (٨)} يذوقوا أصلها يذوقون لكن حذفت النون للجزم، لأن "لما" من حروف الجزم.

وقوله: {عَذَابِ} قد يشكل على طالب العلم، وهو أن الفعل واقع عليه، وهو مع ذلك لم يُنصَب، أي لم يقل: بل لما يذوقوا عذابًا، فكيف توجيه ذلك؟ كيف لم ينصب {عَذَابِ} مع أن الفعل واقع عليها؟ والجواب عن ذلك أن نقول: إن {عَذَابِ} أصلها: عذابي بالياء، والمضاف إلى ياء المتكلم تقدر عليه الحركات، ولذلك لا بد أنه يكسر من أجل مناسبة الياء، فتكون الحركات مقدرة عليه، وعلى =

أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ (٩).

{أَمْ عِنْدهمْ خَزَائِن رَحْمَة رَبّك الْعَزِيز} الْغَالِب {الْوَهَّاب} مِنْ النُّبُوَّة وَغَيْرهَا فَيُعْطُونَهَا مَنْ شَاءُوا.

أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ (١٠).

{أَمْ لَهُمْ مُلْك السَّمَاوَات وَالْأَرْض وَمَا بَيْنهمَا} إنْ زَعَمُوا ذَلِكَ {فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَاب} الْمُوَصِّلَة إلَى السَّمَاء فَيَأْتُوا بِالْوَحْيِ فَيَخُصُّوا بِهِ مَنْ شَاءُوا وَأَمْ فِي الْمَوْضِعَيْنِ بِمَعْنَى هَمْزَة الْإِنْكَار(١).

=

هذا فنقول: عذاب مفعول يذوق، منصوب بفتحة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم المحذوفة تخفيفًا، منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة المناسبة، والياء هنا حذفت للتخفيف، وهذا كثير في القرآن واللغة العربية أن تحذف ياء المتكلم للتخفيف، كما في قوله تعالى: {الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ} [الرعد: ٩] {وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ} [الرعد: ١١] والتقدير: المتعالي، ومن والي.

وقوله: {بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ (٨)} العذاب ليس مطعومًا يذاق، ولكن الإصابة به ذوق، وذوق كل شيء بحسبه، فإذا أعطيتك قطعة لحم ومضغتها فهذا ذوق، وإذا ضربتك وأحسست بالضرب فهذا ذوق، فذوق كل شيء بحسبه، وليس ذوق العذاب كذوق الطعام والشراب، بل هو ذوق مناسب له {لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ}.

قال المصنف: [ولو ذاقوه لصدَّقوا النبيَّ ﷺ فيما جاء به] ولكن هذا التصديق لا ينفعهم، لأنه إذا صدّق الجاحد بعد نزول العذاب به فإن ذلك لا ينفعه، قال الله تعالى: {فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ (٨٤) فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا} [غافر: ٨٤ - ٨٥].

(١)قوله تعالى: {أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ } [ص: ٩].

=

=

قال قتادة:"لا، واللهِ، ما عندهم منها شيء، ولكن الله يختص برحمته من يشاء".
عن السُّدِّيّ: " {أَمْ عِنْدَهُمْ خَزائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ}، يعني: مفاتح النبوة، فيعطوا النبوة من شاؤوا، ويمنعوا مَن شاؤوا، أي: ليس ذلك عندهم".
قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: أم عند هؤلاء المشركين المنكرين وحي الله إلى محمد خزائن رحمة ربك، يعنى مفاتيح رحمة ربك يا محمد، العزيز في سلطانه، الوهاب لمن يشاء من خلقه، ما يشاء من ملك وسلطان ونبوة، فيمنعوك يا محمد، ما من الله به عليك من الكرامة، وفضَّلك به من الرسالة".
قال السمعاني:"معناه: أعندهم خزائن رحمة ربك؟ و «الخزائن»: هي البيوت التي تعد فيها الأشياء النفيسة. وحقيقة المعنى: أنه ليس عندهم خزائن الرحمة والنبوة، فيعطونها من شاءوا، ويمنعونها من شاءوا، وقوله: {العزيز الوهاب} العزيز: هو المنيع في ملكه، الغالب على خلقه، الوهاب: المعطي لخلقه".
قال الزمخشري:"يعنى: ما هم بما لكي خزائن الرحمة حتى يصيبوا بها من شاءوا ويصرفوها عمن شاءوا، ويتخيروا للنبوّة بعض صناديدهم، ويترفعوا بها عن محمد عليه الصلاة والسلام. وإنما الذي يملك الرحمة وخزائنها: العزيز القاهر على خلقه، الوهاب الكثير المواهب المصيب بها مواقعها، الذي يقسمها على ما تقتضيه حكمته وعدله، كما قال: {أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا} [الزخرف: ٣٢] ".
قال ابن كثير:"ثم قال مبينا أنه المتصرف في ملكه الفعال لما يشاء الذي يعطي من يشاء ما يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء ويهدي من يشاء ويضل من يشاء وينزل الروح من أمره على من يشاء من عباده ويختم على قلب من يشاء، فلا يهديه أحد من بعد الله وإن العباد لا يملكون شيئا من الأمر وليس إليهم من التصرف في الملك ولا مثقال ذرة وما يملكون من قطمير؛ ولهذا قال تعالى منكرا عليهم: {أَمْ

=

=

عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ} أي: العزيز الذي لا يرام جنابه الوهاب الذي يعطي ما يريد لمن يريد. وهذه الآية شبيهة بقوله: {أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا} [النساء: ٥٣: ٥٥] وقوله {قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإِنْفَاقِ وَكَانَ الإِنْسَانُ قَتُورًا} [الإسراء: ١٠] وذلك بعد الحكاية عن الكفار أنهم أنكروا بعثة الرسول البشري وكما أخبر تعالى عن قوم صالح عليه السلام حين قالوا: {أَؤُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَنِ الْكَذَّابُ الأَشِرُ} [القمر: ٢٥: ٢٦]".

قوله تعالى: {أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا} [ص: ١٠]، أي:"أم لهؤلاء المشركين مُلْك السموات والأرض وما بينهما، فيُعْطوا ويَمْنعوا؟ ".

قال الطبري: يقول:"أم لهؤلاء المشركين الذين هم في عزّة وشقاق {مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا} فإنه لا يُعازُّني ويُشاقُّني من كان في مُلكي وسلطاني".

قال الزمخشري: يقول:"{أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ} حتى يتكلموا في الأمور الربانية والتدابير الإلهية التي يختص بها رب العزة والكبرياء".

قال السمعاني:"أي: ليس لهم ذلك".

عن ابن عباس:"قال جبريل عليه السلام: يا محمد لله الخلق كله، والسموات كلهن ومن فيهن، والأرضون كلهن ومن فيهن، ومن بينهن مما يعلم ومما لا يعلم". وروي عن عثمان بن سعيد مثله.

قوله تعالى: {فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ} [ص: ١٠]، أي:"فليأخذوا بالأسباب الموصلة لهم إلى السماء، حتى يحكموا بما يريدون من عطاء ومنع".

=

=

قال الطبري:"يقول: وإن كان لهم ملك السموات والأرض وما بينهما، فليصعدوّا في أبواب السماء وطرقها، فإن كان له مُلك شيء لم يتعذر عليه الإشراف عليه، وتفقُّده وتعهُّده".

قال الزجاج:"أي: إن ادعوا شيئا من ذلك فليصعدوا في الأسباب التي توصلهم إلى السماء".

قال ابن كثير:"أي: إن كان لهم ذلك فليصعدوا في الأسباب".

قال السمعاني:"أي: فليعلوا في أسباب القوة والمنعة إن كان لهم ذلك على ما زعموا، والمراد من الآية إثبات عجزهم، وإبطال زعمهم فيما ادعوه من المنعة والقوة".

قال الزمخشري:"ثم تهكم بهم غاية التهكم، فقال: وإن كانوا يصلحون لتدبير الخلائق والتصرف في قسمة الرحمة، وكانت عندهم الحكمة التي يميزون بها بين من هو حقيق بإيتاء النبوّة دون من لا تحق له فليصعدوا في المعارج والطرق التي يتوصل بها إلى العرش، حتى يستووا عليه ويدبروا أمر العالم وملكوت الله، وينزلوا الوحى إلى من يختارون ويستصوبون".

واختلف أهل التفسير في معنى «الأسباب» التي ذكرها الله في هذا الموضع، على أقوال:

أحدها: في السماء، قاله ابن عباس.

قال الفراء:"يريد: فليصعدوا فِي السموات، وليسوا بقادرين عَلَى ذلك، أي: لم يصدقوك وليسوا بقادرين عَلَى الصعود إلى السموات فما هم! فأين يذهبون".

قال ابن قتيبة:"أي: في الحبال إلى السماء، كما سألوك أن ترقى في السماء وتأتيهم بكتاب. ويقال للرجل إذا تقدم في العلم وغيره وبرع: قد ارتقى في الأسباب، كما

=

=
يقال: قد بلغ السماء، ونحو هذا قوله في موضع آخر: {أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ} [الطور: ٣٨]. وهذا كله توبيخ، وتقرير بالعجز".

الثاني: في الفضل والدين، قاله السدي.

قال أبو عبيدة:"تقول العرب للرجل الفاضل فى الدين: قد ارتقى فلان فى الأسباب".

الثالث: في طرق السماء وأبوابها، قاله مجاهد.

وقال قتادة:"في أبواب السماء".

وروي عن السديّ، قوله:"{فِي الأَسْبَابِ}، قال: أسباب السموات".

وقال ابن زيد:"طرق السموات".

وقال مقاتل:"يعني: الأبواب، إن كانوا صادقين بأن محمدا- ﷺ- تخلقه من تلقاء نفسه".

قال ابن قتيبة:"أي: في أبواب السماء، إن كانوا صادقين. قال زهير:
ولو نال أسباب السماء بسلم".

الرابع: معناه: فليرتقوا إلى السماء السابعة. قاله الضحاك.

الخامس: معناه: فليعلوا في أسباب القوة إن ظنوا أنها مانعة، حكاه الماوردي، وقال:"وهو معنى قول أبي عبيدة".

السادس: أن «الأسباب»: أدقّ من الشعر، وأشدّ من الحديد، وهو بكل مكان، غير أنه لا يرى. قاله الربيع بن أنس.

قال الطبري:"أصل «السبب» -عند العرب-: كل ما تسبب به إلى الوصول إلى المطلوب من حبل أو وسيلة، أو رحم، أو قرابة أو طريق، أو محجة وغير ذلك".

قال أبو عبيدة:"و «السبب»: الحبل -أيضا-، و «السبب» -أيضا-: ما تسببت به من رحم أو يد أو دين وقال النبي ﷺ: «كل سبب ونسب يوم القيامة منقطع إلّا
=

=

سببى ونسبى». والمسلم إذا تقرّب إلى رجل ليس بينهما نسب قال: إن الإسلام أقوى سبب وأقرب نسب".

قال العثيمين: قوله تعالى: {أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ (٩)}، هذا كقوله تعالى: {وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ} [الزخرف: ٣١] قال بعدها: {أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ} [الزخرف: ٣٢] حتى يقولوا نجعل النبوة في فلان دون فلان وهنا لما قالوا: {أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا} قال بعدها: {أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ (٩)} يعني هل هم الذين يقسمون هذه الخزائن فيجعلون الرسالة في فلان دون فلان. و"أم" هنا بمعنى "بل"، والاستفهام يراد به النفي، وعلى هذا فتقدير الكلام: بل أعندهم خزائن رحمة ربك، أي: ليست خزائن رحمة الله عندهم حتى يقولوا {أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا} ولماذا لم ينزل على فلان أو فلان؟

قوله: {خَزَائِنُ} جمع خزينة، والخزينة: مستودع الشيء يسمى خزينة، والرحمة: رحمة ربك، أي: ما يكون برحمته من الأرزاق الحسية والمعنوية، والجواب: لا ليس عندهم خزائن رحمة ربك.

وقوله: {الْعَزِيزِ} قال المصنف: [الغالب {الْوَهَّابِ} أي: الكثير الهبات، وهي العطايا. قال: {رَحْمَةِ رَبِّكَ} فأضاف الرحمة إلى رب، ثم أضاف الربوبية إلي النبي ﷺ {رَبِّكَ} اعتناءً به وبيانًا أن ما حصل له من الرسالة فهو بمقتضى ربوبية الله الخاصة له، ولهذا نقول: أخص أنواع الربوبية ما كان للرسل، كما أن أخص العبودية عبودية الرسل، ولهذا أضاف الربوبية إليه، لأن أخصّ الربوبية ربوبية الله سبحانه وتعالى لرسله وعلى رأسهم محمد ﷺ، فكأنه يشير إلى أن رسالة الله للرسول ﷺ من رحمته به. وقوله: {الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ} فيه مناسبة عظيمة. العزيز لمقابلة هؤلاء الذين كانوا في عزة وشقاق، ليبين أن عزة الله فوق عزتهم وأنفتهم

=

=

وحميتهم، وأنه غالب لهم وقاهر لهم. والوهاب بالنسبة للرسول ﷺ، يعني أنه وهبه النبوة.

العزيز: يقول المصنف: إنه الغالب، وهذا أحد معانيه، ولكن اللفظ يشتمل على معانٍ أكثر، فالعزيز يدل على ثلاثة أنواع من العزة: عزة القدر، وعزة الامتناع، وعزة القهر، فعزة الامتناع: تعني امتناع الله سبحانه وتعالى عن كل نقص وعيب، فهو عزيز يمتنع عليه كل نقص وعيب. وعزة القدر: تعني عزة الشرف والسيادة، فالسيادة المطلقة لله عز وجل، والعزة الطلقة لله عز وجل، يقول تعالى: {فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا} [فاطر: ١٠]، والثالث عزة القهر: وهي عزة الغلبة، أي: أنه غالب لكل أحد، فعزة القهر تعني عزة الغلبة وأنه غالب لكل أحد، ومن أشعار الجاهلية:

أين المفر والإله الطالب ... والأشرم المغلوب ليس الغالب

فإذًا يكون تفسير المصنف رحمه الله للعزيز بالغالب تفسير للفظ ببعض المعاني، وهو تفسير قاصر، لأننا ذكرنا فيما سبق أن كل من فسر القرآن ببعض ما يدل عليه فإن تفسيره قاصر، لكن أحيانًا يفسر القرآن ببعض ما دلّ عليه تمثيلًا لا حصرًا، كتفسير بعضهم قول الله تعالى: {ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ} [فاطر: ٣٢] فسر الظالم لنفسه بأنه الذي يؤخّر الصلاة عن وقتها، والمقتصد الذي يصليها في آخر الوقت، والسابق بالخيرات الذي يصليها في أول الوقت، وبعضهم فسّر الظالم لنفسه بالذي لا يزكي، والمقتصد بالذي يزكي ولا يتصدق، والسابق بالخيرات بالذي يزكي ويتصدق. فهذا التفسير نقول: لا شك أنه قاصر، لكن لم يرد المفسر أن المعنى منحصر في هذا، وإنما أراد بذلك التمثيل، يعني مثل الظالم لنفسه مثل الذي لا يزكي، والمقتصد مثل الذي يزكي ولا يتصدوا، والسابق بالخيرات مثل الذي يزكي ويتصدق.

=

قال المصنف: [{الْوَهَّابِ (٩)} من النبوة وغيرها، فيعطونها من شاؤوا؟] هذا مفرع على النفي، يعني هل عندهم خزائن الله من النبوة وغيرها فيعطونها من شاؤوا ويمنعونها من شاؤوا؟ الجواب: لا.

ثم قال الله عز وجل: {أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا} أم هنا للإضراب فهي بمعنى بل والهمزة، يعني بل ألهم ملك السماوات والأرض؟ وهذا الاستفهام للنفي، يعني ليس لهم ملك السماوات والأرض، وقوله: {مُلْكُ السَّمَاوَاتِ} السموات: جمع سماء، وهو في اللغة العربية كل ما علا، فكل ما علاك فهو سماء، ولكن المراد به هنا السماوات المعروفة المحفوظة، والمعروف أنها سبع سماوات كما صرح الله به في عدة آيات، وقوله: {وَالْأَرْضِ} هي هذه الأرض المعروفة، وهي سبع أراضين كما هو ظاهر القرآن في قوله تعالى: {اللهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ} [الطلاق: ١٢] فإن المثلية هنا في العدد لا في الحجم ولا في الكيفية، وكما جاءت السنة بذلك صريحًا في قول النبي ﷺ: "من اقتطع شبراً من الأرض بغير حقّه، طوقه يوم القيامة من سبع أراضين".

وقوله: {وَمَا بَيْنَهُمَا} أي: ما بين السماء والأرض من المخلوقات العظيمة كالشمس والقمر والنجوم والكواكب وغيرها مما لا يعلمه إلا الله، وجعل ما بين السماوات والأرض قسيمًا لهما يدل على أن ما بينهما مخلوقات عظيمة تقابل السماوات والأرض.

قال المصنف: [إن زعموا ذلك] أي: أن لهم ملك السماوات والأرض فهل يملكون ذلك؟ لا، لا يمكن.

قال المصنف رحمه الله: [إن زعموا ذلك {فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ (١٠)}] كأن المصنف رحمه الله جعل قوله: {فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ} جوابًا لشرط مقدر، يعني

=

إن زعموا أن لهم ملك السماوات والأرض، {فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ} [الموصلة إلى السماء، فيأتوا بالوحي، فيخصوا به من شاؤوا].

قوله: {فَلْيَرْتَقُوا} الفاء واقعة في جواب شرط مقدر، أي: فإن زعموا ذلك فليرتقوا، واللام: لام الأمر، وسكنت لوقوعها بعد فاء العطف، لأن لام الأمر تسكن إذا وقعت بعد الفاء وثم والواو، قال الله تعالى: {ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ} [الحج: ٢٩] هذه بعد ثم، {وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ} [الحج: ٢٩] هذه بعد الواو، {فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ} [الحج: ١٥] هذه بعد الفاء، بخلاف لام التعليل فإن لام التعليل تكون مكسورة ولو وقعت بعد هذه الحروف، كما قال تعالى: {لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا} [العنكبوت: ٦٦] ولم يقل: ولْيتمتعوا، لأن اللام للتعليل، فلام التعليل تكون مكسورة دائمًا، ولام الأمر تكون مكسورة إلاّ إذا وقعت بعد الواو والفاء وثم، ولهذا قال: {فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ} [الحج: ١٥] فاللام هنا للأمر، والظاهر أن المراد بالأمر هنا التحدي. يعني إن كانوا صادقين فليرتقوا في الأسباب، والأسباب: جمع سبب وهو كل ما يوصل إلى المقصود، وهذه الآية نظير قوله تعالى: {مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ} [الحج: ١٥] أي: بشيء يوصله إلى السماء كالحبل {ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ} [الحج: ١٥] فهنا قال: {فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ} أي: فليجعلوا أسبابًا يرتقون بها، ويصلون إلى السماء. ومعلوم أن هذا التحدي لا يمكن لهم أن يحققوه.

ثم قال المصنف: [الموصلة إلى السماء، فيأتوا بالوحي، فيخصوا به من شاؤوا] بناء على قولهم: {أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا} يعني إذًا فارتقوا إلى السماء، وأنزلوا الوحي، وخصوا به من شئتم.

=

جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ (١١).

{جُنْد مَا} أَيْ هُمْ جُنْد حَقِير {هُنَالِكَ} فِي تَكْذِيبهمْ لَك {مَهْزُوم} صِفَة جُنْد {مِنْ الْأَحْزَاب} صِفَة جُنْد أَيْضًا أَيْ كَالْأَجْنَادِ مِنْ جِنْس الْأَحْزَاب الْمُتَحَزِّبِينَ عَلَى الْأَنْبِيَاء قَبْلك وَأُولَئِكَ قَدْ قُهِرُوا وَأُهْلِكُوا فَكَذَا نُهْلِك هَؤُلَاءِ.

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ (١٢).

{كَذَّبَتْ قَبْلهمْ قَوْم نُوح} تَأْنِيث قَوْم بِاعْتِبَارِ الْمَعْنَى {وَعَادٍ وَفِرْعَوْن ذُو الْأَوْتَاد} كَانَ يُتِّدُ لِكُلِّ مَنْ يَغْضَب عَلَيْهِ أَرْبَعَة أَوْتَاد يُشَدّ إلَيْهَا يَدَيْهِ وَرِجْلَيْهِ وَيُعَذِّبهُ.

وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ (١٣).

{وَثَمُود وَقَوْم لُوط وَأَصْحَاب الْأَيْكَة} أَيْ الْغَيْضَة وهم قوم شعيب عليه السلام {أولئك الأحزاب}.

إِنْ كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ (١٤).

{إنْ} مَا {كُلّ} مِنْ الْأَحْزَاب {إلَّا كَذَّبَ الرُّسُل} لِأَنَّهُمْ إذَا كَذَّبُوا وَاحِدًا مِنْهُمْ فَقَدْ كَذَّبُوا جَمِيعهمْ لِأَنَّ دَعْوَتهمْ وَاحِدَة وَهِيَ دَعْوَة التوحيد {فحق} وجب {عقاب}[1].

=

ثم قال المصنف: [و"أم" في الموضعين بمعنى همزة الإنكار]، الإنكار الذي بمعنى النفي. ثم قال: ليس عندهم خزائن الله وليس لهم ملك السماوات والأرض بل هم خالون من هذا كله.

(١)قوله تعالى: {جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ} [ص: ١١].

=

=

قال مقاتل:"أخبر الله- تعالى- بهزيمتهم ببدر، مثل قوله: {سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ} [القمر: ٤٥] ببدر".

قال الماوردي:"معنى قوله: {جند}، أي: أتباع مقلّدون ليس فيهم عالم مرشد".

قال ابن قتيبة:"{جند} بمعنى: حزب لهذه الآلهة. و {ما} زائدة. و {مهزوم}: مقموع ذليل. وأصل «الهزم»: الكسر، ومنه قيل للنّفرة في الأرض: هزمة، أي كسرة، وهزمت الجيش: أي كسرتهم، وتهزّمت القربة: أي انكسرت. يقول: هم حزب عند ذلك مقموع ذليل من الأحزاب، أي عند هذه المحن، وعند هذا القول، لأنهم لا يقدرون أن يدّعوا لآلهتهم شيئا من هذا، ولا لأنفسهم. و «الأحزاب»: سائر من تقدّمهم من الكفار، سمّوا أحزابا لأنهم تحزّبوا على أنبيائهم".

وفي قوله تعالى: {جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ} [ص: ١١]، وجهان من التفسير:

أحدهما: أنهم الاصنام. حكاه السمعاني.

الثاني: أنهم مشركو قريش، وهم الذين قتلوا وأسروا ببدر، وقوله: «هنالك»، إشارة إلى مصارعهم من بدر. قاله مجاهد، وقتادة، وبه قال الطبري.

عن مجاهد: " {جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الأحْزَابِ}، قال: قُريش من الأحزاب، قال: القرون الماضية".

قال قتادة:"وعده الله وهو بمكة يومئذ أنه سيهزم جندا من المشركين، فجاء تأويلها يوم بدر".

وقال قتادة:"هو يوم بدر أخبرهم الله به قبل أن يكون".

قال الطبري: يقول:"هم {جُنْد}، يعني: الذين في عزّة وشقاق، {هنالك}، يعني: ببدر مهزوم. وقوله {هُنَالِكَ} من صلة «مهزوم»، وقوله: {مِنَ الأحْزَابِ}، يعني: من أحزاب إبليس وأتباعه الذين مضوا قبلهم، فأهلكهم الله بذنوبهم. و {مِنْ} من

=

=

قوله: {مِنَ الأحْزَابِ} من صلة قوله «جند»، ومعنى الكلام: هم جند من الأحزاب مهزوم هنالك، و {ما} في قوله: {جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ} صلة".

الثالث: معناه: {جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ} مغلوب عن أن يصعد إلى السماء. وهذا قول الفراء.

قوله تعالى: {كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ} [ص: ١٢]، أي:"كذَّبت قبلهم قوم نوح وعاد وفرعون صاحب القوة العظيمة".

قال الطبري: يقول:"كذّبت قبل هؤلاء المشركين من قريش، القائلين: أجعل الآلهة إلها واحدا، رسلها، قوم نوح وعاد وفرعون ذو الأوتاد".

واختلف أهل العلم في السبب الذي من أجله قيل لفرعون «ذو الأوتاد»، على أقوال:

أحدها: لأنه كانت له ملاعب من أوتاد، يُلْعَب له عليها. قاله ابن عباس، وقتادة.

الثاني: لتعذيبه الناس بالأوتاد. قاله الربيع بن انس، والسدي.

قال السدي:"كان يعذِّب الناسَ بالأوتاد، يعذّبهم بأربعة أوتاد، ثم يرفع صخرة تُمَدّ بالحبال، ثم تُلْقى عليه فتشدخه".

الثالث: أن «الاوتاد»: البنيان، والمعنى: ذو البنيان. قاله الضحاك.

قال الطبري:"وأشبه الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: عني بذلك الأوتاد، إما لتعذيب الناس، وإما للعب، كان يُلْعَب له بها، وذلك أن ذلك هو المعروف من معنى الأوتاد".

قوله تعالى: {وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ} [ص: ١٣]، أي:"وكذبت ثمود وقوم لوط وأصحاب الأشجار والبساتين وهم قوم شعيب".

وفي معنى: «الْأَيْكَةِ»، أقوال:

=

=

أحدها: أنها الغيْضَة، قاله ابن عباس، وسعيد بن جبير، ومجاهد، والضحاك، وقتادة، والسدي، وسهل بن عبد الله، ومقاتل، والفراء، ويحيى بن سلام، وابن قتيبة، والطبري.

قال قتادة:"ذكر لنا أنهم كانوا أهل غيضة. وكان عامَّة شجرهم هذا الدَّوْم".

قال مقاتل:"وكان أكثر الشجر: الدوم -وهو المقل-".

قال خصيف:"وكانوا يأكلون في الصيف الفاكهة الرطبة، وفي الشتاء اليابسة".

الثاني: أن «الأيكة»: االشجر الملتف المجتمع، وهذا قول قتادة-في رواية أخرى-، ومنه قول أمية:

كَبُكا الحَمامِ عَلى فُرُو... عِ الأَيْكِ في الغُصُنِ الجَوَانِحْ

وقول النابغة الذبياني:

تَجْلُو بِقادمَتَيْ حَمَامَةِ أيْكَةٍ... بَرَدًا أُسِفّ لِثاتُهُ بالإثْمِدِ

الثالث: أن «الأيكة» اسم البلد، وليكة اسم المدينة بمنزلة «بكة» من «مكة»، حكاه ابن شجرة.

قال الزجاج: {الأيكة}، " أي: أصحاب الشجر، و «الأيك» الشجر، وهؤلاء أهل موضع كان ذا شجر، فانتقم الله منهم بكفرهم، قيل إنه أخذهم الحر أياما ثم اضطرم عليهم المكان نارا فهلكوا عن آخرهم".

قوله تعالى: {أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ} [ص: ١٣]، أي:"أولئك الأمم الذين تحزَّبوا على الكفر والتكذيب واجتمعوا عليه".

قال مجاهد:"القرون الماضية".

قال الطبري: يقول:"هؤلاء الجماعات المجتمعة، والأحزاب المتحزّبة على معاصي الله والكفر به، الذين منهم يا محمد مشركو قومك، وهم مسلوك بهم سبيلهم".

=

=

قال ابن كثير:"أي: كانوا أكثر منكم وأشد قوة وأكثر أموالا وأولادا فما دافع ذلك عنهم من عذاب الله من شيء لما جاء أمر ربك".

قال ابن قتيبة:"يريد الذين تحزنوا على أنبيائهم".

قال ابن الجوزي:"الأحزاب: جميع من تقدمهم من الكفار الذي تحزبوا على الأنبياء".

قال مقاتل:"الأحزاب: بنى المغيرة وبني أمية، وآل أبي طلحة".

قال ابن قتيبة:"فأعلمنا أن مشركي قريش حزب من هؤلاء الأحزاب".

قوله تعالى: {إِنْ كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ} [ص: ١٤]، أي:"كلٌّ مِن هؤلاء إلا كذَّب الرسل، فاستحقوا عذاب الله، وحلَّ بهم عقابه".

قال الطبري: " يقول: ما كلّ هؤلاء الأمم إلا كذّب رسل الله؛ وهي في قراءة عبد الله كما ذكر لي:"إنْ كُلٌّ لَمَّا كَذَّبَ الرُّسُل فَحَقَّ عِقَابِ" يقول: فوجب عليهم عقاب الله إياهم".

قال قتادة:"هؤلاء كلهم قد كذبوا الرسل، فحقّ عليهم العذاب".

قال ابن كثير:"فجعل علة هلاكهم هو تكذيبهم بالرسل فليحذر المخاطبون من ذلك أشد الحذر".

قال العثيمين: قوله تعالى: {جُنْدٌ مَا} أي: هم جند حقير {هُنَالِكَ} أي: في تكذيبهم لك {مَهْزُومٌ} صفة جند {مِنَ الْأَحْزَابِ (١١)} صفة جند أيضًا] {جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ} جند: خبر مبتدأ محذوف، والتقدير: هم جند، وما: نكرة واصفة، لأن "ما" لها عشر معانٍ جمعت في قول الشاعر:

محامل ما عشر إذا رُمْتَ عَدَّها ... فحافظْ على بيتٍ سليم من الشِّعرِ
ستفهم شرط الوصل فاعجب لنكرها ... بكفٍّ ونفيٍ زِيدَ تعظيمِ مصدرِ

=

=

نوضح ذلك: ستفهم: استفهامية، شرط: شرطية، الوصل: موصولة، فاعجب: تعجبية، لنكرها: نكرة سواء واصفة أو موصوفة، بكف: كافة، ونفي: نافية، زيد: زائدة، تعظيم: للتعظيم، مصدر: مصدرية.

{جُنْدٌ مَّا} قال المصنف: [هم جند حقير] فعلى هذا تكون "ما" هنا واصفة، يعني موصوف بها، لكن المراد بهذا التحقير، والدليل على ذلك التحقير قوله: {مَهْزُومٌ} والمهزوم حقير.

وقوله: {هُنَالِكَ} هنا إشارة للمكان، واللام للبعد، والكاف حرف خطاب، هنالك، أي: في ذلك المكان، المصنف يقول: [أي: في تكذيبهم لك] فجعل الظرفية المكانية هنا التكذيب، ولكن يبدو أن الأمر على خلاف ما قال المصنف رحمه الله، وأن المشار إليه المكان الحسي، لا المكان المعنوي، أي: أنهم إن ارتقوا في الأسباب، فسوف يهزمون، فيكون هنالك، أي: في المكان الذي يرتقون إليه، فإذا قدر أنهم ارتقوا إلى السماء فهل ستكون لهم الغلبة؟ أبدًا بالعكس، حتى لو ظنوا أنهم لو وصلوا إلى السماء، وصعدوا إلى السماء أنهم انتصروا، وصارت لهم العزة فالأمر بالعكس. هذا هو الذي يظهر من الآية الكريمة. أما جعل الظرف هو التكذيب فهذا بعيد، بل التكذيب سبب للخذلان.

{جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ} (مهزوم) يقول المصنف: [صفة جند] صفة ثانية والأولى "ما" و {مِنَ الْأَحْزَابِ (١١)} صفة جند أيضًا، يعني جند من الأحزاب مهزوم.

واعلم أنه إذا تكررت الصفة للنكرة فإن ما بعد الصفة الأولى يجوز أن يكون حالًا، فإذا قلت: مررت برجل عظيمٍ كريم شجاع، جاز لك أن تقول: مررت برجل عظيم كريمًا شجاعًا، ولكن الأولى أن تكون صفة، أي: نعتًا؛ لتناسق الكلام، وكونه على وتيرة واحدة، فهنا عندنا ثلاث صفات لجند: "ما"

=

=

و"مهزوم"، و"من الأحزاب"، ما الذي يجوز أن يكون منصوبًا على الحال؟ مهزومٌ، لكن لا يمكن هنا لأن حركة الإعراب ظهرت على أنه مرفوع، صفة، وكذلك من الأحزاب مثله يعني يجوز أن يكون صفة وهو الأصل، ويجوز أن نجعله في موضع نصب على الحال.

قال المصنف رحمه الله: [أي: كالأجناد من جنس الأحزاب المتحزبين على الأنبياء قبلك، وأولئك قد قهروا وأهلكوا فكذلك نهلك هؤلاء] يعني أن هؤلاء جند من الأجناد الأخرى، والأجناد الأخرى الأحزاب الذين كذبوا الرسل كان مآلهم الهلاك والدمار، وقد مر علينا في أول السورة: {كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوْا وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ (٣)}.

ثم بدأ الله عز وجل الإشارة إلى قصة أولئك الأجناد أو أولئك الأحزاب فقال عز وجل: {كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ} أي: قبل الذين كذبوك من قريش ومن اليهود وغيرهم {قَوْمُ نُوحٍ} ونوح هو أول رسول أرسله الله عز وجل بدلالة القرآن والسنة، قال الله تعالى: {إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ} [النساء: ١٦٣] وقال تعالى: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ} [الحديد: ٢٦] ولو كان أحد قبل نوح لخرج من ذريتهما، وبه نعرف أن ما يوجد من شجرة الأنبياء التي كتب فيها أن إدريس قبل نوح خطأ، فإن إدريس بعد نوح بلا شك، أما السنة فصريحة في ذلك فإنه ثبت في حديث الشفاعة الطويل "أن الناس يأتون إلى نوح فيقولون له: أنت أول رسول أرسله الله إلى أهل الأرض" وهذا صريح، وبه أيضًا نعرف أن ما يذكر في كتب التاريخ من أن إدريس جد لنوح فهو خطأ بلا شك، فإدريس فيما يظهر -والعلم عند الله- من أنبياء بني إسرائيل.

=

=

{كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ} نوح عليه الصلاة والسلام بعث إلى البشر حين اختلف الناس، وكان الناس في الأول على ملة واحدة، فاختلفوا، {فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ} [البقرة: ٢١٣] أرسله الله إلى قومه، فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عامًا، وهو يدعوهم إلى الله، ويأتيهم بالآيات، ويتحداهم، ولكنهم -والعياذ بالله- كلما دعاهم ازدادوا عتوًا ونفورًا، قال تعالى: {وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا} [نوح: ٧] ولما أذن الله تعالى بهلاكهم دعا نوح ربه {أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ} [القمر: ١٠] فانتصر الله له {فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ (١١) وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (١٢) وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ (١٣) تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا} [القمر: ١١ - ١٤] وأمره الله أن يحمل معه مَنْ آمن من قومه، قال الله تعالى: {وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ} [هود: ٤٠].

فتصوروا أيها الدعاة كيف لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عامًا وهو رسول، والناس لم يكثروا بعد، ومع ذلك ما آمن معه إلا قليل، حتى أحد نسله قد كفر به وهو ابنه الذي كان من المغرقين.

{كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ} قال المصنف رحمه الله: [تأنيث "قوم" باعتبار المعنى] هل قوم مؤنث؟ أو الفعل الذي كان القوم يفعلونه هو الذي أُنِّث؟ نقول: الفعل هو الذي أُنِّث {كَذَّبَتْ}، أما قوم فليس فيها تاء التأنيث، لكن من المعلوم أن الفعل إذا أُنِّثَ فالفاعل مؤنث، فإذا وقع الفاعل لفعل مؤنث فهو مؤنث، لكن هذا اللفظ هل هو مؤنث لفظًا أو باعتبار المعنى؟ قال المصنف: باعتبار المعنى، وهنا نسأل كيف يكون مؤنث باعتبار المعنى؟ لأن القوم جماعة، وكل جمع يجوز تأنيثه، قال ابن مالك رحمه الله:

=

=

والتاءُ مع جَمْع سوى السالِم مِنْ ... مذكَّر كالتاءِ مع إحدى اللَّبِنْ

إحدى اللَّبِنْ: هي لَبِنة، فلبنة يجوز فيها التذكير والتأنيث، لكن التأنيث أرجح، كذلك جميع المجموع ما عدا جمع المذكر السالم يجوز فيه وجود التاء في الفعل.

{وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ (١٢)} عاد قوم هود، كانوا بالأحقاف،

وكانوا ذوي شدة وقوة، من أشد الناس قوة، فأُعجبوا بقوتهم واستكبروا وعصوا رسولهم عليه الصلاة والسلام، وافتخروا بما أعطاهم الله من القوة، كما قال الله عنهم: {فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً} [فصلت: ١٥] فتأمل قوله: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ} لأن فيها إشارة إلى أنهم ضعفاء أمام خالقهم، ولم يقل: أولم يروا أن الله الذي خلق السماوات، قال: خلقهم، فهم مخلوقون، والخالق أعلى من المخلوق، وأشد منه قوة {هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ} [فصلت: ١٥] فأهلكهم الله. أهلكهم الله وعلى حين طمع في رحمته، أرسل الله عليهم ريحًا عظيمة، ولما رأوا ما تحمله الريح من الرمال العظيمة ظنوا أن ذلك سحاب. لما رأوا هذا قالوا: {هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا} فقال الله تعالى: {بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤) تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا} [الأحقاف: ٢٤ - ٢٥] فعصفت بهم الريح العقيم حتى كانت تحمل الواحد منهم إلى جو السماء ثم تقلبه على رأسه، فصاروا {كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ} [الحاقة: ٧]، أعجاز النخل يعني أصولها وجذوعها؛ خاوية منتكسة، {فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ} [الأحقاف: ٢٥]، ومع ذلك ما آمن معه إلا نفر قليل.

{وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ (١٢)} قال المصنف: [كان يَتِدُ لكل مَن يغضب عليه أربعة أوتاد يشد إليها يديه ورجليه ويعذبه] فرعون الذي أُرسل إليه موسى، وكان ملكًا قاهرًا لمصر جبارًا عنيدًا، استعبد أهل مصر وقال لهم: {أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى}

=

=
[النازعات: ٢٤] وسخر بموسى وقال لهم: {أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ} [الزخرف: ٥٢] وفخر بما أعطاه الله تعالى من الأنهار، قال لهم: {أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ} [الزخرف: ٥١] وكذب موسى وحاربه، لكن ليس بالسلاح بل بما جمع له من السحرة، لأنه أَوْهَمَ الناسَ أن موسى كان ساحرًا، قال: هذا ساحر يرمي العصا في الأرض فتكون حية، ويدخل يده في جيبه فتخرج بيضاء من غير سوء، هذا ساحر.

وجمع السحرة، وألقوا ما عندهم من السحر العظيم الذي أرْهب الناس، حتى موسى عليه السلام رهب وخاف، فقال الله تعالى: {قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى (٦٨) وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا} [طه: ٦٩ - ٦٨] فأيّده الله، وألقى ما في يمينه وهي العصا، فصارت حية عظيمة التهمت الحبال والعصي التي ملؤوا بها الأرض، وصار يُخيل للناس أنها حيات وثعابين تسعى، فالتهمتها كلها، وسبحان الله كيف هذه الحية التي كانت عصا تلتهم كل هذا؟! هذا من آيات الله.

فلما رأى السحرة هذا الأمر دهشوا، وعلموا أن هذا ليس بساحر، لأن الساحر لا يمكن أن يأتي بمثل هذا الأمر، بل هو حقيقة، وهو آية أيَّدَ الله بها موسى، فآمنوا كلهم، وسجدوا لله ذُلًّا وعبادة، وقالوا معلنين: {آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢١) رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ} [الأعراف: ١٢١ - ١٢٢] فماذا يكون تأثير هؤلاء القوم الذين انتصر بهم فرعون بين الناس؟ سيكون تأثيرهم بين الناس كبيرًا وعظيمًا. أرأيتم لو أنّ أحدًا من الملوك جمع أكبر ما عنده من المهندسين في حشد عظيم، ثم أقرّوا وأذعنوا لخصوم هذا الملك، ماذا يكون شعور الناس؟ سيكون شعورهم أن الملك مهزوم.

ولهذا لما حصل إيمان السحرة لجأ فرعون إلى القوة والقهر، وهددهم بأنه سيقطّع أيديهم وأرجلهم من خلاف، ويصلبهم على جذوع النخل حتى يذوقوا
=

=

العذاب، ولكنهم بإيمانهم قالوا: {لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٧٢) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى} [طه: ٧٢ - ٧٣] فصمدوا أمام هذا الطاغية العنيد. لقد كانوا في أول النهار من السحرة الكفرة، وصاروا في آخر النهار من المؤمنين البررة، وبقي فرعون مستمرًا على طغيانه -والعياذ بالله- حتى أهلكه الله بالغرق بجنس ما كان يفتخر به على قومه وعلى موسى حين قال: {وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي} [الزخرف: ٥١] فأهلك بالماء الذي كان يفتخر به.

وقول المصنف في قوله تعالى: {وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ} قال: [كان يَتِدُ ...] إلى آخره. الذي يظهر أن هذا ليس سبب الوصف بذي الأوتاد، وإنما السبب الحقيقي أن يراد بالأوتاد القوة التي ثَبَّتَ بها ملكه، كأوتاد الخيمة تثبت بها الخيمة، ولا يبعد أن يكون من جبروته أن يضع أوتادًا أربعة يصلب عليها الإنسان ويعذبه، لكن هذا لا يمكن أن يمتدح به فرعون على أنه ذو قوة، بل الصحيح المراد بالأوتاد هنا ما كان عليه من القوة التي ثبَّت بها ملكه، كأوتاد الخيمة تثبت بها الخيمة.

قال الله تعالى: {وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ (١٣)}

قوله: {وَثَمُودُ} معطوفة على {قَوْمُ نُوحٍ} يعني: وكذبت قبلهم ثمود أصحاب صالح، وهم في مكان يقال له: الحِجْر، وتسمى الآن بمدائن صالح. أرسله الله سبحانه وتعالى إليهم ولكنهم كفروا به، ولم يؤمن معه إلا قليل، وآتاهم الله تعالى آية عظيمة، وهي ناقة يحلبونها يومًا وتشرب الماء يومًا آخر. وقيل: إن الواحد منهم يأتي إليها فيسقيها ويأخذ من لبنها بقدر ما أسقاها، والله أعلم. والمهم أن هؤلاء القوم عندهم قوة مكَّنتهم من أن يتخذوا من الجبال بيوتًا. ولا تزال آثارهم باقية إلى اليوم. وقد مر النبي ﷺ بها وهو ذاهب إلى تبوك، فقنَّع رأسه ﷺ يعني

=

=

غطاه- وأسرع في السير، وقال: "لا تدخلوا على هؤلاء القوم المعذبين إلا وأنتم باكون، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم، أن يصيبكم ما أصابهم".

قال: {وَقَوْمُ لُوطٍ} لوط: ابن أخي إبراهيم عليه الصلاة والسلام، أرسله الله إلى قومه، وكانوا قد ارتكبوا الفاحشة -والعياذ بالله- فكانوا يأتون الرجال ويَدَعُون النساء. فوبَّخهم لوطٌ على ذلك وقال: {أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ (١٦٥) وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ} [الشعراء: ١٦٥ - ١٦٦] فأنتم الآن تركتم الحلال إلى الحرام، وتركتم النزيه إلى الخسيس. ولكنهم أبوا واستكبروا حتى إن زوجته كانت منهم، فأمره الله أن يسري بأهله، وأرسل على قومه حجارة من سجيل، حتى جعل عاليها سافلها، وهذا من المناسبة بوضوح، فإن هؤلاء لما انقلبوا عن الحقيقة، ونزلوا إلى أسفل الأخلاق، جعل الله أعالي قريتهم سافلها. واختلف العلماء في معنى هذا، فقال بعضهم: إن الأرض حمُلت ثم نكِّست فصار عاليها سافلها، وقال بعضهم: بل إنها تهدمت من الحجارة التي أُرسلت عليهم حتى صار أعاليها سافلها.

قال: {وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ} والأيكة فيها قراءتان، قال المصنف: [{الْأَيْكَةِ} أي: الغَيْضة وهم قوم شعيب عليه السلام] والغيضة: هي الأشجار اللتف بعضها إلى بعض، وكانوا في نعيم ولكنهم عصوا شعيبًا وسخروا منه {قَالُوا يَاشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ} [هود: ٩١] {قَالُوا يَاشُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ} [هود ٨٧] يسخرون منه، وقال الله تعالى: {فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ} [الشعراء: ١٨٩] قال أهل العلم: إنهم أصيبوا بحَرّ شديد جدًا، فأرسل الله غمامة لها ظل، فتنادوا إليها يستظلون بظلها، فكان ظلها أكثر إحراقًا من الشمس -والعياذ بالله- فأُتُوا من حيث أمنوا.

=

=

هؤلاء يقول الله عز وجل فيهم: {أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ} يعني أولئك الأحزاب العظماء الذين طغوا واستكبروا وكذبوا الرسل، فالإشارة هنا بصيغة البعد إما لدنو منزلتهم وبعدها عن الصواب، وإما لعلوها باعتبار حالهم التي كانوا عليها من الطغيان والعتو، وذلك لأن "أولئك" لا يشار بها إلا إلى الشيء البعيد علوًّا، أو نزولًا أو مساحة.

{أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ} جمع حزب، والحزب هو الطائفة، قال الله تعالى: {كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ} [الروم: ٣٢] أي: كلّ طائفة.

{أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ} يحتمل أن تكون مبتدأ وخبر، يعني أولئك هم الأحزاب الذين كذبوا الرسل فأهلكناهم، ويحتمل أن تكون الأحزاب صفة لأولئك.

وقوله: {إِنْ كُلٌّ} الجملة خبر المبتدأ، قال المصنف: [{إِنْ} ما {كُلٌّ}] أي: أن "إنْ" نافية، وقد سبق لنا أن قلنا: إن "إنْ" تستعمل في اللغة العربية على وجوه: النفي، والشرط، والمخففة من الثقيلة، والزائدة. قال المصنف: [{إِنْ كُلٌّ} ما كل من الأحزاب {إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ}]، كلٌّ مِنْ هؤلاء الأحزاب كذب الرسل، والرسل: جمع رسول، {إِنْ كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ} أي: كل حزب كذَّب رسولَه، وعلى هذا فالجمع موزَّع على الجمع الذي قبله توزيع أفراد، أو هو توزيع جملة؟ أي: كل حزب كذَّب جميعَ الرسل؟ المصنف مشى على الثاني، قال: [لأنهم إذا كذبوا واحدًا منهم، فقد كذبوا جميعهم، لأن دعوتهم واحدة، وهي دعوة التوحيد] فمشى رحمه الله على أن الجمع موزع على الأفراد توزيع جمع، يعني كل حزب كذب جميع الرسل، ويؤيد ما ذهب إليه رحمه الله قولُه تعالى: {كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ} [الشعراء: ١٠٥] فإن الله ذكر أن قوم نوح كذبوا المرسلين، ومن المعلوم أنه لم يُبعث رسولٌ قبل نوح حتى نقول: إنهم كذبوا من سبق، وعلى هذا

=

=

فيكون ما ذهب إليه المصنف أرجح مما يحتمله اللفظ احتمالًا مرجوحًا، وهو أن يكون الجمع موزعًا على ما قبله توزيع أفراد.

وقوله: {إِنْ كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ} يعني سبحانه وتعالى باعتبار الجملة؛ لأن بعض القوم آمنوا لكنهم كانوا قلة، والقلة مع الكثرة تنغمر فيها، فلهذا قال: إن كل من الأحزاب إلا كذب الرسل، ويحتمل أن يقال: إنه لا حاجة إلى هذا التقدير، أي: لا حاجة إلى أن نقول: إن هذا باعتبار الكثير من هؤلاء الأقوام، لأنه قال: {كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ} فيكون قوله: {إِنْ كُلٌّ} أي: من المكذبين إلا كذب الرسل، وعلى هذا فلا حاجة إلى استثناء الذين آمنوا، وإلى القول بأن الآية جاءت على الأغلب.

قال الله تعالى: {إِنْ كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ} الرسل الذين أرسلوا إليهم، وهنا نحتاج إلى الفرق بين الرسل والنبيين فنقول: أولًا: كل من ذكر في القرآن من النبيين فهو رسول، ودليل ذلك قوله تعالى: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ} [غافر: ٧٨] وعلى هذا فيكون كل من ذكر في القرآن من الرسل؛ لأنهم قُصّوا علينا، وكل من قُصَّ علينا فهو رسول، أما على سبيل العموم فإن العلماء يقولون على المشهور عندهم: إن الرسول من أوحي إليه بشرع وأمر بتبليغه والدعوة إليه، لأنه رسول، والرسول ليس عليه إلا البلاغ {يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ} [المائدة: ٦٧] وأما النبي فهو الذي أوحي إليه بوحي لكن لم يأمر بالتبليغ، فيكون كالمجدد من هذه الأمة، فالمجدد من هذه الأمة صالح في نفسه لكنه يدعو بحسب استطاعته، فالنبي لم يكلف بالرسالة، وإنما أوحي إليه بما يُصلِحه ويَصْلَحُ به غيره لا على سبيل الإلزام بالرسالة.

=

وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ (١٥).

{وَمَا يَنْظُر} يَنْتَظِر {هَؤُلَاءِ} أَيْ كُفَّار مَكَّة {إِلَّا صَيْحَة وَاحِدَة} هِيَ نَفْخَة الْقِيَامَة تَحِلّ بِهِمْ الْعَذَاب {مَا لَهَا مِنْ فَوَاق} بِفَتْحِ الْفَاء وَضَمّهَا رُجُوع[1].

=

وذهب بعض أهل العلم إلى أن الفرق: أن النبي هو من جدد شرع مَن قبله ولم يستقلّ بوحي، فهو يأتي بالشريعة السابقة، وأما الرسول فهو الذي يُجدَّد له الوحي، ويأتي بشريعة مستقلة، وهذا القول قد نقول: إنه جيد كقوله تعالى: {إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا} [المائدة: ٤٤] ولكنه ينتقض بآدم عليه الصلاة والسلام، فإن آدم نبي ولم يكن تابعًا لشريعة سابقة، والقول إذا انتقض فهو ضعيف غير معتمد عليه.

قال الله تعالى: {فَحَقَّ عِقَابِ (١٤)} حق، أي: وجب وثبت، وقوله: {عِقَابِ} فاعل "حق" مرفوع وعلامة رفعه الضمة المقدرة على ما قبل ياء المتكلم المحذوفة منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة المناسبة، أي: يكسر ما قبل ياء المتكلم ليناسب الياء، فالكسرة التي يؤتى بها لمناسبة الياء تسمى حركة المناسبة أو كسرة المناسبة، وهي تمنع من ظهور ضمة الإعراب وفتحته على آخر الكلمة.

والعقاب: هو المؤاخذة على الذنب، ولهذا سمي عقابًا؛ لأنه يأتي عقب الجريمة، فكل عذاب على جريمة فإنه يسمى عقابًا. وهذا العقاب الذي أنزله الله بهم هو عقاب مبني على العدل؛ لأن الله سبحانه وتعالى أضافه إلى نفسه فقال: {فَحَقَّ عِقَابِ (١٤)}، ونحن نعلم أن الرب عز وجل لا يظلم أحدًا أبدًا، لا يزيد في سيئاته، ولا ينقص من حسناته، لكن لو كان العقاب من غير الله لكان يمكن أن يزداد على الجريمة، أما العقاب الذي أضافه الله لنفسه فهو عقاب عدل.

(١)قوله تعالى: {وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً} [ص: ١٥].

=

=

قال الطبري: يقول:"{وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلاءِ} المشركون بالله من قُريش إلا النفخة الأولى في الصور".

قال ابن كثير:"وهذه الصيحة هي نفخة الفزع التي يأمر الله إسرافيل أن يطولها، فلا يبقى أحد من أهل السماوات والأرض إلا فزع إلا من استثنى الله عز وجل".

عن قتادة، قوله:"{وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلاءِ إِلا صَيْحَةً وَاحِدَةً}، يعني: أمة محمد".

قوله تعالى: {مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ} [ص: ١٥]، أي:"ما لتلك الصيحة من رجوع".

قرأ حمزة والكسائي: «فُوَاقٍ» بضم الفاء، والباقون بفتحها، واختلف في الضم والفتح على قولين:

أحدهما: أنه بالفتح من: الإفاضة، وبالضم: فُواق الناقة، وهو قدر ما بين الحلبتين تقديرًا للمدة. قاله أبو عبيدة.

الثاني: أنهما لغتان ومعناهما واحد، أنهما لغتان بمعنى واحد، وهو معنى قول الفراء، وابن قتيبة، والزجاج، وحكاه الطبري عن بعض الكوفيين، واختاره.

قال الفراء:"أهل الحجاز يقولون: ما لهذا الأمر من فواق، و «فَواق الناقة»، بنصب الفاء، وبنو أسد وتميم وقيس: «فُواق»، بضم الفاء".

قال الفراء:"قرأها الحسن وأهل المدينة وعاصم بن أبى النجود «فَواق» بالفتح، وهي لغة جيدة عالية، وضم حمزة ويحيى والأعمش والكسائي".

ومن ثم اختلف أهل العلم في تفسير قوله تعالى: {مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ} [ص: ١٥]، على أقوال:

أحدها: معناه: ما لها من ترداد، قاله ابن عباس.

قال ابن الجوزي:"المعنى: أن تلك الصيحة لا تكرر".

الثاني: من رجوع. قاله ابن عباس -في رواية العوفي، ومجاهد، وقتادة، وسفيان.

قال ابن الجوزي:"المعنى: أنهم لا يعودون بعدها إلى الدنيا".

=

قال قتادة:"يعني: الساعة، ما لها من رجوع ولا ارتداد".

وقال قتادة: "ما لها من مثنوية".

قال مقاتل:"ما لها من مرد ولا رجعة".

قال الزجاج:"«فواق» - بضم الفاء وفتحها-، أي: ما لها من رجوع، والفواق ما بين حلبتي الناقة، وهو مشتق من «الرجوع» -أيضا-، لأنه يعود اللبن إلى الضرع بين الحلبتين، وأفاق من مرضه من هذا، أي: رجع إلى الصحة، فـ «الفواق» هو من هذا أيضا".

الثالث: ما لها من حبس، قاله حمزة بن إسماعيل.

الرابع: من رحمة. حكاه الماوردي.

الخامس: ما لها من راحة، حكاه أبان بن تغلب، وحكاه ابن الجوزي عن جماعة من المفسرين.

قال النحاس: يقال:"أفاق من مرضه: رجع إلى الصحة والراحة".

السادس: مالها من راحة ولا إفاقة. قاله الفراء.

قال الفراء:"وأصله من الإفاقة في الرضاع إذا ارتضعت البهمة أمها ثم تركتها حتى تنزل شيئا من اللبن، فتلك الإفاقة، و «الفواق» بغير همز. وجاء عن النبي ﷺ أنه قال: «العيادة قدر فواق ناقة» ".

السابع: ما لها من تنظّر وتمكّث إذا بدأت. قاله ابن قتيبة.

قال ابن قتيبة:"وأصل «الفواق»: أن تحلب الناقة ثم تترك ساعة حتى يجتمع اللبن ثم تحلب فما بين الحلبتين فواق، فاستعير الفواق في موضع الانتظار".

الثامن: ما لها من تأخير لسرعتها قال الكلبي، ومنه قول أبي ذؤيب:

إذا ماتت عن الدنيا حياتي... فيا ليت القيامة عن فواق

التاسع: ما لهؤلاء المشركين بعد ذلك إفاقة ولا رجوع إلى الدنيا. قاله السدي.

=

العاشر: ما لهم منها من إفاقة، بل تهلكهم. وهذا قول ابن زيد.

قال ابن زيد:"ما ينتظرون إلا صيحة واحدة ما لها من فواق، يا لها من صيحة لا يفيقون فيها كما يفيق الذي يغشي عليها وكما يفيق المريض تهلكهم، ليس لهم فيها إفاقة".

الحادي عشر: ما لتلك الصيحة من فتور ولا انقطاع. وهذا قول الطبري.

قال السمعاني:"الفواق -في اللغة-: ما بين الحلبتين، والمعنى: أن العذاب لا يمهلهم، ولا يلبثهم بذلك القدر".

قال العثيمين: قوله تعالى: {وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ (١٥)} ينظر إذا تعدت بـ"إلى" فهي نظر العين، وإن جاءت متعدية بنفسها صارت بمعنى الانتظار، وإن جاءت مطلقة فهي على حسب السياق، يعني إذا جاءت غير مقيدة بحرف جر، ولا مقيدة بمفعول، فهي على حسب السياق، مثال التي قيدت بـ"إلى" قوله تعالى: {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (٢٢) إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ} [القيامة: ٢٢ - ٢٣] فإن ناظرة هنا بمعنى باصرة بالعين؛ لأنها تعدت بـ"إلى" وأضيفت إلى الوجوه أيضًا التي هي مكان العيون، وإذا جاءت متعدية بنفسها فإنها تكون بمعنى الانتظار، ومنه قوله تعالى: {فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا} [محمد: ١٨] وقد تأتي متعدية ويكون المراد بها نظر العبرة والتفكر كما في قوله تعالى: {قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ} [يونس: ١٠١] وإن جاءت مطلقة غير متعدية بنفسها ولا بـ"إلى" فهي بحسب السياق، مثل قوله تعالى: {عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ} [المطففين: ٢٣] منهم من قال: ينظرون بمعنى ينتظرون النعيم الذي يُؤتى به إليهم، ومنهم من قال: ينظرون، أي: ينظرون إلى ما أنعم الله به عليهم، ومنه النظر إلى وجه الله.

=

{وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً} متعدية بنفسها، فهي بمعنى ينتظر، أي: ما ينتظر هؤلاء، أي كفار أهل مكة، كما قال المصنف: [أي: كفار مكة] {إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً} يصاح بهم، واحدة لا تعاد مرة أخرى، كما قال الله تعالى: {بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ} [القمر: ٤٦]، وقال أيضًا: {إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (٤٩) وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ} [القمر: ٤٩ - ٥٠]، وقال: {إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ} [يس: ٥٣] فالصيحة هي التي تكون يوم القيامة، كما قال المصنف: [هي نفخة القيامة تحل بهم العذاب] وهي الساعة، هذه الصيحة الواحدة {مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ (١٥)} [بفتح الفاء وضمها، أي: رجوع].

{مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ (١٥)} ما: نافية، وليست هنا حجازية لاتفاق التميميين والحجازيين على عدم عملها، لأن الحجازيين يعملونها بشرط الترتيب، أي: تقدم الاسم على الخبر، وهنا لم يتقدم الاسم على الخبر، بل تأخر، فهي إذًا نافية، ولها: جار ومجرور خبر مقدم. و {مِنْ فَوَاقٍ} من: حرف جر زائد للتأكيد، و {فَوَاقٍ} مبتدأ مرفوع بضمة مقدرة على آخره منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف الجر الزائد. أما من حيث التصريف قال المصنف: [إنها بفتح الفاء وضمها] فَواق وفُواق، ومعناه الرجوع وقيل: معناه الإمهال، يعني إنها لا تمهلهم، بل تأخذهم بسرعة، وقيل: إنها إن كانت فَواق فهي بمعنى الرجوع لأنها من أفاق يفيق إذا رجع إلى عقله، وإذا كانت فُواق فهي بمعنى الإمهال مأخوذ من قولهم: فُواق الناقة، وفُواق الناقة: هو ما بين الحَلْبَتيْنِ أو ما بين الرَّضْعَتيْنِ. ما بين الحلبتين إذا كانت تُحلب، وهي مدة وجيزة، مثاله: يعصر الإنسان الثدي ثم يتوقف ثم يعود ويعصره، فالمدة بين الحلبتين قليلة، وكذلك بين الرضعتين. الطفل الرضيع إذا كان يرضع ثدي الأم، يمص ثم يمص. وهم يطلقون هذا على سرعة الشيء وعدم

وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ (١٦).

{وَقَالُوا} لَمَّا نَزَلَ {فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابه بِيَمِينِهِ} إلَخْ {رَبّنَا عَجِّل لَنَا قِطّنَا} أَيْ كِتَاب أَعْمَالنَا {قَبْل يَوْم الْحِسَاب} قَالُوا ذَلِكَ استهزاء[1].

=

إمهاله، ويمكن أن نقول: إن القراءتين تجمعان المعنيين، فيكون معنى {مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ (١٥)} أي: ما لها من رجوع ولا إمهال.

(١)قوله تعالى: {وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ} [ص: ١٦].

في {وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا} [ص: ١٦]، وجوه من التفسير:

أحدها: معنى ذلك: عجل لنا حظنا من الجنة التي وعدتنا، قاله سعيد بن جبير.

الثاني: عجل لنا نصيبنا من العذاب الذي وعدتنا استهزاء منهم بذلك، قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة.

قال ابن عباس:"سألوا الله أن يعجل لهم العذاب قبل يوم القيامة".

قال قتادة:"أي: نصيبنا حظنا من العذاب قبل يوم القيامة، قال: قد قال ذلك أبو جهل: اللهمّ إن كان ما يقول محمد حقا {فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ} ... الآية".

الثالث: عجل لنا رزقنا، قاله إسماعيل بن أبي خالد.

الرابع: أرنا منازلنا في الجنة حتى نتابعك، قاله السدي.

الخامس: عجل لنا في الدنيا كتابنا في الآخرة وهو قوله: {فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ... وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ} [الحاقة: ١٩ - ٢٥] لينظروا بأيمانهم يعطونها أم بشمائلهم؟ وذلك استهزاء منهم بذلك. قاله الفراء.

قال الفراء:"«القط»: الصحيفة المكتوبة. وإنما قالوا ذلك حين نزل: {فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ} [الحاقة: ١٩، الإنشقاق: ٧]، فاستهزءوا بذلك، وقالوا: عجل

=

=

لنا هذا الكتاب قبل يوم الحساب. والقط في كلام العرب. الصك وهو الخط والكتاب".

قال ابن قتيبة:"«القط»: الصحيفة المكتوبة؛ وهي الصك".

قال أبو عبيدة:"القطّ: الكتاب، قال الأعشى:

وَلا المَلِكُ النُّعْمَانُ يَوْمَ لَقِيتُهُ... بأمّته يُعْطِي القُطُوطَ وَيأْفِقُ

القطوط: الكتب بالجوائز، ويأفق: يفضل ويعلو، يقال: ناقة أفقة وفرس أفق إذا فضله على غيره".

قال الزجاج: «القط»: النصيب، وأصله: الصحيفة يكتب للإنسان فيها شيء يصل إليه.. واشتقاق «القط» من: قططت، أي: قطعت. وكذلك النصيب إنما هو القطعة من الشيء".

قال الماوردي:"وأصل «القط»: القطع، ومنه قط القلم وقولهم ما رأيته قط أي قطع الدهر بيني وبينه وأطلق على النصيب".

قال الطبري:"وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب أن يقال: إن القوم سألوا ربهم تعجيل صِكاكهم بحظوظهم من الخير أو الشر الذي وعد الله عباده أن يؤتيهموها في الآخرة قبل يوم القيامة في الدنيا استهزاء بوعيد الله. وإنما قلنا إن ذلك كذلك، لأن القطّ هو ما وصفت من الكتب بالجوائز والحظوظ، وقد أخبر الله عن هؤلاء المشركين أنهم سألوه تعجيل ذلك لهم، ثم أتبع ذلك قوله لنبيه: {اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ} فكان معلوما بذلك أن مسألتهم ما سألوا النبي ﷺ لو لم تكن على وجه الاستهزاء منهم لم يكن بالذي يتبع الأمر بالصبر عليه، ولكن لما كان ذلك استهزاء، وكان فيه لرسول الله ﷺ أذى، أمره الله بالصبر عليه حتى يأتيه قضاؤه فيهم، ولما لم يكن في قوله {عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا} بيان أيّ القطوط إرادتهم، لم

=

=

يكن لما توجيه ذلك إلى أنه معني به القطوط ببعض معاني الخير أو الشرّ، فلذلك قلنا إن مسألتهم كانت بما ذكرت من حظوظهم من الخير والشر".

قال ابن كثير:"وهذا الذي قاله جيد، وعليه يدور كلام الضحاك وإسماعيل بن أبي خالد والله أعلم ".

قال العثيمين: قوله تعالى: {وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ (١٦)} لما توعدهم الرسول عليه الصلاة والسلام بيوم القيامة، وأن لهم العذاب فيه، تحدوا الرسول عليه الصلاة والسلام، بل تحدوا الله {وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا} بمعنى نصيبنا، يقولون ذلك تحديًا واستكبارًا وعنادًا -والعياذ بالله- وهذا كقولهم: {وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ} [الأنفال: ٣٢] هذا قول معاند مستكبر، وكان الواجب عليهم أن يقولوا: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه ووفقنا له. هذا الواجب، أما أن يقولوا: {فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ} فهذا لا شك أنه في غاية الاستكبار -والعياذ بالله-.

قال المصنف: [وقالوا لما نزلت {فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ} [الحاقة: ١٩] {رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا} أي: كتاب أعمالنا {قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ} قالوا ذلك استهزاءً] ما ذهب إليه المصنف يحتمله اللفظ، لكن لا دليل عليه فيه، والصحيح أن المراد بقطنا، أي: نصيبنا من العذاب الذي توعدتنا به، وقلت إنه سيأتيكم عذاب كما أتى الأحزاب من قبلكم، فكأنهم يقولون: إذا كان الأحزاب قد أوتوا العذاب من قبلنا فليأتنا نصيبنا. وهذا لا شك أنه في غاية ما يكون من التحدي والسخرية والاستكبار -والعياذ بالله- وأنت تعجب أن تصل الحال بالبشر، إلى هذا التحدي -والعياذ بالله- ولكن الشيطان عدو للإنسان، فإذا أطاعه حمله على شيء، يكاد الإنسان أن يقول: إن هذا الشيء لا يمكن أن يقع.

اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ (١٧).

قال تعالى﴿ اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْد﴾ أَيْ الْقُوَّة فِي الْعِبَادَة كَانَ يَصُوم يَوْمًا وَيُفْطِر يَوْمًا وَيَقُوم نِصْف اللَّيْل وَيَنَام ثُلُثه وَيَقُوم سُدُسه ﴿إِنَّهُ أَوَّاب﴾ رَجَّاعٌ إِلَى مَرْضَاة الله[1].

---

(١)قوله تعالى: ﴿اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾ [ص: ١٧].

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: اصبر يا محمد على ما يقول مشركو قومك لك مما تكره قيلهم لك، فإنا ممتحنوك بالمكاره امتحاننا سائر رسلنا قبلك، ثم جاعلو العلوّ والرفعة والظفر لك على من كذبك وشاقك سنتنا في الرسل الذين أرسلناهم إلى عبادنا قبلك".

قال ابن كثير:"ولما كان هذا الكلام منهم على وجه الاستهزاء والاستبعاد قال الله تعالى لرسوله ﷺ آمرا له بالصبر على أذاهم ومبشرا له على صبره بالعاقبة والنصر والظفر ".

قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ﴾ [ص: ١٧]، أي:"واذكر عبدنا داود صاحب القوة على أعداء الله والصبر على طاعته".

قال الطبري:"يعني بقوله ﴿ذَا الأيْدِ﴾: ذا القوّة والبطش الشديد في ذات الله والصبر على طاعته".

قال الماوردي:"أي: فإنا نحسن إليك كما أحسنا إلى داود قبلك بالصبر".

قال ابن كثير:"يذكر تعالى عن عبده ورسوله داود عليه السلام: أنه كان ذا أيد والأيد: القوة في العلم والعمل".

قال الزجاج: " ذا القوة، وكانت قوته على العبادة أتم قوة، كان يصوم يوما ويفطر يوما، وذلك أشد الصوم، وكان يصلي نصف الليل".

وفي قوله تعالى: ﴿ذَا الْأَيْدِ﴾ [ص: ١٧]، قولان:

=

=

أحدهما: ذا النعم التي أنعم الله بها عليه، لأنها جمع يد حذفت منه الياء، و «اليد»: النعمة. حكاه الماوردي.

الثاني: ذا القوة، قاله ابن عباس، والفراء، وأبو عبيدة. ومنه قوله تعالى: {وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْد} [الذاريات: ٤٧]، أي: بقوة، وبعض العرب تقول آد، ومنه قول العجاج:

من أن تبدّلت بآدى آدا

يعني: بشبابي قوة المشيب، ومنه قول الآخر:

إن القداح إذا اجتمعن فرامها... بالكسر ذو جَلَد وبطش أيِّد

يعني بالأيد: القوي.

ف «الأيد» و «الآد»: القوة، ويقال: أَيَّدَه وآيده: إذا قواه، وآدَ يَئِيدُ أَيْدًا: إذا قوي، قال امرؤ القيس:

فَأَثَّتْ أَعَاليه وآدَتْ أُصولُه... ومال بقُنْيَانٍ من البُسْرِ أحمرا

أي: قويت وإياد كل شيء: ما يَقْوَى به، يقال منه: أيدك الله، أي قواك، وهو رجل ذو أَيْد، وذو آد، يراد: ذو قوة.

وفيما نسب داود إليه من القوة، ثلاثة أقوال:

أحدها: ذا القوة في طاعة الله، قاله مجاهد، والسدي، و ابن زيد، ومقاتل.

قال ابن زيد:"ذا القوّة في عبادة الله، الأيد: القوّة، وقرأ: {وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ}، قال: بقوة".

وفي الحديث: «إن أحب الصيام إلى الله صيام داود، وأحب القيام إلى الله قيام داود، كان ينام نصف الليل، ويقوم ثلثه وينام سُدسَه، وكان يصوم يومًا ويفطر يومًا، ولا يَفر إذا لاقى».

الثاني: ذا القوة في طاعة الله والبصر في الحق. قاله مجاهد ايضا.

=

=

الثالث: ذا القوة في العبادة والفقه في الدين. قاله قتادة.

قال الطبري:"وقد ذُكر لنا أن داود ﷺ كان يقوم الليل ويصوم نصف الدهر".

قوله تعالى: {إِنَّهُ أَوَّابٌ} [ص: ١٧]، أي:"إنه توَّاب كثير الرجوع إلى ما يرضي الله".

قال الطبري:"يقول: إن داود رَجَّاع لما يكرهه الله إلى ما يرضيه أواب، وهو من قولهم: آب الرجل إلى أهله: إذا رجع".

وفي قوله تعالى: {إِنَّهُ أَوَّابٌ} [ص: ١٧]، وجوه من التفسير:

أحدها: أنه رجّاع عن الذنوب. قاله مجاهد.

وروي عن سعيد بن المسيب، قال:"الذي يصيب الذنب ثم يتوب ثم يصيب الذنب ثم يتوب".

قال ابو عبيدة:"الأوّاب: الرّجّاع وهو التواب، مخرجها، من: آب إلى أهله، أي: رجع، قال يزيد بن ضبّة الثقفيّ: والبيت لعبيد بن الأبرص:

وكل ذى غيبة يؤوب... وغائب الموت لا يؤوب

أي: لا يرجع".

الثاني: أنه الذي يؤوب إلى طاعة الله ويرجع إليها، والأوّاب: المطيع. قاله ابن زيد.

قال الزجاج: "رجّاع إلى الله كثيرا، «الآيب»: الراجع، و «الأواب» الكثير الرجوع".

الثالث: أي: كان مطيعا لله كثير الصلاة. قاله قتادة.

الرابع: أنه المحسن. قاله سعيد بن جبير، وقتادة.

الخامس: أنه المطيع المحسن. قاله ابن عباس.

وقال مقاتل:"يعني: مطيع".

السادس: أنه التوّاب. قاله ابن عباس أيضا.

=

=

السابع: أنه المسبح، قاله السدي، وعمرو بن شرحبيل، والكلبي.

الثامن: أنه الذي يذكر ذنوبه في الخلاء فيستغفر منها وهذا قول مجاهد، وعبيد بن عمير.

قال الطبري:"وأولى الأقوال في ذلك بالصواب، قول من قال: «الأواب»: هو التائب من الذنب، الراجع من معصية الله إلى طاعته، ومما يكرهه إلى ما يرضاه، لأن «الأواب» إنما هو فعال، من قول القائل: آب فلان من كذا إما من سفره إلى منزله، أو من حال إلى حال، كما قال عبيد بن الأبرص:

وكل ذي غيبة يئوب... وغائب الموت لا يئوب

فهو يئوب أوبا، وهو رجل آئب من سفره، وأواب من ذنوبه".

قال العثيمين: قوله تعالى: {اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ} هم بقولهم: {رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا} يريدون بذلك مضايقة الرسول عليه الصلاة والسلام حتى يضجر ويتعب نفسيًا وفكريًا وربما جسميًا، ولا شك أن هذا يؤذي الداعية.

وأنت لو دعوتَ إلى الله وقام واحد وقال: أهذا ما تتوعدنا به! ائتنا به، عجل لنا به، لا شك أنك تضيق، فالرسول ﷺ بشر، لكنِ الربّ عز وجل يُصَبِّره شرعًا، ويعينه على ذلك قدرًا، يصبره شرعًا بالأمر اصبر اصبر ويعينه -على ذلك قدرًا، فقد صبر النبيُّ صبراً لا يصبره أحد، قال تعالى: {فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ} [الأحقاف: ٣٥].

والعجيب أن من صبره أنه صبر حين المقدرة عليهم، صبر على العذاب الذي يكون بيده، وعلى العذاب الذي يكون من عند الله، صبر على العذاب الذي يكون بيده حين فتح مكة ووقف على باب الكعبة وقريش تحته وقال: "يا معشر قريش، ما ترون أني فاعل بكم؟ " قالوا: خيرًا، أخ كريم، وابن أخ كريم، قال: "اذهبوا فأنتم الطلقاء" في هذا الحال يستطيع أن يبطش بهم فكلهم أذلة بين يديه، لكن قال:

=

=

"اذهبوا فأنتم الطلقاء" بل قال قبل ذلك: "من دخل داره فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن" كل هذا من باب التسامح والعفو مع المقدرة.

أما عفوه وتسامحه مع المقدرة بأمر يوقعه الله سبحانه تعالى فيهم، فإنه لما رجع من الطائف بعد أن فعل به أهل الطائف ما فعلوا أرسل الله إليه جبريل ومعه ملك الجبال، وقال: إن الله يقرئك السلام وهذا ملك الجبال يفعل ما تأمر به، فقال له ملك الجبال: إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين لفعلت، ولكن الرسول ﷺ قال: "بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده، لا يشرك به شيئًا" اللهم صلِّ وسلم عليه.

انظر إلى العفو وإلى النظر البعيد، فأخرج الله -ولله الحمد- من أصلاب هؤلاء مَن عبد الله ولم يشرك به، وكانوا أئمة يهدون بأمر الله، فالنبي عليه الصلاة والسلام يجد المضايقات العظيمة من قريش لكنه يصبر على كل أذى، ولهذا قال الله له: {اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ} [ص: ١٧] اصبر على ما يقولون من أقوال الاستهزاء والسخرية والكذب، قالوا: إنه ساحر مجنون كذاب كاهن، ولكنه يصبر، صبر على ما يقولون، وصبر على ما يفعلون أيضًا، أعظم شيء علمت به أنه كان ذات يوم ساجدًا عند الكعبة في آمن مكان، وأعظمه حرمة، وأقرب ما يكون من ربه، ساجدًا لله، وكان حوله ملأ من قريش، فقالوا: من ينتدب لنا يأتي بسلا جزور بني فلان يضعه على محمَّد وهو ساجد، فانتدب أشقاهم، وذهب وأتى بسلا الجزور ووضعه على ظهره، دم وروث وقدر ونجاسة على ظهره وهو ساجد، ولكنه لم يقم من السجود حتى جاءت ابنته فاطمة وهي صغيرة فأزاحته عنه، فقام ﷺ، ثم لما فرغ من الصلاة دعا الله عليهم، فأجاب الله دعوته، فعذبهم بيده، وسُحِبوا في

=

=

قليب بدر في غزوة بدر جثثًا منتنة خبيثة، وطرحوا في أحد الآبار هنالك. اللهم انصر الحق أينما كان يا رب العالمين.

قال تعالى: {اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ} الخطاب في قوله تعالى: {اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ} لرسول الله ﷺ، أمره الله أن يصبر على ما يقوله له أعداؤه مما يتعلق بجانب الرب عز وجل من إنكار توحيده، ومما يتعلق بالرسول ﷺ من وصفه بأنه كذاب وساحر ومجنون، ومما يتعلق بأصحابه، وكل ما يقولون مما يسوءُ الرسولَ عليه الصلاة والسلام. أمره الله تعالى أن يصبر عليه، وكذلك أيضًا أن يصبر على ما يفعلون؛ لأن أذية المشركين له كانت بالقول وبالفعل جمعًا وإفرادًا.

والصبر هو حبس النفس عما لا يجوز في مقابلة البلية والمصيبة. وقد قسم العلماء رحمهم الله الصبر إلى ثلاثة أقسام فقالوا: صبر على أقدار الله المؤلمة، وصبر عن محارم الله، وصبر على طاعة الله، وهذا الأخير هو أعلى أنواع الصبر، لأن الصبر الأول هو صبر قهري. فالصبر على المصائب صبر قهري، لأن المصائب لم تقع باختيارك، وإنما هي بغير إرادتك فأنت أمامها إما أن تصبر صبر الكرام، وإما أن تسلوا سلوَّ البهائم، ثم الصبر عن محارم الله دون الصبر على أوامره، وذلك أن الصبر على محارم الله ليس فيه إلا كف النفس فقط، والكف أسهل من الفعل، وأما الصبر على الطاعة فهو أعلاها؛ لأن فيه صبراً على كفّ النفس وعلى فعلها، على كف النفس عن ترك هذا المأمور به، وعلى الفعل يرغمها على أن تفعل؛ ولهذا قال أهل العلم: إن الصبر على أوامر الله أفضل من الصبر عن نواهيه، والصبر عن نواهي الله أفضل من الصبر على أقدار الله المؤلمة.

ومن ثم لو سألنا سائلٌ: أيما أعلى مقامًا وأفضل، صبر يوسف عليه الصلاة والسلام على الحبس، أو صبره عن فعل الفاحشة بامرأة العزيز؟ قلنا: صبره عن الفاحشة أعظم وأعلى مرتبة.

=

=

قال تعالى: {اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ} أي: في الله أولًا، لأن السورة من أولها في إنكار توحيد ألوهية الله، وفي الرسول، وفيما جاء به، وفي أصحابه. {وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ} اذكر يحتمل أن يكون من الذكر، أي: الإخبار عن حاله، أي: اذكر للناس قصة داود، ويحتمل أن اذكر بمعنى تذكر داود، وإذا كان اللفظ يحمل معنيين لا يتنافيان، فالقاعدة التفسيرية أن يحمل عليهما جميعًا، لأنه كلما كانت دلالة الآية أشمل وأعمّ كان أولى. {عَبْدَنَا دَاوُودَ} وصف الله داود عليه الصلاة والسلام بالعبودية، وهذه أخص أنواع العبودية، لأن العبودية إما عامة، وإما خاصة، وإما خاصة الخاصة، فوصف الرسل بالعبودية خاصة الخاصة، ووصف المؤمنين بالعبودية خاصة، ووصف عموم الناس بالعبودية عامة، وعليه فالعبودية في قوله تعالى: {إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا} [مريم: ٩٣] عامة، وفي قوله تعالى: {وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا} [الفرقان: ٦٣] خاصة، وفي قوله: {وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ} خاصة الخاصة، وداود من أنبياء بني إسرائيل وهو بعد موسى، والدليل قوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا} [البقرة: ٢٤٦] وفي أثناء القصة قال: {وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ} [البقرة: ٢٥١] إذًا فهو من بني إسرائيل من بعد موسى عليه الصلاة والسلام.

قال: {دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ} قال المصنف رحمه الله: [{ذَا الْأَيْدِ} أي: القوة في العبادة] إذًا فالأيد ليست جمع يد، بل هي مفرد مصدر آد يئيدُ أيْدًا، ونظيره في التصريف باع يبيع بيعًا، وكال يكيل كيلًا، إذًا الأيد: القوة، ونظيرها قوله تعالى: {وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ} [الذاريات: ٤٧] أي: بقوة، وقول المصنف رحمه الله: [القوة في العبادة]، ينبغي أن يقال: القوة مطلقًا في العبادة وغير العبادة حتى في الملك؛ لأن الله قال في هذه الآيات: {وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ} [ص: ٢٠] فهو ذو أيد في كل ما تكون القوة فيه

=

إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ (١٨).

{إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَال مَعَهُ يُسَبِّحْنَ} بِتَسْبِيحِهِ {بِالْعَشِيِّ} وَقْت صَلَاة الْعِشَاء {وَالْإِشْرَاق} وَقْت صَلَاة الضُّحَى وَهُوَ أَنْ تُشْرِق الشَّمْس وَيَتَنَاهَى ضَوْءُهَا.

وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ (١٩).

=

صفة مدح، إذًا الأيد الأَوْلى أن نجعلها عامة في كل ما تكون القوة فيه، وهذه صفة مدح؛ لأن المقام مقام مدح لداود عليه الصلاة والسلام، ولهذا أمر الله نبيه ﷺ أن يذكره.

قال المصنف: [{ذَا الْأَيْدِ} أي: القوة في العبادة، كان يصوم يومًا ويفطر يومًا، ويقوم نصف الليل، وينام ثلثه، ويقوم سدسه] هذا عكس ما جاء في الحديث: "كان ينام نصف الليل، ويقوم ثلثه، وينام سدسه" فالعبارة فيها انقلاب على المصنف، كان عليه الصلاة والسلام ينام نصف الليل؛ ليعطي نفسه حظها من الراحة، وليجدد نشاطه، لأن في النوم فائدتين للجسم: الأولى: قطع التعب السابق والاستراحة منه، كما قال الله تعالى: {وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا} [النبأ: ٩] أي: قطعًا لا حصل من المشقة والتعب، واستعداد الجسم للقوة في المستقبل، ولهذا إذا نام الإنسان وهو مشته للنوم، ثم قام وجد نفسه نشيطًا، فكان ينام نصف الليل، ويقوم ثلثه، وينام سدسه، لأجل أن يعطي نفسه راحتها من تعب قيام الليل، وهكذا كان الرسول عليه الصلاة والسلام يفعل، فكان لا تُلْفِيهِ السحرَ إلا نائمًا، أي: غالب أحيانه ينام عليه الصلاة والسلام في آخر الليل.

يقول الله تعالى: {إِنَّهُ أَوَّابٌ (١٧)} الجملة استئنافية لبيان حال داود: أنه قوي، وأنه رجَّاع إلى الله سبحانه وتعالى، كلما حدثته نفسه بالكسل عاد فنشط، وكلما حصل منه زلة عاد فتاب إلى الله. والأواب صيغة مبالغة من آب يؤوب، واسم الفاعل "آئِب"، وصيغة المبالغة أوّاب. قال المصنف: [رجاع إلى مرضاة الله].

{و} سخرنا {الطير محشورة} مَجْمُوعَة إلَيْهِ تُسَبِّح مَعَهُ {كُلّ} مِنْ الْجِبَال وَالطَّيْر {لَهُ أَوَّاب} رَجَّاعٌ إلَى طَاعَته بِالتَّسْبِيحِ(١).

---

(١)قوله تعالى: {إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ} [ص: ١٨].

قال الطبري: يقول:"إنا سخرنا الجبال يسبحن مع داود بالعشيّ، وذلك من وقت العصر إلى الليل، والإشراق، وذلك بالغداة وقت الضحى".

قال ابن كثير:"أي: إنه تعالى سخر الجبال تسبح معه عند إشراق الشمس وآخر النهار، كما قال تعالى: {يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ} [سبأ: ١٠]، وكذلك كانت الطير تسبح بتسبيحه وترجع بترجيعه إذا مر به الطير وهو سابح في الهواء فسمعه وهو يترنم بقراءة الزبور لا تستطيع الذهاب بل تقف في الهواء وتسبح معه وتجيبه الجبال الشامخات ترجع معه وتسبح تبعا له".

قال قتادة:"يسبحن مع داود إذا سبح بالعشيّ والإشراق".

عن ابن زيد، قوله: " {بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ}، قال: حين تُشرق الشمس وتضحى".

عن ابن عباس:"أنه بلغه أن أم هانئ ذكرت أن رسول الله ﷺ يوم فتح مكة، صلى الضحى ثمان ركعات، فقال ابن عباس: قد ظننت أن لهذه الساعة صلاة، يقول الله: {يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ} ".

عن عبد الله بن الحارث بن نوفل:"أن ابن عباس كان لا يصلي الضحى، قال: فأدخلته على أم هانئ، فقلت: اخبري هذا بما أخبرتني به، فقالت أم هانئ: دخل عليّ رسول الله ﷺ يوم الفتح في بيتي، فأمر بماء فصب في قصعة، ثم أمر بثوب فأخذ بيني وبينه، فاغتسل، ثم رشّ ناحية البيت فصلى ثمان ركعات، وذلك من الضحى قيامهنّ وركوعهنّ وسجودهنّ وجلوسهنّ سواء، قريب بعضهن من بعض، فخرج ابن عباس، وهو يقول: لقد قرأت ما بين اللوحين، ما عرفت صلاة =

=

الضحى إلا الآن {يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ} وكنت أقول: أين صلاة الإشراق، ثم قال: بعد هنّ صلاة الإشراق".

قال الزجاج: " الإشراق: طلوع الشمس وإضاءتها، يقال شرقت الشمس إذا طلعت. وأشرقت إذا أضاءت، وقد قيل شرقت وأشرقت إذا طلعت في معنى واحد. والأول أكثر".

قوله تعالى: {وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً} [ص: ١٩]، أي:"وذلّلنا لداود الطير وسخّرناها مجموعة من كل صنف ومكان".

قال ابن كثير:"أي: محبوسة في الهواء".

قال الطبري: يقول:"وسخرنا الطير يسبحن معه مجموعة له؛ ذكر أنه ﷺ كان إذا سبح أجابته الجبال، واجتمعت إليه الطير، فسبحت معه واجتماعها إليه كان حشرها".

عن قتادة: " {وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً}: مسخَّرة".

قوله تعالى: {كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ} [ص: ١٩]، أي:"كل واحد من الجبال والطير لأجل تسبيحه رجّاع إلى التسبيح".

قال ابن كثير: أي:" {كُلٌّ لَهُ} مطيع يسبح تبعا له".

قال الطبري:"يقول: كل ذلك له مطيع رجَّاع إلى طاعته وأمره. ويعني بالكلّ: كلّ الطير".

وفي قوله تعالى: {كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ} [ص: ١٩]، ثلاثة وجوه من التفسير:

أحدها: كل له مطيع، يعني داود والجبال والطير. قاله قتادة، وابن زيد.

قال مقاتل:"يقول: كل الطير لداود مطيع".

الثاني: معناه: كل مسبح لله. قاله السدي.

=

=

الثالث: كل يرجعن التسبيح مع داود، أي: الجبال والطير. ذكره الزجاج، والنحاس.

قال الزجاج: " كانت الجبال ترجع التسبيح، وكانت الطير كذلك، فيجوز أن تكون «الهاء» لله – جل وعز – أي: كل لله مسبح، الطير والجبال وداود يسبحون لله عز وجل، ويرجعون التسبيح.

ويجوز – والله أعلم – أن يكون {كل له أواب}: كل يرجعن التسبيح مع داود، يجبنه، كلما سبح سبحت الجبال والطير معه".

قال السمعاني:"«الأواب» -ها هنا-: هو المسبح، والتسبيح هو عبادة أهل السموات والأرض".

قال العثيمين: قوله تعالى: {إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ} أي: ذللناها له، والله سبحانه وتعالى يذل له كل شيء، فسخر الله الجبال، أي: ذللها حتى تسبح بتسبيح داود، وهي، أي: الجبال تسبح تسبيحًا مطلقًا، وهذا هو التسبيح العام، وتسبح تسبيحًا خاصًا، كما أمرت أن تسبح مع داود عليه الصلاة والسلام، وإلا فهي تسبح تسبيحًا عامًّا مطلقًا، كما قال الله تعالى: {تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ} [الإسراء: ٤٤] أي: ما من شيء إلا يسبح بحمده {وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا} [الإسراء: ٤٤].

أما التسبيح الذي سخر الله الجبال عليه مع داود فهو تسبيح خاصّ {إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ (١٨)} والجبال جمع جبل وهو معروف، {مَعَهُ}، أي: مع داود قال المصنف رحمه الله: [يسبحن بتسبيحه {بِالْعَشِيِّ}: وقت صلاة العشاء {وَالْإِشْرَاقِ}: وقت الضحى]. قوله: {يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ} الباء هنا ظرفية بمعنى "في" لكن يظهر- والله أعلم- أنه إذا أريد بالظرفية استيعاب الوقت أُتي بدل "في" بالباء، لأن الباء تدل على الاستيعاب والإحاطة كما في قوله

=

=

تعالى: {وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ} [الحج: ٢٩] وكما قال: {فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا} [البقرة: ١٥٨] ولهذا لا بد من استيعاب البيت بالطواف، واستيعاب ما بين الصفا والمروة في السعي. إذًا الباء هنا للظرفية لكنها جاءت مكان "في" للدلالة على الاستيعاب، يعني كل العشي.

وقول المصنف: [{بِالْعَشِيِّ}: وقت صلاة العشاء، هذا فيه نظر، والصحيح أن المراد بالعشي آخر النهار، كما قال تعالى: {وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا} [الأحزاب: ٤٢]. فالمراد بالعشي آخر النهار، وفي حديث أبي هريرة المشهور بحديث ذي اليدين، قال: صلىَّ بنا الرسول ﷺ إحدى صلاتي العشي. يعني الظهر أو العصر.

قال المصنف: [{وَالْإِشْرَاقِ}: وقت صلاة الضحى، وهو أن تشرق الشمس ويتناهى ضوؤها] هناك إشراق، وهناك شروق، وبينهما فرق، فالشروق ظهور الشمس، يقال: شرقت الشمس، يعني ظهرت، والإشراق: ارتفاع الشمس حتى يصحو ضوؤها وتكون بيضاء، فالإشراق معناه دخول الشمس في الإضاءة الكاملة البيضاء، والشروق ظهور الشمس، فإذا طلع حاجب الشمس من المشرق، يقال له: شروق، وإذا ارتفعت حتى زادت حمرتها أو صفرتها، يقال: إشراق. {يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ} أي: بعد أن ترتفع الشمس ويحسن ضوؤها.

{وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً} قال المصنف رحمه الله: [وسخرنا الطير] أفادنا المصنف أن الطير معطوفة على الجبال. أي: سخرنا الجبال وسخرنا الطير، وليست معطوفة على الضمير المستتر في قوله: {يُسَبِّحْنَ} على أنها مفعول معه، وقد يقول القائل: يسبحن والطيرَ، كقوله: {يَاجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ} [سبأ: ١٠] فالمصنف رحمه الله أفادنا بتقدير: سخرنا، أن الطيرَ معطوفة على الجبال، وقوله: {مَحْشُورَةً} منصوبة على الحال، يعني والطير حال كونها محشورة.

=

وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ (٢٠).

{وَشَدَدْنَا مُلْكه} قَوَّيْنَاهُ بِالْحَرَسِ وَالْجُنُود وَكَانَ يَحْرُس مِحْرَابه فِي كُلّ لَيْلَة ثَلَاثُونَ أَلْف رَجُل {وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَة} النُّبُوَّة وَالْإِصَابَة فِي الْأُمُور {وَفَصْل

=

فإذا قال قائل: لماذا لا تجعلونها صفة للطير؟ قلنا: الذي يمنع من أن تكون صفة أنها لم توافق الموصوف في التعريف، والصفة تتبع الموصوف في التنكير والتعريف، و (محشورة) نكرة، بينما (الطير) معرفة.

{مَحْشُورَةً} يقول المصنف: [مجموعة إليه تُسبِّح معه] لو قال قائل: أليست الحال صفة؟ فلماذا لا نقول: محشورة صفة للطير؟ نقول: هي صفة في المعنى، والخبر خبر مبتدأ صفة للمعنى، وما يعرف بالنعت عند النحويين صفة، لكن لا يلزم من الصفة في المعنى أن تكون صفة له في اللفظ.

قال المصنف: [{كُلٌّ} من الجبال والطير {لَهُ أَوَّابٌ (١٩)} رجَّاع إلى طاعته بالتسبيح]. {كُلٌّ} منونة تنوينًا يُسمّى تنوين العَوض. كلّ وبعض تنوينهما تنوين عوض، وذلك لأنه لا بد من إضافة، ولكن قد يحذف المضاف إليه ويعوض عنه التنوين. كمثل كلّ والتقدير بدون قطع الإضافة: كلهن، أي: الجبال والطير، لأنها لا تعقل، كلهن له أواب، فحذف المضاف إليه وعوض عنه التنوين. قال المصنف: [من الجبال والطير] هذه بيان للمضاف إليه، يعني أنها على تقدير كلهن، أي: الجبال والطير، {لَهُ} أي: لداود {أَوَّابٌ} أي: رجّاع إلى طاعته بالتسبيح، ويحتمل أن يكون رجّاع بمعنى أن هذه الطيور تذهب وتتعيش ثم ترجع لأجل أن تُؤَوِّب معه، والسياق والمعنى لا يمنعه، فكلٌّ من الجبال والطير أواب إلى داود بمعنى مطيع له، وبمعنى آخر بالنسبة للطير أنها ترجع إليه بعد أن تذهب لتقوم بقوتها ثم تعود إليه.

الخطاب} البيان الشافي في كل قصد[1].

---

(١)قوله تعالى: {وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ} [ص: ٢٠].

في تفسير الآية ثلاثة وجوه:

أحدها: بالتأييد والنصر. حكاه الماوردي.

الثاني: بالجنود والرجال. قاله السدي.

قال الفراء:"معنى «التشديد»: أن محرابه كان يحرسه ثلاثة وثلاثون ألفا".

قال السدي:"كان يحرسه كلّ يوم وليلة أربعة آلاف، أربعة آلاف".

قال مقاتل:"كان يحرسه كل ليلة ثلاثة وثلاثون ألفا من بني إسرائيل".

الثالث: كان الذي شدد به ملكه، أن أعطي هيبة من الناس له لقضية كان قضاها. وهذا قول ابن عباس.

قال الزجاج:"معناه: قوينا ملكه، فكان من تقوية ملكه أنه كان يحرس محرابه في كل ليلة ثلاثة وثلاثون ألفا من الرجال. وقيل أيضا إن رجلا استعدى إليه على رجل، فادعى عليه أنه أخذ منه بقرا، فأنكر المدعى عليه فسأل داود المدعي البينة فلم يقمها، فرأى داود في منامه أن الله يأمره أن يقتل المدعى عليه، فتثبت داود، وقال هو منام، فأتاه الوحي بعد ذلك أن يقتله فأحضره ثم أعلمه أن الله أمره بقتله، فقال المدعى عليه: إن الله - جل وعز - ما أخذني بهذا الذنب، وإني قتلت أبا هذا غيلة فقتله داود، فذلك مما كان عظم الله، وشدد ملكه به".

قال ابن كثير:"قال بعض السلف: بلغني أنه كان حَرَسُه في كل ليلة ثلاثة وثلاثين ألفا لا تدور عليهم النوبة إلى مثلها من العام القابل".

عن ابن عباس:"أن رجلا من بني إسرائيل استعدى على رجل من عظمائهم، فاجتمعا عند داود النبيّ ﷺ فقال المستعدي: إن هذا اغتصبني بقرًا لي، فسأل داود الرجل عن ذلك فجحده، فسأل الآخر البيِّنة، فلم يكن له بيِّنة، فقال لهما داود: =

=

قوما حتى أنظر في أمركما؛ فقاما من عنده، فأوحى الله إلى داود في منامه أن يقتل الرجل الذي استعدي عليه، فقال: هذه رؤيا ولست أعجل حتى أتثبت، فأوحى الله إلى داود في منامه مرة أخرى أن يقتل الرجل، وأوحى الله إليه الثالثة أن يقتله أو تأتيه العقوبة من الله، فأرسل داود إلى الرجل: إن الله قد أوحى إلي أن أقتلك، فقال الرجل: تقتلني بغير بينة ولا تثبت؟! فقال له داود: نعم، والله لأنفذنّ أمر الله فيك؛ فلما عرف الرجل أنه قاتله، قال: لا تعجل عليّ حتى أخبرك، إني والله ما أُخِذت بهذا الذنب، ولكني كنت اغتلت والد هذا فقتلته، فبذلك قُتلت، فأمر به داود فقُتل، فاشتدت هيبة بني إسرائيل عند ذلك لداود، وشدد به مُلْكه، فهو قول الله: {وَشَدَدْنَا مُلْكَه} ".

قال الطبري:"وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله تبارك تعالى أخبر أنه شَدَّد ملك داود، ولم يحضر ذلك من تشديده على التشديد بالرجال والجنود دون الهيبة من الناس له ولا على هيبة الناس له دون الجنود. وجائز أن يكون تشديده ذلك كان ببعض ما ذكرنا، وجائز أن يكون كان بجميعها، ولا قول أولى في ذلك بالصحة من قول الله، إذ لم يحر ذلك على بعض معاني التشديد خبر يجب التسليم له".

قوله تعالى: {وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ} [ص: ٢٠]، أي:"وآتيناه النبوة، والفصل في الكلام والحكم".

وفي قوله تعالى: {وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ} [ص: ٢٠]، وجوه:

أحدها: النبوة، قاله السدي.

الثاني: السنّة، قاله قتادة،والحسن، ومقاتل بن حيان، وأبو مالك، والشافعي، ويحيى بن كثير.

الثالث: العدل، قاله ابن نجيح.

=

=

الرابع: أعطي الفهم. قاله ابن عباس.

الخامس: العلم والفهم، قاله شريح، ومقاتل.

قال ابن وهب: "قلت لمالك: ما الحكمة؟ قال: المعرفة بالدين، والفقه في الدين، والاتباع له".

وقال ابن زيد:"«الحكمة»: الدين الذي لا يعرفونه إلا به ﷺ، يعلمهم إياها. قال: و"الحكمة"، العقل في الدين، وقرأ: {وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا} [البقرة: ٢٦٩]، وقال لعيسى: {وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ} [آل عمران: ٤٨] قال، وقرأ ابن زيد: {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا} [الأعراف: ١٧٥] قال، لم ينتفع بالآيات، حيث لم تكن معها حكمة. قال: «والحكمة»: شيء يجعله الله في القلب، ينور له به".

الخامس: الفضل والفطنة. حكاه الماوردي.

قال الطبري:"والصواب من القول عندنا في «الحكمة»، أنها العلم بأحكام الله التي لا يدرك علمها إلا ببيان الرسول ﷺ، والمعرفة بها، وما دل عليه ذلك من نظائره، وهو عندي مأخوذ من"الحكم" الذي بمعنى الفصل بين الحق والباطل، بمنزلة "الجِلسة والقِعدة" من "الجلوس والقعود"، يقال منه:"إن فلانا لحكيم بين الحكمة"، يعني به: إنه لبين الإصابة في القول والفعل".

وفي قوله تعالى: {وَفَصْلَ الْخِطَابِ} [ص: ٢٠]، وجوه:

أحدها: أنه علم القضاء والفهم به. قاله ابن عباس، والحسن، ومجاهد، والسدي.

قال ابن عباس:"أعطي الفهم".

وقال مجاهد:"إصابة القضاء وفهمه".

قال مجاهد:"ما قال من شيء أنفذه، وعَدْله في الحكم".

قال الحسن:"يعني: العدل في القضاء". وفي رواية:"الفهم في القضاء".

=

=

وقال ابن زيد:"الخصومات التي يخاصم الناس إليه فصل ذلك الخطاب، الكلام الفهم، وإصابة القضاء والبيِّنات".

الثاني: تكليف المدعي البينة والمدعَى عليه اليمين، قاله شريح، وقتادة، ومقاتل.

قال قتادة:"البينة على الطالب، واليمين على المطلوب، هذا فصل الخطاب".

قال شريح:"بينة المدعي، أو يمين المُدَّعى عليه".

قال شريح:"الشاهدان على المدعي، واليمين على من أنكر". وفي رواية:"شاهدان أو يمين". وفي رواية:"الشهود والأيمان".

عن طاووس:"أن شريحا قال لرجل: إن هذا يعيب علي ما أعطي داود، الشهود والأيمان".

قال مجاهد:"الأيمان، والشهود".

وقال كعب الأحبار:"الشهود، والأيمان".

قال الشعبي:"يمين، أو شاهد".

الثالث: قوله: «أما بعد»، وهو أول من تكلم بها، قاله أبو موسى الأشعري، والشعبي، والتستري.

قال الشعبي:"هو قول الرجل: أما بعد".

قال سهل:"إنما أعطاه الله ذلك حين سأله أن يرفع منزلته على منزلة إسماعيل وإسحاق، فقال: لست هناك يا داود، ولكني أجعل لك مقامًا من الحكمة، وفاصلة، وهي: «أما بعد». وهو أول من قال ذلك، وبعده قس بن ساعدة ".

الرابع: أنه البيان الكافي في كل غرض مقصود. حكاه الماوردي.

الخامس: أنه الفصل بين الكلام الأول والكلام الثاني. حكاه الماوردي-أيضا-.

قال الزجاج:"قيل في فصل الخطاب، أن يفصل بين الحق والباطل".

=

=

قال الطبري:"وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله أخبر أنه آتى داود صلوات الله عليه فصل الخطاب، والفصل: هو القطع، والخطاب هو المخاطبة، ومن قطع مخاطبة الرجل الرجل في حال احتكام أحدهما إلى صاحبه قطع المحتكم إليه الحكم بين المحتكم إليه وخصمه بصواب من الحكم، ومن قطع مخاطبته أيضا صاحبه إلزام المخاطب في الحكم ما يجب عليه إن كان مدعيا، فإقامة البينة على دعواه وإن كان مدعى عليه فتكليفه اليمين إن طلب ذلك خصمه. ومن قطع الخطاب أيضا الذي هو خطبة عند انقضاء قصة وابتداء في أخرى الفصل بينهما بأما بعد. فإذ كان ذلك كله محتملا ظاهر الخبر ولم تكن في هذه الآية دلالة على أي ذلك المراد، ولا ورد به خبر عن الرسول ﷺ ثابت، فالصواب أن يعم الخبر، كما عمه الله، فيقال: أوتي داود فصل الخطاب في القضاء والمحاورة والخطب".

قال العثيمين: قوله تعالى: {وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ} أي: قَوَّينا مُلْكَه، لأن الشد يأتي بمعنى التقوية، قال الله تعالى: {وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا} [النبأ: ١٢] أي: قوية بدليل قوله: {وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ} [الذاريات: ٤٧] أي: بقوة، فالشد هنا بمعنى القوة، أي: قَوَّينا مُلْكَه، وتقوية الملك فسرها المصنف بقوله: [قَوَّيناه بالحرس والجنود] وهذا لا شك نوع من التقوية أن يكون لدى الملك حراس وجنود، الحراس هم الموالون له، والجنود هم التابعون له وإن لم يوالوه، لكنهم جنود له، متى أمرهم ائتمروا، وأما الحراس فهم المباشرون للملك، فالله شدَّ مُلْكَه بالحراس والجنود، هذا وجه من شدِّ المُلك، وشدَّ ملكه بقوة السلطان؛ لأن السلطان إذا كان ضعيفًا مهما كان عنده من الحرس والجنود فإنه ضعيف، لكن إذا أعطاه الله القوة والعزيمة وعدم المبالاة بأعدائه فهذا شدُّ ملك. يوجد ملك عنده آلاف الجنود والحراس ولكنه ضعيف، يخاف من ظله، ولا يحمي حدوده، هذا لا شك أنه وإن

=

=

كان عنده حراس كثيرون وجنود، فإن ملكه ضعيف، لأن غاية ما ينفعه الجنود به أن يكونوا مدافعين فقط، لكن إذا قَوَّى الله ملكه بما عنده من قوة العزيمة والجلد والصبر والتحمل وعدم المبالاة بالأعداء، صار حينئذ عنده قوة مهاجمة ومدافعة، الأمرين جميعًا. أمّا من عنده جنود فالغالب أنه يُحرَس لضعفه، ولا أحد يشك بأن عمر ابن الخطاب رضي الله عنه من أقوى الناس ملكًا لكن خلافة، ومع ذلك ليس عنده جنود يحرسونه، بل هو بنفسه كان يجمع الحصباء في المسجد، ويضع رداءه عليها وينام عليه، ليس عنده أحد ومع ذلك فقد حماه الله عز وجل.

إذًا شدُّ المُلكِ ليس مقتصرًا على كثرة الحرس والجنود، بل قد يكون في الحرس والجنود ما يؤدي إلى الضعف، إذا كان الإنسان لا يقوَى ولا يتحرك إلا بالحرس والجنود، فهذا قد يكون دليلًا على ضعفه وخوفه وعدم أمنه، لذلك فإن اقتصار المصنف رحمه الله على كثرة الحرس والجنود في شد الملك، لا شك أنه ضعيف جدًا، وأهم شيء أن يقوى ملكه بما لديه من الشخصية وقوة العزيمة وعدم المبالاة بأعدائه.

قال رحمه الله: {وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ} قويناه بالحرس والجنود، وكان يحرس محرابه في كلّ ليلة ثلاثون ألف رجل] هذه إسرائيلية بلا شك، لم ترد عن معصوم، وبناء على ذلك، فإن كانت قريبة من التصور فإننا لا نصدقها ولا نكذبها، وإن كانت بعيدة من التصور فإننا نكذبها. والبعيد من الواقع الذي لم يرد عن معصوم يُكَذَّب، لأنه ليس فيه خبر ثابت، فإذا لم يكن هناك خبر ثابت رجعنا إلى تحكيم العقل. فهل يعقل مثلًا أن يكون عند داود كلّ ليلة ثلاثون ألفًا يحرسون محرابه! على كل حال هذا خبر إسرائيلي، وأقرب ما يكون عندي أنه كذب، وأنه إن صح أن عنده حرسًا فليكونوا خمسة أو عشرة وما أشبه ذلك، ثم إنه سيأتينا في قصة الخصوم أنهم تسوروا المحراب، فهل يتسورون المحراب وحوله ثلاثون ألفًا؟

=

=

فالحاصل أن مثل هذه القصص الإسرائيلية تكون عندنا على ثلاثة أوجه:

الأول: ما شهد شرعنا ببطلانه فهو باطل.

الثاني: ما شهد شرعنا بصدقه فهو حق بشهادة شرعنا.

الثالث: ما لم يشهد شرعنا بخلافه فإننا نرجع إلى العقل إن كان قريبًا فإننا لا نصدق ولا نكذب، وإن كان بعيدًا فإننا نكذب، لأن هذا لما انتفى فيه الدليل الشرعي، نرجع فيه إلى الدليل العقلي، فإذا كان العقل يستبعده أبعدناه.

يقول تعالى: {وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ (٢٠)} آتيناه: أعطيناه، وهناك فرق بين آتيناه وأتيناه، آتيناه بمعنى أعطيناه، وتنصب مفعولين، من باب كسى، وأتيناه بمعنى جئناه، وتنصب مفعولًا واحدًا {قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ} [فصلت: ١١] أي: جئنا طائعين، {وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ} [الحجر: ٦٤] أي: جئناك بالحق، أما آتى بالمد بمعنى أعطى، فتنصب مفعولين ليس أصلهما المبتدأ والخبر، قال تعالى: {وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ} هنا نصبت مفعولين: الأول: الهاء، والثاني: الحكمة. وما هي الحكمة؟ قال المصنف: [النبوة والإصابة في الأمور]، لأن النبوة حكمة بلا شك. كل نبي فإنه مؤتىً للحكمة، قال الله تعالى: {يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا} [البقرة: ٢٦٩] والإصابة في الأمور أيضًا حكمة، كون الإنسان يوفق للإصابة في الأمور مثل أن يكون ذا رأي سديد، فإن هذا لا شك أنه حكمة، ولهذا يقال: فلان حكيم زمانه، أي: لإصابته في الأمور.

وقوله: {وَفَصْلَ الْخِطَابِ} قال المصنف: [البيان الشافي في كل قصد] فصل الخطاب، هل المعنى أنه يفصل الخطاب الصادر من غيره بمعنى أنه يفصل بين الخصوم، ما تخاطبوا فيه، كما يدل عليه قوله: {وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ} لأن المتخاصمين كل منهما يأتي بحجة، يتكلم ويقول، ولهذا قال ﷺ: "إنكم تختصمون إليَّ، ولعلَّ بعضَكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، وإنما أقضي

=

وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ (٢١).

{وَهَلْ} مَعْنَى الِاسْتِفْهَام هُنَا التَّعْجِيب وَالتَّشْوِيق إِلَى اسْتِمَاع مَا بَعْده {أَتَاك} يَا مُحَمَّد {نَبَأ الْخَصْم إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَاب} مِحْرَاب دَاوُدَ أَيْ مَسْجِده حَيْثُ مَنَعُوا الدُّخُول عَلَيْهِ مِنْ الْبَاب لِشَغْلِهِ بِالْعِبَادَةِ أَيْ خَبَرهمْ وَقِصَّتهمْ.

إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ (٢٢).

{إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لا تخف} نَحْنُ {خَصْمَانِ} قِيلَ فَرِيقَانِ لِيُطَابِق مَا قَبْله مِنْ ضَمِير الْجَمْع وَقِيلَ اثْنَانِ وَالضَّمِير بِمَعْنَاهُمَا وَالْخَصْم يُطْلَق عَلَى الْوَاحِد وَأَكْثَر وَهُمَا مَلَكَانِ جَاءَا فِي صُورَة خَصْمَيْنِ وَقَعَ لَهُمَا مَا ذكر هنا عَلَى سَبِيل الْفَرْض لِتَنْبِيهِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَام عَلَى مَا وَقَعَ مِنْهُ وَكَانَ لَهُ تِسْع وَتِسْعُونَ امْرَأَة وَطَلَبَ امْرَأَة شَخْص لَيْسَ لَهُ غَيْرهَا وَتَزَوَّجَهَا وَدَخَلَ بِهَا {بَغَى بَعْضنَا عَلَى بَعْض فَاحْكُمْ بَيْننَا بِالْحَقِّ وَلَا تَشْطُطْ} تَجُرْ {وَاهْدِنَا} أَرْشِدْنَا {إِلَى سَوَاء الصِّرَاط} وَسَط الطَّرِيق الصواب.

=

بنحو ما أسمع". إذًا فصل الخطاب يعني فصل الخطاب الحاصل من غيره، أي: يفصل في خطاب الناس، أو فصل الخطاب يعني خطابه هو، يعني أن خطابه كان فصلًا، أي: ذا بيان وفصاحة، نقول: المعنيان محتملان، فالآية تحتمل هذا وهذا، وهما لا يتنافيان، فيجب أن تكون الآية محمولة عليهما، حتى إن بعضهم قال: إن فصل الخطاب هو قوله: أما بعد، لأن "أما بعد" تفصل ما قبلها عن ما بعدها، ولكن هذا ليس بصحيح. أما بعد لا شك أنها تعطي الكلام رونقًا وجمالًا وتفصيلًا، لكن كوننا نجعلها هي فصل الخطاب فيه نظر، والله أعلم.

إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ (٢٣).

{إِنَّ هَذَا أَخِي} أَيْ عَلَى دِينِي {لَهُ تِسْع وَتِسْعُونَ نَعْجَة} يُعَبَّر بِهَا عَنْ الْمَرْأَة {ولي نعجة واحدة فقال أَكْفِلْنِيهَا} أَيْ اجْعَلْنِي كَافِلهَا {وَعَزَّنِي} غَلَبَنِي {فِي الْخِطَاب} أَيْ الْجِدَال وَأَقَرَّهُ الْآخر عَلَى ذَلِكَ.

قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ (٢٤).

{قَالَ لَقَدْ ظَلَمَك بِسُؤَالِ نَعْجَتك} لِيَضُمّهَا {إِلَى نِعَاجه وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاء} الشُّرَكَاء {لَيَبْغِي بَعْضهمْ عَلَى بَعْض إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَات وَقَلِيل مَا هُمْ} مَا لِتَأْكِيدِ الْقِلَّة فَقَالَ الْمَلَكَانِ صَاعِدَيْنِ فِي صُورَتَيْهِمَا إِلَى السَّمَاء قضى الرجل على نفسه فتنبه داود قال تعالى {وَظَنَّ} أَيْ أَيْقَنَ {دَاوُد أَنَّمَا فَتَنَّاهُ} أَوْقَعْنَاهُ فِي فِتْنَة أَيْ بَلِيَّة بِمَحَبَّتِهِ تِلْكَ الْمَرْأَة {فاستغفر ربه وخر راكعا} أي ساجدا {وأناب.

فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ (٢٥).

{فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدنَا لَزُلْفَى} أَيْ زِيَادَة خَيْر فِي الدُّنْيَا {وَحُسْن مَآب} مَرْجِع فِي الْآخِرَة[1].

---

(١)قوله تعالى: {وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ} [ص: ٢٢].

عن مجاهد: قوله:"{إذ تسوروا المحراب} قال: المسجد".

=

=

عن أبي الأحوص، قال: "دخل الخصمان على داود عليه السلام وكل واحد منهما آخذ برأس صاحبه".

قال الزمخشري:"ظاهره الاستفهام. ومعناه الدلالة على أنه من الأنباء العجيبة التي حقها أن تشيع ولا تخفى على أحد، والتشويق إلى استماعه".

قال البيضاوي:"استفهام معناه التعجيب والتشويق إلى استماعه، {إذ تسوروا المحراب} : إذ تصعدوا سور الغرفة".

قال ابن كثير:"أي: احتاطا به يسألانه عن شأنهما".

قوله تعالى: {إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ} [ص: ٢٢]، أي:"حين دخلوا عليه من أعلى السور فخاف وارتعد منهم".

عن ابن جريج في قوله {ففزع منهم} قال: "كان الخصوم يدخلون من الباب ففزع من تسورهما".

قال البيضاوي:"{ففزع منهم}، لأنهم نزلوا عليه من فوق في يوم الاحتجاب والحرس على الباب لا يتركون من يدخل عليه، فإنه عليه الصلاة والسلام كان جزأ زمانه: يوما للعبادة، ويوما للقضاء، ويوما للوعظ، ويوما للاشتغال بخاصته، فتسور عليه ملائكة على صورة الإنسان في يوم الخلوة".

قال ابن كثير:"إنما كان ذلك لأنه كان في محرابه، وهو أشرف مكان في داره وكان قد أمر ألا يدخل عليه أحد ذلك اليوم فلم يشعر إلا بشخصين قد تَسَوَّرا عليه المحراب".

قوله تعالى: {قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ} [ص: ٢٢]، أي:"قالوا له: لا تَخَفْ، فنحن خصمان ظلم أحدنا الآخر".

=

=

قال البيضاوي: أي:"نحن فوجان متخاصمان على تسمية مصاحب الخصم خصما. {بغى بعضنا على بعض}، وهو على الفرض وقصد التعريض إن كانوا ملائكة وهو المشهور".

قال الزمخشري:"جاء في الرواية أنه بعث إليه ملكان، معناه: أن التحاكم كان بين ملكين، ولا يمنع ذلك أن يصحبهما آخرون، وسماهم جميعا خصما في قوله: {نَبَأُ الْخَصْمِ} و {خَصْمانِ}، لما كان صحب كل واحد من المتحاكمين في صورة الخصم صحت التسمية به، وجاءت على طريقة التمثيل والتعريض دون التصريح، لكونها أبلغ في التوبيخ، من قبل أن التأمل إذا أدّاه إلى الشعور بالمعرض به، كان أوقع في نفسه، أشد تمكنا من قلبه، وأعظم أثرا فيه، وأجلب لاحتشامه وحيائه، وأدعى إلى التنبه على الخطإ فيه من أن يبادره به صريحا، مع مراعاة حسن الأدب بترك المجاهرة. ألا ترى إلى الحكماء كيف أوصوا في سياسة الولد إذا وجدت منه هنة منكرة أن يعرض له بإنكارها عليه ولا يصرح. وأن تحكى له حكاية ملاحظة لحاله إذا تأملها استسمج حال صاحب الحكاية فاستسمج حال نفسه، وذلك أزجر له لأنه ينصب ذلك مثالا لحاله ومقياسا لشأنه، فيتصور قبح ما وجد منه بصورة مكشوفة، مع أنه أصون لما بين الوالد والولد من حجاب الحشمة".

قوله تعالى: {فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ} [ص: ٢٢]، أي:"فاقض بيننا بالعدل".

قال الزمخشري:"كان ذلك على وجه التحاكم إليه ليحكم بما حكم به من قوله: {لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤالِ نَعْجَتِكَ إِلى نِعاجِهِ}، حتى يكون محجوجا بحكمه ومعترفا على نفسه بظلمه".

قوله تعالى: {وَلَا تُشْطِطْ} [ص: ٢٢]، أي:"ولا تَجُرْ علينا في الحكم".

قال البيضاوي: أي:"ولا تجر في الحكومة".

=

=

قال الحسن:"{ولا تشطط}، أي: لا تجر".

قال قتادة:"أي: لا تمل".

قال السدي:"يقول: لا تحف". وفي رواية:"لاتسرف".

وقرئ: «ولا تشطط»، أي: ولا تبعد عن الحق. وقرئ: ولا تشطط. ولا تشاطط، وكلها من معنى «الشطط»: وهو مجاوزة الحدّ وتخطى الحق.

قوله تعالى: {وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ} [ص: ٢٢]، أي:"وأرشِدنا إلى سواء السبيل".

قال قتادة:"أي: أعدله وخيره".

قال السدي:"إلى عدل القضاء".

قال الزمخشري:"{سَواءِ الصِّراطِ}: وسطه ومحجته، ضربه مثلا لعين الحق ومحضه".

قوله تعالى: {إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ} [ص: ٢٣].

قال الطبري:"وهذا مثل ضربه الخصم المتسوّرون على داود محرابه له، وذلك أن داود كانت له فيما قيل: تسع وتسعون امرأة، وكانت للرجل الذي أغزاه حتى قُتل امرأة واحدة؛ فلما قتل نكح فيما ذكر داود امرأته، فقال له أحدهما: {إِنَّ هَذَا أَخِي}، يقول: أخي على ديني".

عن قتادة:"{إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً}، وكان لداود تسع وتسعون امرأة، {وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ}، قال: وإنما كان للرجل امرأة واحدة".

عن وهب بن منبه: " {إِنَّ هَذَا أَخِي}، أي: على ديني".

وفي قراءة عبد الله: «وَإِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً أُنْثَى».

عن الضحاك" {إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً أُنْثَى». يعني: بتأنيثها. حسنها".

=

=

قال ابن عباس:"يريد أن يتمم بها مئة، ويتركني ليس لي شيء".

قال السدي:"فهو يريد أن يأخذ نعجتي، فيكمل بها نعاجه مئة".

قوله تعالى: {فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا} [ص: ٢٣]، أي:"فطمع فيها، وقال: أعطنيها".

قال الطبري:"يقول: فقال لي: انزل عنها لي وضمها إليّ".

قال ابن عباس:"يريد أن يتمم بها مئة، ويتركني ليس لي شيء".

قال الحسن:"يقول: أعطنيها".

قال وهب بن منبه:"أي: احملني عليها".

قال ابن زيد:"أعطنيها، طلِّقها لي، أنكحها، وخلّ سبيلها".

قوله تعالى: {وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ} [ص: ٢٣]، أي:"وغلبني بحجته".

قال الطبري:"يقول: وصار أعز مني في مخاطبته إياي، لأنه إن تكلم فهو أبين مني، وإن بطش كان أشدّ مني فقهرني".

قال ابن كثير:"أي: غلبني يقال: عز يعز: إذا قهر وغلب".

قال الصابوني:"أي: غلبني في الخصومة، وشدَّد عليَّ في القول وأغلظ".

وفي قوله تعالى: {وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ} [ص: ٢٣]، وجوه من التفسير:

أحدها: أي: قهرني في الخصومة، قاله الحسن، وقتادة، وابن زيد، ووهب بن منبه.

وقال قتادة:"أي: ظلمني وقهرني".

قال ابن زيد:"قهرني، وذلك العزّ؛ قال: والخطاب: الكلام".

قال وهب:"أي قهرني في الخطاب، وكان أقوى مني، فحاز نعجتي إلى نعاجه، وتركني لا شيء لي".

الثاني: غلبني على حقي، من قولهم من عزيز أي من غلب سلب، قاله ابن عيسى.

الثالث: معناه: إن دعوت ودعا كان أكثر، وإن بطشت وبطش كان أشدّ مني. قاله ابن عباس.

=

الرابع: معناه: إن تكلم كان أبين، وإن بطش كان أشد مني، وإن دعا كان أكثر مني، قاله الضحاك.

عن عبد الله في قوله: {وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ}، قال:"ما زاد داود على أن قال: انزل لي عنها". وفي رواية أخرى قال عبد الله:"ما زاد داود على أن قال: {أكفلنيها} ".

قال ابن عباس:"ما زاد على أن قال: انزل لي عنها".

قال السدي:"فقال للآخر: ما تقول؟ فقال: إن لي تسعا وتسعين نعجة، ولأخي هذا نعجة واحدة، فأنا أريد أن آخذها منه، فأكمل بها نعاجي مئة، قال: وهو كاره؟ قال: وهو كاره، قال: وهو كاره؟ قال: إذن لا ندعك وذاك، قال: ما أنت على ذلك بقادر، قال: فإن ذهبت تروم ذلك أو تريد، ضربنا منك هذا وهذا وهذا، وفسر أسباط طرف الأنف، وأصل الأنف والجبهة؛ قال: يا داود أنت أحق أن يُضرب منك هذا وهذا وهذا، حيث لك تسع وتسعون نعجة امرأة، ولم يكن لأهريا إلا امرأة واحدة، فلم تزل به تعرضه للقتل حتى قتلته، وتزوجت امرأته. قال: فنظر فلم ير شيئا، فعرف ما قد وقع فيه، وما قد ابتُلي به".

قوله تعالى: {قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ} [ص: ٢٤].

قال الطبري: يقول:"قال داود للخصم المتظلم من صاحبه: لقد ظلمك صاحبك بسؤاله نعجتك إلى نعاجه؛ وإنما كنى بالنعجة -ها هنا-:عن المرأة، والعرب تفعل ذلك؛ ومنه قول الأعشى:

قَدْ كُنْتُ رَائِدَهَا وَشاةِ مُحَاذِرٍ... حَذرًا يُقِلُّ بعَيْنِهِ إغْفَالَهَا

يعني بـ"الشاة": امرأة رجل يحذر الناس عليها؛ وإنما يعني: لقد ظلمت بسؤال امرأتك الواحدة إلى التسع والتسعين من نسائه".

=

قوله تعالى: {وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ} [ص: ٢٤]، أي:"وإن كثيرًا من الشركاء ليعتدي بعضهم على بعض، ويظلمه بأخذ حقه وعدم إنصافه مِن نفسه".

قال الطبري: يقول:"يقول: وإن كثيرا من الشركاء ليتعدَّى بعضهم على بعض".

قوله تعالى: {إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ} [ص: ٢٤]، أي:"إلا المؤمنين الصالحين، فلا يبغي بعضهم على بعض، وهم قليل".

قال الطبري: يقول:"{إلا الَّذِينَ آمَنُوا} بالله وعملوا بطاعة الله، وانتهوا إلى أمره ونهيه، ولم يتجاوزوه {وَقَلِيلٌ مَا هُمْ} ".

وفي نوع {ما} التي في قوله: {وَقَلِيلٌ مَا هُمْ}، وجهان:

أحدهما: أن تكون صلة بمعنى: وقليل هم، فيكون إثباتها وإخراجها من الكلام لا يفسد معنى الكلام.

الثاني: أن تكون اسما، و «هم» صلة لها، بمعنى: وقليل ما تجدهم، كما يقال: قد كنت أحسبك أعقل مما أنت، فتكون أنت صلة لما، والمعنى: كنت أحسب عقلك أكثر مما هو.

عن ابن عباس، في قوله: " {وَقَلِيلٌ مَا هُمْ}، يقول: وقليل الذين هم".

قال ابن زيد:"قليل من لا يبغي".

قوله تعالى: {وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ} [ص: ٢٤]، أي:"وأيقن داود أننا فتنَّاه بهذه الخصومة".

قال الطبري:"يقول: وعلم داود أنما ابتُليناه".

عن ابن عباس:"{فَتَنَّاهُ}: اختبرناه".

عن قتادة: " {وَظَنَّ دَاوُدُ}: علم داود".

قال ابن عباس والحسن:"ظن أنما ابتُلي بذاك".

=

=

قال الحسن:"علم داود أنه هو المعني بذلك {وخر راكعا وأناب} ".
واختلف في سبب البلاء الذي ابتُلي به نبي الله داود ﷺ، على قولين:
أحدها: كان سبب ذلك أنه تذكر ما أعطى الله إبراهيم وإسحاق ويعقوب من حسن الثناء الباقي لهم في الناس، فتمنّى مثله، فقيل له: إنهم امتُحنوا فصبروا، فسأل أن يُبتلى كالذي ابتلوا، ويُعطى كالذي أعطوا إن هو صبر. قاله ابن عباس، والسدي.
الثاني: أن ذلك كان لعارض كان عرض في نفسه من ظن أنه يطيق أن يتم يوما لا يصيب فيه حوبة، فابتُلي بالفتنة التي ابتُلي بها في اليوم الذي طمع في نفسه بإتمامه بغير إصابة ذنب. قاله الحسن.
قوله تعالى: {فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ} [ص: ٢٤]، أي:"فاستغفر ربه، وسجد تقربًا لله، ورجع إليه وتاب".
قال الطبري: "يقول: فسأل داود ربه غفران ذنبه وخر ساجدا لله ورجع إلى رضا ربه، وتاب من خطيئته".
قال ابن كثير:"{وَخَرَّ رَاكِعًا}، أي: ساجدا {وَأَنَابَ}، ويحتمل أنه ركع أولا ثم سجد بعد ذلك وقد ذكر أنه استمر ساجدا أربعين صباحا".
عن قتادة: " {وأناب}، أي: تاب".
قال ابن عباس:"قال له داود: أنت كنت أحوج إلى نعجتك منه {لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ}.. إلى قوله {وَقَلِيلٌ مَا هُمْ} ونسي نفسه ﷺ، فنظر الملكان أحدهما إلى الآخر حين قال ذلك، فتبسم أحدهما إلى الآخر، فرآه داود وظن أنما فتن {فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ} أربعين ليلة، حتى نبتت الخُضرة من دموع عينيه، ثم شدّد الله له ملكه".
قال السدي:"فمكث يبكي ساجدا أربعين يوما لا يرفع رأسه إلا لحاجة منها، ثم يقع ساجدا يبكي، ثم يدعو.. ".

=

=

قال عطاء الخراساني:"نقش داود خطيئته في كفه لكيلا ينساها، قال: فكان إذا رآها خفقت يده واضطربت".

قوله تعالى: {فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ} [ص: ٢٥].

قال مقاتل:"يعني: ذنبه".

قال ابن كثير:"أي: ما كان منه مما يقال فيه: إن حسنات الأبرار سيئات المقربين".

واختلف في قوله تعالى: {فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ} [ص: ٢٥]، على أقوال:

أحدها: هو أن وقعت عينه على امرأة أوريا بن حنان واسمها اليشع وهي تغتسل فأشبع نظره منها حتى علقت بقلبه.

الثاني: هو ما نواه إن قتل زوجها تزوج بها وأحسن الخلافة عليها، قاله الحسن.

الثالث: أنه سمع من أحد الخصمين وحكم له قبل سماعه من الآخر.

الرابع: أنه ظن دخولهم عليه في ذلك الوقت ومن تلك الجهة إنقاذ من الله له أن يغتالوه، فلم يقع ما كان ظنه، فاستغفر من ذلك الظن. قاله أبو حيان.

قال أبو حيان:"والذي يذهب إليه ما دل عليه ظاهر الآية من أن المتسورين المحراب كانوا من الإنس، دخلوا عليه من غير المدخل، وفي غير وقت جلوسه للحكم، وأنه فزع منهم ظانا أنهم يغتالونه، إذ كان منفردا في محرابه لعبادة ربه. فلما اتضح له أنهم جاءوا في حكومة، وبرز منهم اثنان للتحاكم، كما قص الله تعالى، وأن داود عليه السلام ظن دخولهم عليه في ذلك الوقت ومن تلك الجهة إنقاذ من الله له أن يغتالوه، فلم يقع ما كان ظنه، فاستغفر من ذلك الظن، حيث أخلف ولم يكن يقع مظنونه، وخر ساجدا، أو رجع إلى الله تعالى فغفر له ذلك الظن ولذلك أشار بقوله: فغفرنا له ذلك، ولم يتقدم سوى قوله: وظن داود أنما فتناه، ويعلم قطعا أن الأنبياء، عليهم السلام، معصومون من الخطايا، لا يمكن وقوعهم في شيء منها ضرورة أن لو جوزنا عليهم شيئا من ذلك، بطلت الشرائع، ولم نثق

=

=

بشيء مما يذكرون أنه أوحى الله به إليهم، فما حكى الله تعالى في كتابه يمر على ما أراده تعالى، وما حكى القصاص مما فيه غض عن منصب النبوة طرحناه، ونحن كما قال الشاعر:

ونؤثر حكم العقل في كل شبهة... إذا آثر الأخبار جلاس قصاص.

قوله تعالى: {وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ} [ص: ٢٥]، أي:"وإنه لمن المقربين لدينا، وله حسن المرجع، وهو النعيم في الجنة".

قال الطبري:"وإن له عندنا للقربة منا يوم القيامة، ومرجع ومنقلب ينقلب إليه يوم القيامة".

عن قتادة: {وَحُسْنَ مَآبٍ}، " أي: حُسن مصير".

وقال السدي:"حسن المنقلب".

قال أبو صالح:"الزلفى: القرب، {وحُسْنَ مَآبٍ} قال: المرجع".

قال الحسن: "علم أنه هو المعني بذلك؛ فسجد أربعين ليلة لا يرفع رأسه إلا لصلاة مكتوبة ، قال: ولم يذق طعاما ولا شرابا حتى أوحى الله أن ارفع رأسك فقد غفرت لك ، قال: يا رب إني قد علمت أنك لست بتاركي حتى تأخذ لعبدك مني ، قال: إني أستوهبك من عبدي فيهبك لي ، وأجزيه على ذلك أفضل الجزاء ، قال: " الآن علمت يا رب أنك قد غفرت لي ، قال الله تعالى: {فغفرنا له ذلك وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب} ".

قال العثيمين: قوله تعالى: {وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ (٢١)} الواو عاطفة والجملة معطوفة على ما سبق لأن الكلام كله في شأن داود، والاستفهام هنا يقول المصنف: [للتعجب والتشويق إلى استماع ما بعده] يعني أن هذه القصة عجيبة، وأنها لكونها عجيبة مما يشوق إليه، والاستفهام كما نعلم جميعًا تختلف معانيه بحسب السياق، وإلا فإن الأصل فيه أنه الاستخبار عن

=

=

الشيء، أي: طلب الإفهام عنه، يقال: استفهم عن كذا، أي: طلب الإفهام عنه. هذا الأصل، لكن سياق الكلام يغير المعاني الأصلية إلى ما يقتضيه السياق، فالمراد به هنا التشويق، وله نظير، مثل قوله تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ} [الصف: ١٠] المراد به هنا التشويق، وقد يكون المراد بالاستفهام التهويل مثل: {هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ} [الغاشية: ١] يقول: [{هَلْ} استفهام هنا للتعجب والتشويق إلى استماع ما بعده {أَتَاكَ} يا محمَّد] جعل المصنف الخطاب هنا للرسول عليه الصلاة والسلام، ولكن يجوز أن يكون الأمر كما ذهب إليه المصنف، ويجوز أن تكون الكاف لكل مَن يصح خطابه، أي: وهل أتاك أيها المخاطب، وإذا قلنا بهذا القول صارت دلالة الآية أعمّ.

والقاعدة عندنا في التفسير أنه كلما كان أعم فإنه أولى، وعليه فيكون المراد بالكاف هنا المخاطبة لكل من يصح خطابه، واعلم أن كل خطاب في القرآن الكريم موجه إلى مخاطب فإنه على ثلاثة أقسام:

الأول: أن يدل الدليل على أنه عامّ فيؤخذ بعمومه.

الثاني: أن يدل الدليل على أنه خاصّ فيؤخذ بخصوصه.

الثالث: أن لا يكون هناك دليل لهذا ولا لهذا فيؤخذ بعمومه.

مثال الأول: قوله تعالى: {يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا} [الطلاق: ١] فـ {يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ} خطاب موجّه إلى النبي عليه الصلاة والسلام، لكن حكمه عامّ؛ لقوله: {إِذَا طَلَّقْتُمُ} فجعل الحكم عامًا لجميع الأمة.

=

=

وما دل الدليل على خصوصه فمثل قوله تعالى: {يس (١) وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (٢) إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ} [يس: ١ - ٣] هذا خطاب خاصّ بالرسول عليه الصلاة والسلام لا يَشْرَكُهُ غيره.

وما كان محتملًا لهذا وهذا، فهو كثير ومنه هذه الآية {وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ}.

{وَهَلْ أَتَاكَ} مر علينا قريبًا الفرق بين أتاك وآتاك، {نَبَأُ الْخَصْمِ} نبأ بمعنى خبر، ولكنه لا يقال غالبًا إلا في الخبر الهام {عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ (١) عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ} [النبأ: ١ - ٢]. فهنا نبأ بمعنى خبر، لكنه في أمر هام، وقوله: {الْخَصْمِ} أي: المتخاصمين بدليل قوله: {إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ} فالخصم لفظه مفرد لكن معناه الجمع، وسمّي المتخاصمون خصمًا؛ لأن كل واحد منهما يريد أن يَخْصِمَ صاحبه، أي: أن يغلبه في الحجة، ويقطع حجته {إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ} قوله: إذ متعلقة ولا يصح أن تتعلق بـ {أَتَاكَ}؛ لأن تسورهم للمحراب سابق ولا بـ (النبأ)؛ لأن تسورهم للمحراب أيضًا سابق، ولكنها تتعلق بشيء مقدر يدل عليه السياق، يعني اذكر إذ تسوروا المحراب. قال المصنف: [محراب داود، أي: مسجده، حيثما مُنعوا الدخول عليه من الباب لِشَغَلِهِ بالعبادة {تَسَوَّرُوا} بمعنى دخلوا مع سوره لأن المكان مسور، لأنه بيت يتعبد فيه، فهو مسور وله أبواب، فجاؤوا ذات يوم -أي الخصم- فوجدوا الباب مغلقًا، والخصوم كما تعرفون كل ذي حاجة فهو أعمى، قالوا: هذا الذي أغلق باب بيته أو محرابه نتسلق أو نتسور عليه، نأتيه من فوق، فتسوروا المحراب، يقول المصنف: [حيث مُنعوا الدخول عليه من الباب لِشَغَلِهِ بالعبادة، أي: خبرُهم وقصتُهم] فهو عليه الصلاة والسلام أغلق الباب، لأنه أراد أن يتعبد لله، وهذا لا شك أنه يمنع من وصول الخصوم إليه، لكن الله سبحانه وتعالى سلط هؤلاء حيث جاؤوا فوجدوا الباب مغلقًا، أو مُنعوا من الدخول، فتسوروا المحراب من السور.

=

=

قال الله تعالى: {إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ} "إذ" بدل من "إذْ" الأول، ويحتمل أن تكون متعلقة بتسوروا، وأنا أقول هكذا؛ لأن إذ: ظرف، والظرف والجار والمجرور لا بد لهم من متعلق، {فَفَزِعَ مِنْهُمْ} أي: خاف، وذلك لأنهم جماعة وتسوروا المحراب، ومثل هؤلاء يخيفون. أرأيت لو أن أحدًا تسوّر عليك البيت وهم جماعة، لا شك أنك ستخاف، والخوف هنا طبيعي تقضيه الطبيعة والجبلة، ففزع منهم، فلما رأوه قد فزع {قَالُوا لَا تَخَفْ} يعني أننا ما جئنا لقتل ولا نهب ولا تخريب {خَصْمَانِ} أي: نحن خصمان، [قيل: فريقان ليطابق ما قبله من ضمير الجمع، وقيل: اثنان، والضمير بمعناهما]، يعني خصمان، أي: طائفتان مختصمتان، والذين قالوا: إن المراد هنا بالخصمين الطائفتان استدلوا بدليل الجمع السابق، وهو قوله: {تَسَوَّرُوا} و {دَخَلُوا} وقيل: إنهم خصمان، أي: رجلان اثنان اختصموا، [والضمير بمعناهما]، أي: ضمير الجمع السابق بمعنى هما، أي: بمعنى الاثنين، ولكن الذي يظهر الأول، خصمان، أي: فريقان مختصمان، لأن ذلك هو المطابق لضمير الجمع، ولأن ذلك هو الذي يحصل منه الفزع؛ لأنهم إذا كانوا جماعة صار الفزع منهم أكثر.

وقول المصنف: [والخصم يطلق على الواحد وأكثر، صحيح فيقال لمدّعٍ خصم ومدعَى عليه خصم، ولو كان واحدًا، ويقال لجماعة مع جماعة: هم أيضًا خصم.

وأكثر العلماء على أنهما ملكان اثنان.

قال النحاس: (ولا اختلاف بين أهل التفسير أنه يراد به ههنا: ملكان).

وقال ابن الجوزي: (كانا ملكين، وقيل: هما جبريل وميكائيل أتياه لينبهاه على التوبة).

وقال ابن جزي: (واتفق الناس على أن هؤلاء الخصم كانوا ملائكة، وروي: أنهما جبريل وميكائيل بعثهما الله ليضرب بهما المثل لداود في نازلة وقع هو في مثلها).

=

وقال العلامة العثيمين: قال المصنف رحمه الله: [وهما مَلَكان جاءا في صورة خصمين، وقع لهما ما ذُكر على سبيل الفرض لتنبيه داود على ما وقع منه، وكان له تسع وتسعون امرأة، وطلب امرأة شخص ليس له غيرها، وتزوجها ودخل بها] يقول المصنف: إن هذين الخصمين مَلَكان أرسلهما الله سبحانه وتعالى إلى داود من أجل أن ينبهه على قضية معينة. هذه القضية كما تقول الإسرائيليات: إنه عشق امرأة رجل، فأمر زوجها أن يخرج للجهاد لعله يُقتل، فإذا قُتل تزوجها، فأرسل الله تعالى إليه الملكين من أجل أن ينبهاه على بشاعة هذه القضية، لأنها بشعة من أدنى الناس فكيف تكون من نبي؟! وكأن الله سبحانه وتعالى لم يشأ أن ينبهه بالوحي فيقول: يا داود لِمَ تفعل كذا؟ كما نبَّه الله آدم حينما أكل من الشجرة بدون ضرب مثل، وكذلك نبه الله محمدًا عليه الصلاة والسلام حين عفى عن قوم من المنافقين بدون أن يتبين أمرهم بدون ضرب مثل، ونبّهه على تحريمه ما أحل الله له لابتغاء مرضاة أزواجه بدون ضرب مثل، إلى غير ذلك من الشواهد الكثيرة التي تدل على أن الله سبحانه وتعالى ينبه على ما يحصل من الرسل بدون أن يضرب لهم أمثالًا، لكن هذه القصة الإسرائيلية أبت إلا أن يضرب مثلًا لفعل داود المدّعى المزعوم.

والحقيقة أن هذه القصة باطلة، لا يحل لأحد أن يعتقدها في داود عليه الصلاة والسلام، أنه عشق امرأة رجل وأراد أن يتزوجها، وأنه كان عنده تسع وتسعون امرأة، فأراد أن يكمل بها المئة. هذا غير لائق بأدنى واحد من الناس فضلًا عن نبي من أنبياء الله، لكن اليهود -لعنة الله عليهم- لا يبالون أن يلطخوا الأنبياء كما لطخوا مَنْ أرسلَ الأنبياءَ فقالوا: {يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ} [المائدة: ٦٤] وقالوا: {إِنَّ اللهَ فَقِيرٌ} [آل عمران: ١٨١] وقالوا: إن الله يتعب، فليس غريب أن يلطخوا الأنبياء بالعشق والحيل والمكر، فلهذا لطخوا داود عليه السلام بهذه الكذبة.

=

والصحيح الذي لا شك فيه أنهم خصمان من البشر وليسوا ملائكة، خصمان من البشر تنازعا في قضية بينهما ستأتي في القرآن الكريم، وكل ما سوى ذلك فإنه كذب، لأن القرآن يكذبه فإن القرآن إذا أتى بالقصة فلا بد أن يأتي بها على وجه الكمال؛ لتكون عبرة، وعلى وجه الصراحة؛ لئلا يكون فيها التباس أو اشتباه، فالقصة كما هي في القرآن تمامًا، لا يوجد ملائكة ولا يوجد رجل له زوجة حسناء أرادها داود أبدًا، ولا يجوز للمسلم أن يعتقد هذا في أحد من أنبياء الله.

والقصة هي: أنهم دخلوا عليه فقالوا: {لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ} خصمان بغى بعضهما على بعض، أي: اعتدى عليه؛ لأن البغي هو العدوان، وطلبوا منه: أن يحكم بينهم لكنهم أضافوا كلمة ليست بجيدة قالوا: {فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ} ومثل هذا لا ينبغي أن يقال لنبي من الأنبياء، بل ولا ينبغي أن يقال لأي حَكَم يُتحاكم إليه، لأنك إذا تحاكمت إلى رجل مع خصمك فإنكما تعتقدان أن ما يقوله هو الحق. ليس الحَكَم في مقام تهمة حتى يقال: احكم بيننا بالحق، ولهذا انتقد الصحابة رضي الله عنهم في قصة العسيف الذي زنى بامرأة من استأجره لما حضر أبو الولد الزاني وزوج المرأة، قال أحدهما: للرسول ﷺ: أَنْشُدُك اللهَ إلا قضيتَ بيننا بكتاب الله، فناشد الرسولَ ﷺ أن يقضي بينهم بكتاب الله، قالوا: وقال الآخر، وكان أفقه منه: نعم فاقض بيننا بكتاب الله، ولم يناشد الرسول ﷺ، لأن طلبَ المناشدة في هذا المقام خطأ. فأنت ما جئت إليه إلا وأنت تعلم أنه يحكم بكتاب الله، فلا حاجة لأن تناشده.

هؤلاء قالوا: {فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ} وهو لن يحكم إلا به حتى بإقرارهم، لأنهما جعلاه حكمًا {تُشْطِطْ} الشطط يعني النقص أو الجور، ولهذا قال المصنف في تفسيره: [لا تجر] أي: لا تجر بالحكم فتميل مع أحدنا {وَاهْدِنَا} أرشدنا {إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ} وسط الطريق الصواب] يعني إذا حكمت فاحكم بالحق، بالعدل،

=

=

بدون جور {وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ} أي: دلنا إلى الصراط السواء، يعني إلى وسط الصراط، أو إلى الصراط المستقيم، وعليه فتكون {سَوَاءِ} من باب إضافة الصفة إلى موصوفها. يعني اهدنا إلى الطريق السوي العدل، والهداية هنا هداية دلالة وإرشاد لأنه لا يستطيع أن يجبرهم على ما يحكم به، لكن هي دلالة، فلو قال المصنف في {وَاهْدِنَا} لو قال: دلنا لكان أحسن.

والقضية هي: أن أحد الخصمين قال: {إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً} سبحان الله، هذان الخصمان غريبان، يتخاصمان ثم يقول أحدهما للآخر: {إِنَّ هَذَا أَخِي} والخصومة عادة، أن الخصم يسبّ خصمَه فيقول: هذا المعتدي الظالم الفاجر، أما هذا فقال: {إِنَّ هَذَا أَخِي} وهو يدل على أن الخصومة ليست تحمل وراءها شيئًا من العداوة والبغضاء.

قال المصنف: [{إِنَّ هَذَا أَخِي} أي: على ديني] وقال المصنف هذا؛ ليفيد أن الأخوة هنا ليست أخوة نسب، بل هي أخوة الدين، {لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً} أي: مئة إلا واحدة.

و{نَعْجَةٌ} منصوبة على أنها تمييز، وكلّ عدد له تمييز، لأن العدد إذا لم يذكر المعدود كان مبهمًا، وإذا ذكر المعدود كان هذا تمييزه، ثم هذا التمييز قد يكون مجرورًا وقد يكون منصوبًا ففي قولنا: عشرة رجال، التمييز مجرور، وفي قولنا: عشرون رجلًا، التمييز منصوب، هنا {نَعْجَةٌ} التمييز منصوب؛ لأن كل ألفاظ العقود من عشرين إلى تسعين كلها يكون تمييزها منصوبًا.

قال المصنف في تفسير {نَعْجَةٌ}: [يعبر بها عن المرأة] يفيد بأن هذا ليس هو الأصل في النعجة، وهو كذلك، فالأصل أن النعجة أنثى الغنم، أنثى الشياه وليست هي المرأة، فإذا كان هذا هو الأصل فمن ادعى أن المراد بالنعجة هنا المرأة فعليه

=

=

الدليل، لأن كل من ادعى خلاف الأصل فعليه الدليل، فالنعجة ليست هي المرأة، في هذه الآية، بل هي واحدة الضأن.

قال الله عز وجل: {إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ} أي: مئة إلا واحدة {وَلِيَ نَعْجَةٌ} وأكّدها بقوله: {وَاحِدَةٌ} من أجل تقليلها، وإلا فإن الواحدة مفهومة من قوله: {وَلِيَ نَعْجَةٌ} لكنه قال: {وَاحِدَةٌ} تأكيدًا للقلة، أي: ليس لي إلا واحدة ثم قال: {أَكْفِلْنِيهَا} أي: اجعلني كافلها، وذلك بأن تضمها إلى نعاجي؛ لأنه إذا ضمها إلى نعاجه صارت في ملكه، وهو الكافل لها، {وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ} غلبني في الخطاب، قال المصنف: [أي: الجدال] يعني أنه صار يجادلني حتى غلبني فأقررت له [وأقره الآخر على ذلك] الآخر يعني المدّعَى عليه، وليس في الآية ما يدلّ على أن المدّعَى عليه أقرّ أو أنه أنكر. المدَّعَى عليه مسكوت عنه، فدعوى أنه أقرّه يحتاج إلى دليل، ولو كان هذا هو الواقع لذكره الله عز وجل، لما في حذفه من الإيهام الذي يجعل حكم داود حكمًا فيه شيء من الجور. لأن حذفه يؤدي إلى سوء الظن بداود عليه الصلاة والسلام، حيث لم يستكمل مجريات القضية.

فالظاهر -والله أعلم - أن داود عليه الصلاة والسلام لما سمع هذا العدوان من هذا الشخص الذي أنعم الله عليه بنعم كثيرة، ثم ذهب يحاول أن يستلب حقّ هذا الفقير الذي ليس عنده إلا نعجة واحدة، كأنه عليه الصلاة والسلام غضب وحكم للمدَّعي فقال: {لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ} الجملة هنا مؤكدة بثلاث مؤكدات: القسم المقدر واللام وقد، لأن تقدير الكلام: والله لقد ظلمك.

وقوله: {ظَلَمَكَ} أصل الظلم في اللغة: النقص، ومنه قوله تعالى: {كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا (٣٣)} [الكهف: ٣٣] ويطلق في الشرع على النقص والعدوان، يعني على نقص الحقّ والعدوان في طلب ما ليس للإنسان، فهو في

=

=

الحقيقة العدوان سواء كان بنقص ما يجب أو بادعاء ما لا يستحق، فمن ضرب شخصًا أو أخذ ماله، قيل: إنه ظلمه، ومن جحد ما هو له وأنكر، قيل: إنه ظلمه. والظلم في قوله {لَقَدْ ظَلَمَكَ} من العدوان، ولهذا قال المصنف: [{لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ} ليضمها {إِلَى نِعَاجِهِ}] قدر المصنف: ليضمها، من أجل أن يصح التعبير بـ "إلى" لأن السؤال لا يتعدى بـ "إلى" لكنه مضمن معنى الضم، أي: بسؤاله أن يضم نعجتك إلى نعاجه.

وجه الظلم في هذا ظاهر، لأن صاحب التسعة والتسعين قد أنعم الله عليه نعمة كبيرة، وصاحب الواحدة معدم فقير، وأيضًا فإن هذه الواحدة ملك له، فكيف يعتدي هذا ويقول: أعطنيها، ويلح عليه حتى يغلبه في الحجاج والخاصمة.

ثم قال داود: {وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ} الشركاء {لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ} عندنا كثير وقليل، كثير يبغي بعضهم على بعض، وقليل لا يبغي بعضهم على بعض، فالقليل الذي لا يبغي بعضهم على بعض هم الذين وصفهم الله بقوله: {إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} فالمؤمن العامل للصالحات لا يحدث منه البغي لما معه مِن الإيمان والعمل الصالح، ومَن فاته شيء مِن هذا الوصف حصل منه مِن البغي بمقدار ما فاته مِن الوصف، فمن نقص إيمانه حصل منه البغي، ومَن قلَّت أعماله الصالحة حصل منه البغي، لأن الأعمال الصالحة يجرّ بعضها بعضًا، فإذا عمل الإنسان عملًا صالحًا أتبعه بعمل آخر، لأن للطاعة لذة وسرورًا في القلب، إذا قام الإنسان بها ازداد رغبة فيها، وإذا أعرض قلَّت أهمية الطاعات عنده وضعف قصده للطاعات وتجرّأ على المعاصي.

قوله: {وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ} يعني الشركاء {لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ} اللام في قوله: {لَيَبْغِي} للتوكيد، ويبغي: من البغي، وهو العدوان، وهذا هو الواقع: أن

=

=

كثيرًا من الشركاء يبغي بعضهم على بعض، إما بأخذ بعض من مال الشركة، أو بكتمان الربح لو ربحت، أو التغرير بالمال بحيث يتصرف فيه على وجه ليس فيه حظ للشركة، أو بادعاء أن المشترك ملك خاص له. وأنواع العدوان بين الشركاء كثيرة، ولكن كثيرًا من الشركاء يبغي بعضهم على بعض، ولهذا إذا أصلح الشركاء النية، ونصح بعضهم بعضًا أفلحوا، وفي الحديث: "إن الله تعالى يقول: أنا ثالث الشريكين ما لم يخن أحدُهما صاحبه فإذا خانه خرجت من بينهما".

قال الله تعالى: {إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} إلا: أداة استثناء وما بعدها في محل نصب، لأن الجملة السابقة كلام تام موجب، وإذا سبق الاستثناء كلام تام موجب وجب النصب. قال ابن مالك:

ما اسْتَثْنَتْ إلاّ مع تمامٍ يَنْتَصِبْ ... وبَعْدَ نَفْى أو كَنَفْيٍ انْتُخِبْ
إتباعُ ما اتَّصَلَ وانْصِبْ ما انْقَطَعْ ... وعَنْ تميمٍ فيه إبدالٌ وَقَعْ.

ولتمام الفائدة: إذا جاءت "إلا" بعد كلام تام موجب وجب نصب ما بعدها على الاستثناء، وإذا جاءت بعد كلام تام منفي، أي: مستكمل المفاعلة لكنه منفي، جاز فيما بعدها وجهان: الأول: النصب على الاستثناء، وإتباع ما بعدها لما قبلها في الإعراب، إلا إذا كان الاستثناء منقطعًا، أي: أن ما بعد "إلا" ليس من جنس ما قبلها فيجب النصب، وإذا وقعت "إلا" بعد كلام منفي ناقص كانت بحسب العوامل التي قبلها، إن كان العامل يقتضي رفعًا رُفع، وإن كان يقتضي نصبًا نُصب، وإن كان يقتضي جرًّا جُر،

ونضرب لذلك أمثلة: (قام القومُ إلا زيدًا)، بالنصب، لأن الكلام تام موجب. قام القومُ تم الكلام، موجب ليس به نفي، فتقول: إلا زيدًا، وإذا قلت: (ما قام القوم إلا زيدًا، أو إلا زيدٌ) جاز الوجهان الرفع على البدل، والنصب على الاستثناء،
=

=

فيجوز أن تقول: (ما قام القوم إلا زيدٌ) بتنوين ضم، أو (ما قام القوم إلا زيدًا) بتنوين الفتح.

أما قولنا: (ما قام القوم إلا بعيرًا)، هنا يتعين النصب، لأن البعير ليس من جنس القوم، فالاستثناء منقطع، فيجب النصب هنا لتعذر البدلية، وعلى هذا إذا قال قائل: ما قام القوم إلا بعيرٌ قلنا: هذا خطأ، لأن الاستثناء منقطع فيجب النصب، وإذا قلت: (ما قام إلا زيدٌ) بالرفع؛ لأن ما قبلها ناقص منفي، فيجب أن تقول: (ما قام إلا زيدٌ)، وفي قولنا: (ما رأيت أحدًا إلا زيدًا) هذا تام منفي، وهذا منصوب على كل حال، ويجوز الوجهان، لكنه منصوب لأنك إن قلت: ما رأيت أحدًا إلا زيدًا، هو مستثنى فهو منصوب، وإن أعربته بدلًا فهو منصوب، إذًا يجوز الوجهان إعرابًا أما شكلًا فلا يجوز إلا وجهًا واحدًا وهو النصب، لأنك حتى وإن جعلته بدلًا سيكون منصوبًا.

وفي الآية هنا {إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا} تام موجب، فالذين إذًا في محل نصب. {إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} آمنوا بقلوبهم، وعملوا الصالحات بجوارحهم.

والعمل يطلق على القول والفعل، بخلاف الفعل فإنه يطلق على فعل الجوارح والقول على قول اللسان. {الصَّالِحَاتِ} هذه صفة لموصوف محذوف، أي: عملوا الأعمال الصالحاتِ، وجمعها باعتبار أنواع الصالحات: صلاة، وصدقة، وصيام، وحج، وبر، وصلة، وأنواع كثيرة فلهذا جمعت. وأحيانًا يقول: عَمِلَ صالحًا فيفرد باعتبار جنس العمل على سبيل العموم.

والأعمال الصالحات قال أهل العلم: هي ما جمعت شرطين، وهما: الإخلاص لله، والمتابعة لرسوله ﷺ، فلا صلاح مع شرك، ولا صلاح مع بدعة، قال الله تعالى: {فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا (١١٠)} [الكهف: ١١٠]، وعلى هذا لو أن رجلًا صلّى رياء فعمله غير صالح

=

=

لفقد الإخلاص. ولو أن رجلًا تعبد لله بما لم يشرعه الله، ولكنه مخلص يريد التقرب إليه، لا يريد شيئًا من الدنيا، فعمله غير صالح لعدم المتابعة.

وقد دل على بطلان ما فيه الشرك آيات من القرآن متعددة، وأحاديث من السنة متعددة، مثل قوله ﷺ عن الله تعالى في الحديث القدسي: "قال الله تبارك وتعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، مَن عمل عملًا أشرك فيه معي غيري تركتُه وشِرْكَه".

ودل أيضًا على اشتراط المتابعة آيات وأحاديث منها قوله ﷺ: "من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد" أي: مردود عليه.

قال الله تعالى: {وَقَلِيلٌ مَا هُمْ} الواو: حالية، وقليل: خبر مقدم، وهم: مبتدأ مؤخر، يعني وهم قليل، و"ما" في قوله: {وَقَلِيلٌ مَا هُمْ} زائدة لفظًا وزائدة معنى، والمقصود بها تأكيد القلة، أي: قلة قليلة من العباد الصالحين من المؤمنين العاملين للصالحات.

وإذا تدبرنا الواقع وجدنا الآية منطبقة تمامًا عليه، فإن الله يقول يوم القيامة: "يا آدم، فيقول: لبيك وسعديك. فيقول: أخرج بعث جهنم من ذريتك فيقول: يا ربِّ كم أُخرج؟ فيقول: أخرجْ من كل مئةٍ تسعة وتسعين" هؤلاء كلهم في النار وواحد في الجنة، إذًا القلة قليلة، واحد من مئة قليل جهدًا. قال أبن القيم في النونية:

يا سلعةَ الرحمن ليس ينالُها ... في الألفِ إلاّ واحدٌ لا اثنانِ

إذن نقول: إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات من بني آدم قليلون جهدًا، ويؤكد القلة قوله: {مَا} في {وَقَلِيلٌ مَا هُمْ} قال المصنف رحمه الله: [{مَا} لتأكيد القلة، فقال الملكان صاعدين في صورتيهما إلى السماء: قضى الرجلُ على نفسه، فتنبَّه داود] الرجل يعني داود، لأنه حسب القصة الإسرائيلية المزعومة أن له تسعًا وتسعين امرأة، فطلب من رجل ليس عنده إلا امرأة واحدة أن يطلق امرأته ليتزوجها داود. وفي وجه آخر للقصة أنه أمره أن يخرج في الجيش من أجل أن يُقْتل

=

=

حتى يتزوج امرأته. وقد بينا أن هذا لا دليل عليه، وأنه لا يليق بمقام العقلاء فضلًا عن الأنبياء، وأن هذه قصة مزعومة من اليهود، فهم الذين ركبوها على داود عليه السلام، لأن اليهود لا يعتقدون داود نبيًا، وإنما هو على زعمهم مَلِك.

قال تعالى: {وَظَنَّ دَاوُودُ} قال المصنف: [أي: أيقن أنما أوقعناه في فتنة، أي: بلّية بمحبته تلك المرأة] ظن، أي: أيقن، وإنما نفسره باليقين لأن الأمر أمر واقع من داود حسب القصة، والشيء الواقع لا يقال: إنه ظن، بل يقال: إنه علم، فإن قال قائل: هل لديك شاهد على أن الظن يأتي بمعنى العلم؟ قلت: نعم، قال الله تعالى: {وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ (٤٥) الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ} [البقرة: ٤٥ : ٤٦] إيمانًا بملاقاة الله عز وجل، بل يجب على الإنسان أن يؤمن إيمانًا يقينيًا بأنه ملاقٍ ربه، والظن لا يكفي فيه، وإذا كان الظن لا يكفي فلا يمكن أن يكون مدحًا.

[{وَظَنَّ دَاوُودُ} أيقن {أَنَّمَا فَتَنَّاهُ} قال: أوقعناه في فتنة، أي: بلّية]. هذا ما ذهب إليه المصنف رحمه الله بناء على صحة القصة، ولكن الصحيح أن المراد بالفتنة الاختبار، فتناه، أي: اختبرناه، لأن الفتنة من معانيها الاختبار، قال الله تعالى: {وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً} [الأنبياء: ٣٥]، أي: اختبارًا وابتلاءً، كما قال تعالى عن سليمان: {هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ} [النمل: ٤٠] إذًا {أَنَّمَا فَتَنَّاهُ} أي: اختبرناه، وعلى رأي المصنف، أي: ابتليناه بمحبة تلك المرأة، ولكن هذا ليس بصحيح. {وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ} الصحيح أنما اختبرناه، ولكن بأي شيء اختبرناه، لننظر:

أولًا: داود عليه السلام مأمور بأن يحكم بين الناس، فإنما وظيفته عامة، واختصاصه في الوقت بدخوله المحراب، وإغلاق الباب عليه، هذا يخالف مقتضى وظيفته. إذ مقتضى وظيفته أن يتفرغ للناس حتى يقابل الخصوم ويحكم

=

=

بينهم، هذه واحدة، ولهذا سيأتينا - إن شاء الله - في الفوائد، أنه لا يجوز للحاكم بين الناس، ولمن كان في وظيفة عامة أن يشتغل بشيء خاص لنفسه.

ثانيًا: أن داود عليه السلام سمع كلام الخصم الأول ولم يستمع إلى كلام الخصم الآخر، لأن القرآن ليس فيه أنه سمع إلى كلام الخصم الآخر.

ثالثًا: أنه حكم وقال: {وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ} والحكم قبل سماع جواب الخصم الآخر فيه شيء من التسرع ما دام الخصم حاضرًا.

لهذا علم داود عليه الصلاة والسلام أن الله تعالى ابتلاه بهذه الخصومة التي جاءت وهو يتعبد في محرابه وتسوروا عليه المحراب، فاستغفر ربه وخر راكعًا وأناب.

قال الله تعالى: {فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ} أي: طلب المغفرة، والمغفرة لغة: مأخوذة من المِغْفَر، وهو ما يستر به الرأس ليتقى به السهام. أما شرعًا: فالمغفرة هي ستر الذنب والتجاوز عنه، أي: إن الله يستر على العبد ذنبه فيما بينه وبين الخَلْق، ويتجاوز عنه فيما بينه وبين العبد، وهنا تتحقق الوقاية مع الإخفاء، لأنه إذا سُتِر عن الخَلْق، ثم عفي عنه من جانب الخالق عز وجل، حصلت الوقاية بالعفو من الخالق، والثاني الستر بعدم إظهار الخلق عليها.

فداود عليه الصلاة والسلام طلب من ربه أن يغفر له ما جرى منه {وَخَرَّ رَاكِعًا} خَرّ بمعنى نزل من أعلى إلى أسفل، ومنه خرير الماء من الميزاب أو من الشلال.

وقوله: {رَاكِعًا} حال من فاعل خرّ، ولكن المصنف رحمه الله فسر الركوع بالسجود، فقال: [أي: ساجدًا] وذلك لأن الركوع الذي هو الانحناء لا يمكن أن يكون فيه خرور، لأن الراكع يبقى ثابتًا، ولا يُتَصوَّر الخرور إلا بالسجود، ولكن التعبير بالركوع عن السجود من باب التعبير بالمعنى العام عن المعنى الخاص، لأن أصل الركوع في اللغة العربية هو الذل، كما قال الشاعر:

=

=

لا تُهينَ الفقيرَ عَلَّكَ أن ... تركع يومًا والدهرُ قد رفعَهْ

يعني أن تذل، والدهر قد رفعه: أي قد رفع هذا الفقير. إذًا فالذي عين أن يكون الركوع هنا بمعنى السجود هو قوله: {وَخَرَّ} ولكنه عبر بالركوع عن السجود لإظهار أن هذا الركوع ركوع ذلّ لله عز وجل، ثم قال: {وَأَنَابَ} أي: رجع إلى الله، والإنابة: الرجوع مع الخشية فهو رجع إلى الله مع خشية الله سبحانه وتعالى.

قال الله تعالى: {فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ} أي: سترنا وتجاوزنا، له أي: لداود، واللام في {لَهُ} يحتمل أن تكون للتعدية، أو أن تكون للتعليل، لكنها للتعدية أولى، وفي كونها للتعليل تأمل، أي: أننا غفرنا لداود ذلك الذي وقع منه، وهي الفتنة التي افتتن بها، ولم يتخذ الإجراء اللازم في الحكم.

قال: {وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ} مع المغفرة. أضاف الله له هذه المنقبة {وَإِنَّ لَهُ} أي: لداود عندنا {لَزُلْفَى} قال المصنف رحمه الله تعالى: [أي: زيادة خير في الدنيا]، ويحتمل أن المرادَ بالزلفى زيادةُ القرب، كما قال تعالى: {وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ (٣١)} [ق: ٣١] أي: قرّبت، فالزلفى تفسيرها بزيادة الخير فيه شيء من النظر، والصواب أن المراد بالزلفى القربى، أما حسن المآب، فهو زيادة الخير، قال المصنف رحمه الله تعالى: [{وَحُسْنَ مَآبٍ (٢٥)} مرجع في الآخرة]. هذا هو زيادة الخير، فصارت النتيجة بعد أن وقع من داود ما وقع ثم رجع إلى الله واستغفره، أن الله سبحانه وتعالى رفع عنه آثار هذا الذنب، فغفر له، وزاده على ذلك زيادتين عظيمتين مهمتين إحداهما: القرب من الله، والثانية: حسن المآب.

(تنبيه): يذكر بعض المفسرين هنا قصة مفادها أن إن نبي الله داود عليه السلام ابتلاه الله سبحانه بامرأة جميلة هي زوجة لجندي من جنوده يسمى أوريا، وكان لداود تسع وتسعون زوجة فامر زوجها بالنزول له عنها، فبعث الله له ملكين في صورة بشر، قال له أحدهما: إن هذا صاحبي له تسع وتسعون نعجة أي امرأة ولي

=

نعجة واحدة وطلب مني أن أتنازل له عنها ليتزوجها ويكفلها وغلبني في الكلام، فقال داود: لقد ظلمك بسؤال امرأتك إلى امرأته.... و هذه القصة قد اشتهرت وانتشرت على ألسنة الخطباء والوعاظ والقصاص واغتر الكثير بوجودها في بعض التفاسير، وكذلك في قصص الأنبياء، حتى نشرت جريدة "اللواء الإسلامي" في عددها (٣٠٥) في الصفحة الثامنة تحت عنوان "أنت تسأل والإسلام يجيب" إجابة عن السؤال: ما تفسير قوله تعالى: وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب (٢١) إذ دخلوا على داود ففزع منهم قالوا لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط واهدنا إلى سواء الصراط (٢٢) إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة فقال أكفلنيها وعزني في الخطاب {ص: ٢١ - ٢٣}.

وأجاب الشيخ: إجابة هذا نصها: "إن نبي الله داود عليه السلام من أنبياء الله ابتلاه الله سبحانه بامرأة جميلة هي زوجة لجندي من جنوده يسمى أوريا، وكان لداود تسع وتسعون زوجة فامر زوجها بالنزول له عنها، فبعث الله له ملكين في صورة بشر، قال له أحدهما: إن هذا صاحبي له تسع وتسعون نعجة أي امرأة ولي نعجة واحدة وطلب مني أن أتنازل له عنها ليتزوجها ويكفلها وغلبني في الكلام، فقال داود: لقد ظلمك بسؤال امرأتك إلى امرأته... إلى أن قال الشيخ: فأنكر الله على داود أن يتشاغل بالدنيا ويستزيد من شهواتها". ثم يقول الشيخ: "والقصة طويلة ونوردها هنا بإيجاز وعلى السائل إذا أراد المزيد الرجوع إلى كتب التفسير". اهـ.

قال ابن كثير: "قد ذكر المفسرون هاهنا قصة أكثرها مأخوذ من الإسرائيليات ولم يثبت فيها عن المعصوم حديث يجب اتباعه".

قلت قد ضعف هذه القصة كثير من العلماء منهم:

=

١- نقل القرطبي في تفسيره "الجامع لأحكام القرآن" (١٥ - ١٧٦) عن ابن العربي المالكي أنه قال عن هذا الخبر: "باطل قطعًا".
٢- قال الخازن في تفسيره "لباب التأويل في معاني التنزيل" (٦ - ٤٩): "فصل في تنزيه داود عليه السلام عما لا يليق به وما ينسب إليه": اعلم أن من خصَّه الله تعالى بنبوته وأكرمه برسالته وشرفه على كثير من خلقه وائتمنه على وحيه لا يليق أن ينسب إليه ما لو نسب إلى آحاد الناس لاستنكف أن يحدَّث به عنه. فكيف يجوز أن ينسب إلى بعض أعلام الأنبياء والصفوة الأمناء. اه.
قلت: ذكره الخازن بعد أن أورد القصة، لعله أراد أن يبين بطلانها.
٣- قال الفخر الرازي في "التفسير الكبير" (٢٦ - ١٩٤): إذا قلنا الخصمان كانا ملكين، ولما كانا من الملائكة وما كان بينهما مخاصمة وما بغى أحدهما على الآخر، كان قولهما: خصمان بغى بعضنا على بعض كذبًا، فهذه الرواية لا تتم إلا بشيئين: أحدهما إسناد الكذب إلى الملائكة، والثاني أن يتوسل بإسناد الكذب إلى الملائكة إلى إسناد أفحش القبائح إلى رجل كبير من أكابر الأنبياء.
٤- قال ابن الحسن الطبرسي في تفسيره "جمع البيان في تفسير القرآن" (٨ - ٧٣٦) بعد أن ذكر القصة: "فإن ذلك مما يقدح في العدالة، فكيف يجوز أن يكون أنبياء الله الذين هم أمناؤه على وحيه بصفة من لا تقبل شهادته وعلى حالة تنفر عن الاستماع إليه والقبول منه، جل أنبياء الله عن ذلك؟! ".
وقد ذكر ابن جرير الطبري في تفسيره "جامع البيان عن تأويل القرآن" (١٠ - ٦٢٧) (ح ٢٩٨٥٩) القصة مكتفيًا بذكر أسانيدها على طريقة أهل الحديث الذين قرروا أن من أسند فقد أحال إليك ذكر الوسيلة إلى معرفة درجة الحديث.
قلت: وهذه القاعدة توهم الكثيرين الذين لا يعرفون من أمر الأسانيد شيئًا أن القصة صحيحة لوجودها في تفسير الطبري وسكوته عن ذكر درجة الحديث.

=

=

والقصة أخرجها الحكيم الترمذي في "نوادرالأصول"، وابن جرير، وابن أبي حاتم كما في "الدر المنثور" (٧ - ١٥٦). قال ابن كثير في تفسيره (٤ - ٣١): "رواه ابن أبي حاتم، ولا يصح سنده؛ لأنه من رواية يزيد الرقاشي عن أنس". قال القرطبي في تفسيره: رواه الحكيم الترمذي في "نوادر الأصول" عن يزيد الرقاشي عن أنس. قلت: والحديث عندهم جميعًا من طريق يزيد الرقاشي عن أنس مرفوعًا والرقاشي أورده ابن حجر في "التقريب" (٤ - ٥٣٨): وهو يزيد بن أبان، قال النسائي في كتابه "الضعفاء والمتروكين" رقم (٦٤٢): الرقاشي: متروك. قلت: وقد اشتهر عن النسائي أنه قال: "لا يترك الرجل عندي حتى يجتمع الجميع على تركه"، وأورده الدارقطني في كتابه "الضعفاء والمتروكين" برقم (٥٩٣)، وأورده الذهبي في "الميزان" (٤ - ٤١٨): قال أحمد: كان يزيد منكر الحديث. وأورده ابن أبي حاتم في "الجرح والتعديل" (٩ - ٢٥١). قال أحمد بن حنبل: "منكر الحديث"، وأورده البخاري في "التاريخ الكبير" (٨ - ٣٢٠)، وقال: كان شعبة يتكلم فيه. قلت: ووصل الحد في جرحه وتحريم الرواية عنه حتى أورد الذهبي في "الميزان" (٤ - ٤١٨)، وابن حجر في "تهذيب التهذيب" (١١ - ٣٠٩): أن يزيد بن هارون قال: سمعت شعبة يقول: لأن أزني أحب إليّ من أن أُحدث عن يزيد الرقاشي". قلت: هكذا حفظ الله تعالى بالإسناد لأمة محمد ﷺ دينها من تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين. قال ابن حزم: "نقل الثقة عن الثقة يبلغ به النبي ﷺ مع الاتصال خص الله به المسلمين دون سائر الملل". اهـ وبتلك الخاصية حفظ الله العقيدة السلفية من مثل هذه القصص الواهية التي تطعن في الأنبياء الذين ينبغي الاعتقاد بأن الله عز وجل قد حلاهم بالأخلاق العظيمة. قلت: هذه عقيدة أهل السنة والجماعة في الأنبياء.

=

=

أما عقيدة اليهود- عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين- فهي الطعن في الأنبياء، فقد جعلوا داود عليه السلام زانيًا، فقد جاء في "العهد القديم"- صموئيل الثاني- الإصحاح "الحادي عشر" (ص ٤٩٨): "وأما داود فأقام في أورشليم، وكان وقت المساء أن داود قام عن سريره وتمشى على سطح بيت الملك فرأى من على السطح امرأة تستحم، وكانت المرأة جميلة المنظر جدًا، فأرسل داود وسأل عن المرأة، فقال واحد: أليست هذه بَثْشَبَعَ بنت أَلِيعَام امرأة أُوريا الحثي، فأرسل داود رسلًا وأخذها، فدخلت إليه فاضطجع معها وهي مُطهرة من طمثها، ثم رجعت إلى بيتها وحبلت المرأة فأرسلت وأخبرت داود وقالت: إني حبلى". اهـ.

قلت: هذا كتابهم المقدس: يجعل داود عليه السلام ينظر إلى امرأة عارية وهي تستحم- ويعشقها ثم يزني بها حتى تحمل منه. يقول: "فأرسل داود إلى يواب يقول: أرسل إليَّ أوريا الحثي، فأرسل يواب أوريا إلى داود فأتى أوريا إليه فيسأل داود عن سلامة يواب وسلامة الشعب ونجاح الحرب، وقال داود لأوريا: انزل إلى بيتك واغسل رجليك. فخرج أوريا من بيت الملك وخرجت وراءه حصة من عند الملك، ونام أوريا على باب بيت الملك مع جميع عبيد سيده ولم ينزل إلى بيته، فأخبروا داود قائلين لم ينزل أوريا إلى بيته، فقال داود لأوريا: أما جئت من السفر، فلماذا لم تنزل إلى بيتك، فقال أوريا لداود: إن التابوت وإسرائيل ويهوذا ساكنون في الخيام وسيدي يواب وعبيد سيدي نازلون على وجه الصحراء وأنا آتي إلى بيتي لآكل وأشرب واضطجع مع امرأتي! وحياتك وحياة نفسي لا أفعل هذا الأمر، فقال داود لأوريا: أقم هنا اليوم أيضًا وغدًا، فأقام أوريا في أورشليم ذلك اليوم وغده... وفي الصباح كتب داود مكتوبًا إلى يواب وأرسله بيد أوريا، وكتب في المكتوب يقول: اجعلوا أوريا في وجه الحرب الشديدة وأرجعوا من وراءه

=

=

فيضرب ويموت، وكان في محاصرة يواب المدينة: أنه جعل أوريا في الموضع الذي علم أن رجال البائس فيه، فخرج رجال المدينة وحاربوا يواب فسقط بعض الشعب من عبيد داود ومات أوريا الحثي أيضًا"... إلى أن يقول كتابهم المقدس- لعنهم الله- في صموئيل الثاني آخر الإصحاح (١١): "فلما سمعت امرأة أوريا أنه قد مات أوريا رجلها ندبت بعلها، ولما مضت المناحة أرسل داود وضمها إلى بيته وصارت له امرأة وولدت له ابنًا، وأما الأمر الذي فعله داود فَقَبح في عيني الرب". اهـ. قلت: وقد دست هذه الإسرائيليات في الكتب كـ "قصص الأنبياء" للثعلبي المتوفى سنة ٤٢٧ هـ، حيث جاءت هذه القصة في كتابه (من ص ٣٠٤، ٣١٢). قلت: والقصة طويلة مذكورة في تسع صفحات لتحريف الآيات التي أنزلها الله في سورة "ص": (٢١، ٢٢، ٢٣، ٢٤، ٢٥) تحت اسم الأحاديث والآثار.

قال ابن حزم رحمه الله في "الملل والنحل" (٤ - ١٤) باب الكلام في "داود عليه السلام": "وذكروا أيضًا في قول الله تعالى حاكيًا عن داود عليه السلام: وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب * إذ دخلوا على داود ففزع منهم قالوا لا تخف خصمان... إلى قوله: فغفرنا له ذلك". قال: "وهذا قول صادق صحيح لا يدل على شيء ممَّا قاله المستهزئون الكاذبون المتعلقون بخرافات ولدها اليهود، وإنما كان ذلك الخصم قومًا من بني آدم بلا شك... كما بيَّنا آنفًا". ثم يقسم الإمام ابن حزم رحمه الله قائلًا: "تالله إن كل امرئ منا ليصون نفسه وجاره المستور عن أن يتعشق امرأة جاره ثم يعرض زوجها للقتل عمدًا ليتزوجها، وعن أن يترك صلاته لطائر يراه، هذه أفعال السفهاء المتهوكين الفساق المتمردين، لا أفعال أهل البر والتقوى، فكيف برسول الله ﷺ الذي أوحى إليه كتابه، وأجرى على لسانه كلامه، لقد نزهه الله عز وجل عن أن يمر مثل هذا الفحش بباله، فكيف أن يضاف إلى أفعاله". اهـ.

=

يَادَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ (٢٦).

{يَا دَاوُد إِنَّا جَعَلْنَاك خَلِيفَة فِي الْأَرْض} تَدَبَّرْ أَمْر النَّاس {فَاحْكُمْ بَيْن النَّاس بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِع الْهَوَى} أَيْ هَوَى النَّفْس {فَيُضِلّك عَنْ سَبِيل الله} أَيْ عَنْ

=

استغفار داود، ثم يقول ابن حزم رحمه الله: "وأما استغفاره، وخروره ساجدًا ومغفرة الله له: فالأنبياء عليهم السلام أولى الناس بهذه الأفعال الكريمة، والاستغفار: فعل خير لا ينكر من ملك، ولا من نبي، ولا من مذنب، ولا من غير مذنب، فالنبي يستغفر الله لمذنبي أهل الأرض والملائكة، كما قال الله تعالى: ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم {غافر: ٧} ". اهـ.

فتنة داود: ثم يقول ابن حزم رحمه الله: "وأما عن قوله تعالى عن داود عليه السلام: وظن داود أنما فتناه، وقوله تعالى: فغفرنا له ذلك: فقد ظن داود عليه السلام: أن يكون ما آتاه الله عز وجل من سعة الملك العظيم فتنة فقد كان رسول الله ﷺ يدعو الله أن يثبت قلبه على دينه، فاستغفر الله تعالى من هذا الظن فغفر الله تعالى له هذا الظن إذ لم يكن ما آتاه الله تعالى من ذلك فتنة". اهـ.

قلت: وسياق هذه الآيات يدل على تنزيه داود عليه السلام عن هذه القصة الواهية، حيث ذكره الله سبحانه في مقام العبودية، فقال سبحانه: واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب {ص: ١٧}، هذا المقام الذي حفظه الله تعالى من الشيطان بقوله: إن عبادي ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلا {الإسراء: ٦٥}. هذا ما وفقني الله إليه وهو وحده من وراء القصد.

الدَّلَائِل الدَّالَّة عَلَى تَوْحِيده {إنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيل الله} أَيْ عَنْ الْإِيمَان بِاَللهِ {لَهُمْ عَذَاب شَدِيد بِمَا نَسُوا} بِنِسْيَانِهِمْ {يَوْم الْحِسَاب} الْمُرَتَّب عَلَيْهِ تَرْكهمْ الْإِيمَان وَلَوْ أَيْقَنُوا بِيَوْمِ الْحِسَاب لَآمَنُوا فِي الدُّنْيَا(١).

---

(١)قوله تعالى: {يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ} [ص: ٢٦].

قال الطبري: يقول:"وقلنا لداود: يا داود إنا استخلفناك في الأرض من بعد من كان قبلك من رسلنا حكما بين أهلها".

عن السديّ: " {إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً}، ملَّكه في الأرض".

قال الزجاج:"بهذا جاز أن يقال للخلفاء خلفاء الله في الأرض".

قوله تعالى: {فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ} [ص: ٢٦]، أي:"فاحكم بين الناس بالعدل والإنصاف".

قال الطبري:"{بِالْحَقِّ}، يعني: بالعدل والإنصاف".

قال الزجاج:"أي: بحكم الله إذ كنت خليفته".

قال الشافعي -رحمه الله-: "فأعلم الله نبيه - ﷺ - أن فرضا عليه، وعلى من قبله، والناس، إذا حكموا أن يحكموا بالعدل، والعدل: اتباع حكمه المنزل.. وليس يؤمر أحد أن يحكم بحق، إلا وقد علم الحق، ولا يكون الحق معلوما إلا عن الله نصا أو دلالة، فقد جعل الله الحق في كتابه، ثم سنة نبيه - ﷺ".

قوله تعالى: {وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ} [ص: ٢٦]، أي:"ولا تتبع الهوى في الأحكام، فيُضلك ذلك عن دين الله وشرعه".

قال الطبري:"يقول: ولا تؤثر هواك في قضائك بينهم على الحق والعدل فيه، فتجور عن الحقّ، فيميل بك اتباعك هواك في قضائك على العدل والعمل بالحقّ عن طريق الله الذي جعله لأهل الإيمان فيه، فتكون من الهالكين بضلالك عن سبيل الله".

=

قال سهل بن عبد الله:"أي: ظلمة الهوى تستر أنوار ذهن النفس والروح وفهم العقل وفطنة القلب، كما قال النبي ﷺ: «إن الهوى والشهوة يغلبان العقل والعلم»، والبيان لسابق القدرة من الله تعالى".

قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ} [ص: ٢٦]، أي:"إن الذين يَضِلُّون عن سبيل الله لهم عذاب أليم في النار؛ بغفلتهم عن يوم الجزاء والحساب".

قال الطبري: يقول:"إن الذين يميلون عن سبيل الله، وذلك الحقّ الذي شرعه لعباده، وأمرهم بالعمل به، فيجورون عنه في الدنيا، لهم في الآخرة يوم الحساب عذاب شديد على ضلالهم عن سبيل الله بما تركوا القضاء بالعدل، والعمل بطاعة الله".

عن عكرمة، قوله: " {عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ}، قال: هذا من التقديم والتأخير، يقول: لهم يوم الحساب عذاب شديد بما نسوا".

عن السديّ، قوله: " {بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ}، قال: نُسوا: تركوا".

قال الزجاج:"أي: بتركهم العمل لهذا اليوم صاروا بمنزلة الناسين، وإن كانوا ينذرون ويذكرون".

قال ابن كثير في الآية:"هذه وصية من الله عز وجل لولاة الأمور أن يحكموا بين الناس بالحق المنزل من عنده تبارك وتعالى ولا يعدلوا عنه فيضلوا عن سبيله وقد توعد الله تعالى من ضل عن سبيله، وتناسى يوم الحساب، بالوعيد الأكيد والعذاب الشديد".

عن أبي زرعة – وكان قد قرأ الكتاب – أن الوليد بن عبد الملك قال له:"أيحاسب الخليفة فإنك قد قرأت الكتاب الأول، وقرأت القرآن وفقهت؟ فقلت: يا أمير المؤمنين أقول؟ قال: قل في أمان. قلت يا أمير المؤمنين أنت أكرم على الله أو

=

داود؟ إن الله - عز وجل - جمع له النبوة والخلافة ثم توعده في كتابه فقال: {يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ} الآية".

قال العثيمين: قوله تعالى: {يَادَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى} يخاطب الله تعالى داود عليه الصلاة والسلام بالنداء، والمخاطبة بالنداء يراد بها التنبيه، لأن هناك فرقًا بين أن تقول: محمد قام وبين أن تقول: يا علي محمد قام، ففي القول الثاني تنبيه، وإذا كان الكلام يحتاج إلى تنبيه فإنه دليل على أهميته. إذ إن الكلام الذي يهتم به يقدم بين يديه ما يكون به التنبيه، فالله عز وجل ينادي داود عليه الصلاة والسلام تنبيهًا لما سيلقي عليه فيقول: {إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ} أي: صيرناك، لأن جعل تارة يكون للتصيير، وتارة يكون للإيجاد كما في قوله تعالى: {وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ} [الأنعام: ١] أي: أوجدهما، وفي قوله تعالى: {إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا} [الزخرف: ٣] أي: صيرناه، والفرق بينهما أنه إن تعدى إلى مفعول واحد، صار بمعنى الإيجاد، وإن تعدى إلى مفعولين صار بمعنى التصيير، ففي قوله تعالى: {إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ} تعدى إلى مفعولين، الكاف وخليفه، فتكون بمعنى التصيير، {خَلِيفَةً} أي: خالفًا لنا في تبليغ شرعنا، وليس المراد أنه خالفًا لله أنه يأتي بعده، لأن الله تعالى هو الأول والآخر والظاهر والباطن، لكن خليفة لله في تبليغ شرعه وحكمه بين الناس.

وقوله: {فَاحْكُمْ} الفاء هذه للتفريع، أي: فبناء على كونك خليفة في الأرض احكم. قال المصنف رحمه الله: [{خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ} تدبر أمر الناس] كما يدبر الخلفاء أمر مَن جعلهم الله راعين له، {بِالْحَقِّ} أي: بالعدل، لأن الحق إن كان في مقابلة الخبر فهو بمعنى الصدق، وإن كان في مقابلة الحكم فهو بمعنى العدل، فإذا

=

=

قيل: أخبرني محمد بكذا وهو حق يعني صدق، وإذا قلت: حكم فلان بكذا وهو حق يعني عدلًا. هنا يقول: {فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ} أي: بالعدل، لأن الحق هنا وصف به الحكم فصار بمعنى العدل، وهذا يتضمن الحكم، وطريق الحكم، ولوازمه، فالحكم بأن تحكم بالشرع، وطريق الحق أن تعدل بين الخصمين في كل شيء، حتى إن العلماء يقولون: يجب على القاضي أن يعدل بين الخصمين في لفظه ولحظه وكلامه، وجلوسهما ودخولهما عليه، يعدل في كل شيء، ففي لفظه لا يغلظ القول لأحد الخصمين ويلين القول للآخر، وفي لحظه لا ينظر إلى أحد الخصمين نظرة غضب وإلى الثاني نظرة رضا، وفي مجلسه لا يجلس أحد الخصمين إلى جانبه والآخر بعيد عنه، وفي دخولهما عليه لا يقول لأحدهما: ادخل، قبل الآخر حتى ولو كان كافرًا، فإنه لا يقدّم المسلم عليه في الدخول، وإن كان بعض العلماء قد قال: إذا كان أحدهما كافرًا فإنه يقدّم المسلم عليه في الدخول، ولكن المقام مقام حكم فالواجب فيه العدل، وهذا كفره عليه، وهذا إسلامه له، هذا إذا كان الدخول يحتاج إلى تقديم وتأخير. أما إذا كان الباب مفتوحًا فإنه لا يلزمه أن يجعل عند الباب رجلًا يقول: ادخلا جميعًا. يجعل الأمر موكولًا إلى الخصوم. مَن جاء فليدخل، قبل الآخر أو بعده، لكن إذا كان هناك ترتيب الدخول فلا يقدم أحدهما على الآخر، هذا طريق الحكم.

أما الحكم فإذا علم أن الحق مع أحدهما وجب عليه أن يحكم له به مهما كان، سواء كان عدوًا أم صديقًا.

{فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ} الناس: أصلها الأناس، لكن حذفت الهمزة تخفيفًا كما حذفت من شر وخير، قال الله تعالى: {قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ} [المائدة: ٦٠] أي: بما هو أشر من ذلك، ثم قال: {وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى} أي: هوى النفس، وإنما نهاه عن اتباع الهوى تعظيمًا لهذا الأمر، ولا يلزم من نهيه عنه أن

=

=

يكون ممكنًا في حقه، كما قال الله تعالى للنبي ﷺ: {لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ} [الزمر: ٦٥] ولا يلزم من هذا أن يكون الإشراك في حقه ممكنًا. وقد يقال: إن الله نهاه عن اتباع الهوى لقوة الهوى في البشر، فإن الهوى في البشر أمر مفطور عليه، لأنه يندر أن شخصًا يتقدم إليه أبوه مع شخص آخر عدوٍّ له، يندر ألا يكون له هوى، أو يتقدم إليه شخص من أصدقائه الحميمين مع آخر من أعدائه الألداء ثم لا يميل مع الأول، يندر هذا، فلقوة الداعي وهو الهوى نهى الله عنه، وإن كان لا يمكن في حقه.

وقوله تعالى: {فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ} فيضلك الفعل هنا مضارع ولكنه منصوب لأنه وقع بعد النهي، والمضارع إذا اقترنت به الفاء - وهذه الفاء تدعى فاء السببية - بعد النهي صار منصوبًا بأن مضمرة وجوبًا.

وقوله: {فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ} أي: يجعلك تضل وتحيد يمينًا وشمالًا، وقوله {عَنْ سَبِيلِ اللهِ} قال المصنف- رحمه الله: [أي: عن الدلائل الدالة على توحيده] وهذا التفسير ضعيف جدًا، بل المراد بسبيل الله طريقه الموصل إليه، لأن السبيل في الأصل هو الطريق، وأضيف إلى الله لأن الله هو الذي وضعه، وهو الذي شرعه، ولأن هذا السبيل يؤدي إلى الله، فأضيف إلى الله باعتبار وضعه، وباعتبار نهايته، وإذا قلنا: إن المراد بسبيل الله، أي: طريقه وشرعه، صار أعمّ مما قال المصنف، وألصق باللفظ، لأن السبيل في اللغة الطريق، وليست الدلائل الدالة على التوحيد، لكن الدلائل الدالة على التوحيد لا شك أن النظر فيها من شريعة الله.

{إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ (٢٦)} لم يقل الله: إنك إن تتبع الهوى أو إن تضل عن سبيل الله فلك عذاب شديد، بل أتى بالجملة الاستئنافية الاستقلالية، أولًا: تفاديًا لمخاطبة داود عليه السلام بذلك، وثانيًا: ليكون أعم. إذن فيه فائدتان، ولهذا قال الله تعالى: {عَبَسَ وَتَوَلَّى

=

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ (٢٧).

=

(١) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى (٣)} [عبس: ١ - ٣] فعبر بالفعل الماضي الدال على الغائب، ولم يقل: عبست وتوليت أن جاءك الأعمى وما يدريك لعله يزكى، بل قال: {عَبَسَ وَتَوَلَّى} تفاديًا لمخاطبة الرسول ﷺ بمثل هذا الوصف.

وقوله: {إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ (٢٦)] قال المصنف: [{إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ} أي: عن الإيمان بالله] وهذا أيضًا فيه نظر، والصحيح أن سبيل الله هنا هو سبيل الله الأول، والمراد به شريعته، لأنها هي الطريق الموصل إليه. {لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ} الجملة خبر إنَّ، واسمها (الذين) و {لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ} خبرها، فالجملة هنا خبر لـ"إن"، وكل جملة تقع خبراً فلا بد فيها من رابط يربط بين هذه الجملة وبين المبتدأ، والرابط هنا الضمير في قوله: {لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ} وقوله: {شَدِيدٌ} أي: قوي وعظيم، ويدلك على قوته وعظمته ما وصفه الله به في القرآن العظيم من صفات تنزعج لها القلوب، وتتفطر لها الأكباد.

{بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ (٢٦)} أي: بسبب نسيانهم يوم الحساب، فالباء هنا للسببية، وما: مصدرية، ولهذا قال المصنف: [بنسيانهم {يَوْمَ الْحِسَابِ} المرتب عليه تركهم الإيمان، ولو أيقنوا بيوم الحساب لآمنوا في الدنيا] وقوله: {بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ (٢٦)} المراد بيوم الحساب يوم القيامة، وأضيف إلى الحساب؛ لأن الناس يحاسبون فيه على أعمالهم، وأوّل ما يحاسب عليه الإنسان فيما يتعلق بحقّ الله هو الصلاة، وأول ما يحاسب عليه فيما يتعلق بحق العالمين هو الدماء، كما قال النبي عليه الصلاة والسلام: "أول مما يقضى بين الناس بالدماء".

{وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاء وَالْأَرْض وَمَا بَيْنهمَا بَاطِلًا} عَبَثًا {ذَلِكَ} أَيْ خَلْق مَا ذُكِرَ لَا لِشَيْءٍ {ظَنّ الَّذِينَ كَفَرُوا} مِنْ أَهْل مَكَّة {فويل} واد {للذين كفروا من النار}.

أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ (٢٨).

{أَمْ نَجْعَل الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَات كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْض أَمْ نَجْعَل الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ} نَزَلَ لَمَّا قَالَ كُفَّار مَكَّة لِلْمُؤْمِنِينَ إنَّا نُعْطِي فِي الْآخِرَة مِثْل مَا تُعْطُونَ وَأَمْ بِمَعْنَى همزة الإنكار(١).

---

(١)قوله تعالى: {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا} [ص: ٢٧].

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا} عبثا ولهوا، ما خلقناهما إلا ليعمل فيهما بطاعتنا، وينتهى إلى أمرنا ونهينا".

قوله تعالى: {ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا} [ص: ٢٧]، أي:"خلق ما ذكر لا لحكمة هو ظنُّ الكفار الفجار الذين لا يؤمنون بالبعث والنشور".

قال الطبري:"يقول: أي ظنّ أنَّا خلقنا ذلك باطلا ولعبا، ظنّ الذين كفروا بالله فلم يُوَحِّدُوه، ولم يعرفوا عظمته، وأنه لا ينبغي أن يَعْبَث، فيتيقنوا بذلك أنه لا يخلق شيئا باطلا".

قال ابن كثير:"أي: الذين لا يرون بعثا ولا معادا وإنما يعتقدون هذه الدار فقط".

قال السمعاني:"وهذا دليل على أن الله تعالى يعذب الكفار بالظن الباطل".

قال الزجاج:"أعلمهم الله أنه يعذبهم علي الظن، وكذلك: {وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ} [القصص: ٣٩]، وإنما قيل لهم هذا لأنهم جحدوا البعث، ودليل هذا =

=

قوله: {أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ} [المؤمنون: ١١٥]، إذا لم يكن رجعة لم يكن فصل بين الفاجر والبر".

قوله تعالى: {فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ} [ص: ٢٧]، أي:"فويل للكفار من عذاب النار يوم القيامة".

قال الطبري:"يعني: من نار جهنم".

قال ابن كثير:"أي: ويل لهم يوم معادهم ونشورهم من النار المعدة لهم".

وفي معنى "الويل"، أقوال:

أحدها: أنه ما يسيل من صديد في أصل جهنم. قاله أبو العياض، وشقيق.

الثاني: أنه الحزن، قاله ابن كيسان.

يقال: تويل الرجل إذا دعا بالويل، وإنما يقال ذلك عند الحزن والمكروه، ومنه قوله: {فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ} [البقرة: ٧٩]، ومنه قول الشاعر:

تَوَيّل إذ ملأتُ يدي وكانَتْ... يميني لا تعلّلُ بالقليل

الثالث: أن الويل وادٍ في جهنم، وهذا قول عطاء بن يسار.

الرابع: أنه النار، قاله عمر مولى عفرة.

قوله تعالى: {أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ} [ص: ٢٨] أي:"أنجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض".

قال الطبري:"يقول: أنجعل الذين صدقوا الله ورسوله وعملوا بما أمر الله به، وانتهوا عما نهاهم عنه كالذين يشركون بالله ويعصونه ويخالفون أمره ونهيه".

قال السمعاني:"أي: لا نجعل".

قوله تعالى: {أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ} [ص: ٢٨] أي:"أم نجعل أهل التقوى المؤمنين كأصحاب الفجور الكافرين؟ ".

=

=

قال الطبري: يقول: " {أَمْ نَجْعَلُ} الذين اتقوا الله بطاعته وراقبوه، فحذروا معاصيه كالكفار المنتهكين حرمات الله".

قال السمعاني:"أي: المؤمنين كالكفار، ويقال: المراد بالمتقين ها هنا أصحاب رسول الله، وقيل: بنو هاشم وبنو المطلب، والفجار هم وجوه المشركين وسادتهم".

قال الصابوني:"الغرض: أنه لا يتساوى في حكمته تعالى المحسن مع المسيء، ولا البرُّ مع الفاجر، ففي الآية استدلال على الحشر والجزاء، وفيها أيضًا وعدٌ ووعيد".

قال ابن كثير:"أي: لا نفعل ذلك ولا يستوون عند الله، وإذا كان الأمر كذلك فلا بد من دار أخرى يثاب فيها هذا المطيع ويعاقب فيها هذا الفاجر، وهذا الإرشاد يدل العقول السليمة والفطر المستقيمة على أنه لا بد من معاد وجزاء فإنا نرى الظالم الباغي يزداد ماله وولده ونعيمه ويموت كذلك ونرى المطيع المظلوم يموت

بكمده فلا بد في حكمة الحكيم العليم العادل الذي لا يظلم مثقال ذرة من إنصاف هذا من هذا. وإذا لم يقع هذا في هذه الدار فتعين أن هناك دارًا أخرى لهذا الجزاء والمواساة".

قال العثيمين: قوله تعالى: {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا} قال المصنف: [أي: عبثًا {ذَلِكَ} أي: خلق ما ذُكر لا لشيء {ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا} من هل مكة {فَوَيْلٌ} وادٍ {لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ (٢٧)}].

يقول الله عز وجل: {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا} خلقنا أي: أوجدنا، فالخلق بمعنى الإيجاد، لكنه إيجاد عن تقدير، لأن الإيجاد قد لا يكون عن تقدير ولا عن ترتيب، ولكن الخلق لا بد أن يكون عن ترتيب وتقدير، يقول:

=

=

{وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ} السماء المراد بها الجنس، ويشمل جميع السموات، وكذلك الأرض، وقوله: {وَمَا بَيْنَهُمَا} معطوف على السماء، أي: ما خلقنا ما بينهما باطلًا، والذي بين السماء والأرض من المخلوقات مخلوقات عظيمة، بعضها معلوم لنا، وبعضها مجهول لنا لم نعلمه حتى الآن، لكن يغلب على الظن أنها مخلوقات عظيمة، لأن الله تعالى جعلها قسيمة لخلق السماء والأرض، وقسيم الشيء لا بد أن يكون مقاربًا له، أو مساويًا له.

وقوله: {بَاطِلًا} هذا محط النفي، ولهذا نقول: لا يجوز الوقف على قوله: {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا} لأنك لو وقفت لأدى ذلك إلى أن يكون المعنى معنىً باطلًا، بل لا بد أن تصل فتقول: { ... وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا}، لأن ذلك هو محط النفي، يعني ما خلقناهم باطلًا، أي: لأجل الباطل، وهذا كقوله: {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (٣٨)} [الدخان: ٣٨] فالباطل هنا بمعنى اللهو الذي لا فائدة فيه، فالله لم يخلق السماء والأرض باطلًا، ولو كان خلقها باطلًا لكان ذلك في غاية السفه أن تخلق هذه المخلوقات العظيمة بما فيها لا لشيء بل للعب واللهو.

{بَاطِلًا} هو قال المصنف: [أي: عبثًا] {ذَلِكَ} أي: اعتقاد أن خلق السماء والأرض باطلًا {ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا} يعني هذا ظن الكافرين الذين يظنون أن خلق السموات والأرض لمجرد اللعب واللهو، ولا يترتب على ذلك شيء، ومن هذا قولهم: {مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ} [الجاثية: ٢٤]، ومن ذلك ما يظنه بعض الناس أن المقصود من خلق السماء والأرض وجود هذه الخليقة ثم فناؤها إلى غير رجعة، فنقول: مَن ظن ذلك أي أن الله خلقها عبثًا ولعبًا فهو كافر، ولهذا قال: {ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا} هم الذين يظنون: أن خلق السماء والأرض كان باطلًا، وقول المصنف: [{ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا} من أهل

=

=
مكة] فيه نظر، لأنه قصر للدليل على بعض أفراده، والصواب أنه عامّ لأهل مكة وغيرهم، فالذين كفروا لا يظنون بالله إلا ظن السوء، فيظنون أن أفعاله عبث وباطل وليست لحكمة.

قال تعالى: {فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ (٢٧)} وقال المصنف: {فَوَيْلٌ} وادٍ] في جهنم، ولكن هذا ليس صحيحًا بالنسبة للآية هذه، بل كلمة "ويل" كلمة وعيد بأمر شديد، لأنه قيل: ويل له من النار فهو يتوعد بها، كما تقول: ويل لك من فلان. وليس معنى ويل لك من فلان يعني وادٍ في فلان، بل هي كلمة وعيد على أمر شديد فقوله: {فَوَيْلٌ} أي: وعيد شديد للذين كفروا من النار، يعني ما أعظم ويلهم من نار جهنم - والعياذ بالله - وقوله: {لِلَّذِينَ كَفَرُوا} خبر ويل، وقوله: {مِنَ النَّارِ (٢٧)} بيان لويل، أي: أن هذا الشيء العظيم يكون للذين كفروا من النار.

ثم قال تعالى: {أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ (٢٨)} أم: هنا منقطعة؛ لأنه لم يذكر لها معادل، فهي بمعنى (بل) والهمزة، يعني بل أنجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وهذا الاستفهام المقصود به النفي والاستنكار، يعني لا يمكن أبدًا أن نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض، والمراد بالاستفهام النفي والإنكار، والإضراب هنا انتقالي {أَمْ نَجْعَلُ} أي: نصيّر، فهي تنصب مفعولين: الأول: {الَّذِينَ آمَنُوا}، والثاني: {كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ} أي: لا يمكن أن نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض.

وقوله: {الَّذِينَ آمَنُوا} أي: صدقوا بما يجب التصديق به على وجه القبول والإذعان، أي: تصديقًا مستلزمًا للقبول والإذعان، وقوله: {وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} أي: عملوا الأعمال الصالحات، والأعمال الصالحات هي التي اجتمع فيها
=

=

شيئان: الأول: الإخلاصِ لله عز وجل، والثاني: المتابعة لشريعة الله، فمن عمل عملًا موافقًا للشريعة في ظاهره لكنه يرائي فيه، فعمله ليس بصالح، لاختلال الإخلاص لله، والذي عمل عملًا مخلصًا فيه لله يريد به وجه الله، لكنه على غير الشريعة، ليس بصالح لأنه غير موافق لشريعة الله. فلا بد من أن يكون العمل خالصًا لله، وموافقًا لشريعة الله.

وقوله: {كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ}، المفسد مقابل الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فيكون المراد بالمفسدين في الأرض: الكفّار الذين يعملون السيئات. فكلُّ كافر فهو مفسد في الأرض، في مقابل: {الَّذِينَ آمَنُوا}. وكلُّ عاصٍ، فهو مفسد في الأرض، في مقابل: {وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}، فالشيء يُعرَف بمقابله.

ولهذا فسَّر أهل العلم قوله تعالى: {وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا} [الأعراف: ٥٦]، فسّروا ذلك بالمعاصي، قالوا: لا تفسدوا في الأرض بالمعاصي وهذا التفسير صحيح، يشهد له قوله تعالى: {ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٤١)} [الروم: ٤١].

فإن قيل: هل هدم البيوت فساد في الأرض؟ فالجواب أنها لا تُنْفي ولا تُثْبت، إنْ هدمَها الإنسان ظلمًا وعدوانًا، فهو فساد في الأرض، لأنه معصية لا يجوز للإنسان أن يعتدي على بيت أخيه، فيهدمه، وإنْ هدمَها لإصلاحها، فهذا ليس فسادًا في الأرض.

وقال تعالى: {أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ (٢٨)} أم هنا أيضًا بمعنى بل، وهمزة الاستفهام الذي يراد بها الإنكار والنفي.

قال المصنف رحمه الله: [{أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ...} - لمّا قال كفار مكة للمؤمنين: إنّا نُعطى في الآخرة مثل ما تُعطون] هذا قد يكون

=

كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ (٢٩).

{كِتَاب} خَبر مُبْتَدَأ مَحْذُوف أَيْ هَذَا {أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْك مُبَارَك لِيَدَّبَّرُوا} أَصْله

=

صحيحًا، وقد لا يكون صحيحًا، لكن إن كان صحيحًا فهو كقول اليهود: {لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً} [البقرة: ٨٠]، فكل أحد يدعي أنه على حق، وكل أحد يدعي أن الثواب له وأن الآخرة له، ولكن الشأن كل الشأن بمَن شهد الله له بذلك.

يقول: [{أَمْ} بمعنى همزة الإنكار] أم، يعني قوله: {أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ} لكن يقدَّر قبلها، بل لأن أم هذه تفيد الإضراب.

{أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ} أي: نصيِّر المتقين كالفجار، أي: لا يمكن أن نجعل المتّقي كالفاجر.

والمتقي مَن اتخذ وقاية من عذاب الله، بفعل أوامره، واجتناب نواهيه، وهذا أجمعُ ما قيل في تعريف المتقي. والفجّار خلاف المتقين، يعني الذين فجروا وخرجوا عن طاعة الله إلى معصيته.

وهنا قابل المتقي بالفاجر، وفي سورة المطففين قابل الفاجر بالبَرِّ، قال تعالى: {كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ (٧)} [المطففين: ٧]، ثم قال: {كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ (١٨)} [المطففين: ١٨]. ومنه نأخذ أنّ التقوى والبِرَّ إذا اجتمعا افترقا، وإذا افترقا اجتمعا، يعني أن البِرَّ كلمة إن ذُكرت وحدها، فهي شاملة للتقوى، والتقوى إن ذُكرت وحدها، فهي شاملة "للبِرِّ، وإن جُمعتا جميعًا، البِرّ والتقوى، صار البِرّ فِعل الطاعة، والتقوى اجتناب المعصية، كقوله تعالى: {وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى} [المائدة: ٢] يعني على فعل الطاعات، وترك المعاصي.

يَتَدَبَّرُوا أُدْغِمَتْ التَّاء في الدال {آيَاته} يَنْظُرُوا فِي مَعَانِيهَا فَيُؤْمِنُوا {وَلِيَتَذَكَّر} يَتَّعِظ {أولوا الْأَلْبَاب} أَصْحَاب الْعُقُول(١).

(١)قوله تعالى: {كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ} [ص: ٢٩].

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: وهذا القرآن {كِتَابٌ أَنزلْنَاهُ إِلَيْكَ} يا محمد {مُبَارَكٌ} ".

قال السمعاني:"أي: هذا كتاب أنزلناه إليك مبارك".

قال الحارث المحاسبي:"فسماه بالبركة ليعلموا بذلك أنه يدلهم على النجاة وينالون باتباعه الزلفى والكرامة".

قوله تعالى: {لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ} [ص: ٢٩]، أي:"ليتفكروا في آياته، ويعملوا بهداياته ودلالاته".

قال الطبري:"يقول: ليتدبَّروا حُجَج الله التي فيه، وما شرع فيه من شرائعه، فيتعظوا ويعملوا به".

قال الزجاج:"المعنى: هذا كتاب ليفكروا في آياته، وفي أدبار أمورهم، أي: عواقبها".

قال السمعاني:"أي: ليتدبروا ويتفكروا في آياته".

قال الزمخشري:"تدبر الآيات التفكر فيها، والتأمل الذي يؤدى إلى معرفة ما يدبر ظاهرها من التأويلات الصحيحة والمعاني الحسنة، لأن من اقتنع بظاهر المتلوّ، لم يحل منه بكثير طائل، وكان مثله كمثل من له لقحة درور لا يحلبها، ومهرة نثور لا يستولدها".

قال الحارث المحاسبي:"فأخبر أنه أنزله للتذكر والتفكر فيه وخص بالتفكير والتذكر أهل العقول أولي الألباب".

=

=

قال الحسن البصري: "والله ما تَدَبُّره بحفظ حروفه وإضاعة حدوده، حتى إن أحدهم ليقول: قرأت القرآن كله ما يرى له القرآنُ في خلق ولا عمل".

وعن الحسن-أيضا- قال: " تعلم هذا القرآن عبيد وصبيان لم يأتوه من قبل وجهه، لا يدرون ما تأويله ، قال الله تعالى {كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته} [ص: ٢٩] وما تدبر آياته إلا اتباعه بعلمه، وإن أولى الناس بهذا القرآن من اتبعه، وإن لم يكن يقرؤه، ثم يقول أحدكم: تعال يا فلان، أقارئك متى كانت القراء تفعل هذا؟ ما هؤلاء بالقراء ولا الحكماء ولا الحلماء، لا أكثر الله في الناس أمثالهم".

وقرأ أبو جعفر وعاصم: «لتَدَّبَّرُوا آياته» بالتاء، بمعنى: لتتدبره أنت يا محمد وأتباعك.

قوله تعالى: {وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ} [ص: ٢٩]، أي:"وليتذكر أصحاب العقول السليمة ما كلفهم الله به".

قال الطبري:"يقول: وليعتبر أولو العقول والحِجَا ما في هذا الكتاب من الآيات، فيرتدعوا عما هم عليه مقيمين من الضلالة، وينتهوا إلى ما دلهم عليه من الرشاد وسبيل الصواب".

قال ابن كثير:"أي: ذوو العقول وهي الألباب، جمع لب، وهو العقل".

عن السديّ:"{أُولُو الأَلْبَابِ}، قال: أولو العقول من الناس".

قال الزجاج:"أي: ذوو العقول".

قال الحسن في قوله: {أولو الألباب}:"عاتبهم، لأنه أحبهم".

قال العثيمين: قوله تعالى: {كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ}.

{كِتَابٌ} قال المصنف: [خبر مبتدأ محذوف، أي: هذا] والمشار إليه القرآن الكريم.

=

=

وكتاب بمعنى: مكتوب. ووُصِف القرآن بأنه كتاب لعدة أوجه:

الأول: أنه مكتوب في اللوح المحفوظ، كما قاله تعالى: {بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ (٢١) فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ (٢٢)} [البروج: ٢١ - ٢٢].

الثاني: أنه مكتوب في الصحف التي بأيدي الملائكة، كما قال تعالى: {كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ (١١) فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ (١٢) فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ (١٣) مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ (١٤) بِأَيْدِي سَفَرَةٍ (١٥) كِرَامٍ بَرَرَةٍ} [عبس: ١١ - ١٦].

الثالث: أنّه يُكتب في المصاحف، كما هو معروف، وربما يدّعي مدّعٍ أنه بمعنى مفروض على الأمة الإيمان به، والعمل به. فيكون هذا معنى رابعًا لكلمة (مكتوب).

وقوله: {أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ} أنزله الله إلى محمد ﷺ، وإنزاله إلى محمد ﷺ من الله يدلُّ على أنه كلام الله. ووجه ذلك: أنّ هذا الكتاب كلام، والكلام لا بد له من متكلِّم، فإذا كان الله هو الذي أنزله، لزم أن يكون هو المتكلم به، فيكون في هذا إثبات أن القرآن كلام الله.

وأحيانًا ياتي التعبير بـ: {أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ} [النحل: ٦٤، طه: ٢] والجمع بينهما: أنّ "إلى" تفيد الغاية، أي: أنّ غاية هذا الإنزال إلى محمد ﷺ، و"على" تفيد الاستعلاء.

وذلك لأن هذا القرآن جاء من (عَلٍ)، أي: من فوق، من الله عز وجل، ثم إن في "على" إفادة التحمل للشيء.

أنزله عليك: يعني لتتحمله، وتقوم به.

فالفرق إذًا من وجهين:

الوجه الأول: أن (إلى) تفيد الغاية، أي: أن غاية الإنزال إلى محمد ﷺ، لا يتعداه إلى غيره، ولا نبي بعده، وأما (على) فتفيد الاستعلاء، أي: أنه نزل إلى الرسول

=

=

ﷺ من فوق، وتفيد أيضًا التحمل لأنه نزل عليه كأنه فوقه، والشيء الذي فوقك لا بد أن تتحمله، ويؤيِّد هذا قولُه تعالى: {إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا (٥)} [المزمل: ٥]، وقوله: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا (٢٣) فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ} [الإنسان: ٢٣ - ٢٤] مما يدل على ثقله، وهو كذلك.

قال: {أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ} مبارك: صفة لكتاب. و {أَنْزَلْنَاهُ} أيضًا صفة لكتاب، هذا بناء على إعراب المصنف: أنّ {كِتَابٌ} خبر مبتدأ محذوف، ويجوز أن يكون {كِتَابٌ}: مبتدأ، و {مُبَارَكٌ}: خبره، وجملة {أَنْزَلْنَاهُ} صفة لكتاب، وسوّغ الابتداء به وهو نكرة، وَصْفُهُ بجملة {أَنْزَلْنَاهُ}.

وبركة القرآن من عدة أوجه:

١- الوجه الأول في الثواب الحاصل بتلاوته، فإنّ من قرأ حرفًا واحدًا منه، فله بكل حرف عشر حسنات، وهذه بركة عظيمة.

٢- مباركٌ: من حيث الأثر المترتِّب على تلاوته، سواء كان عامًّا أم خاصًّا. فالخاصّ ما يحصل للإنسان بتلاوة القرآن من انشراح الصدر، ونور القلب وطمأنينته، كما هو مجرّب لمن قرأ القرآن بتدبر. وأمّا العام، فإن الله تعالى فتح بهذا القرآن مشارق الأرض ومغاربها، فإن المسلمين لما كانوا متمسكين بهذا الكتاب، سادوا العالم كله، ولا شك أن هذا من البركة بهذا القرآن.

٣- ما يحصل بهذا القرآن من اجتماع الكلمة، وحفظ اللغة الأصيلة للقوم الذين نزل بلغتهم، فمن المعلوم أن الناس إذا كانوا على لغة واحدة، صاروا إلى الاجتماع أقرب، وإذا تفرَّقت لغاتهُم، صاروا إلى التفرُّق أقرب، لأنه إذا اتفقت لغاتهم، استطاعوا أن يتفاهموا فيما بينهم، وأن يعرف بعضهم ما عند بعض، وإذا اختلفت اللغات لم تحصل هذه الفائدة، فهذا من بركة القرآن الكريم.

=

=

وله أوجه أخرى ربما لا نستطيع أن نستوعبَها في هذا المكان، لكنها ظاهرة لمن تأملها.

وقوله: {لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ} هذه متعلقة بأنزلناه، يعني أنزلناه ليدبروا آياته، ليدبروا: اللام: لام التعليل، ويدبروا: فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل، والواو: فاعل والجار والمجرور متعلقان بـ {أَنْزَلْنَاهُ} يعني: أنزلناه ليتدبَّروا آياته. والتدبُّر معناه التأمل في أدبار الأمور وعواقبها، وتكرار اللفظ على القلب، مرَّةً بعد مرَّةٍ، حتى يتَّضح المعنى، أي معناه: التأمل في معاني القرآن، وترديد هذا التأمل، حتى يتضح ما فيه المعنى. وأصل هذه الكلمة: ليتدبَّروا، فأدغمت التاء في الدال، وإذا أدغمنا التاء في الدال جعلنا التاء دالًا، فصارت ليدَّبَّروا آياته، وقوله: {آيَاتِهِ} جمع آية، والآية هي ما تنتهي بفاصلة.

ومن حفظ الله لهذا القرآن أن آياته محفوظة مرقمة، أو محجوزة بعضها عن بعض، إلى يومنا هذا.

والآيات هي: العلامات، وهي علامات على أنّ هذا القرآن من عند الله عز وجل بما تحويه من اللفظ والمعنى.

ولهذا كانت الآية الواحدة مُعجزة للبشر، بل معجزة للخَلْق كلهم، لأنها آية من آيات الله.

قال المصنف: [{لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ}: ينظروا في معانيها، فيؤمنوا]. هذه حكمة من حِكم إنزال القرآن أن يتدبر الإنسان في الآيات، الثانية: قال: [{وَلِيَتَذَكَّرَ}: يتّعظ {أُولُو الْأَلْبَابِ (٢٩)} أصحاب العقول] هذه فائدة ثانية، جعل التذكر بعد التدبر، لأنه لا يمكن أن يتّعظ الإنسانُ بالشيء إلا إذا عرف المعنى الذي يتضمنّه، فيتدبَّر أولًا، ثم يتذكَّر ثانيًا.

=

=

ففي المرحلة الأولى يقرأ الإنسانُ القرآن، وفي المرحلة الثانية يتدبَّره لفهم معانيه، ثم المرحلة الثالثة: يتّعظ به، والاتِّعاظ بالقرآن هو التأثُّر به في القلب والجوارح.

والتأثر بالقلب: إخلاص العبد لله، وإنابته إليه، وتوكله عليه، وما أشبه ذلك من أعمال القلوب.

وتأثر الجوارح: القيام بطاعة الله بالجوارح الظاهرة مثل الطهارة والصلاة والزكاة والصوم، وغير ذلك.

فالفائدة من إنزال هذا القرآن المبارك تتركز على شيئين، هما: التدبُّر والتذكُّر.

{وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ (٢٩)} أولو: بمعنى أصحاب، وهي ملحقة بجمع المذكر السالم، لأنه ليس لها مفرد من لفظها، بل لها مفرد من معناها. إذا قلنا: إنها بمعنى أصحاب، صار مفردها من المعنى صاحب، فأولو: جمع صاحب باعتبار المعنى.

وقوله: {أُولُو الْأَلْبَابِ} قال المصنف: [أصحاب العقول] لأن صاحب العقل هو الذي يتعظ أما مَن لا عقل له، فإنه لا ينتفع بذلك.

والعقول هنا، هي عقول الرشد، لأن العقل عقلان: عقل إدراك، وعقل رشد. فعقل الإدراك هو ما يتعلق به التكليف. وعقل الرشد ما يكون بحُسْن التصرُّف. فالكفار مثلًا لهم عقول إدراك، لأن هذا هو الذي يتعلق به التكليف وليس لهم عقول رشد، لأنهم لم يُحسنوا التصرف. وكل مَن لا يَحْسُن التصرف، فإنه يصح أن ينفى عنه العقل، قال تعالى: {أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٤٤)} [البقرة: ٤٤] ونحن فيما بيننا إذا وجدنا شخصًا يسيء التصرف، قلنا: إنه غير عاقل، وإن كان عاقلًا من حيث الإدراك، لكنّه غير عاقل من حيث التصرف.

والعقل الذي يُمدح، هو عقل الرشد. أما عقل الإدراك، فهذا يحصل لكل أحد، حتى الكفار والفجّار.

=

وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (٣٠).

{وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَان} ابْنه {نِعْمَ الْعَبْد} أَيْ سُلَيْمَان {إِنَّهُ أَوَّاب} رَجَّاعٌ فِي التَّسْبِيح وَالذِّكْر فِي جَمِيع الْأَوْقَات.

إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ (٣١).

{إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ} هُوَ مَا بَعْد الزَّوَال {الصَّافِنَات} الْخَيْل جَمْع صَافِنَة وَهِيَ الْقَائِمَة عَلَى ثَلَاث وَإِقَامَة الْأُخْرَى عَلَى طَرَف الْحَافِر وَهُوَ مِنْ صَفَنَ يَصْفِن صُفُونًا {الْجِيَاد} جَمْع جَوَاد وَهُوَ السَّابِق الْمَعْنَى أَنَّهَا إِذَا اُسْتُوْقِفَتْ سَكَنَتْ وَإِنْ رَكَضَتْ سَبَقَتْ وَكَانَتْ أَلْف فَرَس عُرِضَتْ عَلَيْهِ بَعْد أَنْ صَلَّى الظُّهْر لِإِرَادَتِهِ الْجِهَاد عَلَيْهَا لِعَدُوٍّ فَعِنْد بُلُوغ الْعَرْض مِنْهَا تِسْعمِائَةِ غَرَبَتْ الشَّمْس وَلَمْ يَكُنْ صَلَّى الْعَصْر فاغتم.

فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ (٣٢).

{فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْت} أَيْ أَرَدْت {حُبّ الْخَيْر} أَيْ الْخَيْل {عَنْ ذِكْر رَبِّي} أَيْ صَلَاة الْعَصْر {حَتَّى تَوَارَتْ} أَيْ الشَّمْس {بِالْحِجَابِ} أَيْ اسْتَتَرَتْ بِمَا يَحْجُبهَا عَنْ الْأَبْصَار.

رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ (٣٣).

{رُدُّوهَا عَلَيَّ} أَيْ الْخَيْل الْمَعْرُوضَة فَرَدُّوهَا {فَطَفِقَ مَسْحًا} بِالسَّيْفِ {بِالسُّوقِ} جَمْع سَاق {وَالْأَعْنَاق} أَيْ ذَبْحهَا وَقَطْع أَرْجُلهَا تَقَرُّبًا إِلَى الله تَعَالَى

=

وقوله: {الْأَلْبَابِ} ألباب: جمع لب، ولب كل شيء المقصود منه. فالحبة مثلًا لبها ما كان بداخلها، المخ الذي بداخلها هو اللبّ، وما فوقه قشور، والبيضة الذي بداخلها هو اللب وما فوقه قشور.

حَيْثُ اشْتَغَلَ بِهَا عَنْ الصَّلَاة وَتَصَدَّقَ بِلَحْمِهَا فَعَوَّضَهُ الله خَيْرًا مِنْهَا وَأَسْرَعَ وَهِيَ الرِّيح تَجْرِي بِأَمْرِهِ كَيْفَ شَاءَ(١).

---

(١)قوله تعالى: {وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ} [ص: ٣٠].

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره {وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ} ابنه ولدا".

قال ابن كثير:"يقول تعالى مخبرا أنه وهب لداود سليمان، أي: نبيا كما قال: {وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ} أي: في النبوة وإلا فقد كان له بنون غيره، فإنه قد كان عنده مائة امرأة حرائر".

قوله تعالى: {نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ} [ص: ٣٠]، أي:"نِعْم العبد سليمان، إنه كان كثير الرجوع إلى الله والإنابة إليه".

قال الزجاج:"المعنى: نعم العبد سليمان إنه أواب كثير الرجوع".

قال الطبري:"يقول: نعم العبد سليمان، إنه رجاع إلى طاعة الله توّاب إليه مما يكرهه منه. وقيل: إنه عُنِي به أنه كثير الذكر لله والطاعة".

قال ابن كثير:"ثناء على سليمان، عليه السلام، بأنه كثير الطاعة والعبادة والإنابة إلى الله عز وجل ".

قال مقاتل:"وهذا ثناء على عبده سليمان {نعم العبد}، {إنه أواب}، يعني: مطيع".

قال القشيري:"لأنه كان أوّابا إلى الله، راجعا إليه في جميع الأحوال فى النعمة بالشكر، وفي المحنة بالصبر".

قال الزمخشري:"علل كونه ممدوحا بكونه أوّابا رجاعا إليه بالتوبة. أو مسبحا مؤوّبا للتسبيح مرجعا له، لأن كل مؤوّب أوّاب".

قال ابن عباس:"الأواب: المسبّح". وروي عن السدي مثله.

قال الحسن:"يعني: مطيعًا".

=

=

قال قتادة:"كان مطيعًا لله كثير الصلاة".

قال الطبري:"و «المسبِّح» قد يكون في الصلاة والذكر".

قال مكحول: "لما وهب الله لداود سليمان -عليه السلام- قال له: يا بني ما أحسن؟ قال: سكينة الله وإيمان. قال: فما أقبح؟ قال: كفر بعد إيمان. قال: فما أحلى؟ قال: روح الله بين عباده. قال: فما أبرد؟ قال: عفو الله عن الناس وعفو الناس بعضهم عن بعض. قال داود عليه السلام: فأنت نبي ".

قوله تعالى: {إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ (٣١)} [ص: ٣١]

قال ابن كثير:"أي: إذ عرض على سليمان في حال مملكته وسلطانه الخيل الصافنات".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: إنه تواب إلى الله من خطيئته التي أخطأها، إذ عرض عليه بالعشي الصافنات، {الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ}، و «الصافنات»: جمع الصافن من الخيل، والأنثى: صافنة، وأما الجياد، فإنها السِّراع، واحدها: جواد".

وفي معنى: {الصَّافِنَاتُ} [ص: ٣١]، قولان:

أحدهما: أنها الخيل القائمة على ثلاث قوائم، وقد أقامت الأخرى على طرف الحافر من يد أو رجل وإلى هذا المعنى ذهب مجاهد، وابن زيد، ويحيى بن سلام، واختاره الزجاج، وقال: " الخيل أكثر ما تقف - إذا وقفت - صافنة، لأنها كأنها تراوح بين قوائمها"، قال الشاعر:

ألف الصّفون فما يزال كأنّه... ممّا يقوم على الثّلاث كسيرا

قال مجاهد:"صُفُون الفرس: رَفْع إحدى يديه حتى يكون على طرف الحافر".

قال ابن زيد:"الخيل والبغال والحمير تَصْفِن، و «الصَّفْن»: أن تقوم على ثلاث، وترفع رجلا واحدة حتى يكون طرف الحافر على الأرض".

=

=

الثاني: أنها الخيل القائمة، سواء كانت على ثلاث أو غير ثلاث. ومنه ما روي عن النبي -ﷺ- أنه قال: «من سره أن يقوم الرجال له صفوفًا فليتبوأ مقعده من النار»، أي: يديمون له القيام. حكاه قطرب، وأنشد قول النابغة:

لنا قُبَّةٌ مَضْروبة بفِنائها... عِتاقُ المَهارى والجياد الصَّوافِنُ

عن السديّ: " {الصافنات}، قال: الخيل".

قال ابن زيد: "الصافنات: الخيل".

قال قتادة:"يعني: الخيل، وصُفونها: قيامها وبَسْطها قوائمها".

وفي قوله تعالى: {الْجِيَادُ} [ص: ٣١]، وجهان:

أحدهما: أنها الطوال العناق مأخوذ من الجيد وهو العنق لأن طول أعناق الخيل من صفات فراهتها.

الثاني: أنها السريع، قاله مجاهد.

قال الماوردي:"سمي بذلك لأنه يجود بالركض".

قال ابن زيد: " وكانت لها أجنحة".

قال ابن زيد:"أخرجها الشيطان لسليمان، من مرج من مروج البحر".

قال ابراهيم:"كانت عشرين فرسا ذات أجنحة".

عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن عائشة-رضي الله عنها-، قالت: "قدم رسول الله ﷺ من غزوة تبوك - أو خيبر - وفي سهوتها ستر فهبت الريح فكشفت ناحية الستر عن بنات لعائشة - لُعَب - فقال: "ما هذا يا عائشة؟ " قالت: بناتي. ورأى بينهن فرسا له جناحان من رقاع فقال: "ما هذا الذي أرى وسطهن؟ " قالت: فرس. قال: "وما هذا الذي عليه؟ " قالت: جناحان قال: "فرس له جناحان؟! " قالت: أما سمعت أن لسليمان خيل لها أجنحة؟ قالت: فضحك حتى رأيت نواجذه ﷺ".

=

قوله تعالى: {فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي} [ص: ٣٢]، أي:"فقال: إنني آثرت حب المال عن ذكر ربي".

قال الطبري:"يقول: إني أحببت حب الخير حتى سهوت عن ذكر ربي وأداء فريضته، وقيل: إن ذلك كان صلاة العصر".

وفي قوله تعالى: {حُبَّ الْخَيْرِ} [ص: ٣٢]، ثلاثة وجوه من التفسير:

أحدها: يعني: حب المال، قاله مجاهد، والسدي-في رواية اسباط عنه-، ومقاتل.

الثاني: حب الخيل. قاله السدي.

قال الفراء:"الخير -في كلام العرب-: الخيل".

قال السجستاني:"وسميت الخيل: الخير، لما فيها من المنافع".

ومنه قول النبي:-ﷺ- «الخير معقود بنواصي الخيل إلى يوم القيامة». أي: ملازم لها كأنه معقود فيها.

وفي قراءة ابن مسعود: «إني أحببت حب الخيل»، بالتصريح بالتفسير.

الثالث: حب الدنيا، حكاه الماوردي.

وفي قوله تعالى: {عَنْ ذِكْرِ رَبِّي} [ص: ٣٢]، ثلاثة وجوه من التفسير:

أحدها: عن صلاة العصر، قاله علي بن ابي طالب، وقتادة، والسدي، ومقاتل.

قال سهل بن عبد الله:"عن صلاة العصر وحدها".

قال يحيى:"يعني: عن الصَّلاّة، صلاة العصر خاصة".

عن أبي الصَّهباء البكري قال: "سألت عليّ بن أبي طالب، عن الصلاة الوسطى، فقال: هي العصر، وهي التي فُتِن بها سليمان بن داود".

وفي رواية:"الصلاة الوسطى صلاة العصر التي فرط فيها سليمان".

قال ابن كثير:"ذكر غير واحد من السلف والمفسرين أنه اشتغل بعرضها حتى فات وقت صلاة العصر والذي يقطع به أنه لم يتركها عمدا بل نسيانا كما شغل النبي

=

ﷺ يوم الخندق عن صلاة العصر حتى صلاها بعد الغروب وذلك ثابت في الصحيحين من غير وجه، من ذلك عن جابر قال: جاء عمر، رضي الله عنه يوم الخندق بعد ما غربت الشمس فجعل يسب كفار قريش، ويقول: يا رسول الله، والله ما كدت أصلي العصر حتى كادت الشمس تغرب. فقال رسول الله ﷺ: "والله ما صليتها" فقال: فقمنا إلى بُطْحَان فتوضأ للصلاة وتوضأنا لها فصلى العصر بعد ما غربت الشمس ثم صلى بعدها المغرب.

ويحتمل أنه كان سائغا في ملتهم تأخير الصلاة لعذر الغزو والقتال. والخيل تراد للقتال. وقد ادعى طائفة من العلماء أن هذا كان مشروعا فنسخ ذلك بصلاة الخوف ومنهم من ذهب إلى ذلك في حال المسايفة والمضايقة، حيث لا يمكن صلاة ولا ركوع ولا سجود كما فعل الصحابة رضي الله عنهم في فتح تستر، وهو منقول عن مكحول والأوزاعي وغيرهما والأول أقرب؛ لأنه قال بعدها: {رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالأَعْنَاقِ} ".

الثاني: عن ذكر الله تعالى، قاله ابن عباس.

قال الزجاج: أي:"آثرت حب الخير على ذكر الله، وكان سليمان لهيبته لا يجسر عليه أحد حتى ينبه لوقت صلاة، ولست أدري هل كانت صلاة العصر مفروضة في ذلك الوقت أم لا، إلا أن اعتراضه الخيل قد شغله حتى جاز وقت يذكر الله - جل وعز - فيه".

الثالث: أن الحرف «عن» في الآية للتعليل؛ أي: أحببتها حبا ناشئا عن ذكرى لربي، فلولا الذكر ما أحببت الخيل ولا أعددتها؛ لأن هواي في طاعة الله، والجهاد في سبيله.

الصحيح - والله أعلم - أنه - عليه السلام - ما أحب الخيل لذاتها، وإنما كان الباعث له هو ذكر الله - عز وجل - لأنها كانت للجهاد في سبيل الله. والله أعلم.

=

=

قوله تعالى: {حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ} [ص: ٣٢].

قال الطبري:"يقول: حتى توارت الشمس بالحجاب، يعني: تغيبت في مغيبها".

وفي قوله تعالى: {حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ} [ص: ٣٢]، قولان:

أحدهما: حتى توارت الشمس بالحجاب، أي: غابت، وجاز الإضمار قبل الذكر لأنه معلوم، وهذا قول ابن مسعود، وقتادة، وكعب، والسدي، وبه قال الفراء، وأبو عبيدة، وابن قتيبة.

قال ابن مسعود:"توارت الشمس من وراء ياقوتة خضراء، فخضرة السماء منها".

قال مقاتل:"الحجاب: جبل دون ق بمسيرة سنة تغرب الشمس من ورائه".

عن قتادة، قوله: {حَتَّى تَوَارَت بِالْحِجَابِ}، قال:"حتى دَلَكَتْ براح. قال قتادة: فوالله ما نازعته بنو إسرائيل ولا كابروه، ولكن ولوه من ذلك ما ولاه الله".

الثاني: توارت الخيل بالحجاب، أي: شغلت بذكر ربها إلى تلك الحال، حكاه ابن عيسى، والنحاس.

قال الماوردي:"والحجاب الليل يسمى حجابًا لأنه يستر ما فيه".

فالمعنى: أن النبي سليمان - عليه السلام - طل يستعرض الخيل حتى توارت الخيل بالحجاب، أي: استترت بظلمة الليل. وقيل: حتى توارت الشمس بالحجاب، وهو الليل الذي سترها عن الأبصار. وأيما كان فإن المآل واحد.

قوله تعالى: {رُدُّوهَا عَلَيَّ} [ص: ٣٣]، أي:"قال سليمان ردُّوا هذه الخيل عليّ".

قال مقاتل:"يعني: كروها علي".

قال الطبري:"يقول: ردّوا عليّ الخيل التي عرضت عليّ، فشغلتني عن الصلاة، فكروها عليّ".

عن السديّ: " {رُدُّوهَا عَلَيَّ}، قال: الخيل".

=

=

قوله تعالى: {فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ} [ص: ٣٣]، أي:"فشرع يضرب سيقانها ورقابها بالسيف؛ قربة لله، لأنها كانت سبب فوات صلاته".

قال الطبري:"يقول: فجعل يمسح منها السوق، وهي جمع الساق، والأعناق".

قال مقاتل:"يقول فجعل يمسح بالسيف سوقها وأعناقها فقطعها".

قال د. محمد بكر إسماعيل:"ثم طلب سليمان ردها إليه مرة أخرى فأخذ يمسح بيده الشريفة على سوقها وأعناقها إعجابا بها وحنوا عليها، وإيماء للجند بأنه قد وهبها لله - عز وجل - ووقفها على الجهاد في سبيله".

وفي قوله تعالى: {فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ} [ص: ٣٣]، قولان:

أحدهما: أنه من شدة حبه لها مسح عراقيبها وأعناقها، قاله ابن عباس.

الثاني: أنه لما رآها قد شغلته عن الصلاة ضرب عراقيبها وأعناقها، قاله الحسن، وقتادة.

عن سعيد، عن قتادة: " {فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالأعْنَاقِ}، قال: قال الحسن: قال لا والله لا تشغليني عن عبادة ربي آخر ما عليك، قال قولهما فيه، يعني قتادة والحسن قال: فكَسَف عراقيبها، وضرب أعناقها".

وقال الحسن:"أمر بها فعقرت".

قال السدي:"فضرب سوقها وأعناقها".

قال الطبري: وقول ابن عباس " أشبه بتأويل الآية، لأن نبيّ الله ﷺ لم يكن إن شاء الله ليعذب حيوانًا بالعرقبة، ويهلك مالا من ماله بغير سبب، سوى أنه اشتغل عن صلاته بالنظر إليها، ولا ذنب لها باشتغاله بالنظر إليها".

قال الماوردي:"ولم يكن ما اشتغل عنه من الصلاة فرضًا بل كان نفلًا لأن ترك الفرض عمدًا فسق، وفعل ذلك تأديبًا لنفسه. والخيل مأكولة اللحم فلم يكن ذلك منه إتلافًا يأثم به".

=

=

قال الكلبي: "كانت ألف فرس فعرقب تسعمائة وبقي منها مائة. فما في أيدي الناس من الخيل العتاق من نسل تلك المائة".

قال مقاتل:"وبقي منها مائة فرس فما كان في أيدي الناس اليوم فهي من نسل تلك المائة".

عن ابن زيد عن أبيه، قال:"كان يضرب أعناقها وسوقها بالسيف؛ فقال رسول الله ﷺ: «لو بقي منها واحد لكان نسله إلى اليوم» ".

قال الزجاج:"«المسح» -ههنا- على ما جاء في التفسير: القطع، وروي أنه ضرب سوقها وأعناقها، وسوق جمع ساق، مثل دار ودور. ولم يكن سليمان ليضرب أعناقها إلا وقد أباح الله ذلك، لأنه لا يجعل التوبة من الذنب بذنب عظيم. وقال قوم إنه مسح أعناقها وسوقها بالماء وبيده، وهذا ليس يوجب شغلها إياه، أعني أن يمسحها بالماء، وإنما قال ذلك قوم لأن قتلها كان عندهم منكرا. وليس ما يبيحه الله بمنكر، وجائز أن يباح ذلك لسليمان في وقته ويحظر في هذا الوقت، ومالك يذهب إلى أنه لا ينبغي أن يؤكل لحم الخيل والبغال والحمير، لقول الله عز وجل: {وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً} [النحل: ٨]، وقال في الإبل: {لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ} [غافر: ٧٩] ".

قال الفخر الرازي-في الآية-: "إن هذه القصص إنما ذكرها الله تعالى عقب قوله سبحانه وتعالى: {وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ} [ص: ١٦]. وإن الكفار لما بلغوا من السفاهة إلى هذا الحد قال - عليه السلام - لمحمد ﷺ: {اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ} [ص: ١٧]. وذكر قصة داود ثم ذكر عقبها قصة سليمان، وهذا الكلام لا يكون لائقا إلا بقولنا: إن سليمان - عليه السلام - أتى في هذه القصة بالأعمال الفاضلة، والأخلاق الحميدة، وصبر على طاعة الله، وأعرض عن الشهوات واللذات، فلو كان

=

=
المقصود من قصة سليمان - عليه السلام - في هذه المواضع أنه أقدم على الكبائر العظيمة، والذنوب الجسيمة لم يكن ذكر القصة لائقا بهذا الموضع، فثبت أن كتاب الله تعالى ينادي على هذه الأقوال بالرد والإفساد والإبطال، بل التفسير المطابق للحق ولألفاظ القرآن، والصواب أن نقول: إن رباط الخيل كان مندوبا إليه في دينهم، كما أنه مندوب إليه في دين محمد - ﷺ - فاحتاج إلى الغزو، فجلس وأمر بإحضار الخيل وأمر بإجرائها، وذكر أنه لا يحبها لأمر الدنيا ونصيب النفس، وإنما يحبها لأمر الله تعالى وطلب تقوية دينه، وهو المراد من قوله: {عن ذكر ربي}، ثم إنه - عليه السلام - أمر بتسييرها حتى توارت بالحجاب، أي غابت عن بصره، ثم أمر الرائضين أن يردوا تلك الخيل إليه، فلما عادت إليه طفق يمسح سوقها وأعناقها، والغرض من ذلك المسح أمور:

- تشريفها وبيان عزتها لكونها من أعظم الأعوان لدفع العدو.
- أراد أن يظهر أنه في ضبط السياسة والملك متطلع إلى حيث يباشر أكثر الأمور بنفسه.
- أنه كان أعلم بأحوال الخيل وأمراضها وعيوبها، فكان يمتحنها ويمسح سوقها وأعناقها، حتى يعلم هل فيها ما يدل على المرض.

فهذا التفسير الذي ذكرناه يتفق مع عصمة نبي الله سليمان - عليه السلام - ولا يلزمنا نسبة شيء من تلك المنكرات المحظورات إلى سليمان عليه السلام، ثم قال الرازي: وأنا شديد التعجب من الناس! كيف قبلوا هذه الوجوه السخيفة مع أن النقل والعقل يردها، وليس لهم فيها شبهة فضلا عن حجة؟! ".

وقد ذكرنا أن الجمهور اعتذر عن ترك سليمان - عليه السلام - صلاة العصر بالنسيان، ثم ذكرنا حقيقة هذا الأمر، ولقد اعتذر الجمهور مرة أخرى عن ذبح سليمان - عليه السلام - للخيل بأنه كان قربانا، وكان هذا مشروعا في دينه. لكن
=

=

لئن سلم للجمهور اعتذارهم عن ترك سليمان - عليه السلام - صلاة العصر بالنسيان، فلا يسلم له ذبح الخيل لأمور:

١- أن كونه شغل بها حتى نسي الصلاة، لا يدعو إلى التخلص منها بذبحها تقربا أو غيره؛ لأن النسيان يرفع إثم التأخير.

٢- أن فيه تضييع عدته في جهاد أعداء الله، والحفاظ على دينه، وهذا لا يليق من النبي، إذ إن الخيل - وقتها - كانت عدة لا يستهان بها في قتال الأعداء، وفي ذبحها إضعاف لقوة يحتاج إليها قطعا في مواجهة أعدائه، وتمكين للعدو من نفسه.

٣- أنه لو كان المراد بمسحه بالسوق والأعناق تقطيعها الذي يتطلب جهدا كبيرا ومشقة شديدة، لكان يكفي سليمان - عليه السلام - أن يعهد إلى بعض رعيته بهذا، ولا يحمل نفسه هذه المهمة الشاقة، أما مسحها بيده فأمر سهل، ويناسب أن يباشره - عليه السلام - بنفسه.

٤- من أين للجمهور دليلهم على أن تقريب القربان بالخيل كان مشروعا في دينه؟ فإن قالوا بأن الدليل هو فعله عليه السلام، فيرد عليهم بأن قوله سبحانه وتعالى: {رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ} [ص: ٣٣]، ليس نصا صريحا محددا في الذبح، وإنما يحتمل المسح باليد، وهو الأظهر فلا يصلح دليلا لهم.

٥- أن الأرجح في عود الضمير في "توارت" للخيل لا للشمس؛ لذكر الخيل صريحا في "الصافنات الجياد"، ولأنها الأقرب إلى الضمير في الذكر، والأنسب في عود الضمير أن يكون إلى أقرب مذكور.

فقولهم: إنه ذبحها وفرق لحمها على الفقراء والمساكين؛ لأنها شغلته عن صلاة كان يصليها قبل غروب الشمس، فهو ضعيف؛ إذ كيف يقضي على هذه القوة الضاربة فيأخذها من مرابطها؛ ليضعها في بطون الجائعين؟ وما ذنب هذه الخيل؟ هل هي التي أنسته صلاته؟ وهبه نسي صلاته، هل في النسيان ذنب يوجب ذبح

=

=

الخيل كلها من أجل أن يكفر الله عنه ذنبه؟ ولم ذلك والله – عز وجل – يغفر لمن استغفره من غير أن يتقرب بمثل هذا
القربان الذي يترتب عليه إهدار قوة لا غنى للجيش عنها، وهي لا تقل عن الريح شأنا من حيث إنها تلاحق العدو، وتتوسط جمعه، وتدخل الرعب في قلبه، وتصنع الأعاجيب في إحراز النصر بإذن الله عز وجل؟!.
يقول ابن حزم في الرد على هذه الشبهة: "وهذه خرافة مكذوبة سخيفة باردة، قد جمعت أفانين من القول، والظاهر أنها من اختراع زنديق بلا شك؛ لأن فيها معاقبة خيل لا ذنب لها، والتمثيل بها وإتلاف مال منتفع به بلا معنى، ونسبة تضييع الصلاة إلى نبي مرسل، ثم يعاقب الخيل على ذنبه، لا على ذنبها، وهذا أمر لا يستجيزه صبي ابن سبع سنين، فكيف بنبي مرسل؟! ".
فالأحرى أعتماد النص القرآني لأخذ المعنى من كلماته وحروفه، والربط بين سابقه ولاحقه، فبذلك يمكن الوصول إلى المعاني المرادة من كلامه بتوفيق الله وعونه، والله هو الهادي إلى سواء السبيل.
قال العثيمين: قوله تعالى: {وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ} وهبنا: أعطينا. ووصف الله ذلك بأنه هبة، لأنه محض فضل منه لا يحتاج منا إلى شيء. قال الله تعالى: {لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ (٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا} [الشورى: ٤٩ – ٥٠] إذًا وهبنا لداود: أعطيناه هبة فضلًا منا.
وقوله: {سُلَيْمَانَ} لم ينوّن، لأنّه ممنوع من الصرف للعلمية، ولزيادة الألف والنون.
وداود: ممنوع من الصرف للعجمية والعلمية. قال المصنف: [{سُلَيْمَانَ} ابنه]، من أين عرف المصنف أنه ابنه؟ ألا يجوز أن يكون المراد وهبنا لداود سليمان
=

=

يعني خادمه؟ الجواب: لا؛ لأنّ الله سبحانه وتعالى سمّى الأولاد هبةً في قوله تعالى: {يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ (٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا} يعني: يصنِّفهم ذكرانًا وإناثًا {وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا} [الشورى: ٥٠].

قال: {نِعْمَ الْعَبْدُ} أي: سليمان، ونعم: فعل ماض جامد لإنشاء المدح، والجملة أُتي بها للمدح والثناء، وعلى نقيضها (بئس) فإنهّا كلمة لإنشاء الذمّ.

وقوله: {نِعْمَ الْعَبْدُ} المعروف أنّ (نعم أو بئس) تحتاج إلى فاعل، ومخصوص بالمدح في (نعم)، والذم في (بئس)، {نِعْمَ الْعَبْدُ} العبد: هو الفاعل، نعم في الماضي والعبد فاعل والمخصوص بالمدح: إمّا أن نقدره اسمًا ظاهرًا، أو ضميرًا.

{إِنَّهُ أَوَّابٌ (٣٠)} هذا سبب ثناء الله عز وجل على سليمان {إِنَّهُ} أي: سليمان.

{أَوَّابٌ} أي: رجّاع إلى الله عز وجل، سواء كان ذلك بترجيع الصوت بالذِّكر، أو بالرجوع إلى طاعة الله عز وجل.

والظاهر أن الآية شاملة للمعنيين: {إِنَّهُ أَوَّابٌ} رجّاع إلى طاعة الله، و {أَوَّابٌ} رجّاع بالتسبيح، أي: يرجّع الصوت به ويردِّده.

يقول المصنف رحمه الله: [رجّاع بالتسبيح والذِّكر في جميع الأوقات] ولكن الصحيح أنه أعم مما قال المصنف؛ أنّه رجّاع بالتسبيح والذِّكر، وكذلك رجّاع إلى الله بالتوبة والطاعة.

وقوله: {إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ (٣١)}.

{عُرِضَ} العارض، أبهمه للتفخيم، لأن الفعل هنا مبني للمجهول. يعني كأنه يوحي بأنّ له جنودًا كثيرة يعرضون عليه ما يعرِضون.

وقوله: {بِالْعَشِيِّ} هو ما بعد الزوال إلى غروب الشمس، وقوله: {بِالْعَشِيِّ} الباء هنا للظرفية؛ أي: فيه، ولكن الغالب أنّ الباء إذا جاءت في مكان "في" أنها تكون

=

=

مستوعبة لجميع الوقت، كأنّ العشي صار كله مُستَوعبًا؛ لهذا العرض، لكثرة الخيول التي تُعرَض عليه.

{الصَّافِنَاتُ} الصافنات مرفوعة وهي نائب فاعل {عُرِضَ}. فإذا قال قائل: {الصَّافِنَاتُ} جمع، والفعل مذكر {عُرِضَ} وهذا جمع ذات حِرٍ، يعني جمع مؤنث حقيقي، وابن مالك يقول في تاء التأنيث:

وتاءُ تأنيثٍ تلي الماضي إذا ... كان لأنثى كأبَتْ هندُ الأذى

وإنّما تَلزمُ فعلَ مُضْمَر ... مُتَّصِلٍ أو مُفْهِمٍ ذاتَ حِرِ

نقول: إنّما لم يجب التأنيث لوجود الفاصل، وهو قوله: {عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ}.

{الصَّافِنَاتُ} قال المصنف: [الخيل، جمع صافنة، وهي القائمة على ثلاث، وإقامة الأخرى على طرف الحافِر، وهو من صَفنَ يَصْفِنُ صُفونًا].

{الصَّافِنَاتُ} هي: الخيل تقوم على ثلاث أرجل، وترفع الرابعة قليلًا، بحيث يكون طرف الحافر على الأرض، وهذا يدل على قوتها. وهو أيضًا من ناحية الجمال أجمل عند رؤيتها. ولو تصوَّرت الخيلَ مصفوفةً صافنةً، لكان لها أُبهّة، وتشعرُ بشيءٍ من العَظَمة من هذا المشهد الذي تشاهده.

قوله تعالى: {الْجِيَادُ (٣١)} قال المصنف: [جمع جواد، وهو السابق، المعنى: أنها إذا استُوقِفَت سكنت، وإن ركضت سبقت] يعني: أنّ هذه الخيل التي عُرضت عليه موصوفة بهذين الوصفين: أنها من الصوافن، وأنها من الجياد؛ فهي إذا استُوقِفت وقفت على أحسن هيئة، وهو الصّفون، وإذا ركضتْ؛ ركضتْ على أكمل هيئة، وهي الجود. جيدة في السّبق، وتتحمل المشاق، ولو طال السير، وهذا غاية ما يكون من جمال الخيل؛ أن تكون هيئتها حين الوقوف ممّا يسر النفس، وأن يكون فعلها وأداؤها حين السير مما ينفع، لكونها من ذوات الجود.

=

=

وقول المصنف: [كانت ألف فرس، عُرضت عليه، بعد أن صلَّى الظهر، لإرادته جهاد العدوِّ عليها، فعند بلوغ العرض منها تسع مئة، غربت الشمس، ولم يكن صلى العصر، فاغتم].

تقديره هذه الخيل بألف فرس يحتاج إلى دليل عن معصوم، عن النبي ﷺ، وليس هناك دليل عن رسول الله ﷺ بأنها ألف أو ألفان أو أقلّ أو أكثر. وحينئذ تكون مسؤوليتنا أن نقفَ حيث يقف القرآن، فلا نحددها بألف ولا بأكثر ولا بأقل، إنما هؤ عُرضت عليه في آخر النهار هذه الخيول الصافنات الجياد، فلما عرضت عليه نسي أن يصليَّ لقوة ما في قلبه من التعلُّق بهذه الخيول التي أعدّها للجهاد في سبيل الله، أو أعدها للزينة والتمتع؛ لأن سليمان كان من الأنبياء الملوك، قال تعالى: {وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي} [ص: ٣٥] والملوك من عادتهم أن يُسّروا ويبتهجوا بالنظر إلى الخيول، وسواء كان أعدّها للجهاد إن كان قد أُمر به، أو أعدّها للتمتع بها بصفته أنه ملك {فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي}.

أحببت، أي: أردت، حب الخير. يعني محبة الخير، والخير يطلق على المال عمومًا، كما في قوله: {إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ (٦) وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ (٧) وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ} [العاديات: ٦] أي: لحب المال، والدليل على أن الخير هو المال قولُه تعالى: {كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ} [البقرة: ١٨٠].

فقوله: {حُبَّ الْخَيْرِ} أي: حب المال، وتفسير المصنف رحمه الله لهذا الخير بالخيل أخص من دلالة اللفظ، وقد مرَّ علينا أنه لا يجوز أن يفسر اللفظ الأعم بالمعنى الأخص، لأنَّ هذا قصور في التفسير، لكن قد يكون عذر المصنف أن السياق في الخيل، فيكون حمله لهذا العامّ على الخاصّ بقرينة السياق.

=

=

وهنا إشكال، وهو قوله: {أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ} هل الحب يُحب؛ أي: لو قال قائل: لماذا لم تكن الآية: إنِّي أحببت الخير، كما قال تعالى: {وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ} [العاديات: ٨]؟

لقد أوَّل المصنف رحمه الله المحبّة التي جاءت بلفظ الفعل بالإرادة فقال: " [{إِنِّي أَحْبَبْتُ} أي: أردت {حُبَّ الْخَيْرِ}] لكنَّه رحمه الله وإن تخلص من تضارب اللفظ لم يتخلص من فساد المعنى؛ لأنَّه إذا قال: أردت {حُبَّ الْخَيْرِ} فالمراد قد يحصل، وقد لا يحصل مع أن حبه حاصل.

والجواب أن نقول: إن {أَحْبَبْتُ} الأوَّل على بابها و {حُبَّ} الثَّانية على بابها من باب التوكيد، كأنه أَحَبَ حُبَ الخير فضلًا عن الخيل، ومن أحب حب الشيء لزم أن يكون محبًا للشيء، كما لو قلت: أنا أحب أن أحب فلانًا، أو أنا أحب أن أحب قراءة الكتاب الفلاني، فيكون هذا من باب التوكيد، كأنه كرّر المحبة مرتين، وبهذا نتخلص من الإيراد الذي يَرِدُ على تفسير المصنف رحمه الله.

وقوله تعالى: {عَنْ ذِكْرِ رَبِّي}، قال المصنف: [أي: صلاة العصر]، وهذا أيضًا فيه تفسير للعامّ بما هو أخصّ، وهو قصور في التفسير، وذلك لأنَّ الذِّكر أعمّ من الصَّلاة، فكل صلاة ذكر، وليس كل ذى صلاة، إذًا إذا فسَّرنا الذِّكر بالصلاة فقد فسَّرنا الأعمّ بالأخصّ، وهذا قصور، لكن ربما يُعتذر عن المصنف بسياق الآية، ولكن هذا العذر لا يقبل؛ من الذي يقول: إن سليمان أراد بذكر ربه صلاة العصر؟ إذ قد يكون أنه أراد ذكر الله في المساء، لأن المساء له أذكار معينة، وتكون صلاة العصر داخلة في هذا الذكر، وهذا هو الصحيح، أن المراد بالذكر في قوله: {ذِكْرِ رَبِّي} عموم الذكر، الذي يدخل فيه صلاة العصر.

وقوله: {عَنْ ذِكْرِ رَبِّي} يشمل التذكر الذي هو ذكر القلب، ويشمل القول الذي هو ذكر اللسان، ويشمل الفعل الذي هو أفعال الجوارح إذا أدخلنا صلاة العصر في

=

=

هذا؛ لأن صلاة العصر تشتمل على أنواع الذكر الثلاثة، فيها ذكر بالقلب، وذكر باللسان، وذكر بالجوارح.

وقوله: {عَنْ ذِكْرِ رَبِّي} في إضافة الربوبية إلى الله، استعطاف من سليمان لله عز وجل حيث أذعن له في الربوبية التي تقتضي أن يكون مشغولًا بذكره سبحانه وتعالى.

وقوله: {إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي} استشكل بعض العلماء تعدي الفعل بـ "عن".

قيل: إن "عن" تعني البدلية هنا، أي: بدل ذكر ربي، وقال بعض العلماء: إن {أَحْبَبْتُ} ضُمّن معنى آثرت، أي: آثرت حب الخير عن ذكر ربي. ومرّ علينا فيما سبق أنه إذا جِيء بمُتعلِّق لا يناسب المتعلَّق ظاهرًا فإن لعلماء النحو في ذلك قولين:

الأوَّل: تضمين المتعلَّق معنى يناسب المتعلَّق.

والثَّاني: أن يضمَّن الحرف الذي لا يناسب المتعلَّق حرفًا يناسب المتعلَّق. وذكرنا أن الأولى أن يكون التجوز بالفعل.

قوله: {حَتَّى تَوَارَتْ} قال المصنف: [أي: الشَّمس (٣٢)} أي: استترت بما يحجبها عن الأبصار].

إذا قال قائل: {تَوَارَتْ} الفاعل ضمير مستتر، والشمس لم يسبق لها ذكر، فلماذا لا يقال: {حَتَّى تَوَارَتْ} أي: الخيل {بِالْحِجَابِ} يعني أنَّها أبعدت حتَّى استترت عنه، وكأنه شغل بالنظر إليها، وهي تتطارد وتتسابق حتَّى وصلت إلى مسافة بعيدة بحيث غابت عنه؟

نقول: لا شك أنَّه معنى محتمل في الآية: {إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ (٣٢)} أي: هذه الخيول أبعدت واستترت. ولكن وردت

=

=

أحاديث تؤيد ما ذهب إليه المصنف من أن التي توارت هي الشَّمس.

{بِالْحِجَابِ} أي: بما يحجبها عن الأبصار.

فما هو هذا الحجاب؟ الحجاب هو الأرض، كما قال الله تعالى عن ذي القرنين: {حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ} [الكهف: ٨٦] أي: في البحر، إذًا، الذي يسترها إذا غابت هي الأرض، لأنَّ الأرض كروية الشكل؛ إذا دارت الشمس عليها ووصلت الجانب المنحني؛ لا بد أن تغيب، وهكذا تغيب عن كل قوم شيئًا فشيئًا، حتَّى تطلع على مَن غابت عنهم أولًا.

{رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ (٣٣)}.

{رُدُّوهَا} الضمير راجعٌ إلى الخيل التي عُرضت عليه. أمر أن تُردَّ عليه، وترجع عليه مرَّة ثانية، من أجل أن يقضي عليها غضبًا لله عز وجل، وتنكيلًا لنفسه التي تعلّقت بهذه الخيول، وأعرضت بها عن ذكر الله. {فَطَفِقَ}، طفق: فعل ماض من أفعال الشروع، ويكون خبرها فعلًا. وبناءً على ذلك فإن قوله: {مَسْحًا} ليست خبرًا لها، بل مصدرًا (مفعولًا مطلقًا) للفعل المحذوف الذي هو الخبر، والتقدير: فطفق يمسح مسحًا، والجملة: خبر طفق.

قوله: {مَسْحًا بِالسُّوقِ} يعني يضربها مع سوقها جمع ساق و {وَالْأَعْنَاقِ} مع العنق، لأنّ الخيل تتعلق بها النَّفس، باعتبار المشي، وباعتبار الصفون عند الوقوف، وباعتبار الرقبة وطولها، وما عليها من الشعر وحسن العنق وهو دال على فراهتها، ولهذا ضرب عليه الصلاة والسلام مواقع الحسن في الخيل، وهي سوقها وأعناقها.

يقول المصنف رحمه الله: [ذبحها وقطع أرجلها تقربًا إلى الله حيث اشتغل بها عن الصَّلاة، وتصدق بلحمها فعوضه الله خيرًا منها وأسرع وهي الرِّيح تجري بأمره كيف شاء] يُحتمل ما قاله المصنف، ويُحتمل أنَّه لم يتصدق بها؛ لأنَّه ذبحها تقربًا

=

وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ (٣٤).

{وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَان} ابْتَلَيْنَاهُ بِسَلْبِ مُلْكه وَذَلِكَ لِتَزَوُّجِهِ بِامْرَأَةٍ هَوَاهَا وَكَانَتْ تَعْبُد الصَّنَم فِي دَاره مِنْ غَيْر عِلْمه وَكَانَ مُلْكه فِي خَاتَمه فَنَزَعَهُ مَرَّة عِنْد إرَادَة الْخَلَاء وَوَضَعَهُ عِنْد امْرَأَته الْمُسَمَّاة بِالْأَمِينَةِ عَلَى عَادَته فَجَاءَهَا جِنِّيّ فِي صُورَة سُلَيْمَان فَأَخَذَهُ مِنْهَا {وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيّه جَسَدًا} هُوَ ذَلِكَ الْجِنِّيّ وَهُوَ صَخْر أَوْ غَيْره جَلَسَ عَلَى كُرْسِيّ سُلَيْمَان وَعَكَفَتْ عَلَيْهِ الطَّيْر وَغَيْرهَا فَخَرَجَ سُلَيْمَان فِي غَيْر هَيْئَته فَرَآهُ عَلَى كُرْسِيّه وَقَالَ لِلنَّاسِ أَنَا سُلَيْمَان فَأَنْكَرُوهُ {ثُمَّ أَنَاب} رَجَعَ سُلَيْمَان إلَى مُلْكه بَعْد أَيَّام بِأَنْ وَصَلَ إلَى الْخَاتَم فَلَبِسَهُ وَجَلَسَ عَلَى كُرْسِيّه.

قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ (٣٥).

{قَالَ رَبّ اغْفِرْ لِي وَهْب لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي} لَا يَكُون {لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي} أي سواي نحو {فمن يهديه من بعدي} أي سوى الله {إنك أنت الوهاب}.

فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ (٣٦).

{فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيح تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاء} لَيِّنَة {حَيْثُ أَصَاب} أَرَادَ.

وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ (٣٧).

{وَالشَّيَاطِين كُلّ بَنَّاء} يَبْنِي الْأَبْنِيَة الْعَجِيبَة {وَغَوَّاص} فِي الْبَحْر يَسْتَخْرِج اللُّؤْلُؤ.

وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ (٣٨).

=

إلى الله تعالى بإتلافها، وما كان كذلك فإنّه لا يؤكل. وعلى كل حال يحتمل أن سليمان تصدق بها كما قال المصنف، أو أكلها، أو تركها، والله أعلم.

{وَآخَرِينَ} مِنْهُمْ {مُقَرَّنِينَ} مَشْدُودِينَ {فِي الْأَصْفَاد} الْقُيُود بجمع أيديهم إلى أعناقهم.

هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٩).

وقلنا له {هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ} أَعْطِ مِنْهُ مَنْ شِئْت {أو أمسك} عن الإعطاء {بغيرحساب} أَيْ لَا حِسَاب عَلَيْك فِي ذَلِك.

وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ (٤٠).

{وَإِنَّ لَهُ عِنْدنَا لَزُلْفَى وَحُسْن مَآب} تَقدَمَ مثله(١).

---

(١)قوله تعالى: {وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ} [ص: ٣٤].

قال السعدي:"{وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ}، أي: ابتليناه واختبرناه بذهاب ملكه وانفصاله عنه بسبب خلل اقتضته الطبيعة البشرية، {وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا} أي: شيطانا قضى الله وقدر أن يجلس على كرسي ملكه، ويتصرف في الملك في مدة فتنة سليمان، {ثُمَّ أَنَابَ} سليمان إلى الله تعالى وتاب".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: ولقد ابتُلينا سليمان وألقينا على كرسيه جسدا شيطانا متمثلا بإنسان، {ثُمَّ أَنَابَ} سليمان، فرجع إلى ملكه من بعد ما زال عنه ملكه فذهب".

قال الزجاج:"{فتنا}: امتحنا، وأكثر ما جاء في التفسير أن {جسدا} -ههنا-: شيطان، وكان شيطان تصور في صورته وجلس مجلسه، وكان أمره ينفذ في جميع ما كان ينفذ فيه أمر سليمان، خلا نساء سليمان، إلى أن رد الله عليه ملكه".

قال السمعاني: اي:"اختبرنا سليمان فابتليناه، ويقال: ألقيناه في الفتنة، ذهب أكثر المفسرين إلى أن الجسد الذي ألقي على كرسي سليمان هو صخر الجني".

أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: "أراد سليمان عليه السلام أن يدخل الخلاء فأعطى الجرادة خاتمه وكانت امرأته، وكانت أحب نسائه
=

=

إليه فجاء الشيطان في صورة سليمان فقال لها: هاتي خاتمي فأعطته فلما لبسه دانت له الجن والإنس والشياطين، فلما خرج سليمان عليه السلام من الخلاء قال لها: هاتي خاتمي فقالت: قد أعطيته سليمان قال: أنا سليمان قالت: كذبت لست سليمان فجعل لا يأتي أحدا يقول: أنا سليمان إلا كذبه حتى جعل الصبيان يرمونه بالحجارة، فلما رأى ذلك عرف أنه من أمر الله عز وجل وقام الشيطان يحكم بين الناس فلما أراد الله تعالى أن يرد على سليمان عليه السلام سلطانه ألقى في قلوب الناس إنكار ذلك الشيطان فأرسلوا إلى نساء سليمان عليه السلام فقالوا لهن أيكون من سليمان شيء؟ قلنا: نعم إنه يأتينا ونحن حيض، وما كان يأتينا قبل ذلك فلما رأى الشيطان أنه قد فطن له ظن أن أمره قد انقطع، فكتبوا كتبا فيها سحر ومكر فدفنوها تحت كرسي سليمان ثم أثاروها وقرءوها على الناس قالوا: بهذا كان يظهر سليمان على الناس ويغلبهم فأكفر الناس سليمان فلم يزالوا يكفرونه وبعث ذلك الشيطان بالخاتم فدعا سليمان عليه السلام فقال: تحمل لي هذه السمك؟ ثم انطلق إلى منزله فلما انتهى الرجل إلى باب داره، أعطاه تلك السمكة التي في بطنها الخاتم فأخذها سليمان عليه السلام فشق بطنها فإذا الخاتم في جوفها فأخذه فلبسه فلما لبسه دانت له الإنس والجن والشياطين، وعاد إلى حاله، وهرب الشيطان حتى لحق بجزيرة من جزائر البحر، فأرسل سليمان عليه السلام في طلبه، وكان شيطانا مريدا يطلبونه ولا يقدرون عليه حتى وجدوه يوما نائما فجاءوا فنقبوا عليه بنيانا من رصاص فاستيقظ فوثب فجعل لا يثبت في مكان من البيت إلا أن دار معه الرصاص

فأخذوه وأوثقوه وجاءوا به إلى سليمان عليه السلام، فأمر به فنقر له في رخام ثم أدخل في جوفه ثم سد بالنحاس ثم أمر به فطرح في البحر فذلك قوله: ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسدا يعني: الشيطان الذي كان تسلط عليه".

=

=

واختلف أهل التفسير في سبب ابتلاء سليمان-عليه السلام-، على أقوال:

أحدها: أنه كان قارب بعض نسائه في بعض الشيء من حيض أو غيره. قاله الحسن.

قلت: وهذا القول من الإسرائيليات الباطلة، وهو أنكر الأقوال لما فيه من النيل من كرامة الأنبياء عليه السلام.

الثاني: أنه كانت عنده امرأة، وكان يحبها حبا شديدا، فخاصم أخوها إلى سليمان في شيء مع إنسان، فطلبت المرأة من سليمان أن يقضي لأخيها؛ فقال لها: نعم، ولم يفعل ذلك، فابتلاه الله تعالى. وهذا قول ابن عباس، والسدي.

قال ابن عباس: "هو الشيطان الذي كان على كرسيه يقضي بين الناس أربعين يوما وكان لسليمان -عليه السلام- امرأة يقال لها: جرادة، وكان بين بعض أهلها وبين قوم خصومة فقضى بينهم بالحق إلا أنه ود أن الحق كان لأهلها فأوحى الله تعالى إليه: أنه سيصيبك بلاء فكان لا يدري يأتيه من السماء أم من الأرض".

قال السدي:"كان لسليمان مئة امرأة، وكانت امرأة منهنّ يقال لها جرادة، وهي آثر نسائه عنده، وآمنهن عنده، وكان إذا أجنب أو أتى حاجة نزع خاتمه، ولم يأتمن عليه أحد من الناس غيرها؛ فجاءته يوما من الأيام، فقالت: إن أخي بينه وبين فلان خصومة، وأنا أحب أن تقضي له إذا جاءك، فقال لها: نعم، ولم يفعل، فابتُلي".

الثالث: أن سليمان أمر ألا يتزوج امرأة إلا من بني إسرائيل، فتزوج من غيرهم امرأة كانت تعبد غير الله، فعاقبه الله بأن سلبه ملكه. حكاه الزجاج.

الرابع: ما حكاه سعيد بن المسيب:"أن سليمان احتجب عن الناس ثلاثة أيام لا يقضي بين أحد ولم ينصف مظلومًا من ظالم، فأوحى الله تعالى إليه: إني لم أستخلفك لتحجب عن عبادي ولكن لتقضي بينهم وتنصف مظلومهم".

=

=

الخامس: أنه تزوج بامرأة؛ فعبدت المرأة صنما في داره من غير أن يشعر سليمان بذلك، فابتلاه الله تعالى لغفلته. وهذا قول شهر بن حوشب. قال السمعاني:"وهذا قول مشهور".

حكي عن شهر بن حوشب:"أن سليمان سبى بنت ملك غزان في جزيرة من جزائر البحر يقال لها صيدون، فألقيت عليه محبتها وهي معرضة عنه تذكر أمر أبيها لا تنظر إليه إلا شزرًا ولا تكلمه إلا نزرًا، ثم إنها سألته أن يضع لها تمثالًا على صورته فصنع لها فعظمته وسجدت له وسجد جواريها معها، وصار صنمًا معبودًا في داره وهو لا يعلم به حتى مضت أربعون يومًا وفشا خبره في بني إسرائيل وعلم به سليمان فكسره وحرقه ثم ذراه في الريح".

السادس: ما حكاه مجاهد:"شيطانا، يقال له آصفا، فقال له سليمان: كيف تفتنون الناس؟ فقال له آصف: أرني خاتمك أخبرك، فلما أعطاه سليمان خاتمه نبذه آصف في البحر، فساح سليمان وذهب ملكه، وقعد آصف على كرسيه". وبه قال مقاتل.

السابع: كان له ابن، وخافت الشياطين أن يبقى بعد موت أبيه فيرثه، فهمّوا بقتله، فاستودعه الريح في الهواء لئلا تصل إليه الشياطين، فمات الولد، وألقته الريح على كرسيه ميتا. وهذا القول مرفوع إلى النبي -ﷺ- بسند ضعيف.

قال القشيري:"فالفتنة كانت في خوفه من الشياطين وتسليمه إلى الهواء، وكان الأولى به التوكل وترك الاستعانة بالريح".

الثامن: ما ورد فى الحديث الصحيح، عن أبى هريرة- رضى الله عنه- عن رسول الله ﷺ قال: " قال سليمان بن داود عليهما السلام: لأطوفن الليلة على مائة امرأة، أو تسع وتسعين كلهن، يأتي بفارس يجاهد في سبيل الله، فقال له صاحبه: إن شاء الله، فلم يقل إن شاء الله، فلم يحمل منهن إلا امرأة واحدة، جاءت بشق رجل،

=

=

والذي نفس محمد بيده، لو قال: إن شاء الله، لجاهدوا في سبيل الله، فرسانا أجمعون".

قال السمعاني -بعد أن ذكر طائفة من الأقوال-:"والله أعلم بما كان، ولا شك أن الآية تدل على أن الله تعالى قد أقعد على كرسيه غيره، وسلبه شيئا كان له".

قال أبو حيان: " نقل المفسرون في هذه الفتنة وإلقاء الجسد أقوالا يجب براءة الأنبياء منها، يوقف عليها في كتبهم، وهي مما لا يحل نقلها، وأما هي من أوضاع اليهود والزنادقة، ولم يبين الله الفتنة ما هي، ولا الجسد الذي ألقاه على كرسي سليمان. وأقرب ما قيل فيه: أن المراد بالفتنة كونه لم يستثن في الحديث الذي قال: «لأطوفن الليلة على سبعين امرأة، كل واحدة تأتي بفارس يجاهد في سبيل الله، ولم يقل إن شاء الله، فطاف عليهن، فلم تحمل إلا امرأة واحدة، وجاءته بشق رجل، رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده، لو قال إن شاء الله لجاهدوا في سبيل الله فرسانا أجمعون»».

فالمراد بقوله: ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسدا هو هذا، والجسد الملقى هو المولود شق رجل".

وفي قوله تعالى: {وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا} [ص: ٣٤]، قولان:

أحدهما: معناه: وجعلنا في ملكه جسدًا، و «الكرسي»: هو الملك.

الثاني: وألقينا على سرير ملكه جسدًا.

وفي هذا «الجسد»، أربعة أقوال:

أحدها: أنه جسد سليمان مرض فكان جسده ملقى على كرسيه، قاله ابن بحر.

قال القرطبي:"وقد يوصف به المريض المضنى فيقال: كالجسد الملقى".

=

=

الثاني: أنه ولد له ولد فخاف عليه فأودعه في السحاب يغذى في اليوم كالجمعة، وفي الجمعة كالشهر وفي الشهر كالسنة، فلم يشعر إلا وقد وقع على كرسيه ميتًا، قاله الشعبي.

الثالث: أنه أكثر من وطء جواريه طلبًا للولد، فولد له نصف إنسان، فهو كان الجسد الملقى على كرسيه، حكاه النقاش.

وهذه الآثار من سخافات الإسرائيليين. والله أعلم.

الرابع: أن الجسد: الشيطان الذي كان دفع إليه سليمان خاتمه، فقذفه في البحر، وكان مُلك سليمان في خاتمه. وهذا قول ابن عباس، ومجاهد.

واختلف في اسم امرأته هذه على قولين:

أحدهما: جرادة، قاله ابن عباس، والسدي.

الثاني: الأمينة، قاله شهر بن حوشب.

وقال سعيد بن المسيب: " وكان إذا دخل الحمام وضعه تحت فراشه، ودخل الحمام يوما ووضع خاتمه تحت فراشه، فأخذه الشيطان فألقاه في البحر، وجلس في مجلسه على فراشه".

وقال مجاهد: أن سليمان قال لشيطان يقال له آصف: " كيف تفتنون الناس؟ فقال له آصف: أرني خاتمك أخبرك، فلما أعطاه سليمان خاتمه نبذه آصف في البحر، فساح سليمان وذهب ملكه، وقعد آصف على كرسيه".

قال قتادة:"وألقي على الشيطان شبه سليمان؛ قال: فجاء فقعد على كرسيه وسريره، وسلِّط على ملك سليمان كله غير نسائه".

وحكي عن ابن عباس: "أنه كان يأتيهن في حيضهن".

وهذا وأمثاله من الإسرائيليات الباطلة المزورة، والعجب أن بعض المفسرين يذكر مثل هذه الأخبار دون أن يبين بطلانها.

=

=

قال الآلوسي: ومن أقبح ما في هذه الأخبار متسلط الشيطان على نساء نبيه حتى وطأهن وهن حيض الله أكبر!! هذا بهتان عظيم، وخطب جسيم".

قال ابن كثير:"من أشد المنكرات ذكر النساء فإن المشهور أن ذلك الجني لم يسلط على نساء سليمان بل عصمهن الله منه تشريفًا وتكريمًا لنبيه ﷺ، وقد رويت هذه القصة مطولة عن جماعة من السلف، كسعيد بن المسيب وزيد بن أسلم وجماعة آخرين وكلها متُلقَّاة من قصص أهل الكتاب والله أعلم بالصواب".

قال مجاهد: "قعد آصف على كرسيه، ومنعه الله نساء سليمان، فلم يقربهنّ، وأنكرنه؛ قال: فكان سليمان يستطعم فيقول: أتعرفوني أطعموني أنا سليمان، فيكذّبونه، حتى أعطته امرأة يوما حوتا يطيب بطنه، فوجد خاتمه في بطنه، فرجع إليه مُلكه، وفر آصف فدخل البحر فارّا".

واختلف في اسم هذا الشيطان على أربعة أقوال:

أحدها: أن اسمه صخر، قاله ابن عباس.

قال ابن عباس:"هو صخر الجنيّ تمثَّل على كرسيه جسدا".

وقال ابن عباس:"الجسد: الشيطان الذي كان دفع إليه سليمان خاتمه، فقذفه في البحر، وكان مُلك سليمان في خاتمه، وكان اسم الجنيّ صخرا".

قال مقاتل:"يقال له: صخر بن عفير بن عمرو بن شرحبيل، ويقال إن إبليس جده".

الثاني: آصف، قاله مجاهد.

الثالث: حقيق، قاله السدي.

الرابع: أسيد، حكاه مقاتل.

وفي قوله تعالى: {ثُمَّ أَنَابَ} [ص: ٣٤]، ثلاثة وجوه:

أحدها: ثم رجع إلى ملكه، قاله الضحاك.

=

=

قال مقاتل:"ثم رجع بعد أربعين يوما إلى ملكه وسلطانه".

قال الضحاك:"دخل سليمان على امرأة تبيع السمك، فاشترى منها سمكة، فشقّ بطنها، فوجد خاتمه، فجعل لا يمر على شجر ولا حجر ولا شيء إلا سجد له، حتى أتى مُلكه وأهله، فذلك قوله؛ {ثُمَّ أَنَابَ} يقول: ثم رجع".

الثاني: ثم أناب من ذنبه، قاله قتادة.

الثالث: ثم برأ من مرضه، قاله ابن بحر.

قوله تعالى: {قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي} [ص: ٣٥]، أي:"قال: رب اغفر لي ذنبي، وأعطني ملكًا عظيمًا خاصًا لا يكون مثله لأحد من البشر بعدي".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: قال سليمان راغبا إلى ربه: ربّ استر عليّ ذنبي الذي أذنبت بيني وبينك، فلا تعاقبني به {وَهَبْ لِي مُلْكًا} لا يسلبنيه أحد كما سلبنيه قبل هذه الشيطان".

قال الفراء:"يريد سخرة الريح والشياطين".

قال مقاتل:"فوهب الله- عز وجل- له من الملك ما لم يكن له ولا لأبيه داود- عليهما السلام- فزاده الرياح والشياطين بعد ذلك".

قال الزمخشري:"قدّم الاستغفار على استيهاب الملك جريا على عادة الأنبياء والصالحين في تقديمهم أمر دينهم على أمور دنياهم لا يَنْبَغِي لا يتسهل ولا يكون. ومعنى مِنْ بَعْدِي دوني".

قال أبو عبيدة: "قال الحجاج: إن كان لحسودا، قال ابن أحمر:

ما أم غفر على دعجاء ذى علق... ينفى القراميد عنها الأعصم الوقل

فى رأس خلقاء من عنقاء مشرفة... لا يبتغى دونها سهل ولا جبل

لا يبتغى، أي: لا يكون فوقها سهل ولا جبل أحصن منها".

=

=

وفي قوله تعالى: {قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي} [ص: ٣٥]، اقوال:

أحدها: ليكون ذلك معجزًا له يعلم به الرضا ويستدل به على قبول التوبة.

قال الزجاج:"أي: هب لي ملكا يكون فيه آية تدل على نبوتي، لا ينبغي لأحد من بعدي من الآدميين الذين ليسوا بأنبياء، يكون له آية تدل على أنك غفرت لي ورددت إلي نبوتي. والدليل على هذا قوله: {فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ} [ص: ٣٦] ".

الثاني: ليقوى به على من عصاه من الجن، فسخرت له الريح حينئذٍ.

قال سهل:"ألهم الله تعالى سليمان أن يسأله ملكا لا ينبغي لأحد من بعده، ليقصم به الجبابرة والكفرة، والذين يخالفون ربهم ويدعون لأنفسهم قدرة من الجن والإنس، فوقع السؤال من سليمان عليه السلام على اختيار الله له، لا على اختياره لنفسه".

الثالث: أنه كان ملكا عظيما، فخاف أن يعطى مثله أحد فلا يحافظ على حدود الله فيه، كما قالت الملائكة {أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ} [البقرة: ٣٠]. حكاه الزمخشري.

الرابع: وقيل: علم الله فيما اختصه به من ذلك الملك العظيم مصالح في الدين، وعلم أنه لا يضطلع بأعبائه غيره، وأوجبت الحكمة استيهابه، فأمره أن يستوهبه إياه، فاستوهبه بأمر من الله على الصفة التي علم الله أنه لا يضبطه عليها إلا هو وحده دون سائر عباده. حكاه الزمخشري.

الخامس: أنه أراد أن يقول: ملكا عظيما، فقال: {لا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي}، ولم يقصد بذلك إلا عظم الملك وسعته، كما تقول: لفلان ما ليس لأحد من الفضل

=

=

والمال، وربما كان للناس أمثال ذلك، ولكنك تريد تعظيم ما عنده. حكاه الزمخشري.

السادس أن سليمان -عليه السلام- كان له ملكا، ولكنه أراد بقوله {لا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي}: تسخير الرياح والطير، يدل عليه ما بعده. وهذا قول مقاتل بن حيان.

السابع: وقيل: إنما سأل ذلك ليكون آية لنبوته ودلالة على رسالته ومعجزا لمن سواه. حكاه الثعلبي.

الثامن: وقيل: إنما سأل ذلك علما له على المغفرة وقبول التوبة حيث أجاب الله سبحانه وتعالى دعاءه ورد عليه ملكه وزاده فيه. حكاه الثعلبي -أيضا-.

التاسع: أنه أراد به ملك النفس وقهر الهوى، قاله وقال عمرو بن عثمان الصدفي. يؤيده روي عن سلامان الشعباني، قال: بلغني أن رسول الله - ﷺ - قال: "أرأيتم سليمان ما أعطاه الله من ملكه فإنه لم يرفع طرفه إلى السماء تخشعا لله عز وجل حتى قبضه الله عز وجل".

العاشر: المعنى: ملكا لا أسلبه ولا يقوم غيرى فيه مقامي، كما سلبته مرّة وأقيم مقامي غيرى. وهذا قاله قتادة"، والحسن، وعطاء بن أبي رباح.

قال قتادة:"ملكا لا أسلَبه كما سُلبتُه".

قال الحسن:"لا ينبغي لأحد من بعدي في حياتي أن ينزعه مني كالجسد الذي جلس على كرسيه".

قال عطاء بن أبي رباح: "يريد هب لي ملكا لا أسلبه في باقي عمري كما سلبته في أول عمري".

قال الطبري:"إن قال لنا قائل: وما وجه رغبة سليمان إلى ربه في الملك، وهو نبيّ من الأنبياء، وإنما يرغب في الملك أهل الدنيا المؤثرون لها على الآخرة؟ أم ما

=

=

وجه مسألته إياه، إذ سأله ذلك مُلكا لا ينبغي لأحد من بعده، وما كان يضرّه أن يكون كلّ من بعده يُؤْتَى مثل الذي أوتي من ذلك؟ أكان به بخل بذلك، فلم يكن من مُلكه، يُعطي ذلك من يعطاه، أم حسد للناس، كما ذُكر عن الحجاج بن يوسف ؛ فإنه ذكر أنه قرأ قوله: {وَهَبْ لِي مُلْكًا لا يَنْبَغِي لأحَدٍ مِنْ بَعْدِي}، فقال: إن كان لحسودًا، فإن ذلك ليس من أخلاق الأنبياء! قيل: أما رغبته إلى ربه فيما يرغب إليه من المُلك، فلم تكن إن شاء الله به رغبةً في الدنيا، ولكن إرادة منه أن يعلم منزلته من الله فى إجابته فيما رغب إليه فيه، وقبوله توبته، وإجابته دعاءه.

وأما مسألته ربه مُلكا لا ينبغي لأحد من بعده، فإنا قد ذكرنا فيما مضى قبلُ قولَ من قال: إن معنى ذلك: هب لي مُلكا لا أسلبه كما سلبته قبل. وإنما معناه عند هؤلاء: هب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي أن يَسلُبنيه. وقد يتجه ذلك أن يكون بمعنى: لا ينبغي لأحد سواي من أهل زماني، فيكون حجة وعَلَما لي على نبوتي وأني رسولك إليهم مبعوث، إذ كانت الرسل لا بد لها من أعلام تفارق بها سائر الناس سواهم. ويتجه أيضا لأن يكون معناه: وهب لي ملكا تخُصُّني به، لا تعطيه أحدا غيري تشريفا منك لي بذلك، وتكرمة، لتبين منزلتي منك به من منازل من سواي، وليس في وجه من هذه الوجوه مما ظنه الحجاج في معنى ذلك شيء".

قال الزمخشري:"كان سليمان عليه السلام ناشئا في بيت الملك والنبوّة ووارثا لهما، فأراد أن يطلب من ربه معجزة، فطلب على حسب ألفه ملكا زائدا على الممالك زيادة خارقة للعادة بالغة حد الإعجاز، ليكون ذلك دليلا على نبوّته قاهرا للمبعوث إليهم، وأن يكون معجزة حتى يخرق العادات، فذلك معنى قوله: {لا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي} ".

ورد في الحديث: «إن عفريتا من الجن تفلت على البارحة ليقطع على الصلاة فأمكننى الله منه فدعته وأردت أن أربطه إلى سارية من سوارى المسجد حتى

=

=

تصبحوا وتنظروا إليه كلكم فذكرت قول أخى سليمان رب {اغفر لى وهب لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى} فرده الله خاسئا».

قوله تعالى: {إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ} [ص: ٣٥]، أي:"إنك -سبحانك- كثير الجود والعطاء".

قال الطبري:"يقول: إنك وهاب ما تشاء لمن تشاء بيدك خزائن كلّ شيء تفتح من ذلك ما أردت لمن أردت".

قال مقاتل:"فوهب الله- عز وجل- له من الملك ما لم يكن له ولا لأبيه داود- عليهما السلام- فزاده الرياح والشياطين بعد ذلك".

قوله تعالى: {فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ} [ص: ٣٦]، أي:"فاستجبنا له، وذللنا الريح تجري بأمره طيِّعة مع قوتها وشدتها حيث أراد".

قال الطبري:"فاستجبنا له دعاءه، فأعطيناه ملكا لا ينبغي لأحد من بعده {فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ} مكان الخيل التي شغلته عن الصلاة، {تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً}، يعني: رِخوة لينة، وهي من الرخاوة".

عن الحسن: "أن نبي الله سليمان ﷺ لما عرضت عليه الخيل، فشغله النظر إليها عن صلاة العصر {حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ} فغضب لله، فأمر بها فعُقرت، فأبدله الله مكانها أسرع منها، سخر الريح تجري بأمره رُخاء حيث شاء، فكان يغدو من إيلياء، ويقيل بقزوين، ثم يروح من قَزْوين ويبيت بكابُل".

قال الضحاك:"دعا يوم دعا ولم يكن في مُلكه الريح، وكل بناء وغواص من الشياطين، فدعا ربه عند توبته واستغفاره، فوهب الله له ما سأل، فتمّ مُلكه".

عن ابن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما رفع سليمان عليه السلام من طرفه إلى السماء تخشعا حيث أعطاه الله تعالى ما أعطاه».

وفي قوله تعالى: {رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ} [ص: ٣٦]، وجوه من التفسير:

=

=

أحدها: طيبة، قاله مجاهد.

الثاني: سريعة طيبة، قال: ليست بعاصفة ولا بطيئة، قاله قتادة.

الثالث: مطيعة لسليمان، قاله ابن عباس، والحسن -في رواية-، والضحاك- في رواية.

الرابع: أن الرخاء: اللينة، قاله ابن زيد.

قال معمر: "وبلغني أن الرخاء اللينة".

الخامس: ليست بالعاصفة المؤذية ولا بالضعيفة المقصرة، بين ذلك رُخاء. قاله الحسن -في رواية أخرى-.

قال الفراء:"الرخاء: الريح اللينة التي لا تعصف".

وفي قوله تعالى: {حَيْثُ أَصَابَ} [ص: ٣٦]، وجهان:

أحدهما: حيث أراد، قاله ابن عباس، والحسن، مجاهد، والضحاك، وقتادة، والسدي، وابن زيد، وهب بن منبه، والفراء.

قال ابن عباس:"حيث أراد، انتهى عليها".

قال مجاهد:"حيث شاء". وفي رواية:"حيث شاء بهواه".

قال مقاتل:"مطيعة لسليمان حيث أراد أن تتوجه توجهت له".

قال القاسم بن سلام:"حيث أراد بلغة عمان".

قال ابن قتيبة: "أي: حيث اراد من النواحي".

قال الأصمعي:"العرب تقول: أصاب الصواب فأخطأ الجواب. أي: أراد الصواب".

قال الزجاج:"إجماع المفسرين وأهل اللغة أنه حيث أراد، وحقيقته قصد، وكذلك قولك للمجيب في المسألة: أصبت، أي: قصدت، فلم تخطئ الجواب".

=

=

قال الطبري:"يقول: حيث أراد، من قولهم: أصاب الله بك خيرا، أي: أراد الله بك خيرا".

قال أبو عبيدة:"يقال: أصاب الله بك خيرا أي أراد الله بك خيرا".

قال أبو هلال العسكري:"أصل الإصابة القصد، وفي المثل: أصاب الصواب فأخطأ الجواب أي: أراد، ومنه قوله: {رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ}، أي: أراد".

الثاني: حيث ما قصد. مأخوذ من: إصابة السهم الغرض المقصود. حكاه الماوردي.

قوله تعالى: {وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ} [ص: ٣٧]، أي:"وسخَّرنا له الشياطين يستعملهم في أعماله: فمنهم البناؤون والغوَّاصون في البحار".

قال الثعلبي:"يستخرجون له اللآلئ من البحر وهو أول من استخرج اللؤلؤ من البحر".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: وسخرنا له الشياطين سلطناه عليها مكان ما ابتُليناه بالذي ألقينا على كرسيّه منها يستعملها فيما يشاء من أعماله من بنَّاء وغوَّاص؛ فالبُناة منها يصنعون محاريب وتماثيل، والغاصة يستخرجون له الحُلِيّ من البحار".

عن قتادة: " {وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ}، قال: يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل، وغوّاص يستخرجون الحليّ من البحر".

قال الضحاك:"لم يكن هذا في ملك داود، أعطاه الله ملك داود وزاده الريح".

قال مقاتل:"كانوا يبنون له ما يشاء من البنيان وهو محاريب وتماثيل ويغوصون له في البحر فيستخرجون له اللؤلؤ، وكان سليمان أول من استخرج اللؤلؤ من البحر".

=

قال القرطبي:"أي: وسخرنا له الشياطين وما سخرت لأحد قبله." كل بناء" بدل من الشياطين أي كل بناء منهم، فهم يبنون له ما يشاء. قال النابغة:

إِلَّا سُلَيْمَانَ إِذْ قَالَ الإِلهُ لَهُ... قُمْ فِي البَرِيَّةِ فَاحْدُدْهَا عن الفَنَدِ
وَخَيِّسِ الجِنَّ إِنِّي قَدْ أَذِنْتُ لَهُمْ... يَبْنُون تَدْمُرَ بِالصُّفَّاحِ وَالعَمَدِ

و"غواص: يعني: في البحر يستخرجون له الدر. فسليمان أول من استخرج له اللؤلؤ من البحر".

قال السمعاني:"وتسخير الريح والشياطين له بعد ابتلائه".

قوله تعالى: {وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ} [ص: ٣٨]، أي:"وآخرون، وهم مردة الشياطين، موثوقون في الأغلال".

قال الطبري: يقول: "وآخرون ينحتون له جِفانا وقدورا، والمَردَة في الأغلال مُقَرَّنون".

قال الثعلبي:"يعني مشدودين في القيود واحدها صفد".

قال الزجاج:"مردة الجن الشياطين، سخروا له حتى قرنهم في الأصفاد. و (الأصفاد): السلاسل من الحديد، - وكل ما شددته شدا وثيقا بالحديد وغيره، فقد صفدته، وكل من أعطيته عطاء جزيلا. فقد أصفدته كأنك أعطيته ما ترتبط به، كما تقول للمتخذ مالا أصلا يبقى عليه: قد اتخذت عقدة جيدة".

عن قتادة: " {وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ}، قال: مردة الشياطين في الأغلال".

عن الضحاك:"{وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ}، يقول: في السلاسل".

قال مقاتل:"يعني: موثقين في الحديد".

عن السديّ، قوله: " {الأَصْفَادِ}، قال: تجمع اليدين إلى عنقه، و «الأصفاد»: جمع صَفَد وهي الأغلال".

=

قال السمعاني:"وكان يأخذ الشيطان فيقربه بالشيطان ويصفدها في الحديد ويوبقهما في السلاسل ثم يجعلهما في صندوق من حديد، ويلقي الصندوق في قعر البحر".

عن وهب بن مُنَبِّه -من طريق أبي إسحاق، عن بعض بني وهب- في قوله تعالى: "{وآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفادِ}، قال: عنقه إلى عضده إلى فخذه، فإنّما يعمل بشِقٍّ واحد، وأمر اللهُ الريحَ أن لا يتكلم أحدٌ مِن الخلائق إلا حملته فوضعته في أذن سليمان - عليه السلام -، فلذلك سمع كلام النملة".

عن الضحاك بن مُزاحِم -من طريق جويبر- قال: "لَمّا ردَّ اللهُ مُلكَ سليمان؛ بعث سليمانُ إلى صخر، فأُتي به، فلمّا أُدخِل عليه أمر بوثاقه، فأوثقوه حديدًا، ثم سأل الجن: أيُّ قِتلَةٍ أشدُّ حتى أقتله؟ قال: نأتيك بصخرة، ثم تجوفها، ثم نوثقه، فنضعه فيها، ونسُدُّها عليه، ونطبقها بالحديد، ثم نلقيه في البحر. ففعلوا ذلك به، فألقوه في أعمق مكان في البحر، فهو فيه إلى يوم القيامة، فذلك قول الله - عز وجل -: {وآخرين مقرنين في الأصفاد} ".

قوله تعالى: {هَـذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ} [ص: ٣٩]، أي:"هذا المُلْك العظيم والتسخير الخاص عطاؤنا لك يا سليمان، فأعط مَن شئت أو امنع مَن شئت، لا حساب عليك".

قال السعدي: " وقلنا له: {هَذَا عَطَاؤُنَا} فَقَرَّ به عينا {فَامْنُنْ} على من شئت، {أَوْ أَمْسِكْ} من شئت {بِغَيْرِ حِسَابٍ} أي: لا حرج عليك في ذلك ولا حساب، لعلمه تعالى بكمال عدله، وحسن أحكامه، ولا تحسبن هذا لسليمان في الدنيا دون الآخرة، بل له في الآخرة خير عظيم".

وفي المشار إليه بقوله: {هَذَا عَطَاؤُنَا} [ص: ٣٩]، ثلاثة أقوال:

=

=

أحدها: أنه جميع ما أعطي، {فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ}، أي: أعط من شئت من المال، وامنع من شئت. و «المن»: الإحسان إلى من لا يطلب ثوابه. قاله ابن عباس-في رواية-، والحسن، والضحاك.

عن ابن جُرَيج، في قوله: " {هَـذا عَطاؤُنا}، قال: كل هذا أعطاه إيّاه بعد ردِّ الخاتم".

عن الضحاك: " {هَذَا عَطَاؤُنَا}: هذا ملكنا".

قال الحسن:"الملك الذي أعطيناك فأعط ما شئت وامنع ما شئت".

قال الضحاك:"سأل مُلكا هنيئا لا يُحاسب به يوم القيامة، فقال: ما أعطيت، وما أمسكت، فلا حرج عليك".

قال عكرمة:"أعط أو أمسك، فلا حساب عليك".

قال مجاهد:"أعط أو أمسك بغير حساب".

و عن مجاهد-من طريق ابن أبي نجيح- في قوله تعالى: " {هَـذا عَطاؤُنا}، قال: قال سليمان: أُوتينا مما أُوتي الناس ومما لم يُؤْتَوا، وعُلِّمنا ما عُلِّم الناس وما لم يعلموا؛ فلم نر شيئًا أفضل من خشية الله في الغيب والشهادة، والقصد في الفقر والغنى، وكلمة الحق في الرِّضا والغضب".

الثاني: أنه إشارة إلى الشياطين المسخرين له. فالمعنى: فامنن على من شئت بإطلاقه، وأمسك من شئت منهم فلا حرج عليك في ذلك. قاله ابن عباس-في رواية أخرى وهذا قول ابن عباس-في رواية عنه-، وقتادة، والسدي.

قال ابن عباس:"أعتق من الجنّ من شئت، وأمسك من شئت".

قال قتادة:"هؤلاء الشياطين احبس من شئت منهم فى وثاقك وفي عذابك أو سرِّح من شئت منهم تتخذ عنده يدًا، اصنع ما شئت".

=

=

قال السدي:"تَمُنّ على من تشاء منهم فتُعْتِقُهُ، وتُمسِك من شئت فتستخدمه ليس عليك في ذلك حساب".

الثالث: أن «هذا» إشارة إلى ما كان أوتي من القوّة على الجماع، رواه عكرمة عن ابن عباس.

والمعنى على هذا القول:"هذا الذي أعطيناك من القوّة على الجماع عطاؤنا، فجامع من شئت من نسائك وجواريك ما شئت بغير حساب، واترك جماع من شئت منهن".

قال ابن عباس:"كان سليمان في ظهره ماءُ مِئَة رجل، وكان له ثلاث مِئَة امرأة وتسع مِئَة سُرِّيَّة: {هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ} ".

وحكي الماوردي: "أن «هذا» إشارة إلى مضمر غير مذكور وهو ما حكي أن سليمان كان في ظهره ماء مائة رجل وكان له ثلاثمائة امرأته وسبعمائة سرية فقال الله تعالى: {هذا عطاؤنا}، يعني: الذي أعطيناك من القوة

على النكاح، {فامنن}، بجماع من تشاء من نسائِك، {أو أمسك} عن جماع من تشاء من نسائِك". ثم قال:"وهذا القول عدول من الظاهر إلى ادعاء مضمر بغير دليل، لكن قيل فذكرته".

قال الطبري:"وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب القولُ الذي ذكرناه عن الحسن والضحاك من أنه عني بالعطاء ما أعطاه من الملك تعالى ذكره، وذلك أنه جلّ ثناؤه ذكر ذلك عَقِيب خبره عن مسألة نبيه سليمان صلوات الله وسلامه عليه إياه مُلكا لا ينبغي لأحد من بعده، فأخبر أنه سخر له ما لم يُسَخَّر لأحد من بني آدم، وذلك تسخيره له الريح والشياطين على ما وصفت، ثم قال له عزّ ذكره: هذا الذي أعطيناك من المُلك، وتسخيرنا ما سخرنا لك عطاؤنا، ووهبنا لك ما سألتنا

=

=

أن نهبه لك من الملك الذي لا ينبغي لأحد من بعدك {فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ}، يعني: لا يحاسب على ما أعطى من ذلك المُلك والسلطان".

قال الحسن: "ما أنعم الله على أحد نعمة إلا عليه فيها تبعة إلا سليمان فإن الله تعالى يقول: {هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ} [ص: ٣٩] ".

وفي قراءة عبد الله: «هذا فامنن أو أمسك عطاؤنا بغير حساب».

قوله تعالى: {وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ (٤٠)} [ص: ٤٠].

قال الطبري: "يقول: وإن لسليمان عندنا لقُرْبةً بإنابته إلينا وتوبته وطاعته لنا، وحُسْنَ مآب: يقول: وحسن مرجع ومصير في الآخرة".

قال السعدي: " أي: هو من المقربين عند الله المكرمين بأنواع الكرامات لله".

قال أبو صالح:"الزلفى: القرب، {وحُسْنَ مَآبٍ} قال: المرجع".

عن قتادة: " {وَحُسْنَ مَآبٍ}، أي: مصير".

قال الضحاك:"حسن منقلب".

وقال السدي:"حسن المنقلب".

قال العثيمين:قوله تعالى: {وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ (٣٤)} هذه الجملة مؤكدة بثلاث مؤكدات وهي القسم المقدر، واللام المؤكدة للقسم، والثالث قد في قوله: {وَلَقَدْ}. {فَتَنَّا سُلَيْمَانَ}، أي: اختبرناه، والضمير في {فَتَنَّا} يعود على الرب عز وجل، وجاء بضمير الجمع تعظيمًا، لا تعديدًا، لأنَّ الله سبحانه وتعالى واحد، ولكنه تارةً يعبِّر عن نفسه بلفظ الإفراد، وتارةً يعبِّر عن نفسه بلفظ الجمع، ولم يبين الله سبحانه وتعالى هذه الفتنة، لا عينها ولا نوعها، ولهذا ينبغي لنا أن نبهمَ ما أبهمه الله، ونُجمل ما أجمله، ونعلم أنَّه إذا كان هنالك فائدة لنا في تعيين ما أبهمه لذكره، لأنَّ الله تعالى يقول: {وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ} [النحل: ٨٩] فكل شيء فيه مصلحة لا بد أن يبيِّنه الله عز وجل لنا، ولهذا

=

=

نقول: إنّ هذه الفتنة إذا سألنا سائل: ما نوعُها، وما عيُنها؟ نقول: الله أعلم، لأنَّ الله تعالى لم يبيِّنها لنا، ولم تَرد في خبر عن معصوم، فوجب علينا أن نسكت.

وأمَّا ما ذُكر في هذا الموضع من الإسرائيليات؛ فإنَّها إسرائيليات كاذبة لا تليق بمقام النبوة، ولكن الإسرائيليون أتوا بها لأنهم لا يعتقدون أنّ داود وسليمان رسولان، بل يعتقدون أنَّهما مَلِكان، والملِك يجوز عليه كل شيء.

يقول المصنف: [{فَتَنَّا سُلَيْمَانَ}: ابتليناه بسلب ملكه] ثم بدأ المصنف بذكر القصة الإسرائيلية بسلب مُلكه، وذلك لتزوجه بامرأة هواها، وكانت تعبدُ الأصنام -نسألُ الله العافية-، هم جعلوا داود وسليمان كليهما عشيقين، ليس لهما همّ إلَّا النساء. وداود، -كما قالوا- أراد أن يتزوّج امرأة شخص، وكان عنده تسع وتسعون المرأة، فأراد أن يكمل المئة.

أما سليمان فيقول حسب القصة الكاذبة: إنَّه هَوِي امرأةً وعشقها، وكانت تعبدُ الأصنام في داره من غير علمه إذن صارت الدار دار كفر وشرك، وهذا نقطع بأنّه كذب، لأنَّه لو كان كذلك لبيَّنه الله عز وجل كما بّينه في قصَّة امرأتي نوح ولوط.

وقال: [وكان مُلكه في خاتمه، فنزعه عند إرادة الخلاء، ووضعه عند امرأته المسمّاة بالأمينة على عادته، فجاءها جنيٌّ في صورة سليمان، فأخذه منها]. ومما يدل على كذب هذه القصة قولهم: (فإذا أراد دخول الخلاء، نزعه) لماذا ينزعه؟ واسم سليمان ليس فيه لفظ الجلالة حتَّى يقول قائل: إنَّه تحرّز من الدخول بشيء فيه ذكر الله، وأيضًا يضعه عند امرأته المسماة بالأمينة على عادته. وهذا أيضًا يدلُّ على كذب القصة.

ثانيًا: كيف يكون المُلك في الخاتم فقط؟

ثالثًا: إذا كان مُلكه في خاتمه فهل يمكن أن يفرِّط فيه هذا التفريط، يلقيه عند امرأة. وقد يقول قائل: إنَّها أمينة. ولكن نقول: ما هو الدليل على هذا؟ [فجاءها جنيّ في

=

=

صورة سليمان، فأخذه منها] فلما أخذ الخاتم، صار سليمان بلا مُلك، لأن المُلك يتبع هذا الخاتم.

قال تعالى: {وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ (٣٤)}، قال المصنف: [هو ذلك الجني، وهو صخر أو غيره، جلس علي كرسي سليمان، وعكفت عليه الطير وغيرها، فخرج سليمان في غير هيئته، فرآه على كرسيه، وقال للنَّاس: أنا سليمان، فأنكروه]. لما جاء وجد هذا الجني المسمى بصخر أو غيره على الكرسي، فجعل يقول للنَّاس: أنا سليمان، ويقولون له: لست سليمان، لأنَّ سليمان جالسٌ على كرسي المُلك، فأما أنت، فلستَ سليمان. فكيف ستكون حسرته؟ لا بد أن تكون حسرة شديدة وهذا هو القول الأوَّل.

وقال بعض العلماء: إن الله سلط شيطانًا دون أخذ الخاتم وبقطع النظر عن كون المُلك في الخاتم، وأنَّه أعطاه امرأته، وأنّ الِجنّي جاءها، وأخذه منها، يقول الله تعالى: {وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا} يعني في غيبة سليمان، لأنّ سليمان ليس دائمًا على الكرسي، ولكنّ الله تعالى سلّط عليه شيطانًا، جلس على الكرسي، جعل يدبِّر شؤون الدولة، وسليمان لما جاء إلى مكان جلوسه وجده مشغولًا بهذا العفريت، وعَجَزَ عن إنزاله عن الكرسي، وعن تولِّي تدبير شؤون الدولة، فعرف أنَّه مفتون، وأن الله تعالى سلّط عليه هذا الشَّيطان ليختبره. هذا قول بعض العلماء. وقد رُوي عن ابن عباس- رضي الله عنهما أنَّه شيطان، ولكن ابن عباس -كما هو معلوم- كان قد أخذ عن بني إسرائيل كثيرًا، وربما يكون هذا مما أخذه.

والقول الثالث: أنّ الجسد هو شقّ الولد، الذي اختبر الله تعالى به سليمان عليه السلام، حيث قال: "لأطوفنّ الليلة على تسعين امرأة تلد كل واحدة منهن غلامًا يقاتل في سبيل الله". حلف أن يطوف -يعني يجامع تسعين امرأة- وأنّ كل امرأة تلد غلامًا يقاتل في سبيل الله، فقال له المَلَك: قل: إن شاء الله، فلم يقل اعتمادًا

=

=

على ما في نفسه من العزم على تنفيذ ما أراد، فنفَّذ ما أراد، وجامع تسعين امرأة، ولكن ما أراده لم يتمكن منه، وهو أن تلد امرأة غلامًا يقاتل في سبيل الله، لأنَّ إرادة الله هي النافذة، فلم تحمل منهن إلَّا امرأة واحدة، فولدت شق إنسان، لأجل أن يعرف سليمان وغيره أنّ الأمر بيد الله، وأنَّه لا يجوز أن يتألّى أحد على ربه سبحانه وتعالى.

يقول بعض المفسرين: إن هذا الولد هو الجسد، لأنَّ هذا الولد ليس كامل التدبير، نصف إنسان كيف يدبِّر؟ هذا هو الذي أُلقي على الكرسي ففتن به سليمان عليه السلام.

القول الرابع: أن قوله: {وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا} يعني بها سليمان نفسه، أي: ألقيناه هو نفسه على الكرسي جسدًا، والجسد هو الذي لا يدبِّر، وليس عنده تفكير، أي: أن الله سلب من سليمان تفكيره الذي يدبِّر به شؤون مملكته فصار لا يحسن التدبير، ومَن لا يحسن التدبير كالجسد بلا روح، فيكون المراد بالجسد سليمان نفسه، ويكون تقدير الكلام: وألقيناه جسدًا على كرسيه لا يحسن التدبير، وهذا أيضًا قريب، أن الله تعالى يسلب عن الإنسان عقله وتفكيره حتَّى يكون جسدًا بلا روح، ومن المعلوم أن مملكة عظيمة كمملكة سليمان إذا فُقد منها المدبِّر سوف تتخلخل وتتزعزع.

فهذه أربعة أقوال في معنى قوله: {وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ (٣٤)}.

أما ما ذكره المصنف فهو باطل بلا شك، وأمَّا ما ذكر من أنَّه الولد الشق فالظاهر أنَّه ضعيف. بقي عندنا قولان:

الأوَّل: أنَّه شيطان سلط على كرسي سليمان فبقي فيه، وصار يدبِّر شؤون مملكته.

والثَّاني: أنَّه سليمان نفسه سلب الله منه التفكير وتدبير شؤون المملكة فصار لا يحسن التدبير. هذان القولان محتملان، أقربهما إلى اللفظ الأوَّل، أي: أنَّه شيطان

=

ألقي على الكرسي، لأنَّ جسدًا نكرة تقتضي أن يكون الملقى غير الملقى على كرسيه، ولكن الثَّاني أقرب من حيث المعنى، أي: أن الله تعالى إذا سلب من الإنسان عقله وتفكيره وسلطته فهو بمنزلة الجسد.

وعلى كل حال هذه الفتنة التي حصلت لسليمان عليه السلام بإلقاء الجسد على كرسيه، سواء أكان هو نفسه أم شيطان جلس على الكرسي، لا شك أنَّها فتنة عظيمة، ولا يتصوّرها أحد لم تمسَّه هذه الفتنة، لأنَّ ما نسمع من المصائب والفتن وغيرها نسمعها على أنَّها تمر علينا مرورًا ذهنيًا، وليس هذا كالذي يباشر المصيبة والقضية نفسها.

وعلى كل حال سليمان عليه السلام لما وصل به الأمر إلى هذه الحال أناب إلى الله، لأنَّ من طبيعة الإنسان إذا أصيب بمصيبة أن يحاسب نفسه. أما قبل أن يصاب فقد يغفل، لكن إذا أصيب صار يحاسب نفسه، ورجع إلى الله، حتَّى المشركون إذا ركبوا في الفلك، وأصابتهم الأمواج التي يضرب بعضها بعضًا، يلجؤون إلى الله سبحانه وتعالى، يدعونه مخلصين له الدين أن ينجيهم. فمن طبيعة الإنسان أن يعود إلى القوة التي يمكنها أن تدفع عنه المصيبة التي نزلت به، إلَّا مَن خرج عن هذه الطبيعة، وقد يخرج عن هذه الطبيعة ناس كثيرون، كما قال تعالى: {وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ} [المؤمنون: ٧٦] فقد يخرج بعض النَّاس عن هذه الطبيعة الفطرية فتصيبه المصائب والنكبات والعذاب، ولكن قلبه يكون قاسيًا لا يتأثر. نسأل الله العافية.

قال المصنف: [{ثُمَّ أَنَابَ (٣٤)} أي: رجع سليمان إلى ملكه بعد أيَّام، بأن وصل إلى الخاتم فلبسه، وجلس على كرسيه] هذا من أبعد ما يكون في التحريف لكلام الله عز وجل، والمتعيَّن أن المعنى: أناب إلى الله، أي: أنَّه عرف أن هذا الذي نزل به لأمر صدر منه، فرجع إلى الله وأناب إليه، وأحسن التوبة، وأصلح العمل.

=

{قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ (٣٥)} بدأ بطلب المغفرة قبل طلب المُلك العظيم، الذي لا ينبغي لأحد من بعده، وذلك لأنَّ زوال أثر الذنوب هو الذي يحصل به المقصود، فالذنوب في الحقيقة تتراكم على القلب، وتمنعه من كثير من المصالح، فيسأل الإنسانُ التخلُّص من آثار هذه الذنوب، قبل أن يسأل ما يريد.

والمغفرة مأخوذة من المِغْفَر، وهو الذي يوضَع على الرأس، لاتِّقاء السهام في حال القتال، وهو شيء من حديد يُلبس تحت البيضة، أي: الخوذة، فهو يقي الرأس، وفي نفس الوقت يستره.

ولهذا نقول: إن مغفرة الذنوب سترها عن الخلق، مع التجاوز عن عقوبتها، أي: أن المغفرة جامعة لمعنيين هما: الستر والتجاوز عن الذنب، أي: أنّ الله تعالى لا يُعاقب عليه.

{وَهَبْ لِي مُلْكًا} يعني أعطني ملكًا لا ينبغي لأحد من بعدي، أي: لا يصلح أن يكون لأحد من بعدي. يعني مُلكًا عظيمًا، لا يفكِّر فيه أحدٌ من بعدي، فغفر الله له واستجاب له.

قال المصنف: [{مِنْ بَعْدِي} أي: سواي نحو: {فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللهِ} [الجاثية: ٢٣] أي: سوى الله]، وليس المراد من بعدي زمنًا، بل لا ينبغي لأحد في زمني أو زمن بعد زمني، ولكن المراد بـ: {من بعدي}: سواي، واستشهد لذلك بقوله: {فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللهِ} [الجاثية: ٢٣] ومعلوم أنَّه لا أحد بعد الله، فالله هو الآخر الذي ليس بعده شيء، ولكن {مِنْ بَعْدِ اللهِ} أي: من سوى الله.

والقول الثَّاني: أنّ المراد {لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي} أي: ملكًا لا يغلبه عليه أحد، ويؤيد القول الأوَّل قوله عليه الصلاة والسلام حين تفلَّت عليه عفريت وهو يصلِّي، وأراد أن يمسكه وأن يربطه بسارية المسجد ليلعب به صبيان أهل المدينة،

=

=

وقال: "لولا أنِّي ذكرتُ قول أخي سليمان: {وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي} لفعلت"، وهذا يدلُّ على المراد {مِنْ بَعْدِي} زمنًا.

والمرجَّح أنّ سليمان عليه الصلاة والسلام سأل مُلكًا عظيمًا لا يكون لأحد من بعده، وبناءً عليه، فإنَّه يحصل الإشكال: لماذا تحجَّر هذا المُلك؟ قد نقول: إنّ القول الثَّاني أصح، وإنّ النَّبيَّ ﷺ ترك ذلك تورُّعًا، لأنَّه خاف أن يكون مراد سليمان زمنًا، فترك هذا من باب التورُّع، ولكن هذا الجواب فيه أيضًا بعض الشيء، لأنّ النَّبيَّ ﷺ إذا فسر الآية بشيء أو أتى بشيء يقتضي تفسيرها على وجه ما، فإنَّه لا شكّ أولى من الاحتمال الآخر، وأن يكون المراد {مِنْ بَعْدِي} أي: مِن سواي، والله أعلم.

{إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ (٣٥)}: هذه جملة تعلقها بما قبلها، أنَّها من باب التوسل. لما سأل الله مُلكًا توسَّل إلى الله بالاسم الذي يناسب ما دعا به: {إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ} (أنت): يسمِّيها العلماء ضمير الفصل، وتفيد ثلاثة أشياء: التوكيد، والحصر، والتمييز أو الفصل بين الصفة والخبر.

وقوله: {الْوَهَّابُ}: صيغة مبالغة، وذلك لكثرة هِبات الله، وكثرة مَن يهبه الله، كل ما في الخلق من نعمة فهو من هبات الله، وما أكثر النِّعم على الإنسان، وما أكثر من أنعم الله عليه، ولهذا جاءت صورة المبالغة: {إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ}.

قال تعالى: {فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ (٣٦)}.

الفاء: للسببية من وجه، وللتعقيب من وجه آخر؛ أي: بسبب دعائه، وفور دعائه {فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ} يعني ذللناها له، والريح: الهواء.

يقول الله تعالى: {تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ}: تجري أي: تسير، {بِأَمْرِهِ} أي: على وفق أمره. {رُخَاءً} أي: لينة في سيرها وهبوبها، لينة في طاعتها، لا

=

=

تستعصي، مثلًا: إذا كانت الرِّيح جنوبًا وهو يريد أن يذهب إلى الجنوب يأمرها أن تهب شمالًا، فتهب شمالًا، فتحمله حيث أراد.

قد يقول قائل: كيف يتم الجمع بين قوله: {رُخَاءً} وبين قوله في آيات أخرى: {وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ} [الأنبياء: ٨١]؟

والجواب: أنّ الجمع بينهما سهل، فهي رخاء؛ أي: ليس فيها زعزعة، وهي عاصفة؛ أي: سريعة، لأنَّ غُدوُّها شهر ورواحها شهر، يعني تمشي في الصباح، ولا يأتي زوال الشَّمس إلَّا وقد قطعت مسافة شهر. وبعد الزَّوال تمشي ولا يأتي الغروب، إلَّا وقد قطعت مسافة شهر، قال أهل العلم: إنَّه يضع على الأرض شيئًا كالبساط، ويجلس هو وحاشيته على البساط ثم يأمر الرِّيح فتحمله فيطير بين السماء والأرض، ومع ذلك هي رخاء، وكان المتبادر إلى الذهن أن مثل هذا الطيران يزعج الراكبين، على هذا البساط، ولكن الله تعالى جعلها رخاءً لينة، حتَّى كأنهم لا يطيرون، وليس فيها إزعاج، وهذا من آيات الله.

{حَيْثُ أَصَابَ} أي: حيث أراد؛ أي: الجهة التي يريد، وهذا لم يحصل لرسول غيره فيما نعلم، ولا لملك من الملوك يأمر الرِّيح فتسير به حيث أراد.

ثم قال: {وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ (٣٧)} يعني سخَّرنا له الشياطين، والشياطين جمع شيطان، وهم عفاريت الجن. سخّر له {كُلَّ بَنَّاءٍ}، يبني الأب نية العجيبة، {وَغَوَّاصٍ (٣٧)} إن في البحر يستخرج اللؤلؤ.

{وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ (٣٨)} أي: مشدودين في الأصفاد، وهي القيود، بجمع أيديهم إلى أعناقهم، سخَّر الله له الشياطين، أي: ذلّلهم له، يطيعونه، وينفذون أوامره، وقد صنفهم ورتبهم حسب قدراتهم واختصاصاتهم، منهم من

=

=

يبني له البناء الشامخ العجيب، "و {يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ} [سبأ: ١٣].

والقسم الآخر: {وَغَوَّاصٍ (٣٧)} يغوصون في البحار، يأتون له بأنواع اللؤلؤ والمرجان والدُّرر وغيرها، يأتون بكلِّ ما يريد.

وفيهم قوم مردة من الشياطين يؤذّون النَّاس، وربما يتمردون عليه ويعصونه، هؤلاء يقرنهم في الأصفاد، ويشدّ أيديهَم إلى أعناقهم، ويحبسهم في الأصفاد.

وقد يقول قائل: هل هذا من التسخير؟ نقول: نعم، هذا من التسخير. أنّ الله تعالى جعل له سلطة عليهم، فالله تعالى جعلهم يعصونه ويتمردون عليه، ويؤذون من في مملكته من أجل أن يُنزل بهم هذا العذاب؛ حتَّى يتبيَّن بذلك كمال سلطانه على هؤلاء الشياطين، لأنَّه لا يُعرف تمام السلطان إلَّا بإنزال العقوبات على المتمردين.

أما إذا كان السلطان يداهن المتمرِّدين، فإن هذا يدلُّ على ضعف السلطان، وأنّه ليس عنده قدرة على تدبير مملكته. وجعل الله تعالى هؤلاء يتمرّدون على سليمان، أو يؤذّون من في مملكته؛ لأجل أن ينزل بهم بطشه، ويُعرف أَنَّه قوي، وذو سلطة، وسيطرة على هؤلاء الجن.

قال تعالى: {هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٩)}، {هَذَا} المشار إليه ما سخَّره الله له من الرِّيح والسلطة على الشياطين.

{عَطَاؤُنَا} يعني الذي أعطيناك إياه؛ لأنَّه قال: {وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي} [ص: ٣٥] فأعطاه الله هذا العطاء، والذي فهمنا مما أعطاه تسخير الرِّيح، وتسخير الشياطين.

قال المصنف: [{هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ} أعط منه من شئت، {أَوْ أَمْسِكْ} عن العطاء {بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٩)} أي: لا حساب عليك في ذلك].

=

وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ (٤١).

{وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوب إِذْ نَادَى رَبّه أَنِّي} أَيْ بِأَنِّي {مَسَّنِيَ الشَّيْطَان بِنُصْبٍ} ضُرّ {وَعَذَاب} أَلَم وَنَسَبَ ذَلِكَ إِلَى الشَّيْطَان وَإِنْ كَانَتْ الْأَشْيَاء كُلّهَا مِنْ الله تَأَدُّبًا مَعَهُ تَعَالَى.

ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ (٤٢).

وقيل له {اركض} اضْرِبْ {بِرِجْلِك} الْأَرْض فَضَرَبَ فَنَبَعَتْ عَيْن مَاء فَقِيلَ

=

أعطاه الله تعالى هذا المُلك، وقال له: أنت بالخيار، امنن على مَن شئت، وأمسك المنّة عمّن شئت، لا حساب عليك في ذلك. وهذا من التخيير المطلق في التصرف.

وقال: {وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ (٤٠)}، لما ذكر الله ما مَنَّ على سليمان عليه السلام في الدُّنيا؛ ذكر ما منَّ عليه في الآخرة، وهو أن له عند الله مرتبة عالية في الآخرة، {لَزُلْفَى} قريبة من الله عز وجل، {وَحُسْنَ مَآبٍ (٤٠)} أي: حسن مرجع، لأنَّ مرجعه إلى الجنَّة، التي فيها ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

{وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى} ذكرنا فيما سبق أن العندية المضافة إلى الله تنقسم إلى قسمين: عندية علم (عندية الصفة)، وعندية قرب، كما في هذه الآية. أما عندية العلم (عندية الصفة) كما في قوله تعالى: {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ} [الأنعام: ٥٩] فإن هذه عندية علم (عندية صفة).

أما عندية القرب فتكون منفصلة عن الله، يكون الشيء عند الله؛ أي: قريب منه، وقوله: {لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ (٤٠)} الزلفى؛ أي: القربى، لأنَّ أعلى مراتب الخلق هي مراتب الأنبياء، قال الله تعالى: {وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ} [النساء: ٦٩].

{هَذَا مُغْتَسَل} مَاء تَغْتَسِل بِهِ {بَارِد وَشَرَاب} تَشْرَب مِنْهُ فَاغْتَسَلَ وَشَرِبَ فَذَهَبَ عَنْهُ كُلّ دَاء كَانَ بِبَاطِنِهِ وَظَاهِره.

وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ (٤٣).

{وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْله وَمِثْلهمْ مَعَهُمْ} أَيْ أَحْيَا الله لَهُ مَنْ مَاتَ مِنْ أَوْلَاده وَرَزَقَهُ مِثْلهمْ {رَحْمَة} نِعْمَة {مِنَّا وَذِكْرَى} عِظَة {لِأُولِي الْأَلْبَاب} لِأَصْحَابِ الْعُقُول.

وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (٤٤).

{وَخُذْ بِيَدِك ضِغْثًا} هُوَ حُزْمَة مِنْ حَشِيش أَوْ قُضْبَان {فَاضْرِبْ بِهِ} زَوْجَتك وَكَانَ قَدْ حَلَفَ لِيَضْرِبهَا مِائَة ضَرْبَة لِإِبْطَائِهَا عَلَيْهِ يَوْمًا {وَلَا تَحْنَث} بِتَرْكِ ضَرْبهَا فَأَخَذَ مِائَة عُود مِنْ الْإِذْخِر أَوْ غَيْره فَضَرَبَهَا بِهِ ضَرْبَة وَاحِدَة {إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْد} أَيُّوب {إِنَّهُ أَوَّاب} رَجَّاعٌ إِلَى الله تَعَالَى[1].

---

(١)قوله تعالى: {وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ} [ص: ٤١].

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: {وَاذْكُرْ} أيضا يا محمد {عَبْدَنَا أَيُّوبَ} ".

عن أنس بن مالك، أنّ رسول الله - ﷺ - قال: «إنّ نبيَّ الله أيوب لبث به بلاؤه ثماني عشرة سنة، فرفضه القريبُ والبعيدُ، إلا رجلان مِن إخوانه كانا مِن أخصِّ إخوانه به، كانا يغدوان إليه ويروحان، فقال أحدُهما لصاحبه: تعلم -واللهِ- لقد أذنب أيوبُ ذنبًا ما أذنبه أحدٌ من العالمين. قال له صاحبه: وما ذاك؟ قال: مِن ثماني عشرة سنة لم ي؟ فيكشف ما به. فلمّا راحا إليه لم يصبر الرجلُ حتى ذكر ذلك له، فقال أيوب: لا أدري ما تقول، غير أنّ الله يعلم أني كنت أمرُّ على الرجلين يتنازعان فيذكران الله، فأرجع إلى بيتي فأُكَفِّر عنهما كراهية أن يذكر الله إلا في حقٍّ.
=

=

قال: وكان يخرج إلى حاجته، فإذا قضاها أمسكتْ امرأتُه بيده حتى يبلغ، فلما كان ذات يوم أبطأ عليها، وأُوحي إلى أيوب في مكانه: أن {ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذا مُغْتَسَلٌ بارِدٌ وشَرابٌ} . فاستبطأته، فتلقَّته تنظر، فأقبل عليها قد أذهب الله ما به من البلاء، وهو على أحسن ما كان، فلما رأته قالت: أي بارك الله فيك، هل رأيت نبيَّ الله هذا المُبتلى؟ فوالله على ذلك ما رأيتُ أحدًا أشبه به منك إذ كان صحيحًا. قال: فإنِّي أنا هو. قال: وكان له أندران؛ أَنْدر للقمح، وأَنْدر للشعير، فبعث الله سحابتين، فلما كانت إحداهما على أندر القمح أفرغت فيه الذهب حتى فاض، وأفرغت الأخرى في أندر الشعير الورِق حتى فاض».

قوله تعالى: {إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ} [ص: ٤١]، أي:"دعا ربه أن الشيطان تسبب لي بتعب ومشقة، وألم في جسدي ومالي وأهلي".

قال الطبري: يقول:"إذ نادى ربه مستغيثا به، أني مسني الشيطان ببلاء في جسدي، وعذاب بذهاب مالي وولدي".

قال السدي:"وقال أيوب عليه السلام: يا رب، إنك أعطيتني المال والولد، فلم يقم على بابي أحد يشكوني لظلم ظلمته، وأنت تعلم ذلك. وإنه كان يوطأ لي الفراش فأتركها وأقول لنفسي: يا نفس، إنك لم تخلقي لوطئ الفرش، ما تركت ذلك إلا ابتغاء وجهك".

وفي قوله تعالى: {بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ} [ص: ٤١]، وجوه:

أحدها: يعني بالنصب: الألم، وبالعذاب: السقم، قاله مبشر بن عبيد.

الثاني: النصب: في جسده، والعذاب: في ماله، قاله السدي.

وقال مقاتل:"{بنصب}، يعني: مشقة في جسده، {وعذاب} في ماله".

وعن الضحاك:"{أني مسني الشيطان بنصب} " يعني: البلاء في الجسد".

=

=

الثالث: أن النصب: العناء، والعذاب: البلاء. حكاه الماوردي.

الرابع: {بنصب وعذاب}: ذهاب المال والأهل، والضر الذي أصابه في جسده. قاله قتادة.

قال قتادة:"الضر في الجسد وعذاب في المال فلبث بذلك سبع سنين وأشهرا، على كناسة لبني إسرائيل تخلف الدواب في جسده".

عن قتادة:"{واذْكُرْ عَبْدَنا أيُّوبَ إذْ نادى رَبَّهُ أنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطانُ بِنُصْبٍ وعَذابٍ}، قال: ذهاب الأهل والمال، والضر الذي أصابه في جسده قال: ابتُلي سبع سنين وأشهرًا مُلْقًى على كُناسة لبني إسرائيل، تختلف الدوابُّ في جسده، ففرَّج الله عنه، وأعظم له الأجر، وأحسن عليه الثناء".

عن مجاهد: "أنّ أيوب أولُ مَن أصابه الجدري".

قال وهب:"لم يكن أصاب أيوب الجذام، ولكن أصابه أشدُّ منه، فكان يخرج منه مِثْلُ ثدي المرأة، ثم يتفقَّأ".

عن نَوْف البِكالِيّ -من طريق أبي عمران الجوني- قال: "الشيطانُ الذي مسَّ أيوبَ يُقال له: مِسْوَطٌ. فقالت امرأة أيوب: ادعُ اللهَ أن يشفيك. فجعل لا يدعو حتى مرَّ به نفر من بني إسرائيل، فقال بعضُهم لبعض: ما أصابه ما أصابه إلا بذنب عظيم أصابه. فعند ذلك قال: {أنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وأَنْتَ أرْحَمُ الرّاحِمِينَ} [الأنبياء: ٨٣] ".

وعن معاوية بن قرة، قال: إنّ أيوب نبيَّ الله لَمّا أصابه الذي أصابه قال إبليس: يا ربِّ، ما يُبالي أيوبُ أن تعطيه أهلَه ومثلَهم معهم، وتخلف له ماله، سلِّطني على جسده. قال: اذهب، فقد سلَّطتك على جسده، وإيّاك -يا خبيثُ- ونفسَه. قال: فنفخ فيه نفخةً سقط لحمه، فلمّا أعياه صرخ صرخة اجتمعت إليه جنوده، فقالوا: يا سيدنا، ما أغضبك؟ فقال: لِمَ لا أغضب؟! إنِّي أخرجتُ آدم من الجنة، وإنّ ابنه

=

هذا الضعيف قد غلبني. فقال المُذْهَبُ: سيدنا، ما فعلت امرأته؟ فقال: حية. قال: أمّا هي فقد كفيتُك أمرَها. فقال له: فإن أطلقتها فقد أصبتَ، وإلا فأعطه المَقادة، فجاء إليها، فاستزَلّها، فأتتْ أيوبَ، فقالت له: يا أيوبُ، إلى متى هذا البلاء؟ كلمةٌ واحدة ثم استغفرْ ربك فيغفر لك. فقال لها: فعلتِها أنتِ أيضًا؟ ثم قال لها: أما - واللهِ- لَئِن عافاني اللهُ لأجلدنَّك مائة جلدة. فقال: ربِّ، إن الشيطان مسني بنصب وعذاب. فأتاه جبريل، فقال له: {ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذا مُغْتَسَلٌ بارِدٌ وشَرابٌ}. فرجع إليه حُسنُه وشبابُه، ثم جلس على تلٍّ مِن تراب، فجاءته امرأته بطعامه، فلم تر له أثرًا، فقالت لأيوب وهو على التل: يا عبد الله، هل رأيت مُبتلًى كان ههنا، أتدري ما فعل؟ فقال لها: إن رأيتِه تعرفينه؟ فدارت، فلم تره، فرجعت إليه، فقالت: يا عبد الله، هل رأيت مُبتلًى كان ههنا؟ فقال لها: إن رأيتِه تعرفينه؟ فقالت له: لعلك أنت هو؟ قال: نعم. فأوحى الله إليه: أن خذ بيدك ضغثًا فاضرب به ولا تحنث. قال: والضِغْثُ: أن يأخذ الحزمة مِن السياط، فيضرب بها الضربة الواحدة".

قال القشيري:"يقال: إن سبب ابتلائه أنه استعان به مظلوم فلم ينصره.. فابتلى، ويقال: استضاف الناس يوما فلمّا جاءه ابن فقير منعه من الدخول، ويقال: كان يغزو ملكا كافرا، وكان لأيوب غنم في ولايته، فداهنه لأجل غنمه فى القتال، ويقال: حسده إبليس، فقال: لئن سلّطتنى عليه لم يشكر لك، ويقال: كان له سبع بنات وثلاثة بنين في مكتب واحد، فجرّ الشيطان الاسطوانة فانهدم البيت عليهم".

قال الزمخشري:"فإن قلت: لم نسبه إلى الشيطان، ولا يجوز أن يسلطه الله على أنبيائه ليقضى من إتعابهم وتعذيبهم وطره، ولو قدر على ذلك لم يدع صالحا إلا وقد نكبه وأهلكه، وقد تكرّر في القرآن أنه لا سلطان له إلا الوسوسة فحسب؟

=

قلت: لما كانت وسوسته إليه وطاعته له فيما وسوس سببا فيما مسه الله به من النصب والعذاب، نسبه إليه، وقد راعى الأدب في ذلك حيث لم ينسبه إلى الله في دعائه، مع أنه فاعله ولا يقدر عليه إلا هو. وقيل: أراد ما كان يوسوس به إليه في مرضه من تعظيم ما نزل به من البلاء، ويغريه على الكراهة والجزع، فالتجأ إلى الله تعالى في أن يكفيه ذلك بكشف البلاء، أو بالتوفيق في دفعه ورده بالصبر الجميل.

وروى أنه كان يعوده ثلاثة من المؤمنين، فارتدّ أحدهم، فسأل عنه فقيل ألقى إليه الشيطان: إن الله لا يبتلى الأنبياء والصالحين، وذكر في سبب بلائه أنّ رجلا استغاثه على ظالم فلم يغثه. وقيل: كانت مواشيه في ناحية ملك كافر، فداهنه ولم يغزه. وقيل: أعجب بكثرة ماله".

قوله تعالى: {ارْكُضْ بِرِجْلِكَ} [ص: ٤٢]، أي:"وقلنا له اضرب برجلك الأرض".

عن ابن جريج:"{ارْكُضْ بِرِجْلِكَ} قال: اضرب برجلك".

قال الحسن:"فأوحى الله إليه أن: {اركض برجلك}، فركض برجله ركضة وهو لا يستطيع القيام".

قال الطبري: أي: " فاستجبنا له، وقلنا له: اركض برجلك الأرض: أي: حركها وادفعها برجلك".

قوله تعالى: {هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ} [ص: ٤٢]، أي:"وقلنا له هذا ماءٌ تغتسل به، وشراب تشرب منه".

عن ابن جريج:"{هَذا} الماء {مُغْتَسَلٌ}، قال: يغسل عنك المرضَ".

=

=

قال الطبري:"عنى بقوله {مُغْتَسَلٌ}: ما يُغْتَسل به من الماء، يقال منه: هذا مُغْتَسل، وغسول للذي يَغْتسل به من الماء. وقوله: {وَشَرَابٌ}، يعني: ويشرب منه، والموضع الذي يغتسل فيه يسمى مغتسلا".

قال مجاهد:"ركض برجله اليمنى، فنبعتْ عينٌ، وضرب بيده اليمنى خلف ظهره، فنبعتْ عينٌ، فشرب مِن إحداهما، واغتسل مِن الأخرى".

قال ابن قتيبة:"«المغتسل»: الماء. وهو: الغسول أيضا".

وفي قوله تعالى: {هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ} [ص: ٤٢]، قولان:

أحدهما: أنه اغتسل من إحداهما فأذهب الله تعالى ظاهر دائه وشرب من الأخرى فأذهب الله باطن دائه، قاله الحسن.

قال الحسن:"فركض برجله، فنبعت عين فاغتسل منها، ثم مشى نحوا من أربعين ذراعا، ثم ركض برجله، فنبعت عين، فشرب منها، فذلك قوله: {ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ} ".

وفي رواية أخرى قال الحسن:"فركض ركضة خفيفة ، فإذا عين تنبع حتى غمرته ، فرد الله جسده ، ثم مضى قليلا ، ثم " قيل له: {اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب} [ص: ٤٢] فركض ركضة أخرى ، فإذا بعين أخرى فشرب منها فطهر جوفه وغسلت له كل قذر كان فيه".

الثاني: أنه اغتسل من إحداهما فبرئ، وشرب من الأخرى فروي، قاله قتادة.

وفي مدة إقامة النبي أيوب-عليه السلام- في البلاء، أقوال:

أحدها: كانت مدة البلاء ثماني عشرة سنة، رواه أنس بن مالك عن النبي ﷺ.

الثاني: سبع سنين. قاله ابن عباس.

=

=

قال سفيان:"كان أيوب ﷺ في كناسة لبني إسرائيل سبع سنين الدود يترددن: في جسده فبعث الله إليه عينين واحدة عند رأسه والأخرى عند رجليه فأوحى الله إليه: {هذا مغتسل بارد وشراب} ".

الثالث: ثلاثين سنة. قاله وهب.

الرابع: سبع سنين وستة أشهر. قاله الحسن.

الخامس: سبع سنين وسبعة أشهر. قاله مقاتل.

قال مقاتل:"وكان الدود يأكله سبع سنين وسبعة أشهر وسبعة أيام وسبع ساعات متتابعات".

وقال قتادة:"ابتلي سبع سنين وأشهرا ملقى على كناسة لبني إسرائيل تختلف الدواب في جسده، ففرج الله عنه، وعظم له الأجر، وأحسن عليه الثناء".

قال كعب القرظي:"أيما مؤمن أصابه بلاء فذكر ما أصاب أيوب، فليقل: قد أصاب من هو خير منا نبيا من الأنبياء".

قوله تعالى: {وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ} [ص: ٤٣]، أي:"فكشفنا عنه ضره وأكرمناه ووهبنا له أهله من زوجة وولد، وزدناه مثلهم بنين وحفدة".

قال السمعاني:"يقال: إن الأرض انشقت؛ فرأى إبله وبقره وغنمه على هيئتها وخرجت إليه، ورأى أيضا أهله وأولاده كهيئتهم وخرجوا إليه".

واختلف في «الأهل» المذكور في قوله: قوله تعالى: {وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ} [ص: ٤٣]،، على ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه وعد وعده الله أيوب أن يفعل به في الآخرة. قاله عكرمة، ومجاهد-في رواية.

قال ليث: "أرسل مجاهد رجلا يقال له قاسم إلى عكرمة يسأله عن قول الله لأيوب {وآتيناه أهله ومثلهم معهم}، فقال: قيل له: إن أهلك لك في الآخرة، فإن

=

=

شئت عجلناهم لك في الدنيا، وإن شئت كانوا لك في الآخرة، وآتيناك مثلهم في الدنيا، فقال: يكونون لي في الآخرة، وأوتي مثلهم في الدنيا، قال: فرجع إلى مجاهد فقال: أصاب".

وقال مجاهد:"قيل له: إن شئت أحييناهم لك، وإن شئت كانوا لك في الآخرة وتعطى مثلهم في الدنيا، فاختار أن يكونوا في الآخرة ومثلهم في الدنيا".

الثاني: أنهم أهله الذين أوتيهم في الدنيا، إذ ردهم إليه بأعيانهم وأعطاه مثلهم معهم. وهذا قول ابن مسعود، وابن عباس، والحسن-في رواية-، وقتادة، ومجاهد -في رواية أخرى.

قال ابن عباس:"لما دعا أيوب استجاب الله له، وأبدله بكل شيء ذهب له ضعفين، رد إليه أهله ومثلهم معهم".

قال مجاهد:"أحياهم بأعيانهم، ورد إليه مثلهم".

قال سفيان:"أحيينا له أهله ومثلهم معهم"، وقال سفيان:"وبعث الله جرادا من ذهب فجعل يلتقطها فأوحى الله عز وجل إليه يا أيوب أما تشبع قال ومن شبع من رحمتك".

قال الحسن وقتادة: "أحيا الله أهله بأعيانهم، وزاده إليهم مثلهم".

الثالث: آتاه الله المثل من نسل ماله الذي رده عليه وأهله، فأما الأهل والمال فإنه ردهما عليه. وهذا قول الحسن-في رواية أخرى-.

قوله تعالى: {رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ} [ص: ٤٣].

قال السعدي:"{رَحْمَةً مِنَّا} بعبدنا أيوب، حيث صبر فأثبناه من رحمتنا ثوابا عاجلا وآجلا. {وَذِكْرَى لأولِي الألْبَابِ} أي: وليتذكر أولو العقول بحالة أيوب ويعتبروا، فيعلموا أن من صبر على الضر، أن الله تعالى يثيبه ثوابا عاجلا وآجلا ويستجيب دعاءه إذا دعاه".

=

=

قال الزمخشري:"المعنى: أنّ الهبة كانت للرحمة له ولتذكير أولى الألباب، لأنهم إذا سمعوا بما أنعمنا به عليه لصبره، رغبهم في الصبر على البلاء وعاقبة الصابرين وما يفعل الله بهم".

قوله تعالى: {وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ} [ص: ٤٤]، أي:"وقلنا له: خذ بيدك حُزمة شماريخ، فاضرب بها زوجك إبرارًا بيمينك، فلا تحنث".

عن قتادة ، قوله: " {وخذ بيدك ضغثا} ، قال: خذ عودا فيه تسعة وتسعون عودا ، والأصل تمام المائة فضرب به امرأته، وذلك أن امرأته أرادها الشيطان على بعض الأمر ، فقال لها: قولي لزوجك يقول كذا وكذا ، فقالت له قل: «كذا وكذا ، فحلف حينئذ أن يضربها تلك الضربة ، فكانت تحلة ليمينه ، وتخفيفا عن امرأته".

عن ابن عباس، قوله:"{وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا} ، يقول: حُزْمة".

قال ابن عباس:"أمر أن يأخذ ضغثا من رطبة بقدر ما حلف عليه فيضرب به".

عن سفيان في قوله:"{وخذ بيدك ضغثا} ، قال: لم يجعل لأحد بعده".

قال مجاهد:"هي لأيوب عليه السلام خاصة".

وقال عطاء: هي للناس عامة".

وقال الضحاك:"كان حلف على يمين، فأخذ من الشجر عدد ما حلف عليه، فضرب به ضَرْبة واحدة، فبرّت يمينه، وهو اليوم في الناس يمين أيوب، من أخذ بها فهو حسن".

وقال قال الشافعي -رحمه الله-: "وإذا حلف الرجل ليضربن عبده مائة سوط، فجمعها فضربه بها، فإن كان يحيط العلم أنه إذا ضربه بها ماسته كلها، فقد بر، وإن كان يحيط العلم أنها لا تماسه كلها لم يبر، وإن كان العلم مغيبا قد تماسه ولا تماسه، فضرب بها ضربة، لم يحنث في الحكم، ويحنث في الورع، فإن قال قائل: فما الحجة في هذا؟ قيل: معقول أنه إذا ماسته أنه ضاربه بها مجموعة. أو غير

=

=

مجموعة، وقد قال الله - عز وجل -: {وخذ بيدك ضغثا فاضرب به ولا تحنث} ".

وقال مالك: "من حلف ليضربن عبده مائة فجمعها فضربه بها ضربة واحدة لم يبر. قال بعض علمائنا: يريد مالك قوله تعالى: {لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا} [المائدة: ٤٨]، أي: إن ذلك منسوخ بشريعتنا".

عن سعد بن عبادة رضي الله عنه قال: كان في أبياتنا إنسان ضعيف مجدع فلم يرع أهل الدار إلا وهو على أمة من إماء أهل الدار يعبث بها وكان مسلما فرفع سعد رضي الله عنه شأنه إلى رسول الله ﷺ فقال: اضربوه حده فقالوا يا رسول الله: إنه أضعف من ذلك ان ضربناه مائة قتلناه قال: فخذوا له عثكالا فيه مائة شمراخ فاضربوه ضربة واحدة وخلوا سبيله".

عن ثوبان -رضي الله عنه-:"أن رجلا أصاب فاحشة على عهد رسول الله ﷺ وهو مريض على شفا موت فأخبر أهله بما صنع فأمر النبي ﷺ بقنو فيه مائة شمراخ فضربه ضربة واحدة".

عن سهل بن سعد:"أن النبي ﷺ أتى بشيخ قد ظهرت عروقه قد زنى بامرأة فضربه بضغث فيه مائة شمراخ ضربة واحدة".

وفي سبب هذا اليمين ثلاثة أقوال:

أحدها: أن إبليس لقيها في صورة طبيب فدعته لمداواة أيوب، فقال أداويه على أنه إذا برئ قال: أنت شفيتني، لا أريد جزاء سواه. قالت: نعم، فأشارت على أيوب بذلك فحلف ليضربنها. وهذا قول ابن عباس، وروي عن قتادة نحوه.

قال ابن عباس:"فأتت أيوب عليه السلام فذكرت ذلك له فقال: ويحك...! ذاك الشيطان، لله علي إن شفاني الله تعالى أن أجلدك مائة جلدة فلما شفاه الله تعالى أمره أن يأخذ ضغثا فأخذ عذقا فيه مائة شمراخ، فضرب بها ضربة واحدة".

=

=

الثاني: أنها جاءته بزيادة على ما كانت تأتيه به من الخبز فخاف خيانتها فحلف ليضربنها. حكاه سعيد بن المسيب.

الثالث: أن الشيطان أغواها على أن تحمل أيوب على أن يذبح سخلة ليبرأ بها فحلف ليجلدنها فلما برئ أيوب وعلم الله تعالى بإيمان امرأته أمره رفقًا بها وبرًا له يأخذ بيده ضغثًا. حكاه يحيى بن سلام.

وهذه الأقوال ضعيفة، والخبر بطوله من الإسرائيليات، والإسرائيليات مرفوضة عند العلماء على البتات، فهي لا تعطي فكرك إلا خيالا، ولا تزيد فؤادك إلا خبالا.

قال ابن عباس:"يا معشر المسلمين، كيف تسألون أهل الكتاب، وكتابكم الذي أنزل على نبيه ﷺ أحدث الأخبار بالله، تقرءونه لم يشب، وقد حدثكم الله أن أهل الكتاب بدلوا ما كتب الله وغيروا بأيديهم الكتاب، فقالوا: هو من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا، أفلا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مساءلتهم، ولا والله ما رأينا منهم رجلا قط يسألكم عن الذي أنزل عليكم".

وفي قوله تعالى: {وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا} [ص: ٤٤]، وجوه من التفسير:

أحدها: أنه أشكال النخل الجامع لشماريخه، قاله ابن عباس.

الثاني: الأثل، رواه مجاهد عن ابن عباس.

قال القاسم بن سلام:"وقد وجدنا الأسل في غير الرماح إلا أن أكثر ذلك وأفشاه في الرماح. وبعضهم يقول في هذا النبات الذي قال الله تعالى فيه لأيوب: عليه السلام {وخذ بيدك ضغثا فاضرب به ولا تحنث} إنما قيل له: الأسل لأنه شبه بالرماح".

الثالث: أن «الضغث»: القبضة من المرعى الطيب. وهو معنى قول ابن عباس-في رواية العوفي-.

الرابع: أن «الضغث»: حُزْمة. قاله ابن عباس.

=

=

الخامس: الحزمة من الحشيش، قاله قطرب، وأنشد قول الكميت:

تحيد شِماسًا إذا ما العسيفُ... بضِغثِ الخلاء إليها أشارا

السادس: أن «الضغث»: القبضة الواحدة. قاله مقاتل.

وقال مقاتل:"فأخذ عيدانا رطبة -وهي «الأسل» - مائة عود عدد ما حلف عليه وكان حلف ليجلدن امرأته مائة جلدة، {فاضرب به ولا تحنث}، يعني: ولا تأثم في يمينك التي حلفت عليها، فعمد إليها فضربها بمائة عود ضربة واحدة فأوجعها فبرئت يمينه، وكان اسمها: «دنيا» ".

السابع: الشجر الرطب. قاله الضحاك.

وقال عطاء:"عيدانا رطبة".

الثامن: أنه غصن فيه تسعة وتسعون قضيبا، والأصل تكملة المِئَة. قاله قتادة.

وقال ابن زيد:"ضِغْثا واحدا من الكلأ فيه أكثر من مِئَة عود".

التاسع: السنبل، حكاه يحيى بن سلام.

العاشر: الثمام اليابس، قاله سعيد بن المسيب.

الحادي عشر: أنه ملء الكف من من الشجر أو الحشيش والشّماريخ وما أشبه ذلك، قاله أبوعبيدة، وأنشد قول عوف بن الخرع التّيميّ:

وأسفل منى نهدة قد ربطتها... وألقيت ضغثا من خلى متطيّب

قال الزجاج:"الضغث: الحزمة من الحشيش أو الريحان أو ما أشبه ذلك".

قال الفراء:"الضغث: ما جمعته من شيء مثل حزمة الرطبة، وما قام على ساق واستطال ثم جمعته فهو: ضغث".

قال ابن قتيبة:"الحزمة من الخلى والعيدان".

وقال أبو حنيفة: "الضغث: كل ما ملأ الكف من النبات".

=

=

وقال ابن منظور:"الضغث: قبضة من قضبان مختلفة، يجمعها أصل واحد مثل الأسل، والكراث، والثمام؛ قال الشاعر:
كَأَنَّهُ إِذْ تدلى ضغثُ كرَّاث".
نستنتج بأن «الضغث»: قُبْضَة حشيش اختلط فيها الرّطب واليابس، وبه شُبِّهت الأحلام المختلطة التي لا تُتبيَّن حقائقها، ومنه أضغاث أحلام، أي: ما كان منها ملتبسًا مضطربًا يصعب تأويلُه، وضغث من خبر: ما اختلطت فيه الحقيقةُ بالوهم.
قوله تعالى: {إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا} [ص: ٤٤]، أي:"إنا وجدنا أيوب صابرًا على البلاء".
قال الطبري:"يقول: إنا وجدنا أيوب صابرا على البلاء، لا يحمله البلاء على الخروج عن طاعة الله، والدخول في معصيته".
قال ابن الجوزي:"أي: على البلاء الذي ابتليناه به".
قال البيضاوي: أي:"فيما أصابه في النفس والأهل والمال، ولا يخل به شكواه إلى الله من الشيطان فإنه لا يسمى جزعا كتمني العافية وطلب الشفاء مع أنه قال ذلك خيفة أن يفتنه أو قومه في الدين".
قال السمعاني:"كانت الدواب تجري في جسده، وقد ألقى على مزبلة، وتأذى منه قومه غاية الأذى".
قال القشيري:"الصبر ألا تعترض على التقدير، ويقال: الصبر الوقوف تحت الحكم، ويقال: التلذّذ بالبلاء، واستعذابه دون استصعابه، ويقال: الصبر الوقوف مع الله بحسن الأدب، ولم ينف قوله «مَسَّنِيَ الضُّرُّ» اسم الصبر عنه لأنّ ذلك لم يكن على وجه الشكوى، ولأنه كان مرة واحدة، وقد وقف الكثير من الوقت ولم يقل مسّنى الضّرّ فكان الحكم للغالب ".
قال مقاتل:"لما برأ أيوب فاغتسل كساء جبريل- عليه السلام- حلة".

=

=

قال يحيى بن سلام حدثني أبو أمية عن الحسن: "أن أيوب لم يبلغه شيء يقوله الناس كان أشد عليه من قولهم: لو كان نبيا ما ابتلي بالذي ابتلي به، فدعا الله فقال: اللهم إن كنت تعلم أني لم أعمل حسنة في العلانية إلا عملت في الشر مثلها فاكشف ما بي من ضر وأنت أرحم الراحمين. فاستجاب الله له، فوقع ساجدا، وأمطر عليه فراش الذهب فجعل يلتقطه ويجمعه".

قوله تعالى: {نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ} [ص: ٤٤]، أي:"نِعم العبد هو، إنه رجَّاع إلى طاعة الله".

قال الطبري:"يقول: إنه على طاعة الله مقبل، وإلى رضاه رجَّاع".

قال البيضاوي: أي:"نعم العبد أيوب. إنه أواب مقبل بشراشره على الله تعالى".

قال الزجاج:"{أواب}: كثير الرجوع إلى الله".

قال القشيري: {إِنَّهُ أَوَّابٌ} " لم يشغله البلاء عن المبلى، و {نعم العبد}، لأنه خرج من البلاء على الوجه الذي دخل فيه".

قال القرطبي:"سئل سفيان عن عبدين ابتلي أحدهما فصبر، وأنعم على الآخر فشكر، فقال: كلاهما سواء، لأن الله تعالى أثنى على عبدين، أحدهما صابر والآخر شاكر ثناء واحدا، فقال في وصف أيوب: {نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّاب} [ص: ٤٤]، وقال في وصف سليمان: {نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّاب} [ص: ٣٠] ".

عن الحسن قال: "إن الله تبارك وتعالى يحتج على الناس يوم القيامة بثلاثة من الأنبياء، فيجيء العبد فيقول: أعطيتني جمالا في الدنيا فأعجبت به، ولولا ذلك لعملت بطاعتك.

فيقول الله له تبارك وتعالى: الجمال الذي أعطيت في الدنيا أفضل أو الجمال الذي أعطي يوسف؟ فيقول العبد: لا، الجمال الذي أعطي يوسف.

فيقول الله: إن يوسف كان يعمل بطاعتي، فيحتج عليه بذلك.

=

=

ويأتي العبد فيقول: ابتليتني في الدنيا، ولولا ذلك لعملت بطاعتك.

فيقول الله له: البلاء الذي ابتليت به في الدنيا أشد أو البلاء الذي ابتلي به أيوب؟

فيقول العبد: البلاء الذي ابتلي به أيوب.

فيقول الله له تبارك وتعالى: قد كان أيوب يعمل بطاعتي، فيحتج عليه بذلك.

ويجيء العبد فيقول: أعطيتني ملكا في الدنيا فأعجبت به، ولولا ذلك لعملت بطاعتك.

فيقول الله تبارك وتعالى: الملك الذي أعطيتك في الدنيا أفضل أو الملك الذي أعطي سليمان؟

فيقول العبد: الملك الذي أعطي سليمان.

فيقول الله: قد كان سليمان يعمل بطاعتي، فيحتج الله عليه بذلك".

قال العثيمين:قوله تعالى: {وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ (٤١)}. الخطاب لرسول الله ﷺ، ويجوز أن يكون موجهًا لكل من يتأتى خطابه من البشر، وقوله: {وَاذْكُرْ عَبْدَنَا} أعاد الفعل {وَاذْكُرْ} مع أنَّه في قصَّة سليمان لم يعده بل قال: {وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ} [ص: ٣٠] ولم يقل: (اذكر). قال بعض العلماء: لأنَّ سليمان بن داود فقصتهما متقاربة، وكأنما هي قصَّة نبي واحد، أما أيوب فهو منفصل عنهما، {وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ} والمراد بالعبد هنا المتذلل لطاعة الله، وهذه العبودية من عبودية أخص الخاصة، لأنَّها عبودية الرسالة.

وقوله: {أَيُّوبَ}: عطف بيان أو بدل من {عَبْدَنَا}.

{إِذْ نَادَى رَبَّهُ}: إذ: متعلقة بـ {وَاذْكُرْ} ويجوز أن تتعلق بمحذوف حالًا من عبد، يعني في حال نداء ربه، {إِذْ نَادَى رَبَّهُ} أي: دعاه بصوت مرتفع، لأنَّ النداء يكون بالصوت المرتفع، والمناجاة تكون بالصوت المنخفض، قال تعالى: {وَنَادَيْنَاهُ مِنْ

=

=

جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾ [مريم: ٥٢]، ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ﴾ [أي: بأني ﴿مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ﴾] قدَّر المصنف الباء هنا لأن همزة (أن) مفتوحة، والقاعدة: أن همزة (أن) تكون مكسورة إذا جاءت بعد القول، كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللهِ﴾ [مريم: ٣٠] ولكنها هنا مفتوحة، فقدر المصنف الباء، لأنَّه إذا قدرنا الباء صارت تُسْبَك هي وما بعدها بمصدر، وإذا سبكت (أن) وما بعدها بمصدر، صارت مفتوحة الهمزة، كما قال ابن مالك:

وهَمْزَ إنَّ افْتَحْ لِسَدِّ مصدَرِ ... مَسَدَّها وفي سِوى ذاكَ اكْسِرِ

و ﴿مَسَّنِيَ﴾ يعني أصابني، و ﴿الشَّيْطَانُ﴾ هو شيطان الجن.

وكان الشَّيطان قد آذاه. ولكن هل هو إيذاء نفسي بأن ألقى في قلبه الوساوس التي أنهكت بدنه، أو أنَّه إيذاء حسّي كما قال بعضهم: إنّ الشَّيطان نَفَث في جسده، حتَّى أصبح جسده كله جدري يعني حبوبًا ضارة، فالله أعلم؛ يُحتمل هذا وهذا.

قوله: ﴿مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ (٤١)﴾ النصب يعني الضرر، والعذاب يعني الألم.

يقول المصنف: [ونسبَ ذلك إلى الشَّيطان، وإن كانت الأشياء كلُّها من الله تعالى، تأدبًا معه تعالى] نسب ذلك إلى الشَّيطان، لأنَّه السبب، وإلا فالأمر كله بقدر الله، والله تعالى بحكمته سلّط عليه الشَّيطان، ولكن تسلطه كان بقضاء الله وقدره.

وأقول: نسبه إلى الشَّيطان، لأنَّه هو المباشر للعلة، وهو سبب لا شك، ولكنه سبب مباشر. وفي الحقيقة أنّ الشَّيطان إنَّما سُلِّط عليه بقضاء الله وقدره. والمصنف يرى أنَّه نَسبَ إلى الشَّيطان تأدُّبًا، وإلا فالأصل نسبته إلى الله، فهو كقوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن: ١٠] فالجن قالوا: ﴿أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾، ومعلوم أنّ مُريد الشر هو الله عز وجل

=

=

لحكمة، {أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا}، فهم حذفوا الفاعل تأدبًا مع الله عز وجل؛ لأنّ الشر ليس إليه.

على كلّ حالٍ الشَّيطان هو الذي مسَّ أيوب، ومسَّه إمَّا أن يكون مسًا نفسيًا أو حسيًا.

ولما نادى ربه عز وجل، وتضرع إليه، وعلم أن لا ملجأ من الله إلَّا إليه، وبعد أن تفرغ قلبه من كل شيء سوى الله، جاءه الفرج فقيل له: {ارْكُضْ بِرِجْلِكَ ... } أي: اضرب برجلك الأرض، فضرب الأرض بها فنبع منها الماء بإذن الله، ولم يحتج إلى حفار ولا إلى أحد يساعده. بل ضرب الأرض برجله ضربة واحدة فنبع الماء، والله على كل شيء قدير، وهذه إحدى الضربات التي نبع بها الماء على أنَّه آية من آيات الله.

والثانية: موسى ضرب الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينًا.

والثالثة: جبريل ضرب بجناحيه مكان زمزم، فنبع الماء، والله سبحانه وتعالى على كل شيء قدير.

قال المصنف رحمه الله: [فنبعت عين ماء فقيل له: {هَذَا مُغْتَسَلٌ} أي: ماء تغتسل به {بَارِدٌ وَشَرَابٌ} أي: تشرب منه، فاغتسل وشرب فذهب عنه كل داء كان بباطنه وظاهره] أي: أبيح له أن يغتسل ويشرب من الماء الذي نبع من الأرض، والغالب أن الماء النابع من الأرض يكون ساخنًا، ولكن هذا بارد، فشرب منه واغتسل به، فذهب عنه كل داء كان في باطنه وظاهره بقدرة الله عز وجل وإرادته.

ثم قال الله تعالى: {وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ}.

قال المصنف: [أحيا الله له مَن مات من أولاده، ورزقه مثلهم]. فجعل المصنف الهبة بمعنى الإحياء، ولكن هذا فيه نظر، لأنّ الإحياء يحتاج إلى ثبوت الإماتة من قبله، وليس في الآية ما يدلّ على هذا، بل إن الله تعالى وهب له أهله حيث أووا إليه

=

=

بعد أن شردوا منه، لأنَّ الرجل بسبب مرضه الحسي البدني أو النفسي، شرد منه أهلُه، وعجزوا عن أن يعيشوا معه، ولما عافاه الله، أوى إليه أهله، فتكون هذه الهبة إعادة ما سبق، كما سمّى عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه إعادة قيام رمضان جماعة سماها بدعة، وهي ليست بدعة في الواقع، وهذه هبة مع أنَّها ليست هبة، ولكنها إعادة موهوب شرد.

وأمَّا القول بإحيائهم بعد إماتتهم فهذا يحتاج إلى ثبوت الإماتة من قبل، ولكن الصَّحيح أنَّه لم تثبت الإماتة ولا الإحياء، وإنَّما هذه الهبة إعادة موهوب سابق، لأنهم نفروا منه، وشردوا عنه.

وقوله: {وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ} نقول: إن الله رزقه أولادًا جددًا؛ لأنّ زوجته رجعت، وصلحت حاله، وصار ينجب، فبارك الله له في ولده.

ثم قال تعالى: {رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ (٤٣)}. {رَحْمَةً} قال المصنف: [نعمة، {وَذِكْرَى} موعظة] قوله: {رَحْمَةً} إن كان عائدًا على الأهل ومَن وُهب له من جديد؛ فهي رحمة مخلوقًا، والرحمة قد تطلق على المخلوق، كما قال الله تبارك وتعالى: "أنت رحمتي أرحم بك مَن أشاء" ولذلك فإن تفسير المصنف للرحمة بالنعمة تفسير صحيح؛ إذا جعلنا الرحمة هنا عائدة على الأهل والأولاد {وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ} فإنّ تفسيره صحيح؛ لأنَّ الرحمة مخلوقة.

وإن أريد بالرحمة صفة الله عز وجل؛ يعني: أن هذا من رحمتنا؛ أي: ناشئ عن رحمة الله، فالرحمة هنا غير مخلوقة؛ لأنّ صفات الله سبحانه وتعالى غير مخلوقة. إذا كلام المصنف لا يمكن أن يُخطَّأ على الإطلاق؛ حيث فسر الرحمة بالنعمة، ومعلوم أنّ الأشاعرة يفسرون رحمة الله بالنعمة والإحسان، ولا يرون أن لله رحمة هي صفته، فكلام المصنف لا ينتقد من كل وجه لاحتمال أن يكون المراد

=

=

بالرحمة ما وهب الله له من الأهل ومثلهم معهم، يعني أراد بها الموهوب، والموهوب لا شك أنَّه مخلوق، أما إذا أردنا أن نفسر قوله: {رَحْمَةً مِنَّا} برحمة من عندنا، أي: الرحمة التي هي صفة الله عز وجل، أي: أن هذا ناشئ من رحمتنا، الرحمة التي نحن متصفون بها، فإن تفسير المصنف هنا ليس صحيحًا؛ لأنَّ الرحمة هنا تكون صفة من صفات الله، وليست بمعنى نعمة يعني خلقًا بائنًا عن الله عز وجل.

قوله: {رَحْمَةً} تُعرب مفعول لأجله، وهذه علة سابقة، والعلل قسمان: علل غائية منتظرة، وعلل سابقة موجبة، فمثلًا إذا غضب الإنسان وضرب ولده، الضرب هنا من الغضب، لأنَّ العلة سابقة موجبة. أما إذا سافر الإنسان ليتَّجر، فهنا العلة غائية لاحقة.

{رَحْمَةً مِنَّا}، {مِنَّا} يعني نفسه تبارك وتعالى، وأتى بصيغة الجمع، تعظيمًا لله عز وجل. والغريب أن الجمع من الألفاظ المتشابهة التي استدل بها النصراني على تعدُّد الآلهة، لأنَّ النصراني يقول: إنّ الله ثالثُ ثلاثة، ليس إلهًا واحدًا، ويقول عندي دليل: خلقنا، أنزلنا، من لدنا، منا، عندنا، كل هذه تدل على الجمع، فنقول له: إنّ في قلبك لزيغًا، لأنك اتبعت المتشابه، {فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ} [آل عمران: ٧]، ما الذي أعمى بصيرتك عن قول الله تعالى: {وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ} [البقرة: ١٦٣]؟ هذا محكم، والإتيان بصيغة الجمع للتعظيم أمرٌ وارد في اللُّغة العربيَّة، حتَّى النَّاس أنفسهم وهم بشر -لا يستحقون من العظمة ما يستحقه الخالق- يعبرون عن أنفسهم بصيغة الجمع تعظيمًا لأنفسهم.

{رَحْمَةً مِنَّا} أي: من عند الله، {وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ (٤٣)} أي: عظة لأصحاب العقول، {رَحْمَةً مِنَّا} هذه خاصة بأيوب وأهله، {وَذِكْرَى لِأُولِي

=

=

{الْأَلْبَابِ (٤٣)} عامة، يتذكر بها أصحاب العقول، يتذكرون بأنّ المصائب تكون على الرسل وعلى غيرهم، وبأنّ الشَّيطان يمكن أن يسلّط على الرسول، ويتذكرون بها أن الإنسان إذا لجأ إلى ربه، ودعا ربه، فإن الله يجيبه، ويتذكرون بها أَنَّه كلما اشتد الكرب، قرُب الفرج، وقال رسول الله ﷺ: "اعلموا أنّ النصر مع الصبر، وأنّ الفرج مع الكرب، وأنّ مع العسر يسرًا". وقال تعالى: {أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ} [البقرة: ٢١٤]، يعني قريب من هذه الحال التي وصلت بالرسل إلى أن يقولوا: متى نصر الله؟ يعني يطلبونه شوقًا، لا استبعادًا، كأنهم يقولون: يا ربّ عجّل لنا بالنصر، فقال الله تعالى: {أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ (٢١٤)}.

إذا ذكرى لأولي الألباب فيما يلي:

أولًا: أنّ البلاء يشمل الأنبياء.

ثانيًا: أنّ الشَّيطان قد يسلّط على الأنبياء.

ثالثًا: أنّ الله تعالى يجيب دعوة المضطرين إليه، إذا صدق الإنسان في دعوته.

رابعًا: أنَّه كلما اشتدت الأمور؛ فانتظر الفرج، فهذا أيوب لما اشتد به الأمر، ولجأ إلى الله، أجاب الله تعالى دعاءَه.

خامسًا: زوال كرب النَّبيِّ أيوب عليه السلام كان على يده، لأنَّ الله تعالى لم يُنزل شفاءً دون سبب ظاهر، بل بسبب هو الذي يباشره. قيل له: {ارْكُضْ بِرِجْلِكَ} فضرب برجله فخرج الدواء، وقيل له: {هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ (٤٢)} فاغتسل فعالج نفسه إذًا هو الذي استخرج الدواء، وباشر العلاج، وكان علاجه على يده باستخراج الدواء واستعماله.

=

=

قال تعالى: {وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ}، قال المصنف: [{ضِغْثًا} هو حزمة من حشيش أو قضبان.

وقد ذكر المفسرون أقوالا في المراد بالضغث في الآية، فمن ذلك ما روي عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أنه كان حزمة من الأثل.

وروي عن عطاء والضحاك أنه كان عيدانا رطبة.

وقال السمرقندي: (يعني قبضة من سنبل فيه مائة سنبلة).

وقال ابن كثير: (أي الشمراخ فيه مائة قضيب).

وذهب جماعة من المفسرين إلى التعميم في المراد بالضغث - وهو ما أشار إليه أبو عبيد عند بيانه لمعنى الضغث - دون قصر معناه على نوع معين من أنواع النبات(٥)؛ فمن ذلك قول أبو عبيدة معمر بن المثنى: (هو ملء الكف من الشجر، أو الحشيش والشماريخ، أو ما أشبه ذلك).

ويقول السمعاني: (كل ما يملأ الكف من خشب أو حشيش أو غيره).

وقال الشوكاني فيما نقله عن الواحدي: (وأصل المادة - أي الضغث - تدل على جميع المختلطات).

قوله {فَاضْرِبْ بِهِ} زوجتك، وكان قد حلف ليضربنَّها مئة ضربة لإبطائها عليه يومًا {وَلَا تَحْنَثْ} بترك ضربها، فأخذ مئة عود من الإذخر أو غيره، فضرب بها ضربةً واحدة].

وهذه الفتوى من الله عز وجل لأيوب، أفتاه بها تسهيلًا عليه وعلى أهله. وقد أشرنا قبل قليل أنَّه لما أصيب بهذه المصيبة مِن قِبل الشَّيطان، مصيبة نفسية ومصيبة بدنية ظاهرة شرد أهله، ومن ضمنهم زوجته التي كان ينبغي أن تبقى معه على السراء والضراء، فحلف أن يضربها مئة ضربة؛ لأنَّها أغضبته وتركته. فلما شفاه الله عز وجل من المرض وجب عليه أن يفي بيمينه فيضرب زوجته مئة ضربة. والمئة

=

=

ضربة قد يكون فيها شيء من الاشمئزاز بالنسبة لزوجته، ومن الإحراج بالنسبة له؛ فأفتاه الله تعالى هذه الفتوى {وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا} فيه مئة شمراخ، واضربها به مرَّة واحدة، تكفي عن مئة ضربة، فأخذ بيده ضغثًا وضربها به ضربةً واحدةً، فصار ذلك برًا بيمينه، ولهذا قال: {فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ}، ومفعول {فَاضْرِبْ} محذوف وحذف -والعلم عند الله- للستر، لأنَّه ليس في القرآن أمر بضرب الزوجة، ولكنه جاء في القصص المعروفة عن بني إسرائيل. وليس المقصود أن نعرف عين المضروب، ولكن المقصود أنّ الضرب الذي كان قد حلف عليه؛ يحصل بأخذ هذا الضغث والضرب به.

وقوله تعالى: {وَلَا تَحْنَثْ} أصل الحنث: الإثم، كما قال تعالى: {وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنْثِ الْعَظِيمِ} [الواقعة: ٤٦] يعني على الإثم العظيم. والمراد به هنا أن لا يبر بيمينَّه، وعدم البر باليمين أن يترك ما حلف على فعله، أو يفعل ما حلف على تركه، وهذا هو الحنث.

على سبيل المثال: حلف ليشترينَّ كتابًا قال: والله لأشترين كتابًا ولم يشترِ، حنث بترك ما حلف على فعله. أو حلف أن لا يبيع الكتاب قال: والله لا أبيع الكتاب وباعه، حنث بفعل ما حلف على تركه، أو حلف ليشترينَّ هذا الكتاب، فاشتراه، فهذا برّ بيمينه، أو حلف ألا يبيع هذا الكتاب، فلم يبعه؛ برّ بيمينه، إذا موافقة اليمين برّ، ومخالفتها حنث.

قال أهل العلم: يُؤخذ من هذا أنّ عدم إبرار اليمين مكروه إلى الله تعالى، لأنَّه يسمى حنثًا، ولكن من نعم الله أنه رخّص لعباده بفعله، ولكن إذا فعلوه كفّروا بكفارة عن الحنث، لأنَّه لو كانت الكفارة عن اليمين لكان كل من يحلف يكفّر، لكنها عن الحنث، لأنّ الأصل الإثم في مخالفة اليمين. ولكن من رحمة الله عز وجل أن رخّص لنا الحنث وأن نكفّر عنه، ولهذا قال: {فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ}.

=

=

ثم قال: {إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا} أي: وجدنا أيوب عليه الصلاة والسلام، يعني ألفيناه صابرًا، و (وجدَ) فعل ينصب مفعولين: الأوَّل: (الهاء) في قوله: {وَجَدْنَاهُ}، والثاني: {صَابِرًا}

وصبر أيوب عليه الصلاة والسلام كان صبراً على قدر الله، وهذا ظاهر؛ لأنَّه صبر على ما مسه من الشَّيطان، وكان صبرًا عن معصية الله، لأنَّه لم يجزع ولم يسخط، وكان صبراً على طاعة الله، لأنَّه لجأ إلى الله، ودعا الله عز وجل فأجابه. وأحيانًا يكون الدواء بالدعاء أنجع بكثير من الدواء الحسي المادي، وفيما سبق إذا تعسرت الولادة، يؤتى إلى شخص، ويطلب منه أن يقرأ للحامل عند تعسُّر الولادة، فيقرأ في ماء، ويذهبون به ويمسحون به ما حول المنطقة، وتشرب منه الحامل، فتضع بدون ألم، وهذا شيء مجرّب ومشاهَد، وهذا أهون بكثير من المعالجة بالأدوية الحسية المادية، فهو عليه الصلاة والسلام لجأ إلى الله، وطلب الشفاء منه، وهذا صبرٌ على طاعة الله، فحصل له أنواع الصبر كلها.

ثم قال تعالى: {نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (٤٤)}. صبر أيوب عليه السلام هذا الصبر العظيم على المرض وفقد الأولاد وفقد الأهل، ومع ذلك لم ينس الله عز وجل، لجأ إليه عند الشدائد.

وقوله: {نِعْمَ الْعَبْدُ} نعم: فعل ماضٍ جامد لإنشاء المدح، والعبد: فاعل. وهذا الفعل وشبهه، يحتاج إلى شيئين: إلى فاعل ومخصوص بالمدح، فإن تقدَّم ما يدل على المخصوص، اُستغني بما تقدَّم، وإلا فإنَّه يقدّر، وإن كان ظاهرًا، فظاهر، فمثلًا هنا {نِعْمَ الْعَبْدُ} السياق يدلُّ على المخصوص، وحينئذٍ لا حاجة إلى تقديره، لأنَّه من المعروف أنّ العبد هو أيوب، فلا حاجة إلى التقدير. ولكن بعض النَّحويين يقدر ولو عُلِم، لأنَّه يرى أنَّه لا بد من ذكر الفاعل والمخصوص. فيقول المصنف: [{نِعْمَ الْعَبْدُ} أيوب] أيوب هو المخصوص، والعبد فاعل.

=

وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ (٤٥).

{وَاذْكُرْ عِبَادنَا إبْرَاهِيم وَإِسْحَاق وَيَعْقُوب أُولِي الْأَيْدِي} أَصْحَاب الْقُوَى فِي الْعِبَادَة {وَالْأَبْصَار} الْبَصَائِر فِي الدِّين وَفِي قِرَاءَة عَبْدنَا وَإِبْرَاهِيم بَيَان لَهُ وَمَا بَعْده عُطِفَ عَلَى عَبْدنَا.

إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ (٤٦).

{إنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ} هِيَ {ذِكْرَى الدَّار} الْآخِرَة أَيْ ذِكْرهَا وَالْعَمَل لَهَا وَفِي قِرَاءَة بِالْإِضَافَةِ وهي للبيان.

وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ (٤٧).

{وَإِنَّهُمْ عِنْدنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ} الْمُخْتَارِينَ {الْأَخْيَار} جَمْع خير بالتشديد[1].

=

{إِنَّهُ أَوَّابٌ} هذه جملة استئنافية تعليلية، تعليلًا للثناء على أيوب أنَّه نعم العبد، لأنَّه كان {أَوَّابٌ} أي: رجّاع إلى الله عز وجل.

(١) قوله تعالى: {وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ} [ص: ٤٥].

قال مقاتل: " {واذكر} يا محمد صبر {عبادنا إبراهيم} حين ألقي في النار وصبر {إسحاق} للذبح، وصبر {يعقوب} في ذهاب بصره، ولم يذكر إسماعيل بن إبراهيم لأنه لم يبتل".

عن عطاء، سمع ابن عباس، يقرأ: «واذكر عبدنا إبراهيم» قال: «إنما ذكر إبراهيم، ثم ذكر ولده بعده».

وقرأ ابن كثير: «واذكر عبدنا» على التوحيد، كأنه يوجه الكلام إلى أن إسحاق ويعقوب من ذرّية إبراهيم، وأنهما ذُكِرا من بعده.

=

=

قوله تعالى: {أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ} [ص: ٤٥]، أي:"فإنهم أصحاب قوة في طاعة الله، وبصيرة في دينه".

قال الطبري:"يعني بالأيدي: أهل القوّة على عبادة الله وطاعته. ويعني بالأبصار: أنهم أهل أبصار القلوب، يعني به: أولى العقول للحق".

واختلف في تفسير قوله تعالى: {أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ} [ص: ٤٥]، على وجوه:

أحدها: أن الأيدي: القوة على العبادة، والأبصار: الفقه في الدين، قاله ابن عباس.

وقال ابن عباس:"فضِّلوا بالقوّة والعبادة".

وقال عطاء:"القوة في العبادة والبصر بالدين".

الثاني: أن الأيدي: القوة في العبادة، والأبصار: البصر في أمر الله. قاله ابن عباس - أيضا.

الثالث: أن الأيدي: القوّة في أمر الله، والأبصار: العقول، قاله مجاهد.

الرابع: أن القوّة: في طاعة الله، والأبصار: البصر في الحقّ. قاله مجاهد-أيضا-.

الخامس: أن الأيدي: القوّة في طاعة الله، والأبصار: البصر بعقولهم في دينهم. قاله قتادة، والسدي.

قال قتادة:"أعطوا قوة في العبادة، وبصرًا في الدين".

قال ابن كثير:"يعني بذلك: العمل الصالح والعلم النافع والقوة في العبادة والبصيرة النافذة".

قال الطبري:"ذلك مثل، وذلك أن باليد البطش، وبالبطش تُعرف قوّة القويّ، فلذلك قيل للقويّ: ذو يَدٍ؛ وأما البصر، فإنه عنى به بصر القلب، وبه تنال معرفة الأشياء، فلذلك قيل للرجل العالم بالشيء: يصير به".

قوله تعالى: {إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ} [ص: ٤٦].

=

=

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: إنا خصصناهم بخاصة: ذكر الدار".
وقرأ أهل الحجاز: «بخالصة ذكرى الدار» فأضاف «خالصة» إلى «ذكرى الدار».
قال الفراء:"وهو وجه حسن".
وفي قوله تعالى: {إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ} [ص: ٤٦]، وجوه من التفسير:
أحدها: أي: أنهم كانوا يذَكِّرون الناس الدار الآخرة، ويدعونهم إلى طاعة الله، والعمل للدار الآخرة. قاله قتادة، وهو معنى قول ابن عباس.
قال قتادة:"بهذه أخلصهم الله، كانوا يدعون إلى الآخرة وإلى الله".
قال ابن عباس:"أخلصوا بذلك وبذكرهم دار يوم القيامة".
وقال سهل بن عبد الله:"أخلص إبراهيم وإسماعيل وإسحاق عن ذكر الدنيا بذكره خالصة، لا لمال جزاء، ولا شاهدوا فيه أنفسهم، بل ذكروه به له، وليس من ذكر الله بالله كمن ذكر الله بذكر الله، والله سبحانه وتعالى أعلم".
الثاني: أخلصناهم بذكر الآخرة، فليس لهم ذكر غيرها، قاله مجاهد، وعطاء، والسدي.
قال السدي:"بذكرهم الدار الآخرة، وعملهم للآخرة".
قال مقاتل:"يقول: وجعلناهم أذكر الناس لدار الآخرة يعني الجنة".
وكان الفضيل بن عياض يقول: "هو الخوف الدائم في القلب".
وقال مالك:"نزع الله ما في قلوبهم من الدنيا وذكرها، وأخلصهم بحب الآخرة وذكرها".
قال الزجاج:"إنا أخلصناهم جعلناهم لنا خالصين، بأن جعلناهم يذكرون بالدار الآخرة، ويزهدون في الدنيا، وكذلك شأن الأنبياء صلوات الله عليهم".
وهذان القولان على تفسير قراءة «بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ»، بالتنوين.

=

=

الثالث: اصطفيناهم لأفضل ما في الآخرة وأعطيناهم، قاله ابن زيد.

وهذا القول على قراءة من قرأه بالإضافة: «بِخَالِصَة ذِكْرَى الدَّارِ».

الرابع: أي: يكثرون ذكر الآخرة والرجوع إلى الله جل وعز. حكاه الزجاج.

الخامس: إنا أخلصناهم بخالصة عُقْبَى الدار. وهذا قول سعيد بن جبير.

السادس: إنا اخلصناهم بخالصة أهل الدار. قاله مجاهد-في رواية خرى-.

قال مجاهد:"هم أهل الدار؛ وذو الدار".

السابع: أي: أخلصناهم من العاهات والآفات وجعلناهم ذاكرين الدار الآخرة، حكاه النقاش.

قال ابن الجوزي:"تحتمل قراءة من نوّن وجهين:

أحدهما: أن تكون «ذكرى» بدلا من «خالصة»، والتقدير: أخلصناهم بذكر الدار.

والثاني: أن يكون المعنى: أخلصناهم بأن يذكروا الدار بالتأهب للآخرة والزهد في الدنيا.

ومن أضاف، فالمعنى: أخلصناهم بإخلاصهم ذكرى الدار بالخوف منها".

قال الطبري:"وأولى الأقوال بالصواب في ذلك على قراءة من قرأه بالتنوين أن يقال: معناه: إنا أخلصناهُمْ بخالصة هي ذكرى الدار الآخرة، فعملوا لها في الدنيا، فأطاعوا الله وراقبوه؛ وقد يدخل في وصفهم بذلك أن يكون من صفتهم أيضا الدعاء إلى الله وإلى الدار الآخرة، لأن ذلك من طاعة الله، والعمل للدار الآخرة، غير أن معنى الكلمة ما ذكرت. وأما على قراءة من قرأه بالإضافة، فأن يقال: معناه: إنا أخلصناهم بخالصة ما ذكر في الدار الآخرة؛ فلمَّا لم تُذْكر"في" أضيفت الذكرى إلى الدار كما قد بيَّنا قبل في معنى قوله: {لا يَسْأَمُ الإنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ} وقوله: {بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِه} ".

=

قوله تعالى: {وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ} [ص: ٤٧]، أي:"وإنهم عندنا لمن الذين اصطفيناهم لرسالتنا، واخترناهم لطاعتنا".

قال الطبري:"يقول: وإن هؤلاء الذين ذكرنا عندنا لمن الذين اصطفيناهم لذكرى الآخرة الأخيار، الذين اخترناهم لطاعتنا ورسالتنا إلى خلقنا".

قال ابن كثير:"أي: لمن المختارين المجتبين الأخيار فهم أخيار مختارون".

قال مقاتل:"اختارهم الله على علم للرسالة".

قال الزجاج:"أي: الذين اتخذهم الله صفوة، صفاهم من الأدناس كلها وأخلصهم منها".

قال العثيمين:قوله تعالى: {وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ (٤٥)}.

اذكر يا محمَّد، وتذكر أيها المخاطَب هؤلاء السادة الأبرار، {وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ} إبراهيم بدل من عبادنا، بدل بعض من كل، وما عطف عليه يكمل الكل. والعبادة هنا أخصّ الخاصة، لأنهّا عبودية الرسالة والنبوة، وإبراهيم عليه الصلاة والسلام إمام الحنفاء، الذي أُمرنا باتباع ملته: {ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ} [النحل: ١٢٣]، وإسحاق ابنه، ويعقوب حفيده ابن ابنه.

قوله تعالى: {أُولِي الْأَيْدِي} قال المصنف: [أصحاب القوى في العبادة، {وَالْأَبْصَارِ (٤٥)} البصائر في الدين] يعني اذكرهم مشيرًا إلى قوتهم في الدين، لأنَّ الأيدي جمع يد والمراد باليد هنا القوة، وكذلك الأبصار أي: البصائر في دين الله، لأنهم رسل، وأبصر النَّاس في عبادة الله هم الرسل.

{وَاذْكُرْ عِبَادَنَا} قال المصنف: [وفي قراءة {عَبْدَنَا}، وإبراهيم بيان له، وما بعده عطف على عبدنا]، أي: أنَّها تقرأ بالجمع وبالإفراد، والقراءة هنا سبعية؛ لأنَّ القاعدة أن المصنف إذا قال: [وفي قراءة] فهي سبعية، وإذا قال: [قرئ] فهي شاذة.

=

ثم قال: {إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ} أي: نقيناهم وصفيناهم، لأنَّ إخلاص الشيء أن تزيل شوائبه حتَّى يبقى خالصًا، ومنه إخلاص الدين لله وهو أن تزيل عنه شوائب الشرك.

وقوله: {بِخَالِصَةٍ} بينها المصنف بقوله: [هي ذكرى الدار] أفاد المصنف أن {ذِكْرَى} هي خبر مبتدأ محذوف تقديره: هي ذكرى، ويجوز أن تكون (ذكرى) بدلًا من (خالصة) أو عطف بيان لها. والمراد بالدار هنا الآخرة، أي: ذكرى الدار الآخرة. ذكرها والعمل لها. وفي قراءة بالإضافة، أي: {بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ (٤٦)} وهي للبيان، أي الإضافة هنا بيانية على تقدير مِنْ، لأنَّ الإضافة البيانية تكون على تقدير مِنْ، كما تقول: خاتم فضة، أي: من فضة، أو تقول: ثوب خز، أي: من خز. باب خشب، أي: من خشب، وهكذا قال: {ذِكْرَى الدَّارِ} أي: الدار الآخرة، أي: تذكرها والعمل لها.

{وَإِنَّهُمْ} الضمير يعود على الثلاثة: إبراهيم وإسحاق ويعقوب {عِنْدَنَا} عند الله. والعندية هنا عندية المرتبة لا عندية المكان، لأنَّ مرتبتهم عند الله أنهم من هؤلاء {الْمُصْطَفَيْنَ}.

المصطفى اسم مفعول بمعنى المختار، وهنا {الْمُصْطَفَيْنَ} جمع مذكر سالم، ولكن فيه إشكال، وهو أن المعروف أن جمع المذكر السالم يكسر ما قبل الياء، نقول: المسلمِين والمؤمنِين والقانتِين والصابرِين والصادقِين، وهنا ما قبل الياء مفتوح، والمعروف أن الذي يفتح فيه ما قبل الياء هو المثنى، كما تقول: الرجلَيْن والمسلمَيْن والمؤمنَيْن وهكذا، فلماذا فتح ما قبل الياء في {الْمُصْطَفَيْنَ}؟ قال النحويون: لأنَّ أصله المصطفى بالألف فحذفت الألف لأنَّها ساكنة، ولأن الياء بعدها ساكنة فتحذف، كما قال ابن مالك:

إن ساكنين التقيا اكسر ما سبق ... وإن يكن لينًا فحذفه استحق

=

وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ (٤٨).

{وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيل وَالْيَسَع} وَهُوَ نَبِيّ وَاللَّام زَائِدَة {وَذَا الْكِفْل} اُخْتُلِفَ فِي نُبُوَّته قِيلَ كَفَلَ مئة نَبِيّ فَرُّوا إِلَيْهِ مِنْ الْقَتْل {وَكُلّ} أَيْ كُلّهمْ {مِنْ الْأَخْيَار} جَمْع خَيِّر بِالتَّثْقِيلِ[1].

=

فالآن التقى ألف وياء فتحذف الأولى منهما وهي هنا الألف وتبقى الفتحة دليل عليها، {الْمُصْطَفَيْنَ} يعني في العبادة والعلم والرسالة {الْأَخْيَارِ (٤٧)} [جمع خيِّر بالتشديد]، والخيِّر على وزن فيعل، وهو كثير الخير، ولا شك أن هؤلاء الرسل الثلاثة فيهم خير كثير، وجاء من نسلهم رسل كرام، وأمم من أفضل الأمم. جاء من نسل إبراهيم أمة محمد ﷺ، وهي أفضل الأمم وأكرمها عند الله.

(١)قوله تعالى: {وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ} إسماعيل ابن إبراهيم أفرده بالذكر، لأن سلالته تختلف عن سلالة إسحاق ويعقوب، فإسحاق ويعقوب سلالتهما بنو إسرائيل، وهؤلاء سلالتهم العرب، ولهذا أفرده. {وَالْيَسَعَ} وهو نبي، واللام زائدة، فإذا كانت اللام زائدة فإن الأصل هو يسع، وهو نبي ولكنه نبي رسول، لأن كل نبي ذكر في القرآن فهو رسول. {وَذَا الْكِفْلِ} مختلف في نبوته، فقيل: إنه نبي، والكفل يعني العمل والنصيب، يعني صاحب العمل الكثير والنصيب، هذا على القول بأنه رسول، أما على القول بأنه غير رسول فقد قال المصنف: [قيل: إنه كفل مئة نبي فروا إليه من القتل]، وكلمة قيل: تدل على أنه ضعيف، فالظاهر أن معنى ذا الكفل صاحب العمل الكثير، والجد والنشاط.

{وَكُلٌّ} أي: كلهم، وعلى هذا فإن التنوين عوض عن اسم كلهم {مِنَ الْأَخْيَارِ (٤٨)} [جمع خيِّر بالتثقيل]. وقول المصنف: [جمع خيِّر بالتثقيل] مثل قوله السابق: [جمع خيِّر بالتشديد].

هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ (٤٩).

{هَذَا ذِكْر} لَهُمْ بِالثَّنَاءِ الْجَمِيل هُنَا {وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ} الشَّامِلِينَ لَهُمْ {لَحُسْن مَآب} مَرْجِع فِي الآخرة.

جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ (٥٠).

{وجنات عَدْن} بَدَل أَوْ عَطْف بَيَان لَحُسْن مَآب {مُفَتَّحَة لَهُمْ الْأَبْوَاب} مِنْهَا.

مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ (٥١).

{متكئين فيها} على الأرائك {يدعون فيها بفاكهة كثيرة وشراب}.

وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ (٥٢).

{وَعِنْدهمْ قَاصِرَات الطَّرْف} حَابِسَات الْعَيْن عَلَى أَزْوَاجهنَّ {أَتْرَاب} أَسْنَانهنَّ وَاحِدَة وَهُنَّ بَنَات ثَلَاث وَثَلَاثِينَ سَنَة جَمْع تَرْب.

هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ (٥٣).

{هذا} المذكور {ما يوعدون} بِالْغِيبَةِ وَبِالْخِطَابِ الْتِفَاتًا {لِيَوْمِ الْحِسَاب} أَيْ لِأَجْلِهِ.

إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ (٥٤).

{إنَّ هَذَا لَرِزْقنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَاد} أَيْ انْقِطَاع وَالْجُمْلَة حَال مِنْ رِزْقنَا أَوْ خَبَر ثَانٍ لِإِنَّ أَيْ دَائِمًا أَوْ دَائِم[1].

---

(١)قوله تعالى: {وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ} [ص: ٤٨].

قال مقاتل:"واذكر صبر «إسماعيل» -هو أشويل بن هلقانا-، وصبر اليسع، وصبر «ذا الكفل» ".

=

=

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره لنبيه ﷺ: واذكر يا محمد إسماعيل واليسع وذا الكفل، وما أبلوا في طاعة الله، فتأسَّ بهم، واسلك منهاجَهم في الصبر على ما نالك في الله، والنفاذ لبلاغ رسالته".

قال البغوي:"{وإسماعيل} وهو ولد إبراهيم، {واليسع} وهو ابن أخطوب بن العجوز، {ويونس} وهو يونس بن متى، {ولوطا} وهو لوط بن هاران بن أخي إبراهيم".

عن إبراهيم أنه قرأ: «وَاللَّيْسَعَ» بلامين، وبالتشديد".

وفي قوله تعالى: «وَذَا الْكِفْلِ»، قولان:

أحدهما: أنه كان عبدا صالحا، ولم يكن نبيا. قاله أبو موسى الأشعري، ومجاهد.

وفي تسميته: «ذو الكفل»، ثلاثة أقوال:

أحدها: أن رجلا كان يصلي كل يوم مائة صلاة فتوفي، فكفل بصلاته، فسمي: ذا الكفل، قاله أبو موسى الأشعري.

الثاني: أنه تكفل للنبي بقومه أن يكفيه أمرهم ويقيمه ويقضي بينهم بالعدل ففعل، فسمي: ذا الكفل، قاله مجاهد.

وقال ابن عباس:"كان قاض في بني إسرائيل، فحضره الموت فقال: من يقوم مقامي على إن لا يغضب؟ قال: فقال رجل: أنا فسمى ذا الكفل قال: فكان ليله جميعا يصلي، ثم يصبح صائما فيقضي بين الناس. قال: وله ساعة يقيلها قال: فكان كذلك، فأتاه الشيطان عند نومته فقال له أصحابه: مالك؟ قال: إنسان مسكين له على رجل حق، وقد غلبني عليه، قالوا: كما أنت حتى يستيقظ، قال: وهو فوق نائم- قال: فجعل يصيح عمدا حتى يوقظه قال: فسمع، فقال: مالك؟ قال: إنسان مسكين، له على رجل حق قال: اذهب فقل له: يعطيك، قال: قد أبي قال: اذهب أنت إليه قال: فذهب، ثم جاء من الغد فقال: مالك؟ قال: ذهبت إليه

=

فلم يرفع بكلامك رأسا. قال: اذهب إليه فقل له: يعطيك حقك، قال: فذهب، ثم جاء من الغد حين قال: قال: فقال له أصحابه: اخرج فعل الله بك، تجيء كل يوم حين ينام، لا تدعه ينام؟ فجعل يصيح: من أجل أني إنسان مسكين لو كنت غنيا؟ قال: فسمع أيضا، فقال: مالك؟ قال: ذهبت إليه فضربني، قال: امش حتى أجئ معك قال: فهو ممسك بيده فلما راه ذهب معه نثر يده منه ففر".

الثالث: أن ملكا قتل في يوم ثلاثمائة نبي، وفر منه مائة نبي، فكفلهم ذو الكفل يطعمهم ويسقيهم حتى أفلتوا، فسمي ذا الكفل، قاله ابن السائب.

القول الثاني: أنه كان نبيا، قاله الحسن، وعطاء.

قال عطاء: "أوحى الله تعالى إلى نبي من الأنبياء: إني أريد قبض روحك، فاعرض ملكك على بني إسرائيل، فمن تكفل لك بأنه يصلي الليل لا يفتر، ويصوم النهار لا يفطر، ويقضي بين الناس ولا يغضب، فادفع ملكك إليه، ففعل ذلك، فقام شاب فقال: أنا أتكفل لك بهذا، فتكفل به، فوفى، فشكر الله له ذلك، ونبأه، وسمي: ذا الكفل".

قوله تعالى: {وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ} [ص: ٤٨]، أي:"إن كلا منهم من الأخيار الذين اختارهم الله من الخلق، واختار لهم أكمل الأحوال والصفات".

قال الزجاج:"المعنى: وكل هؤلاء المذكورين من الأخيار".

قال مقاتل:"اختارهم الله- عز وجل- للنبوة فاصبر يا محمد على الأذى كما صبر هؤلاء الستة على البلاء".

قوله تعالى: {هَـذَا ذِكْرٌ} [ص: ٤٩]، أي:"هـذا القرآن ذِكْر وشرف لك -أيها الرسول- ولقومك".

قال مقاتل:"يعني: هذا بيان الذي ذكر الله من أمر الأنبياء في هذه السورة".

قال ابن كثير:"أي: هذا فصل فيه ذكر لمن يتذكر".

=

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: هذا القرآن الذي أنزلناه إليك يا محمد ذكر لك ولقومك، ذكرناك وإياهم به".

قال القشيري:"أي: هذا القرآن فيه ذكر ما كان، وذكر الأنبياء والقصص، ويقال إنّه شرف لك لأنه معجزة تدل على صدقك".

عن السديّ: " {هَذَا ذِكْرٌ}، قال: القرآن".

قال الزمخشري:"أى: هذا نوع من الذكر وهو القرآن، لما أجرى ذكر الأنبياء وأتمه، وهو باب من أبواب التنزيل، ونوع من أنواعه، وأراد أن يذكر على عقبه بابا آخر، وهو ذكر الجنة وأهلها، «١» قال: هذا ذكر، ثم

قال: {وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ}، كما يقول الجاحظ في كتبه: فهذا باب، ثم يشرع في باب آخر، ويقول الكاتب إذا فرغ من فصل من كتابه وأراد الشروع في آخر: هذا وقد كان كيت وكيت، والدليل عليه: أنه لما أتم ذكر أهل الجنة وأراد أن يعقبه بذكر أهل النار. قال: {هذا وإن للطاغين}. وقيل: معناه هذا شرف وذكر جميل يذكرون به أبدا".

قوله تعالى: {وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ} [ص: ٤٩ - ٥٠]، أي:"وإن لأهل تقوى الله وطاعته لَحسنَ مصير عندنا في جنات إقامة، مفتَّحة لهم أبوابها".

قال الطبري:"يقول: وإن للمتقين الذين اتقوا الله فخافوه بأداء فرائضه، واجتناب معاصيه، لحسنَ مَرْجع يرجعون إليه في الآخرة، ومَصِير يصيرون إليه: بساتينُ إقامة مفتحة لهم أبوابها".

قال القشيري:"وإن للذين يتّقون المعاصي لحسن المنقلب، [جنات عدن] إذا جاءوها لا يلحقهم ذلّ الحجاب، ولا كلفة الاستئذان، تستقبلهم الملائكة بالترحاب والتبجيل".

=

قال ابن كثير:"يخبر تعالى عن عباده المؤمنين السعداء أن لهم في الدار الآخرة {لَحُسْنَ مَآبٍ} وهو: المرجع والمنقلب. ثم فسره بقوله: {جَنَّاتِ عَدْنٍ}، أي: جنات إقامة مفتحة لهم الأبواب. والألف واللام -هنا-بمعنى الإضافة، كأنه يقول: «مفتحة لهم أبوابها»، أي: إذا جاءوها فتحت لهم أبوابها".

قال مقاتل:"{وإن للمتقين} من هذه الأمة في الآخرة {لحسن مآب}، يعني: مرجع".

عن السديّ، قوله: " {وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ}، قال: لحسن منقلب".

عن الحسن:"أبواب يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها، يقال لها: انفتحي، انقفلي، تكلم فتفهم وتتكلم".

عن الوليد بن مسلم قال: سألت زهير بن محمد عن قوله- تعالى-: {ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا}، قال: ليس فى الجنة ليل، هم في نور أبدا ولهم مقدار الليل بإرخاء الحجب ومقدار النهار".

عن عبد الله بن عمرو، قال: قال رسول الله ﷺ: "إن في الجنة قصرا يقال له: "عدن" حوله البروج والمروج له خمسة آلاف باب عند كل باب خمسة آلاف حبَرَة لا يدخله - أو: لا يسكنه - إلا نبي أو صديق أو شهيد أو إمام عدل".

قوله تعالى: {مُتَّكِئِينَ فِيهَا} [ص: ٥١]، أي:"متكئين فيها على الأرائك المزيَّنات".

قال الطبري:"يقول: متكئين في جنات عدن، على سُرر".

قال ابن كثير:"قيل: متربعين فيها على سرر تحت الحجال".

قوله تعالى: {يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ} [ص: ٥١]، أي:"يطلبون ما يشتهون من أنواع الفواكه الكثيرة والشراب".

قال الطبري:"يدعون فيها بثمار من ثمار الجنة كثيرة، وشراب من شرابها".

قال ابن كثير:"{بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ}، أي: مهما طلبوا وجدوا وحضر كما أرادوا. {وَشَرَابٍ} أي: من أي أنواعه شاءوا أتتهم به الخدام {بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ} [الواقعة: ١٨] ".

قوله تعالى: {وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ (٥٢)} [ص: ٥٢].

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: عند هؤلاء المتقين الذين أكرمهم الله بما وصف في هذه الآية من إسكانهم جنات عدن، نساء قصرت أطرافهنّ على أزواجهنّ، فلا يردن غيرهم، ولا يمددن أعينهن إلى سواهم، وقوله {أَتْرَابٌ}، يعني: أسنان واحدة".

قال ابن كثير:"{وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ}، أي: عن غير أزواجهن فلا يلتفتن إلى غير بعولتهن {أَتْرَابٌ}، أي: متساويات في السن والعمر".

قال قتادة:"قصرن طرفهم على أزواجهم، فلا يردن غيرهم".

قال السدي:"قصرن أبصارهنّ وقلوبهنّ وأسماعهنّ على أزواجهنّ، فلا يردن غيرهم".

عن ابن عباس:"{أَتْرَابٌ}، قال: أمثال". وروي عن مجاهد مثله.

عن السديّ: " {أَتْرَابٌ}، قال: مستويات".

عن قتادة: " {أَتْرَابٌ}: سن واحدة".

قال القشيري:"«أَتْرابٌ»: لدات مستويات في الحسن والجمال والشكل".

قال الزمخشري:"وإنما جعلن على سنّ واحدة، لأن التحاب بين الأقران أثبت. وقيل: هنّ أتراب لأزواجهن، أسنانهنّ كأسنانهم".

قوله تعالى: {هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ} [ص: ٥٣].

قال السدي:"هو في الدنيا ليوم القيامة".

=

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: هذا الذي يعدكم الله في الدنيا أيها المؤمنون به من الكرامة لمن أدخله الله الجنة منكم في الآخرة".

قال الزمخشري:"هذا ما تدخرونه ليوم تجزى كل نفس ما عملت".

قال القرطبي:"أي: هذا الجزاء الذي وعدتم به".

قال ابن كثير:"أي: هذا الذي ذكرنا من صفة الجنة التي وعدها لعباده المتقين التي يصيرون إليها بعد نشورهم وقيامهم من قبورهم وسلامتهم من النار ".

وقراءة العامة: «ما توعدون» بالتاء، أيها المؤمنون. وقرأ ابن كثير وابن محيصن وأبو عمرو ويعقوب: {ما توعدون}، بالياء على الخبر، وهي قراءة السلمي واختيار أبي عبيد وأبي حاتم، لقوله تعالى:"وإن للمتقين لحسن مآب" فهو خبر.

قوله تعالى: {إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ} [ص: ٥٤].

قال الطبري: يقول:"إن هذا الذي أعطينا هؤلاء المتقين في جنَّات عدن من الفاكهة الكثيرة والشراب، والقاصرات الطرف، ومكنَّاهم فيها من الوصول إلى اللّذات وما اشْتهته فيها أنفسهم لرزقنا، رزقناهم فيها كرامة منا لهم، ليس له عنهم انقطاع ولا له فناء، وذلك أنهم كلما أخذوا ثمرة من ثمار شجرة من أشجارها، فأكلوها، عادت مكانها أخرى مثلها، فذلك لهم دائم أبدا، لا ينقطع انقطاع ما كان أهل الدنيا أوتوه فى الدنيا، فانقطع بالفناء، ونَفِد بالإنفاد".

قال ابن كثير:"أخبر عن الجنة أنه لا فراغ لها ولا انقضاء ولا زوال ولا انتهاء فقال: {إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ} كقوله تعالى: {مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللهِ بَاقٍ} [النحل: ٩٦] وكقوله {عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ} [هود: ١٠٨]، وكقوله {لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ} [فصلت: ٨] أي: غير مقطوع، وكقوله: {أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ} [الرعد: ٣٥] والآيات في هذا كثيرة جدا".

قال الزجاج:"أعلم الله - عز وجل - أن نعيم أهل الجنة غير منقطع".

=

=

عن قتادة: " {مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ}، أي: ما له انقطاع".

قال السدي:"رزق الجنة، كلما أخذ منه شيء عاد مثله مكانه، ورزق الدنيا له نفاد".

قال العثيمين: قوله تعالى: {هَذَا ذِكْرٌ} قال المصنف: [لهم بالثناء الجميل هنا {وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ} الشاملين لهم {لَحُسْنَ مَآبٍ (٤٩)} مرجع في الآخرة].

قوله: {هَذَا ذِكْرٌ} يحتمل ما قال المصنف، أي: أن هذا ذكر لهؤلاء السادة بالثناء الجميل، ويحتمل أن المراد هذا ذكر للناس، أي: تذكير لهم، كما قال الله تعالى في أول السورة: {ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ (١)} وهذا الأخير أرجح، يعني هذا المذكور في آخر السورة ذكر لجميع الناس، ثم الناس ينقسمون إلى متَّقٍ وغير متَّقٍ {وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ} ومنهم الرسل بل سادة المتقين وعلى رؤوسهم، {لَحُسْنَ مَآبٍ (٤٩)} أي: مرجع، وهنا قال: {لَحُسْنَ} وفيه إشكال حيث إنه منصوب مع دخول اللام عليه، وهي لام الابتداء، وتسمى باللام المزحلقة دخلت على "حسن" اسم "إن" مؤخر، و {لِلْمُتَّقِينَ}: خبر مقدم.

{جَنَّاتِ عَدْنٍ}: بدل أو عطف بيان {لَحُسْنَ مَآبٍ (٤٩)} ولهذا نصبت (جَنَّاتِ} لكن نصبت بالكسرة نيابة عن الفتحة، والجنة في الأصل البستان الكثير الأشجار، سمّي به لأن يَجُنُّ مَن كان فيه أي: يستره، والمراد بها دار النعيم التي أعدها الله للمتقين في الآخرة، وعدن بمعنى إقامة، أي: الجنات التي يقيم فيها ساكنها ولا يتحول عنها، ولا يبغي عنها حولًا، ولا يرى أن لغيره فضلًا عليه، كلّ واحد من أهل الجنة يرى أنه لا فضل لأحد عليه، وهذا هو تمام النعيم، لأن الإنسان إذا رأى أن غيره أفضل منه احتقر ما أعطاه الله، ولهذا قال النبي ﷺ: "انظروا إلى من هو أسفل منكم ولا تنظروا إلى من هو فوقكم".

=

=

قال: {جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ (٥٠)} مفتحة ولم يقل: مفتوحة، وذلك لكثرة الفاتحين أو لكثرة الأبواب أو لهما جميعًا. فعلى الأول كثرة الفاتحين، يكون المعنى أن لهم خدمًا كثيرين يفتحون لهم الأبواب، وعلى الثاني يدل على أن أبوابها كثيرة لكثرة من يدخلها. ومن المعلوم أن أبواب الجنة الأصلية الكبيرة ثمانية، ولكن هناك غرف في وسط الجنة تجري من تحتها الأنهار لها أبواب فتفتح لهم الأبواب.

{مُتَّكِئِينَ فِيهَا} أي: في هذه الجنات، والاتكاء يدل على الهدوء والطمأنينة وعدم القلق، وأيضًا يدل على أن الإنسان ذو سلطان يُخدمَ ولا يَخدِم. وقوله: {فِيهَا} أي: في الجنات. وبيَّن المصنف على أي شيء يتكئون فقال: [على الأرائك]، كما جاء ذلك في آيات أخرى.

{يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ} يدعون، أي: يطلبون يعني يقولون: هاتوا فاكهة {كَثِيرَةٍ} كثيرة النوع وكثيرة العين، أي: أنواع كثيرة، وكذلك أعيان كثيرة. لو تطلب أيّما تطلب حصل لك. {وَشَرَابٍ (٥١)}: هذا الشراب بيَّن الله أنواعه وأجناسه بأنه أربعة {فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى} [محمد: ١٥] هذه أربعة أنواعٍ من شراب الجنة، ولكن هذه الأصناف تختلف عما في الدنيا اختلافا عظيمًا، أي: فلا تظن أن الماء كالماء الذي في الدنيا، أو أن العسل كالعسل الذي في الدنيا، أو أن اللبن كاللبن الذي في الدنيا، أو أن الخمر كالخمر الذي في الدنيا، بل تختلف اختلافًا عظيمًا لقوله تعالى: {فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ} [السجدة: ١٧] ولو كان لا يختلف لكنا نعلم هذا، وقال الله تعالى في الحديث القدسي: "أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر" اللهم اجعلنا من أهلها.

=

=

{وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ} قال المصنف: [حابسات العين على أزواجهن] قاصرات الطرف، أي: حابسات، والطرف: النظر، أي: أنهن يقصرن النظر على أزواجهن. هذا معنى من المعاني. والمعنى الثاني: قاصرات طرف أزواجهن فلا ينظر أزواجهن إلى غيرهن، والفرق بينهما ظاهر، ولكن اللفظ صالح للأمرين، فهن قاصرات طرفهن لا ينظرن إلى غير أزواجهن، وهن قاصرات طرف أزواجهن، فلا ينظر أزواجهن إلى غيرهن أما نساء الدنيا فإن بعض النساء إذا خرجت إلى السوق أخذت تنظر إلى الرجال، وتقارن بين هذا الرجل وبين زوجها، وكذلك الرجل إذا خرج إلى السوق فبعض الرجال يتطلع إلى النساء ويقارن بين مَن يرى من النساء وبين زوجته، وتجده إذا وجد من النساء من هي أجمل من امرأته انشغل قلبه بها، وأعرض عن امرأته، وزهد فيها، ولهذا كان من الحكمة العظيمة وجوب ستر الوجه لأن الرجل إذا لم ير وجه المرأة لم يتغير نظره بالنسبة إلى امرأته، لكن إذا رأى امرأة كالشمس، وزوجته على خلاف ذلك، تعلق قلبه بهذه المرأة التي كالشمس، وزهد في امرأته.

{أَتْرَابٌ (٥٢)} يعني أنهن على سن واحدة شابات بنات ثلاث وثلاثين سنة. كذلك أهل الجنة يدخلون الجنة وهم أبناء ثلاث وثلاثين سنة، ولا يتغير أحد منهم، يبقى على ما هو عليه، وكونهن أتراب يقال: إنهن أتراب في السن، وأتراب في الجمال، وفي كل شيء، لئلا يميل الإنسان إلى من فاقت غيرها، ويكون نظره إليهن على حد سواء.

قال الله تعالى: {هَذَا مَا تُوعَدُونَ} قال المصنف: في القراءات في {تُوعَدُونَ} [بالغيبة والخطاب التفاتًا]، الخطاب (ما توعدون)، والغيبة (ما يوعدون)، والقراءتان سبعيتان قال المصنف: [التفاتًا] أيهم الذي فيه التفات الغيبة أم الخطاب؟ قال تعالى: {هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ (٤٩) جَنَّاتِ عَدْنٍ

=

=

مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ (٥٠)} لهم غيبة {مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ (٥١)} يدعون غيبة {وَعِنْدَهُمْ} غيبة إذًا الالتفات في أي شيء؟ الالتفات في الخطاب {هَذَا مَا تُوعَدُونَ} يعني يقال لهم: {هَذَا مَا تُوعَدُونَ} على ضمير الخطاب وعلى ضمير الغيبة يكون هذا خبر من الله عز وجل بأن المذكور هو الذي يوعدون به يوم القيامة.

{لِيَوْمِ الْحِسَابِ (٥٣)} قال المصنف رحمه الله: [أي: لأجله] هذا ما مشى عليه المصنف، أي: أن اللام في قوله: {لِيَوْمِ} للتعليل، ولكن الصحيح أن اللام للتوقيت فهي كقوله تعالى: {فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ} [الطلاق: ١] فاللام هنا بمعنى "في" لأنها للتوقيت، أي: هذا ما توعدون في ذلك اليوم {لِيَوْمِ الْحِسَابِ (٥٣)} وهو يوم القيامة، وسمي يوم الحساب، لأن الناس يحاسبون فيه على أعمالهم.

قال: {إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ (٥٤)} إنّ هذا يعني المشار إليه ما ذكر من نعيم الجنة {لَرِزْقُنَا} لعطاؤنا، واللام في قوله: {لَرِزْقُنَا} للتوكيد، {مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ (٥٤)} من: حرف جر زائد لفظًا ومعنًى، نفاد: اسم مجرور لفظًا بـ "من" في محل رفع مبتدأ مؤخر. {مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ (٥٤)} أي: انقطاع، و"ما" هنا يتفق فيها التميميون والحجازيون لتقدم الخبر، ولا تكون ما حجازية إلا مع الترتيب، لقول ابن مالك:

إعمالَ ليس أُعمِلَتْ ما دونَ إنْ ... مع بقا النفي وترتيبٍ زُكِنْ

قال المصنف: {مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ} أي: انقطاع، والجملة حال من (رزقنا) أو خبر ثانٍ لـ"إن" أي: دائمًا أو دائم]. اختصار شديد من المصنف رحمه الله. والجملة حال من (رزقنا) وعلى هذا يكون المعنى {مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ} أي: انقطاع، دائمًا، أو نقول: خبر ثانٍ لـ"إن" هذا لرزقنا، إن هذا ما له من نفاد، ويكون التقدير دائم إذًا في الكلام لف ونشر مرتب.

هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ (٥٥).

{هذا} المذكور للمؤمنين {وإن للطاغين} مستأنف {لشر مآب}.

جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ (٥٦).

{جَهَنَّم يَصْلَوْنَهَا} يَدْخُلُونَهَا {فَبِئْسَ الْمِهَاد} الْفِرَاش.

هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ (٥٧).

{هَذَا} أَيْ الْعَذَاب الْمَفْهُوم مِمَّا بَعْده {فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيم} أَيْ مَاء حَارّ مُحْرِق {وَغَسَّاق} بِالتَّخْفِيفِ وَالتَّشْدِيد مَا يَسِيل مِنْ صَدِيد أَهْل النَّار.

وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ (٥٨).

{وَآخَر} بِالْجَمْعِ وَالْإِفْرَاد {مِنْ شَكْله} أَيْ مِثْل الْمَذْكُور مِنْ الْحَمِيم وَالْغَسَّاق {أَزْوَاج} أَصْنَاف أَيْ عَذَابهمْ مِنْ أَنْوَاع مُخْتَلِفَة.

هَذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُو النَّارِ (٥٩).

وَيُقَال لَهُمْ عِنْد دُخُولهمْ النَّار بِأَتْبَاعِهِمْ {هَذَا فوج} جمع {مقتحم} دَاخِل {مَعَكُمْ} النَّار بِشِدَّةٍ فَيَقُول الْمُتَّبِعُونَ {لَا مرحبا بهم} أي لا سعة عليهم {إنهم صالو النار}.

قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ (٦٠).

{قَالُوا} أَيْ الْأَتْبَاع {بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ} أَيْ الْكُفْر {لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَار} لَنَا وَلَكُمْ النَّار.

قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ (٦١).

{قَالُوا} أَيْضًا {رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا} أَيْ مِثْل عَذَابه عَلَى كفره {في النار}.

وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ (٦٢).

{وَقَالُوا} أَيْ كُفَّار مَكَّة وَهُمْ فِي النَّار {مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدّهُمْ} في الدنيا {من الأشرار}.

أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ (٦٣).

{أَتَّخَذْنَاهُمْ سُخْرِيًّا} بِضَمِّ السِّين وَكَسْرهَا كُنَّا نَسْخَر بِهِمْ فِي الدُّنْيَا وَالْيَاء لِلنَّسَبِ أَيْ أَمَفْقُودُونَ هُمْ {أَمْ زَاغَتْ} مَالَتْ {عَنْهُمُ الْأَبْصَار} فَلَمْ تَرَهُمْ وَهُمْ فُقَرَاء الْمُسْلِمِينَ كَعَمَّارٍ وَبِلَال وَصُهَيْب وسلمان.

إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ (٦٤).

{إِنَّ ذَلِكَ لَحَقّ} وَاجِب وُقُوعه وَهُوَ {تَخَاصُم أَهْل النَّار} كَمَا تَقَدَّمَ[1].

---

(١)قوله تعالى: {هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ (٥٥) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا} [ص: ٥٥ - ٥٦].

قال الطبري: يقول:"{هذا} الذي وصفت لهؤلاء المتقين. وإن للكافرين لشرَّ مَصِير يصيرون إليه يوم القيامة، لأن مصيرهم إلى جهنم، وإليها منقلبهم بعد وفاتهم".

عن السديّ: " {وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ}، قال: لشرَّ مُنْقَلَب".

قوله تعالى: {فَبِئْسَ الْمِهَادُ} [ص: ٥٦]، أي:"فبئس الفراش فراشهم".

قال الطبري: يقول:"فبئس الفراش الذي افترشوه لأنفسهم جهنم".

قال مقاتل:"ما مهدوا لأنفسهم من العذاب".

قوله تعالى: {هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ} [ص: ٥٨].

قال الطبري: يقول:"هذا حميم- وهو الذي قد أغلي حتى انتهى حرّه- وغساق فَلْيذوقوه".

قال السدي:"الحميم: الذي قد انتهى حَرُّه".

=

=

قال ابن زيد:"الحميم دموع أعينهم، تجمع في حياض النار فيسقونه".
واختلف في قوله تعالى: {وَغَسَّاقٌ} [ص: ٥٨]، على أقوال:
أحدها: أنه ما يسيل من جلودهم من الصديد والدم. ورواه الضحاك عن ابن عباس، وعبد الله بن عمرو، وبه قال قاله قتادة، وابن زيد.
قال ابن زيد:"«الغساق»: الصديد الذي يجمع من جلودهم مما تصهرهم النار في حياض يجتمع فيها فيسقونه".
وقال عبد الله بن عمرو: "هو القَيْح الغليظ، لو أن قطرة منه تُهَرَاق في المغرب لأنتنت أهل المشرق، ولو تُهَرَاق في المشرق لأنتنت أهل المغرب".
الثاني: أنه ما يسيل من دموعهم، يسقونه مع الحميم. قاله السدي.
وقال إبراهيم:"«الغسَّاق»: ما يسيل من سُرْمهم، وما يسقط من جلودهم".
الثالث: أن «الغساق»: عين في جهنم يسيل إليها حُمَّةُ كل ذات حُمَة من حية أو عقرب أو غيرها، فيستنقع فيؤتي بالآدمي، فيُغْمَس فيها غمسة واحدة، فيخرج وقد سقط جلده ولحمه عن العظام. حتى يتعلق جلده في كعبيه وعقبيه، وينجر لحمه كجر الرجل ثوبه. قاله كعب.
الرابع: أن «الغساق»: البارد الذي لا يستطاع من برده. قاله مجاهد، والضحاك.
وقال الضحاك:"الغسَّاق: أبرد البرد".
وروي ابن ابي طلحة عن ابن عباس: أنه «الزهمرير».
الخامس: انه المُنْتِن. قاله عبد الله بن بُرَيدة.
عن أبي سعيد الخدريّ، أن النبيّ ﷺ قال:"لَوْ أنَّ دَلْوًا مِنْ غَسَّاقٍ يُهَراقُ فِي الدُّنْيا لأنْتَنَ أهْلَ الدُّنْيا".

=

=

قال الطبري:"وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب قول من قال: هو ما يسيل من صديدهم، لأن ذلك هو الأغلب من معنى الغُسُوق، وإن كان للآخر وجه صحيح".

قوله تعالى: {وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ} [ص: ٥٨]، أي:"ولهم عذاب آخر من هذا القبيل أصناف وألوان".

عن ابن عباس، قوله:"{وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ}، يقول: من نحوه".

عن ابن زيد، قوله: {وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ}، قال:"من كُلّ شَكْلٍ ذلك العذاب الذي سمي الله، أزواج لم يسمها الله، قال: والشَّكل: الشبيه"، قوله:"{أَزْوَاجٌ} قال: أزواج من العذاب في النار".

عن قتادة: " {أَزْوَاجٌ}: زوج زوج من العذاب".

عن الحسن، قوله: " {وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ}، قال: ألوان من العذاب".

قال الحسن:"ذكر الله العذاب، فذكر السلاسل والأغلال، وما يكون في الدنيا، ثم قال: {وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ}، قال: وآخر لم ير في الدنيا".

عن عبد الله: " {وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ}، قال: الزمهرير".

قوله تعالى: {هَذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ} [ص: ٥٩].

عن سفيان بن عيينة:": {هَذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ}، داخل معكم".

عن ابن زيد، قوله: " {هَذا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ لا مَرْحَبًا بِهِمْ}، قال: الفوج: القوم الذين يدخلون فوجًا بعد فوج. وقرأ: {كُلَّما دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَها} [الأعراف: ٣٨] التي كانت قبلها".

قال الطبري: يعني:"هذا فرقة وجماعة مقتحمة معكم أيها الطاغون النار- وذلك دخول أمة من الأمم الكافرة بعد أمة- ويعني بقولهم: {لا مَرْحَبًا بِهِمْ} لا اتسعت بهم مداخلهم".

=

=

قال السمعاني:"أي: فوج مقتحم معكم بعد الفوج الأول، والاقتحام: هو الدخول".

قال الزمخشري: أي:"هذا جمع كثيف قد اقتحم معكم النار، أي: دخل النار في صحبتكم وقرانكم، والاقتحام: ركوب الشدة والدخول فيها. والقحمة: الشدة".

قال ابن كثير:"هذا إخبار عن قيل أهل النار بعضهم لبعض كما قال تعالى: {كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا} [الأعراف: ٣٨] يعني بدل السلام يتلاعنون ويتكاذبون ويكفر بعضهم ببعض فتقول الطائفة التي تدخل قبل الأخرى إذا أقبلت التي بعدها مع الخزنة من الزبانية: {هَذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ} أي: داخل معكم {لا مَرْحَبًا بِهِمْ.. } ".

قال ابن الجوزي:"الفوج: الجماعة من الناس وجمعه: أفواج. والمقتحم: الداخل في الشيء رميا بنفسه".

قال أبو عبيدة:"تقول العرب للرجل: لا مرحبا بك، أي: لا رحبت عليك، أي: لا اتسعت. قال أبو الأسود:

إذا جئت بوّابا له قال مرحبا... ألا مرحب واديك غير مضيّق".

قال ابن السائب: "إنهم يضربون بالمقامع، فيلقون أنفسهم في النار ويثبون فيها خوفا من تلك المقامع".

قال الشوكاني:"وهذا إخبار من الله سبحانه بانقطاع المودة بين الكفار، وأن المودة التي كانت بينهم تصير عداوة".

وفي القائل {هَذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ} [ص: ٥٩]، أقوال:

أحدها: الملائكة قالوا لبني إبليس لما تقدموا في النار هذا فوج مقتحم معكم إشارة لبني آدم حين دخلوها. قال بنو إبليس {لا مرحَبًا بهم إنهم صالوا النار}، {قالوا}، -أي: بنو آدم- {بل أنتم لا مرحبًا بكم أنتم قدمتموه لنا فبئس القرار}.

=

=

وحكي السمعاني: " الفوج الأول هم بنو إسرائيل، والفوج الثاني هم بنو آدم ".

الثاني: أن الله قال للفوج الأول حين أمر بدخول الفوج الثاني: {هذا فوج مقتحم معكم}، فأجابوه: {لا مرحبًا بهم إنهم صالوا النار}، فأجابهم الفوج الثاني: {بل أنتم لا مرحبًا بكم أنتم قدمتموه لنا}.

الثالث: أنه قول الملائكة لأهل النار كلما جاءوهم بأمة بعد أمة.

قال الفراء:"هي الأمة تدخل بعد الأمة النار".

قال ابن زيد:"الفوج: القوم الذين يدخلون فوجا بعد فوج، وقرأ: {كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا} التي كانت قبلها".

عن قتادة، قوله:" {هَذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ} في النار، {لا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لا مَرْحَبًا بِكُمْ}.. حتى بلغ: {فَبِئْسَ الْقَرَارُ}، قال: هؤلاء التباع يقولون للرءوس".

الرابع: أنه قول الزبانية للقادة المتقدمين في الكفر إذا جاءوهم بالأتباع.

قال الزجاج:"الفوج: هم تباع الرؤساء وأصحابهم في الضلالة".

قال مقاتل:"القادة فى الكفر المطعمين في غزاة بدر والمستهزئين من رؤساء قريش دخلوا النار قبل الأتباع، فقالت الخزنة للقادة وهم في النار: {هذا فوج}، يعني: زمرة، {مقتحم معكم}، النار إضمار يعنون: الأتباع. قالت القادة: لا مرحبا بهم".

قال الزمخشري:"هذه حكاية كلام الطاغين بعضهم مع بعض، أي: يقولون هذا. والمراد بالفوج: أتباعهم الذين اقتحموا معهم الضلالة، فيقتحمون معهم العذاب، {لا مَرْحَبًا بِهِمْ}، دعاء منهم على أتباعهم. تقول لمن تدعو له: مرحبا، أي: أتيت رحبا من البلاد لا ضيقا: أو رحبت بلادك رحبا، ثم تدخل عليه «لا» في دعاء السوء وبِهِمْ بيان للمدعو عليهم".

=

=

قوله تعالى: {إِنَّهُمْ صَالُو النَّارِ} [ص: ٥٩]، أي:"إنهم مقاسون حرَّ النار كما قاسيناها".

قال مقاتل:"قال الخزنة: {إنهم صالوا النار} معكم".

قال الطبري:"يقول: إنهم واردو النار وداخلوها".

قال البغوي:"أي: داخلوها كما صلينا".

قال ابن كثير:"أي: لأنهم من أهل جهنم".

قال الزمخشري:"تعليل لاستيجابهم للدعاء عليهم، قيل: {هذا فوج مقتحم معكم}: كلام الخزنة لرؤساء الكفرة في أتباعهم. {ولا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صالُوا النَّارِ} كلام الرؤساء. وقيل: هذا كله كلام الخزنة ".

قوله تعالى: {قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا} [ص: ٦٠].

قال البغوي:"يقول الأتباع للقادة: أنتم بدأتم بالكفر قبلنا، وشرعتم وسننتموه لنا. وقيل: أنتم قدمتم هذا العذاب لنا، بدعائكم إيانا إلى الكفر".

قال ابن كثير:"أي: فيقول لهم الداخلون: {بَلْ أَنْتُمْ لا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا} أي: أنتم دعوتمونا إلى ما أفضى بنا إلى هذا المصير".

قال الزمخشري:"يريدون الدعاء الذي دعوتم به علينا أنتم أحق به، وعللوا ذلك بقولهم: {أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنا} ".

قوله تعالى: {فَبِئْسَ الْقَرَارُ} [ص: ٦٠]، أي:"فبئس دار الاستقرار جهنم".

قال الطبري:"يقول: فبئس المكان يُسْتَقَرُّ فيه جهنم".

قال البغوي:"أي: فبئس دار القرار جهنم".

قال ابن كثير:"أي: فبئس المنزل والمستقر والمصير".

قوله تعالى: {قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ (٦١)} [ص: ٦١].

=

=

قال الطبري:"وهذا أيضا قول الفوج المقتحم على الطاغين، وهم كانوا أتباع الطاغين في الدنيا، يقول جل ثناؤه: وقال الأتباع: {رَبَّنَا}: من قدم لنا هذا العذاب الذي وردناه، فأضعف له العذاب في النار على العذاب الذي هو فيه فيها، وهذا أيضا من دعاء الأتباع للمتبوعين".

قال السمعاني:"أي: قال الأتباع: ربنا من قدم لنا هذا؟ فضاعف عليه العذاب في النار".

قال الواحدي:"قالت الأتباع: {ربنا من قدم لنا هذا} من شرع وسن لنا هذا الكفر، {فزده عذابا ضعفا}، أي: مضاعفا، أي: زدهم على عذابهم عذابا آخر في النار".

قال القشيري:"فيقال لهم: كلّكم فيها، ولن يفتر العذاب عنكم".

قال الزجاج:"أي: زده على عذابه عذابا آخر، ودليل هذا قوله تعالى: {رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا (٦٧) رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ} [الاحزاب: ٦٧ - ٦٨]، ومعنى «صعفين» معنى: «فزده عذابا ضعفا» ".

عن مجاهد:"{عذابا ضعفا}، قال: مضاعفا".

عن ابن مسعود، قوله: " {فزده عذابا ضعفا في النار}، قال: أفاعي وحيات".

قوله تعالى: {وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ} [ص: ٦٣].

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: قال الطاغون الذين وصف جلّ ثناؤه صفتهم في هذه الآيات، وهم فيما ذُكر أبو جهل والوليد بن المُغيرة وذووهما: ما بالنا لا نرى معنا في النار رجالا كنا نعدهم في الدنيا من أشرارنا، وعنوا بذلك فيما ذُكر صُهَيْبا وخَبَّابا وبِلالا وسَلْمان".

قال مقاتل:"يعنون فقراء المؤمنين: عمار، وخباب، وصهيب، وبلال، وسالم، ونحوهم".

=

=

قال الزمخشري:"يعنون فقراء المسلمين الذين لا يؤبه لهم، {مِنَ الْأَشْرارِ}: من الأراذل الذين لا خير فيهم ولا جدوى، ولأنهم كانوا على خلاف دينهم، فكانوا عندهم أشرارا".

قال ابن كثير:"هذا إخبار عن الكفار في النار أنهم يفقدون رجالا كانوا يعتقدون أنهم على الضلالة وهم المؤمنون في زعمهم قالوا: ما لنا لا نراهم معنا في النار؟.. فكل الكفار هذا حالهم: يعتقدون أن المؤمنين يدخلون النار فلما دخل الكفار النار افتقدوهم فلم يجدوهم فقالوا: {مَا لَنَا لا نَرَى رِجَالا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الأَشْرَارِ} ".

قال مجاهد:"ذاك أبو جهل بن هشام والوليد بن المغيرة، وذكر أناسا صُهيبا وَعَمَّارًا وخبابا، كنَّا نعدّهم من الأشرار في الدنيا".

وقال مجاهد:"قالوا: أين سَلْمان؟ أين خَبَّاب؟ أين بِلال؟ ".

عن قتادة: قوله: " {وَقَالُوا مَا لَنَا لا نَرَى رِجَالا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الأَشْرَارِ}، قال: فقدوا أهل الجنة".

قوله تعالى: {أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ} [ص: ٦٣]، أي:"هل تحقيرنا لهم واستهزاؤنا بهم خطأ، أو أنهم معنا في النار، لكن لم تقع عليهم الأبصار؟ ".

قال الطبري:"وقال الطاغون: ما لنا لا نرى سَلْمان وبِلالا وخَبَّابا الذين كنَّا نعدّهم في الدنيا أشرارا، أتخذناهم فيها سُخريا نهزأ بهم فيها معنا اليوم في النار؟ ".

قال ابن كثير:" {أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الأَبْصَارُ}، أي: في الدنيا، {أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الأَبْصَارُ} يسلون أنفسهم بالمحال يقولون: أو لعلهم معنا في جهنم ولكن لم يقع بصرنا عليهم. فعند ذلك يعرفون أنهم في الدرجات العاليات، وهو قوله: {وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ

=

=

وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ} إلى قوله: {[وَنَادَى أَصْحَابُ الأَعْرَافِ رِجَالا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ. أَهَؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لا يَنَالُهُمُ اللهُ بِرَحْمَةٍ] ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ} [الأعراف: ٤٤ - ٤٩] ".

قال الزمخشري:" {أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا}، قرئ بلفظ الإخبار على أنه صفة ل، «رجالا»، وبهمزة الاستفهام على أنه إنكار على أنفسهم وتأنيب لها في الاستسخار منهم".

عن مجاهد: " {أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الأَبْصَارُ}، يقول: أهم في النار لا نعرف مكانهم؟ ".

عن مجاهد، قوله:" {أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا}، قال: أخطأناهم، {أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الأَبْصَارُ}، ولا نراهم؟ ".

عن قتادة: قوله: " {أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا} في الدنيا، {أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الأَبْصَارُ}، وهم معنا في النار".

وقال:"يقولون: "زاغت أبصارنا عنهم، فلم نرهم حتى دخلوا النار".

قال الضحاك:": هم قوم كانوا يسخَرون من محمد وأصحابه، فانطلق به وبأصحابه إلى الجنة وذهب بهم إلى النار ف}قَالُوا مَا لَنَا لا نَرَى رِجَالا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الأَشْرَار أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الأَبْصَارُ}، يقولون: أزاغت أبصارنا عنهم فلا ندري أين هم؟ ".

قال الفراء:"قرأ أصحاب عبد الله بغير استفهام، واستفهم الحسن وعاصم وأهل المدينة، وهو من الاستفهام الذي معناه التعجب والتوبيخ فهو يجوز بالاستفهام وبطرحه".

وفي قوله تعالى: {أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ} [ص: ٦٣]، وجهان من الإتصال:

=

=

أحدهما: أن يتصل بقوله: {ما لَنا}، أي: مالنا لا نراهم في النار؟ كأنهم ليسوا فيها بل أزاغت عنهم أبصارنا فلا نراهم وهم فيها. قسموا أمرهم بين أن يكونوا من أهل الجنة، وبين أن يكونوا من أهل النار. إلا أنه خفى عليهم مكانهم.

والوجه الثاني: أن يتصل بـ «اتخذناهم سخريا»، إما أن تكون «أم» متصلة على معنى: أي الفعلين فعلنا بهم: الاستسخار منهم، أم الازدراء بهم والتحقير، وأن أبصارنا كانت تعلو عنهم وتقتحمهم. على معنى: إنكار الأمرين جميعا على أنفسهم.

قوله تعالى: {إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ (٦٤)} [ص: ٦٤].

قال مقاتل:"يعني: خصومة القادة والأتباع".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: إن هذا الذي أخبرتكم أيها الناس من الخبر عن تراجع أهل النار، ولعْن بعضهم بعضا، ودعاء بعضهم على بعض في النار لحق يقين، فلا تشكُّوا في ذلك، ولكن استيقنوه تخاصم أهل النار".

قال ابن كثير:"أي: إن هذا الذي أخبرناك به يا محمد من تخاصم أهل النار بعضهم في بعض ولعن بعضهم لبعض لحق لا مرية فيه ولا شك".

قال الزمخشري:"{إِنَّ ذلِكَ}، أي: الذي حكينا عنهم، {لَحَقٌّ}، لا بد أن يتكلموا به، ثم بين ما هو فقال هو: {تَخاصُمُ أَهْلِ النَّارِ}، وسمى ذلك تخاصما، لأنه شبه تقاولهم وما يجرى بينهم من السؤال والجواب بما يجرى بين المتخاصمين من نحو ذلك، ولأنّ قول الرؤساء: لا مرحبا بهم، وقول أتباعهم: بل أنتم لا مرحبا بكم، من باب الخصومة، فسمى التقاول كله تخاصما لأجل اشتماله على ذلك ".

عن ابن زيد، قوله " {إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ}، فقرأ: {تَاللهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ}، وقرأ: {يَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا}.. حتى بلغ: {إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ}، قال: إن كنتم تعبدوننا كما تقولون إن كنا عن

=

=

عبادتكم لغافلين، ما كنا نسمع ولا نبصر، قال: وهذه الأصنام، قال: هذه خصومة أهل النار، وقرأ: {وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ}، قال: وضل عنهم يوم القيامة ما كانوا يفترون في الدنيا".

قال العثيمين: قوله تعالى: {هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ (٥٥)} هذا: مبتدأ، لا بد له من خبر، وخبره محذوف قدَّره المصنف بقوله: [للمؤمنين]، ولكن الصحيح أن نقدر: للمتقين، لأن الله قال: {هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ (٤٩)} فالأولى أن نقول: هذا للمتقين، فما لغيرهم؟ قال: {وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ} كلام مستأنف {وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ} الطاغين: جمع طاغية، والطاغي مَن تجاوز الحدَّ، وحد الإنسان أن يكون عبدًا لله ممتثلًا لأمره مجتنبًا لنهيه، فمن لم يمتثل للأمر فهو طاغ، ومن ارتكب النهي فهو طاغ. قال تعالى: {اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى} [طه: ٢٤].

فإن قال قائل: ما الشاهد على أن الطغيان تجاوز الحد؟ قلنا: قوله تعالى: {إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ} [الحاقة: ١١]. أي: لما تجاوز الماء حدّه.

{لَشَرَّ مَآبٍ} أي: شّر مرجع، وشر منصوبة على أنها اسم إن مؤخر. ما هو شر المآب؟ قال: {جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ (٥٦)} هذا عطف بيان {لَشَرَّ مَآبٍ (٥٥)} وهي نار جهنم، سميت بهذا الاسم لأنها تتضمن الجهمة لسوادها، لأنه ليس فيها نور، ولبعد قعرها -والعياذ بالله- فقد سمع النبي ﷺ ذات يوم وهو وأصحابه رضي الله عنهم في المدينة وجبة، يعني وقعة شيء، فقال: "أتدرون ما هذا"؟

قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: "هذا حجر رمي به في النار منذ سبعين خريفًا فهو يهوي في النار حتى انتهى إلى قعرها" سبعين سنة، هو حجر كبير له صوت عظيم يهوي في النار، لأنها بعيدة القعر جدًا، ولهذا صارت مدلهمة -والعياذ بالله- سوداء.

=

=

وقيل: إن لفظ جهنم ليس عربيًا وأن أصله في الفارسية كهنام، ولكنه عرب فصار جهنم. وعلى هذا فلا يرد علينا أنه من الجهمة، وهو السواد والبعد، فيقال: جهنم اسم للنار علم غير مشتق، وأيًّا كان فهو اسم من أسماء النار نعوذ بالله منها.

{يَصْلَوْنَهَا} حال، لأن جهنم معرفة، والمعرفة تكون الجملة بعدها حالًا.

{يَصْلَوْنَهَا} قال المصنف: [أي: يدخلونها]، لكن هذا لا يكفي، بل يصلونها، يعذبون بصلاها، وهو شدة الحرارة {فَبِئْسَ الْمِهَادُ (٥٦)}: الفراش، كما قال تعالى: {أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا} [النبأ: ٦] وفي آية أخرى {الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا} [البقرة: ٢٢] {فَبِئْسَ الْمِهَادُ (٥٦)} أي: هي، لأنه -والعياذ بالله- افتراشها شديد، ولحافها شديد، قال تعالى: {لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ} [الزمر: ١٦] نعوذ بالله.

{هَذَا} قال المصنف رحمه الله: [أي: العذاب المفهوم مما بعده {فَلْيَذُوقُوهُ}]، اللام في قوله: {فَلْيَذُوقُوهُ} للأمر، والدليل على أنها لام الأمر وليست لام التعليل، أنها سكنت بعد الفاء، ولام الأمر تسكن بعد الفاء والواو وثم. {فَلْيَذُوقُوهُ} أي: فليكتووا بحره، والاكتواء بحره هو ذوق، وذوق كل شيء بحسبه، فالطعام والشراب يذوقه الإنسان بمذاق الفم، والنار يذوقها بحرارتها في أي موضع من مواضع الجسم، والبرد كذلك يذوقه بلسعه في أي موضع من الجسم {فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ} قال المصنف: [أي: ماء حار محرق، {وَغَسَّاقٌ} بالتخفيف والتشديد ما يسيل من صديد أهل النار] نعوذ بالله.

{هَذَا}: مبتدأ، و {حَمِيمٌ}: خبر، {وَغَسَّاقٌ}: معطوف عليه، وتكون جملة {فَلْيَذُوقُوهُ} معترضة بين المبتدأ والخبر للمبادرة بإهانتهم، فإن قوله: {فَلْيَذُوقُوهُ} لا شك أنه إهانة، فمن أجل المبادرة قدّم هذا على الخبر، أي: قدّم قوله: {فَلْيَذُوقُوهُ} وأصل الكلام على الترتيب: هذا حميم وغساق فليذوقوه.

=

=

انظر للشراب {حَمِيمٌ}: ماء حار، وليست حرارته سهلة أو يسيرة، قال تعالى: {وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ} [الكهف: ٢٩] أولًا لا يأتيهم هذا الشراب بسهولة، إنما يأتيهم بعد أن يعطشوا عطشًا شديدًا ثم يسألوا الله أن يغيثهم من هذا العطش، وإذا أغيثوا يغاثوا بهذا الماء كالمهل يشوي الوجوه، إذا دنى من وجوه مَن يشربوه شواها، قال العلماء: تتساقط لحوم الوجه، ثم إذا شربوا في البطون قطع أمعاءهم، قال تعالى: {وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ} [محمد: ١٥] فيقطع ظاهرهم وباطنهم والعياذ بالله، قارن بين هذا الشراب وبين شراب أهل الجنة: {أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى} [محمد: ١٥] ومع ذلك يشربون ما يشاؤون، وهذه الأنهار لا تجري في أخاديد، ولا ضمن جدران تمنع سيلان الماء، إنما تجري على وجه الأرض، قال ابن القيم في النونية:

أنهارُها في غيرِ أخدودٍ جَرَتْ ... سبحانَ مُمْسِكِها عن الفيضان

والغساق أيضًا -والعياذ بالله- بمجرد ما تسمع معناه تشمئز، صديد أهل النار، الصديد الذي يجري من أجسامهم من احتراقها هذا أيضًا نوع من شرابهم، فصار شرابهم إما ماء حار يشوي الوجوه ويقطع الأمعاء، وإما صديد أهل النار {يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ} [إبراهيم: ١٧].

قال الله عز وجل: {وَآخَرُ} قال المصنف رحمه الله:

[بالجمع والإفراد] {وَآخَرُ} مفرد و {وَأُخَرُ} جمع، ففيها قراءتان سبعيتان، {مِنْ شَكْلِهِ} أي: من جنسه، [أي: مثل المذكور من الحميم والغساق {أَزْوَاجٌ (٥٨)} أي: أصناف، أي عذابهم من أنواع مختلفة]. {وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ} من جنسه، {أَزْوَاجٌ (٥٨)} أصناف من العذاب يعذبون بها كما أراد الله عز وجل، ويهانون

=

غاية الإهانة، يقرعون ويوبخون، ثم يُمَنَّونَ بالخروج، ترتفع بهم النار حتى يقتربوا من أبوابها {كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا} [السجدة: ٢٠] وهذا من شدة العذاب. لو أن شخصًا محبوسًا، وكان يقرب من الباب، يظن أنه سيخرج فإذا به يرد، فهذا أشد عذابًا عليه مما لو بقي في مكانه، فهم يُنَوَّع عليهم العذاب أنواعًا عظيمة لا تخطر بالبال، ولا تدور في الخيال.

قال المصنف: {وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ (٥٨)}: أصناف، أي: عذابهم من أنواع مختلفة. ويقال لهم عند دخولهم النار بأتباعهم {هَذَا فَوْجٌ} جمع {مُقْتَحِمٌ} داخل {مَعَكُمْ} النار بشدة، فيقول المتبوعون: {لَا مَرْحَبًا بِهِمْ} أي: لا سَعة عليهم {إِنَّهُمْ صَالُو النَّارِ (٥٩)} {قَالُوا} أي: الأتباع: {بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ} أي: الكفر {لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ (٦٠)} لنا ولكم النار] أعوذ بالله {الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ} [الزخرف: ٦٧] انظر كيف العداوة بين أهل النار {كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا} [الأعراف: ٣٨] وهكذا المجرمون في الدنيا الذين يوالي بعضهم بعضًا سوف يكونون يوم القيامة أعداء. فلا ولاية لأحد في الآخرة إلا من كان متقيًا، هؤلاء هم الذين تبقى ولايتهم، وأما غير المتقين فهم فإن كانوا أولياء في الدنيا فإن ولايتهم في الآخرة تزول نهائيًا.

{هَذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ} الفوج: الطائفة، والغالب أنها تكون للطائفة الكبيرة {مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ} أي: داخل بمشقة، لأن الاقتحام لا بد أن يكون هناك ازدحام شديد {فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ} [البلد: ١١] أي: صعدها بشدة، هؤلاء أيضًا يدخلون النار بزحام شديد، فهو فوج مقتحم معكم، أي: يقال لهم، إذا دخلوا النار، وهذا من قيل أهل النار بعضهم لبعض، أو من قيل خزنة جهنم للقادة: {هَذَا فَوْجٌ}: يعنون الأتباع، داخل معكم النار. فيقول القادة والرؤساء المتبوعون: {لَا مَرْحَبًا بِهِمْ} أي: لا نريدهم، نتبرأ منهم، ولا تتسع صدورنا ولا أمكنتنا لهم، والمرحب

=

مأخوذ من الرحبة، وهي السعة فيقولون: {لَا مَرْحَبًا بِهِمْ} أي: لا نرحب بهم ولا نريدهم، بل نحن ننابذهم غاية المنابذة {إِنَّهُمْ صَالُو النَّارِ (٥٩)} إنهم، أي: هؤلاء الذين اقتحموا معنا {صَالُو النَّارِ (٥٩)} كما صليناها، فيجيب أتباع هؤلاء الرؤساء المتبوعين، {قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ} بل إضراب إبطال، يعني أبطلوا قولهم: {لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا} يعني: قدَّمتم لنا الكفر، وسهلتم لنا سلوك سبله، وزينتموه في نفوسنا حتى تبعناكم {فَبِئْسَ الْقَرَارُ (٦٠)} لنا ولكم النار. أعوذ بالله كل منهم الآن يتبرأ من الآخر.

يقول الله عز وجل: {قَالُوا} أي: الأتباع: {رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ (٦١)} أي: مثل عذابه على كفره في النار]. {مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا} أي: مَن قدم لنا الكفر، وهم المتبوعون {فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ (٦١)} ضعفًا يعني زائدًا على عذاب الأصل، يعني عذبهم لكونهم كفروا، وعذبهم لكونهم قدموا لنا هذا الكفر، ولكن هذا ليس إليهم فلكل امرئ منهم ما عمل، وهؤلاء المتبوعون هل أجبروا الأتباع على اتباعهم؟ أبدًا لم يجبروهم، قال تعالى: {وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ (٤٧) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ} [غافر: ٤٧ - ٤٨] حكم بينهم بعدله فجازى كل واحد منهم ما يستحق.

ثم قال الله عز وجل: {وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ (٦٢)} يقول المصنف: {وَقَالُوا} أي: كفار مكة وهم في النار] والصواب: أن المراد بهم كل الكفار. الكفار يرون أن المؤمنين كلَّهم ضالون. {إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (٢٩) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (٣٠) وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ (٣١) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ (٣٢)} [المطففين: ٢٩ - ٣٢] وليس هذا خاص بكفار مكة، كلُّ الكفار إلى اليوم يرون أن المؤمنين

=

=

أشرار ضالون. ويصفونهم بأنهم طغاة مفسدون في الأرض، والحقيقة أن الأمر بالعكس. الطغاة المفسدون في الأرض الضالون الظالمون المعتدون هم الكافرون، كما قال الله تعالى: {وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ} [البقرة: ٢٥٤] فلا أحد أشد فسادًا وعدوانًا وظلمًا وطغيانًا من الكافر، لأنه يتمتع بنعم الله ويبارز الله بالكفر به.

ثم يقول الكفار: {مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ (٦٢)} كنا، أي: في الدنيا {نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ (٦٢)} نعدهم يعني باعتقادنا {مِنَ الْأَشْرَارِ (٦٢) أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا} [أي: في الدنيا {أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ (٦٣)} فلم نرهم؟] يقول بعضهم لبعض: {مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ} ما لنا لا نرى فلانًا وفلانًا الذين كنا نعدهم من الأشرار؟ هل نحن اتخذناهم في الدنيا سخريًا، نسخر بهم ونقول: أنتم الشر، وأنتم الطغاة وما أشبه ذلك، وهم ليسوا كذلك؟ أم أنهم كما تصورناهم في الدنيا وعددناهم من الأشرار وأنهم الآن في النار، لكن أبصارنا زاغت عنهم.

فانظر كيف الاهتمام، يقولون: هل نحن اتخذناهم سخريًا في الدنيا وقلنا: إنهم من الأشرار وهم ليسوا منهم؟ هذا أولًا، وإذا كانوا ليسوا منهم فلن يدخلوا النار، أم أنهم كانوا أشرارًا حقيقة، وإن قولنا: إنهم كانوا أشرارًا كلامُ جِدٍّ، وهم الآن في النار، ولكن زاغت عنهم أبصارنا؟ والجواب الأول هو الحقيقي.

ولهذا قال الله عز وجل عنهم: {أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا} الهمزة: للاستفهام الإنكاري، سقطت لأجلها همزة الوصل، استغناء عنها، واتخذناهم: فعل ماض، وفاعل، ومفعول به أول، وسخريًا: مفعول به ثانٍ، بضم السين "سُخريًا" وكسرها "سِخريًا" أي: كنا نسخر بهم في الدنيا، والياء للنسب فالسخري أقوى من السخر، كما قيل في الخصوص: خصوصية، للدلالة على قوة ذلك، فافهمه، فإنه جيد.

=

قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٦٥).

{قُلْ} يَا مُحَمَّد لِكُفَّارِ مَكَّة {إِنَّمَا أَنَا مُنْذِر} مُخَوِّف بِالنَّارِ {وَمَا مِنْ إِلَه إِلَّا الله الواحد القهار} لخلقه.

رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ (٦٦).

{رب السماوات وَالْأَرْض وَمَا بَيْنهمَا الْعَزِيز} الْغَالِب عَلَى أَمْره {الغفار} لأوليائه[1].

=

{أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا} [أي: أمفقودون هم {أَمْ زَاغَتْ} مالت {عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ (٦٣)} فلم نرهم؟] والجواب أن يقال: إنكم اتخذتموهم سخريًا وسخرتم بهم، واستهزأتم بهم، ووصفتموهم بالعيب والشر، وهم برآء منه.

قال المصنف: {أَمْ زَاغَتْ}: مالت {عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ} فلم نرهم؟ وهم فقراء المسلمين، كعمار وبلال وصهيب وسلمان] هذا بناء على أن القائلين كفار مكة، أما إذا قلنا بالعموم، فكل زمان له أهل.

قال تعالى: {إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ (٦٤)} {إِنَّ ذَلِكَ} أي: المشار إليه من كل ما ذكر من تخاصم أهل النار {لَحَقٌّ}، أي: أمر ثابت واقع، وهذا تأكيد لخبر الله عز وجل، مع أن خبر الله كلّه حقّ وصدقّ وثابتٌ. والمراد بالحقّ هنا الصدق؛ لأنه إخبار عن أمر سيقع.

وقوله: {تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ (٦٤)} تخاصم: بدل أو عطف بيان لقوله: "حق" والمصنف رحمه الله قدّره خبرًا لمبتدأ محذوف فقال: [وهو {تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ} كما تقدم] يتخاصم الأتباع مع المتبوعين.

(١) قوله تعالى: {قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ} [ص: ٦٥].

قال السمعاني: "أي: أنا الرسول المنذر".

=

قال النسفي: أي: " ما أنا إلا رسول منذر أنذركم عذاب الله تعالى".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: {قُلْ} يا محمد لمشركي قومك. {إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ} لكم يا معشر قريش بين يدي عذاب شديد، أنذركم عذاب الله وسخطه أن يحلّ بكم على كفركم به، فاحذروه وبادروا حلوله بكم بالتوبة".

قال ابن كثير:"يقول تعالى آمرا رسوله ﷺ أن يقول للكفار بالله المشركين به المكذبين لرسوله: إنما أنا منذر لست كما تزعمون".

قوله تعالى: {وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ} [ص: ٦٥]، أي:"ليس هناك إله مستحق للعبادة إلا الله وحده، فهو المتفردُ بعظمته وأسمائه وصفاته وأفعاله، القهَّارُ الذي قهر كل شيء وغلبه".

قال الطبري:"يقول: وما من معبود تصلح له العبادة، وتنبغي له الربوبية، إلا الله الذي يدين له كل شيء، ويعبدُه كلّ خلق، الواحد الذي لا ينبغي أن يكون له في ملكه شريك، ولا ينبغي أن تكون له صاحبة، القهار لكلّ ما دونه بقدرته".

قال النسفي: أي: " وأقول لكم إن دين الحق توحيد الله وأن تعتقدوا أن لا إله إلا الله {الواحد} بلا ند ولا شريك {القهار} لكل شيء".

قال السمعاني:"والله الواحد القهار القاهر عباده بما يريد".

قال ابن كثير:"أي: هو وحده قد قهر كل شيء وغلبه".

قوله تعالى: {رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا} [ص: ٦٦].

قال الطبري: " يقول: مالك السموات والأرض وما بينهما من الخلق؛ يقول: فهذا الذي هذه صفته، هو الإله الذي لا إله سواه، لا الذي لا يملك شيئا، ولا يضرّ، ولا ينفع".

قال ابن كثير:"أي: هو مالك جميع ذلك ومتصرف فيه".

=

عن عثمان بن سعيد، قال جبريل: "يا محمد، لله الخلق كله والسموات كلهن ومن فيهن والأرضون كلهن ومن فيهن، ومن بينهن مما يعلم ومما لا يعلم".

قوله تعالى: {الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ} [ص: ٦٦]، اي:"الغفار لذنوب مَن تاب وأناب إلى مرضاته".

قال الطبري: " يقول: العزيز في نقمته من أهل الكفر به، المدّعين معه إلها غيره، الغفَّار لذنوب من تاب منهم ومن غيرهم من كفره ومعاصيه، فأناب إلى الإيمان به، والطاعة له بالانتهاء إلى أمره ونهيه".

قال ابن كثير:"أي: غفار مع عزته وعظمته".

قال محمد بن إسحاق: "العزيز في نصرته ممن كفر إذا شاء".

قال سلمة بن وهرام -صاحب طاووس-:"أن الله تبارك وتعالى إنما سمى نفسه «العفو»، ليعفو، و «الغفور»، ليغفر".

قال العثيمين: ثم أمر الله رسوله محمدًا ﷺ يقول لكفار مكة: {قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ} {قُلْ} لا شك أن الخطاب للرسول ﷺ، وأنه من الخطاب الخاصّ به، لأن الإنذار الذي هو إنذار الرسالة خاص بالرسول ﷺ، وقول المصنف: [{قُلْ} يا محمد لكفار مكة] وجه التخصيص أن هذه السورة مكية قبل أن يهاجر النبي ﷺ، فيكون الخطاب الموجه إليه بالإعلام بأنه منذر خاصّ بأهل مكة، ولكنه يقال: إن الأولى أن يجعلها عامة، وأن يقال: العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب والمكان.

{قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ} مخوف بالنار الكفار، فالإنذار بالنار للكفار، والبشارة بالجنة للمؤمنين، لكن المقام هنا يقتضي الإنذار.

{وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٦٥)} هذا حصر من أعظم أنواع الحصر، لأنه مبني على النفي والإثبات، النفي المؤكد بـ"مِنْ" {وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللهُ} لأن "مِنْ"

=

=

حرف جر زائد، والزائد يفيد زيادة المعنى في القرآن الكريم، وقوله: {وَمَا مِنْ إِلَـهٍ} أي: ما من معبود حقّ إلا الله، وإلا فهناك آلهة تعبد لكن ليست بآلهة حقًا، بل هي أسماء سماها أصحابها ما أنزل الله بها من سلطان، ولهذا لا يعبدونها العبادة الحقة. إذا أصابهم الضر يدعون الله وحده، وهم بلسان حالهم يشهدون بأن هذه الأصنام التي يعبدونها ليست آلهة.

{وَمَا مِنْ إِلَـهٍ إِلَّا اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٦٥)} أي: ما من إله حق إلا الله خالق السماوات والأرض عز وجل، الواحد الذي لا شريك له، القهار الذي لا غالب له، بل هو قاهر لخلقه. والقهار هنا يجوز أن يكون التضعيف فيها للنسبة، ويجوز أن يكون التضعيف فيها للتكثير فتكون صيغة مبالغة، ويمكن أن نقول: إنها للأمرين جميعًا، فالله تعالى من صفاته اللازمة له أنه قهار، ولكثرة مَنْ يقهرهم مِن الجبابرة يكثر قهره، فتكون هذه للنسبة وللتكثير الذي يسمى المبالغة.

وقوله تعالى. {رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا} رب: هذه بدل من {اللهُ} ويجوز أن تكون خبرًا لمبتدأ محذوف تقديره: هو رب {السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} سبق الكلام عليهما كثيرًا.

وقوله: {وَمَا بَيْنَهُمَا} أي: من المخلوقات العظيمة التي نعلمها والتي لا نعلمها. وقد سبق لنا أن بيّنا أن كون الله تعالى يجعل ما بين السماوات والأرض قسيمًا للسماوات والأرض يدل على عظم ما بينهما من المخلوقات التي لم نصل إلى الآن إلى غايتها.

وقوله: {الْعَزِيزُ} قال المصنف: [الغالب على أمره] وهذا أحد معاني العزيز، لأن العزيز له ثلاثة معانٍ: العزيز بمعنى ذي القدر والشرف، والعزيز بمعنى القهر والغلبة، والعزيز بمعنى الذي يمتنع أن يناله السوء، مأخوذ من أرض عزاز، أي:

=

قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ (٦٧) .

{قل} لهم {هو نبأ عظيم}.

أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ (٦٨).

{أنتم عنه معرضون} أي الْقُرْآن الَّذِي أَنْبَأْتُكُمْ بِهِ وَجِئْتُكُمْ فِيهِ بِمَا لا يعلم إلا بوحي وهو قوله.

مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ (٦٩).

{مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْم بِالْمَلَإِ الْأَعْلَى} أَيْ الْمَلَائِكَة {إذْ يَخْتَصِمُونَ} فِي شَأْن آدَم حين قال الله تَعَالَى {إنِّي جَاعِل فِي الْأَرْض خَلِيفَة} إلَخْ.

إِنْ يُوحَى إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (٧٠).

=

صلبة لا تؤثر فيها الفؤوس. إذًا لعزة لها ثلاثة معانٍ: عزة القدر، وعزة القهر، وعزة الامتناع، أي: يمتنع أن يناله السوء سبحانه وتعالى.

وقوله: {الْغَفَّارُ (٦٦)} أي: الكثير المغفرة، ولنا أن نجعلها نسبة، أي: أنه موصوف بالمغفرة دائمًا فما أكثر مَنْ يغفر الله لهم، وما أكثر الذنوب التي يغفرها الله عز وجل، وهنا قرن العزة بالمغفرة فاكسب معنى ثالثًا غير العزة والمغفرة، وهو أنه مع عزته وغلبته وقهره هو مع ذلك غفار بخلاف من يتصف بالعزة من المخلوقين فإنه في الغالب تكون عزته تغلب مغفرته، أو من اتصف بالمغفرة فتجد عنده ضعفًا وليس عنده عزة، فإذا اجتمعت العزة والمغفرة حصل من ذلك معنى مركب من اجتماعها، وهو أكمل مما لو انفرد أحدهما، ولا شك أن غلبة المغفرة على العزة فيها نقص، وغلبة العزة على المغفرة فيها نقص، فإذا اجتمعا جميعًا صار هذا أكمل، أي: أن عزته وغلبته وقهره لا تخلو من المغفرة.

{إنْ} مَا {يُوحَى إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا} أي أني {نذير مبين} بين الإنذار[١].

(١)قوله تعالى: {قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ (٦٧) أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ (٦٨)} [ص: ٦٧ - ٦٨].

قوله تعالى: {قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ} [ص: ٦٧]، أي:"قل -أيها الرسول- لقومك: إن هذا القرآن خبر عظيم النفع".

قال الطبري: " {قُلْ} يا محمد -لقومك المكذبيك فيما جئتهم به من عند الله من هذا القرآن، القائلين لك فيه: إن هذا إلا اختلاق-: هذا القرآن خبر عظيم".

قال ابن كثير:"أي: خبر عظيم وشأن بليغ وهو إرسال الله إياي إليكم".

عن مجاهد، قوله: " {قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ}، قال: القرآن".

عن قتادة:"{هُوَ} يعني: القرآن {نَبَأٌ عَظِيمٌ} ".

قال قتادة:"إنكم تراجعون نبأ عظيمًا؛ فاعقِلوه عن الله".

عن شريح: "أن رجلا قال له: أتقضي عليّ بالنبأ؟ قال: فقال له شريح: أو ليس القرآن نبأ؟ قال: وتلا هذه الآية: {قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ}، قال: وقضى عليه".

قوله تعالى: {أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ} [ص: ٦٨]، أي:"أنتم عنه غافلون منصرفون، لا تعملون به".

قال الطبري:"يقول: أنتم عنه منصرفون لا تعملون به، ولا تصدّقون بما فيه من حجج الله وآياته".

قال ابن كثير:"أي: غافلون".

عن السدي:"{قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ * أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ}، قال: القرآن".

القرآن

{مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ (٦٩)} [ص: ٦٩]

=

=

قال ابن كثير:"أي: لولا الوحي من أين كنت أدري باختلاف الملأ الأعلى؟ يعني: في شأن آدم وامتناع إبليس من السجود له، ومحاجته ربه في تفضيله عليه ".

قال القرطبي:"الملأ الأعلى: هم الملائكة في قول ابن عباس والسدي اختصموا في أمر آدم حين خلق فـ {قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها} [البقرة: ٣٠] وقال إبليس: {أنا خير منه} [الأعراف: ١٢] وفي هذا بيان أن محمدا صلى الله عله وسلم أخبر عن قصة آدم وغيره، وذلك لا يتصور إلا بتأييد إلهي، فقد قامت المعجزة على صدقه، فما بالهم أعرضوا عن تدبر القرآن ليعرفوا صدقه، ولهذا وصل قوله بقوله: {قل هو نبأ عظيم أنتم عنه معرضون} ".

قال ابن عباس: الملأ الأعلى: الملائكة حين شووروا في خلق آدم، فاختصموا فيه، وقالوا: لا تجعل في الأرض خليفة".

وقال ابن عباس:"هي الخصومة في شأن آدم أتجعل فيها من يفسد فيها".

قال قتادة:"هم الملائكة، كانت خصومتهم في شأن آدم حين قال ربك للملائكة: {إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ} ... حتى بلغ {سَاجِدِينَ} وحين قال: {إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً} ... حتى بلغ {وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ} ففي هذا اختصم الملأ الأعلى".

قال الحسن:"اختصموا إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من طين للذي خلقه بيده".

عن السديّ: " {بِالْمَلإِ الأعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ}، هو: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً} ".

وروي عن معاذ رضي الله عنه، قال: "احتبس علينا رسول الله ﷺ ذات غداة عن صلاة الصبح حتى كدنا نتراءى قرن الشمس. فخرج رسول الله ﷺ سريعا فَثَوّب بالصلاة فصلى وتَجَوّز في صلاته فلما سلم قال: "كما أنتم على مصافكم". ثم أقبل إلينا فقال: "إني سأحدثكم ما حبسني عنكم الغداة، إني قمت من الليل

=

فصليت ما قُدّر لي فنعست في صلاتي حتى استيقظت فإذا أنا بربي في أحسن صورة فقال: يا محمد أتدري فيم يختصم الملأ الأعلى؟ قلت لا أدري رب - أعادها ثلاثا - فرأيته وضع كفه بين كتفي حتى وجدت برد أنامله بين صدري فتجلى لي كل شيء وعرفت فقال: يا محمد فيم يختصم الملأ الأعلى؟ قلت: في الكفارات. قال: وما الكفارات؟ قلت نقل الأقدام إلى الجمعات والجلوس في المساجد بعد الصلوات وإسباغ الوضوء عند الكريهات. قال: وما الدرجات؟ قلت: إطعام الطعام ولين الكلام والصلاة والناس نيام. قال: سل. قلت اللهم إني أسألك فعل الخيرات، وترك المنكرات، وحب المساكين، وأن تغفر لي وترحمني، وإذا أردت فتنة بقوم فتوفني غير مفتون، وأسألك حبك وحب من يحبك، وحب عمل يقربني إلى حبك". وقال رسول الله ﷺ: "إنها حق فادرسوها وتعلموها".

قال ابن كثير:"وليس هذا الاختصام هو الاختصام المذكور في القرآن فإن هذا قد فسر وأما الاختصام الذي في القرآن فقد فسر بعد هذا وهو قوله تعالى: {إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ (٧١) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٧٢) فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٧٣) إِلا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٧٤) قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ (٧٥) قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (٧٦) قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٧٧) وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ (٧٨) قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٧٩) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (٨٠) إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (٨١) قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣) قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ (٨٤) لأمْلأنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٥)} ".

قوله تعالى: {إِنْ يُوحَى إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (٧٠)} [ص: ٧٠].

=

ما يوحي الله إليَّ مِن عِلْم ما لا علم لي به إلا لأني نذير لكم من عذابه، مبيِّن لكم شرعه.

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل يا محمد لمشركي قريش: ما يوحي الله إليّ علم ما لا علم لي به، من نحو العلم بالملأ الأعلى واختصامهم في أمر آدم إذا أراد خلقه، إلا أني نذير لكم مبين لكم إلا إنذاركم".

قال مقاتل:"يعني: إذ يوحى إلي إلا أنما أنا رسول بين".

قال السمعاني: أي: ما يوحى إلي إلا أنما أنا نذير مبين".

قال القرطبي:"أي: إن يوحى إلي إلا الإنذار".

عن ابن عباس: {نذير}، قال: "نذير من النار".

وقرأ أبو جعفر بن القعقاع" إلا إنما" بكسر الهمزة، لأن الوحي قول، كأنه قال: يقال لي إنما أنت نذير مبين، ومن فتحها جعلها في موضع رفع، لأنها اسم ما لم يسم فاعله.

قال الفراء: "كأنك قلت: ما يوحى إلي إلا الإنذار".

قال العثيمين: قوله تعالى: {قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ (٦٧) أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ (٦٨)} هو، أي: النبأ الذي أنبأتكم به والذي جئت به منذرًا؛ نبأ عظيم، والنبأ بمعنى الخبر، لكنه لا يكون إلا في الأمر الهام. قال الله تعالى: {عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ (١) عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ} [النبأ: ١ - ٢] ووصف الله هذا النبأ بأنه عظيم، وهو القرآن، وقد وصف الله القرآن بأنه عظيم وكريم ومجيد؛ لأنه يتصف بهذه الصفات، ومن أخذ به نال من هذه الأوصاف بقدر ما أخذ به.

{أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ (٦٨)} جملة استئنافية يراد بها لفت الانتباه إلى فداحة ما يرتكبونه من جريرة الإعراض عن ذلك النبأ، وهو القرآن، وشدة الشناعة على

=

=

هـؤلاء المكـذبين لرسـول الله ﷺ فهـم مـع هـذا النبـأ العظيـمٍ لـم يقبلـوا عليـه، بـل أعرضوا عنه، ولم يلتفتوا إليه، ولم يقيموا له وزنًا.

{مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَى} يعني هذا النبأ العظيم لا يمكـن أن آتي بـه مـن عند نفسي، لأنه ليس لي علم بالملأ الأعلى، يعني: الملائكة فهم ملأ لكنهم فوق، إذ إن الأصل في مساكنهم السماوات، ولكـن ينزلـون إلى الأرض لأداء الوظائف التي كُلِّفوا بها {مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَى} قال المصنف: [أي: الملائكة {إِذْ يَخْتَصِمُونَ (٦٩)} في شأن آدم حين قال الله تعالى: {إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ} [البقرة: ٣٠]] والصحيح أن معنى الآية أعم مما قاله المصنف، لأن {مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ (٦٩)} في شـأن آدم، وفي الدرجات العُلى وغيرها مما يختصم فيه الملائكة، ويرجعون فيه إلى الله.

قال المصنف: {إِنْ}: ما {يُوحَى إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا} أي: أني {نَذِيرٌ مُبِينٌ (٧٠)} بين الإنذار]. نقول: إنما أفادنا المصنف أن "إنْ" هنا نافية، وهو أحد معانيها، دل على ذلك قوله تعالى: {إِلَّا أَنَّمَا} أي: أني {نَذِيرٌ مُبِينٌ (٧٠)} قوله؛ [أي: أني] تفسير لـ {إِنَّمَا أَنَا} لأن أصله أني، لكن دخلت ما الكافة على "أن" فأبطلت عملها. ثـم لما دخلت عليها لزم أن ينفصل الضمير المتصل، دخلت (ما) على (أن) ففصلت بين (أن) والضمير، والضمير المتصل إذا وجد ما يفصله عما اتصل بـه صـار منفصلًا، فهنا تكون {أَنَا} هي الياء في قول المصنف: [أني].

قوله: {إِلَّا أَنَّمَا أَنَا} هذه الصيغة تكون أشد تأكيدًا للحصر، لأن الحصر استنفدناه من قوله: {إِنْ يُوحَى إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا} واستثناه أيضًا من قوله: {أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (٧٠)} فحُصِرَ حال النبي عليه الصلاة والسلام بأنه نذير مبين، وهذا الحصر حصر إضافي، أي: إنما أنا في هذه المسألة خاصّة، وهو الوحي، نذير مبين، وإلا

=

إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ (٧١).

اذكر {إِذْ قَالَ رَبّك لِلْمَلَائِكَة إِنِّي خَالِق بَشَرًا مِنْ طِين} هُوَ آدَم.

فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٧٢).

{فَإِذَا سَوَّيْته} أَتْمَمْته {وَنَفَخْت} أَجْرَيْت {فِيهِ مِنْ رُوحِي} فَصَارَ حَيًّا وَإِضَافَة الرُّوح إلَيْهِ تَشْرِيف لِآدَم وَالرُّوح جِسْم لَطِيف يَحْيَا بِهِ الْإِنْسَان بِنُفُوذِهِ فِيهِ {فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ} سُجُود تَحِيَّة بِالِانْحِنَاءِ.

فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٧٣).

{فَسَجَدَ الْمَلَائِكَة كُلّهمْ أَجْمَعُونَ} فِيهِ تَأْكِيدَانِ.

إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٧٤).

{إلَّا إبْلِيس} هُوَ أَبُو الْجِنّ كَانَ بَيْن الْمَلَائِكَة {اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنْ الْكَافِرِينَ} فِي عِلْم الله تعالى.

قَالَ يَاإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ (٧٥).

{قَالَ يَا إبْلِيس مَا مَنَعَك أَنْ تَسْجُد لِمَا خَلَقْت بِيَدَيّ} أَيْ تَوَلَّيْت خَلْقه وَهَذَا تَشْرِيف لِآدَم فَإِنَّ كُلّ مَخْلُوق تَوَلَّى الله خلقه {أستكبرت} الآن عن السجود

=

فإنه بشر ينسى ويأكل ويشرب ويبشر، فالحصر إذًا إضافي بحسب السياق. وقوله {مُبِينٌ (٧٠)} قال المصنف: [بيّن الإنذار] والصواب: مُظهِر، وليست من أبان اللازم، بل هي من أبان المتعدي؛ لأن كلمة أبان تكون لازمة، كما تقول: أبان الصبح، أي: ظهر، وتكون متعدية، كما لو قلت: هذا مبين لهذا، أي: مظهر له، فالصواب: أن مبين هنا بمعنى مُظهِر.

استفهام توبيخ {أَمْ كُنْت مِنَ الْعَالِينَ} الْمُتَكَبِّرِينَ فَتَكَبَّرْت عَنْ السجود لكونك منهم.

قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (٧٦).

{قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين}.

قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٧٧).

{قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا} أَيْ مِنْ الْجَنَّة وَقِيلَ مِنْ السَّمَاوَات {فَإِنَّك رَجِيم} مَطْرُود.

وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ (٧٨).

{وَإِنَّ عَلَيْك لَعْنَتِي إِلَى يَوْم الدِّين} الْجَزَاء.

قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٧٩).

{قَالَ رَبّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْم يُبْعَثُونَ} أَيْ الناس.

قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (٨٠).

{قال فإنك من المنظرين}.

إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (٨١).

{إِلَى يَوْم الْوَقْت الْمَعْلُوم} وَقْت النَّفْخَة الْأُولَى.

قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢).

{قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين}.

إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣).

{إِلَّا عِبَادك مِنْهُمْ الْمُخْلَصِينَ} أَيْ الْمُؤْمِنِينَ.

قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ (٨٤).

{قَالَ فَالْحَقّ وَالْحَقّ أَقُول} بِنَصْبِهِمَا وَرَفَعَ الْأَوَّل وَنَصَبَ الثَّانِي فَنَصَبَهُ

بِالْفِعْلِ بَعْده وَنَصَبَ الْأَوَّل قِيلَ بِالْفِعْلِ الْمَذْكُور وَقِيلَ عَلَى الْمَصْدَر أَيْ أُحِقّ الْحَقّ وَقِيلَ عَلَى نَزْع حَرْف الْقَسَم وَرَفْعه عَلَى أَنَّهُ مُبْتَدَأ مَحْذُوف الْخَبَر أَيْ فَالْحَقّ مِنِّي وَقِيلَ فَالْحَقّ قَسَمِي وَجَوَاب الْقَسَم.

لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٥).

{لأملأن جهنم منك} بذريتك {وممن تبعك منهم} أي الناس {أجمعين}[1].

---

(١)قوله تعالى: {إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ} [ص: ٧٢].

قال الطبري:"يعني بذلك: خلق آدم".

قال القرطبي:"المعنى: ما كان لي من علم بالملأ الأعلى حين يختصمون حين {قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من طين} ".

قال الزجاج:"هم الملأ من الملائكة، وملأ كل قرية وجوههم وأفَاضِلهَم".

قوله تعالى: {فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي} [ص: ٧٢]، أي:"فإذا سوَّيت جسده وخلقه ونفخت فيه الروح، فدبت فيه الحياة".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: فإذا سويت خلقه، وعدلت صورته، ونفخت فيه من روحي".

قال البيضاوي:"{فإذا سويته} : عدلت خلقته. {ونفخت فيه من روحي} : وأحييته بنفخ الروح فيه، وإضافته الى نفسه لشرفه وطهارته".

عن الضحاك: " {وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي} ، قال: من قدرتي".

قال القرطبي:"أي: من الروح الذي أملكه ولا يملكه غيري".

قوله تعالى: {فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ} [ص: ٧٢]، أي:"فاسجدوا له سجود تحية وإكرام".

قال الطبري: يقول:"فاسجدوا له وخِرّوا له سُجَّدا".

=

=

قال البيضاوي: أي:"فخروا له ساجدين تكرمة وتبجيلا له".

وقال قتادة: "فكانت الطاعة لله، والسجدة لآدم، أكرم الله آدم أن أسْجَد له ملائكته".

قال الحسن:"ثم أمرهم أن يسجدوا لآدم، فسجدوا له كرامة من الله أكرم بها آدم، وليعلموا أن الله لا يخفى عليه شيء وأنه يصنع ما أراد".

قوله تعالى: {فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ} [ص: ٧٣].

قال الطبري: يقول:"فلما سوّى الله خلق ذلك البشر، وهو آدم، ونفخ فيه من روحه، سجد له الملائكة كلهم أجمعون، يعني بذلك: الملائكة الذين هم في السموات والأرض".

قوله تعالى: {إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ} [ص: ٧٤]، أي:"لكن إبليس استكبر عن طاعة الله وأبى السجود لآدم فصار من الكافرين".

قال الطبري: " يقول: غير إبليس، فإنه لم يسجد، استكبر عن السجود له تعظُّمًا وتكبرا، يقول: وكان بتعظُّمه ذلك، وتكبره على ربه ومعصيته أمره، ممن كفر في علم الله السابق، فجحد ربوبيته، وأنكر ما عليه الإقرار له به من الإذعان بالطاعة".

قال ابن عثيمين:"{فسجدوا}، أي: من غير تأخير؛ فالفاء هنا للترتيب، والتعقيب".

قال البيضاوي:"تعظم وصار من الكافرين باستنكاره أمر الله تعالى واستكباره عن المطاوعة، أو كان منهم في علم الله تعالى".

قال ابن عباس: "كان في علم الله من الكافرين".

قال أبو العالية:"يعني: من العاصين".وروي عن الربيع مثل ذلك.

قال ابن عطية: "وتلك معصية كفر لأنها عن معتقد فاسد صدرت".

قال عبد الله بن بريدة:"من الذين أبوا، فأحرقتهم النار".

=

=

قال قتادة: "حسد عدو الله إبليس آدم على ما أعطاه الله من الكرامة، وقال: أنا ناري وهذا طيني. فكان بدء الذنوب الكبر، استكبر عدو الله أن يسجد لآدم".

قال السُّدّيّ: "كان اسم إبليس «الحارث»، وإنما سمي إبليس حين أبلس متحيِّرًا".

ولفظة «إبليس» لغة: أبلس الرجل قُطِع به، وأبلس سكت، وأبلس من رحمة الله يئس وندم ومنه سُمِّي إبليس لأنه أبلس من رحمة الله وقيل: إبليس لا ينصرف لأنه أعجمي معرفة، والمبلس الساكت من الحزن أو الخوف، والإبلاس الحَيْرة.

قوله تعالى: {قَالَ يَاإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ} [ص: ٧٥].

قال الطبري: "{قَالَ} الله لإبليس، إذ لم يسجد لآدم، وخالف أمره: {يَا إِبْلِيسُ} أيّ شيء منعك من السجود لخلق يديّ ؛ يخبر تعالى ذكره بذلك أنه خلق آدم بيديه".

قال السعدي: "{قَالَ} الله موبخا ومعاتبا: {مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ}، أي: شرفته وكرمته واختصصته بهذه الخصيصة، التي اختص بها عن سائر الخلق، وذلك يقتضي عدم التكبر عليه".

وفي قوله تعالى: {قَالَ يَاإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ} [ص: ٧٥]، وجوه من التفسير:

أحدها: بقوتي، قاله علي بن عاصم.

الثاني: أي: بقدرتي، يقال: مالي بهذا الأمر يد. وما لي بالحمل الثقيل يدان. ويدل عليه أن الخلق لا يقع إلا بالقدرة بالإجماع. وقال الشاعر:

تحملت من عفراء ما ليس لي به... لا للجبال الراسيات يدان

الثالث: لما توليت خلقه بنفسي، قاله ابن عيسى.

قال الدارمي:"روى المعارض عن بشر المريسي قراءة منه بزعمه -وزعم أن بشر، قال له: اروه عني- أنه قال في قوله الله لإبليس: {ما منعك أن تسجد لما خلقت

=

بيدي} فادعى أن بشرا قال: يعني الله بذلك: أني وليت خلقه وقوله: {بيدي} تأكيد للخلق، لا أنه خلقه بيد. فيقال لهذا المريسي الجاهل بالله وبآياته: فهل علمت شيئا مما خلق الله ولي خلق ذلك غيره، حتى خص آدم من بينهم أنه ولي خلقه من غير مسيس بيده فسمه؟... وقوله لإبليس: {لما خلقت بيدي}: تأكيد يديه لا تأكيد خلق".

الرابع: أي: لما خلقت بغير واسطة. حكاه القرطبي، وهو قول باطل.

قال ابن عمر: "خلق الله أربعة بيده: العرش، وعَدْن، والقلم، وآدم، ثم قال لكلّ شيء: كن فكان".

عن كعب الأحبار، قال: "إنّ الله لم يخلق بيده إلا ثلاثة أشياء: خلق آدم بيده، وكتب التوراة بيده، وغرس جنة عدن بيده".

عن ميسرة، قال: "خلق الله أربعةً بيده: خلق آدم بيده، وكتب التوراة بيده، وغرس جنة عدن بيده، وخلق القلم بيده". وروي عن إبراهيم النخعي مثله.

قال القرطبي: "أضاف خلقه إلى نفسه تكريما له، وإن كان خالق كل شي وهذا كما أضاف إلى نفسه الروح والبيت والناقة والمساجد. فخاطب الناس بما يعرفونه في تعاملهم، فإن الرئيس من المخلوقين لا يباشر شيئا بيده إلا على سبيل الإعظام والتكرم، فذكر (اليد) هنا بمعنى هذا.

والصواب أنهما هما صفتان من صفات ذاته تعالى".

قال أبو الحسن الأشعري: في باب فِي إبَانَةِ قَوْلِ أَهلِ الحَقِّ والسُّنَّة: "وجملة قولنا... وأن له يدين بلا كيف، كما قال {لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ}، وكما قال: {بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ} ".

فأجمع أهل السنة والجماعة على إثبات أن اليدين من الصفات الذاتية الخبرية الثابتة لله – عز وجل، وقد ادعى بعض المتكلمة الإجماع على تأويل الآية، ومن

=

ذلك ما ذكره أبو سليمان الدمشقي أن الإجماع قد ورد بأن تفسير قوله تعالى: {مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا} [يونس: ٢٦] أي: مما أوجدناه بقوتنا وقدرتنا.

ومما نقله أيضًا الإمام الجويني، ولم يذكر فيه الإجماع، وإنما نقله عنه شارح الإرشاد أبو القاسم النيسابوري، وليس لمن أوردوا هذا الإجماع مستندٌ شرعي، وإنما قد يسوغ في اللغة والعرف، ناهيك على أنهم ذكروا أن هذا مما أجمع عليه علماء التفسير وهذا خطأ في النقل بين ويخالفه ما أورده أئمة التفسير في كتبهم، بل أئمة المتكلمة على إثبات هذه الصفة كالأشعري في كتابه " الإبانة عن أصول الديانة"، والباقلاني في "التمهيد"، أثبتاها من غير تأويل، وإنا أوردت هذا الإجماع المزعوم كيلا ينخدع به من يطلع عليه فيظنه إجماعًا حقيقيًا.

قال الزمخشري:"فإن قلت: لم سأله عن المانع من السجود، وقد علم ما منعه؟ قلت: للتوبيخ، ولإظهار معاندته وكفره وكبره وافتخاره بأصله وازدرائه بأصل آدم، وأنه خالف أمر ربه معتقدا أنه غير واجب عليه، لما رأى أن سجود الفاضل للمفضول خارج من الصواب".

قوله تعالى: {أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ} [ص: ٧٥]، أي:"أستكبرت على آدم، أم كنت من المتكبرين على ربك؟ ".

قال الطبري:"يقول لإبليس: تعظَّمت عن السجود لآدم، فتركت السجود له استكبارا عليه، ولم تكن من المتكبرين العالين قبل ذلك أم كنت كذلك من قبل ذا علوّ وتكبُّر على ربك".

قال القرطبي:" {أستكبرت} ، أي: عن السجود، {أم كنت من العالين} ، أي: المتكبرين على ربك".

وقال القرطبي:"أي: استكبرت ولا كبر لك، ولم أتكبر أنا حين خلقته بيدي والكبر لي! ".

=

=

قال مقاتل:"يعني: تكبرت، [{أَمْ كُنْتَ}] من المتعظمين".
قال السمعاني:"أي: تعظمت، [{أَمْ كُنْتَ}] من القوم المتكبرين".
قال ابن عباس:"كان إبليس من أشراف الملائكة وأكرمهم قبيلة. وكان خازنا على الجنان، وكان له سلطان السماء الدنيا، وكان له سلطان الأرض، وكان فيما قضى الله أنه رأى أن له بذلك شرفا وعظمة على أهل السماء، فوقع من ذلك في قلبه كبر لا يعلمه إلا الله، فلما كان عند السجود حين أمره أن يسجد لآدم استخرج الله كبره عند السجود، فلعنه وأخَّره إلى يوم الدين".
قوله تعالى: {قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ} [ص: ٧٦].
قال الطبري:"يقول جل ثناؤه: قال إبليس لربه: فعلت ذلك فلم أسجد للذي أمرتني بالسجود له لأني خير منه وكنت خيرا لأنك خلقتني من نار وخلقته من طين، والنار تأكل الطين وتحرقه، فالنار خير منه".
قال أهل العلم:"ولم يقل: منعني من السجود أني خير منه فأتى بشيء في معنى الجواب ولفظه غير جواب؛ لأن قوله: {أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ} إنما هو جواب: (أيكما خير)، ولكن الكلام في معنى الجواب لأن قوله: {أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ} في معنى: منعني من السجود فضلي عليه".
قوله تعالى: {خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ} [ص: ٧٦]، أي:"لأنني مخلوق من النار، وآدم مخلوق من الطين، والنار خير من الطين".
قال الطبري:"يقول: لم أفعل ذلك استكبارا عليك، ولا لأني كنت من العالين، ولكني فعلته من أجل أني أشرف منه؛ وهذا تقريع من الله للمشركين الذين كفروا بمحمد ﷺ، وأبوا الانقياد له، واتباع ما جاءهم به من عند الله استكبارا عن أن يكونوا تبعا لرجل منهم حين قالوا: {أَؤُنزلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا} و {هَلْ هَذَا إِلا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ} فقصّ عليهم تعالى قصة إبليس وإهلاكه باستكباره عن السجود لآدم

=

=

بدعواه أنه خير منه، من أجل أنه خلق من نار، وخلق آدم من طين، حتى صار شيطانا رجيما، وحقت عليه من الله لعنته، محذّرهم بذلك أن يستحقوا باستكبارهم على محمد، وتكذيبهم إياه فيما جاءهم به من عند الله حسدا، وتعظما من اللعن والسخط ما استحقه إبليس بتكبره عن السجود لآدم".

قال ابن عباس:"لما خلق الله آدم قال للملائكة الذين كانوا مع إبليس خاصة، دون الملائكة الذين في السموات:"اسجدوا لآدم"، فسجدوا كلهم أجمعون إلا إبليس استكبر، لما كان حدَّث نفسه، من كبره واغتراره، فقال:"لا أسجد له، وأنا خير منه، وأكبر سنًّا، وأقوى خلقًا، خلقتني من نار وخلقته من طين! " يقول: إنّ النار أقوى من الطين".

قال ابن عباس: "كانت الطاعة أولى بإبليس من القياس، فعصى ربه وقاس، وأول من قاس إبليس فكفر بقياسه، فمن قاس الدين بشيء من رأيه قرنه الله مع إبليس".

عن الحسن قوله: " {خلقتني من نار وخلقته من طين}، قال: قاس إبليس وهو أول من قاس".

قال ابن سيرين:"أوّل من قاس إبليس، وما عُبِدت الشمس والقمر إلا بالمقاييس".

عن مجاهد قوله: " {خلقتني من نار}، قال: ثم جعل ذريته من ماء".

قال ابن عباس:"لما خلق الله آدم قال للملائكة الذين كانوا مع إبليس خاصة، دون الملائكة الذين في السموات: {اسجدوا لآدم}، فسجدوا كلهم أجمعون إلا إبليس استكبر، لما كان حدَّث نفسه، من كبره واغتراره، فقال: لا أسجد له، وأنا خير منه، وأكبر سنًّا، وأقوى خلقًا، خلقتني من نار وخلقته من طين! يقول: إنّ النار أقوى من الطين".

=

فإن قيل: أليس العلماء يقيسون في مسائل، قيل: القياس قياسان: قياس في مخالفة النص فهو مردود كقياس إبليس، وقياس يوافق الأصول عند عدم النص فهو مقبول كقياس العلماء يقيسون ما لا نص فيه بما فيه نص ودليل، وابن عباس يقول: (من قاس الدين بشيء من رأيه)، ولا يجوز أن يقاس الدين بما يراه الإنسان من رأيه".

قال ابو الحسن الأشعري:"وأجمعوا على أنه ليس لأحد من الخلق الاعتراض على الله تعالى في شيء من تدبيره، ولا إنكار لشيء من فعله إذْ كان مالكًا لما يشاء منها غير مملوك وأنه تعالى حكيم قبل أن يفعل سائر الأفعال، وأن جميع ما يفعله لا يخرجه عن الحكمة، وأن من يعترض عليه في أفعاله متبع لرأي الشيطان حين امتنع من السجود لآدم عليه السلام وزعم أن ذلك فساد في التدبير وخروج من الحكمة حين قال: {أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ} ".

قوله تعالى: {قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا} [ص: ٧٧].

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره لإبليس: {فَاخْرُجْ} من الجنة".

قال النسفي: أي:"من السماء أو من الجنة أو من جملة الملائكة".

قال ابن كثير:"يقول آمرًا لإبليس أمرًا كونيًّا لا يخالف ولا يمانع، بالخروج من المنزلة التي كان فيها من الملأ الأعلى".

قال: ابن عباس: "يريد: من الجنة، وكانوا في جنة عدن، وفيها خلق آدم".

قوله تعالى: {فَإِنَّكَ رَجِيمٌ} [ص: ٧٧]، أي:"فإنك مرجوم بالقول، مدحور ملعون".

قال الطبري: يقول: " فإنك مرجوم بالقوم، مشتوم ملعون".

قال الزجاج:"أي: فإنَّكَ لَعين، معناه فإنك مرجوم باللعنة".

قال البغوي: أي:"طريد".

=

قال ابن كثير:"وإنه قد أتبعه لعنةً لا تزال متصلة به، لاحقةً له، متواترة عليه إلى يوم القيامة".

قال ابن عطية:"والـ «رَجِيمٌ»: المشتوم، أي: المرجوم بالقول والشتم".

قال النحاس:"أي: مرجوم بالكواكب والشهب".

قال الزمخشري: " «رجيم» شيطان من الذين يرجمون بالشهب، أو مطرود من رحمة الله، لأن من يطرد يرجم بالحجارة. ومعناه: ملعون، لأن اللعن هو الطرد من الرحمة والإبعاد منها. والضمير في «منها» راجع إلى الجنة أو السماء، أو إلى جملة الملائكة".

قال النسفي:"مطرود من رحمة الله، معناه: ملعون، لأن اللعنة هو الطرد من الرحمة والإبعاد منها".

قال قتادة:"والرجيم: اللعين".

عن ابن جريج: " {فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ}، قال: ملعون. والرجم في القرآن: الشتم".

قال سعيد بن جبير: "لما لعن الله إبليس، تغيرت صورته عن صورة الملائكة، ورن رنةً، فكل رنة في الدنيا إلى يوم القيامة منها".

قوله تعالى: {وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ} [ص: ٧٨]، أي:"وإن عليك طردي وإبعادي إلى يوم الجزاء والحساب".

قال الطبري:"يقول: وإن لك طردي من الجنة إلى يوم مجازاة العباد ومحاسبتهم".

قال الزجاج:"يوم تدان كل نفس بما كسبت، ومعنى يوم الدين يوم الجزاء".

قال البغوي: " قيل: إن أهل السموات يلعنون إبليس كما يلعنه أهل الأرض، فهو ملعون في السماء والأرض".

=

=

قال ابن عطية:"يَوْمِ الدِّينِ يوم الجزاء، ومنه قول الشاعر:

ولم يَبْقَ سوى العُدْوا... نِ دِنَّاهم كما دَانُوا".

عن قتادة: {يَوْمِ الدِّينِ}، قال: " يوم يدين الله الناس فيه بأعمالهم".

وقال مجاهد: "يوم الحساب".

قال النسفي:"ضرب «يوم الدين» حد اللعنة، لأنه أبعد غاية يضربها الناس في كلامهم والمراد به: إنك مذموم مدعو عليك باللعنة في السموات والأرض إلى يوم الدين من غير أن تعذب، فإذا جاء ذلك اليوم عذبت بما ينسى اللعن معه".

قوله تعالى: {قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٧٩)} [ص: ٧٩].

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: قال إبليس لربه: ربّ فإذ لعنتني، وأخرجتني من جنتك: فأخرني في الأجل، ولا تهلكني إلى يوم تبعث خلقك من قبورهم".

قال السمعاني:"أي: أمهلني، سأل المهلة إلى القيامة".

قال السعدي: وذلك "لشدة عداوته لآدم وذريته، ليتمكن من إغواء من قدر الله أن يغويه".

قال البغوي: " أراد الخبيث أن لا يموت".

قال القرطبي:"هذا السؤال من إبليس لم يكن عن ثقته منه بمنزلته عند الله تعالى، وأنه أهل أن يجاب له دعاء، ولكن سأل تأخير عذابه زيادة في بلائه، كفعل الآيس من السلامة. وأراد بسؤاله الإنظار إلى يوم يبعثون: ألا يموت، لأن يوم البعث لا موت فيه ولا بعده".

قال أبو السعود:"أراد بذلك أن يجد فسحة لإغوائهم ويأخذ منهم ثأره وينجو من الموت لاستحالته بعد يوم البعث".

قال ابن كثير:"وإنه لما تحقق الغضب الذي لا مَرَدَّ له، سأل من تمام حسده لآدم وذريته النظرة إلى يوم القيامة، وهو يوم البعث".

=

=

وفي قوله تعالى: {قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ} [ص: ٧٩]، وجهان:

أحدهما: أنه سأله الإنظار بالعقوبة إلى البعث وهو يوم القيامة. حكاه الماوردي.

والثاني: أنه سأله الإنظار بالحياة إلى يوم يبعثون وهو يوم القيامة لئلا يذوق الموت، فَأُجِيْبَ بالإنظار إلى «يوم الوقت المعلوم»، وهي النفخة الأولى ليذوق الموت بين النفختين، وهو أربعون سنة، قاله ابن عباس.

قال ابن عباس: "أراد إبليس إن لا يذوق الموت، فقيل: فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم قال: النفخة الأولى يموت فيها إبليس، وبين النفخة والنفخة أربعون سنة. قال: فيموت إبليس أربعون سنة".

قوله تعالى: {قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (٨٠) إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (٨١)} [ص: ٨٠ - ٨١].

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: قال الله لإبليس: فإنك ممن أنظرته إلى يوم الوقت المعلوم، وذلك الوقت الذي جعله الله أجلا لهلاكه".

قال السعدي: " فـ (قال) الله مجيبا لدعوته، حيث اقتضت حكمته ذلك: {فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ} حين تستكمل الذرية، يتم الامتحان".

قال ابن كثير: "أجيب إلى ذلك استدراجًا له وإمهالا".

وقال ابن كثير: "أجابه تعالى إلى ما سأل، لما له في ذلك من الحكمة والإرادة والمشيئة التي لا تخالف ولا تمانع، ولا مُعَقِّبَ لحكمه، وهو سريع الحساب".

قال القرطبي: "وكان طلب الإنظار إلى النفخة الثانية حيث يقوم الناس لرب العالمين، فأبى الله ذلك عليه. وقال: {إلى يوم يبعثون}، ولم يتقدم من يبعث، لأن القصة في آدم وذريته، فدلت القرينة على أنهم هم المبعوثون".

قال النسفي: "قيل: إنما سأل الإنظار إلى اليوم الذي فيه يبعثون لئلا يموت، لأنه لا يموت يوم البعث أحد فلم يجب إلى ذلك وانظر إلى آخر أيام التكليف".

=

=

قال السدي:"فلم ينظره إلى يوم البعث، ولكن أنظره إلى الوقت المعلوم".

وفي معنى «الوقت المعلوم»، ثلاثة وجوه:

أحدها: أنه معلوم عند الله تعالى، مجهول عند إبليس، فيموت إبليس ثم يبعث. حكاه الماوردي.

وقال الزجاج:"الَّذِي لَا يَعْلَمُه إِلا اللهُ، ويوْم الوَقْتِ يَومُ القيامة".

وقال الزمخشري:"معنى المعلوم: أنه معلوم عند الله معين، لا يستقدم ولا يستأخر".

الثاني: إلى يوم النفخة الأولى يموت إبليس. وبين النفخة والنفخة أربعون سنة. فتكون مدة موت إبليس أربعين سنة، وهو قول ابن عباس، وسفيان، وبه قال مقاتل، وبه قال الطبري.

قال ابن عباس:"أراد إبليس إن لا يذوق الموت، فقيل: فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم قال: النفخة الأولى يموت فيها إبليس، وبين النفخة والنفخة أربعون سنة. قال: فيموت إبليس أربعون سنة".

قال النحاس:"هو يوم يموت الخلق فيه فأخّر إليه تهاونا به وأنه لا يصل إلّا لي الوسوسة، ولا يفسد إلّا من كان لا يصلح لو لم يوسوسه".

الثالث: أن أمره كان إلى يوم بدر وأنه قتل يوم بدر. حكاه ابن عطية، وضعّفه.

قال الماوردي:"وسمي «يوم الوقت المعلوم»، لموت جميع الخلائق فيه".

قال السمعاني:"هذا الإنظار إلى النفخة الأولى، كما قال.. مقيدا: {إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ} [الحجر: ٣٨، ص:٨١]، وأراد به: النفخة الأولى، فإن قيل: وهل يجوز أن يجيب الله دعوة الكافر؛ حيث أجاب دعوة اللعين؟ قيل: يجوز على طريق الاستدراج والمكر والإملاء لا على سبيل الكرامة".

=

=

قال الزمخشري:"فإن قلت: لم أجيب إلى استنظاره، وإنما استنظر ليفسد عباده ويغويهم؟

قلت: لما في ذلك من ابتلاء العباد، وفي مخالفته من أعظم الثواب، وحكمه حكم ما خلق في الدنيا من صنوف الزخارف وأنواع الملاذ والملاهي، وما ركب في الأنفس من الشهوات ليمتحن بها عباده".

قوله تعالى: {قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ} [ص: ٨٢].

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: قال إبليس: بقدرتك وسلطانك وقهرك ما دونك من خلقك لأضلَّنّ بني آدم أجمعين".

قال النحاس:"أي: لاستدعينّهم إلى المعاصي التي يغوون من أجلها، أي: يخيبون".

قال ابن ابي زمنين والبغوي: " أي: لأضلنهم، {أجمعين} ".

قال القرطبي:"أي: لأضلنهم عن طريق الهدى".

قال السعدي: " فلما علم أنه منظر، بادى ربه، من خبثه، بشدة العداوة لربه ولآدم وذريته، فقال: {فَبِعِزَّتِكَ لأغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ} يحتمل أن «الباء» للقسم، وأنه أقسم بعزة الله ليغوينهم كلهم أجمعين، ويحتمل أن «الباء» للاستعانة، وأنه لما علم أنه عاجز من كل وجه، وأنه لا يضل أحدا إلا بمشيئة الله تعالى، فاستعان بعزة الله على إغواء ذرية آدم هذا، وهو عدو الله حقا".

قال الزمخشري:"{فَبِعِزَّتِكَ} : إقسام بعزة الله تعالى وهي سلطانه وقهره".

قال قتادة:"علم عدوّ الله أنه ليست له عزّة".

وعن أبي سعيد، رضي الله عنه أن رسول الله - ﷺ - قال: " إن الشيطان قال: وعزتك يا رب لا أبرح أغوي عبادك ما دامت أرواحهم في أجسادهم، فقال الرب تبارك وتعالى: وعزتي وجلالي لا أزال أغفر لهم ما استغفروني".

=

=

قوله تعالى: {إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ} [ص: ٨٣]، أي:"إلا مَن أخلصتَه منهم لعبادتك، وعصمتَه من إضلالي، فلم تجعل لي عليهم سبيلا، فإني لا أقدر على إضلاله وإغوائه".

قال الطبري: يقول:"إلا من أخلصته منهم لعبادتك، وعصمتَه من إضلالي، فلم تجعل لي عليه سبيلا فإني لا أقدر على إضلاله وإغوائه".

قال مقاتل:"يعني: أهل التوحيد، وقد علم إبليس أن الله استخلص عبادا لدينه ليس له عليهم سلطان، فذلك قوله سبحانه: {إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ} [الحجر: ٤٢، الإسراء: ٦٥]، يعني: ملك أن تضلهم عن الهدى {وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا} [الإسراء: ٦٥]، يعني: حرزا ومانعا لعباده".

قال البغوي: أي:"المؤمنين الذين أخلصوا لك الطاعة والتوحيد، ومن فتح «اللام»، أي: من أخلصته بتوحيدك واصطفيته".

قال الزجاج: «الْمُخْلَصِينَ» " بفتح اللام، أَخْلَصَهُم الله لِعِبَادَتِه، ومن كسر اللام، فإنَّمَا أراد الَّذِين أَخْلَصُوا دينَهُمْ الله".

قال السعدي: " علم أن الله سيحفظهم من كيده".

عن الضحاك: {إِلا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ}، يعني: المؤمنين".

قال قتادة: هذه ثَنِيَّة الله تعالى ذكره".

قال ابن فورك:"استثنى إبليس {إلا عبادك منهم المخلصين} مع حرصع على إغواء الجميع؛ لأنه أيس ممن يعلم أنه لا يجيب، وليس له سلطان إلا بالإغواء".

قال سهل بن عبد الله:"الناس كلهم أموات إلا العلماء، والعلماء كلهم نيام إلا العاملين، والعاملون كلهم مغترون إلا المخلصين، والمخلصون على خطر عظيم".

=

=

عن أبي قلابة: "أن إبليس، لما جعل الله عليه اللعنة فسأله النظرة إلى يوم الدين فأنظره ، قال: فبعزتك لا أخرج من صدر عبد حتى تخرج نفسه ، قال: «وعزتي لا أحجب توبتي عن عبدي حتى تخرج نفسه».

قوله تعالى: {قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ} [ص: ٨٥].

قال القاسمي:"جملة معترضة، للتأكيد، أي: ولا أقول إلا الحق".

قال السعدي:"أي: الحق وصفي، والحق قولي".

قال ابن كثير:"وهذه الآية الكريمة كقوله تعالى: {وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ} [السجدة: ١٣] وكقوله تعالى: {قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا} [الإسراء: ٦٣] ".

عن السديّ، قوله: " {قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ}، قال: قسم أقسم الله به".

عن مجاهد، قوله:"{فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ}، يقول الله: أنا الحقُّ، والحقَّ أقول".

وعن مجاهد-أيضا-:"يقول الله: الحقُّ مني، وأقول الحقّ".

وقرأ عاصم، وحمزة {فالحق} الرفع، {والحق أقول} النصب، وقرأ الباقون كلاهم بالنصب.

قال الزجاج:"فَمن رَفَع فعلى ضربين: على معنى فَأنا الحقُّ، والحقُّ أقُولُ. ويجوز رفْعُه علي معْنَى فَالحَقُّ مِنِّي. ومن نصب فعلى معنى: فالحقَّ أَقُولُ والحقَّ لأملأن جهنم حَقًّا".

قوله تعالى: {لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ} [ص: ٨٥]، أي:"لأملان جهنم منك ومن ذريتك وممن تبعك من بني آدم أجمعين".

قال الطبري:"يقول لإبليس: لأملأن جهنم منك وممن تبعك من بني آدم أجمعين".

قال القرطبي:"أي: من نفسك وذريتك {وممن تبعك} من بني آدم {أجمعين} ".

=

قال القاسمي:"لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين أي تبعك في التعزز والاستكبار والإباء عن الحق والمحاجة في الباطل".

قال العثيمين: قوله تعالى: {إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ (٧١)} قال المصنف: [اذكر {إِذْ قَالَ}]، فأفادنا رحمه الله أن {إِذْ قَالَ} متعلق بمحذوف تقديره: اذكر {إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ (٧١)} هو آدم، وقوله: {إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا} بشرًا: مفعول به لخالق لاستكمال شروط العمل [{فَإِذَا سَوَّيْتُهُ}: أتممته {وَنَفَخْتُ}: أجريت {فِيهِ مِنْ رُوحِي} فصار حيًّا...] إلى آخره. قال المصنف: [{وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي} أجريت] وكأنه رحمه الله أَوَّلَ النفخ بالإجراء، ولكن هذا خلاف ظاهر الآية، فظاهر الآية أن الله تعالى نفخ فيه من روحه، وهذا النفخ نثبته على ظاهره، لكن بدون أن يكون مماثلًا لنفخ المخلوقين. وتفسيره بالإجراء تفسير باللازم؛ لأنه إذا نفخ فيه الروح لزم أن تجري في البدن وتسري فيه.

وقوله: {فِيهِ مِنْ رُوحِي} قال المصنف: [إضافة الروح إليه تشريف لآدم] يعني من روحي، ليس المراد من جزء مني، ولكن المراد من روحي، أي: من الأرواح التي خلقتها، وأضافها الله إلى نفسه تشريفًا وتعظيمًا، كما أضاف البيت إليه في قوله: {وَطَهِّرْ بَيْتِيَ} [الحج: ٢٦] وكما أضاف المساجد إليه في قوله: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ} [البقرة: ١١٤] وكما أضاف الناقة إليه في قوله تعالى: {هَذِهِ نَاقَةُ اللهِ لَكُمْ آيَةً} [الأعراف: ٧٣] فالمضاف إلى الله إذا كان مخلوقًا فإن إضافته إليه تكون من باب التشريف والتعظيم، إذا كان هذا خاصًّا، أما إذا كان عامًّا فهو من باب الشمول والعموم، كقوله: {وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ} [الجاثية: ١٣].

=

ثم قال: {فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي} [ص: ٧٢] قال المصنف: [والروح جسم لطيف يحيا به الإنسان بنفوذه فيه] لو قال المصنف: يحيا به الكائن الحي لكان أعم، لأن الإنسان له روح، والبهائم لها روح، وقول المصنف: [جسم لطيف] أما كونه جسمًا فلأنه ثبت في القرآن الكريم أنها تقبض وتتوفى، وثبت في السنة أنها تكفن، تلف في الكفن إما من الجنة أو النار، وهذا يدل على أنها جسم، لكنه جسم لطيف لا يرى بالعين، إذا حل في الجسد حَيِيَ، وإذا فقد من الجسد صار الجسد جمادًا.

ونحن نشاهد مما يصنعه الآدمي ما يكون مثل هذا، إذا كان عندك سالب وموجب في الكهرباء واتصل بعضهما ببعض يسري التيار الكهربائي في المصباح الكهربائي فيضيء، والتيار الكهربائي شيء لا يرى بالعين، وإذا فقد أو قطع التيار أظلم المصباح. هذا وهو من صنع البشر، فكيف بالأمور الخارقة التي لا يعلمها إلا الله {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي} [الإسراء: ٨٥]. وهذا الذي فسر المصنف الروحَ به هو أحسن ما قيل في تفسير الروح.

يقول الله تعالى: {فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٧٢)} قعوا: فعل أمر، والوقوع معناه: خروا على الأرض ساجدين، قال المصنف: [سجود تحية بالانحناء] أما قوله: سجود تحية، فلا شك أن هذا هو المراد، يعني لا سجود عبادة، وأما قوله: بالانحناء ففيه نظر؛ لأن السجود هو الوقوع على الأرض، وهو ظاهر الآية، ولكن يقال: إن هذا السجود تحية كان جائزًا، ولكنه نسخ بعد ذلك {سَاجِدِينَ (٧٢)} محلها من الأعراب حال من الفاعل في قعوا.

قال الله تعالى: {فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٧٣)} [فيه تأكيدان، وهما: كل وأجمعون {إِلَّا إِبْلِيس} قال المصنف: [هو أبو الجن كان بين الملائكة] قوله: هو أبو الجن دليله قوله تعالى: {أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي} [الكهف: ٥٠]

=

=

والدليل على أنه من الجن قوله تعالى: {إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ} [الكهف: ٥٠] إذن فالجن ذرية الشيطان، والإنس ذرية آدم. نعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

قال المصنف: [{إِلَّا إِبْلِيسَ} كان بين الملائكة] ولم يقل المصنف: كان من الملائكة، لأن الله سبحانه وتعالى قال: {إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ} [الكهف: ٥٠] إذن هو كان بينهم، ومن كان بين الناس فهو من الناس، قال النبي ﷺ: "إن مولى القوم من أنفسهم" فهذا إبليس كان مع الملائكة يتعبد بعبادتهم فصح أن يشمله الخطاب الموجه إلى الملائكة، ولهذا لامه اللهُ على عدم السجود، فدلَّ على أن الخطاب كان شاملًا له.

{إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٧٤)} [في علم الله]، قول المصنف: [في علم الله] بناء على أن "كان" تدل على المضي، ولكنه قد مرَّ علينا أن "كان" قد تكون مسلوبة الدلالة على الزمان، ويكون المراد بها الاتصاف بخبرها، كما في قوله تعالى: {وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٩٦)} [النساء: ٩٦] المعنى اتصف بالرحمة. إذًا نقول في هذه الآية {وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ} أي: واتصف بالكفر، ولا حاجة أن نقول: كان في علم الله، لأننا نقول: إن "كان" هنا مسلوبة الدلالة على الزمن فالمراد بها مجرد الاتصاف.

{قَالَ يَاإِبْلِيسُ} الفاعل في قال هو الله، لأنه قال: {فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٧٢)} قال: {قَالَ يَاإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ} يعني: أي شيء منعك؟ وهذا الاستفهام للتوبيخ والتعجب. يعني كيف تمتنع لمن خلقته بيدي، فالله تعالى خلق آدم بيديه، وهذا شرف له، وأمر الملائكة، وكان بينهم إبليس، بالسجود له تشريفًا له، فما الذي منعك أن تسجد؟

=

=

قال المصنف في تفسير قوله: {بِيَدَيَّ} [أي: توليتُ خَلْقَه، وهذا تشريف لآدم، فإنَّ كلَّ مخلوق تولىّ الله خَلْقَه] عفا الله عنك أيها المصنف يقول: [توليتُ خَلْقَه] فرارًا من إثبات اليد لله، ولا شك أن هذا تحريف، وأجاب عن الإضافة في قوله: {لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ} بأن هذا تشريف لآدم، وإلا مخلوق فإن الله قد تولى خَلْقَه.

وبناء على كلام المصنف لا يبقى لآدم عليه السلام فضل على سائر المخلوقات ما دمنا نفسر {خَلَقْتُ بِيَدَيَّ} أي: توليتُ خَلْقَه فإن الله تولى خلق بني آدم، وخلق الإبل والبقر والغنم وغير ذلك، فلم يبق لآدم فضل على أي أحد، بل لم يبقَ لآدم فضل على الشيطان الذي أبى أن يسجد، لأن الشيطان تولىَّ خلقه اللهُ عز وجل، ولهذا نقول إن المصنف: أخطأ في هذا، وأن معنى الآية: أن الله تعالى خلقَ آدمَ بيده، وخلق غيرَ آدم من الشياطين والملائكة بكلمته، أي: بقول كن، أما آدم فبيده، وهذا هو وجه الميزة والخصيصة لآدم عليه السلام أن الله خلقه بيده.

{أَسْتَكْبَرْتَ} [الآن عن السجود؟ استفهام للتوبيخ {أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ (٧٥)} المتكبرين، فتكبرت عن السجود] مع الذين منزلتهم فوق، لأن الذي يأبى إما أن يكون في مكان أرفع فيكون مستحقًا للإباء، أو يكون مستكبرًا وموضعه دُونٌ، فيجعل نفسه في محل عالٍ، والله يقول له: هل أنت مستكبر أو أنك عالٍ في مرتبة أعلى من آدم، بل أعلى ممن أمرك ما الجواب؟

قال المصنف: [{أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ (٧٥)} المتكبرين، فتكبرت عن السجود لكونك منهم] أي: من العالين، وأما قول المصنف: إن العالين هم المتكبرون فإنه يؤدي إلى أن لا يكون فرق بين المتقابلين، لأنه قال: {أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ (٧٥)} ولم يقل: من المتكبرين، ولذلك يعتبر تفسير المتعالين بالمتكبرين خطأ بل {أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ (٧٥)} أي: الذين علت منزلتهم بحيث لا يوجه إليهم الأمر بالسجود لمن هو دونهم، فإباء الشيطان عن السجود لآدم إما أن يكون

=

لوصف يستحقه، وهذا يدل عليه {أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ (٧٥)} أو لوصف لا يستحقه ولكنه استكبر، ورأى نفسه كبيرًا، وهذا في قوله: {أَسْتَكْبَرْتَ}.

قال الشيطان جوابًا على سؤال الله تعالى: {أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (٧٦)}، {خَيْرٌ مِنْهُ} من آدم، وهذه دعوى، وكل إنسان يضيف الشيء إلى نفسه فإنه مدعٍ، وهذه قاعدة في الفقه، والمدعي عليه البينة. أتى إبليس ببينته فقال: {خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ} ولهذا نقول الجملة هنا استئنافية لبيان وجه الخيرية {خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (٧٦)}، سبحان الله، الذي يُخلَق من النار خير من الذي يُخلَق من الطين، مع أن النار التي خُلِق منها الشيطان ليست هي نارًا مضيئة إنما هي {مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ} [الرحمن: ١٥] أي: النار التي تكون في أعلى اللهب بين الدخان وبين النار المضيئة، حمراء معتمة، إنه اللهب المختلط بسواد النار، هذا المخلوق من هذه النار أيكون خيرًا من المخلوق من الطين البارد النافع؟ سبحان الله، هذا قلب للحقائق، ولهذا نقول: هذه دعوى مستندة إلى بينة زائفة باطلة. الدعوى {أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ} والبينة {خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (٧٦)} وهذه ليست بينة، هذه حجة عليه وليست حجة له، وقد ذكر أهل العلم في هذا المقام بيان أن ما خُلق منه آدم خير مما خُلق منه إبليس.

قال الله تعالى: {قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا} قيل: من الجنة، وقيل: من السماوات. والملائكة كلهم في الجنة في السماوات {فَاخْرُجْ مِنْهَا} أي: من السماوات هو أقرب للفظ. {فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٧٧)} رجيم، أي: مرجوم فهي فعيل بمعنى مفعول، ومعنى مرجوم، أي: مطرود مُبعَد، كما يبعد الإنسان إذا رجم، ومن المعلوم أن الرجل إذا أردنا أن نبعده كثيرًا صحنا به أولًا، فإذا هرب أتبعناه الحجارة فكان هذا أشد إبعادًا.

=

{وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ (٧٨)} حاقة عليك لعنة الله، أي: طرده وإبعاده {إِلَى يَوْمِ الدِّينِ (٧٨)} يوم الجزاء، وبعد يوم الدين لا تزول اللعنة لكنها إذا امتدت إلى يوم الدين فمعناه أنه قانط من رحمة الله، لا يمكن أن يُرحم. والذي تبقى معه اللعنة إلى يوم الدين لا يمكن أن تناله الرحمة.

قال الله تعالى: {قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٧٩)} أي: الناس {قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (٨٠) إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (٨١)} طلب من الله أن يُنظِرَه إلى يوم بعث الناس، فهل أجابه الله إلى طلبه؟ أجابه الله إلى يوم الوقت المعلوم، قال المصنف: [وقت النفخة الأولى] أي: قبل البعث، لأن الناس لا يبعثون إلا في النفخة الثانية، لكنهم يصعقون في النفخة الأولى، وهو أي: الشيطان إنما يريد أن يبقى حتى لا يبقى من بني آدم أحد، لأنه صار في نفسه غِلّ وحِقْد عظيم على آدم وذريته، كيف أُمر أن يسجد له؟ وكيف حكم بكفره لما أبى؟ صار في نفسه غِلّ وحِقْد، فسأل الله أن يبقيه إلى يوم البعث، فأجابه الله أن يبقى إلى يوم الوقت المعلوم، وإجابة الله إياه لحِكَم عظيمة نذكرها إن شاء الله مع الفوائد.

{قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣)} {قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ} يحتمل أن تكون الباء للقسم، ويحتمل أن تكون للاستعانة، فإن قلنا: إنها للقسم فقد أقسم بعزة الله، واختياره الإقسام بالعزة، لأن العزة فيها الغلبة، فأقسم بوصف لله يكون به الغلبة، وإن قلنا: إنها للاستعانة فظاهر أن الاستعانة بعزة الله التي إذا أعان الله بها العبد غلب. {لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢)} اللام الواقعة في جواب القسم في قوله: {لَأُغْوِيَنَّهُمْ} تؤيد أن الباء هنا للقسم؛ لأن هذا هو جواب القسم، وأغوينهم، أي: أسلك بهم طريق الغي، وهو خلاف طريق الرشد {إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ} أي: من بني آدم {الْمُخْلَصِينَ (٨٣)} الذين أخلصتهم.

=

وهـذا كقولـه تعـالى: {إِنَّ عِبَـادِي لَـيْسَ لَـكَ عَلَـيْهِمْ سُـلْطَانٌ إِلَّا مَـنِ اتَّبَعَـكَ مِـنَ الْغَاوِينَ} [الحجر: ٤٢].

قال الله تعالى: {قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ (٨٤) لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٥)} {قَالَ فَالْحَقُّ} الحق: مبتدأ لأنه متضمن معنى القسم بدليل أنه أُخبر عنه بجواب القسم وهو قوله: {لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ} وقد أعربه المصنف فقال: [بنصبهما ورفع الأول ونصب الثاني] {قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ (٨٤)} فَنَصْبُهُ بالفعل بعده، أي: أن {وَالْحَقَّ} مفعول مقدَّم لأقول، أي: لا أقول إلا الحقّ، وتقديم المفعول أفاد الحصر، [ونصب الأول، قيل: بالفعل المذكور، وقيل: على المصدر، أي: أُحِقُّ الحقَّ، وقيل: على نزع حرف القسم، ورفعه على أنه مبتدأ محذوف الخبر، أي: فالحقُّ مني، وقيل: فالحقُّ قسمي، وجواب القسم {لَأَمْلَأَنَّ}].

إعرابات متعددة بنصبهما، نقول الثاني نصبه بالفعل بعده وهو واضح {وَالْحَقَّ أَقُولُ (٨٤)} لأن الفعل بعده لم يستكمل مفعوله، ولم نجد مفعولًا له إلا الحق الذي سبق، إذًا الحق الثانية منصوبة بأقول على كل حال، والخلاف في الأولى، الأولى إما منصوبة وإما مرفوعة، نصبها فيه أوجه: قيل: بالفعل المذكور، أي: فالحقَّ أقول والحقَّ أقول، فيكون الحق الأولى والثانية منصوبة بأقول، كما لو قلت: زيدًا وعَمْرًا ضربتُ، فزيدًا وعمرًا منصوبان بضربت، إذن الحق، والحق منصوبان كلاهما بأقول، وقيل على المصدر أي: فأُحِقُّ الحقَّ، وعلى هذا فيكون مصدرًا عامله محذوف تقديره: فأحق الحق، وقيل: على نزع حرف القسم، يعني فبالحق أقسم؛ لأنه إذا نزع الخافض نصب المخفوض، ولهذا يرد كثيرًا قولهم: منصوب بنزع الخافض، هذه ثلاثة أوجه، ورفع (الحقُّ) الأولى على أنه مبتدأ محذوف الخبر، أي: فالحقُّ مني، وهذا ضعيف، وقيل: فالحق قسمي، وهذا أقل

قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ (٨٦).

{قُلْ مَا أَسْأَلكُمْ عَلَيْهِ} عَلَى تَبْلِيغ الرِّسَالَة {مِنْ أَجْر} جُعْل {وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ} الْمُتَقَوِّلِينَ الْقُرْآن مِنْ تِلْقَاء نَفْسِي.

إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (٨٧).

{إنْ هُوَ} أَيْ مَا الْقُرْآن {إلَّا ذِكْر} عِظَة {لِلْعَالَمِينَ} لِلْإِنْسِ وَالْجِنّ وَالْعُقَلَاء دُون الْمَلَائِكَة.

وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ (٨٨).

{وَلَتَعْلَمُنَّ} يَا كُفَّار مَكَّة {نَبَأَهُ} خَبَر صِدْقه {بَعْد حِين} أَيْ يَوْم الْقِيَامَة وَعَلِمَ بِمَعْنَى عَرَفَ وَاللَّام قَبْلهَا لَام قَسَم مُقَدَّر أَيْ وَاَللَّه[1].

=

ضعفًا من الأول، والذي يظهر لي أنه لا حاجة إلى هذا، والأحسنُ أن نقول: الحقّ: مبتدأ ضُمّن معنى القسم، وأجيب بقوله: {لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ} وصار في جواب القسم كفاية عن خبر المبتدأ، واستغني بجواب القسم عن خبر المبتدأ كما يستغني بجواب القسم عن جواب الشرط فيما إذا اجتمع شرط وقسم.

قال: {لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ} {لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ} المراد الجنس ولهذا قال المصنف: [بذريتك {وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ} أي: الناس، الذين أقسمت أن تغويهم {أَجْمَعِينَ}. ولهذا كانت النار دارًا لصنفين من المخلوقات فقط، وهما الجن والإنس، فالملائكة ليسوا من أهلها، والوحوش والحشرات وغيرها ليسوا من أهلها، لا يدخل النار إلا صنفين من المخلوقات، وهما الناس والجن.

(١)قوله تعالى: {قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ} [ص: ٨٦].

=

=

قال الطبري: يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل يا محمد لمشركي قومك، القائلين لك: {أَؤُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا} : ما أسألكم على هذا الذكر وهو القرآن الذي أتيتكم به من عند الله ثوابًا وجزاء".

قال القرطبي:"أي: من جعل على تبليغ الوحي، وكنى به عن غير مذكور، وقيل هو راجع إلى قوله: {أأنزل عليه الذكر من بيننا} [ص: ٨] ".

قال ابن كثير:"يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين: ما أسألكم على هذا البلاغ وهذا النصح أجرا تعطونيه من عرض الحياة الدنيا".

قال السعدي:"فلما بين الرسول للناس الدليل ووضح لهم السبيل قال الله له: {قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ} أي: على دعائي إياكم {مِنْ أَجْرٍ} ".

عن ابن زيد:"قال: لا أسألكم على القرآن أجرا تعطوني شيئا".

قال عطاء بن دينار:"لا أسألكم على ما جئتكم به أجرا".

قال السدي: " {قل ما}، يعني: الذي سألتكم من أجر فهو لكم".

قوله تعالى: {وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ} [ص: ٨٦]، أي:"ولا أدَّعي أمرًا ليس لي، بل أتبع ما يوحى إليَّ، ولا أتكلف تخرُّصًا وافتراءً".

قال الطبري:"يقول: وما أنا ممن يتكلف تخرصه وافتراءه، فتقولون: {إِنْ هَـذَا إِلا إِفْكٌ افْتَرَاهُ} و {إِنْ هَذَا إِلا اخْتِلاقٌ} ".

قال القرطبي:"أي: لا أتكلف ولا أتخرص ما لم أومر به".

قال ابن كثير:"أي: وما أزيد على ما أرسلني الله به، ولا أبتغي زيادة عليه بل ما أمرت به أديته لا أزيد عليه ولا أنقص منه وإنما أبتغي بذلك وجه الله عز وجل والدار الآخرة".

قال السعدي:"أدعي أمرا ليس لي، وأقفو ما ليس لي به علم، لا أتبع إلا ما يوحى إليّ".

=

=

عن ابن زيد: "وما أنا من المتكلفين أتخرّص وأتكلف ما لم يأمرني الله به".

عن مسروق قال: "أتينا عبد الله بن مسعود قال: يا أيها الناس من علم شيئا فليقل به ومن لا يعلم فليقل: الله أعلم، فإن من العلم أن يقول الرجل لما لا يعلم: الله أعلم، فإن الله قال لنبيكم ﷺ: {قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ} ".

عن أرطاة بن المنذر، قال: "آية المتكلف ثلاث: يتكلم فيما لا يعلم، وينازع من فوقه، ويتعاطى ما لا ينال".

عن الربيع بن خثيم -من طريق منذر الثوري- أنه قال: "يا عبد الله، ما علَّمك اللهُ في كتابه مِن عِلْمٍ فاحمد الله، وما استأثر عليك به مِن علم فكِلْه إلى عالمه، ولا تتكلف؛ فإن الله - عز وجل - يقول لنبيه - ﷺ -: {قُلْ ما أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِن أجْرٍ وما أنا مِنَ المُتَكَلِّفِينَ * إنْ هُوَ إلّا ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ * ولَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ} ".

عن أبي موسى الأشعري، قال: "مَن علَّمه الله علمًا فليعلمه، ولا يقولن ما ليس له به علم فيكون مِن المتكلفين ويمرق من الدين".

عن عمر بن الخطاب -من طريق سعيد بن المسيب- أنّه صعد المنبر، فحمد الله، وأثنى عليه، ثم قال: أيُّها الناس، مَن آتاه الله - عز وجل - عِلمًا فليتق الله، وليعلِّمه الناس، ولا يكتمه، فإنه من كتم علمًا يَعلَمه كان كمن كتم ما أنزل الله تعالى على نبيِّه، وأمره أن يعلمه الناس، ومن لم يعلم فليسكت، وإيّاه أن يقول ما لا يعلم فيهلك، ويصير من المتكلفين، ويمرق من الدين، وإن الله - عز وجل - قال: {قُلْ ما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِن أجْرٍ وما أنا مِنَ المُتَكَلِّفِينَ}، مَن أفتى بغير السُّنَّة فعليه الإثم".

قوله تعالى: {إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (٨٧)} [ص: ٨٧].

=

=

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل لهؤلاء المشركين من قومك: ما هذا القرآن إلا تذكير من الله {لِلْعَالَمِينَ} من الجنّ والإنس، ذكرهم ربهم إرادة استنقاذ من آمن به منهم من الهَلَكة".

قال السمعاني:"أي: عظة للعالمين".

قال القشيري:"يعنى القرآن، عظة لكم".

قال ابن كثير:"يعني: القرآن ذكر لجميع المكلفين من الإنس والجن".

قال السعدي:"{إِنْ هُوَ} أي: هذا الوحي والقرآن {إِلا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ} يتذكرون به كل ما ينفعهم، من مصالح دينهم ودنياهم، فيكون شرفا ورفعة للعاملين به، وإقامة حجة على المعاندين، فهذه السورة العظيمة، مشتملة على الذكر الحكيم، والنبأ العظيم، وإقامة الحجج والبراهين، على من كذب بالقرآن وعارضه، وكذب من جاء به، والإخبار عن عباد الله المخلصين، وجزاء المتقين والطاغين. فلهذا أقسم في أولها بأنه ذو الذكر، ووصفه في آخرها بأنه ذكر للعالمين".

واختُلِف في معنى: «العالمين»، على أقوال:

أحدها: أن العالم كل ما خلقه الله تعالى في الدنيا والآخرة، وهذا قول أبي إسحاق الزجَّاج، وقتادة، ومجاهد، وابن عباس في رواية الضحاك عنه.

قال الثعلبي:"واحتجوا بقوله: {قالَ فِرْعَوْنُ وَما رَبُّ الْعالَمِينَ قالَ رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُمَا} [الشعراء:٢٣ - ٢٤] ".

الثاني: أنّه الإنس، والجنّ، وهذا قول ابن عباس، وسعيد بن جبير، ومجاهد، وابن جريج، ومقاتل.

ودليلهم قوله تعالى: {تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا} [الفرقان: ١]، ولم يكن نذيرا للبهائم.

=

=

كما ويقوي هذا القول، جمع الكلمة على «عالمون»، وهو جمع لايكون إلا مع العاقل! فيكون هذا دليلا على أن الحديث عن عوالم عاقلة.

الثالث: أن العالم: الدنيا وما فيها. حكاه الماوردي.

الرابع: أن أهل كل زمان عالم، لقوله تعالى: {أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ} [الشعراء: ١٦٥]، أي من الناس، وهذا قول الحسين بن الفضل، ومنه قول العجّاج:

فَخِنْدِفٌ هامَةُ هَذَا العَالَمِ... مبارك للأنبياء خاتم

وقال جرير بن الخطفى:

تنصفه البرية وهو سام... ويضحي العالمون له عيالا

الخامس: أن العالم عبارة عمن يعقل، وهم أربعة أمم: الإنس والجن والملائكة والشياطين، ولا يقال للبهائم: عالم، لأن هذا الجمع إنما هو جمع من يعقل خاصة. وهذا قول الفراء وأبي عبيدة.

السادس: أن العالمين، أي: المخلوقين. قاله أبو عبيدة، وأنشد قول لبيد بن ربيعة:

ما إن رأيت ولا سمعـ... تُ بمثلهم فى العالمينا

السابع: أنهم المرتزقون، قاله زيد بن أسلم، ونحوه قول أبي عمرو بن العلاء: هم الروحانيّون، وابن قتيبة، وهو معنى قول ابن عباس كذلك: "كل ذي روح دبّ على وجه الأرض".

الثامن: العالمون: أهل الجنة وأهل النار. حكاه الثعلبي عن جعفر الصادق.

والظاهر -والله أعلم- أن {العالَمين} : جمع عالم، وهو كل موجود سوى الله جل وعلا، و (العالَم) جمع لا واحدَ له من لفظه، و (العوالم) أصناف المخلوقات في السموات والأرض في البر والبحر، فالإنس عالَم، والجن عالَم، والملائكة عالَم. واختلفوا في مبلغ «العالمين» وكيفيتهم، على قولين:

=

=

أحدهما: أن الإنس عالم، والجن عالم، وما سوى ذلك ثمانية عشر ألف عالم، أو أربعة عشر ألف عالم من الملائكة على الأرض، والأرض أربع زوايا في كل زاوية ثلاثة آلاف عالم وخمسمائة عالم خلقهم لعبادته. قاله أبو العالية.

قال ابن كثير: " وهذا كلام غريب يحتاج مثله إلى دليل صحيح".

الثاني: أن «العالمين»: ألف أمة ستمائة في البحر، وأربعمائة في البر. وهذا قول تبيع.

وقال كعب الأحبار: "لا يحصي عدد العالمين إلّا الله، قال الله: {وَما يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ} [المدثر:٣١] ".

قال أبو حيان:"ونقل عن المتقدمين أعداد مختلفة في العالمين وفي مقارها، الله أعلم بالصحيح".

قوله تعالى: {وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ (٨٨)} [ص: ٨٨].

قال الطبري:"يقول: ولتعلمن أيها المشركون بالله من قريش نبأ هذا القرآن، وهو خبره، يعني: حقيقة ما فيه من الوعد والوعيد بعد حين".

قال النحاس:"أي: ولتعلمن أن القرآن وما أو عدتم فيه حق".

قال ابن كثير:"أي: خبره وصدقه، عن قريب".

قال السعدي:"أي: خبره {بَعْدَ حِينٍ} وذلك حين يقع عليهم العذاب وتتقطع عنهم الأسباب".

عن ابن زيد، قوله:" {وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ}، قال: صدق هذا الحديث نبأ ما كذّبوا به.، قيل: {نَبَأَهُ} حقيقة أمر محمد ﷺ أنه نبيّ".

واختلفوا في مدة الحين الذي ذكره الله في هذا الموضع، على أقوال:

أحدها: بعد الموت، قاله قتادة، وبه قال الزجاج.

وقال الحسن: "يابن آدم عند الموت يأتيك الخبر اليقين".

الثاني: يوم القيامة، قاله ابن زيد، وعكرمة.

=

=

قال ابن زيد:"يوم القيامة يعلمون نبأ ما كذبوا به بعد حين من الدنيا وهو يوم القيامة. وقرأ: {لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ}، قال: وهذا أيضا الأخرة يستقرّ فيها الحقّ، ويبطل الباطل".

قال ابن كثير:"ولا منافاة بين القولين [أي: الأول والثاني]؛ فإن من مات فقد دخل في حكم القيامة".

الثالث: يوم بدر، قاله السدي.

قال الطبري:"وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله أعلم المشركين المكذبين بهذا القرآن أنهم يعلمون نبأه بعد حين من غير حد منه لذلك الحين بحد، وقد علم نبأه من أحيائهم الذين عاشوا إلى ظهور حقيقته، ووضوح صحته في الدنيا، ومنهم من علم حقيقة ذلك بهلاكه ببدر، وقبل ذلك، ولا حد عند العرب للحين، لا يُجاوز ولا يقصر عنه. فإذ كان ذلك كذلك فلا قول فيه أصح من أن يطلق كما أطلقه الله من غير حصر ذلك على وقت دون وقت".

قال ابن عباس:"الحين حينان، فحين يعرف، وحين لا يعرف. فأما الذي لا يعرف: {لتعلمن نبأه بعد حين} ".

قال عكرمة:"سُئِلْت عن رجل حلف أن لا يصنع كذا وكذا إلى حين، فقلت: إن من الحين حينا لا يُدرك، ومن الحين حين يدرك، فالحين الذي لا يُدرك قوله: {وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ}، والحين الذي يدرك قوله {تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا}، وذلك من حين تُصْرَم النخلة إلى حين تُطْلِع، وذلك ستة أشهر".

قال العثيمين: قوله تعالى: {قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ} الخطاب للرسول ﷺ {مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ} أي: على ما جئت به وعلى تبليغه {مِنْ أَجْرٍ} من: زائدة، وأجر: مجرور لفظًا منصوب محلًا على أنها مفعول به ثان لقوله: {أَسْأَلُكُمْ}.

=

=

واعلم أن سأل إن تعدت بـ "عن" فهي بمعنى الاستفهام، وإن تعدت بنفسها نصبت مفعولين، فهي بمعنى طلب العطاء، فإنَّ قولك: سألته عن كذا، يعني: الاستفهام، وإذا قلت: سألته كذا، فهو طلب العطاء، وهنا سأل طلب عطاء وعلى هذا فإن {أَجْرٍ} محلها النصب، وقول المصنف: [جُعْل] تفسير لأجرٍ، يعني لست أطلب منكم أن تعطوني دراهم، أو تعطوني أرزاقًا، أو تزوجوني بناتكم، أو تسكنوني قصوركم على تبليغ الرسالة، ولكنه ﷺ إنما يسأل الأجر مِن الله عز وجل.

{وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ} أي: المتقولين القرآن من تلقاء نفسي، أي: وما أنا من المتقولين، ولكن عدل عن المتقولين إلى المتكلفين، لأن القرآن لا يمكن أن يأتي بمثله البشر حتى لو تكلف الإنسان وبذل الجهد، فإنه لا يمكن أن يأتي بمثله، ولما كان هذا القرآن لا يأتي بمثله البشر صار مَن أتى به متكلفًا لو كان جاء به من عنده، فهو يقول: أنا لا أتقول القرآن لا عن يسر ولا عن كلفة.

{إِنْ هُوَ} [أي: ما القرآن]. {إِنْ} فسرها المصنف ب "ما"، وقد ذكرنا علامة "إن" التي بمعنى "ما" أن يأتي بعدها "إلا". [{إِنْ هُوَ} أي: ما القرآن {إِلَّا ذِكْرٌ} عظة {لِلْعَالَمِينَ} للإنس والجن العقلاء دون الملائكة] وقول المصنف: [دون الملائكة]، إنْ أراد بإخراج الملائكة أنهم لا يكلفون بالعمل به فقد يكون مُسلّمًا، وإن أراد أنهم لا يتذكرون به ولا يتقربون به فهذا غير مسلم، لأن الله تعالى يقول: {كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ (١١) فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ (١٢) فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ (١٣) مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ (١٤) بِأَيْدِي سَفَرَةٍ (١٥) كِرَامٍ بَرَرَةٍ} [عبس: ١١ - ١٦] والمراد بهم الملائكة.

وقوله: {ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ} تقدم معنى الذكر في أول السورة، وتقدم قريبًا {هَذَا ذِكْرٌ} [ص: ٤٩] وهذه الثالثة، والمعنى أنه ذكر بنفسه وشرفه وذكر بالوعظ به.

=

=
{وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ (٨٨)} قال المصنف رحمه الله: [{وَلَتَعْلَمُنَّ} يا كفار مكة {نَبَأَهُ} خبر صِدْقِه {بَعْدَ حِينٍ} أي: يوم القيامة] قوله: {وَلَتَعْلَمُنَّ} جعل المصنف الضمير في تعلمن عائدًا إلى كفار مكة بناء على أن الخطاب المذكور في هذه السورة لأهل مكة، لأنها مكية، ولكن قد ذكرنا أن العبرة بالعموم لا بخصوص المكان أو السبب، والخطاب لجميع الناس {وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ} فإن هذا النبأ الذي أنبا الله به بواسطة هذا القرآن الكريم سيعلمه الناس كلهم، وذلك ما أخبر به عما يكون يوم القيامة، فإن هذا القرآن أخبر عن ما يكون يوم القيامة، وهذا سيعلمه الناس كلهم بعد حين.

وهناك أشياء أخبر عنها القرآن مضت وانقضت، فهذه عَلِمَها بعد حين مَن سبق هذه الحوادث وأدركها، وهناك حوادث ستأتي يعلمها بعد حين مَنْ يدركها، وأما الذي يدركه جميع الناس فهو ما يكون يوم القيامة قال: {بَعْدَ حِينٍ} [أي: يوم القيامة، وعَلِمَ بمعنى عرف]، قال: علم بمعنى عرف، لأنه تعدى إلى واحد {وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ} وعلم إذا تعدت إلى واحد فهي بمعنى عرف، كما تقول: علمت المسألة يعني عرفتها، قال: [واللام قبلها: لام قسم مقدر، أي: والله] لتعلمن نبأه.

(تتمة): قال الغرناطي في ملاك التأويل القاطع: الآية الأولى منها - قوله تعالى: (وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ) (ص: ٤) وفي سورة ق: (بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ) (ق: ٢)، للسائل أن يسأل عن ورود قوله في ص: (وَقَالَ الْكَافِرُونَ) بواو النسق وفي سورة ق بفاء التعقيب والإخبار عن حالهم واحد؟

والجواب - والله أعلم - أن آية ص وردت مورد الإخبار بمرتكبات من أفعال كفار العرب وأقوالهم فجيء بتلك الجمل منسوقًا بعضها على بعض، فأخبر تعالى أنهم في عزة وشقاق، وأنهم عجبوا أن جاءهم منذر منهم ولم يكن من الملائكة كما
=

=

قالوا: (لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا) (الفرقان: ٢١)، وأنهم رموه بالسحر والكذب، وتعجبوا من جعله الآلهة إلهًا واحدًا، وأنهم تمالؤوا على قولهم: (أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ)، وأنهم قالوا: (مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ) (ص: ٧) أي في ملة عيسى، عليه السلام، ومن هذا قولهم في إخبار الله تعالى عنهم: (أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ) (الزخرف: ٥٨)، وتحريهم على الإفصاح بمرتكب النصارى في التثليث، وأنهم أقرب الملل إليهم وآخر من تقدمهم وهم مثلثون، فكيف تجعل أنت يا محمد الآلهة إلهًا واحدًا إن هذا لشيء عجاب، فجعلوا ما جاء به اختلافًا وتقويلًا، إلى ما ارتكبوه من هذا، فلما قصد هنا الإخبار بجملة مرتكباتهم جاءت منسوقًا بعضها على بعض بالواو التي لا تقضي ترتيبًا ولا تعقيبًا. وأما آية ق فمقصود بها التعريف بتعجبهم من البعث الأخراوي واتسبعادهم إياه، ولم يقصد هناك غير ما قصده، ألا ترى إقامة الدلالة عليهم باعتبار خلق السماوات، وتزيينها بالنجوم، وإحكام صنعها، ومد الأرض، وإرسائها بالجبال، وإخراج أصناف النبات، وإنزال الماء من السماء، وإنبات الجنات وضروب الحبوب والنخل الباسقات ذات الطلع النضيد، ثم قال: (كَذَلِكَ الْخُرُوجُ) (ق: ١١)، (كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ) (الأنبياء: ١٠٤)، (أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ) (يس: ٨١)، فلما كان قولهم: (هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ) مبينًا على ما جاءهم به، عليه السلام، وأعلمهم من البعث بعد الموت جعل الأول - أعني مجيئه، مخبراً بذلك - سببًا في تعجيزهم فربط فيه بالفاء، أي عجبوا من البعث بعد الموت فقالوا كذا، فجيء لكل بما يحرزه، ولم تكن الفاء لتقع هناك، ولا الواو لتقع هنا، بل ورد كل على ما يجب، والله أعلم.

الآية الثانية من سورة ص - قوله تعالى: (كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ (١٢) وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ) (ص: ١٢ -

=

=

١٣)، وفي سورة ق: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ (١٢) وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ (١٣) وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ﴾ (ق: ١٢ - ١٤)، للسائل أن يسأل عن وجه ورود هاتين الآيتين في السورتين على خلاف الترتيب المتقرر من ذكر الرسل وأممهم وما جرى بين الرسل والأمم في سورة الأعراف وهود والشعراء؟ ثم عن وجه الخلاف الوارد في سياق آيتي صاد وقاف من جهة الترتيب في السورتين؟ ووجه اختصاص كل واحدة منهما بما ورد فيها؟ وتعقيب آية ص بقوله: ﴿فَحَقَّ عِقَابِ﴾ (ص: ١٤) وآية ق بقوله: ﴿فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ (ق: ١٤)؟ فهذه أربعة أسئلة.

والجواب عن ذلك - والله أعلم: عن الجملة أن الوارد في السور الثلاث مقصود فيه إخبار الله تعالى نبيه ﷺ بما كان من الرسل المذكورين مع أممهم تثبيتًا لفؤاده ﷺ وتأنيسًا، قال تعالى: ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ (هود: ١٢٠)، فذكر أنباءهم، عليه السلام، على الترتيب في أزمنتهم وإرسالهم، أما سورة ص وسورة ق فلم يُبين ما ورد فيهما على ذلك القصد، وإنما بناء ما في السورتين من ذلك على تسليته ﷺ فيما كان يكابده من عتاة قريش وكفار العرب في توقفهم عن الإيمان، فجرد لهذا القصد ذكر عتاة قريش وكفار العرب في توقيفهم عن الإيمان، فجرد لهذا القصد ذكر عتاة المكذبين وأخذه سبحانه إياهم، وقيل له، عليه السلام، تعريفًا بمآل كفار قريش: ﴿وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ﴾ (ص: ١٥) مخالفًا لإيراد ما في هاتين السورتين ما تقدم في غيرهما لاختلاف المقاصد، وجاء في كل واحدة منهما من الترتيب ما يلائم ويناسب على ما تبين بحلول الله تعالى.

فإن قيل: فإن سورة الحج ورد فيها ذكر الأمم السالفة المكذبين في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ (٤٢) وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ

=

=

لُوطٍ (٤٣) وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ....) (الحج: ٤٢ - ٤٤) فجرد ذكرهم عن ذكر الرسل إخبارًا بمجرد تكذيبهم وأخذهم كما في سورة ص وسورة ق، وقد وردت علي الترتيب الوارد في السور الثلاث، فقد خالفت مقصود ما في تلك السور، ثم جرت على ما فيها من الترتيب، فما الفرق بينهما وبين هاتين السورتين؟ قلت: الفرق بينهما أن مقصد آية سورة الحج الإخبار بتكذيب أولئك الأمم وأخذهم تسلية لنبينا صلى الله علية وسلم من غير زيادة لما تعرضت لة آية ص وآية ق، وأما هاتان الآيتان فقد انجز فيهما مع ذكر التكذيب والأخذ التعريف بتعزز عتاة قريش ومن وافقهم وذكر شقاقهم. وقبيح ردهم وتعاميهم عن النظر في الآيات والاعتبار بما نصب منها في الأرض والسماوات، فلهذا المنجر هنا انفردت سورة ص وسورة ق بالوارد فيهما من الترتيب عن سورة الحج.

فإن قلت: فإذا اجتمعت السورتان فيما ذكر فما وجه اختصاص كل واحدة منهما بما خصت به عن أختها من الترتيب؟ قلت: أما آية ص فوجه اختصاصها بما ورد ترتيبها عليه أنه سبحانه لما وصف كفار قريش والعرب بالاعتزاز والشقاق في قوله: (بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ) (ص: ٢)، ثم أعقب بذكر القرون المهلكة في قوله: (كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ) (ص: ٣)، ثم أعاد ذكرهم مفصلا قرنا قرنا وأمة أمة، كان الأنسب لما قدم من ذكر عتو كفار العرب وشقاقهم ذكر أعتى القرون من الأمم وأجرمهم، فذكر قوم نوح من حيث لم يجد عليهم نكرار الإنذار مع طول الأمد، قال تعالى مخبرا عن طول مدتهم وبعد إجابتهم قال نوح: (رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا (٥) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا) (نوح: ٥ - ٦)، إلى قوله: (وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا) (نوح: ٧)، إلى دعائه، عليه السلام، عليهم عند قطع رجائه منهم بقولة: (رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (٢٦)

=

=

إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا) (نوح: ٢٦ - ٢٧)، إلى ما وصفهم سبحانه به وأنه لم يؤمن منهم مع نوح إلا القليل، فوجود ما تحلت به عتاه قريش ومتمردو كفار العرب من العزة والشقاق في قوم نوح أوضح شيئ، ثم اتبع ذكرهم بدعاء عاد الموصوفين بالقوةوالطغيان القائلين: من أشد منا قوة، والقائلين لنبيهم عليه السلام: (سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ) (الشعراء: ١٣٦)، إلى قوله: (وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ) (الشعراء: ١٣٨)، ثم اتبع بذكر فرعون ذي الأوتاد، والمراد هو وآله وقومه. وقد تكرر في القرآن مع ذكر فرعون وعلوه في الأرض وطغيانه مع ما أوضح شنيع مرتكبة وبعد شقاقه، ثم اتبع بمن ذكر بعدهم مراعي في ذلك مناسبة ما قدم، ثم ذكر اجتماعهمفي موجب تمردهموعتوهم وهو تكذيبهم للرسل، فقال تعالى: (إِنْ كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ) (ص: ١٤) ثم أعاد الكلام إلى كفار قريش والعرب المبدو بهم والمنبهين لو تنبهوا بأخذ من عاند وكذب ممن تقدمهم فقال: (وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ) (ص: ١٥)، أي إنهم إن تمادوا على شقاقهم فلا فرق بينهم وبين ما تقدمهم من هؤلاء القرون (وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ) (الرعد: ٦)، (فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ) (يونس: ١٠٢)، ثم أتبع سبحانه بذكر شنيع مرتكبهم في استعجالهم العذاب وقولهم: (عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ) (ص: ١٦)، فأنبأ تعالى باستحكام كفرهم وتكذيبهم واستهزائهم الموجب لتعجيل أخذهم، ثم أنصرف الكلام إلى أمره سبحانه نبيه ﷺ بالصبر على معاندتهم وردي مقالتهم، وتذكر أخيه داود والاعتبار بأمره، وتسخيره سبحانه له الجبال، وحشره له الطير منقادة إلى أمره، وإلانته له الحديد، وقلوب الآدميين أهين وأقرب، فلو شاء لهدى هؤلاء كما سخر الجبال لداود (وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا) (السجدة: ١٣) وهذا وجه ذكر داود، عليه السلام، هنا، لا ما قاله الزمخشري،

=

=

وقد تقدم (الإيماء) إليه عند قوله تعالى في سورة طه: (فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ) (طه: ١٣٠) ويستوفي عقب هذا بحول الله، فهذا وجه اختصاص آية ص بما ورد فيها من الترتيب في ذكر القرون المهلكة بتكذيبها.

وأما آية ق فوجه الوارد فيها من إتباع ذكر قوم نوح بذكر أصحاب الرس ومخالفة الوارد في سورة ص، إن آية ق قد انفردت عن آية ص بما قصد فيها مفصحًا به، من ذكر تعامي كفار قريش والعرب عن النظر في خلق السماوات والأرض، والاعتبار بمن تقدمهم من الأمم، وأخذهم بتكذيبهم، ففي آية ص ذكر تجبرهم وشقاقهم وطغيانهم، وفي ق ذكر تعاميهم عم الاعتبار والنظر، فبدأ سبحانه بتذكيرهم بذكر حال السماء وإتقانهم فقال: (أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا) (ق: ٦) إلى قوله: (كَذَلِكَ الْخُرُوجُ) (ق: ١١)، والمراد أنهم لو وقفوا فأمعنوا النظر في بناء السماء، وتزيينها بما جعل تعالى فيها من نجومها، وسلامتها من فطور أو فروج، وفي امتداد الأرض وإرسائها بالجبال، وإنبات ما فيها من كل زوج بهيج، وإنزال الماء من السماء، وإنبات الجنات وحب الحصيد والنخل الباسقات ذات الطلع النضيد، وإحياء البلاد الميته، وتكرر ذلك عليها، فلو اعتبروا بهذا لاستوضحوا العودة والبعثة، الأخراوية (كَذَلِكَ الْخُرُوجُ) (ق: ١١)، (كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ) (الأنبياء: ١٠٤)، فلما ذكرهم سبحانه بخلق السماوات والأرض أعقب ذلك تتميمًا جاريًا على التذكير المتكرر في الكتاب بذكر القرون السالفة المهلكة بتكذيبها فقال: (كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ) (ق: ١٢)، ولما (بني) (ما) تقدم من الاعتبار على الإشارة إلى الاستيفاء (في عجائب الأرض والسماء، ناسب ذلك بناء ذكر من نبه عليه ممن هلك (بتضييع) نظره واعتباره على الاستيفاء)، فذكر طرفان ليحصل حصر من بينهما أمة ممن تقدم وهم قوم نوح وأمة ممن تأخر وهم أصحاب الرس، ليحصل ما بينهما بإشارة الطرفين كما قال سبحانه في سورة

=

=

الفرقان: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا﴾ (الفرقان: ٣٨)، وهذه الآية وآية ق مشيرتان إلى تأخير أصحاب الرس عن كل من ذكر في الفرقان من الأمم المهلكين بتكذيبهم ممن عين ذكره، والله أعلم.

وقد اختلف المفسرون في أصحاب الرس، والواقع في مختلف أقوالهم في ذلك ثمانية أقوال، ومن جملتها أنهم أصحاب الأخدود، وقيل كانوا قومًا قتلوا نبيهم ورموه في بئر لهم، زاد بعضهم أنه كان اسم نبيهم حنظلة، وقيل هم من قوم شعيب، عليه السلام، وقيل غير ذلك، والمقطوع به ما نطق به القرآن من وجود قرون كثيرة بين قوم نوح وأصحاب الرس، ويظهر من هذا الوارد في سورة ق أن مقصود الآية من استيفاء القرون المأخوذين بتكذيبهم غير وارد في غيرها، ألا ترى أنه قد أفصح فيها بثمانية قرون منصوص عليها، وهم قوم نوح، وأصحاب الرس، وثمود، وعاد، وفرعون، وأخوان لوط، وأصحاب الأيكة، وقوم تبع والمراد هو وقومه، ولم يرد في أوفى المتكرر من الكتاب العزيز غير سبعة. والأكثر ستة، فدل على قصد الاستيفاء في هذه السورة على كل حال، فقد ورد قوم نوح وأصحاب الرس طرفين لمن بينهما من القرون، ومقصود بهما - والله أعلم - استيفاء ما بينهما، إشعارًا، (في هذه الورة وإفصاحًا بكثرة من بيمهما بقوله في سورة الفرقان ﴿وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا﴾ (الفرقان: ٣٨).

وأما الوارد بعد الطرفين في سورة ق من ذكر ثمود وعاد ومن ذكر بعد، فقد يكون - والله أعلم - من قبيل ما ورد في القرآن ممن شمله لفظ متقبل غير مصرح ثم نص عليه اعتناء واهتمام مع كونه قد ضمه ذلك اللفظ المتقدم، كقوله تعالى: ﴿وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ﴾ (البقرة: ٩٨) بعد دخولها تحت لفظ الملائكة، وعلى كل حال فأصحاب الرس متأخرون عن قرون كثيرة بعد قوم نوح بنص القرآن، والله سبحانه أعلم.

=

=

فلما ورد هنا ما يشير إلى الاستيفاء بالاعتبار بهم جريًا مع ما تقدم من استيفاء الاعتبار بعجائب الأرض والسماء قدم ما يحصل بتقديمه ما اشير إليه من الاستيفاء، ولم يكن القصد هنا ما قصد في آية ص، فجاء كل على ما يجب، والله أعلم.

وأما المعقب به كل واحدة من الآيتين من قوله في سورة ص: (إِنْ كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ) (ص: ١٤)، وقوله بعد آية ق: (فَحَقَّ وَعِيدِ) (ق: ١٤)، مراعي في ذلك فواصل (في كل من السورتين وإلا فالعقاب والوعيد حق على كل من هؤلاء المكذبين، فإنما روعي الفواصل)، فقوله قبل آية ص: (بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ (٨) أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ) (ص: ٨ – ٩)، واستمرت وفاصل الآي هكذا إلا ما بعد الآية فاستجعى ذلك مناسبة الآية المتكلم فيها فقيل: (إِنْ كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ) (ص: ١٤)، وأما آية ق فوسب بها أيضًا ما تقدم من قوله: (وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ) (ق: ٩) ثم قال: (وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ) (ق: ١٠) وورد أيضًا في الفواصل بعدها: (أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ) (ق: ١٥)، إلى بضع عشرة آية جارية في مقاطعها على ما ذكر، فناسب ذلك قوله: (كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ) (ق: ١٤) وجاء كل على ما يناسب، وذلك واضح.

الآية الثالثة من سورة ص: غ – قوله تعالى: (وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ *اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ) (ص: ١٦ – ١٧) وفي سورة الأحقاف: (فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ) (الأحقاف: ٣٥) وفي سورة القلم: (فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ) (القلم: ٤٨)، ورد في هذه السور الثلاث أمره ﷺ بالصبر، محالا في الأولى عل الاعتبار

=

=

بحال داود وأبنائه وفي الثانية: على أولي العزم في أهتدائه وأقتدائه، وفي الثالثة منبهًا بالجار لذي النون في مغاضبته وندائه، والمتردد في غير هذه الآي إنما هو أمره، عليه السلام، فاصبر غير مناط بذكر أحد من الرسل، كقوله تعالى: (وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللهِ) (النحل: ١٢٧)، وكقوله: (وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ) (الكهف: ٢٨)، وقوله: (فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ) (ق: ٣٩)، وقوله: (وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا) (الطور: ٤٨)، إلى غير هذا من الآي، فللسال أن يسأل عن وجه ذلك؟ وعن اختصاص كل سورة من الثلاث بما ورد فيها إذ ليست الإحالة فيها على حد سواء؟ فهذان سؤالان.

والجواب عن السؤال، والله أعلم: أن تكرر أمره، عليه السلام، بالصبر في الآيات المترددة على كثرتها أدل دليل على الاعتناء به ﷺ لعظم أمر الصبر وشدة الحاجة إليه في كل مطلب ديني من أخذ أو ترك، ولهذا قال ﷺ في صفته: " الصبر ضياء"، وقال تعالى في قصة أيوب وحال أبتلائه: (إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ) (ص: ٤٤) وقال تعالى: (إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ) (الزمر: ١٠)، وقال تعالى: (إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ) (الأنفال: ١٠) وقال تعالى: (وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ) (القصص: ٨٠)، وأحوج الخلق إلى الصبر الرسل، عليهم السلام، لعظم ما يلقونه من مكابدة الخلق، فلشدة الحاجة إلى الصبر ما تكرر في عدة آيات أمرًا له عليه السلام، ولأمته.

والجواب عن السؤال الثاني: أن أمره، عليه السلام، بالاقتداء بالرسل قد ورد وتكرر في غير أية، وتردد أيضًا أمره بالاقتداء بأبيه إيراهيم، عليهما السلام، لعظم مقام إبراهيم وجليل خلته وابوته وتنبيهًا للعرب لرجوعهم إليه انتسابًا وإعترافهم مقرين بتعظيمه.

=

=

وأما تخصيص السور الثلاث بتعيين ما ورد فيهما فلما نذكره من الوجه الحامل والمناسبة في النظم، أما سورة ص فوجه إختصاصها فيها إلتئام نظم الآية بما تقدمها، وإرتباط قوله تعالى فيها: (وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ) (ص: ١٧)، بما اتصل به من قوله (اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ) بيان النظم في ذلك وإلتئامه أوضح إلتئام، إن الله سبحانه لما ذكر حال العتاة من كفار قريش وشنيع مقالهم لنبيه، ﷺ، من لدن قولهم (سَاحِرٌ كَذَّابٌ) (ص: ٤) إلى ختمهم ما ذكر تعالى من سوء مراجعتهم بقولهم إستهذاء وتكذيبًا: (عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ) (ص: ١٦) أتبع ذلك ملاطفة وتأنيسًا لنبيه، ﷺ، بقوله: (اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ) (ص: ١٧) (تذكيرًا له بأن الجاري من ذلك إنما هو على ما شاءه لهم في أزله وقدره عليهم، فليس خارجًا عن إرادته، فكأنه يقول لنبيه، عليه السلام، أصبر على ما) يرد منهم وما يقولونه فإنه مرادي منهم في سابق قدري، ولو شئت لهديت قلوبهم وسخرتها لإجابتك، فقد سخرت الجبال مع داود والطير وإلنت له الحديد وقبل الادمي ألين وأقرب: (اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ) (السجدة: ١٣) فإذا علمت أن قلوبهم بيدي اقلبها كيف شئت، فأصبر على ما يقولون، واعتبر بما سخرته لداود وأقتد لما منحته من الايد والقوة، فهذا وجه النظم والارتباط في هذه الآي، والله أعلم.

وقد تعرض أبو الفضل بن الخطيب في تفسيره الكبير لتوجيه النظم فيما قدمناه فقال: إن قيل أي تعلق بين قوله تعالى: (اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ): ((وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ) قولنا: من وجوه.

الأول: كأنه قيل: إن كنت قد شاهدت من هؤلاء الجهال جرائتهم على الله وإنكارهم الحشر والنشر فذكر قصة داود حتى تعرف شدة خوفه من الله ومن يوم الحشر فإنه بقدر ما يزداد أحد الضدين شرفًا يزداد الأخر نقصانًا. أنتهى معنى كلامه. قلت وهذا الذي حكاه ضعيف، لأن هذا الكلام يثمر التعجب من فعل الله

=

=

سبحانه ولا يثمر تسلية ولا تأنيسًا وهما أنسب في الموضع وذكر وجهًا ثانيًا وهو أنه كأنه قيل لنبينًا، ﷺ: ولا يضيق صدرك بسبب إنكارهم لقولك ودينك فإنهم إن خالفوك فالأكابر من الأنبياء موافقوك، قلت: وهذا أضعف من الاول، لأنه، عليه الصلاة والسلام إنما يأنس بمصداقية من امته، وأيضًا فقد كان ذكر إبراهيم لو قصد هذا الغرض من الموافقة أنسب لتعظيم العرب إياه وللاتفاق عليه ولعظم خلته، وذكر وجه ثالثًا وهو أن الخصمين الذين دخلا على داود، عليه السلام، كانا من البشر، وإنما دخل عليه بقصد قتله، فخاف داود ومع ذلك لم يتعرض لإيذاهما ولا دعى عليهما بل استغفر لهما، فأمر نبيا عليه السلام أن يقتضي به في حسن الخلق. قلت: وهذا ضعيف كالذي قبله، وذكر الأمام أبو الفضل غير هذه الوجوه مما دون هذه في القوة ثم أعقب هذا بأن قال: ولي هنا وجه آخر أقوى وأحسن من كل ما تقدم، ثم أعتمد في هذا التوجيه على أن قوله تعالى: (وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ) ليس مما تقدمهم، وإنما هو وجه اتصاله به، وأن العقلاء قالوا من ابتلي بخصم جاهل مقر متعصب وراءه قد خاض في التعصب والاقرار وجب عليه أن يقطع الكلام معه في (تلك) المسئلة، لأنه كلما كان خوضه في تقريره أكثر كان بعده عن القبول أشد، فالوجه حين إذ أن يقطع الكلام معه في تلك المسئلة، وأن يؤخد في كلام آخر أجنبي عن المسئلة الأولى (بالكلية، ويطنب في ذلك الكلام الاجنبي، فإذا اشتغل خاطره بهذا الكلام الأجنبي ونسي تلك المسئل الأولى) أدرك له أثناء الكلام في هذا الفصل الأجنبي مقدمة تناسب ذلك المطلوب الأول، فيحصل عن ذلك تسليم المتعصب لهذه المقدمه، لذا اسلمها فحين إذ يتمسك بها في (ثبات) المطلوب الأول، فيتمكن من إنقيادة ويرجى رجوعه إلى ما طلب به أولًا، هذا معنى ما أرده أبو الفضل في هذا الفصل، ثم أشار إلى أن المدرج في هذا الكلام من المقدمة المناسبة إلى المطلب الأول لقوله تعالى: (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ

=

=

وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا) (ص: ٢٧)، إلى قوله: (كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ) (ص: ٢٩) قلت: وعندي أن ما ذكره من هذا وأن العقلاء قالوه، إن كانت العرب تفعله ويعرف من كلامها إرتكابه فإن ما يكون - والله أعلم - على أوضح وأنسب مما ذكره، والذي اراه جاريًا على هذا المنهج الذي آراه - والله أعلم - قوله تعالى: (ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ (١) بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ (٢) أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ) (ق: ١ - ٣) فهذا إنكار منهم للبعث الأخراوي واستبعاد، وهو نحو من الوارد في سورة ص، فأعقب تعالى ذلك بقوله مما يشبه الالتفات، وهو الذي زعم أبو الفضل أن العقلاء يرتكبونه عن لوز الخصم والأخذ فيما هو كالأجنبي، فقال تعالى: (أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ (٦) وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ) (ق: ٦ - ٧) إلى قوله في ماء السماء: (وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ) (ق: ١١)، فبعد العدول عن جوابتهم في قولهم: (ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ) وذكر اختلاطهم المسبب عن تكذيبهم وتجبرهم المعبر عنهم بقوله: (بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ) (ق: ٥) أي مختلط، صرف تعالى الكلام إلي نبيه ﷺ والمؤمنين فقال: (أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ) (ق: ٦) إلى قوله: (وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا) (ق: ١١) وذلك كله مدرك مشاهد لهم، لا يمكنه التوقف في شيء منه، ولا حفظ عنهم إنكاره، فعند تكرر هذا قال تعالى: (كَذَلِكَ الْخُرُوجُ) فهذا - والله أعلم - أقرب فيما ذكره أبو الفضل فزعم أن العقلاء يرتكبونه.

وأما الوارد في سورة ص فيبعد - والله أعلم - أن يكون من هذا، ثم أن القول بأن الوارد في سورة ص من قوله: (وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ) أجنبي عما قبله، وغير مناسب البته، وأنه إنما أوتي به لما ذكر من شغل الخصم المتعصب عن ذلك الوجه الذي

=

=

ذكر بعيد بالكلية، وإن ورد شيء مما يمكن أن يقال أنه من ذلك الضرب فلا أنسب أن يكون منه الوارد في سورة ق لا الوارد في سورة ص، وإذا تأملته وضح لك ذلك، وأن الوجه في نظم الكلام ماقدمته أولًا وهو مما لا غبار عليه، والله أعلم.

وقد تعرض الزمخشري لما تقدم في هذا الآي، فأجاب عن ذلك بما جرى فيه على شنيع المرتكب وسوء الأدب، بناء على استبداد العبيد، وفعلهم ما لا يرضاه الخالق سبحانه ولا يريد، فجعل لله شركاء، وأفرد العباد بأفعالهم واستبدادًا أو ملكًا، فأجاب بناء على ما اتصل، وما وفق في هذا الموضوع لوجه المطابقة ولا حصل، فإن قلت كيف تطابق قوله: (اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ) حتى عطف أحدهم على صاحبه؟ ثم (قال): قلت: كأنه قال لنبيه ﷺ، اصبر على ما يقولون، وعظم امر معصية (الله) في أعينهم بذكر قصة داود، وهو أنه نبي من أنبياء الله تعالى قد أولاه ما اولاه من النبوة والملك لكرامته عليه ورأفته لديه، ثم ذل ذله فبعث الله الملائكه ووبخه عليها على طريق التمثيل والتعريض، حتى فطن لما وقع فيه فاستغفر ربه، وأناب، ووجد منه ما يحكي من بكاءه الدائم. وغمه الواصب، ونقش جنايته في بطن كفه حتى لا يزال مجددًا للندم عليها، فما الظن بكم مع كفركم ومعاصيكم؟ أو قال له ﷺ: اصبر على ما يقولون، وصن نفسك، وحافظ عليها إن تذل فيما كلفت من مصابرتهم وتحمل آذاهم، وأذكر أخاك داود وكرامته على الله كيف ذل تلك الذلة اليسيرة فلقي من توبيخ الله ونسبته إلى البغي ما لقي. انتهى جوابه. وقد اجتمع فيهم مخالفة الصواب والبعد عن المطابقة فإن تعظيم معصية الله، كما قال الزمخشري - فذكر قصة داود لقوم غير مؤمنين بأحد من الأنبياء فالتذكير بذلك لمن يقول استهزاء وكفرًا: (عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ) (ص: ١٦) فتذكيرهم بهذا مع ذكر الأنبياء بلفظ الذلل أقرب شيء لاستمرارهم على الاستهذاء (والكفر) مع عصمة الأنبياء عما وقع عليه الذلل

=

سُورَةُ الزُّمَرِ(١)

=

حقيقة. ثم قوله في الجواب الثاني عن داود، عليه السلام: أنه لقي من توبيخ الله وتظليمه ونسبته للبغي، هذا كله خلف من المرتكب واطلاق لا يجوز في حق الأنبياء، فقد جمع جوابه سوء الادب وشنيع المرتكب والبعد عن المطابقة، والذي جوابنا به لا غبار عليه ولا توقف في مطابقته، نسأل الله سبحانه أن ينفعنا بذلك يوم تبلى السرائر. ا.هـ من ملاك التأويل (٢/ ٤١٤-٤٢٣).

(١)في وقت نزول السورة أقوال:

أحدهما: أنها نزلت بمكة. قاله ابن عباس، والحسن، ومجاهد، وعطاء، عكرمة، وقتادة، وجابر بن زيد.

قال ابن عاشور:"هي مكية كلها عند الجمهور".

الثاني: أنها مكية، إلا قوله: {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا} [الزمر: ٥٣]... الآية. قاله الزمخشري.

الثالث: أنها مكية إلا آيتين نزلتا بالمدينة، إحداهما: {اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ} [الزمر: ٢٣]، والأخرى: {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِم} [الزمر: ٥٣] الآية. حكاه القرطبي عن ابن عباس.

الرابع: أنها مكية سوى ثلاث آيات نزلت بالمدينة في وحشي قاتل حمزة: {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} [الزمر: ٥٣] إلى ثلاث آيات. وهذا مروي عن ابن عباس أيضا. وبه قال مقاتل، وابن قتيبة، والزجاج.

=

=

الخامس: أنها مكية إلا سبع آيات من قوله تعالى: {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ} [الزمر: ٥٣]، إلى آخر سبع آيات نزلت في وحشي وأصحابه. حكاه القرطبي.

قال ابن عاشور:"المتجه: أنها كلها مكية وأن ما يخيل أنه نزل في قصص معينة إن صحت أسانيده أن يكون وقع التمثل به في تلك القصص فاشتبه على بعض الرواة بأنه سبب نزول".

* عدد آياتها خمس وسبعون فى عدّ الكوفىّ، وثلاث فى عَدّ الشامى، والباقين. وكلماتها أَلْف ومائة وسبعون. وحروفها أَربعة آلاف وسبعمائة وثمان. والآيات المختلف فيها سبع: {فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ}، {مُخْلِصًا لَّهُ الدين}، الثانى {مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي}، و {مِنْ هَادٍ} الثانى، {فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ}، أَربعهن {فَبَشِّرْ عِبَادِ}، {مِن تَحْتِهَا الأنهار}. مجموع فواصل آياتها (من ولى يُدر).

* أسماء السورة.

تسمى «سورة الزمّر»

سميت في المصاحف وكتب التفسير وكتب السنة والآثار عن السلف سورة «الزمّر» وقد سميت هذه السورة بهذا الاسم لوقوع هذا اللفظ فيها دون غيرها من سور القرآن؛ وذلك قوله تعالى: {وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلى جَهَنَّمَ زُمَرًا} [الآية ٧١]، وقوله سبحانه: {وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا} [الآية ٧٣]، فذكر فيها زمر الفريقين أهل الشقاوة وأهل السعادة وتفصيل الجزاء وإلزام الحجة وبطلان المعذرة.

وتسمى أيضًا سورة «الغُرَف» وفي تفسير القرطبي، عن وهب بن منبه، أنه سماها سورة «الغُرَف»، وتناقله المفسرون.

=

ووجه ذلك؛ أنها ذُكر فيها لفظ «الغرف»، أي: بهذه الصيغة دون «الغرفات»، في قوله تعالى: {لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ} [الزمر: ٢٠].

و «الغرف»: جمع غرفة، و «الغرفة»: العِلِّيّة، و «الغرفة» -أيضا-: السماء السابعة؛ قال لبيد:

سَوَّى فأَغلَقَ دونَ غرة عَرْشِهِ،... سَبْعًا طباقًا، وفوق فَرْع المَنْقَلِ .

* معظم مقصود السّورة: بيان تنزيل القرآن، والإخلاص فى الدّين، والإيمان، وباطل عُذْر الكفَّار فى عبادة الأوثان، وتنزيه الحقّ تعالى عن الوَلَد بكلمة {سُبْحَانَهُ}، وعجائب صنع الله فى الكواكب والأَفلاك بلا عَمَد وأَركان، والمِنَّة على العباد بإِنزال الإنعام من السّماءِ فى كلِّ أَوان، وحفظ الأَولاد فى أَرحام الأُمهات بلا أَنصار وأَعوان، وجزاءُ الخَلْق على الشكر والكفران، وذكر شرف المتهجّدين فى الدّياجر بعبادة الرّحمن، وبيان أَجر الصابرين وذلِّ أَصحاب الخسران، وبشارة المؤمنين فى استماع القرآن بإِحسان، وإِضافة غُرف الجنان لأَهل الإخلاص والعِرفان، وشرح صدر المؤمنين بنور التوحيد والإيمان، وبيان أَحوال آيات الفرقان، وعجائب القرآن، وتمثيل أَحوال أَهل الكفر وأَهل الإيمان، والخطاب مع المصطفى بالموت والفناءِ وتحلُّل الأَبدان، وبشارة أَهل الصّدق بحسن الجزاءِ والغفران، والوعد بالكِفاية والكِلاءَة للعُبدان، وبيان العجز عن العون، والنّصرة للأَصنام والأَوثان، وعجائب الصنع فى الرّؤيا، والنوم وماله من غريب الشان، ونُفرة الكفَّار من سماع ذكر الواحد الفَرْد الديَّان، والبشارة بالرّحمة لأَهل الإيمان، وإِظهار الحسرة والنَّدامة يوم القيامة من أَهل العصيان، وتأَسفهم فى تقصيرهم فى الطَّاعة زمان الإمكان، وإِضافة المُلْك إِلى قبضة قدرة الرّحمن، ونفْخ الصُور على سبيل الهيبة، والسِّياسة، وإِشراق العَرَصات بنور العدل، وعظمة السلطان، وسَوْق الكفَّار بالذلِّ والخزى إِلى دار العقوبة والهوان، وتفريح

=

المؤمنين بالسّلام عليهم فى دار الكرامة، وغُرف الجنان، وحكم الحقِّ بين الخَلْقِ بالعدل، وختمه بالفضل والإحسان، فى قوله: {وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بالحق وَقِيلَ الحمد لِلَّهِ رَبِّ العالمين}.

* المتشابهات: قوله: {إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ الكتاب بالحق} وفى هذه السّورة أيضًا {إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الكتاب لِلنَّاسِ بالحق} الفرق بين {أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ الكتاب} و {أَنزَلْنَا عَلَيْكَ} قد سبق فى البقرة. ويزيده وضوحًا أن كلَّ موضع خاطب (فيه) النَّبى ﷺ بقوله: إنا أنزلنا إليك الكتاب ففيه تكليف، وإذا خاطبه بقوله: إنا أنزلنا عليك ففيه تخفيف. اعتبِرْ بما فى هذه السّورة. فالذى فى أَوّل السّورة (إليك) فكلَّفه الإخلاص فى العبادة. والذى فى آخرها (عليك) فختم الآية بقوله {وَمَآ أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيْل} أى لست بمسئول عنهم، فخفَّف عنه ذلك.

قوله: {إني أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ الله مُخْلِصًا لَّهُ الدين وَأُمِرْتُ لأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ المسلمين} زاد مع الثانى لامًا؛ لأَنَّ المفعول من الثانى محذوف، تقديره: وأُمرت أَن أعبد الله لأَن أكون، فاكتفى بالأَول.

قوله: {قُلِ الله أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي} بالإضافة، والأَول {مُخْلِصًا لَّهُ الدِّيْن}، لأَنَّ قوله: {الله أَعْبُدُ} إخبار عن المتكلم؛ فاقتضى الإضافة إلى المتكلم، وقوله: {أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ الله} ليس بإخبار عن المتكلم، وإنما الإخبار (أُمرت)، وما بعده فضلة ومفعول.

قوله: {وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الذي كَانُوا يَعْمَلُونَ} وفى النحل {وَلَنَجْزِيَنَّ الذين صبروا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} وكان حقُّه أن يذكر هناك. خصَّت هذه السورة بـ (الذى) ليوافق ما قبله. وهو {أَسْوَأَ الذي}، وقبله {والذي جَآءَ بالصدق}. وخصّت النَّحل بـ (ما) للموافقة أيضًا. وهو {إِنَّمَا عِنْدَ الله هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ} و {مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ الله بَاقٍ} فتلاءَم اللفظان فى السّورتين.

=

مَكِّيَّة إِلَّا الْآيَات ٥٢ و ٥٣ و ٥٤ فَمَدَنِيَّة وَآيَاتهَا ٧٥ نزلت بعد سبأ.

بسم الله الرحمن الرحيم[1].

تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١).

{تنزيل الكتاب} القرآن مبتدأ {من الله} خبره {الْعَزِيز} فِي مُلْكه

=

قوله: {وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا} وفى الجاثية {مَا عَمِلُوا} علته مثل عِلَّة الآية الأُولى؛ لأَن {مَا كَسَبُوا} فى هذه السّورة وقع بين أَلفاظ كَسَب، وهو قوله: {ذُوْقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُوْنَ} وفى الجاثية وقع بين أَلفاظ العمل وهو: {مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُوْنَ} {عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} وبعده {سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا} فخُصّت كلّ سورة بما اقتضاه طرفاه.

قوله: {ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا} وفى الحديد {ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا}؛ لأَنَّ الفعل الواقع قبل قوله {ثُمَّ يَهِيْجُ} فى هذه السّورة مسند إِلى الله تعالى، وهو قوله: {ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا} فكذلك الفعل بعده: {ثُمَّ يَجْعَلُهُ}. وأَمَّا الفعل قبله فى الحديد فمسند إِلى النبات وهو {أَعْجَبَ الكُفَّارَ نَبَاتُهُ} فكذلك ما بعده وهو {ثُمَّ يَكُونَ} ليوافق فى السّورتين ما قبل وما بعد.

قوله {فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا} وبعده {وَفُتِحَتْ} بالواو للحال، أَى جاءُوها وقد فتحت أَبوابُها. وقيل: الواو فى {وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا} زيادة، وهو الجواب، وقيل: الواو واو الثمانية. وقد سبق فى الكهف.

قوله: {فَمَنِ اهتدى فَلِنَفْسِهِ}، وفى غيرها: {فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ}؛ لأَنَّ هذه السّورة متأَخرة عن تلك السّورة؛ فاكتفى بذكره فيها. بصائر ذوي التمييز (١/ ٤٠٣ – ٤٠٨).

(١) تقدم تفسير البسملة في أول سورة الفاتحة.

{الْحَكِيم} فِي صُنْعه[1].

(١)قوله تعالى: {تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ} [الزمّر: ١].

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: {تَنزِيلُ الْكِتَابِ} الذي نزلناه عليك يا محمد {مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ} في انتقامه من أعدائه، {الحَكِيمِ} في تدبيره خلقه، لا من غيره، فلا تكوننّ في شكّ من ذلك".

قال الزجاج:"الكتاب -ههنا-: القرآن، ورفع {تنزيل الكتاب}، من جهتين: إحداهما الابتداء ويكون الخبر من الله، أي نزل من عند الله. ويجوز أن يكون رفعه على: هذا تنزيل الكتاب".

قال محمد بن إسحاق: " العزيز: في نصرته ممن كفر به إذا شاء"، الحكيم: في عذره وحجته إلى عباده".

قال أبو العالية:"{عزيز} في نقمته إذا انتقم". وروي عن قتادة والربيع بن أنس نحو ذلك.

عن أبي العالية:"{حكيم}، قال: حكيم في أمره".

قال محمد بن جعفر بن الزبير" الحكيم في عذره، وحجته إلى عباده".

قال العثيمين: قوله تعالى: {تَنْزِيلُ الْكِتَابِ} الكتابُ: هو القرآن، وسُمِّيَ كتابًا؛ لأنَّه مكتوب في اللَّوْح المحفوظ، ومكتوب بالصُّحُف التي بأيدينا، ومكتوب في الصُّحُف التي بأيدي الملائكة؛ قال الله تعالى: {كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ (١١) فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ (١٢) فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ (١٣) مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ (١٤) بِأَيْدِي سَفَرَةٍ (١٥) كِرَامٍ بَرَرَةٍ} [عبس: ١١ - ١٦] وعلى هذا ف (فِعَال) بمعنى مفعول، وهذه الصيغة - أعني فِعَالًا - تأتي بمعنى مفعولٍ في اللُّغَة العَربيَّة كثيرًا؛ ومنه: غِراسٌ بمعنى مغروس، بِناء بمعنى مبنِيٍّ.

=

قال المُفَسِّر رحمه الله: {تَنْزِيلُ الْكِتَابِ}: القُرآنِ، مبتدأٌ] المبتدأ: تنزيلُ، قال: [{مِنَ اللهِ} خَبَرُه].

إِذَنْ: معنى الآية: أنَّ الله يُخْبِر عز وجل بأن تنزيلَ الكتاب مِنْ عنده؛ مِن الله، أي إنه نازلٌ من عند الله لا من جبريل ولا من محُمَّد ولا من أيِّ مَصْدرٍ كان، بل هو نازل من الله سبحانه وتعالى، تكلَّم به، وألقاه إلى جبريل.

ثم إنَّ جبريل عليه السلام نزل به على قلْبِ النَّبيِّ ﷺ، قال تعالى: {وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٩٣) عَلَى قَلْبِكَ} [الشعراء: ١٩٢ - ١٩٤] {عَلَى قَلْبِكَ} وتأمَّل قوله: {عَلَى قَلْبِكَ} لتَعْلَمَ أنَّ الرَّسول ﷺ وعى القرآن وَعْيًا تامًّا؛ لأنَّ ما نزل على القَلْب لا بُدَّ أن يَعِيَه القَلْب.

قال رحمه الله: [{الْعَزِيزِ} في مُلكه، {الْحَكِيمِ} في صُنْعِه] {الْعَزِيزِ} لها معانٍ:

الأوَّل: عزيز بمعنى: غالِب.

ومنه قوله تعالى: {وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ} [المنافقون: ٨] قاله الله تعالى جوابًا على قول المنافقين: {لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ} [المنافقون: ٨] فسَلَّم الله ذلك: أنَّ الأَعَزَّ يُخْرِجُ الأَذَلَّ، لكن قال: العِزَّةُ لله ولرسوله وللمؤمنين، أما المنافقون فلا عزَّة لهم حتى يستطيعوا أن يُخرجوا المؤمنين منها.

ومنه قوله تعالى: {وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ} [المنافقون: ٨].

الثاني: عزيز بمعنى: قَوِيٍّ، شديد القوة؛ ومنه قولهم: أرض عَزَازٌ؛ يعني: صُلْبة قويَّة؛ ومن المعلوم: أنَّ الله تعالى في صفاته كُلِّها شديدٌ قويٌّ، فكل الصفات كامِلَة ليس فيها نَقْصٌ ولا وَهَنٌ ولا ضَعْفٌ.

الثالث من معنى العِزَّة: الامتناع. فالامْتِناعُ يعني: أنَّه مُمْتَنِعٌ عن أن ينالَه سوءٌ.

فهذه ثلاثة معانٍ للعزيز: غالب، قوي، ممتنع عن كل نَقْص.

=

وأما قول المُفَسِّر رحمه الله: [في مُلْكِه] فإنه قاصر في الحقيقة جدًّا؛ لأنَّه إذا قُيِّدَتِ العِزَّة في الملك فإنَّها لا تتناول إلا العزيز بمعنى: الغالب أو القوي.

وأما: {الْحَكِيمِ} فيقول رحمه الله: {الْحَكِيمِ} في صُنْعِه] أي فيما صَنَع، وهل يُوصَف الله تعالى بأنه صانِعٌ وأنَّ له صُنعًا؟

الجواب: نعم، يُوصف الله بأنه صانع، وأنَّ له صنعًا، قال الله تبارك وتعالى: {صُنْعَ اللهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ} [النمل: ٨٨]؛ لكن يجب أن نعلم أننا إذا وصَفْنا الله بالصُّنْع فليس كصِفَتِنا للمخلوق بالصُّنع؛ فالمخلوق إذا كان صانعًا يحتاج إلى أدواتٍ؛ فإن كان نجّارًا يحتاج إلى منشار، قدوم، مخراق، وما أشبه ذلك، لكن الله عز وجل لا يحتاج، فلما قال الله عز وجل: {وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ} [الذاريات: ٤٧]، فليس بناءُ الله عز وجل كبناء المَخْلوق يحتاج إلى زِمبيل وإلى لَبِن وإلى طينٍ، فالبناء غيرُ البناء والصُّنع غير الصُّنع، وقد يتوهَّم الإنسانُ أنه إذا وصف الله بالصُّنع، وأنه صانِعٌ قد يتوهَّمُ أنه يحتاج إلى آلاتٍ يَصْنَع بها، ولكن هذا خطأ؛ لأنَّ صُنْعَ الله ليس كصنع البَشَر.

وقول المُفَسِّر رحمه الله: {الْحَكِيمِ} في صنعه] تقييدها بالصُّنْع فيه قصور؛ والصواب: أنَّه (حكيمٌ في صُنْعِه وفي شَرْعِهِ)؛ ولهذا يَخْتِم الله أحيانًا آيات التشريع بالحِكْمَة، كما في قوله تعالى في سورة الممتحنة: {ذَلِكُمْ حُكْمُ اللهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} [الممتحنة: ١٠].

فهو حكيم في صُنعه حكيم في شَرْعِه؛ (في صُنْعِه) يعني: جميع مصنوعاته كلِّها مُحْكَمةٌ؛ قال الله تعالى: {الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ} قلِّب، فكِّر: {هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ} يعني: كَرَّةً بعد أخرى، وفي النِّهايةِ: {يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ} [الملك: ٤] وهذا من الإحكام في الصُّنع.

=

=

أما في الشَّرْع فيقول الله سبحانه وتعالى: {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا} [النساء: ٨٢] وتناقضًا؛ فالقرآن لا يمكن أنْ يتناقَضَ أبدًا؛ وإذا رَأَيْتَ آيةً ظاهِرُها يُناقِضُ الآيةَ الأخرى فاعلم أن ذلك: إمَّا من سوء فَهْمِك، أو من قُصُور عِلْمِك.

(إمَّا من قصور علمك) بأن تكون الآيَةُ هذه ناسِخَةً للآيَةِ، وأنت لا تَعْلَم، أو (من سوء فَهْمِك) بأن تكون كلتا الآيتينِ مُحْكَمَة، ولكن لم تَفْهَمِ الجَمْع بينهما، وإلا فلا يمكن أبدًا أن يكون في كلام الله تناقُضٌ، ولا فيما صَحَّ عن رسول الله ﷺ تناقض أبدًا؛ فهذا لا يُمْكِن؛ لأنَّه شَرْع الله، والله تعالى قد أحكم شَرْعَه.

إِذَنْ: فالله تعالى حكيم في صُنْعه وفي شَرْعِه؛ وبناءً على هذا: تكون حكيمٌ بمعنى: مُحْكِم، وعلى هذا التفسير؛ أن معنى الحكيم المُحْكِم لشَرْعه وصنعه، فهنا نسأل هل تأتي فَعيلٌ في اللُّغَة العَربيَّة بمعنى مُفْعِل؟

والجواب: نعم، تأتي فعيلٌ بمعنى مُفْعِل؛ ومنه قول الشاعر:

أَمِنْ رَيْحانَةَ الدَّاعِي السَّمِيعُ ... يُؤَرِّقُني وَأَصْحَابِي هُجُوعُ

(أمِنْ ريحانة الدَّاعي السَّميع) السَّميع بمعنى المُسْمِع، فحينئذٍ تكون حكيم بمعنى مُحْكِم.

وهل يمكن أن تكون بمعنى حاكِمٍ؟

الجواب: نعم، يُمْكِنُ أن تكون بمعنى حاكم، وعلى هذا فتكون حكيمٌ بمعنى: أنَّ له الحُكْمَ.

والحُكْمُ المضاف إلى الله عز وجل يَشْمَلُ: الحكم الكونِيَّ، والحكم الشَّرْعِيَّ:

الحكم الكوني: هو إيجادُهُ للأشياء وخَلْقُه الأَشْياءَ، والحُكْم عليها بالفناء والبقاء والتَحَوُّل والتَّغَيُّر، وما أشبه ذلك، كلُّ هذا (حُكم).

=

إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ (٢).

{إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْك} يَا مُحَمَّد {الْكِتَاب بِالْحَقِّ} مُتَعَلِّق بِأَنْزَل {فَاعْبُدِ الله

=

الحكم الشَّرْعِيُّ: هو ما جاءت به الرُّسُل عليهم الصَّلاة والسَّلامُ من أحكام الله التي يُلْزَم بها المُكَلَّف؛ فقوله تعالى: {أَقِمِ الصَّلَاةَ} [الإسراء: ٧٨] هذا شَرْعِيٌّ؛ وقوله تعالى: {كُونُوا قِرَدَةً} [البقرة: ٦٥] هذا كوني، وقوله تعالى: {أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْمًا} [المائدة: ٥٠] شرعي؛ وقوله: {ذَلِكُمْ حُكْمُ اللهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} [الممتحنة: ١٠] شَرْعِي؛ وقوله: {فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللهُ لِي} [يوسف: ٨٠] كوني.

فقوله تعالى: {الْحَكِيمِ} سبق أنَّه من الإِحْكام ومن الحُكْم، فالإِحْكامُ يعني الإتقان، والإتقانُ هو الحِكْمَة، وهي وَضْع الشَّيْء في مَوْضِعِه.

قال العلماء: والحِكْمَة تكون في صُورَةِ الشَّيءِ وهيئَةِ الشَّيء وذاتِ الشَّيء وتكون في غايَتِه؛ فالحِكْمَة في نفس الشَّيْء: يعني أنَّ الشَّيءَ نَفْسَه مشتَمِلٌ على الحكمة، فإذا تأَمَّلْتَ الشَّرائعَ وجَدْتَ أنها مُشْتَمِلة على الحِكْمة، وإذا تأَمَّلْتَ الغاية منها وجدْتَها أيضًا في غاية الحِكْمة، كذلك أيضًا إذا تأَمَّلْت الصنائع التي صنعها الله عز وجل وهي الحكمة التي تكون في الكون وجَدْت أنها مُشْتَمِلَة على الحكمة، وإذا تأملت الغاية منها وجَدْتَها أنها حِكْمَة أيضًا.

فالعبادات المقصودُ بها: إصلاحُ الخَلْق، وهي مَوْضوعَة على وَفْق الحِكْمة؛ الصلوات كونُها على هذه الهيئة هو الحِكْمة، الزَّكاة والحَجُّ وبقيَّة العبادات، الكون، السَّماء، الأرض، الشَّمس، القمر، كونُها على هذا النظام البديع فهذا حِكْمة، والغاية منها أيضًا حِكْمَة؛ قال الله تعالى: {ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ} [ص: ٢٧].

مُخْلِصًا لَهُ الدِّين} مِنْ الشِّرْك أَيْ مُوَحِّدًا لَهُ[1].

---

(١)قوله تعالى: {إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ} [الزمّر: ٢].

قال الطبري:"أنزلنا إليك هذا القرآن يأمر بالحقّ والعدل".

عن قتادة: " {إِنَّا أَنزلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ}، يعني: القرآن".

قوله تعالى: {فَاعْبُدِ اللهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ} [الزمّر: ٢]، أي:"فاعبد الله وحده، وأخلص له جميع دينك".

قال الطبري: يقول:"فاخشع لله يا محمد بالطاعة، وأخلص له الألوهة، وأفرده بالعبادة، ولا تجعل له في عبادتك إياه شريكا، كما فَعَلَتْ عَبَدة الأوثان".

قال الزجاج:"معنى إخلاص الدِّينِ -ههنا-: عبادة الله وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وهذا جرى تثبيتًا للتوحيد، ونفيًا للشرك".

عن السديّ، "أما قوله: {مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ}، فالتوحيد".

عن شمر، قال:"يؤتى بالرجل يوم القيامة للحساب وفي صحيفته أمثال الجبال من الحسنات، فيقول ربّ العزّة جلّ وعزّ: صَلَّيت يوم كذا وكذا، ليقال: صلَّى فلان! أنا الله لا إله إلا أنا، لي الدين الخالص. صمتَ يوم كذا وكذا، ليقال: صام فلان! أنا الله لا آله إلا أنا لي الدين الخالص، تصدّقت يوم كذا وكذا، ليقال: تصدق فلان! أنا الله لا إله إلا أنا لي الدين الخالص، فما يزال يمحو شيئا بعد شيء حتى تبقى صحيفته ما فيها شيء، فيقول ملكاه: يا فلان، ألغير الله كنت تعمل".

قال العثيمين: قوله تعالى: {إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ} لمَّا بيَّن أنَّ تنزيل الكتاب من الله بيَّنَ إلى مَن أنزل؛ فقال تعالى: {إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ} يا محمدُ، {أَنْزَلْنَا} ضميرُ جَمْع، لكنه إذا كان عائدًا إلى الله فليس للجَمْع قطعًا بل هو للتَّعْظيم، وقد اشتبه على النصرانِيِّ مثلُ هذا الجمع، وقال: إنَّ الله ثالثُ ثلاثةٍ؛ لأنَّ الله تعالى يذكر الضَّميرَ عائدًا إليه بصيغة الجمع، وأقل الجمع ثلاثة!

=

فنقول في الرَّدِّ عليه: إنَّ هذا من زَيْغِ النَّصارى؛ {فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ} [الصف: ٥]، فاتبعوا المتشابهَ من القرآن، ولو أنهم ردوا هذا المتشابهَ إلى المُحْكَم لعلموا أنهم مُخْطِئون غايَةَ الخطأ، وذلك أنَّ الله صرَّح في آياتٍ كثيرة بأنه إلهٌ واحِدٌ، فقال: {وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ} [البقرة: ١٦٣].

وهذا نصٌّ صريح مُحْكَم، وأما (نا) التي هي ضمير جَمْع فإنها في اللُّغَة العَربيَّة التي نزل بها القرآن صالِحةٌ للجمع وللمُعَظِّم نَفْسَه.

إِذَنْ: هي من المتشابِهِ؛ لأنَّ اللَّفْظ إذا احتمل مَعْنَيينِ فإنه يقال فيه متشابِهٌ، والمتشابه يجب أن يُرَدَّ إلى المُحْكَم.

وقوله تعالى: {إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ}: {إِلَيْكَ} هذا الغاية، والخطاب للرسول ﷺ.

وقوله: {الْكِتَابَ} أي: المكتوبَ، وهو القرآن، وسبق وَجْهُ كَوْنِه كتابًا.

وقوله: {بِالْحَقِّ} مُتَعَلِّق بـ (أَنْزَل)، {بِالْحَقِّ} الباء هنا للمُلابَسَة وللتَّعْدِيَة، يعني أنَّ الكتاب نفسه نزل حقًّا من عند الله لا مِن عند غيره، أنزلناه بالحَقِّ يعني: بالتَّأكيد أنَّنا أنزلناه إليك من عندنا.

وقلنا أيضًا: (للتَّعْدِية) بمعنى: أنَّ الكتابَ نزَلَ بالحَقِّ، أي: إنَّ ما اشتملَ عليه القرآنُ فهو حَقٌّ.

فعلى الوجه الأول يكونُ المرادُ بقوله: {بِالْحَقِّ} تأكيدًا أنه نزل من الله؛ وعلى الوَجْه الثاني: يكون المعنى: أنَّ كُلَّ ما اشتمل عليه القرآن من أخبارٍ وأوامِرَ ونواهٍ وغيرِها، فهو حَقٌّ.

إذن: قوله: {بِالْحَقِّ} له معنيان:

المعنى الأول: أنَّ القرآنَ نزَلَ مِن عند اللهِ حقًّا لا باطلًا.

=

المعنى الثاني: أنَّ ما اشتَمَل عليه القرآنُ فهو حَقٌّ؛ أوامر، نواهٍ، أخبار، قَصص؛ كلُّها حَقٌّ.

قال المُفَسِّر رحمه الله: [{الْكِتَابَ بِالْحَقِّ} مُتَعَلِّقٌ بأنزل]، ولم يقل: مُتَعَلِّق بأَنْزَلنا؛ لأنَّ المُتَعَلِّق إنما يتعلَّق بالفعل، أما (نا) فهي ضمير، خارجة عن الفعل.

قال تعالى: {فَاعْبُدِ اللهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ} الفاءُ للتَّفْريع، وعلامة فاء التَّفْريع أنَّ ما بعدها يكون مُرَتَّبًا على ما قَبْلها، فالمعنى: فلإِنْزَالِنا إليك الكتابَ اعْبُدِ الله مُخْلِصًا له الدين؛ (اعْبُد) الخطاب للنَّبيِّ ﷺ.

وقوله تعالى: {مُخْلِصًا} حالٌ من فاعل (اعبُد) وإخلاص الشَّيْء تَنْقِيَتُه من الشَّوائِب، وإزالة ما يخالِطُه، فإذا كان: {مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ} فالمعنى: أنْ تُنَقِّي دينَكَ مِن كُلِّ شِرك؛ ولهذا قال المُفَسِّر رحمه الله: [{مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ} من الشرك؛ أي: موحِّدًا له] أي: لله عز وجل.

وقوله تعالى: {لَهُ الدِّينَ}: {الدِّينَ} يعني: العَمَل، والمراد به هنا: العمل المخصوصُ، وهو: العبادة؛ لقوله: {فَاعْبُدِ اللهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ} ولم يَقُل: مخلصًا له العبادَةَ؛ لأنَّ الدِّين هو العمل الذي يريد العامِلُ عليه مكافأةً؛ هذا الدين، ومنه قولهم: كما تدين تُدانُ، واعلم أنَّ الدِّينَ يُطْلَق على العمل الذي يُرادُ به المكافأةُ، ويُطلَق على نفس المكافَأة، وهي الثَّواب على العمل.

فمِن الأوَّل مِثْلُ هذه الآية {مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ}، وقوله تعالى: {لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ} [الكافرون: ٦]، وقوله تعالى: {وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا} [المائدة: ٣]؛ أي: عملًا تتعبَّدون به.

ومثال الثاني قوله تبارك وتعالى: {مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ} [الفاتحة: ٤]، يعني: يوم الجزاء على العَمَل، ومثل قوله تعالى: {وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ (١٧) ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ} [الانفطار: ١٧، ١٨]؛ أي: يوم الجزاء على العمل.

أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى إِنَّ اللهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ (٣).

{أَلَا لِلَّهِ الدِّين الْخَالِص} لَا يَسْتَحِقّهُ غَيْره {والذين اتخذوا من دونه} الْأَصْنَام {أَوْلِيَاء} وَهُمْ كُفَّار مَكَّة قَالُوا {مَا نَعْبُدهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى الله زُلْفَى} قُرْبَى مَصْدَر بِمَعْنَى تَقْرِيبًا {إِنَّ الله يَحْكُم بَيْنهمْ} وَبَيْن الْمُسْلِمِينَ {فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ} مِنْ أَمْر الدِّين فَيَدْخُل الْمُؤْمِنِينَ الْجَنَّة وَالْكَافِرِينَ النَّار {إِنَّ الله لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِب} فِي نِسْبَة الْوَلَد إِلَيْهِ {كُفَّار} بِعِبَادَتِهِ غير الله[1].

---

(١)ذكر سبب النزول.

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما في هذه الآية؛ قال: أنزلت في ثلاثة أحياء: عامر، وكنانة، وبني سلمة كانوا يعبدون الأوثان، ويقولون: الملائكة بناته، فقالوا: {مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى}.

ذكره السيوطي في "لباب النقول" (ص ١٨٤)، وقال: وأخرج جويبر عن ابن عباس به.

وجويبر؛ ضعيف جدًا، وبينهما الضحاك وهو لم يسمع من ابن عباس؛ فالأثر تالف واهٍ بمرة.

* قوله تعالى: {أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ} [الزمّر: ٣].

قال النحاس:"أي: الذي لا يشوبه شيء".

قال ابن كثير:"أي: لا يقبل من العمل إلا ما أخلص فيه العامل لله، وحده لا شريك له".

قال الزجاج:"أي: فَأَخلِصْ أَنْتَ الدِّينَ، ولا تتخذ من دونه أولياء".

=

=

قال الطبري: يقول:"ألا لله العبادة والطاعة وحده لا شريك له، خالصة لا شرك لأحد معه فيها، فلا ينبغي ذلك لأحد، لأن كل ما دونه ملكه، وعلى المملوك طاعة مالكه لا من لا يملك منه شيئا".

قال البغوي:"{ألا لله الدين الخالص}، أي: التوحيد، والدين: اسم لجميع ما تعبد الله به خلقه".

عن قتادة: " {أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ}، شهادة أن لا إله إلا الله".

قال مجاهد:"شهادة أن لا إله إلا الله كلمة الإخلاص".

عن أبي أمامة الباهلي – رضي الله عنه – قال: جاء رجل إلى النبي – ﷺ – فقال: أرأيت رجلا غزا يلتمس الأجر والذكر، ماله؟، فقال رسول الله – ﷺ –: " لا شيء له "، فأعادها ثلاث مرات، يقول له رسول الله – ﷺ –: " لا شيء له، ثم قال رسول الله – ﷺ –: إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصا له، وابتغي به وجهه".

عن عبد الله بن عمرو، رضي الله عنه:"{ألا لله الدين الخالص} [الزمر: ٣]، قال: «كلمة الإخلاص لا إله إلا الله، لا يتقبل الله عز وجل من أحد عملا حتى يقولها».

قوله تعالى: {وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى} [الزمّر: ٣].

قال الطبري: يقول:"والذين اتخذوا من دون الله أولياء يَتَوَلَّوْنَهُم، ويعبدونهم من دون الله، يقولون لهم: ما نعبدكم أيها الآلهة إلا لتقربونا إلى الله زُلْفَى، قربة ومنزلة، وتشفعوا لنا عنده في حاجاتنا".

قال الزجاج:"أي: يقولون لمن يقول لهم لم عبدتموهم: {ما نعبدهم إلا ليُقَربُونَا إلى الله زلفى}. أَيْ: قُرْبَى".

=

قال ابن كثير:"أي: إنما يحملهم على عبادتهم لهم أنهم عمدوا إلى أصنام اتخذوها على صور الملائكة المقربين في زعمهم، فعبدوا تلك الصور تنزيلا لذلك منزلة عبادتهم الملائكة؛ ليشفعوا لهم عند الله في نصرهم ورزقهم، وما ينوبهم من أمر الدنيا، فأما المعاد فكانوا جاحدين له كافرين به... ولهذا كانوا يقولون في تلبيتهم إذا حجوا في جاهليتهم: «لبيك لا شريك لك، إلا شريكا هو لك، تملكه وما ملك». وهذه الشبهة هي التي اعتمدها المشركون في قديم الدهر وحديثه، وجاءتهم الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، بردها والنهي عنها، والدعوة إلى إفراد العبادة لله وحده لا شريك له، وأن هذا شيء اخترعه المشركون من عند أنفسهم، لم يأذن الله فيه ولا رضي به، بل أبغضه ونهى عنه: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولا أَنِ اُعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ} [النحل: ٣٦] {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدُونِ} [الأنبياء: ٢٥]. وأخبر أن الملائكة التي في السموات من المقربين وغيرهم، كلهم عبيد خاضعون لله، لا يشفعون عنده إلا بإذنه لمن ارتضى، وليسوا عنده كالأمراء عند ملوكهم، يشفعون عندهم بغير إذنهم فيما أحبه الملوك وأبوه، {فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الأَمْثَالَ} [النحل: ٧٤]، تعالى الله عن ذلك".

عن مجاهد، قوله: " {مَا نَعْبُدُهُمْ إِلا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى}، قال: قريش تقوله للأوثان، ومن قبلهم يقوله للملائكة ولعيسى ابن مريم ولعزَير".

قال قتادة:"قالوا: ما نعبد هؤلاء إلا ليقرّبونا، إلا ليشفعُوا لنا عند الله".

قال ابن زيد:"قالوا هم شفعاؤنا عند الله، وهم الذين يقربوننا إلى الله زلفى يوم القيامة للأوثان، والزلفى: القُرَب".

عن السديّ، قوله: " {مَا نَعْبُدُهُمْ إِلا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى}، قال: هي منزلة".

=

عن ابن عباس، قوله: {والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى} [الزمر: ٣] وقوله: {ولو شاء الله ما أشركوا} [الأنعام: ١٠٧]:"يقول سبحانه: لو شئت لجمعتهم على الهدى أجمعين".

قوله تعالى: {إِنَّ اللهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ} [الزمّر: ٣]، أي:"إن الله يفصل بين المؤمنين المخلصين والمشركين مع الله غيره يوم القيامة فيما يختلفون فيه من عبادتهم، فيجازي كلا بما يستحق".

قال الطبري: يقول:"إن الله يفصل بين هؤلاء الأحزاب الذين اتخذوا في الدنيا من دون الله أولياء يوم القيامة، فيما هم فيه يختلفون في الدنيا من عبادتهم ما كانوا يعبدون فيها، بأن يصليهم جميعا جهنم، إلا من أخلص الدين لله، فوحده، ولم يشرك به شيئا".

قال ابن كثير:"أي: سيفصل بين الخلائق يوم معادهم، ويجزي كل عامل بعمله، {وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ أَهَؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ} [سبأ: ٤٠، ٤١]".

قال الزمخشري:"المعنى: أن الله يحكم بينهم بأنه يدخل الملائكة وعيسى الجنة، ويدخلهم النار مع الحجارة التي نحتوها وعبدوها من دون الله يعذبهم بها حيث يجعلهم وإياها حصب جهنم، واختلافهم: أن الذين يعبدون موحدون وهم مشركون، وأولئك يعادونهم ويلعنونهم، وهم يرجون شفاعتهم وتقريبهم إلى الله زلفى.

وقيل: كان المسلمون إذا قالوا لهم: من خلق السماوات والأرض، أقروا وقالوا: الله، فإذا قالوا لهم: فما لكم تعبدون الأصنام؟ قالوا: ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله

=

=

زلفى، فالضمير في بَيْنَهُمْ عائد إليهم وإلى المسلمين. والمعنى: أن الله يحكم يوم القيامة بين المتنازعين من الفريقين".

قوله تعالى: {إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ} [الزمّر: ٣]، أي:"إن الله لا يوفق للهداية إلى الصراط المستقيم من هو مفترٍ على الله، كَفَّار بآياته وحججه".

قال الطبري: يقول:"{إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي} إلى الحق ودينه الإسلام، والإقرار بوحدانيته، فيوفقه له {مَنْ هُوَ كَاذِبٌ} مفتر على الله، يتقول عليه الباطل، ويضيف إليه ما ليس من صفته، ويزعم أن له ولدا افتراء عليه، كفار لنعمه، جحودا لربوبيته".

قال ابن كثير:"أي: لا يرشد إلى الهداية من قصده الكذب والافتراء على الله، وقلبه كفار يجحد بآياته وحججه وبراهينه ".

قال ابن المنير الإسكندري:"معنى إضلاله للكافر إزاحته عن الهدى وخلق الكفر له، ومع ذلك فيجوز عند أهل السنة أن يخلق الله تعالى للكافر لطفا يؤمن عنده طائعا، خلافا للقدرية، وغرضنا التنبيه على مذهب أهل الحق لا غيره".

قال العثيمين: قوله تعالى: {أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ} قوله: {أَلَا} أداة اسْتِفْتاح، وهي حرفٌ يراد به التَّنْبيهُ؛ لأنَّ المُتكَلِّمَ إذا قال: (ألا) انتبَه المخاطَبُ.

وقوله: {لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ} الجارُّ والمجرور خبَرٌ مقدَّم، و {الدِّينُ} مبتدأ مؤخَّرٌ، ويفيد تقديمُ الخَبَر الحَصْرَ؛ أي لله وحده.

وقوله: {الدِّينُ} يعني: العَمَل الذي يُراد الثَّوابُ عليه.

وقوله: {الْخَالِصُ}، يعني: النَّقِي من الشوائب والشِّرْك؛ أي: إنَّه يجب على العاقل أن يجعل الدِّينَ الخالِصَ لله وحده؛ إذ كيف يليق بالعاقل أن يتعبَّد بالحَقِّ لله من أجل التَّقَرُّب إلى غيره؟! هذا خلاف العَقْل، فإذا قام الإنسان يصلي من أجل أن يراه النَّاس فهو سفيهٌ في عَقْله، ضالٌّ في دينه.

=

ولكن: كيف تجعل الحَقَّ الخالص لله تَجْعَلُه للنَّاسِ؟

الجواب: نعم، العمل الذي للنَّاس للنَّاس، لكن العمل الذي لله يجب أن يكون لله؛ ولهذا قال: {أَلَا لِلَّهِ} وَحْدَهُ {لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ} فلا يجوز أن نجعله لغيره.

ولهذا قال: {وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ} يقولون {مَا نَعْبُدُهُمْ} إلخ، الواو هنا للاستئناف، {وَالَّذِينَ} مبتدأٌ و {اتَّخَذُوا} صلة الموصول، وخبر المبتدأ محذوف تقديره: (يقولون ما نعبدهم) أو: (قالوا: ما نعبدهم).

وقوله: {وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ}: اتَّخذوا بمعنى صيَّروا، كقوله تعالى: {وَاتَّخَذَ اللهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا} [النساء: ١٢٥] يعني: صيَّره؛ وقوله تعالى: {أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ} [الجاثية: ٢٣]؛ أي: صيَّر إلَهَه هواه.

فإذا كانت {اتَّخَذَ} بمعنى صيَّر فإنَّها تحتاج إلى مفعولين: (مُصَيَّر ومُصَيَّر إليه) فالمفعول الأول؛ يقول المُفَسِّر رحمه الله: [الأَصْنام {أَوْلِيَاءَ}]؛ وعليه فيكون المفعول الأولُ محذوفًا، والثاني: {أَوْلِيَاءَ}، وحَذْفُ المفعول إذا دلَّ عليه الدَّليل جائزٌ.

قال ابن مالك رحمه الله في باب المبتدأ والخبر:

وَحَذْفُ مَا يُعْلَمُ جَائِزٌ كَمَا ... تَقُولُ زيدٌ بَعْدَ مَنْ عِنْدَكُمَا

(حَذْفُ ما يُعْلَم جائِزٌ) الواقع أن هذا البيت في المبتدأ والخبر، لكن هو عامٌّ، فحَذْف ما يُعلَم جائِزٌ، وقد يكون من الفصاحَة والبلاغَة أن يُحْذَف، إنما الأصل أن ما يُعْلَم يجوز حَذْفُه، وما لا يُعْلَم لا يجوز حذفه، لأنَّ الكلام لا بد أن يكون مُبَيِّنًا لمراد المُتَكَلِّم، وهذا لا يكون مع حَذْفِ ما لا يُعْلَم.

إِذَنِ: المفعولُ الأول محذوف، والتقدير: الأصنام، والثاني موجود، وهو قوله: {أَوْلِيَاءَ}.

=

{أَوْلِيَاءَ} جَمْع ولِيٍّ؛ أي: يتولَّونَها ولاية عبادَةٍ يتضرَّعون إليها، يسجدون لها، يَنْذِرون لها، يتصدَّقون لها، لكن لا يعتقدون أنَّ هذه الأصنام تَنْفَعُهم أو تضرُّهُم بذاتها ولا أنها تَخْلُق ولا أنها ترزق، لكن يَدَّعُون أنَّهم اتَّخذوها وسيلة.

ولهذا يقول رحمه الله: [{أَوْلِيَاءَ} وهم كفَّارُ مكَّة] وتخصيص هذا بكُفَّار مكة فيه قصور، ولا ينبغي أن نفسِّر العامَّ بما هو أخَصُّ إلا على سبيل التَّمْثيل، أما على سبيل تَحْديدِ المعنى بحيث يأتي اللَّفْظ في القرآن عامًّا ثم نُفَسِّره بمعنًى أخصَّ، فإن هذا قصورٌ في الحقيقة، لكن: نَعَم، إن أراد الإنسانُ بهذا التَّفسيرِ التمثيلَ؛ يعني مِثْل كفَّار مكَّة فهذا لا بأس به، لكِنَّ القارِئَ الذي يقرأ مثل هذه العبارة من كلام المُفَسِّر لا يشُكُّ أنَّ المُفَسِّر أراد بهذا التَّخصيصَ، وفي هذا نظرٌ ظاهِرٌ، فالواجب إبقاءُ دَلالة عموم الآيات وكذلك الأحاديث على ما هي عليه، حتى يقومَ دليلٌ عقليٌّ أو قرينة لفظيَّة على أنَّ المراد الخاصُّ.

فائِدَة: قوله: {أَوْلِيَاءَ} الأَحْسَنُ الوقوف عليها في القراءَةِ.

يقول رحمه الله: [وهم كفَّار مكَّة قالوا: {مَا نَعْبُدُهُمْ}]، [قالوا] هذه الجملة محذوفة لأنَّها معلومةٌ من السِّياق، ويصِحُّ أن نُقَدِّرَ: يقولون: ما نعبدهم، ولعلَّها أنسَبُ من قول المُفَسِّر: [قالوا]: يعني حكايةً للحالِ التي هم عليها، وعلى كلٍّ فالجُمْلَة المحذوفة هي خبر المبتدأ، وهي قوله: {وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا} ولا يجوز أن نجعل جملة: {مَا نَعْبُدُهُمْ} هي الخبر لفساد المعنى قال: {مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى} هذا حصر لمرادهم من عبادة هذه الأصنام؛ يعني ما نَعْبُدُهم إلا لهذا الغَرَضِ {لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى} وهذا إقرارٌ منهم واعترافٌ بأنَّهم يعبدون الأصنام؛ لقولهم: {مَا نَعْبُدُهُمْ} وأن هذه العبادَةَ هي وسيلَةٌ لغايَةٍ أشْرَفَ منها، وهي: القُرْبَى لله عز وجل.

=

=

وهـذا مـن جهلهـم؛ لأنَّهـم الآن إذا عبَـدوهم جعلوهـا غايـةً؛ لأنَّ المقـصود هـو الوصول إلى الله عز وجل، والوصولُ إلى الله لا يكون إلا بعبادَتِه، فهم إذا عبدوهم جَعَلوهم هُمُ الغايَةَ، ولهذا سنُبيِّنُ إن شاء الله أنَّ هذا من سَفَهِهِم.

وقولـه رحمـه الله: [{إِلَّا لِيُقَرِّبُونَـا إِلَـى اللهِ زُلْفَـى} قُرْبَـى، مَـصْدَرٌ بمعنـى تقريبًـا] {زُلْفَى} يقول المُفَسِّر رحمه الله: إنَّها [مصدر] لكنها مصدرٌ مَعْنَوِيٌّ لموافَقَتِه العامِلَ في المعنى دون اللَّفْظ، فالمصدَرُ قد يكون لفظيًّا وقد يكون معنويًّا؛ فإن وافق عامِلَه في اللَّفْظ فإنَّه لَفْظيٌّ؛ مثل: قمْتُ قيامًا، وإن خالفه في اللَّفْظِ دون المعنى صار معنويًّا؛ كقولك: قُمْتُ وقوفًا، وأمَّا قولُك: قَعَدْتُ قُعودًا؛ فلَفْظيٌّ، وقولك: (قعَدْتُ جُلوسًا) معنوي.

يقول: تقرَّبوا إلى الله زُلْفى، يقول: إنَّه بمعنى قُرْبى، وقُرْبَى أيضًا يراد بها التَّقريب، وإنَّما قال المُفَسِّر رحمه الله: إنَّه يُرادُ بها التَّقْريبُ؛ من أجل أن يُطابِقَ الفِعْلَ، فالفعل (قَرَّبَ) مضارِعُه (يُقَرِّب) المصدر المطابِق: (تقريبًا) لا قُرْبًا، ولكن من المعلوم أنه قد يوافِقُ المصدَرُ عامِلَه في اللَّفْظ، ولكنه لا يطابقه في الحروف، ومثل هذا يُسَمَّى عندهم اسمَ مَصْدر؛ كقوله تعالى: {وَاللهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا} [نوح: ١٧]، فلو كان مصدرًا لقال: إنباتًا، فلما قال: {نَبَاتًا} ونَقَصَت حروفُه عن حروف فِعْلِه سُمِّيَ اسْمَ مَصْدَرٍ.

المُهِمُّ أنَّهم يقولون: نحن لا نعبد هذه الأصنام إلا من أجل أن تُقَرِّبَنا إلى الله تعالى قُرْبَى.

وحالُ بَعْضِ النَّاس عند القبور كحالِ هؤلاء؛ فهناك ناسٌ يطوفون بالقبور يَنْذِرون لها، يَسْجُدون لها، يقولون: هؤلاء أولياءُ يُقَرِّبوننا إلى الله! وهؤلاء الآن لهم وجود في العالَم الإسلامي.

=

وقوله: {إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ} الجملة اسْتِئْنافِيَّة لبيانِ مآلِ هؤلاء الذين اتَّخَذوا الأصنامَ أولياءَ؛ يعني: فماذا تكون نهايَتُهم؟ يقول الله عز وجل: {إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ}.

قوله تعالى: {بَيْنَهُمْ} قال المُفَسِّر رحمه الله: [وبين المسلمين] فأشار إلى أنَّ الطَّرَف الآخَرَ من البَيْنونة، أو من البَيْنِيَّة على الأَصَحِّ محذوف؛ وبين المسلمين، وهذا التَّقدير ليس في السِّياق ما يدلُّ عليه، لو قال: بينكم، لكان صحيحًا، أنَّ المراد بينكم وبينهم، لكن هو قال: {بَيْنَهُمْ}؛ أي: بين هؤلاء الكُفَّار {فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ} وكأنَّ المُفَسِّر رحمه الله ظنَّ أنه لا اختلاف بين الكُفَّار، وليس كذلك، بل الخلاف بينهم حاصِلٌ في الدنيا وفي الآخرة، قال الله تعالى: {قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ} [الأعراف: ٣٨] إلى آخر الآيات؛ محاوَرَة، منازَعَة، مخاصَمَة؛ فيحكم الله بينهم، وقد ذكر الله ذلك في عِدَّةِ آيات.

فالصَّواب: أنَّ الضميرَ بينهم؛ أي: يعود على الكُفَّار، وأنَّ الخِلافَ أو الاختلاف حاصلٌ بينهم أنْفُسِهم، فالنَّصارى واليهود بينهم خلاف: {وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ} [البقرة: ١١٣].

وهذا الخلاف ثابتٌ بين الأُمَم الكافِرَة؛ فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما هم فيه يختلفون من أمر الدِّينِ، فيُدْخِل المؤمنين الجنَّة والكافرين النَّارَ، هذا بناءً على ما ذهب إليه المُفَسِّر، ولكِنْ على القول الذي هو ظاهِرُ الآيَةِ الكريمَةِ: {يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ} فيجعل كلَّ إنسان في منزلته، وقد بيَّن الله عز وجل ذلك في قوله: {وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [سبأ: ٣٣] لما ذكر المحاورة بين المُسْتَضْعَفينَ والمُسْتكْبرينَ.

لَوْ أَرَادَ اللهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللهُ الْوَاحِدُ

=

ثم قال الله تعالى: {إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ} هذه الجملة مُؤَكَّدَة بـ (إنَّ).

وقوله: {لَا يَهْدِي} المراد بذلك: هدايةُ التَّوْفيق، وأما هدايَةُ الدلالة فإنها حُجَّةُ الله على خَلْقِه، لا بدَّ أن تنالَ كلَّ أحد؛ كما قال الله تعالى: {وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى} [فصلت: ١٧]؛ (هديناهم) هداية دَلالة.

إذن: إنَّ الله لا يَهدي هدايةَ توفيقٍ، لا هداية دَلالة؛ بل هداية الدلالة ثابتَةٌ لكُلِّ أحَدٍ.

قوله تعالى: {لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ}: {مَنْ هُوَ} أي الذي هو {كَاذِبٌ}.

قال المُفَسِّر رحمه الله: [في نِسْبَةِ الوَلَدِ إليه]، والذين نسبوا الولد إليه هم اليهود والنصارى والمُشْرِكون؛ ثلاثة: أما اليهود فقالت: عُزَيرٌ ابْنُ الله، وأما النصارى فقالوا: المسيحُ ابنُ الله، وأما المشركون فقالوا: الملائِكَةُ بناتُ الله والآية كما يُشاهَد: {مَنْ هُوَ كَاذِبٌ} عامَّة، لكن كأنَّ المُفَسِّر خصَّصها بنِسْبَة الولد إلى الله؛ لقوله فيما بعد: {لَوْ أَرَادَ اللهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ} [الزمر: ٤]؛ وإلا فلو نظرنا إلى الآية: {كَاذِبٌ} لكانت مُطْلَقَة لم تقيَّد بنِسْبَة الوَلَدِ إلى الله عز وجل، لكن المُفَسِّر قيَّدَها باعتبار أو بِقَرينَة السِّياق: {كَفَّارٌ}، {كَفَّارٌ} هذه يُحتَمَل أن تكون صيغة مبالَغَة، ويحتمل أن تكون للنِّسْبة فإن كانت للنِّسبة صارت صفةً لازِمَة؛ كما نقول: نجَّار وحدَّاد وخشَّاب وبنَّاء، وما أشبه ذلك، وإن كانت صيغة مبالغة لم تكن صفةً لازِمَة لكنها تدل على الكَثْرة.

وعلى كلِّ حال: فسواء كانت للمبالَغَة أو للنِّسْبَة فالمراد بها: الكُفُور بالله عز وجل.

وقال المُفَسِّر رحمه الله: [بعبادَتِه غَيْرَ الله] ولا شكَّ أن هذا كُفْر؛ عبادَةُ غَيْرِ الله، وتخصيصُ الكفر هنا بعبادة غير الله يؤيِّدُه السِّياق، وهو قوله فيما سبق: {وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ}.

الْقَهَّارُ (٤).

{لَوْ أَرَادَ الله أَنْ يَتَّخِذ وَلَدًا} كَمَا قَالُوا {اتَّخَذَ الرَّحْمَن وَلَدًا} {لَاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُق مَا يَشَاء} وَاتَّخَذَهُ وَلَدًا غَيْر مَنْ قَالُوا من الملائكة بنات الله وعزير بن الله والمسيح بن الله {سُبْحَانه} تَنْزِيهًا لَهُ عَنْ اتِّخَاذ الْوَلَد {هو الله الواحد القهار} لخلقه[1].

---

(١) قوله تعالى: {لَوْ أَرَادَ اللهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ} [الزمّر: ٤].

قال الطبري: يقول: "لو شاء الله اتخاذ ولد، ولا ينبغي له ذلك، لاختار من خلقه ما يشاء".

قال ابن قتيبة: "أي: لاختار ما يشاء من خلقه، لو كان فاعلا".

قال ابن كثير: "وهذا شرط لا يلزم وقوعه ولا جوازه، بل هو محال، وإنما قصد تجهيلهم فيما ادعوه وزعموه، كما قال: {لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ} [الأنبياء: ١٧] {قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ} [الزخرف: ٨١]، كل هذا من باب الشرط، ويجوز تعليق الشرط على المستحيل لقصد المتكلم".

قال القشيري: "خاطبهم على قدر عقولهم وعقائدهم حيث قالوا: المسيح ابن الله، وعزيز ولد الله فقال: لو أراد أن يتّخذ ولدا للتبنّى والكرامة لاختار من الملائكة الذين هم منزّهون عن الأكل والشرب وأوصاف الخلق".

قال الزمخشري: "يعنى: لو أراد اتخاذ الولد لامتنع ولم يصح، لكونه محالا، ولم يتأت إلا أن يصطفى من خلقه بعضه ويختصهم ويقربهم، كما يختص الرجل ولده ويقربه. وقد فعل ذلك بالملائكة فافتتنتم به وغركم اختصاصه إياهم، فزعمتم أنهم أولاده، جهلا منكم به وبحقيقته المخالفة لحقائق الأجسام والأعراض، كأنه قال: لو أراد اتخاذ الولد لم يزد على ما فعل من اصطفاء ما يشاء من خلقه وهم =

=

الملائكة، إلا أنكم لجهلكم به حسبتم اصطفاءهم اتخاذهم أولادا، ثم تماديتم في جهلكم وسفهكم فجعلتموهم بنات، فكنتم كذابين كفارين متبالغين في الافتراء على الله وملائكته، غالبين في الكفر".

قوله تعالى: {سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ} [الزمّر: ٤]، أي:"تنزَّه الله وتقدَّس عن أن يكون له ولد، فإنه الواحد الأحد، الفرد الصمد، القهَّار الذي قهر خلقه بقدرته، فكل شيء له متذلل خاضع".

عن ميمون بن مهران: {سبحان الله}: اسم يعظم الله به ويحاشى به من السوء".

قال الطبري:"يقول: تنزيها لله عن أن يكون له ولد، وعما أضاف إليه المشركون به من شركهم، هو الذي يَعْبده كلّ شيء، ولو كان له ولد لم يكن له عبدا، يقول: فالأشياء كلها له ملك، فأنى يكون له ولد، وهو الواحد الذي لا شريك له في ملكه وسلطانه، والقهار لخلقه بقدرته، فكل شيء له متذلل، ومن سطوته خاشع".

قال ابن كثير:"أي: تعالى وتنزه وتقدس عن أن يكون له ولد، فإنه الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي كل شيء عبد لديه، فقير إليه، وهو الغني عما سواه الذي قد قهر الأشياء فدانت له وذلت وخضعت".

قال الزجاج:"أي: تنزيهًا له عن ذلك، {هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ}. وفي هذا دليل أن الذين اتخذوا من دونه أولياء قد دخل فيهم من قال: عيسى ابن الله - جلَّ الله وعزَّ عن ذلك - ومن قال: العُزيْرُ ابن الله".

قال الزمخشري:"نزه ذاته عن أن يكون له أحد ما نسبوا إليه من الأولاد والأولياء. ودلّ على ذلك بما ينافيه، وهو أنه واحد، فلا يجوز أن يكون له صاحبة، لأنه لو كانت له صاحبة لكانت من جنسه ولا جنس له: وإذا لم يتأت أن يكون له صاحبة لم يتأت أن يكون له ولد، وهو معنى قوله: {أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ

=

=

صَاحِبَةٌ} [الأنعام: ١٠١]. و {قهار}: غلاب لكل شيء، ومن الأشياء آلهتهم، فهو يغلبهم، فكيف يكونون له أولياء وشركاء؟ ".

قال العثيمين: قوله تعالى: {لَوْ أَرَادَ اللهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا} كما قالوا: اتَّخذ الرَّحمن ولدًا {لَاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ}.

{لَوْ} هذه شَرْطِيَّة؛ الشَّرْط الذي فيها: {أَرَادَ} وجوابُهُ: {لَاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ} واعلم أنَّ (لو) الشَّرْطِيَّة إذا كان جواب الشَّرْط فيها مُثْبَتًا فالأكثر اقترانه باللام (لَوْ أراد الله لَاصْطَفَى)، وقد يأتي غيرَ مُقْتَرِنٍ باللام كقوله تعالى: {لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ} [الواقعة: ٧٠]؛ أما إذا كان منفيًّا - وهو كثير الأمثلة في هذا - فإنه قد يَقْتَرِن باللام كقول الشاعر:

وَلَوْ نُعْطَى الخِيَارَ لَمَا افْتَرَقْنَا ... وَلَكِنْ لَا خِيَارَ مَعَ اللَّيَالِي

{لَوْ أَرَادَ اللهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا}: أراد إرادةً كَوْنِيَّة، فتكون بمعنى المشيئَة يعني: لو شاء الله أن يتَّخِذَ ولدًا، يعني أن يجعل لنفسه ولدًا [كما قالوا: {اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا}].

{لَاصْطَفَى}: اصطفى من الصَّفْوَة، وهو خيار الشَّيء، فيكون معنى اصطفى اختار.

{مِمَّا يَخْلُقُ}: أي: من الذي يَخْلُق ما يشاء، و (ما) هنا مفعولُ اصطفى أي: لاصطفى ما يشاء ممَّا يَخْلُقه؛ وقوله: {مِمَّا} هذه اسْمٌ مَوْصُول، والعائِدُ مَحْذوف، والتَّقْدير: مما يَخْلُقُه، وعبَّرَ بـ (ما) دون (مَن) مع أنَّهم قالوا: الملائِكَة بناتُ الله، وعزيرٌ ابْنُ الله، المسيحُ ابنُ الله، فعبَّرَ بـ (ما)؛ لأنَّها أعَمُّ مِن (مَن)؛ هذا من وَجْه.

من وجهٍ آخر: أنَّه إذا أُريدَ ملاحَظَة الصِّفَة، فإنه يعبَّر بـ (ما) عن (مَن) وهنا يراد ملاحَظَة الصِّفَة وهي: العبادة وانظروا إلى مثالٍ يتَّضِحُ به ما قلنا؛ قال الله تعالى: {فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ} [النساء: ٣] ولم يَقُلْ: (مَن)، لأنَّه ليس المقصود عَيْنَ المرأة إنما المقصود الوصف؛ ولهذا يعبَّر بـ (ما) عن (مَن).

=

{لَاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ} أي: من مخلوقاته ذاتِ الإرادَةِ والشُّعور كعُزَيْرٍ والمسيحِ والملائِكَةِ وغيرهم كالجمادات من الأصنام المنْحُوتة وغيرها؛ ما شاء، واتَّخَذه ولدًا قوله: {مَا يَشَاءُ} نقول: في {مَا يَشَاءُ} كما قلنا: في {مِمَّا يَخْلُقُ} واتَّخَذه ولدًا [غيْرَ من قالوا مِن الملائِكَة بنات الله، وعُزَيْر ابن الله، والمسيحُ ابن الله] يعني: الله عز وجل لو أراد أن يتَّخِذَ ولدًا ما منعه أحَدٌ؛ {لَاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ} مما قالوه أو غيره، فهو عز وجل له المُلْك الكامل، ولكنه لا يتَّخِذُ ولدًا، كما قال تعالى: {وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا} [مريم: ٩٢]؛ يعني: مستحيلٌ غايَةَ الاسْتِحالَة أن يتَّخِذَ ولدًا.

ولهذا قال رحمه الله هنا: [{سُبْحَانَهُ} تنزيهًا له عن اتخاذِ الولد، {هُوَ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ} لخَلْقِه] {سُبْحَانَهُ} أي تَنْزيهًا له، و {سُبْحَانَهُ} هذه اسمُ مَصْدَر، مِن سبَّح، والمصدَرُ تَسْبيح، واعلم أن (سبحان) ملازِمَةٌ للإضافة دائمًا، ولكن ربما تأتي نادرًا أو شذوذًا بغير إضافَةٍ، وربما تَقْتَرِن بـ (أل) فيقال: السُّبْحان، ولكن الأَصْل: أنَّها ملازِمَةٌ للإضافة، وأنها منصوبة على المفعولية المُطْلَقة، وعاملها يكون محذوفًا دائمًا، والمراد: تَنْزيهًا له.

وقول المُفَسِّر رحمه الله: [عن اتِّخاذ الولد] إنما خصَّه باتخاذ الولد؛ لأنَّ السِّياق في ذلك، وإلا فإنه مُنَزَّه عن اتِّخاذ الولد وعن كل عَيْبٍ ونَقْص.

فإذا قال قائل: هل في اتِّخاذ الوَلَدِ من عَيْبٍ؟

فالجواب: نعم، فيه عَيْبٌ؛ لأمور:

أولًا: لأنَّه يدلُّ على احتياجِ الوالِدِ للوَلَد، ولهذا تَجِدُ الإنسان إذا لم يَأْتِهِ الولد يرى أنه ناقِصٌ، ويتمنَّى كلَّ الأمنية أن يأتيه وَلَد يساعده على شُؤُون الحياة ويُبْقي ذِكْرَه بعد موته؛ فاتخاذُ الوَلَدِ نَقْص؛ ولهذا نزَّه الله نفسَه عنه.

خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ (٥).

{خلق السماوات وَالْأَرْض بِالْحَقِّ} مُتَعَلِّق بخَلَقَ {يُكَوِّر} يُدْخِل {اللَّيْل عَلَى النَّهَار} فَيَزِيد {وَيُكَوِّر النَّهَار} يُدْخِلهُ {عَلَى اللَّيْل} فَيَزِيد {وَسَخَّرَ الشَّمْس وَالْقَمَر كُلّ يَجْرِي} فِي فُلْكه {لِأَجَلٍ مُسَمًّى} لِيَوْمِ الْقِيَامَة {أَلَا هُوَ الْعَزِيز}

=

ثانيًا: الولد إنما يأتي من أجل بقاءِ النَّوْع الذي تَوَلَّدَ منه، والله سبحانه وتعالى غير محتاج لذلك؛ لأنَّه هو الواحِدُ الباقي عز وجل.

ثالثًا: أنَّ الوَلَدَ يكون مماثلًا لأبيه ولا نَسْمَعُ وما سمعنا أنَّ بَشَرًا جاءه تَيْسٌ، أليس كذلك؟ وإنما يأتيه ولدٌ مِثْلُه، فلو فُرِضَ أنَّ الله اتَّخذ ولدًا لكان الولد مثلَ الله عز وجل، والله تعالى مُنَزَّهٌ عن أن يُماثِلَه أَحَدٌ.

إذن: ففي هذه الوجوه الثلاثة يتبيَّن أنَّ الولد مُمْتَنِع عن الله غايَةَ الامتناع.

ثم إنَّ الله ذكر مانعًا رابعًا: وهو أنه ليس له زَوْجَة فقال تعالى: {وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [الأنعام: ١٠١] فبيَّن أنه ليس له زوجة، فكيف يأتي الوَلَدُ؟! وإنما جاء الولد من آدم مثلًا؛ لأنَّه آيةٌ مُعْجِزَة.

ثم قال تعالى: {هُوَ اللهُ الْوَاحِدُ}: {هُوَ اللهُ} ولو كان له ولَدٌ لشاركه في الأُلوهِيَّة، والأُلوهِيَّة ليست إلا له الواحِد؛ ولو كان له ولد لكان اثنين؛ لأنَّه لا بدَّ أن يكون الوَلَدُ مماثِلًا لوالِدِه، والله واحِدٌ لا ثانِيَ له عز وجل.

{الْقَهَّارُ} القهَّار صيغَةُ مبالَغَة، وصيغة نِسْبَة؛ أي: إنَّه ذو القَهْر الدَّائم المتكرِّر، فكم من ذي جبروتٍ قَهَرَهُ الله عز وجل، ما أكثر الرجالَ والأُمَمَ ذوات الجبروت التي قهرها الله عز وجل.

الْغَالِب عَلَى أَمْره الْمُنْتَقِم مِنْ أَعْدَائِهِ {الْغَفَّار} لِأَوْلِيَائِهِ(١).

(١)قوله تعالى: {خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ} [الزمّر: ٥].

قال مقاتل:"لم يخلقهما باطلا لغير شيء".

قال ابن كثير:"يخبر تعالى أنه الخالق لما في السموات والأرض، وما بين ذلك من الأشياء، وأنه مالك الملك المتصرف".

قال الشافعي:"فهذا عام لا خاص فيه، فكل شيء من سماء، وأرض، وذي روح، وشجر، وغير ذلك، فالله خالقه".

قال سهل:"خلق الأشياء كلها بقدرته، وزينها بعلمه، وحكمها بحكمته فالناظر من الخلق إلى الخالق تبين له عجائب الخلقة، والناظر من الخالق إلى الخلق يكشف له عن آثار قدرته وأنوار حكمته وبليغ صنعته".

قوله تعالى: {يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ} [الزمّر: ٥]، أي:"يجيء بالليل ويذهب بالنهار، ويجيء بالنهار ويذهب بالليل".

قال الطبري: يقول: يغشي هذا على هذا، وهذا على هذا، كما قال: {يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْل} ".

قال ابن كثير:"أي: سخرهما يجريان متعاقبين لا يقران، كل منهما يطلب الآخر طلبا حثيثا، كقوله: {يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا} [الأعراف: ٥٤] ".

قال مقاتل:"يعني: انتقاص كل واحد منهما من الآخر".

قال ابن عباس:"يقول: يحمل الليل على النهار".

قال مجاهد:"يدهور الليل على النهار، ويدهور النهار على الليل".

قال قتادة:"يَغْشَى هذا هذا، ويغشى هذا هذا".

قال السدي:"يجيء بالنهار ويذهب بالليل، ويجيء بالليل، ويذهب بالنهار".

=

=

قال ابن زيد:"حين يذهب بالليل ويكور النهار عليه، ويذهب بالنهار ويكور الليل عليه".

قوله تعالى: {وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ} [الزمّر: ٥]، أي:"وذلّل الشمس والقمر بانتظام لمنافع العباد".

قال الطبري: يقول:"وسخر الشمس والقمر لعباده، ليعلموا بذلك عدد السنين والحساب، ويعرفوا الليل من النهار لمصلحة معاشهم".

قوله تعالى: {كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى} [الزمّر: ٥]، أي:"كل منهما يجري في مداره إلى حين قيام الساعة".

قال الطبري: "يقول: {كُلّ} ذلك يعني الشمس والقمر (يَجْرِي لأجَلٍ مُسَمًّى) يعني إلى قيام الساعة، وذلك إلى أن تكوّر الشمس، وتنكدر النجوم. وقيل: معنى ذلك: أن لكل واحد منهما منازل، لا تعدوه ولا تقصر دونه".

قال ابن كثير:"أي: إلى مدة معلومة عند الله ثم تنقضي يوم القيامة".

قال قتادة:"أجل معلوم، وحد لا يقصر دونه ولا يتعداه".

قال السدي: "وهو مطالع الشمس والقمر إلى غاية لا يجاوزانه في شتاء ولا صيف".

قوله تعالى: {أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ} [الزمّر: ٥]، أي:"ألا إن الله الذي فعل هذه الأفعال، وأنعم على خلقه بهذه النعم هو العزيز على خلقه، الغفار لذنوب عباده التائبين".

قال الطبري: " يقول تعالى ذكره: ألا إن الله الذي فعل هذه الأفعال وأنعم على خلقه هذه النعم هو العزيز في انتقامه ممن عاداه، الغفار لذنوب عباده التائبين إليه منها بعفوه لهم عنها".

=

=

قال ابن كثير:"أي: مع عزته وعظمته وكبريائه هو غفار لمن عصاه ثم تاب وأناب إليه".

قال محمد بن إسحاق: "العزيز في نصرته ممن كفر إذا شاء".

قال سلمة بن وهرام صاحب طاووس:"أن الله تبارك وتعالى إنما سمى نفسه «العفو»، ليعفو، و «الغفور»، ليغفر".

قال العثيمين: قوله تعالى: {خَلَقَ السَّمَاوَاتِ} السموات جمع: سَماء، والسَّماء تطلَق على معنيين:

المعنى الأول: العُلُوُّ وإن كان دون السَّموات.

والمعنى الثاني: السَّموات المعروفة، السقف، التي بناها الله عز وجل.

فمن الأول قوله تعالى: {أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً}: {مِنَ السَّمَاءَ} يعني من السَّحاب، والسماء ليست لاصقة في السماء السقف، ولكنه في العُلُوِّ، ومنه قوله تعالى: {فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ} [الحج: ١٥]؛ أي: إلى العلو.

وأما الثاني الذي هو البِناءُ، فهو كثير؛ قال الله تعالى: {ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ} [فصلت: ١١، ١٢].

ومنه هذه الآية: {خَلَقَ السَّمَاوَاتِ} وجمعها لأنَّها جمع سبْع سَماوات كما في القرآن الكريم، وكما في السُّنَّة النبويَّة، والأرض هي الأرض التى وضعها الله عز وجل للخَلْق يعيشون عليها كما قال تعالى: {وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ} [الرحمن: ١٠].

ولم يأتِ في القرآن ذكر عددها صريحًا؛ يعني ليس في القرآن أنَّ الأَرَضين سبع، لكن جاء ذِكْرها بهذا العدد لا على سبيل التَّصريح؛ كقوله تعالى: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ} [الطلاق: ١٢] مِثْلَهُنَّ في العدد، وليس مثلهنَّ

=

=

في الصِّفَة لتبَايُنِ ما بين السَّموات والأرضِ في الصِّفَة، فالمماثلة في الصِّفَة مستحيلَةٌ؛ السَّموات كبيرة ورفيعة ومحيطة بالأرض، ولا يمكن أن تكونَ السَّمواتُ مثلَها في الصِّفَة؛ إذن: تعيَّن أن تكون مثلها في العَدَد لأنَّه قال: {سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ} أي: عددًا لا صِفَةً.

أما السُّنَّة فصريحةٌ في أنَّ الأَرَضينَ سَبْعٌ؛ قال النَّبي ﷺ: "مَنِ اقْتَطَعَ شِبْرًا مِنَ الْأَرْضِ ظُلْمًا طُوِّقَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ".

والظاهر من النُّصوص: أنَّ هذه الأَرَضين متطابِقَة؛ يعني: بعضها تحت بعض كالسَّمواتِ؛ لأنَّ قوله عليه الصلاة والسلام: "طُوِّقَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ" لولا أنها متطابِقَة لم يُعذَّب بما تحت الأرض العليا، فهي متطابِقَة، ولكن ذكر العلماء - الذين يتكلمون على خَلْق الأَرَضينَ -: هل هذه الأَرَضُونَ مُتباينَة منفصلٌ بعضها عن بعض، أو هي كتلة واحدة؟

نقول في الجواب عليه: الله أعلم، لا ندري، لكنه يجب أن نؤمِنَ بأن هناك سَبْعَ أَرَضينَ كما جاء ذلك في النُّصوص.

وقوله رحمه الله: [{بِالْحَقِّ} مُتَعَلِّقٌ بـ {خَلَقَ}] يعني أن خلْقَه إياها بالحَقِّ؛ الحق أي: إنَّه خلقها حقًّا لا خالِقَ لها غيره. هذه واحدة.

والثاني: {بِالْحَقِّ} أي من أجل الحَقِّ لا باطلًا، كما قال تعالى: {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا} [ص: ٢٧]، وقال سبحانه وتعالى: {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (٣٨) مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ} [الدخان: ٣٨، ٣٩].

وصدق الله عز وجل، فإن في خلق السَّمواتِ والأَرْضِ من الحق ما هو ظاهِرٌ، فبهما يُعْرَف الله عز وجل وتظهر آياته: آياتُه الكَوْنِيَّة وآياتُه الشَّرْعيَّة، وبهما يعيش

=

=

الخَلْقُ، ولا يمكننا في هذا المجلس أن نَحْصُر ما في خلق السَّموات والأرض من الحَقِّ.

ثم قال تعالى: {يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ} قال المُفَسِّر رحمه الله: [{يُكَوِّرُ}: يُدْخِلُ]، ولا شك أنَّ الله يُولِج اللَّيلَ في النَّهار ويُولِج النَّهار في اللَّيل كما في الآيات الأخرى، ولكن هل معنى التَّكوير هنا: الإيلاج؛ أنه يُدْخِل النَّهارَ على اللَّيل فيطولُ، ويُدْخِل النَّهارَ على اللَّيل فيطولُ؟

الجواب: ظاهِرُ اللَّفْظِ يأبى ذلك؛ لأنَّ الله تعالى قال: {يُكَوِّرُ} التكويرُ هو التَّدوير، ومنه: كَوْرُ العِمامَةِ؛ أي: لَيُّها، ليَّاتُها تُسمَّى: أَكْوارًا، فيُكَوِّر يعني يُديرُ اللَّيل على النَّهار، وهذا يُشْبِهُ قوله تعالى: {يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا} [الأعراف: ٥٤] وإذا كان هذا ظاهِرَ اللَّفْظ فإنَّ الواجِبَ أن نُجْرِي اللَّفْظَ على ظاهره؛ لأنَّه - أي الظاهر - هو الذي يتبادَرُ إلى ذهن السَّامِع.

فإذا قال قائل: لماذا لا تجعلون الأمر - كما قال المُفَسِّر رحمه الله من أجل أن نُفَسِّر القرآنَ بالقُرآنِ، فنجعل يُكَوِّر يعني يولِج؟

قلنا: هذا لا يَصِحُّ لوجهين:

الوجه الأول: أنَّه خلافُ ظاهِرِ اللَّفْظ؛ فإنَّ ظاهِرَ اللَّفْظ يُكَوِّر: يُدوِّر ويَطْوِي.

الوجه الثاني: أنَّه يَفوتُ به المعنى المستفاد من كلمة: {يُكَوِّرُ}، أما المعنى المستفادُ من الانتقالِ فهذا يُعْرَف من الآية الثَّانية؛ فحينئذٍ نستفيدُ فائِدَة جديدة غير فائِدَةِ الإدخالِ.

أما كَوْنُ الله تعالى يُدْخِلُ اللَّيل في النَّهار، ويُدْخِل النَّهار في اللَّيل؛ فهذا شيء معروف، ودلَّت عليه آيات أخرى.

وقوله: {وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ} قال رحمه الله: [فيزيدُ].

=

=

وقوله: {وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ}: ذلَّلَهما؛ والتَّسخيرُ بمعنى التَّذليل، يعني ذلَّلَهما لمصالح العباد، بدليل قوله تعالى: {وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ} [النحل: ١٢]؛ إذن: التَّذليل هنا لمصلحة العباد.

و {الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ} معروفانِ لا يحتاجان إلى تَعْريفٍ، ولو أنَّنا أردنا أن نُعَرِّفَهما بما يُعَرِّفُه أهْلُ الفَلَك لزدناهما غُمُوضًا، لو قلنا: إنَّ الشَّمْس كتلةٌ ناريَّة مُلْتَهِبَة ... إلى آخر ما قالوا؛ لكان النَّاسُ يبحثونَ عن الشَّمْس! وأين الكُتْلة، والقَمَر أيضًا كُتْلَة صخريَّة جامِدَة بارِدَة مُظْلِمَة ... إلى آخر ما قالوا؛ فيذهب الذِّهْن أيضًا كلَّ مَذْهَب، لكن إذا قلنا: الشَّمْس آية النَّهار، والقَمَر آية اللَّيل؛ فالكُلُّ يَعْرِفُها؛ وهذا أَوْضَحُ من كلِّ شيء.

{وَسَخَّرَ} ذلَّلَهما في جريانِهما، وفي اختلاف هذا الجري، فكونُهما يدوران على الأرض ويَخْتَلِفان طولًا وقِصَرًا، هذا لا شك أنه لمصالِحِ العباد.

{كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى}: {كُلٌّ} من الشَّمْس والقمر.

{يَجْرِي} أي: يسيرُ [في فَلَكِه]؛ الفَلَكُ الشَّيْء المُستدير، وهما يدوران باستدارةٍ واضِحَة، لكنَّها تختلفُ باختلاف اللَّيل والنَّهار.

وقوله: {لِأَجَلٍ} بمعنى: إلى أجل؛ أي: لغايةٍ، {مُسَمًّى} معيَّنٍ من قِبَل الله عز وجل. وهذا الأجل المُسَمَّى قال المُفَسِّر رحمه الله: [يَوْم القيامَة]؛ ودليل ذلك قوله تعالى: {إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ} إلى أن قال: {عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ} [التكوير: ١٤] ويكون يوم القيامة، كما قال تعالى: {يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا} [آل عمران: ٣٠].

فهذان يجريانِ إلى يَوْمِ القيامة، فإذا كان يومُ القيامة ذهبت حاجَةُ النَّاس إليهما وذهبا.

وقوله تعالى: {أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ}: {أَلَا} أداة اسْتِفْتاح وتأتي للتَّنْبيه.

=

خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ (٦).

{خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْس وَاحِدَة} أَيْ آدَم {ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجهَا} حَوَّاء {وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الأنعام} الإبل والبقر والغنم والضأن وَالْمَعْز {ثَمَانِيَة أَزْوَاج} مِنْ كُلّ زَوْجَانِ ذَكَر وَأُنْثَى كَمَا بَيَّنَ فِي سُورَة الْأَنْعَام {يَخْلُقكُمْ فِي بُطُون أُمَّهَاتكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْد خَلْق} أَيْ نُطَفًا ثُمَّ عُلَقًا ثُمَّ مُضَغًا {فِي ظُلُمَات ثَلَاث} هِيَ ظُلْمَة الْبَطْن وَظُلْمَة الرَّحِم وَظُلْمَة الْمَشِيمَة {ذَلِكُمُ الله رَبّكُمْ لَهُ الْمُلْك لَا إِلَه إِلَّا هُوَ فَأَنَّى

=

وقوله: {هُوَ} يعود على الله عز وجل.

و {الْعَزِيزُ} قال المُفَسِّر رحمه الله: [الغالِبُ على أَمْرِه، المُنْتَقِم من أعدائِهِ] وهذا أحد معاني العِزَّة التي أثبتها الله لنَفْسِه، وسبق أن لها معنًى ثانيًا وثالثًا: عِزَّةُ القَدْر، وعِزَّةُ الامْتِناع، بالإضافة إلى عِزَّة القَهْر، فالله سبحانه وتعالى متَّصِفٌ بالعزَّة كاملًا؛ قال تعالى: {فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا} [النساء: ١٣٩] فجميع أنواع العِزَّة ثابتةٌ لله سبحانه وتعالى.

وقوله: {الْغَفَّارُ}: الغفَّار صيغَةُ مبالَغَةٍ من الغَفْر، أو نِسْبَة، والغَفْر أو الغُفْران سِتْر الذَّنْب والتَّجاوز عنه، ولا يكفي أنْ نقول: إنَّ المَغْفِرة أو الغُفْران هو التَّجاوز عن الذَّنْب؛ لأنَّ المعنى المُشْتَقَّ منه يأبى ذلك، فالمَغْفِرَة مُشْتَقَّة من المِغْفَر، والمِغْفَر شيء يُوضَعُ على الرأس يقيه من سهام الأعداء؛ ففي هذا المِغْفَر سترٌ ووقاية؛ ولهذا نقول في معنى {الْغَفَّارُ} هو غافِرُ الذَّنْب؛ أي: الذي يستر الذَّنْب ويتجاوَزُ عنه.

تُصْرَفُونَ} عَنْ عِبَادَته إِلَى عِبَادَة غَيْره[1].

---

(١)قوله تعالى: {خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا} [الزمّر: ٦].

قال الطبري:"{خَلَقَكُمْ} أيها الناس من آدم، ثم جعل من آدم زوجه حواء، وذلك أن الله خلقها من ضِلَع من أضلاعه".

قال ابن كثير:"أي: خلقكم مع اختلاف أجناسكم وأصنافكم وألسنتكم وألوانكم من نفس واحدة، وهو آدم عليه السلام {ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا}، وهي حواء، عليهما السلام، كقوله: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالا كَثِيرًا وَنِسَاءً} [النساء: ١] ".

عن قتادة، قوله: " {خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ}، يعني آدم، ثم خلق منها زوجها حواء، خلقها من ضِلَع من أضلاعه".

قوله تعالى: {وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ} [الزمّر: ٦]، أي:"وخلق لكم من الأنعام ثمانية أنواع ذكرًا وأنثى من الإبل والبقر والضأن والمعز".

قال الطبري: يقول:"وجعل لكم من الأنعام ثمانية أزواج من الإبل زوجين، ومن البقر زوجين، ومن الضأن اثنين، ومن المعْز اثنين، كما قال جل ثناؤه: {ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ} ".

قال ابن كثير:"أي: وخلق لكم من ظهور الأنعام ثمانية، أزواج وهي المذكورة في سورة الأنعام: {ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ} [الأنعام: ١٤٣]، {وَمِنَ الإبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ} [الأنعام: ١٤٤] ".

عن مجاهد، قوله: " {مِنَ الأنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ}، قال: من الإبل والبقر والضأن والمعز".

قال قتادة:"من الإبل اثنين، ومن البقر اثنين، ومن الضأن اثنين، ومن المعز اثنين، من كلّ واحد زوج".

=

=

قال الضحاك:"يعني من المعز اثنين، ومن الضأن اثنين، ومن البقر اثنين، ومن الإبل اثنين".

قوله تعالى: {يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ} [الزمّر: ٦]، أي:"يخلقكم في بطون أمهاتكم طورًا بعد طور من الخلق".

قال الطبري: يقول:"يبتدئ خلقكم أيها الناس في بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق، وذلك أنه يحدث فيها نطفة، ثم يجعلها علقة، ثم مضغة، ثم عظاما، ثم يكسو العظام لحما، ثم يُنْشئه خلقا آخر، تبارك الله وتعالى، فذلك خلقه إياه خلقا بعد خلق".

قال ابن كثير:"أي: قدركم في بطون أمهاتكم {خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ} أي: يكون أحدكم أولا نطفة، ثم يكون علقة، ثم يكون مضغة، ثم يخلق فيكون لحما وعظما وعصبا وعروقا، وينفخ فيه الروح فيصير خلقا آخر، {فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ} [المؤمنون: ١٤]".

وفي قوله تعالى: {يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ} [الزمّر: ٦]، أقوال:

أحدها: نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم عظامًا ثم لحمًا، قاله قتادة، وعكرمة، ومجاهد، والضحاك، والسدي.

عن عكرمة، قوله: {يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ}، قال: نطفة، ثم علقة، ثم مضغة".

وقال عكرمة:"يعني بخلق بعد الخلق، علقة، ثم مضغة، ثم عظاما".

قال الضحاك:"خلق نطفة، ثم علقة، ثم مضغة".

قال قتادة:"نطفة، ثم علقة، ثم مضغة، ثم عظاما، ثم لحما، ثم أنبت الشعر، أطوار الخلق".

=

=

قال السدي: يكونون نطفا، ثم يكونون علقا، ثم يكونون مضغا، ثم يكونون عظاما، ثم ينفخ فيهم الروح".

عن مجاهد، قوله: " {خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ}، قال: نطفة، ثم ما يتبعها حتى تم خلقه".

الثاني: معناه: يخلقكم في بطون أمهاتكم من بعد خلقه إياكم في ظهر آدم. قاله ابن زيد.

الثالث: خلقًا في ظهر الأب ثم خلقًا في بطن الأم ثم خلقًا بعد الوضع. أفاده الماوردي.

والراجح-والله اعلم- هو القول الأول، " لأن الله جلّ وعزّ أخبر أنه يخلقنا خلقا من بعد خلق في بطون أمهاتنا في ظلمات ثلاث، ولم يخبر أنه يخلقنا فى بطون أمهاتنا من بعد خلقنا في ظهر آدم، وذلك نحو قوله: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً}... الآية".

قوله تعالى: {فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ} [الزمّر: ٦]، أي:"في ظلمات البطن، والرحم، والمَشِيمَة".

قال الطبري:"يعني: في ظلمة البطْن، وظلمة الرّحِم، وظُلْمة المَشِيمَة". وروي عن السدي نحوه.

قال ابن كثير:"يعني: ظلمة الرحم، وظلمة المشيمة – التي هي كالغشاوة والوقاية على الولد – وظلمة البطن".

قال ابن عباس:"يعني: بالظلمات الثلاث: بطن أمه، والرحم، والمَشِيمة".

قال عكرمة:"الظلمات الثلاث: البطن، والرحم، والمَشِيمة". وروي عن مجاهد، وقتادة، نحو ذلك.

وقال ابن زيد:"المشيمة في الرحم، والرحم في البطن".

=

=

قال الضحاك:"الرحم، والمشيمة، والبطن، والمشيمة التي تكون على الولد إذا خرج، وهي من الدواب السَّلى".

قوله تعالى: {ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ} [الزمّر: ٦]، أي:"ذلكم الله الذي خلق هذه الأشياء ربكم".

قال الطبري: يقول:"هذا الذي فعل هذه الأفعال أيها الناس هو ربكم، لا من لا يجلب لنفسه نفعا، ولا يدفع عنها ضرّا، ولا يسوق إليكم خيرا، ولا يدفع عنكم سوءا من أوثانكم وآلهتكم".

قال ابن كثير:"أي: هذا الذي خلق السموات والأرض وما بينهما وخلقكم وخلق آباءكم، هو الرب".

قوله تعالى: {لَهُ الْمُلْكُ} [الزمّر: ٦]، أي:"المتفرد بالملك".

قال ابن كثير:"له الملك والتصرف في جميع ذلك".

قال الطبري: " يقول جلّ وعزّ: لربكم أيها الناس الذي صفته ما وصف لكم، وقُدرته ما بين لكم المُلك، ملك الدنيا والآخرة وسلطانهما لا لغيره، فأما ملوك الدنيا فإنما يملك أحدهما شيئا دون شيء، فإنما له خاص من الملك. وأما المُلك التام الذي هو المُلك بالإطلاق فلله الواحد القهار".

قوله تعالى: {لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ} [الزمّر: ٦]، أي:"المتوحد بالألوهية المستحق للعبادة وحده".

قال الطبري: يقول:"لا ينبغي أن يكون معبود سواه، ولا تصلح العبادة إلا له".

قال ابن كثير:"أي: الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده".

قوله تعالى: {فَأَنَّى تُصْرَفُونَ} [الزمّر: ٦]، أي:"فكيف تعدلون عن عبادته إلى عبادة غيره مِن خلقه؟ ".

=

=

قال الطبري: يقول:"فأنى تصرفون أيها الناس فتذهبون عن عبادة ربكم، الذي هذه الصفة صفته، إلى عبادة من لا ضر عنده لكم ولا نفع".

قال ابن كثير:"أي: فكيف تعبدون معه غيره؟ أين يُذْهَبُ بعقولكم؟! ".

قال السدي: قال للمشركين: أنى تصرف عقولكم عن هذا؟ ".

عن قتادة: {فَأَنَّى تُصْرَفُونَ}، قال:"كقوله: {تُؤْفَكُونَ} ".

قال العثيمين: قوله تعالى: {خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ} الخطاب هنا لبني آدم {خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ} يعني يا بني آدم. {مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ} وهي آدم عليه السلام.

{ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا} وصِفَةُ خَلْقِ آدم: أنَّ الله سبحانه وتعالى خَلَقَه من ترابٍ، التُّرابُ هذا صار طينًا بإذن الله وبقي حتى صار كالفَخَّار له صَلْصَلَة وصَوْت عند دقِّه، ثم بعد ذلك خَلَقَ اللهُ منه آدمَ، وبعد أن خَلَقَ جُثَّة آدم نفخ فيه الرُّوحَ فصار حيًّا سويًّا بشرًا، هذا هو أوَّل خِلْقَة الإنسان كما دلَّ على ذلك كتاب الله عز وجل، وأمَّا القُرُود الذين زعموا أنَّ أَصْلَ الآدَمِيِّ قِرْد، فنحن نُسَلِّم لهم ذلك بالنسبة لهم، أما بالنِّسْبة لنا فنحن ولله الحمد من بني آدَمَ بَشَرٌ خلق الله تعالى أبانا بِيَدِهِ وعَلَّمَه أسماءَ كُلِّ شيء، وأَسْجَدَ له ملائِكَتَه، وأمَّا هم فلهم ما أَحَبُّوا أن يَرُدُّوا أَنْفُسَهُم إليه! {ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا}: {ثُمَّ} للتَّرتيب بمهلة؛ لأنَّ خَلْق هذه الزَّوْج متأَخِّرٌ عن خلق آدم، فإن الله سبحانه وتعالى أبقاه مدةً حتى عرف أنه مُحتاجٌ إلى زوجة ليسكن إليها فخلق الله له زَوْجَة، وجعل هذه الزوجة من نَفْس آدم؛ لقول النَّبي ﷺ في النساء: "إِنَّهُنَّ خُلِقْنَ مِنْ ضِلَعٍ" يقتضي أن حواء خلقت من ضِلَع آدم، والله على كلِّ شيء قديرٌ؛ أن يخلق بشرًا من غير زوجة، بل ومن غير زوج، فإن حوَّاء خُلِقَت بلا أمٍّ ولا أبٍ.

=

=

وقوله: {ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا} لا ينافي ما ذكر الله تعالى في آيةٍ أخرى: {وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا} لأنَّ الواو لمُطْلَق الجمع لا تستلزم التَّرتيب، فإذا جاءت آية أخرى فيها التَّصْريحُ بالتَّرتيبِ حُمِلَت الآيةُ التي فيها الواو الدَّالَّة على مُطلَق الجمع على الترتيب، على أنَّ تقديمَ الشَّيْء على الشَّيْء في الذِّكْر وإن كان بالواو يقتضي أن يُقَدَّم، هذا هو الأصل، ولهذا لما دنا النَّبِي ﷺ من الصَّفا حين أتى إلى السَّعْي قرأ: {إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ} [البقرة: ١٥٨] "أَبْدَأُ بِمَا بَدَأَ اللهُ بِهِ" فبدأ بالصفا.

وهذا يدل على أن ما قُدِّم في الذكر فهو متقدِّمٌ على ما بعده رُتْبَة، أو زمنًا، أو مكانًا حسب ما يقتضي الحال، لكن ليس هذا بلازِمٍ، قد يتقدم ما بعد الواو على ما قبلها ولا يُعَدُّ ذلك تناقضًا، لكن في قوله: {ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا} لا يمكن أن نقول إنَّ الجَعْل هنا قبل خلق آدَمَ.

وقوله: {ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا} هذا ابتداءُ خَلْقِ الإنسان؛ و (مِن) هذه للابتداء، وهل (منها) عَينًا أو (منها) وَصْفًا؟

الجواب: الظاهِرُ الأَمْران؛ لأنَّها من آدم خُلِقَت، وهي مثل آدم أيضًا فهي من نوْعِهِ، وهي أيضًا منه عَينًا، فهي جزءٌ منه وبَضْعَةٌ منه، ولهذا خَطَبَ النَّبِي ﷺ النَّاس وأخبر أن فاطمة بَضْعَةٌ منه.

يقول: {ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا} والزوج يُطْلَق على معانٍ منها: الصِّنف؛ كقوله تبارك وتعالى: {وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ} [ص: ٥٨] أي: أصناف، وكقوله تعالى: {احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ} [الصافات: ٢٢] أي: أصنافهم؛ ويُطْلَق الزوج على ما سوى الفَرْدِ؛ أي الشَّفْع، فيقال: فَرْد وزَوْج.

وكلمة زوج هنا تشمل المعنيينِ؛ فهي صنفٌ من البَشَر، وهي أيضًا زوج تشفع آدَمَ بعد أن كان فريدًا.

=

=

قال رحمه الله: [{وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ} الإبل والبقَر والغَنَم والضَّأن والماعز {ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ}].

قوله تعالى: {وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ}: الإنزال هنا بمعنى: الخَلْق؛ لأنَّها أُضيفَتْ إلى أعيان وهي الأَنعامُ، والأنعام جمع: نَعَمٍ؛ كأسبابٍ جَمْع: سَبَب.

وقوله: {ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ} أي: ثمانية أصنافٍ، وقد بيَّن الله هذه الأزواج في سورة الأنعام فقال: {ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ} [الأنعام: ١٤٣] {وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ} [الأنعام: ١٤٤]، فالجميع ثمانيةٌ؛ ذَكَرٌ وأنثى من كل صِنْف من الأصناف الأَرْبعَة، وإذا ضربْتَ اثنين في أربعة صارَتْ ثمانية؛ قال المُفَسِّر رحمه الله: [مِنْ كُلٍّ زَوْجَانِ، ذَكَرٌ وَأُنْثَى كَمَا بَيَّنَ فِي سُورَةِ الْأَنْعَام].

ثم قال تعالى: {يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ}.

لما ذكر الله ابتداءَ الخَلْق الأَوَّل وهو آدم ذكر ابتداءَ الخلق الثاني وهو النَّوْع الإنساني، النوعُ الإنسانيُّ كيف خُلِقَ؟ فقال: {يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ}: {فِي} للظَّرْفِيَّة، والبطون جمع بَطْن، والأصل: أنَّ هذه المادَّةَ (الباء والطاء والنون) خلافُ الظُّهورِ؛ فالبطون خَفِيَّة، والظُّهور ظاهِرَة.

ومن أسماء الله: (الظَّاهِر والباطِنُ) الظاهر: العالِم، والباطِنُ: الذي لا يَحُول دونه شيءٌ، فهنا البطون إذن جمع بَطْنٍ، وهو مُشْتَقٌّ من البطون، بَطَنَ الشَّيْءُ بُطُونًا، أي: خَفِيَ.

وقوله: {أُمَّهَاتِكُمْ} جمع: أمٍّ أو أمَّهَة، ويقال: أُمَّاتٌ لغير العاقل، ويقال في العاقل: أمَّهَاتٌ.

وقوله: {خَلْقًا} مصدر يَخْلُق {مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ} أي: خَلْقًا متطوِّرًا ينتَقِلُ من خَلْقٍ إلى آخر؛ قال المُفَسِّر رحمه الله: [أي: نُطَفًا، ثم عَلَقًا، ثم مُضَغًا]، وقد أشار الله تعالى إلى هذه الأصول في قوله: {يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا

=

=

خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ} [الحج: ٥].

من تراب باعتبارِ آدَمَ، من نطفة باعتبارِ النَّوْعِ الإنسانيِّ، ثم من عَلَقَةٍ، ثم من مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وغير مُخَلَّقة؛ والمضغة: هي قِطْعَةُ اللَّحْم بِقَدْرِ ما يُمْضَغ.

وقد بيَّن النَّبي ﷺ مُدَّةَ هذا التَّطوُّر في حديث ابنِ مسعود رضي الله عنه، قال: "إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ أَرْبَعِينَ يَوْمًا نُطْفَةً، ثُمَّ يَكُونَ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يُرْسَلُ إِلَيْهِ المَلَكُ، فَيَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ، وَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ: بِكَتْبِ رِزْقِهِ، وَأَجَلِهِ، وَعَمَلِهِ، وَشَقِيٌّ أَمْ سَعِيدٌ".

فقوله: "أربعين يومًا نُطْفَةً" يعني: ماءً وهو المَنِيُّ، لكنه في هذه المدة يتطوَّر تطورًا خفيًّا إلى أن يصِلَ إلى الغاية في تمام أربعينَ يومًا حتى يكون عَلَقَةً؛ أي: دمًا أحمر، والظَّاهِرُ: أنَّه ليس المراد أنه يبقى نُطْفَةً إلى تمام الأربعين ثم ينقلب في لحظة إلى دَمٍ، بل هو يتطوَّر وينقَلِبُ شيئًا فشيئًا إلى أن يَتِمَّ كونُه دمًا في أربعين يومًا، ثم يكون، ثم يبقى هكذا عَلَقَةً، لكنه أيضًا يتجمَّدُ شيئًا فشيئًا وينمو حتى ثمانينَ يومًا، ثم بعد ذلك يكون مُضْغَةً؛ قِطْعَةَ لَحْمٍ.

وقوله تعالى: {مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ} يحتمل - والله أعلم - أن مُخَلَّقَة عند انتهاء الطَّوْر الثالث، غير مُخَلَّقَة في ابتداء الطور؛ يعني: فتكون في هذا الطَّوْر في الابتداء غير مُخَلَّقَةٍ، وفي النهاية مُخَلَّقَة، ويحتمل أن تَخْتَلِفَ الأجِنَّة في ذلك فيكون بَعْضُها مخُلَّقًا من حين أن تَنْتَقِل إلى العَلَقَة إلى المُضْغَة، وبعضها يتأخَّر، فالله أعلم، ويُرْجَع في هذا إلى العلماء في هذه المسألة.

ثم قال عز وجل: {خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ} ظُلُمات لا يصل إليها الضوء، {ثَلَاثٍ} فَسَّرَها المُفَسِّر رحمه الله بقوله: [هِيَ ظُلْمَةُ الْبَطْنِ، وَظُلْمَةُ الرَّحِمِ، وَظُلْمَةُ الْمَشِيمَةِ]؛ هذه ثلاثُ ظُلُمات جعلها الله عز وجل وقايةً لهذا

=

=

الجنين؛ لأنَّ أشِعَّة الضَّوْء لو وصلت إليه لأَفْسَدَتْه، ولكن الله عز وجل جعله في هذه الظلمات الثَّلاث، ثم إنَّه سبحانه وتعالى جعل ظَهْرَه إلى بَطْنِ أمِّه، ووَجْهَه إلى ظَهْر الأم، وهذا من أجل ألَّا يتضرر وَجْهُه بالصَّدَمات التي تكون على بطْنِ الأُمِّ ليكون الظَّهْر وقايةً للوَجْه، وخلف الجنين الذي هو الذي يلي البطن قوِيٌّ؛ لأنَّ فيه الظَّهْر والأَضْلاع، فهو قويٌّ؛ يعني: مُتَحَمِّل للصَّدَمات.

فإذا أراد الله عز وجل إخراجَه انقلب هذا الجَنينُ؛ تَحرَّك واضْطَرَب بإذن الله عَزَّ وَجَلَّ ثم انْقَلَبَ حتى يكون رأسُه هو الأسفل، ويخرج الرأس أولًا من أجل أن يكون خُرُوجه سهْلًا، إذ لو خرج من عند قَدَمَيْه لكان في ذلك ضَرَرٌ وخَطَرٌ، وأيضًا قد تُعَلَّق مثلًا إحدى اليدين في أَحَدِ الجوانِبِ فيحصل في هذا ضَرَر، وربما يَحْصُل تلف على الجنين، ولله سبحانه وتعالى في خَلْقِه شؤون.

المهم: أنَّ الله سبحانه وتعالى اعتَنَى بنا عنايَةً تامَّةً، ونحن في بطون أمَّهاتنا وعند خروجِنا منها؛ ولهذا قال: {فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ} ونِعْمَ الرَّبُّ عز وجل!

{ذَلِكُمُ} المشار إليه: رَبُّ، والمخاطب: {ذَلِكُمُ} البَشَر؛ {ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ} وإنما أتى باسم الإشارة المفيد للبُعْد {ذَلِكُمُ} ولم يقل: (هذا) إشارةً إلى عُلُوِّ مَرْتَبَة الله، إلى عُلُوِّ منزلته عز وجل وأنَّ له العُلُوَّ؛ عُلُوَّ الذَّاتِ وعُلُوَّ القَدْرِ، وعُلُوَّ القَهْرِ.

وقوله تعالى: {ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ} رَبُّ إما أن تكون صِفَةً أو بدلًا، وفيه إشارة؛ يعني ذكر الرُّبوبِيَّة بعد الأُلوهِيَّة إلى التَّرْبِيَة الخاصَّةِ في حال الحَمْل والعناية التامَّة؛ لأنَّ الحمل في بطن أمه لا يمكن لأحَدٍ أن يَصِلَ إليه لا بِجَلْب مَنْفَعَة ولا بدفع مَضرَّة، ولكن الله سبحانه وتعالى هو الذي يتولَّى العناية به.

وقوله: {ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ} الجملة هذه جملة خَبَرِيَّة قُدِّم فيها الخبر على المبتدأ لإفادَةِ الحَصْر، {لَهُ} أي: وَحْدَه لا يشارِكُه أحد.

=

=

{الْمُلْكُ} يعني المُلْك المُطْلَق، مُلْك الأعيان ومُلْك الأوصاف؛ فهو مالِكُ الأعيان كلها، ومالِكُ أَوْصافِها وتَصْريفها وتَدْبيرها.

{لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ} هذا توحيدُ الأُلوهِيَّة {لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ} والجملة هذه مكونة من نفي وإثباتٍ، نَفْيٌ من أبلغ أنواع النَّفْي؛ لأنَّه مُصدَّرٌ بـ (لا) النافية للجنس، ولا النافِيَة للجنس يقول علماء النحو والبلاغة: إنَّها نَصٌّ في العُمُوم؛ يعني لَيْسَتْ ظاهرةً في العموم، بل هي أبلغ من الظَّاهِرَة: نصٌّ في العموم.

ولهذا يقال فيها: نافيةٌ للجِنْس لا للوَحْدَةِ، بل للجنس كلِّه، إذن لا يوجد إله إلا اللهُ، ولكن يجب أن نعلم أنَّ المنفِيَّ هنا (الإلهُ الحَقُّ) يعني لا إله حَقٌّ إلا اللهُ، أما الآلِهَة الباطِلَةُ فإنها موجودة؛ كما قال الله تعالى: {فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ شَيْءٍ} [هود: ١٠١] فسماها: آلهة؛ وقال تعالى: {فَلَا تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ} [الشعراء: ٢١٣] إلهًا آخر، فسمَّاه: {إِلَهًا} لكنه إله باطِلٌ، كما قال الله تعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ} [الحج: ٦٢].

فإذا سألنا سائل: هل مع الله إلهٌ؟

فالجواب: يكون بالتَّفْصيل، وهو:

إن أردْتَ إلَهًا حقًّا فلا، وإن أردت إلهًا باطِلًا يُسمَّى: إلَهًا وليس بإله، فهذا موجودٌ.

وفي قوله: {لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ} إذا قال قائل: أين خبَرُ (لا) هل هو: (هو) أم ماذا؟

فنقول: لا يمكن أن يكون خبر (لا): (هو)؛ لأنَّ (لا) النافية للجنس لا تعمل إلا في النَّكِرَات؛ قال ابن مالك رحمه الله:

عَمَلَ إِنَّ اجْعَلْ لِلَا فِي نَكِرَهْ ...

فلا تعمل إلا في النَّكِرات، وهنا (هو) مَعْرِفَة، فنقول: الخبر محذوف، تقديره: لا إله حقٌّ إلا اللهُ، هكذا يجب أن يقال، وأخْطَأَ من قال: لا إلَهَ موجودٌ إلا اللهُ؛ لأنَّ

=

إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٧).

{إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ الله غَنِيّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْر} وَإِنْ أَرَادَهُ مِنْ بَعْضهمْ {وَإِنْ تَشْكُرُوا} الله فَتُؤْمِنُوا {يَرْضَهُ} بِسُكُونِ الْهَاء وبضمها مَعَ إِشْبَاع وَدُونه أَيْ الشُّكْر {لَكُمْ وَلَا تَزِر} نَفْس {وَازِرَة وِزْر} نَفْس {أُخْرَى} أَيْ لَا تَحْمِلهُ {ثُمَّ إِلَى رَبّكُمْ مَرْجِعكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيم بِذَاتِ

=

هذا يتضمَّن أَمْرًا إِمْرًا؛ إذ إنَّك إذا قلت: لا إله موجودٌ إلا الله، جَعَلْتَ الآلِهَة الموجودَةَ جَعَلْتَها الله، وهذا خطأ عظيم! بل الواجب أن نقول: لا إله حقٌّ إلا الله، نَعَم، إلا الله؛ أما في الآية فـ (إلا هو).

إذن: فما محل: (هو) من الإعراب؟

الجوابُ: بدلٌ من الخَبَرِ المحذوف. يقول: {فَأَنَّى تُصْرَفُونَ}: (أنَّى) اسْمُ استفهام، والمراد به: التَّوْبيخُ والتَّعَجُّب يعني: كيف تُصْرَفُون عن عبادة الله عز وجل وأنتم تعلمون أنه لا إله إلا هو، هذا خطأ، سَفَهٌ في العقل، وضلالٌ في الدِّين.

وقوله: {فَأَنَّى تُصْرَفُونَ} قال المفَسِّر رحمه الله: [عن عبادته إلى عبادة غَيْرِه].

إذا كان هذا الاستفهام للتَّوبيخ والتَّعجُّب فإنه يقتضي أن يكون هذا الانصراف حرامًا؛ لأنَّه لا يوبَّخُ إلا على شيء مُحَرَّم - والله أعلم - لأنَّ أهواءهم هي التي غَلَبَتْهُم، وكلمة {تُصْرَفُونَ} تدل على الانْصِراف؛ لأنَّهُم صُرِفوا، لكنَّهم صَرَفَتْهم أهواؤُهم والشياطينُ.

الصُّدُور} بِمَا فِي الْقُلُوب[1].

---

(١)قوله تعالى: {إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ} [الزمّر: ٧]، أي:"إن تكفروا -أيها الناس- بربكم ولم تؤمنوا به، ولم تتبعوا رسله، فإنه غنيٌّ عنكم، ليس بحاجة إليكم، وأنتم الفقراء إليه".

قال ابن كثير:"يقول تعالى مخبرا عن نفسه تعالى: أنه الغني عما سواه من المخلوقات، كما قال موسى: {إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ} [إبراهيم: ٨] ".

وفي الصحيح:""يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم، كانوا على أفجر قلب رجل منكم، ما نقص ذلك من ملكي شيئا".

قوله تعالى: {وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ} [الزمّر: ٧]، أي:"ولا يرضى لعباده الكفر، ولا يأمرهم به".

قال أبو السعود:"أي: عدم رضاه بكفر عباده لأجل منفعتهم ودفع مضرتهم رحمة عليهم لا لتضرره تعالى به".

قال ابن كثير:"أي: لا يحبه ولا يأمر به".

قال الرازي:"يعني: أنه وإن كان لا ينفعه إيمان ولا يضره كفران إلا أنه لا يرضى بالكفر".

واختلف أهل التفسير في قوله تعالى: {إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ} [الزمّر: ٧]، على قولين:

أحدهما: أن ذلك لخاص من الناس، ومعناه: إن تكفروا أيها المشركون بالله، فإن الله غني عنكم، ولا يرضى لعباده المؤمنين الذين أخلصهم لعبادته وطاعته الكفر. وهذا قول ابن عباس، والسدي.

=

=

قال ابن عباس:"يعني الكفار الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم، فيقولوا: لا إله إلا الله، ثم قال: {وَلا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ} وهم عباده المخلصون الذين قال فيهم: {إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ}، فألزمهم شهادة أن لا إله إلا الله وحببها إليهم".

قال السدي:"لا يرضى لعباده المؤمنين أن يكفروا".

الثاني: أنه عام لجميع الناس، ومعناه: أيها الناس إن تكفروا، فإن الله غني عنكم، ولا يرضى لكم أن تكفروا به. حكاه الطبري.

قال الطبري:"والصواب من القول في ذلك ما قال الله جلّ وعزّ: إن تكفروا بالله أيها الكفار به، فإن الله غني عن إيمانكم وعبادتكم إياه، ولا يرضى لعباده الكفر، بمعنى: ولا يرضى لعباده أن يكفروا به، كما يقال: لست أحب الظلم، وإن أحببت أن يظلم فلان فلانا فيعاقب".

قوله تعالى: {وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ} [الزمّر: ٧]، أي:"وإن تشكروا ربكم يرضى هذا الشكر منكم، لأجلكم ومنفعتكم لا لانتفاعه بطاعتكم ".

قال ابن كثير:"أي: يحبه منكم ويزدكم من فضله".

قال الطبري:"يقول: وإن تومنوا بربكم وتطيعوه يرض شكركم له، وذلك هو إيمانهم به وطاعتهم إياه، فكنى عن الشكر ولم يُذْكر، وإنما ذكر الفعل الدالّ عليه، وذلك نظير قوله: {الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا}، بمعنى: فزادهم قول الناس لهم ذلك إيمانا".

قال أبو السعود:"أي: يرض الشكر لأجلكم ومنفعتكم لأنه سبب لفوزكم بسعادة الدارين لا لانتفاعه تعالى به وإنما قيل لعباده لا لكم لتعميم الحكم وتعليله بكونهم عباده تعالى".

عن السديّ:"{وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ}، قال: إن تطيعوا يرضه لكم".

=

قوله تعالى: {وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى} [الزمّر: ٧]، أي:"ولا تحمل نفس إثم نفس أخرى".

قال ابن كثير:"أي: لا تحمل نفس عن نفس شيئا، بل كل مطالب بأمر نفسه".

قال الطبري:"يقول: لا تأثم آثمة إثم آثمة أخرى غيرها، ولا تؤاخذ إلا بإثم نفسها، يعلم عز وجل عباده أن على كل نفس ما جنت، وأنها لا تؤاخذ بذنب غيرها".

قال السدي:"لا يؤخذ أحد بذنب أحد".

قال أبو السعود:"بيان لعدم سراية كفر الكافر إلى غيره أصلا، أي: لا تحمل نفس حاملة للوزر حمل نفس أخرى".

قوله تعالى: {ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ} [الزمّر: ٧]، أي:"ثم إلى ربكم مصيركم".

قال الطبري: يقول: " ثم بعد اجتراحكم في الدنيا ما اجترحتم من صالح وسيئ، وإيمان وكفر أيها الناس، إلى ربكم مصيركم من بعد وفاتكم".

قال أبو السعود: أي:"بالبعث بعد الموت".

قوله تعالى: {فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [الزمّر: ٧]، أي:"فيخبركم بعملكم، ويحاسبكم عليه".

قال أبو السعود:"أي: [بما] كنتم تعملونه في الدنيا من أعمال الكفر والإيمان أي يجازيكم بذلك ثوابا وعقابا".

قال الطبري: "يقول: فيخبركم بما كنتم في الدنيا تعملونه من خير وشر، فيجازيكم على كل ذلك جزاءكم، المحسن منكم بإحسانه، والمسيء بما يستحقه، يقول عز وجل لعباده: فاتقوا أن تلقوا ربكم وقد عملتم في الدنيا بما لا يرضاه منكم فتهلكوا، فإنه لا يخفى عليه عمل عامل منكم".

قوله تعالى: {إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} [الزمّر: ٧]، أي:"إنه عليم بأسرار النفوس وما تخفي الصدور".

=

قال أبو السعود: "أي: بمضمرات القلوب فكيف بالأعمال الظاهرة، وهو تعليل للتنبئة".

قال ابن كثير:"أي: فلا تخفى عليه خافية ".

قال الطبري: يقول:"إن الله لا يخفى عليه ما أضمرته صدوركم أيها الناس مما لا تدركه أعينكم، فكيف بما أدركته العيون ورأته الأبصار. وإنما يعني جلّ وعزّ بذلك الخبر عن أنه لا يخفى عليه شيء، وأنه محص على عباده أعمالهم، ليجازيهم بها كي يتقوه في سرّ أمورهم وعلانيتها".

قال العثيمين: قوله تعالى: {إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ} أي: إنْ تكفروا بالله وبما يَجِبُ الإيمان به، فإنَّكُم لن تضروا الله؛ لأنَّ الله غَنيٌّ عنكم، ولم يَأمر الله سبحانه وتعالى العبادَ بعبادَتِه والإخلاص له لحاجَتِه إليهم، ولكن لمَنْفَعَتِهم هم؛ لأنَّهُم يُثابون على هذا أعظَمَ الثَّواب، ويَنْجُون به من العِقابِ، أما الله عز وجل فإنه لا يَضُرُّه إذا كَفَرَ كُلُّ الخَلْق، {إِنْ تَكْفُرُوا} ولو كل الخَلْق، {فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ}.

وقد جاء في الحديث القُدُسِيِّ: "يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُم ما نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا"، لو كان النَّاس كُلُّهُم، بل البَشَر وغيرُ البشر لو كانوا على أَفْجَرِ قلبِ رَجُل لم يَنْقُص ذلك مِن مُلْك الله شيئًا، ولن يَضُرَّ اللهَ شيئًا.

ولهذا قال: {فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ}، ولا يرضى لهم أن يَكْفُروا بالله، وتَأَمَّل قوله: {وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ}؛ يعني أنَّ الكُفْر أَمْرٌ لا يَليقُ بالعباد، فلا يَرضى لهم أن يَقوموا به؛ وذلك لأنَّ الله خَلَقهم، فكيف يَرضى للإنسان العاقِلِ أن يَصْرِف العبادة لغير الخالِق؟! ولهذا قال: {وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ} ولم يقل: مِن عباده، أو عن عباده؛ لأنَّ اللام أَبْلغ في كَوْن هذا الشَّيْء لا يليقُ بهم.

=

وقوله: {لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ} العبودية تنقسم إلى قِسْمَيْنِ: عامَّة وخاصَّة، فمِن الأول - أي مِن العامِّ - قولُه تعالى: {إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا} [مريم: ٩٣] {إِنْ كُلُّ} [مريم: ٩٣] (إن) هنا بمعنى (ما)، وعلامةُ (إن) التي بمعنى (ما): أنْ يأتي بعدها (إلَّا)، قال تعالى: {إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ} [فاطر: ٢٣]؛ يعني: ما أنت إلا نذيرٌ؛ فقوله: {إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا} [مريم: ٩٣] هذه مِن العبودية العامَّة، حتى الشياطينُ والكُفَّار كُلُّهم عِبادُ الله بالمعنى العام، أما القِسْم الخاصُّ بالعبادة عبادَةِ المؤمنين: وهي العبادَةُ الشَّرْعيَّة؛ أي التعبُّد لله تعالى شَرْعًا، فهذه خاصَّة بمَن أطاعه، ومِن ذلك قوله تعالى: {وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا} [الفرقان: ٦٣]، وقوله: في الرُّسُل إنهم عباد الله: {وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ} [ص: ٤٥] هذه عبودية خاصَّةٌ، فقوله: {وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ} هنا من العامة؛ يعني لا يَرْضى الكُفْر لأي واحِدٍ من عباد الله.

وقوله: {وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ} قال رحمه الله: [وإن أراده من بَعْضِهِم] هذا كلام جيِّدٌ؛ يعني هو لا يرضاه، لكن يريده مِن بَعْضِهِم، يريده بالإرادة الكَوْنِيَّةِ لا الإرادة الشَّرْعيَّة، وهذا ردٌّ على قولٍ مُبْتَدَعٍ، يقولون: إنَّ الله لا يُريد إلَّا ما يَرضَى، وأمَّا ما لا يرضاه فلا يُريده؛ وعلى هذا القول الباطِلِ تكون المعاصي واقعةً بغيرِ إرادة الله، ولا شَكَّ أن هذا قولٌ يُبْطِله نصوصٌ كثيرةٌ.

مثل قوله تعالى: {فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ} [الأنعام: ١٢٥]، فالله عز وجل مُرِيدٌ لهذا وهذا، لكن بالإرادة الكَوْنِيَّة؛ لأنَّ الكلَّ ملكه سبحانه وتعالى؛ ولهذا قال: [وإن أراده مِن بَعْضِهم] يعني فإرادته مِن بعضهم لا تقتضي أن يكون راضيًا به؛ إذ قد يُريد ما لا يرضاه.

=

فإن قال قائل: كيف يريد ما لا يرضاه؟ وهل أحدٌ يُكْرِهه؟

قلنا: لا يُكرِهُه أحَدٌ، لكن يُريد ما لا يرضى لحِكْمَة بالغة؛ فلو كان الله تعالى لا يريد إلا ما يرضاه، لأصبح النَّاس كلُّهم مؤمنين، ولم يكن هناك مَيْزَة للمُؤْمِن عن الكافِر، ولم يُقَم عَلَم الجهادِ، ولا الأَمْرُ بالمعروفِ والنَّهْيُ عن المُنْكَر، ولا مُلِئَتِ النَّار، كما وعد الله عز وجل، إلى غير ذلك مِن المصالِح العظيمة التي تَنْتُج عن وجود الكفر في عباد الله.

قال: [{وَإِنْ تَشْكُرُوا} الله فَتُؤْمِنُوا] {يَرْضَهُ لَكُمْ}، إِنْ تَشْكُرُوا، مقابل إِنْ تَكْفُرُوا؛ لأنَّ الإنسانَ في نِعَمِ الله بين كافرٍ وشاكرٍ، وهو لا يرضى لعباده الكفر، وتأمل كيف قال في الكُفْر: إنَّ الله غَنِيٌّ ولا يرضى، وهنا قال: {وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ} فبدأ في جواب الشَّرْط في {إِنْ تَكْفُرُوا} ببيان غناه عن الخَلق عز وجل، أما الشُّكر فإنه هو الذي يُثيبُ عليه؛ ولهذا قال: {وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ} فإذا رَضِيَه فسوف يثيبه، قال الله تبارك وتعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ (٧) جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ} [البينة: ٧، ٨] ولهذا أثابهم الجنَّاتِ، أسأل الله أن يَجْعَلَنِي وإيَّاكُم منهم.

قال: {يَرْضَهُ لَكُمْ} في هذا الفعل إشكال من النَّاحِيَة النحوية، فإنه جوابُ الشَّرْط، فـ (إن تشكروا) هذا فِعْل الشَّرْط، (يَرْضَه) جوابُ الشَّرْط، ومع ذلك فهو مَفتوحٌ، لأنَّه مَجْزومٌ بحذف الأَلِف، وأصلها (يَرْضَى)، ولكن حُذفت الأَلِفُ للجزم، قال: [(يَرْضَهْ) بِسُكُونِ الْهَاء] تَسْكينها خفيفٌ جدًّا؛ يعني تقرأه بخِفَّة؛ ويقول: [وضَمُّها {يَرْضَهُ} في حال الضم مَعَ إِشْبَاعٍ وَدُونه] إشباع: {يَرْضَهُ لَكُمْ} تُشْبِعُها حتى يخرج منها واو، ودونه تحذف الواوَ، إذن نقرَؤُها: (وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهْ لَكُمْ)

=

=

بسكون الهاء {وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ} بإشباع وبدونه؛ وكل هذا جائزٌ، وهي قراءة سَبْعِيَّة متواتِرَة.

وكما تقدَّم ونُعيده: أنَّه ينبغي للإنسان أنْ يقرأَ القرآنَ بِجَميعِ القِراءات؛ لأنَّ الكُلَّ حقٌّ، فلا ينبغي أن يَهْجُر حقًّا من الحقوق، ولكن بشرط أن يكون مُتيقِّنًا القراءةَ، فلا يكفي غَلَبَة الظَّنِّ، لا بُدَّ أن يتيقَّنَ، وإلا قرأ بالمتيقَّنِ عنده؛ وشرطٌ آخَرُ: ألَّا يكون عند العامَّة؛ لأنَّ العامَّة إذا قَرَأْتَ عندهم قراءةً تُخالف مُصحَفَهم، صار في ذلك تشويشٌ عليهم بالنِّسْبة للقرآن، وسوءُ ظنٍّ بالنسبة إليك، ورحم الله امرًا كفَّ الغِيبَةَ عن نَفْسِه.

أما في مقام التَّعليم، أو في القراءة بينك وبين نفسك، فإنه ينبغي إذا كنت عالِمًا بالقراءة أن تقرأ بها أحيانًا؛ بهذا أحيانًا وبهذا أحيانًا، فمِثْل: {الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ} [الفاتحة: ٣، ٤] فيها قراءة: (مَلِك) وقراءة: (مَالِك) فاقرأ بها، مرةً بهذه، ومرةً بهذه.

مسألة: إذا قرأ الإنسان في الصَّلاة في الركعة الأولى: {مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ}، وفي الركعة الثانية قرأ: (مَلِك يوم الدين) هل هذا صحيح؟

الجواب: لا بأس، ولا مانع، ولا حَرَج.

يقول: {وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ}: {يَرْضَهُ} قال المُفَسِّر رحمه الله: [أَيِ الشُّكْرَ].

فما هو الشُّكْر؟ الشُّكْر حدَّه بعْضُهم بحدٍّ جامعٍ مانعٍ، فقال: الشُّكْر هو القيامُ بطاعة المُنْعِم اعترافًا له بالجَميل، ويكون بالقَلْب واللِّسان والجوارِح.

وعلى هذا قول الشاعر:

أَفَادَتْكُمُ النَّعْمَاءُ منِّي ثَلَاثَةً ... يدِي وَلِسَانِي وَالضَّمِيرَ المُحَجَّبَا

إذن: الشُّكْر القيامُ بطاعة المُنعِم اعترافًا له بالجميل، ومَحَلُّه في القلب واللسان والجوارح:

=

=

الأول: بالقَلْب؛ أن يُؤْمِن الإنسان بِقَلْبه بأنَّ هذه النِّعَم مِن الله عز وجل تَفضُّلًا منه، ولا يقول: هذا لي، أُوتِيتُه على عِلْمٍ عندي، بل يقول: هذا مِن فَضْل ربي.

الثاني: باللِّسانِ؛ أن يتعبَّد لله تعالى بكلِّ قولٍ شَرَعه، ومن ذلك أن يتحدَّث بنِعْمَة الله، فإنَّ هذا مِن الشُّكْر؛ لأنَّه قول مَشْروع، قال الله تعالى: {وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ} [الضحى: ١١] مثل أن يقول: كنت فقيرًا فأغناني الله، الحَمْد لله، أنا عندي وَلَد، عندي زوجة، عندي بيت، عندي سيارة، الحمد لله أنا أَطْلُب العلم، أنا حَصَّلتُ كثيرًا من العلم، وهكذا؛ فهذا من الشكر بشرط ألا يكونَ الحامِلُ على ذلك الفَخْرَ أو الرِّياءَ؛ لأنَّ بعضَ النَّاس يتحدث بالنِّعَم من باب الثَّناء على الله؛ أنَّ الله أعطاه ومَنَّ عليه وتَفضَّل عليه.

وأما الجوارح فظاهِرٌ؛ أن تُظهِرَ نِعْمَة الله عليك بالجوارح؛ فمثلًا إذا أعطاك الله قوةً وشجاعَةً تُظهِر ذلك بالقُوَّة في ذاتِ الله مِن جهادِ الكفَّار والمنافقين وغيرهم.

المهم: أنْ يَظْهَر عليك أَثَرُ النِّعْمَة في أفعالك، فتقوم بعبادة المُنْعِم عز وجل.

وقوله رحمه الله: [{وَإِنْ تَشْكُرُوا} اللهَ فَتُؤْمِنُوا]؛ يعني: فتؤمنوا الإيمانَ المُستَلْزِم للعَمَل الصَّالِح، لا مجرد الإيمان بالله عز وجل؛ إذ الإيمانُ بالله لا يكون إيمانًا حقيقيًّا حتى يستلزم القَبولَ والإذعان؛ وكثيرٌ مِن العامَّة يظنون أنَّ الإيمان بالله: أنْ تؤمِنَ بوجود الله فقط، وهذا خطأٌ، بل الإيمان بالله هو: الإيمان المُسْتَلْزِمُ للقَبُول والإذعان؛ القَبُول لِما أمر به، وانشراح الصَّدْر به، والإذعان والانقياد التَّام، قال الله تعالى: {فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} [النساء: ٦٥].

فعلى رأي مَن يقول: إنَّ الإيمانَ هو: الإيمانُ بوجود الله، يظنُّون اليهودَ والنصارى مؤمنين، وقد يُصرِّحونَ بهذا، يقول: النَّصراني مُؤْمِنٌ يؤمن بالله، وإذا مات له شَخْص قال: رحمه الله، واليهود كذلك!

=

=

ونقول: إنَّ هذا ليس هو الإيمانَ بالله، الإيمانُ بالله لا يَصِحُّ - وليس يتمُّ فقط - إلَّا بالقَبول والإذعان؛ فالقَبولُ لِمَا جاء به الوَحْيُ، والإذعانُ والانقياد التَّام.

وقوله تعالى: {يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى} قال المُفَسِّر رحمه الله في التفسير: [{وَلَا تَزِرُ} نَفْسٌ {وَازِرَةٌ وِزْرَ} نَفْسٍ {أُخْرَى} أي: لا تحمله] {وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ}: (لا) نافية، و {وَازِرَةٌ} فاعِلٌ، وهو نكرة في سياق النفي، فيَعُمُّ كلَّ وازِرٍ.

والوازرة: التي تتحَمَّل الإثم وتقوم به؛ وعلى هذا فمَن دونَ البُلُوغ ليس نَفْسًا وازِرَة؛ لأنَّها لا تتحمَّل الإثْمَ، ومَن كان بالغًا، ولم يَفْعَل الإثم فليس بوازِرٍ.

إذن: فالوازِرَة؛ يعني القابِلَة للوِزْر، وهي: النَّفْس المُكَلَّفَة، وإذا أردنا أن نقول: وازِرَة بالفِعْل، نقول: هي الفاعِلَة للإثم، فـ {وَازِرَةٌ} هنا تشمل الوازِرَة حُكمًا، وقد تشمل الوازِرَة فعلًا أيضًا.

فالوازرة حكمًا هي: القابِلَة للإثم؛ يعني التي يمكن أن تتحمَّل الإثْمَ، وإن لم تَعْمَلِ الوِزْر، والوازِرَة حقيقةً هي: التي فَعَلَتِ الإثْمَ.

مثال ذلك: رجلٌ بالغٌ عاقلٌ، لكنه صالِحٌ نقول: هذا وازرٌ حُكْمًا، ورَجُلٌ آخر زنى أو سرق، نقول: هذا وازرٌ فِعلًا، إذا كان بالغًا عاقلًا، وهذا هو السِّر في أنَّ الله قال: {وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ}، ولم يقل: (ولا تزر نفسٌ وِزْرَ أخرى)، بل قال: {وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ}؛ لأنَّ مَن ليست وازِرَة، لا تَزِرُ شيئًا لا عن نفسها ولا عن غيرها {وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ} {وِزْرَ أُخْرَى}؛ أي إثْمَ نفسٍ أخرى، ومعنى (لا تَزِرُ)؛ أي لا يَلْحَقُها وِزْرُه؛ أي الإثْمُ؛ ولهذا فسَّره المُفَسِّر رحمه الله بقوله: [أي لا تَحْمِله] لا تَحْمِل وازرةٌ وِزْرَ أخرى.

فإن قال قائل: الغلامُ إذا بلغ عشرة سنين فإنه يُكلَّف بالصَّلاة، هل يكون وازِرَة؟ فالجواب: لا، لا يُكلَّفُ؛ ولكنْ يُضرَبُ عليها لعشرٍ من باب التَّأديب على التَّمَرُّن على الطَّاعَة، وإلا لو تركها فإنه لا يأثَمُ.

=

وإن قيل: كيف نجمع بين هذه الآية: {وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ} وبين ما ورد أنَّ المَيِّتَ يُعَذَّبُ ببكاء أهله عليه ؟

فالجواب: هذا ينبغي أن يُورَد على الآية، وهو أنَّ النَّبي عليه الصلاة والسلام ثبت عنه: أنَّ الميِّتَ يُعَذَّبُ بِبُكاءِ أَهْلِهِ عليه، وعائِشَةُ رضي الله عنها قالت: إنَّ المرادَ بذلك الكافِرُ، ولا شكَّ أنَّها رضي الله عنها بَشَرٌ تُخْطِئُ وتُصيبُ؛ وذلك لأنَّ الكافر يُعَذَّب، سواء بكى عليه أَهْلُه أم لا، لكن هي أرادَت أن تقول: إنَّ معنى الحديث: أنَّ الكافِرَ لَيُعَذَّبُ وأهله يَبْكون عَلَيْه، جعلت هذا معنى الحديث، واستَدَلَّتْ بالآية، ولكَّننا نقول: لا يستقيم هذا التَّأْويلُ بل معنى الآية: أنَّ المراد بالعذابِ: التألُّم النفسي، وليس التألُّمَ البَدَنِيَّ.

ونظير هذا قولُ الرَّسولِ عليه الصلاة والسلام: "السَّفَرُ قِطْعَةٌ مِنَ الْعَذَابِ" مع أنَّ المسافِرَ لا يتعذَّب تعذُّبًا بدنيًّا، قد يكون من آنَسِ ما يكون إذا كانت الأَرْضُ مُخْصِبَة، والإبِلُ طيِّبَة، والرِّفاق أصحابًا، فيكون السفر نُزْهَة، ومع ذلك فهو قِطْعَة من العذاب القَلْبِيِّ، نحن في الطَّائِرَة مستريحون، ففيها دِفءٌ في الشتاء، وبرودة في الصيف، ونَشْرَب القهوة والعصير، ونأكل التَّمْر، وكلُّ ما طَلَبْنا يأتي، ومع ذلك القَلْب متألِّم، ليس مثل إنسان مُسْتَقِرٍّ في بيته، فالعذاب الذي في القَبْر هو هذا النَّوْع من العَذابِ.

وقال بعض العلماء: يعذَّب عذابًا بدنيًّا؛ أي: يعاقَبُ عقوبة بدنية، ولكن هذا فيمن أوصى أَهْلَه أن يَنوحُوا عليه، وإن كان هذا لم يُذْكَرْ بالحديث، لكن يُحْمَل الحديث على ما تَقْتَضيه النُّصوصُ الأخرى.

وقال بعضهم: هذا في الرَّجُل الذي يَعْلَمُ في أهله أن ينوحوا عليه ولم يَنْهَهُم والفَرْقُ بين القَوْل هذا والذي قبله؛ فالذي قبله أوصاهم، وهذا ما أوصاهم لكن يَعْلَم أنَّهُم يفعلون فلم يَنْهَهُم.

=

فهذه أربعةُ أقوالٍ في الحديث، وأصَحُّها أنَّ المراد بالعذاب: العذابُ النَّفْسِيُّ، وليس العذابَ البَدَنِيَّ؛ لقوله تعالى: {وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى} [فاطر: ١٨].

ثم قال تعالى: {ثُمَّ إِلَى رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ}: {ثُمَّ} يعني بعد الشُّكْر من الشاكر، والكفر من الكافر، يكن إلى الله وحده المَرْجِع.

وقوله: {ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ} في هذه الجملة حَصْر، طريقُهُ: تقديم ما حقُّه التَّأخير؛ لأنَّ قوله: إلى ربِّكم؛ خبرٌ مُقَدَّم، ومَرْجِعُكُم؛ مبتدأ مؤخَّر.

وقوله: {إِلَى رَبِّكُمْ} ولم يَقُلْ: إلى الله؛ لأنَّ المقام هنا مقام رُبُوبِيَّة؛ لأنَّ الرَّبَّ هو المالِكُ المُتصَرِّف الخالق، فكان المناسِبُ أن يقول: إلى ربِّكم، ولو قال: إلى الله مَرْجِعُكم لصَحَّ؛ لأنَّ الله تعالى أيضًا هو المستحِقُّ للعبادة، ولا يستحِقُّ العبادَةَ إلا مَن كان ربًّا.

وقوله: {مَرْجِعُكُمْ} يوم القيامة، ولكن اعْلَمْ أنَّ كل مَن مات فقد قامت قيامته؛ لأنَّه انتقل من دار العَمَل إلى دار الجزاء.

قال شيخ الإسلام ابن تَيْمِيَّةَ رحمه الله في (العقيدة الواسِطِيَّة): "ومن الإيمان باليَوْمِ الآخِرِ: الإيمانُ بكلِّ ما أخبر به النَّبِي ﷺ مما يكون بعد الموت"، مع أنَّ الذي يكون بعد المَوْت قبل قيام السَّاعة، لكن مَن مات فقد قامت قيامَتُه.

قال تعالى: {فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} يُنَبِّئُكم: يُخْبِرُكم، لكن قد قيل: إنَّ النَّبَأَ لا يكون إلا في الأَمْرِ الهامِّ، بخلاف الخبر، فيكون حتى في الأمور التَّوافِهِ؛ وقال بعض العلماء: هما بمعنًى واحِدٍ.

وقوله: {فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}: {بِمَا} ما اسم موصول بمعنى الذي، وعائدها محذوف وهو المفعول به في قوله: {تَعْمَلُونَ} أي: بما كنتم تعْمَلونه. و (ما) الموصولة، بل وجميع الأسماء الموصولة، تفيد العموم، والدليل على أنَّ الأسماء الموصولة تفيد العموم قوله تعالى: {وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ

=

=

أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ} [الزمر: ٣٣] فأعاد الإشارة إليه جمعًا مع أنه مفرد، وهذا يدلُّ على أنه يفيد العموم.

إذن: كل ما نَعْمَلُ من خير وشَرٍّ وصغير وكبير وسابقٍ ولاحِقٍ، فإن الله تعالى يُنَبِّئُنا به؛ أي: يُخْبِرُنا به.

وتأمَّلِ اللُّطْف والإحسان؛ حيث قال تعالى: {يُنَبِّئُكُمْ} [الأنعام: ٦٠] ولم يقل: (يُؤاخِذُكم) لأنَّه ثبت في الصَّحيح: "أنَّ اللهَ عز وجل يخلو بِعَبْدِهِ المُؤْمِنِ، فيُقَرِّرُهُ بِذُنُوبِهِ، ويقول: عَمِلْتَ كَذَا في يَوْمِ كَذَا، وعَمِلْتَ كَذَا في يَوْمِ كذا حتى يَعْتَرِفَ، ثم يقول الله له: قَدْ سَتَرْتُها عَلَيْكَ في الدُّنْيَا، وأنا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ".

فهذا إنباءٌ بدون مؤاخَذَةٍ؛ ولهذا قال {يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [الأنعام: ٦٠] ثم المؤاخَذَة إليه، فالإنباءُ وعدٌ عليه، والمؤاخَذَة إليه: {إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ} [النساء: ٤٨]؛ ولهذا كان الكُفَّار لا يُنَبَّؤُون بعملهم كما يُنَبَّأُ المؤمن؛ يعني أنَّ الله يخلو به، ويستر عليه، ويُقَرِّره بذنوبه معه وَحْدَه، أما الكُفَّار - والعياذ بالله - فيُنادَى على رؤوس الأشهاد {هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ} [هود: ١٨] والله أعلم.

وقوله تعالى: {إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} أي: الله عز وجل عليمٌ بذاتِ الصُّدُور، وهي القُلُوب، ودليل هذا قوله تعالى: {فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ} [الحج: ٤٦] فالمراد بذات الصدور؛ أي صاحِبَة الصُّدور؛ القلوب، وإنما ذكر الله هذه الجُمْلَة بعد قوله: {فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} للإشارة إلى أنَّ الحساب يكون على ما في القلب، كما في قوله تعالى: {إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ (٨) يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ} [الطارق: ٨، ٩]، وقال تعالى: {أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ (٩) وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ} [العاديات: ٩، ١٠].

=

=

فالمدار يوم القيامَةِ على ما في القَلْب، أما في الدنيا فالمَدارُ على الأعمال الظَّاهِرَة، ولهذا كان النَّبي ﷺ يعامل المنافقين معامَلَةَ المسلمين؛ لأنَّهُم كانوا يتظاهَرُون بالإسلام، ونحن نحاسِبُ النَّاس في الدنيا على ما يَظْهَرُ من أعمالِهم، ونكِلُ سرائِرَهم إلى الله، أما في الآخرة فإن الحسابَ على ما في القلب.

ولهذا يجب على الإنسان أن يعتَنِيَ بصلاح قلبه قبل صَلاحِ جِسْمِه؛ لأنَّ صلاح الجسم واجهةٌ أمامَ الخَلْق، لكن صلاحُ القَلْبِ هو الذي يكون بين الإنسان وبين ربه عز وجل.

(فائدة): قوله تعالى: {إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٧)} الزمر: ٧، أتت هذه الآية وفيها الردُ على بدعتين متقابلتين، وبيان ذلك فيما يلي:

- أولًا: بيان وجه رد الآية على بدعة التفريط.

في هذه الآية رد على من فرطوا في توحيد الألوهية من المرجئة والجبرية نفاة التعليل والحكم والأسباب واقتضائها للثواب والعقاب، الذين لا يستقبحون السيئات ولا يستنكرون المنكرات، في قوله تعالى: {وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ}.

كما أن هذه الآية ردت على اعتقادهم بأنه يجوز أن يعاقب صاحب الحسنات الراجحة، ويثيب صاحب السيئات الراجحة في قوله تعالى: {وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}، فرد الله عليهم اعتقادهم الباطل أنه لا سبب ولا حكمة، ولا علة، ولا موازنة، ولا إحباط، ولا تدافع بين الحسنات والسيئات، مخالفين بذلك قوله تعالى: {أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ

=

=

مَا يَحْكُمُونَ (٢١)} الجاثية: ٢١، بأن الله - عز وجل - يجازي على الحسنات ويعاقب على السيئات.

كما أنها ردت على المرجئة الذين فصلوا بين ارتباط الظاهر بالباطن في قوله تعالى: {فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٧)}، أي أنه يحاسب الإنسان على ما أظهر من عمل وما أبطن من نية.

- ثانيًا: بيان وجه رد الآية على بدعة الإفراط.

وفيها رد على القدرية الوعيدية الذين يعظمون شأن الطاعات والمعاصي، إلا أنهم غلوا حتى سلبوا الإيمان بذهاب بعض الواجبات،

وأضافوا الفضل في فعل الحسنات لأنفسهم، لذا فهم لا يدْعون الله ولا يشكرونه فأتت الآية للرد عليهم في قوله: {وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ} لإثبات أنه سبحانه المستحق للشكر؛ لأنه هو المتفضل سبحانه على عباده بتوفيقهم إلى طاعته، وتيسيره سلوكهم طريق النجاة والفلاح؛ وعلى هذا المعنى جاء قوله - عز وجل - : {أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ} الأنعام: ٩٠، وقوله سبحانه: {فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ} الأنعام: ١٢٥.

- ثالثًا: المأخذ الذي انطلقت منه هاتان الطائفتان.

إذا كانت المرجئة والجبرية قد جفوا، فرأوا أنه لا تأثير للسيئات والحسنات على توحيد الألوهية؛ بل يجوز عندهم أن يعاقب صاحب الحسنات الراجحة، ويثيب صاحب السيئات الراجحة؛ لأن الأمر مردود عندهم إلى محض المشيئة.

فإن القدرية والوعيدية قد غلوا حتى جعلوا السيئات مُزيلة للإيمان بالكلية، وجعلوا الحسنات من أفعال العباد؛ لأنهم توصلوا إلى أن المعاصي لا يريدها الله

=

تعالى ولا يحبها، وبالتالي فلم يأمر بها ولا إرادة له في وقوعها، وإلا لكان مريدًا للمعاصي، وبالتالي فلا يعاقِب عليها حسب زعمهم.

فكلاهما ضل في توحيد العبادة فمنهم من فرط فيها عما أراده الله، ومنهم من غلا فيها فأقامها على ما لم يأذن به الله.

من أجل هذا كان المأخذ الذي انطلقت منه هاتان الطائفتان هو فهمهم الخاطئ الذي يعود إلى عدم تفريقهم بين الإرادتين الكونية والشرعية -فضلوا بسبب هذا في توحيد الألوهية- فيعتقدون أن كل ما أراده الله فقد أحبه، ذلك أن الإرادة إما أن تكون كونية وهي الإرادة العامة لجميع الموجودات ودليلها قوله - عز وجل -: {وَلَكِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ (٢٥٣)} البقرة: ٢٥٣، وإما أن تكون الإرادة شرعية وهي التي تتعلق بمحبة الله تعالى ورضاه عن الشيء كقوله تعالى: {وَاللهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ} النساء: ٢٧.

وأهل السنة يؤمنون أن الإرادة الكونية هي التي تعلقت بكل شيء حتى معصية العاصي فلا يلزم منها التفرقة بين ما يحبه الله وما لا يحبه. أما الإرادة الشرعية فهي التي تعلقت بمحبته ورضاه فهو وإن كان قدَّر وقوع الشر كونًا لكنه في الإرادة الشرعية لم يرضه ولم يحبه فهو لا يحب الظالمين ولا الفاسقين ولا العاصين.

لقد أتت هذه الآية الكريمة للدلالة على أن المذهب الحق ليس ما ذهب إليه أصحاب البدع المتقابلة، بل هو ما ذهب إليه أهل السنة والجماعة، "فعقيدة أهل السنة أصح مباني وأوضح معاني، وحسبك أنها جامعة لمحاسن العقائد"؛ لذلك فإقامة توحيد الألوهية كما أمر الله به من أعظم الحسنات وأجل القربات، كما أن الشرك من أعظم الذنوب وأقبح السيئات.

=

ويثبت أهل السنة والجماعة محبة الله للحسنات وأنها أسباب لما هو محبوب له وهي الرحمة والإحسان، وأن السيئات مبغوضة له، وأنها أسباب لما هو محبوب له وهو العدل.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله -: " وأعظم ما دعا الله الخلق إليه في كتابه ودعت إليه الرسل هو التوحيد، وأعظم ما نهى عنه الشرك"، ولا يتحقق أصل التوحيد إلا بالإتيان بحسنة عظيمة، هي أساس الحسنات ولبُّها؛ وهي شهادة التوحيد: (لا إله إلا الله، محمد رسول الله)، وهي كلمة التوحيد، المشتملة على أهم المطالب وأعظم المراتب؛ فإن التوحيد أصل الدين وجماعه، وظاهره وباطنه، وأوله وآخره.

فاتضح بهذا أنه لا بد للإقرار بالشهادتين من العمل بمقتضاها؛ وذلك أن لا يُعبد إلا الله، ولا يأله القلب غيره حبًا ورجاء وخوفًا وتوكلًا وخضوعًا وإنابة وطلبًا - وكل هذا من جملة الحسنات العظيمة-، ولا يُعبد إلا بما شرع رسوله - ﷺ - والتعبد بخلاف هذا من السيئات.

فتوسط أهل السنة والجماعة بين الوعيدية في هذا الباب - أعني مكانة الحسنات والسيئات وتأثيرها على توحيد الألوهية- الذين هم أحسن حالًا من المرجئة؛ لأنهم في اسم الإيمان أقرب إلى قول أهل السنة، وعندهم من تعظيم شأن الطاعات والمعاصي ما ليس عند أولئك، إلا أنهم غلوا حتى سلبوا الإيمان بذهاب بعض الواجبات.

وبين المرجئة نفاة التعليل والحكم والأسباب واقتضائها للثواب والعقاب، إلا أنهم -أي المرجئة- أقرب إلى أهل السنة في الحكم الأخروي.

=

=

فدلت بمفهومها على منهج أهل السنة والجماعة، وهو: اعتبار الحسنات والسيئات من لوازم توحيد العبادة، فليست الحسنات مثل المعاصي، ولا المعاصي مزيلة للإيمان بالكلية.

(منبهة): قال الله تعالى: (ولا تزر وازرة وزر أخرى) [الأنعام: ١٦٤]. وقد تكررت هذه الآية في السور الآتية: الإسراء، الآية: ١٥، وفاطر، الآية: ١٨، والزمر، الآية: ٧، والنجم، الآية: ٣٨.

وفي الحديث قال رسول الله - ﷺ -: "إن الميت يعذب ببكاء أهله عليه". روى هذا الحديث عن النبي - ﷺ - ستة من أصحابه - رضي الله عنهم -:

الأول: حديث عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -، وقد روي عنه بألفاظ مختلفة:

١- عن عبيد الله بن عمر قال: حدثنا نافع، عن عبد الله، أن حفصة بكت على عمر فقال: مهلا يا بنية، ألم تعلمي أن رسول الله - ﷺ - قال: "إن الميت يعذب ببكاء أهله عليه". أخرجه مسلم في صحيحه، في كتاب الجنائز، حديث (١٦) - (٩٢٧).

٢- عن عبد الله بن عبيد الله بن أبي مليكة قال: توفيت ابنة لعثمان - رضي الله عنه - بمكة وجئنا لنشهدها وحضرها ابن عمر وابن عباس - رضي الله عنهم - وإني لجالس بينهما أو قال جلست إلى أحدهما ثم جاء الآخر فجلس إلى جنبي فقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما لعمرو بن عثمان: ألا تنهى عن البكاء؟ فإن رسول الله - ﷺ - قال: "إن الميت ليعذب ببكاء أهله عليه"، فقال ابن عباس رضي الله عنهما: قد كان عمر - رضي الله عنه - يقول بعض ذلك، ثم حدث قال: صدرت مع عمر - رضي الله عنه - من مكة حتى إذا كنا بالبيداء إذا هو بركب تحت ظل سمرة فقال: اذهب فانظر من هؤلاء الركب؟ قال: فنظرت فإذا صهيب فأخبرته، فقال: ادعه لي، فرجعت إلى صهيب فقلت: ارتحل فالحق أمير المؤمنين، فلما أصيب عمر دخل صهيب يبكي يقول: وا أخاه، وا صاحباه، فقال عمر - رضي الله

=

=

عنه -: يا صهيب أتبكي علي وقد قال رسول الله - ﷺ -: "إن الميت يعذب ببعض بكاء أهله عليه". قال ابن عباس رضي الله عنهما: فلما مات عمر رضي الله عنه ذكرت ذلك لعائشة رضي الله عنها فقالت: رحم الله عمر، والله ما حدث رسول الله - ﷺ -: "إن الله ليعذب المؤمن ببكاء أهله عليه"، ولكن رسول الله - ﷺ - قال: "إن الله ليزيد الكافر عذابا ببكاء أهله عليه"، وقالت: حسبكم القرآن: (ولا تزر وازرة وزر أخرى) قال ابن عباس رضي الله عنهما عند ذلك: والله هو أضحك وأبكى. قال ابن أبي مليكة: والله ما قال ابن عمر رضي الله عنهما شيئا". أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب الجنائز، حديث (١٢٨٧)، ومسلم في صحيحه، في كتاب الجنائز، حديث (٩٢٧).

٣- عن أبي بردة، عن أبيه قال: لما أصيب عمر - رضي الله عنه - جعل صهيب يقول: وا أخاه، فقال عمر: أما علمت أن النبي - ﷺ - قال: "إن الميت ليعذب ببكاء الحي". أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب الجنائز، حديث (١٢٩٠)، ومسلم في صحيحه، في كتاب الجنائز، حديث (١٨) - (٩٢٧) و (١٩) - (٩٢٧).

٤-... عن ابن عمر، عن أبيه رضي الله عنهما، عن النبي - ﷺ - قال: "الميت يعذب في قبره بما نيح عليه". أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب الجنائز، حديث (١٢٩٢)، ومسلم في صحيحه، في كتاب الجنائز، حديث (١٧) - (٩٢٧).

٥-... عن ابن عمر، عن أبيه رضي الله عنهما، عن النبي - ﷺ - قال: "الميت يعذب ببكاء الحي عليه". أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب الجنائز، حديث (١٢٩٢).

٦- عن أبي موسى قال: "لما أصيب عمر أقبل صهيب من منزله حتى دخل على عمر فقام بحياله يبكي فقال عمر: علام تبكي؟ أعلي تبكي؟ قال: إي والله لعليك أبكي يا أمير المؤمنين، قال: والله لقد علمت أن رسول الله - ﷺ - قال: "من

=

=

يبكى عليه يعذب". أخرجه مسلم في صحيحه، في كتاب الجنائز، حديث (٢٠) - (٩٢٧).

٧- عن أنس - رضي الله عنه -، أن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - لما طعن عولت عليه حفصة فقال: يا حفصة أما سمعت رسول - ﷺ - يقول: "المعول عليه يعذب". أخرجه مسلم في صحيحه، في كتاب الجنائز، حديث (٢١) - (٩٢٧).

الثاني: حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، وقد روي عنه بألفاظ مختلفة:

١- عن عبد الله بن عبيد الله بن أبي مليكة قال: توفيت ابنة لعثمان - رضي الله عنه - بمكة وجئنا لنشهدها وحضرها ابن عمر وابن عباس - رضي الله عنهم - وإني لجالس بينهما أو قال جلست إلى أحدهما ثم جاء الآخر فجلس إلى جنبي فقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما لعمرو بن عثمان: ألا تنهى عن البكاء؟ فإن رسول الله - ﷺ - قال: "إن الميت ليعذب ببكاء أهله عليه". أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب الجنائز، حديث (١٢٨٦)، ومسلم في صحيحه، في كتاب الجنائز، حديث (٢٣) - (٩٢٨).

٢-... عن عبد الله بن عمر - رضي الله عنه -، أن رسول الله - ﷺ - قال: "إن الميت يعذب ببكاء الحي". أخرجه مسلم في صحيحه، في كتاب الجنائز، حديث (٢٤) - (٩٣٠).

٣-... عن ابن عمر - رضي الله عنه - يرفع إلى النبي - ﷺ -: "إن الميت يعذب في قبره ببكاء أهله عليه". أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب المغازي، حديث (٣٩٧٩)، ومسلم في صحيحه، في كتاب الجنائز، حديث (٢٦) - (٩٣٢).

الثالث: حديث المغيرة بن شعبة - رضي الله عنه -، وقد روي عنه بلفظين:

=

=

١-... عن المغيرة - رضي الله عنه - قال: سمعت النبي - ﷺ - يقول: "من نيح عليه يعذب بما نيح عليه". أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب الجنائز، حديث (١٢٩١).

٢-... عن المغيرة - رضي الله عنه - قال: سمعت النبي - ﷺ - يقول: "من نيح عليه فإنه يعذب بما نيح عليه يوم القيامة". أخرجه مسلم في صحيحه، في كتاب الجنائز، حديث (٢٨) - (٩٣٣).

الرابع: حديث أبي موسى الأشعري - رضي الله عنه -: أن النبي - ﷺ - قال: "الميت يعذب ببكاء الحي عليه، إذا قالت النائحة: واعضداه، واناصراه، واكاسباه، جبذ الميت وقيل له: أنت عضدها، أنت ناصرها، أنت كاسبها". أخرجه الإمام أحمد - واللفظ له - في مسنده (٤/ ٤١٤)، حديث (١٩٧٣١)، والترمذي في سننه، في كتاب الجنائز، حديث (١٠٠٣)، وابن ماجة في سننه، في كتاب، الجنائز، حديث (١٥٩٤)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٥١١)، جميعهم من طريق زهير بن محمد، عن أسيد بن أبي أسيد، عن موسى بن أبي موسى الأشعري، عن أبيه، به. ولفظ الترمذي: "ما من ميت يموت فيقوم باكيه فيقول: وا جبلاه، وا سيداه، أو نحو ذلك، إلا وكل به ملكان يلهزانه: أهكذا كنت؟ ". قال الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة (٧/ ١٤١): "زهير بن محمد هو أبو المنذر، الخراساني الشامي، وهو ضعيف، وقد جاء الحديث من طرق عن جمع من الصحابة، بدون هذه الزيادة: "إذا قالت النائحة... "، فتفرده بها مما لا يحتمل". اهـ والحديث صححه الحاكم، وحسنه الترمذي، والصواب ضعفه بتلك الزيادة.

الخامس: حديث عمران بن حصين - رضي الله عنه -:

=

=

فعن محمد بن سيرين قال: ذكر عند عمران بن حصين - رضي الله عنه -: "الميت يعذب ببكاء الحي" فقال عمران: قاله رسول الله - ﷺ -. أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٤/ ٤٣٧)، حديث (١٩٩٣٢)، والنسائي في سننه، في كتاب الجنائز، حديث (١٨٤٩).

السادس: حديث سمرة - رضي الله عنه -: أن النبي - ﷺ - قال: "الميت يعذب بما نيح عليه". أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٥/ ١٠)، حديث (٢٠١٢٢)، والطبراني في الكبير (٧/ ٢١٥)، والروياني في مسنده (٢/ ٥٨). وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٣/ ١٦) وقال: "رواه الطبراني في الكبير، وفيه عمر بن إبراهيم الأنصاري، وفيه كلام، وهو ثقة".

وهذا ملخص لألفاظ الحديث:

"إن الميت ليعذب ببكاء أهله عليه".

"إن الميت ليعذب ببكاء الحي".

"الميت يعذب ببكاء الحي عليه".

"الميت يعذب ببكاء الحي عليه، إذا قالت النائحة: واعضداه، واناصراه، واكاسباه، جبذ الميت وقيل له: أنت عضدها، أنت ناصرها، أنت كاسبها".

"إن الميت يعذب ببعض بكاء أهله عليه".

"إن الميت يعذب في قبره ببكاء أهله عليه".

"الميت يعذب في قبره بما نيح عليه".

"من نيح عليه فإنه يعذب بما نيح عليه يوم القيامة".

"الميت يعذب بما نيح عليه".

"المعول عليه يعذب".

"من نيح عليه يعذب بما نيح عليه".

=

=

"من يبكى عليه يعذب".

ويلاحظ أن هذه الروايات فيها شيء من الاختلاف، وقد أوضح العيني - رحمه الله - بعضا من الفروق بينها فقال: "قول ابن عمر رضي الله تعالى عنهما على وجهين: أحدهما: "إن الميت يعذب ببكاء أهله عليه"، والآخر: "إن الميت ليعذب ببكاء الحي"، واللفظان مرفوعان، فهل يقال: يحمل المطلق على المقيد ويكون عذابه ببكاء أهله عليه فقط؟ أو يكون الحكم للرواية العامة، وأنه يعذب ببكاء الحي عليه، سواء كان من أهله أم لا؟ وأجيب: بأن الظاهر جريان حكم العموم وأنه لا يختص ذلك بأهله.

وجاء في حديث ابن عمر: "إن الميت يعذب ببكاء أهله عليه"، وفي بعض طرقه: "من نيح عليه فإنه يعذب بما نيح عليه يوم القيامة". فالرواية الأولى عامة في البكاء، وهذه الرواية خاصة في النياحة، فهاهنا يحمل المطلق على المقيد، فتكون الرواية التي فيها مطلق البكاء محمولة على البكاء بنوح، ويؤيد ذلك إجماع العلماء على حمل ذلك على البكاء بنوح، وليس المراد مجرد دمع العين، ومما يدل على أنه ليس المراد عموم البكاء: قوله: "إن الميت يعذب ببعض بكاء أهله عليه". فقيده ببعض.

* ظاهر الآية الكريمة أن الله تعالى لا يعذب أحدا بوزر غيره، وأما الحديث الشريف ففيه أن الميت يعذب ببكاء أهله عليه، وهذا يوهم معارضة الآية؛ لأن بكاء أهله عليه ليس من فعله.

قال الشنقيطي: يرد على هذه الآية الكريمة سؤال: وهو ما ثبت في الصحيح عن ابن عمر رضي الله عنهما، من أن الميت يعذب ببكاء أهله عليه، فيقال: ما وجه تعذيبه ببكاء غيره؟ إذ مؤاخذته ببكاء غيره قد يظن من لا يعلم أنها من أخذ الإنسان بذنب غيره. اهـ

=

=

* مسالك العلماء في دفع التعارض بين الآية والحديث:

أجمع العلماء على أن المراد بالبكاء في الحديث هو الذي يكون بصوت وندب ونياحة، وأما مجرد دمع العين فلا يدخل في الحديث، وقد حكى الإجماع النووي رحمه الله.

ومستند الإجماع قوله - ﷺ -: "إن الله لا يعذب بدمع العين، ولا بحزن القلب، ولكن يعذب بهذا - وأشار إلى لسانه - أو يرحم، وإن الميت يعذب ببكاء أهله عليه". أخرجه البخاري (١٣٠٤)، ومسلم (٩٢٤).

ولا إشكال في مؤاخذة الحي بالندب والنياحة؛ لأن ذلك أمر منهي عنه، وإنما الإشكال في مؤاخذة الميت بذلك.

وقد اختلف العلماء في دفع التعارض بين الآية والحديث على مسلكين:

الأول: مسلك الجمع بين الآية والحديث:

وعلى هذا المسلك عامة العلماء، من محدثين، ومفسرين، وفقهاء؛ إلا أنهم اختلفوا في الجمع على مذاهب:

الأول: حمل الأحاديث الواردة في المسألة على ظاهرها، وتأويل الآية.

ويرى أصحاب هذا المسلك أن الميت يعذب بمجرد بكاء أهله عليه، وإن لم يكن له تسبب في ذلك.

وهذا مذهب: عمر بن الخطاب، وابنه عبد الله، رضي الله عنهما.

أما مذهب عمر - رضي الله عنه -، فيدل عليه قصته مع صهيب، فعن ابن عباس - رضي الله عنه - قال: صدرت مع عمر - رضي الله عنه - من مكة حتى إذا كنا بالبيداء إذا هو بركب تحت ظل سمرة فقال: اذهب فانظر من هؤلاء الركب؟ قال: فنظرت فإذا صهيب فأخبرته، فقال: ادعه لي، فرجعت إلى صهيب فقلت: ارتحل فالحق أمير المؤمنين، فلما أصيب عمر دخل صهيب يبكي يقول: وا أخاه، وا

=

=

صاحباه، فقال عمر - رضي الله عنه -: يا صهيب أتبكي علي وقد قال رسول الله - ﷺ -: "إن الميت يعذب ببعض بكاء أهله عليه".

قال الحافظ ابن حجر: "ويحتمل أن يكون عمر - رضي الله عنه - كان يرى أن المؤاخذة تقع على الميت إذا كان قادرا على النهي ولم يقع منه؛ فلذلك بادر إلى نهي صهيب، وكذلك نهى حفصة، كما رواه مسلم من طريق نافع عن ابن عمر عنه". اهـ

وأما مذهب عبد الله بن عمر - رضي الله عنه - فيدل عليه: أنه شهد جنازة رافع بن خديج وقام النساء يبكين على رافع فأجلسهن مرارا ثم قال لهن: "ويحكن إن رافع بن خديج شيخ كبير لا طاقة له بالعذاب، وإن الميت يعذب ببكاء أهله عليه". أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٣/ ٥٥٦)، والطبراني في الكبير (٤/ ٢٤٠)، وابن عدي في الكامل (٢/ ٩)، والبغدادي في تاريخه (٥/ ٢٥١)، جميعهم من طريق بشر بن حرب، أبي عمرو الندبي قال: سمعت ابن عمر يقول:....، فذكره.

و"بشر بن حرب" هو: أبو عمرو الندبي، البصري، والندب حي من الأزد، وقد ضعفه علي بن المديني، ويحيى، والنسائي، وقال أحمد: ليس بالقوي، وقال ابن خراش: متروك، وكان حماد بن زيد يمدحه، وقال محمد بن أبي شيبة: سألت ابن المديني عنه فقال: كان ثقة عندنا، وقال ابن عدي: لا بأس به عندي، لا أعرف له حديثا منكرا. انظر: الكامل في ضعفاء الرجال، لابن عدي (٢/ ٩).

وقد توبع بشر في هذه الرواية؛ فأخرجه البيهقي في السنن الكبرى (٤/ ٧٢)، وأبو عوانة [كما في فتح الباري، لابن حجر (٣/ ١٩٠)] كلاهما من طريق سفيان بن عيينة، عن عبد الله بن أبي بكر، عن أبيه، أن عبد الله بن عمر لما مات رافع بن خديج قال لهم: "لا تبكوا عليه؛ فإن بكاء الحي عذاب للميت".

=

=

ورجال إسناده ثقات؛ إلا أن فيه انقطاع بين أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم، وعبد الله بن عمر.

وأخرج نحوه الإمام أحمد في مسنده (٢/ ١٣٥)، حديث (٦١٩٥) قال: حدثنا أبو أحمد الزبيري محمد بن عبد الله، حدثنا أبو شعبة الطحان جار الأعمش، عن أبي الربيع قال: كنت مع ابن عمر - رضي الله عنه - في جنازة فسمع صوت إنسان يصيح فبعث إليه فأسكته، فقلت: يا أبا عبد الرحمن، لم أسكته؟ قال: إنه يتأذى به الميت حتى يدخل قبره".

وفي إسناده: "أبو شعبة الطحان" قال الدارقطني: متروك. و"أبو الربيع" قال الدارقطني: مجهول. انظر: المغني في الضعفاء، للذهبي (٢/ ٧٨٤، ٧٩٠)، ولسان الميزان، لابن حجر (٧/ ٤٧، ٦٣)، وتعجيل المنفعة، لابن حجر (١/ ٤٨٤، ٤٩٣).

والأثر أورده الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ١٥) وقال: "رواه أحمد، وأبو الربيع قال فيه الدارقطني: مجهول". وأورده في (٣/ ١٦) وقال: "رواه أحمد، وفيه أبو شعبة الطحان، وهو متروك".

هو: محمد بن خليفة بن عمر الأبي، الوشتاني المالكي: عالم بالحديث، من أهل تونس. نسبته إلى (أبة) من قراها. ولي قضاء الجزيرة، سنة ٨٠٨ هـ. له (إكمال إكمال المعلم، بفوائد كتاب مسلم) سبعة أجزاء، في شرح صحيح مسلم، جمع فيه بين شرح المازري، والقاضي عياض، والقرطبي، والنووي، مع زيادات من كلام شيخه ابن عرفة، مات بتونس، سنة ٨٢٧ هـ. انظر: الأعلام، للزركلي (٦/ ١١٥).

واختار هذا المذهب:

الأبي، والشوكاني، وابن باز، رحمهم الله.

واستدلوا له:

=

=

١ – بأن لله تعالى أن يتصرف في خلقه كما يشاء، ولا يسأل عما يفعل سبحانه.

٢ – أن الله تعالى أخبر بأنه قد يعذب في الدنيا من لا ذنب له، بسبب ذنب غيره، كما في قوله تعالى: (واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة) [الأنفال: ٢٥]، يريد أنها تعم فتصيب الظالم وغيره، وقال تعالى: (ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون (٤١)) [الروم: ٤١]، وقالت زينب بنت جحش رضي الله عنها: يا رسول الله: أنهلك وفينا الصالحون؟ فقال: "نعم، إذا كثر الخبث" أخرجه البخاري (٣٣٤٦)، ومسلم (٢٨٨٠).

وقد أغرق الله تعالى أمة نوح عليه السلام كلها، وفيهم الأطفال والبهائم، وذلك بذنوب البالغين، وأهلك قوم عاد بالريح العقيم، وثمود بالصاعقة، وقوم لوط بالحجارة، ومسخ أصحاب السبت قردة وخنازير، وعذب بعذابهم الأطفال، وإذ الأمر كذلك فإن حال البرزخ تلحق بحال الدنيا، فيجوز التعذيب فيها بسبب ذنب الغير، كما في الدنيا.

وأجاب أصحاب هذا المذهب عن الآية:

بأنها عامة، والحديث مخصص لعمومها، والسنة تخصص عموم القرآن على الصحيح.

قال الشوكاني: "وأنت خبير بأن الآية عامة؛ لأن الوزر المذكور فيها واقع في سياق النفي، والأحاديث المذكورة مشتملة على وزر خاص، وتخصيص العمومات القرآنية بالأحاديث الأحادية هو المذهب المشهور الذي عليه الجمهور، فلا وجه لما وقع من رد الأحاديث بهذا العموم، ولا ملجأ إلى تجشم المضايق لطلب التأويلات المستبعدة باعتبار الآية....، والأحاديث التي ذكر فيها تعذيب مختص بالبرزخ، أو بالتألم، أو بالاستعبار – كما في حديث قيلة – لا تدل على

=

=

اختصاص التعذيب المطلق في الأحاديث بنوع منها؛ لأن التنصيص على ثبوت الحكم لشيء بدون مشعر بالاختصاص به لا ينافي ثبوته لغيره، فلا إشكال من هذه الحيثية، وإنما الإشكال في التعذيب بلا ذنب، وهو مخالف لعدل الله وحكمته، على فرض عدم حصول سبب من الأسباب التي يحسن عندها في مقتضى الحكمة، كالوصية من الميت بالنوح، وإهمال نهيهم عنه، والرضا به، وهذا يئول إلى مسألة التحسين والتقبيح والخلاف فيها بين طوائف المتكلمين معروف، ونقول: ثبت عن رسول الله - ﷺ - "أن الميت يعذب ببكاء أهله عليه" فسمعنا وأطعنا، ولا نزيد على هذا". اهـ

وكذا قال سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز لما سئل عن الجمع بين الآية والأحاديث، فأجاب: "ليس هناك تعارض بين الأحاديث والآية....، فقد ثبت عن رسول الله - ﷺ - من حديث ابن عمر، ومن حديث المغيرة وغيرهما في الصحيحين، وليس في البخاري وحده، أن النبي - ﷺ - قال: "إن الميت يعذب بما يناح عليه"، وفي رواية للبخاري: "ببكاء أهله عليه"....، والرسول - ﷺ - قصد بهذا منع الناس من النياحة على موتاهم، وأن يتحلوا بالصبر ويكفوا عن النوح....، فالميت يعذب بالنياحة عليه من أهله، والله أعلم بكيفية العذاب الذي يحصل له بهذه النياحة، وهذا مستثنى من قوله تعالى: (ولا تزر وازرة وزر أخرى) [الأنعام: ١٦٤]؛ فإن القرآن والسنة لا يتعارضان، بل يصدق أحدهما الآخر، ويفسر أحدهما الآخر؛ فالآية عامة والحديث خاص، والسنة تفسر القرآن وتبين معناه؛ فيكون تعذيب الميت بنياحة أهله عليه مستثنى من الآية الكريمة، ولا تعارض بينها وبين الأحاديث". اهـ

ولابن قتيبة رأيان في المسألة:

الأول: موافقة عائشة رضي الله عنها، كما سيأتي.

=

=

والثاني: أن الآية خاصة في أحكام الدنيا.

قال ابن قتيبة: "وأما قولهم كيف يعذب الميت ببكاء الحي، والله تعالى يقول: (ولا تزر وازرة وزر أخرى)؟ فإنا أيضا نظن أن التعذيب للكافر ببكاء أهله عليه، وكذلك قال ابن عباس إنه مر بقبر يهودي فقال: إنه يعذب وإن أهله ليبكون عليه؛ فإن كان كذلك فهذا مالا يوحش؛ لأن الكافر يعذب على كل حال، وإن كان أراد المسلم المقصر؛ فإن قول الله عز وجل: (ولا تزر وازرة وزر أخرى) إنما هو في أحكام الدنيا، وكان أهل الجاهلية يطلبون بثأر القتيل فيقتل أحدهم أخاه أو أباه أو ذا رحم به، فإذا لم يقدر على أحد من عصبته ولا ذوي الرحم به قتل رجلا من عشيرته، فأنزل الله تبارك وتعالى: (ولا تزر وازرة وزر أخرى)، وأخبرنا أيضا أنه مما أنزل على إبراهيم عليه السلام، ولذلك قال رسول الله - ﷺ - لرجل رأى معه ابنه: "لا تجني عليه ولا يجني عليك" ". اهـ

وذهب الكرماني إلى أن الآية خاصة في أحكام الآخرة؛ إذ المراد بها الإخبار عن حال الآخرة، وأما الحديث ففيه الإخبار عن حال البرزخ، وحال البرزخ تلحق بأحوال الدنيا، والتي يجوز فيها التعذيب بذنب الغير، وعليه فلا يكون هناك تعارض بين الآية والحديث.

وأجاب أصحاب هذا المذهب عن حديث عائشة رضي الله عنها، والذي فيه تخصيص ذلك بالكافر:

فقال الشوكاني: "وأما ما روته عائشة عن النبي - ﷺ - أنه قال: "ذلك في الكافر أو في يهودية معينة" فهو غير مناف لرواية غيرها من الصحابة؛ لأن روايتهم مشتملة على زيادة، والتنصيص على بعض أفراد العام لا يوجب نفي الحكم عن بقية الأفراد، لما تقرر في الأصول من عدم صحة التخصيص بموافق العام". اهـ

=

وقال سماحة الشيخ ابن باز: "وأما قول عائشة رضي الله عنها فهذا من اجتهادها وحرصها على الخير، وما قاله النبي - ﷺ - مقدم على قولها وقول غيرها لقول الله سبحانه: (وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله) [الشورى: ١٠] وقوله عز وجل: (فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا) [النساء: ٥٩] والآيات في هذا المعنى كثيرة، والله الموفق". اهـ

المذهب الثاني: حمل الآية على ظاهرها وتأويل الأحاديث.

وهذا مذهب الجمهور من العلماء حيث ذهبوا إلى تأويل الأحاديث الواردة في تعذيب الميت ببكاء أهله عليه، لما فيها من مخالفة لعمومات القرآن، وإثباتها لتعذيب من لا ذنب له، لكن اختلفوا في التأويل على أقوال:

الأول: أن الباء في قوله - ﷺ -: "ببكاء أهله" هي للحال، والمعنى: أن مبدأ عذاب الميت يقع عند بكاء أهله عليه، وذلك أن شدة بكائهم غالبا إنما تقع عند دفنه، وهو في تلك الحالة يسأل، ويبتدئ به عذاب القبر، فكأن معنى الحديث: أن الميت يعذب حال بكاء أهله عليه، ولا يلزم من ذلك أن يكون بكاؤهم سببا لتعذيبه.

حكى هذا القول: الخطابي، والمازري، وابن الجوزي.

الإيرادات والاعتراضات على هذا القول:

قال الحافظ ابن حجر: "ولا يخفى ما في هذا القول من التكلف، ولعل قائله إنما أخذه من قول عائشة رضي الله عنها: إنما قال رسول الله - ﷺ -: "إنه ليعذب بخطيئته وذنبه، وإن أهله ليبكون عليه الآن"، وعلى هذا يكون خاصا ببعض الموتى". اهـ

=

وضعفه الطيبي بناء على رواية: "ببكاء الحي": ورواية: "يعذب في قبره بما نيح عليه"، حيث يرى أن هاتين الروايتين تردان القول بأن الباء للحال.

وقال ابن القيم: "وهذا المسلك باطل قطعا؛ فإنه ليس كل ميت يعذب، ولأن هذا اللفظ لا يدل إلا على السببية كما فهمه أعظم الناس فهما؛ ولهذا ردته عائشة لما فهمت منه السببية؛ ولأن اللفظ الآخر الصحيح الذي رواه المغيرة يبطل هذا التأويل؛ ولأن الإخبار بمقارنة عذاب الميت المستحق للعذاب لبكاء أهله لا فائدة فيه". اهـ

القول الثاني: أن اللام في قوله - ﷺ -: "إن الميت" هي لمعهود معين، وهي يهودية مر بها النبي - ﷺ - فقال الحديث، والراوي سمع بعض الحديث، ولم يسمع بعضه الآخر.

وهذا هو الظاهر من رواية عمرة،

وعروة، عن عائشة رضي الله عنها. وهو اختيار: القاضي أبي بكر الباقلاني، والخطابي - في أحد قوليه.

واحتجوا له: بأن حديث عمر بن الخطاب، وابنه، مجمل، وحديث عائشة مفسر، والمفسر مقدم على المجمل.

القول الثالث: أن التعذيب المذكور في الحديث مختص بالكافر؛ فإن الله يزيده عذابا ببكاء أهله عليه، وأما المؤمن فلا يعذب بذنب غيره أبدا.

قال الحافظ ابن حجر: "وهو بين من رواية ابن عباس عن عائشة".

قلت: رواية ابن عباس أخرجها البخاري، ومسلم، من طريق عبد الله بن عبيدالله بن أبي مليكة قال: "توفيت ابنة لعثمان - رضي الله عنه - بمكة وجئنا لنشهدها وحضرها ابن عمر وابن عباس - رضي الله عنهم -، وإني لجالس بينهما، أو قال: جلست إلى أحدهما، ثم جاء الآخر فجلس إلى جنبي، فقال عبد الله بن عمر رضي

=

=

الله عنهما لعمرو بن عثمان: ألا تنهى عن البكاء؛ فإن رسول الله - ﷺ - قال: "إن الميت ليعذب ببكاء أهله عليه".

فقال ابن عباس رضي الله عنهما: قد كان عمر - رضي الله عنه - يقول بعض ذلك، ثم حدث قال: صدرت مع عمر - رضي الله عنه - من مكة حتى إذا كنا بالبيداء إذا هو بركب تحت ظل سمرة فقال: اذهب فانظر من هؤلاء الركب؟ قال: فنظرت فإذا صهيب، فأخبرته فقال: ادعه لي، فرجعت إلى صهيب فقلت: ارتحل فالحق أمير المؤمنين، فلما أصيب عمر دخل صهيب يبكي يقول: وا أخاه وا صاحباه، فقال عمر - رضي الله عنه -: يا صهيب أتبكي علي وقد قال رسول الله - ﷺ -: "إن الميت يعذب ببعض بكاء أهله عليه"، قال ابن عباس رضي الله عنهما: فلما مات عمر - رضي الله عنه - ذكرت ذلك لعائشة رضي الله عنها فقالت: رحم الله عمر، والله ما حدث رسول الله - ﷺ -: "إن الله ليعذب المؤمن ببكاء أهله عليه"، ولكن رسول الله - ﷺ - قال: "إن الله ليزيد الكافر عذابا ببكاء أهله عليه"، وقالت: حسبكم القرآن (ولا تزر وازرة وزر أخرى). قال ابن عباس رضي الله عنهما عند ذلك: والله هو أضحك وأبكى. قال ابن أبي مليكة: والله ما قال ابن عمر رضي الله عنهما شيئا".

وقد ذهب الإمام الشافعي إلى تصويب عائشة رضي الله عنها فيما ذهبت إليه، حيث قال: "وما روت عائشة عن رسول الله أشبه أن يكون محفوظا عنه - ﷺ -، بدلالة الكتاب ثم السنة. فإن قيل: فأين دلالة الكتاب؟ قيل: في قوله عز وجل: (ولا تزر وازرة وزر أخرى)، و (وأن ليس للإنسان إلا ما سعى (٣٩)) [النجم: ٣٩]، وقوله: (فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره) [الزلزلة: ٧ - ٨]، وقوله: (لتجزى كل نفس بما تسعى) [طه: ١٥].

=

=

قال الشافعي: وعمرة أحفظ عن عائشة من ابن أبي مليكة، وحديثها أشبه الحديثين أن يكون محفوظا؛ فإن كان الحديث على غير ما روى ابن أبي مليكة من قول النبي - ﷺ -: "إنهم ليبكون عليها وإنها لتعذب في قبرها" فهو واضح لا يحتاج إلى تفسير؛ لأنها تعذب بالكفر، وهؤلاء يبكون ولا يدرون ما هي فيه، وإن كان الحديث كما رواه ابن أبي مليكة فهو صحيح؛ لأن على الكافر عذابا أعلى، فإن عذب بدونه فزيد في عذابه فيما استوجب وما نيل من كافر من عذاب أدنى من أعلى منه، وما زيد عليه من العذاب فباستيجابه لا بذنب غيره في بكائه عليه.

فإن قيل: يزيده عذابا ببكاء أهله عليه؟ قيل: يزيده بما استوجب بعمله ويكون بكاؤهم سببا، لا أنه يعذب ببكائهم.

فإن قيل: أين دلالة السنة؟ قيل: قال رسول الله - ﷺ - لرجل: "ابنك هذا؟ قال: نعم. قال: "أما إنك لا تجني عليه ولا يجني عليك"، فأعلم رسول الله - ﷺ - مثل ما أعلم الله من أن جناية كل امرئ عليه كما عمله له لا لغيره ولا عليه". اهـ

وذكر ابن عبد البر أن ما ذهب إليه الشافعي هو تحصيل مذهب الإمام مالك؛ لأن مالكا ذكر حديث عائشة في موطئه، ولم يذكر خلافه عن أحد.

الإيرادات والاعتراضات على مذهب عائشة رضي الله عنها:

إن المتأمل في الروايات الواردة عن عائشة رضي الله عنها يلحظ فيها شيئا من الاختلاف، فهي مرة تؤول الحديث بأنه حكاية حال عن امرأة يهودية تعذب في قبرها، ومرة تذكر بأنه يهودي وليست يهودية، ومرة أخرى تؤول الحديث بأن الكافر يزيده الله عذابا ببكاء أهله عليه، وهي في كل ذلك ترفع هذه التأويلات للنبي - ﷺ -.

وقد تكلم العلماء على مذهب عائشة وما أوردته من تأويلات:

=

=

فقال الحافظ ابن حجر: "وهذه التأويلات عن عائشة متخالفة، وفيه إشعار بأنها لم ترد الحديث بحديث آخر؛ بل بما استشعرته من معارضة القرآن". اهـ

وقال الداوودي:

"رواية ابن عباس عن عائشة أثبتت ما نفته عمرة وعروة عنها، إلا أنها خصته بالكافر؛ لأنها أثبتت أن الميت يزداد عذابا ببكاء أهله، فأي فرق بين أن يزداد بفعل غيره أو يعذب ابتداء". اهـ

وقال ابن الجوزي: "وهذا الجواب لا أعتمد عليه لثلاثة أوجه:

أحدها: أن ما روته عائشة حديث وهذا حديث، ولا تناقض بينهما، بل لكل واحد منهما حكمه.

والثاني: أنها أنكرت برأيها وقالت بظنها، وقول الرسول - ﷺ - إذا صح لا يلتفت معه إلى رأي.

والثالث: أن ما ذكرته لم يحفظ إلا عنها، وذلك الحديث محفوظ عن عمر، وابن عمر، والمغيرة، وهم أولى بالضبط منها". اهـ

وقال أبو العباس القرطبي - بعد أن أورد إنكار عائشة رضي الله عنها -: "وهذا فيه نظر؛ أما إنكارها ونسبة الخطأ لراويه فبعيد، وغير بين ولا واضح، وبيانه من وجهين:

أحدهما: أن الرواة لهذا المعنى كثير؛ عمر، وابن عمر، والمغيرة بن شعبة، وقيلة بنت مخرمة، وهم جازمون بالرواية، فلا وجه لتخطئتهم، وإذا أقدم على رد خبر جماعة مثل هؤلاء - مع إمكان حمله على محمل الصحيح - فلأن يرد خبر راو واحد أولى، فرد خبرها أولى، على أن الصحيح: ألا يرد واحد من تلك الأخبار، وينظر في معانيها كما نبينه.

=

=

وثانيهما: أنه لا معارضة بين ما روت هي، ولا ما رووا هم؛ إذ كل واحد منهم أخبر عما سمع وشاهد، وهما واقعتان مختلفتان.

وأما استدلالها على رد ذلك بقوله تعالى: (ولا تزر وازرة وزر أخرى) [الأنعام: ١٦٤] فلا حجة فيه، ولا معارضة بين هذه الآية والحديث، على ما نبديه من معنى الحديث إن شاء الله". اهـ

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: وقد أنكر طوائف من السلف الأحاديث الواردة في ذلك، وغلطوا الرواة لها، واعتقدوا أن ذلك من باب تعذيب الإنسان بذنب غيره، وهذه طريقة عائشة، والشافعي، وغيرهما....، والأحاديث الصحيحة الصريحة التي يرويها مثل عمر بن الخطاب وابنه عبد الله وأبي موسى الأشعري وغيرهم لا ترد بمثل هذا، وعائشة أم المؤمنين رضي الله عنها لها مثل هذا نظائر، ترد الحديث بنوع من التأويل والاجتهاد لاعتقادها بطلان معناه، ولا يكون الأمر كذلك.

ومن تدبر هذا الباب وجد هذا الحديث الصحيح الصريح الذي يرويه الثقة لا يرده أحد بمثل هذا إلا كان مخطئا، وعائشة رضي الله عنها روت عن النبي - ﷺ - لفظين - وهي الصادقة فيما نقلته - فروت عن النبي - ﷺ - قوله: "إن الله ليزيد الكافر عذابا ببكاء أهله عليه"، وهذا موافق لحديث عمر؛ فإنه إذا جاز أن يزيده عذابا ببكاء أهله، جاز أن يعذب غيره ابتداء ببكاء أهله. اهـ

وقال ابن القيم: "وإنكار عائشة لذلك بعد رواية الثقات لا يعول عليه؛ فإنهم قد يحضرون ما لا تحضره، ويشهدون ما تغيب عنه، واحتمال السهو والغلط بعيد، خصوصا في حق خمسة من أكابر الصحابة، وقوله في اليهود لا يمنع أن يكون قد قال ما رواه عنه هؤلاء الخمسة في أوقات أخر، ثم هي محجوجة بروايتها عنه أنه قال: "إن الله يزيد الكافر عذابا ببكاء أهله عليه"؛ فإذا لم يمنع زيادة الكافر عذابا

=

=

بفعل غيره - مع كونه مخالفا لظاهر الآية - لم يمنع ذلك في حق المسلم؛ لأن الله سبحانه كما لا يظلم عبده المسلم لا يظلم الكافر، والله أعلم". اهـ

وقال الأبي: "تواترت الأحاديث بإثبات عذاب القبر، والتعذيب فيه ببكاء الحي صورة من صور التعذيب، وصحت فيه هذه الأحاديث فأمرها عمر وغيره على ظاهرها، ورآها مخصصة لعموم: (ولا تزر وازرة وزر أخرى)، والسنة تخصص عموم القرآن على الصحيح.

وأما عائشة فجزمت بأنه - ﷺ - لم يقل ذلك، وأنه إنما قال: "الكافر يزيده الله عذابا ببكاء أهله عليه"، وقالت في الطريق الآخر: إنه مر على النبي - ﷺ - بجنازة يهودي وهم يبكون عليه فقال: "هم يبكون عليه وإنه ليعذب".

وأما استشهادها بالآية؛ فلا يخفى عليك ما فيه من الإشكال؛ أما أولا: فإنها شهادة على النفي، وهي وإن كانت مقبولة من مثل عائشة، لكن عارضتها رواية عمر، وابنه، وناهيك مع صحة حديث المغيرة الآتي: "من نيح عليه عذب".

وأما ثانيا: فإن ما ذكرت في الطريق الأول هو أيضا معارض للآية التي احتجت بها، وغاية ما يقال: إن التخصيص عليه أقل، أعني تخصيص عمومها بالكافر، وما ذكرت في الطريق الثاني غير مناف لحديث عمر". اهـ

وقال ابن عادل: "وعائشة رضي الله عنها لم تخبر أن النبي - ﷺ - نفى ذلك، وإنما تأولت على ظاهر القرآن، ومن أثبت وسمع حجة على من نفى وأنكر....، والحديث الذي روته حديث آخر لا يجوز أن يرد به خبر الصادق؛ لأن القوم قد يشهدون كثيرا مما لا تشهد، مع أن روايتها تحقق ذلك الحديث؛ فإن الله تعالى إذا جاز أن يزيد الكافر عذابا ببكاء أهله، جاز أن يعذب الميت ابتداء ببكاء أهله.

ثم في حديث ابن رواحة

=

=

ما ينص على أن ذلك في المسلم؛ فإن ابن رواحة كان مسلما، ولم يوص بذلك". اهـ

وقال الملا علي بن سلطان القاري: "ولا يخفى أن هذا الاعتراض وارد لو لم يسمع الحديث إلا في هذا المورد، وقد ثبت بألفاظ مختلفة وبروايات متعددة - عنه وعن غيره - غير مقيدة بل مطلقة، فدخل هذا الخصوص تحت هذا العموم، فلا منافاة ولا معارضة، فيكون اعتراضها بحسب اجتهادها". اهـ

ويتلخص من أقوال العلماء في الرد على عائشة رضي الله عنها:

١- أن ما أوردته من تأويلات، إنما هو من اجتهادها، وليس هو من كلام النبي ﷺ، وهذا هو الظاهر من كلام الحافظ ابن حجر، والداوودي، وابن الجوزي.

٢- أن ما اعترضت به عائشة بقولها: إن النبي - ﷺ - قال: "إن الله ليزيد الكافر عذابا ببكاء أهله عليه" هو أيضا معارض للآية، على مذهبها.

٣- أنه لا تعارض بين ما روت عائشة، وما روى عمر، وابنه؛ لأن كل واحد منهم أخبر بما سمع وشاهد، وهما واقعتان مختلفتان.

٤- أنه على فرض التعارض فإن حديث عمر بن الخطاب، وابنه، أولى بالتقديم من حديث عائشة؛ لأن الرواة له أكثر.

القول الرابع: أن الحديث محمول على ما إذا كان النوح من سنة الميت وسنة أهله، ولم ينه أهله عنه في حياته؛ فإنه يعذب من أجل ذلك، وأما إذا لم يكن من سنته فإنه لا يعذب.

وحاصل هذا المذهب أن الإنسان لا يعذب بفعل غيره إلا إذا كان له فيه تسبب.

وهذا مذهب البخاري، وقد ترجم له في صحيحه بقوله: "باب قول النبي - ﷺ -: "يعذب الميت ببعض بكاء أهله عليه"، إذا كان النوح من سنته؛ لقول الله تعالى: (قوا أنفسكم وأهليكم نارا) [التحريم: ٦]، وقال النبي - ﷺ -: "كلكم راع

=

=

ومسئول عن رعيته"، فإذا لم يكن من سنته فهو كما قالت عائشة رضي الله عنها: (ولا تزر وازرة وزر أخرى)، وهو كقوله: (وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء) [فاطر: ١٨]، وما يرخص من البكاء في غير نوح، وقال النبي - ﷺ -: "لا تقتل نفس ظلما إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها؛ لأنه أول من سن القتل" ". اهـ وهو اختيار: أبي البركات ابن تيمية.

القول الخامس: أن الحديث محمول على من أوصى أهله بذلك، فإنه يعذب بسبب وصيته، لا بسبب النياحة، وقد قال رسول الله - ﷺ -: "من سن في الإسلام سنة سيئة فعمل بها بعده كتب عليه مثل وزر من عمل بها ولا ينقص من أوزارهم شيء".

قالوا: وكان ذلك مشهورا من مذاهب العرب وعاداتهم، حيث كانوا يوصون بالندب والنياحة، وهو موجود في أشعارهم:

كما قال لبيد يخاطب ابنتيه:

فقوما فقولا بالذي قد علمتما... ولا تخمشا وجها ولا تحلقا الشعر

وقولا هو المرء الذي لا صديق له... أضاع، ولا خان الأمير ولا غدر

إلى الحول ثم اسم السلام عليكما... ومن يبك حولا كاملا فقد اعتذر

وكما قال طرفة بن العبد:

إذا مت فانعيني بما أنا أهله... وشقي علي الجيب يا ابنة معبد

وهذا قول: المزني ، وإبراهيم الحربي ، وحكى أبو الليث السمرقندي: أنه قول عامة أهل العلم. ونقله النووي عن الجمهور.

وهو اختيار: الطحاوي، والخطابي في قول، والبغوي، وأبي عبد الله القرطبي، والنووي، والذهبي، والشاطبي، والملا علي بن سلطان القاري، والسندي، والآلوسي، والألباني. واستدلوا له:

=

=

١- بحديث أبي موسى الأشعري - رضي الله عنه - أن النبي - ﷺ - قال: "الميت يعذب ببكاء الحي عليه، إذا قالت النائحة: واعضداه، واناصراه، واكاسباه، جبذ الميت وقيل له: أنت عضدها، أنت ناصرها، أنت كاسبها".

قال الملا علي بن سلطان القاري: "وهذا صريح أنه إنما يعذب إذا كان أوصى، أو كان بفعلهم يرضى". اهـ

٢- واستدلوا برواية: "إن الميت يعذب ببعض بكاء أهله عليه"؛ إذ المراد بالبعض ما يكون عن وصية.

الإيرادات والاعتراضات على هذا القول:

أعترض على هذا القول:

١- بأن قوله - ﷺ -: "إن الميت يعذب ببكاء أهله عليه"، لفظ عام، وتخصيصه بمن أوصى تحكم بلا دليل.

٢- وبأن الوصية بالنياحة حرام يستحق الموصي بها التعذيب، نيح عليه أم لا، والنبي - ﷺ - إنما علق التعذيب على النياحة، لا على الوصية.

٣- وبأن الصحابة الذين رووا الحديث لو فهموا منه أن ذلك خاص بمن أوصى، لما عجبوا منه، ولما أنكره من أنكره كعائشة رضي الله عنها؛ لأنهم يعرفون بأن من أمر بمنكر فإنه يستحق العقوبة عليه.

٤- وبأنه لو كان خاصا بمن أوصى لما قيد ذلك بالنوح دون غيره من المنكرات.

القول السادس: أن الحديث محمول على ما إذا أهمل الميت نهي أهله عن النوح عليه قبل موته، مع أنه يعلم أنهم سينوحون عليه؛ لأن إهماله لهم تفريط منه، ومخالفة لقوله تعالى: (قوا أنفسكم وأهليكم نارا) [التحريم: ٦]، فتعذيبه إذا بسبب تفريطه وتركه ما أمر الله به.

=

=

قال ابن المرابط: "إذا علم المرء بما جاء في النهي عن النوح، وعرف أن أهله من شأنهم أن يفعلوا ذلك ولم يعلمهم بتحريمه ولا زجرهم عن تعاطيه؛ فإذا عذب على ذلك عذب بفعل نفسه لا بفعل غيره". اهـ

وهو مذهب: داود بن علي، واختيار الشنقيطي.

القول السابع: أن معنى قوله - ﷺ -: "يعذب ببكاء أهله"، أي بنظير ما يبكيه أهله به، وذلك أن الأفعال التي يعددون بها عليه غالبا تكون من الأمور المنهية، فهم يمدحونه بها، وهو يعذب بصنيعه ذلك، وهو عين ما يمدحونه به.

وهذا مذهب الإسماعيلي، وابن حزم.

قال الإسماعيلي: "كثر كلام العلماء في هذه المسألة، وقال كل مجتهدا على حسب ما قدر له، ومن أحسن ما حضرني وجه لم أرهم ذكروه، وهو أنهم كانوا في الجاهلية يغيرون ويسبون ويقتلون، وكان أحدهم إذا مات بكته باكيته بتلك الأفعال المحرمة، فمعنى الخبر: أن الميت يعذب بذلك الذي يبكي عليه أهله به؛ لأن الميت يندب بأحسن أفعاله، وكانت محاسن أفعالهم ما ذكر، وهي زيادة ذنب من ذنوبه يستحق العذاب عليها". اهـ

وقال ابن حزم: "هذا الخبر بتمامه يبين معنى ما وهل فيه كثير من الناس من قوله عليه السلام: "إن الميت يعذب ببكاء أهله عليه"، ولاح بهذا أن هذا البكاء الذي يعذب به الميت ليس هو الذي لا يعذب به من دمع العين، وحزن القلب، فصح أنه البكاء باللسان، إذ يعذبونه برياسته التي جار فيها فعذب عليها، وشجاعته التي يعذب عليها، إذ صرفها في غير طاعة الله تعالى، وبجوده الذي أخذ ما جاد به من غير حله، ووضعه في غير حقه فأهله يبكونه بهذه المفاخر، وهو يعذب بها بعينها، وهو ظاهر الحديث لمن لم يتكلف في ظاهر الخبر ما ليس فيه، وبالله تعالى التوفيق". اهـ

=

=

ويؤيد هذا القول: رواية: "إن الميت يعذب ببعض بكاء أهله عليه"؛ إذ ليس كل ما يعددونه من خصاله يكون مذموما، فقد يكون من خصاله الكرم، وإعتاق الرقاب، وكشف الكرب، ونحوها.

ويؤيده أيضا: حديث النعمان بن بشير - رضي الله عنه - قال: "أغمي على عبد الله بن رواحة فجعلت أخته عمرة تبكي: وا جبلاه، وا كذا وا كذا، تعدد عليه، فقال حين أفاق: ما قلت شيئا إلا قيل لي: آنت كذلك".

القول الثامن: أن معنى "التعذيب" في الحديث توبيخ الملائكة للميت بما يندبه أهله به.

كما في حديث أبي موسى الأشعري - رضي الله عنه -، أن النبي - ﷺ - قال: "الميت يعذب ببكاء الحي عليه، إذا قالت النائحة: واعضداه، واناصراه، واكاسباه، جبذ الميت وقيل له: أنت عضدها، أنت ناصرها، أنت كاسبها".

وفي لفظ: "ما من ميت يموت فيقوم باكيه فيقول: وا جبلاه، وا سيداه، أو نحو ذلك؛ إلا وكل به ملكان يلهزانه: أهكذا كنت".

وعن النعمان بن بشير - رضي الله عنه - قال: "أغمي على عبد الله بن رواحة فجعلت أخته عمرة تبكي: وا جبلاه، وا كذا وا كذا، تعدد عليه، فقال حين أفاق: ما قلت شيئا إلا قيل لي: آنت كذلك".

ذكر هذا القول: الحافظ ابن حجر، والمناوي.

القول التاسع: أن معنى التعذيب في الحديث: تألم الميت بما يقع من أهله من النياحة عليه، وليس المراد أن الله تعالى يعاقبه بتلك النياحة. وهذا اختيار ابن جرير الطبري..

ورجحه: ابن المرابط، والقاضي عياض، وأبو العباس القرطبي، وشيخ الإسلام ابن تيمية، وابن القيم، والعراقي، وابن عثيمين.

=

=

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "وأما قول السائل: هل يؤذيه البكاء عليه؟ فهذه مسألة فيها نزاع بين السلف والخلف والعلماء، والصواب: أنه يتأذى بالبكاء عليه كما نطقت به الأحاديث الصحيحة عن النبي - ﷺ - أنه قال: "إن الميت يعذب ببكاء أهله عليه"، وفي لفظ: "من ينح عليه يعذب بما نيح عليه".

ثم قال: "والمقصود هاهنا أن الله لا يعذب أحدا في الآخرة إلا بذنبه وأنه (ولا تزر وازرة وزر أخرى).

قال: وأما تعذيب الميت: فهو لم يقل: إن الميت يعاقب ببكاء أهله عليه، بل قال: "يعذب" والعذاب أعم من العقاب؛ فإن العذاب هو الألم، وليس كل من تألم بسبب كان ذلك عقابا له على ذلك السبب...، والإنسان يعذب بالأمور المكروهة التي يشعر بها مثل الأصوات الهائلة والأرواح الخبيثة والصور القبيحة، فهو يتعذب بسماع هذا وشم هذا ورؤية هذا، ولم يكن ذلك عملا له عوقب عليه، فكيف ينكر أن يعذب الميت بالنياحة وإن لم تكن النياحة عملا له يعاقب عليه؟

ثم النياحة سبب العذاب؛ وقد يندفع حكم السبب بما يعارضه، فقد يكون في الميت من قوة الكرامة ما يدفع عنه من العذاب، كما يكون في بعض الناس من القوة ما يدفع ضرر الأصوات الهائلة والأرواح والصور القبيحة". اهـ

وقال ابن القيم: "ليس في هذه الأحاديث بحمد الله إشكال، ولا مخالفة لظاهر القرآن، ولا لقاعدة من قواعد الشرع، ولا تتضمن عقوبة الإنسان بذنب غيره؛ فإن النبي - ﷺ - لم يقل: إن الميت يعاقب ببكاء أهله عليه ونوحهم، وإنما قال: يعذب بذلك، ولا ريب أن ذلك يؤلمه ويعذبه، والعذاب هو الألم الذي يحصل له، وهو أعم من العقاب، والأعم لا يستلزم الأخص....، وهذا العذاب يحصل للمؤمن والكافر، حتى إن الميت ليتألم بمن يعاقب في قبره في جواره، ويتأذى بذلك كما يتأذى الإنسان في الدنيا بما يشاهده من عقوبة جاره؛ فإذا بكى أهل

=

=

الميت عليه البكاء المحرم - وهو البكاء الذي كان أهل الجاهلية يفعلونه، والبكاء على الميت عندهم اسم لذلك، وهو معروف في نظمهم ونثرهم - تألم الميت بذلك في قبره، فهذا التألم هو عذابه بالبكاء عليه، وبالله التوفيق". اهـ

أدلة هذا القول:

ذكر أصحاب هذا القول عدة أدلة تؤيد ما ذهبوا إليه، ومن هذه الأدلة:

١- حديث قيلة بنت مخرمة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله - ﷺ -: "أيغلب أحدكم أن يصاحب صويحبه في الدنيا معروفا، وإذا مات استرجع، فوالذي نفس محمد بيده إن أحدكم ليبكي فيستعبر إليه صويحبه، فيا عباد الله، لا تعذبوا موتاكم".

ومعنى الحديث أن الميت يستعبر ويبكي لبكاء أهله، فيتأذى بذلك.

قال ابن المرابط: "حديث قيلة نص في المسألة فلا يعدل عنه". اهـ

وقال القاضي عياض: "هو أولى ما يقال فيه؛ لتفسير النبي - ﷺ - في هذا الحديث ما أبهمه في غيره". اهـ

٢- وعن النعمان بن بشير - رضي الله عنه - قال: "أغمي على عبد الله بن رواحة فجعلت أخته عمرة تبكي: وا جبلاه، وا كذا وا كذا، تعدد عليه، فقال حين أفاق: ما قلت شيئا إلا قيل لي: آنت كذلك".

٣- وعن أبي موسى الأشعري - رضي الله عنه - أن النبي - ﷺ - قال: "الميت يعذب ببكاء الحي عليه، إذا قالت النائحة: واعضداه، واناصراه، واكاسباه، جبذ الميت وقيل له: أنت عضدها، أنت ناصرها، أنت كاسبها".

"ومعنى الحديث أن الميت إذا كان كافرا أو عاصيا عذب، وكان النوح سببا في تعذيبه بذنوبه، وإن كان صالحا أخبر بما تقول النائحة فيزيده ذلك ألما؛ لأنه يرجو الاستغفار، فإذا بلغه ما يكرهه كان غمه عذابا، لعلمه أن الله تعالى يكره ذلك".

=

=

٤- وعن أبي هريرة - رضي الله عنه -، عن النبي - ﷺ - قال: "السفر قطعة من العذاب، يمنع أحدكم طعامه وشرابه ونومه؛ فإذا قضى نهمته فليعجل إلى أهله".

فسمى النبي - ﷺ - السفر عذابا، وليس هو عقابا على ذنب، والعذاب أعم من العقاب، لأن العذاب هو الألم، وليس كل من تألم بسبب كان ذلك عقابا له على ذلك السبب.

٥- واستدلوا أيضا: بأن الميت يسمع بكاء الحي، ويسمع قرع نعال مشيعيه إذا انصرفوا من دفنه، وتعرض عليه أعمال أقاربه الأحياء، فإذا رأى ما يسؤهم تألم له، وهذا ونحوه مما يتعذب به الميت ويتألم.

الإيرادات والاعتراضات على هذا القول:

الإيراد الأول: يرد على هذا القول حديث: "من نيح عليه فإنه يعذب بما نيح عليه يوم القيامة"؛ إذ في الحديث أن العذاب يكون يوم القيامة، فهل يقال إنه يتأذى يوم القيامة ببكاء أهله عليه في الدنيا؟

قال الألباني: "كنت أميل إلى هذا المذهب برهة من الزمن، ثم بدالي أنه ضعيف؛ لمخالفته للحديث الذي قيد العذاب بأنه "يوم القيامة"، ومن الواضح أن هذا لا يمكن تأويله بما ذكروا، ولذلك فالراجح عندنا مذهب الجمهور، ولا منافاة بين هذا القيد والقيد الآخر في قوله: "في قبره"، بل يضم أحدهما إلى الآخر، وينتج أنه يعذب في قبره، ويوم القيامة، وهذا بين إن شاء الله تعالى". اهـ

الإيراد الثاني: أن حديث قيلة ليس نصا في المسألة؛ لاحتمال أن يكون المراد بقوله - ﷺ -: "فيستعبر إليه صويحبه" هو صاحبه الحي، والمعنى: إن أحدكم إذا بكى استعبر له صاحبه الذي هو معه فبكى مثله فأجهش الجميع بكاء؛ فيعذب الميت حينئذ ببكاء الجماعة عليه.

=

=

الإيراد الثالث: أن القول بأن الميت يسمع بكاء الحي، وأنه تعرض عليه أعمال أقاربه الأحياء، فإذا رأى ما يسؤهم تألم له؛ قول لا دليل عليه، والثابت هو سماع الميت لقرع نعال مشيعيه فقط، وذلك بعد الدفن مباشرة، وهو غير مستمر.

القول العاشر: هو الجمع بين هذه الوجوه المذكورة في توجيه الأحاديث، وتنزيل كل وجه منها على حسب حالة الشخص.

وهذا اختيار الحافظ ابن حجر، حيث قال: "ويحتمل أن يجمع بين هذه التوجيهات، فينزل على اختلاف الأشخاص، بأن يقال مثلا: من كانت طريقته النوح فمشى أهله على طريقته، أو بالغ فأوصاهم بذلك عذب بصنعه، ومن كان ظالما فندب بأفعاله الجائرة عذب بما ندب به، ومن كان يعرف من أهله النياحة فأهمل نهيهم عنها فإن كان راضيا بذلك التحق بالأول، وإن كان غير راض عذب بالتوبيخ كيف أهمل النهي، ومن سلم من ذلك كله واحتاط فنهى أهله عن المعصية ثم خالفوه وفعلوا ذلك كان تعذيبه تألمه بما يراه منهم من مخالفة أمره وإقدامهم على معصية ربهم، والله تعالى أعلم بالصواب".

القول الحادي عشر: أن البكاء جعل سببا للعذاب لا مؤثرا في استحقاقه، كما تكون أسباب الآلام في الدنيا أمورا غير مؤثرة في الاستحقاق.

وهذا رأي ابن الوزير اليماني.

ويرى أن الحكمة في جعل البكاء سببا للعذاب، لما في ذلك من الزجر العظيم عن البكاء، وتسمية الآلام عذابا كثير في اللغة شائع، وقد دل السمع على استحقاق كل أحد لشيء من العذاب، فمن الجائز أن يكون عذابا مستحقا بذنب غير البكاء.

القول الثاني عشر: أن المراد بالميت في الحديث: هو المشرف على الموت، وتعذيبه أنه إذا احتضر والناس حوله يصرخون ويتفجعون يزيد كربه، وتشتد عليه سكرات الموت؛ فيصير معذبا بذلك.

=

وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ (٨).

{وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ} أَيْ الْكَافِرَ {ضُرٌّ دَعَا رَبّه} تَضَرَّعَ {مُنِيبًا} رَاجِعًا {إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَة} أَعْطَاهُ إِنْعَامًا {مِنْهُ نَسِيَ} تَرَكَ {ما كان يدعوا} يتضرع {إليه من قبل} وهو الله فما في موضع من {وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا} شُرَكَاء {لِيُضِلّ} بِفَتْحِ

=

ذكر هذا القول: المناوي، والآلوسي.

ويرد على هذا القول: ما ورد من تقييد ذلك بالقبر، وبيوم القيامة.

المسلك الثاني: رد الأحاديث الواردة في تعذيب الميت ببكاء أهله عليه ومعارضتها بقوله تعالى: (ولا تزر وازرة وزر أخرى):

قال الحافظ ابن حجر: "وممن روي عنه الإنكار مطلقا: أبو هريرة - رضي الله عنه - كما رواه أبو يعلى من طريق بكر بن عبد الله المزني قال: قال أبو هريرة - رضي الله عنه -: "والله لئن انطلق رجل محاربا في سبيل الله، ثم قتل في قطر من أقطار الأرض شهيدا فعمدت امرأته سفها وجهلا فبكت عليه ليعذبن هذا الشهيد ببكاء هذه السفيهة عليه".

قال الحافظ ابن حجر: "وإلى هذا جنح جماعة من الشافعية، منهم أبو حامد وغيره". اهـ

قلت: أثر أبي هريرة - رضي الله عنه - لا يصح.

وأما مذهب أبي حامد فلم أقف عليه، وقد ذكر الحافظ ابن حجر الهيتمي قولا آخر له، حيث قال: "والأصح كما قاله الشيخ أبو حامد أن ما ذكر محمول على الكافر وغيره من أصحاب الذنوب".

الْيَاء وَضَمّهَا {عَنْ سَبِيله} دِين الْإِسْلَام {قُلْ تَمَتَّعْ بكفرك قليلا} بقية أجلك {إنك من أصحاب النار}(١).

---

(١)قوله تعالى: {وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ} [الزمّر: ٨].

قال الطبري: يقول:"وإذا مَسَّ الإنسان بلاء في جسده من مرض، أو عاهة، أو شدّة في معيشته، وجهد وضيق".

عن قتادة، قوله: " {وَإِذَا مَسَّ الإنْسَانَ ضُرٌّ}، قال: الوجع والبلاء والشدّة".

قوله تعالى: {دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ} [الزمّر: ٨]، أي:"تضرع إلى ربه في إزالة تلك الشدة، مقبلًا غليه مخبتًا مطيعا".

قال الطبري: " يقول: استغاث بربه الذي خلقه من شدة ذلك، ورغب إليه في كشف ما نزل به من شدة ذلك، تائبا إليه مما كان من قبل ذلك عليه من الكفر به، وإشراك الآلهة والأوثان به في عبادته، راجعا إلى طاعته".

عن قتادة، قوله: " {دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ}، قال: مستغيثا به".

قال مقاتل:"يقول: راجعا إلى الله من شركه موحدا، يقول: اللهم اكشف ما بي".

قال الزجاج:"{مُنِيبًا إِلَيْهِ}، أي: تائبا إليه".

قوله تعالى: {ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ} [الزمّر: ٨]، أي:"ثم إذا أجابه وكشف عنه ضرَّه، ومنحه نِعَمه".

قال مقاتل: يقول: أعطاه الله الخير".

قال الزجاج:"أي: أذهب الضر عنه وأنعم عليه".

قال الواحدي:"يعني: أغناه وأنعم عليه بالصحة".

قال الطبري: " ثم إذا منحه ربه نعمة منه، يعني عافية، فكشف عنه ضرّه، وأبدله بالسقم صحة، وبالشدة رخاء".

قال السدي:"إذا أصابته عافية أو خير".

=

=

قال أبو عبيدة:"كل مالك وكل شئ أعطيته فقد خوّلته، قال أبو النّجم:

أعطى فلم يبخل ولم يبخّل... كوم الذّرى من خول المخوّل

يريد الله تبارك وتعالى: وسمعت أبا عمرو يقول في بيت زهير:

هنالك إن يستخولوا المال يخولوا... وإن يسئلوا يعطوا وإن ييسروا يغلوا".

قوله تعالى: {نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ} [الزمّر: ٨]، أي:"نسي دعاءه لربه عند حاجته إليه".

قال الطبري:"يقول: ترك دعاءه الذي كان يدعو إلى الله من قبل أن يكشف ما كان به من ضرّ".

قال الزجاج:"يقول: نسي الذعاء الذي كان يتضرع به إلى الله - جل وعز -، وجائز أن يكون معناه: نسي الله الذي كان يتضرع إليه من قبل".

قال الواحدي:"نسي الضر الذي كان يدعو الله إلى كشفه".

عن السديّ: " {نَسِيَ}، يقول: ترك، هذا في الكافر خاصة".

قوله تعالى: {وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ} [الزمّر: ٨]، أي:"وجعل لله شركاء في العبادة ليصد عن دين الله وطاعته".

قال الطبري:"يقول: وجعل لله أمثالا وأشباها ليزيل من أراد أن يوحد الله ويؤمن به عن توحيده، والإقرار به، والدخول في الإسلام".

قال الواحدي:"رجع إلى عبادة الأوثان، ليزل عن دين الله الإسلام".

قال السمعاني:"أي: وصف الله بالأنداد والأشباه، {ليضل} عن سبيل الحق".

وفي قوله تعالى: {وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا} [الزمّر: ٨]، قولان:

أحدهما: أن الأنداد من الرجال: يطيعونهم في معاصي الله. قاله السدي.

الثاني: أنه عبادة الأوثان، فجعلها لله أندادا في عبادتهم إياها. حكاه الطبري.

=

=

قال الطبري:"وأولى القولين في ذلك بالصواب قول من قال: عنى به أنه أطاع الشيطان في عبادة الأوثان، فحصل له الأوثان أندادا، لأن ذلك في سياق عتاب الله إياهم له على عبادتها".

قوله تعالى: {قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا} [الزمّر: ٨]، أي:"قل له -أيها الرسول- متوعدًا: تمتع بكفرك قليلا حتى موتك وانتهاء أجلك".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل يا محمد لفاعل ذلك: تمتع بكفرك بالله قليلا إلى أن تستوفي أجلك، فتأتيك منيتك، وعيد من الله وتَهَدُّدٌ".

قال الواحدي: أي:"في الدنيا إلى أجلك".

قال الزجاج:"هذا لفظ أمر، ومعناه - التهديد والوعيد".

قوله تعالى: {إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ} [الزمّر: ٨]، أي:"إنك من أهل النار المخلَّدين فيها".

قال الطبري:"أي: إنك من أهل النار الماكثين فيها".

قال الواحدي:"أي: إن مصيرك إلى النار".

قال العثيمين: قوله تعالى: {وَإِذَا مَسَّ} أي: أصاب، و {الْإِنْسَانَ} يقول المُفَسِّر رحمه الله: المراد به [الكافر] المراد به الكافر، وإنَّما جعل هذا العام خاصًّا لظاهر سياقِ الآية كما يتبَيَّن، وإلا فالأصل أنَّ الإنسانَ من ألفاظ العُمُوم، فـ (أل) فيه لاستغراق الجِنْس.

وعلامة (أل) التي لاسْتِغْراق الجِنْس أن يَحُلَّ مَحَلَّها (كُلٌّ) أي: كُلُّ إنسان، لكن المُفَسِّر رحمه الله جعله عامًّا أريد به الخاصُّ لقرينة السِّياق، فإنَّ السِّياق يدلُّ على أنَّ المراد به الكافِرُ؛ لأنَّه لا يمكن أن يتأتَّى ما يدل عليه السِّياقُ من مؤمن.

=

قوله: {وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ} ضُرٌّ: نكِرَةٌ في سياق الشَّرْط فتكون عامَّةً، أيَّ ضُرٍّ يكونُ؛ في بدنه، في أهله، في ماله، عام، خاص؛ أي ضرٍ يكون يدخل في قوله: {ضُرٌّ}.

قوله: {دَعَا رَبَّهُ} ولم يقل: دعا الله، ففي هذه الحال - أي في إصابة الضر - عرف ربَّه وأنه لا مَلْجأَ منه إلا إليه، فيدعو ربَّه معتقدًا أنه ربُّه يَمْلِك ما شاء ويتصَرَّفُ فيما شاء.

وقال المُفَسِّر رحمه الله: [تَضَرَّع] يعني: فَسَّرَ دعا بمعنى تضَرَّع؛ لقوله تعالى: {ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا} [الأعراف: ٥٥] والتَّضَرُّع هو الاستكانة والذُّلُّ أمام الله عز وجل.

قوله: {مُنِيبًا} راجعًا إليه، فإذا دعا ربه مُنيبًا إليه كَشَفَ الله ضُرَّه؛ لأنَّه عز وجل قال: {أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ} [النمل: ٦٢].

وإجابة الله للمُضْطَرِّ تَشْمَلُ الكافر والمُسْلم؛ حتى الكافر الذي يعلم الله أنه سَيَكْفُرُ بعد زوال اضْطِرارِهِ يُجيبُ دعوته، قال تعالى: {فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ} [العنكبوت: ٦٥].

فهو يعلم عز وجل أنَّهُم سيُشْرِكون بعد النَّجاة، ومع ذلك يجيبهم؛ لأنَّ رَحْمَتَه سبقت غَضَبَه، ففي حال الضَّرورة يَصْدُق لجوءُ الإنسانِ إلى ربِّه؛ لأنَّه يعلم أنه لا يَكْشِفُ الضُّرَّ إلا اللهُ؛ فإذا لجأ إلى ربِّه سبحانه وتعالى فإنَّ رحمته سبقت غضبه، فيجيبه رحمةً به.

فهنا يقول عز وجل: {ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ} إلى آخره؛ يعني كأنَّ هذا - والله أعلم - إشارة إلى أنَّه بعد أن تَغْمُرَه النِّعْمَة ويَسْتَمِر فيها وقتًا يُنَعَّم بها، بعد ذلك يَكْفُر.

=

وقوله: {ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً} قال رحمه الله: [إذا أعطاه] تفسير: لـ {خَوَّلَهُ}، [إنعامًا] تفسير لـ {نِعْمَةً} أمَّا تفسير خوَّله بـ (أعطاه) فواضِحٌ، وأما تَفْسيرُ نِعْمَةٍ بإنعامٍ فلا وَجْهَ له؛ لأنَّ المُعْطَى ليس الإنعامَ وإنما المُعْطَى النِّعْمَة، وعلى هذا فإبقاءُ الآية على ظاهرها أَوْلى مِمَّا ذهب إليه المُفَسِّر رحمه الله.

إذن: فأعطيناه إنعامًا لا يستقيم به الكلامُ؛ لأنَّ الإنعامَ فِعْل الله، والمُعْطى هو النِّعْمَةُ، وليس فِعْل الله، فإبقاءُ الآية على ظاهرها لا شَكَّ أنَّه هو الموافق للواقِعِ.

وقوله: {ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ}: (مِن) هنا للابتداء أي: نِعْمَةً صادرةً من الله عز وجل يتبيَّن بها أنها فضلٌ مَحْضٌ من الله.

قوله رحمه الله: [{نَسِيَ} تَرَكَ {مَا كَانَ يَدْعُو} يتضَرَّعُ {إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ} وهو الله].

فانظر - يا أخي - كان يتضَرَّعُ إلى الله عز وجل في أن يَكْشِفَ عنه الضُّرَّ، فلما كشَفَ الله عنه الضُّرَّ وأعطاه نِعْمَةً زائدة على كَشْفِ الضُّرِّ ماذا تكون حالُه؟ قال تعالى: {نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ}.

قوله: {نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ} النِّسيانُ هنا بمعنى الغَفْلَة وليس المراد به: ذُهُولَ القَلْبِ وإنما المرادُ: الغَفْلَة المتَضَمِّنَة للتَّرْك، ومن ذلك قوله سبحانه وتعالى: {فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ} [الماعون: ٤، ٥] أي: غافلون عن صلاتِهِم.

وقوله: {إِلَيْهِ} الضَّميرُ يعود على الله عز وجل، و {مَا} تعود على الله؛ ولهذا قال المُفَسِّر رحمه الله: [فـ (ما) في موضع (مَن)].

(ما) في قوله: {مَا كَانَ يَدْعُو} في مَوْضِعِ (من)؛ يعني: مرادُ المُفَسِّر رحمه الله: أنَّ (ما) بمعنى (من) أي: نَسِيَ من كان يدعو إليه من قبل، يعني مَن يُوجَّهُ الدُّعاء إليه، أو كما قال المُفَسِّر رحمه الله: [يتضَرَّعُ إليه] وهو الله عز وجل، فغَفَلَ، وكأنَّ الله ما أنعم عليه بِكَشْفِ الضُّرِّ وتَخْوِيلِهِ النِّعْمَةَ.

=

=

قوله: {نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا} الأندادُ لم يَغْفُلْ عنهم، و (الواحِدُ القهَّار) غَفَلَ عنه ذلك الشَّخْصُ، والعياذ بالله! مع أنَّ الأنداد لم تَنْفَعْه ولم يتضرَّع إليها حين أصابه الضُّرُّ، ومع ذلك يُقْبِلُ عليها ويَدَعُ من أَنْعَمَ عليه.

{وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا} شركاءَ، والأندادُ جَمْع: نِدٍّ، والنِّدُّ هو المُسَامِي لنِدِّه؛ المُماثِل له فيجعل لله أندادًا في العبادة، فيعبد هذه الأصنام كما يعبُدُ الله عز وجل، يَنْذِرُ لها كما يَنْذِر لله، يذبَحُ لها كما يذبح لله، وهكذا.

قال رحمه الله: [{لِيُضِلَّ}: بفتح الياء وضَمِّها {عَنْ سَبِيلِهِ} دين الإسلام].

قال تعالى: {أَنْدَادًا لِيُضِلَّ} اللَّامُ هذه إمَّا أن تكون للتَّعليل، وإما أن تكون للعاقِبَة، فإن كانت على قراءة الفَتْح (لِيَضِلَّ) فاللَّامُ للعاقِبَة؛ يعني: جعل لله أندادًا أدَّتْ به إلى الضلال، وإن كانت بِضَمِّ الياء (لِيُضِلَّ) فاللام للتَّعليل؛ يعني: جعل لله أندادًا ليَقْتَدِيَ به النَّاسُ فيَضِلُّوا.

والآية فيها قراءتان: (لِيَضِلَّ) و {لِيُضِلَّ} فيَضِل تعود إلى نفسه، ويُضِل تعود إلى غيره، وهاتان القراءتان كلتاهما صحيحة، وكل واحدة تفيد معنًى يُكمِل معنى الأخرى، فهو يَضِلُّ بنَفْسه، ويُضِلُّ غَيْرَه أيضًا.

فإن قال قائل: هل يمكن نقول: إنَّ قِراءة {لِيُضِلَّ} أقربُ مِن قراءة (لِيَضِلَّ)؟

فالجواب: لا، لكن يمكن أن نقول: لا شكَّ أن يُضِلَّ متعدٍّ ضلالُه للغير، لكن إذا قلنا: إنَّه ضَلَّ أوَّلًا ثم أضَلَّ ثانيًا يكون مجموع القراءتين فيهما فائِدَةٌ لا تحصل بانفراد إحداهما.

ولام العاقبة تأتي في اللُّغَة العَربيَّة، كما في قوله تعالى: {فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا} [القصص: ٨] فهل آلُ فرعون التقطوا موسى من أجل أن يكون لهم عدوًّا وحَزَنًا؟ أبدًا؛ يقول: {عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا}، لكن في العاقبة صار {عَدُوًّا وَحَزَنًا}.

=

=

وتأتي اللام أيضًا زائدةً، كما في قوله تعالى: {إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ} [الأحزاب: ٣٣]؛ {إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ} أي: أنْ يُذْهِبَ، وكما في قوله: {يُرِيدُ اللهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ} [النساء: ٢٦]، {يُرِيدُ اللهُ لِيُبَيِّنَ} أي: أنْ يُبَيِّن، وإنما قالوا: إنَّها زائدة لأنَّ كلمة (أراد) تتعدى بِنَفْسِها لا باللَّام، ولا تصلح أن تكون للتَّعليل؛ لأنَّ التعليل مستفادٌ من الإرادَة، وعلى هذا فيعربونها على أنها زائِدَة.

فتبين أنَّ اللام التي تدخل على المضارع تكون زائدة، وتكون تعليلية - وهي الأكثر - وتكون للعاقِبَة.

وقوله تبارك وتعالى: {لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ}: {سَبِيلِهِ} أي: طريق الله المُوصِل إليه، هذه سبيل الله.

والسَّبيلُ يضاف إلى الله تارةً كما في هذه الآية، وكما في آياتٍ أخرى كثيرة، ويضاف إلى المَخْلوق؛ كما في قوله تعالى: {قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ} [يوسف: ١٠٨] فما هو الجمع بينهما؟ الجمع بينهما: أنَّه يُضاف إلى اللهِ باعتبار أنَّه هو الذي وَضَعَه وأنه مُوصِلٌ إليه، ويضاف إلى غير الله للمخلوق باعتبار أنه هو السَّالِكُ له، إذن فسبيلُ الله؛ يعني: هو الذي شرع هذا السبيل، ووَضَعَه للعباد، وهو يوصل إلى الله، سبيلُ الرَّسول {هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ} [يوسف: ١٠٨]؛ أي: طريقي الذي أَسْلُكُه.

ومثل ذلك يقال في الصراط: صراط الله؛ قال تعالى: {صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ} [الفاتحة: ٧] فصراط الله باعتبار أنه هو الذي وَضَعَه وأنه مُوصِل إليه و {صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ} باعتبارِ أنَّهُم هم الذين يَسْلُكونه.

وقوله: {لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ} قال المُفَسِّر رحمه الله: [دينِ الإِسْلامِ]، وهذا تفسيرٌ للكلمة بمرادها؛ لأنَّ التفسير للقرآن أحيانًا يكون تَفْسيرًا لفظيًّا، وأحيانًا يكون تفسيرًا معنويًّا:

=

=

التفسير اللَّفْظي: أنْ تُفَسِّرَ اللَّفْظة بمعناها.
والتفسير المعنوي: أنْ تُفَسِّرَ اللَّفْظَةَ بالمرادِ بها.
فمثلًا: دين الإسلام لا يُطابِقُ في المعنى اللَّفْظي السبيلَ؛ لأنَّ السَّبيلَ في اللغة الطَّريق؛ فلو قيل: فَسِّر (سَبيل)؛ تقول: يعني: طريق، لكن السَّبيل المراد به: دين الإسلام؛ لأنَّ دين الإسلام - وهو شرائع الإسلام - يُوصِل إلى الله عز وجل، والذي وضعه هو الله سبحانه وتعالى.
إذن: المُفَسِّر رحمه الله فسَّر السبيل هنا بالمعنى المرادِ؛ أي: إنَّ المرادَ بذلك كذا وكذا.
وقوله رحمه الله: [دين الإسلام] واضِحٌ أنَّه هو سبيل الله؛ لأنَّ الله هو الذي شَرَعَه سبحانه وتعالى، ولأنَّ من سلكه أوصله إلى الله.
قال الله تعالى: {قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا} قال المُفَسِّر رحمه الله: [بقيَّةَ أَجَلِكَ] {إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ} أعوذ بالله!.
قوله تعالى: {قُلْ} الخطابُ للرسول ﷺ، ويُحْتَمَل أن يكون الخِطابُ لكلِّ من يَصِحُّ خطابه؛ أي: قل أَيُّها الإنسانُ لهذا الكافر أو لهذا الإنسانِ الموصوفِ بهذه الصفات: {تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا}.
وقوله: {تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا} هذا أمْرٌ، لكنه ليس على ظاهِرِه، بل المراد بالأمر هنا: التَّهديدُ؛ كقوله تعالى {فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ} [الكهف: ٢٩] ومعلومٌ أنَّ الإنسان ليس بالخيارِ بين الإيمان والكفر، لكن هذا من باب التَّهديدِ، فهنا {تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا} ليس معناه أننا نُبيحُ له أن يتمتَّع بالكُفْر، أو نأمره أن يتمَتَّع بالكفر، بل نهدِّدُه؛ فالأَمْرُ هنا للتَّهْديد.
فإن قال قائل: ما الذي أخرجه عن المعنى الأصلي؟
فالجواب: أنَّه أخرجَه عن المعنى الأصلي: قرينَةُ السِّياقِ.

=

=

فقوله: {قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا} أي: اكْفُرْ وتَمَتَّع بالكفر؛ لأنَّ الكافر يتمتَّع بكفره تَمَتُّعَ البهائِمِ؛ كما قال تعالى: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ} [محمد: ١٢].

فالكافر - والعياذ بالله - لا يُقَيِّد نَفْسَه بعبادة؛ لا بصلاة، ولا زكاة، ولا صوم، ولا حج، ولا غير ذلك من العبادات، بل هو قد اتَّبَعَ هواه وتَمَتَّع كما يتمتَّعُ الحمارُ؛ وفي النهاية قال تعالى: {إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ} كقوله تعالى: {يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ} [محمد: ١٢].

وما أَسْرَعَ وصولَه إلى النار؛ لأنَّ الدنيا قليلٌ؛ أي: زمنٌ قليلٌ؛ مهما طال بك العُمُر، فإنه إذا وافاك الأَجَل كأنْ لم تَلْبَثْ إلا ساعَةً من نهارٍ، وإذا شِئْتَ تصديقَ هذا فاعْتَبِرْ ما مضى من عُمُرك بما بقي، اعتبر ما مضى، الآن كلنا يختلف سِنُّه عن الآخر، لكنْ كلُّنا كأننا ولادَة هذه السَّاعَة؛ يعني: كلُّ الذي مضى كأنه لم يَكُنْ، هكذا يكون بَقِيَّةُ العُمُر، مهما طال بالإنسان العُمُر؛ ولهذا قال: {تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا} وإن طال بك العُمُر.

يقول رحمه الله: [بَقِيَّة أَجَلِك {إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ}] الجملة هذه مؤكَّدة بـ (إنَّ) يعني: ومهما تَمَتَّعْتَ فمآلُكَ إلى النار {إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ} وأصحاب النار إنما تُطْلَقُ على الذين يُخَلَّدون فيها، فالمؤمِنُ العاصي وإن كان يَسْتَحِقُّ العذابَ بالنار، فإنه لا يُسَمَّى من أصحاب النار؛ لأنَّ الأصل في الصُّحْبَة: طولُ المُلازَمَة، هذا الأصْلُ في الصحبة؛ طولُ المُلازَمَة، إلا في مسألة واحدة هي الصَّحابة مع الرَّسول ﷺ، فلو اجْتَمَع بالرَّسول ﷺ مُؤْمنًا به ولو لَحْظَةً صار من أصحابه.

يقول تعالى: {النَّارِ} هي الدار التي أعدها الله عز وجل للكافرينَ، وقد بيَّن الله تعالى في الكتاب، وبَيَّن رسولُه ﷺ في السُّنَّة ما فيها من أنواع العذاب؛ قال تعالى:

=

أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ (٩).

{أمن} بتخفيف الميم {هُوَ قَانِت} قَائِم بِوَظَائِف الطَّاعَات {آنَاء اللَّيْل} سَاعَاته {سَاجِدًا وَقَائِمًا} فِي الصَّلَاة {يَحْذَر الْآخِرَة} أي يخاف عذابها {ويرجوا رَحْمَة} جَنَّة {رَبّه} كَمَنْ هُوَ عَاصٍ بِالْكُفْرِ أو غيره وَفِي قِرَاءَة أَمْ مَنْ فَأَمْ بِمَعْنَى بَلْ والهمزة {قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ} أَيْ لَا يَسْتَوِيَانِ كَمَا لَا يَسْتَوِي العالم والجاهل {إنما يتذكر} يتعظ {أولوا الْأَلْبَاب} أَصْحَاب الْعُقُول[1].

=

{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا} [النساء: ٥٦].

وقال الله تعالى: {إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ (٤٣) طَعَامُ الْأَثِيمِ (٤٤) كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ (٤٥) كَغَلْيِ الْحَمِيمِ (٤٦) خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ (٤٧) ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ} [الدخان: ٤٣ - ٤٨].

أعوذ بالله! يُصَبُّ فوق رأسه من عذاب الحَميم؛ الماءِ الحارِّ الشَّديدِ الحَرارَةِ {ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ} [الدخان: ٤٩] وهذا من باب التَّهَكُّم به؛ {إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ}. يعني: وأين عِزَّتُكَ وأين كَرَمُك في الدنيا؟! يرى نَفْسَه سيِّدًا شريفًا، ولكنه في الآخرة يُهانُ إلى هذه الإهانَةِ.

المهم: أنَّ أَنْواعَ العذابِ في النار شيء - والعياذ بالله - إذا تصوَّرَهُ الإنسان فإنه يتبَيَّنُ له شِدَّةُ ما يلاقي هؤلاء من العُقُوبة الشَّديدَة؛ نعوذ بالله من النار.

(١)ذكر سبب النزول.

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما؛ قال: نزلت في عثمان بن عفان رضي الله عنه.

=

=

أخرجه ابن أبي حاتم في "تفسيره"؛ كما في "تفسير القرآن العظيم" (٤/ ٥٢)، وأبو نعيم في "حلية الأولياء" (١/ ٥٦)، والواحدي في "الوسيط" (٣/ ٥٧٣)، وابن عساكر في "تاريخ دمشق" (٣٩/ ٢٣١) من طريق ابن شبة: نا أبو خلف عبد الله بن عيسى بن خالد الخزاز ثنا يحيى بن مسلم البكاء عن ابن عمر به. وهذا سند ضعيف؛ فيه علتان:

الأولى: يحيى البكاء؛ ضعيف؛ كما في "التقريب".

الثانية: عبد الله بن عيسى؛ ضعيف؛ كما في "التقريب" -أيضًا-.

والحديث ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٧/ ٢١٣) وزاد نسبته لابن المنذر وابن مردويه.

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما؛ قال: نزلت في عمار بن ياسر.

أخرجه ابن سعد في "الطبقات الكبرى" (٣/ ٢٥٠): نا محمد بن كناسة عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس به.

والكلبي كذاب، وشيخه ضعيف متهم بالكذب؛ فالأثر موضوع.

وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٧/ ٢١٤) وزاد نسبته لابن مردويه.

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما؛ قال: نزلت هذه الآية في ابن مسعود وعمار وسالم مولى أبي حذيفة.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٧/ ٢١٤)، و"لباب النقول" (ص ١٨٤) وقال: "وأخرج جويبر عن ابن عباس به".

وجويبر؛ متروك الحديث، وفيه انقطاع؛ فجويبر لم يدرك ابن عباس بينهما الضحاك، وهو -أيضًا- لم يسمع من ابن عباس.

وعن عكرمة؛ قال: نزلت في عمار بن ياسر.

أخرجه جويبر؛ كما في "لباب النقول" (ص ١٨٤)، و"الدر المنثور" (٧/ ٢١٣).

=

=

قلنا: وجويبر؛ متروك وهو مع هذا مرسل -أيضًا-.

وعليه؛ فلم يصح في نزول هذه الآية أثر مع تعدد مخارج هذه الآثار؛ إلا أنها لا تقوي بعضها البعض؛ نظرًا للضعف الشديد في هذه الطرق؛ فتنبه.

* قوله تعالى: {أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا} [الزمّر: ٩].

قال الطبري:" {آنَاءَ اللَّيْلِ}، يعني: ساعات الليل، {سَاجِدًا وَقَائِمًا}، يقول: يقنت ساجدا أحيانا، وأحيانا قائما، يعني: يطيع، والقنوت عندنا الطاعة".

قرأ يحيى بن وثاب بالتخفيف: «أَمنْ». وذكر ذلك عن نافع وحمزة وفسروها يريد: يا من هو قانت.

قال الفراء:"وهو وجه حسن، العرب تدعو بألف، كما يدعون بيا، فيقولون: يا زيد أقبل، وأزيد أقبل. قال الشاعر:

أبني لبينى لستم بيد... إلا يد ليست لها عضد

وقال الآخر:

أضمر بن ضمرة ماذا ذكر... ت من صرمة أخذت بالمرار

وهو كثير في الشعر فيكون المعنى مردودا بالدعاء كالمنسوق، لأنه ذكر الناسي الكافر، ثم قص قصة الصالح بالنداء، كما تقول في الكلام: فلان لا يصلى ولا يصوم فيامن يصلي ويصوم أبشر فهذا هو معناه. والله أعلم".

قال الزجاج:"يقرأ: «أَمَنْ هو قانِتٌ» بتخفيف الميم، وتأويله: أمن هو قانت كهذا الذي ذكرنا ممن جعل لله أندادا، وكذلك {أَمَّنْ}، معناه: بل أمن هو قانت كغيره، أي أمن هو مطيع كمن هو عاص".

وفي تفسير: {أَمَنْ هو قانِتٌ} [الزمّر: ٩]، وجوه من التفسير:

أحدها: أن «القنوت»: قراءة القرآن وطول القيام في الصلاة. قاله ابن عمر.

=

=

عن ابن عمر، "أنه كان إذا سُئل عن القنوت، قال: لا أعلم القنوت إلا قراءة القرآن وطول القيام، وقرأ: {أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا} ".

وروي عن ابن عباس، في قوله {كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ} [البقرة: ١١٦]، قال:"قانتين: مصلين".

وعن ابن شهاب: "الخاشع في صلاته".

وقال رسول الله ﷺ: «مثل المجاهد في سبيل الله مثل القانت الصائم»، أيّ: المصلّي.

الثاني: أن «القنوت»: الطاعة، ومنه قوله: {كُلٌّ لَهُ قَانِتُون} [البقرة: ١١٦/ الروم-٢٦]. وهذا قول ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والسدي.

الثالث: أن «القانت»: الداعي لربه. حكاه الثعلبي، والماوردي.

والراجح-والله أعلم- أن «القنوت»: هو الطاعة والاستكانة إلى الله، لحديث وقد روي عن أبي سعيد الخدري، عن رسول الله ﷺ قال: "كل حرف من القرآن يذكر فيه القنوت فهو الطاعة".

و «القنوت» في كلام العرب على ثلاثة وجوه من المعاني:

أحدها: أنه من: القيام. وقد سئل رسول الله ﷺ أيّ الصّلاة أفضل؟ قال: «طول القنوت». يريد: طول القيام.

الثاني: أنه من: الطاعة. ودليله قول عكرمة في قوله: {كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ}، "القانت: المطيع".

قال الزجاج:"القانت المقيم على الطاعة، ودعاء القنوت الدعاء في القيام، فالقانت القائم بما يجب عليه من أمر الله".

الثالث: أنه: الكف عن الكلام والإمساك عنه.

الرابع: من القنوت طول الركوع، وغضّ البصر. قاله مجاهد.

=

=

قال النحاس:"وكان العلماء إذا وقفوا في الصلاة غضّوا أبصارهم وخضعوا، ولم يلتفتوا في صلاتهم، ولم يعبثوا، ولم يذكروا شيئا من أمر الدنيا إلّا ناسين، وأصل هذا أن القنوت الطاعة، وكل ما قيل فيه فهو طاعة الله جلّ وعزّ وهذه الأشياء كلّها داخلة في الطاعة وما هو أكثر منها، كما قال نافع: «وقال لي ابن عمر: قم فصلّ فقمت أصلّي وكان عليّ ثوب حلق فدعاني فقال لي: أرأيت لو وجّهتك في حاجة وراء الجدار أكنت تمضي هكذا، فقلت: لا كنت أتزيّن، قال: فالله أحقّ أن يتزيّن له» ".

وفي قوله تعالى: {آنَاءَ اللَّيْلِ} [الزمّر: ٩]، قولان:

أحدهما: ساعات الليل، قاله الحسن، وقتادة، والربيع، والسدي-في رواية-، وابن جريج، وأبي عبيدة، ومنه قول المتنخل الهذلي:

حُلْوٌ وَمُرٌّ كَعَطْفِ القِدْحِ مِرَّتُهُ... فِي كُلِّ إِنْيٍ حذَاه اللَّيْلُ يَنْتَعِلُ

وعن قتادة، قوله: " {أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ}، أوله، وأوسطه، وآخره".

الثاني: جوف الليل، وهو قول ابن عباس، والسدي-في رواية أخرى-.

قوله تعالى: {يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ} [الزمّر: ٩]، أي:"يخاف عذاب الآخرة، ويأمُل رحمة ربه".

قال يحيى:"{يَحْذَرُ الآخرة} يعني عذاب جهنَّم".

قال ابن عباس: "يحذر عذاب الآخرة".

قال ابن كثير:"أي: في حال عبادته خائف راج، ولا بد في العبادة من هذا وهذا، وأن يكون الخوف في مدة الحياة هو الغالب؛ ولهذا قال: {يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ}، فإذا كان عند الاحتضار فليكن الرجاء هو الغالب عليه".

=

=

عن أنس قال: "دخل رسول الله ﷺ على رجل وهو في الموت، فقال له: "كيف تجدك؟ " قال: أرجو وأخاف. فقال رسول الله ﷺ: "لا يجتمعان في قلب عبد في مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله عز وجل الذي يرجو، وأمنه الذي يخافه".

أخرج ابن أبي حاتم بسنده عن يحيى البكاء:"أنه سمع ابن عمر قرأ: {أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجوا رحمة ربه}، قال ابن عمر: ذاك عثمان بن عفان رضي الله عنه. وإنما قال ابن عمر ذلك، لكثرة صلاة أمير المؤمنين عثمان بالليل وقراءته حتى إنه ربما قرأ القرآن في ركعة، كما روى ذلك أبو عبيدة، عنه رضي الله عنه وقال الشاعر:

ضَحُّوا بأَشْمَطَ عُنوانُ السُّجُودِ بِهِ... يُقَطِّع الليلَ تَسْبيحا وقُرآنا".

عن تميم الداري قال: قال رسول الله ﷺ: "من قرأ بمائة آية في ليلة كتب له قنوت ليلة".

قوله تعالى: {قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ} [الزمّر: ٩]، أي:"قل -أيها الرسول-: هل يستوي الذين يعلمون ربهم ودينهم الحق والذين لا يعلمون شيئًا من ذلك؟ لا يستوون".

قال الطبري: يقول:"قل يا محمد لقومك: هل يستوي الذين يعلمون ما لهم في طاعتهم لربهم من الثواب، وما عليهم في معصيتهم إياه من التبعات، والذين لا يعلمون ذلك، فهم يخبطون في عشواء، لا يرجون بحسن أعمالهم خيرا، ولا يخافون بسيئها شرا؟ يقول: ما هذان بمتساويين".

قال الزجاج:"أي: لا يستوي العالم والجاهل، وكذلك لا يَسْتَوي المُطيعُ والعَاصِي".

قال ابن كثير:"أي: هل يستوي هذا والذي قبله ممن جعل لله أندادا ليضل عن سبيله؟! ".

=

=

عن أبي جعفر -رضي الله عنه-: "{هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ}، قال: نحن الذين يعلمون، وعدونا الذين لا يعلمون".

قال سهل: "العلم: الكتاب والاقتداء، لا الخواطر المذمومة، وكل علم لا يطلبه العبد من موضع الاقتداء صار وبالًا عليه لأنه يدّعي به".

قوله تعالى: {إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ} [الزمّر: ٩]، أي: "إنما يعتبر ويتعظ أصحاب العقول السليمة".

قال الطبري: يقول: "إنما يعتبر حجج الله، فيتعظ، ويتفكر فيها، ويتدبرها أهل العقول والحجى، لا أهل الجهل والنقص في العقول".

قال ابن كثير: "أي: إنما يعلم الفرق بين هذا وهذا من له لب وهو العقل".

قال الزجاج: "{أولُوا الألْبَابِ}: ذوو العقول، وواحد الألباب: لب، وهي العقول".

قال العثيمين: قوله تعالى: {أَمَّنْ هُوَ} قال رحمه الله: [(أَمَنْ) بتخفيف الميم] أَمَنْ، وعلى هذا فتكون الكلمة مركَّبَة من همزة الاستفهام ومِنْ (مَنْ) الموصولة؛ أي آلَّذي هو قانت ... إلى آخره.

قوله رحمه الله: [{هُوَ قَانِتٌ} قائمٌ بوظائِفِ الطَّاعاتِ] القنوت يُطْلَقُ على معانٍ متعَدِّدة:

١- منها الخشوع؛ كقوله تعالى: {وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ} [البقرة: ٢٣٨].

٢- ومنها الدُّعاء: الدُّعاء في الوِتْر أو الفرائض عند النوازل.

٣- ومنها: دوامُ الطَّاعة؛ لقوله تعالى: {وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ} [التحريم: ١٢].

والمثال الأول: {حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ} [البقرة: ٢٣٨] أي: خاشعين؛ ولهذا لما نزلت هذه الآية أُمِرَ الصَّحابَةُ بالسُّكُوتِ

=

=

ونُهُوا عن الكلام؛ فهنا {قَانِتٌ} من معنى: دوام الطَّاعة {أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ} قال المُفَسِّر رحمه الله: [قائمٌ بوظائِفِ الطَّاعاتِ] يعني: مديمٌ لها.

قوله رحمه الله: [{آنَاءَ اللَّيْلِ} ساعاتِهِ]؛ وقوله: [{سَاجِدًا وَقَائِمًا} في الصَّلَاة] نَعَم؛ {سَاجِدًا وَقَائِمًا} نصَّ على السجود وعلى القيام دون الرُّكوع والقعود؛ لأنَّ السُّجودَ شريفٌ بِهَيْئَتِه، والقيامُ شريفٌ بذِكْرِهِ؛ فالسُّجُود شريفٌ بهيئَتِه؛ لأنَّ أَفْضَلَ هَيْئَةٍ للمُصَلِّي أن يكون ساجدًا، ولهذا قال ﷺ: "أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ لِرَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ"، والقيامُ شريفٌ بذِكْرِهِ، فالقرآنُ كلام الله، وكلام الله تعالى أَشْرَفُ الكلام؛ فلهذا نَصَّ على هذين الرُّكْنَيْنِ من أركان الصلاة: القيام، والسجود.

وكان الرَّسول عليه الصلاة والسلام إذا سجد يُسْمَعُ لِصَدْرِهِ أَزِيزٌ كَأَزِيزِ المِرْجَلِ؛ أي القِدْرِ الذي يَغْلي.

وكان عليه الصلاة والسلام إذا قام لا يَمُرُّ بآية رحمةٍ إلا سأَلَ، ولا بآية وَعيدٍ إلا تَعَوَّذ، ولا بآية تسبيحٍ إلَّا سَبَّح.

وهذا يدلُّ على أنَّ القائِمَ في اللَّيل ينبغي له أن يلاحِظَ هذا، يلاحظ قوة الخُشُوع في حال السُّجود والبكاء، ويلاحِظُ أيضًا حُضُور القلب أثناء القراءة ليتابع إذا مَرَّ بآية رحمةٍ سأَلَ، وبآية وعيدٍ تعوَّذ، وبآية تسبيح سبَّح قائمًا وقاعدًا {سَاجِدًا وَقَائِمًا}.

وقوله رحمه الله: [{يَحْذَرُ الْآخِرَةَ} أي: يخافُ عذابَها، {وَيَرْجُو رَحْمَةَ} جَنَّةَ {رَبِّهِ}] فهنا قوله: {يَحْذَرُ الْآخِرَةَ} هذه حال؛ أي: حالَ كونه يحذر الآخِرَة، وحالٌ مقارِنَةٌ لقوله: {سَاجِدًا وَقَائِمًا} يعني: حالَ كَوْنِه في سجوده وقيامه يَحْذَرُ الآخرة؛ أي: يخافها، وليس: يخاف وقوعها؛ لأنَّ وقوعَها لا بدَّ، لكن يخاف عذابَها؛ أي: يخاف أن يُعذَّب.

وقوله تعالى: {وَيَرْجُو رَحْمَةَ} يقول المُفَسِّر رحمه الله: [جَنَّةَ {رَبِّهِ}] ولا شكَّ أنَّ الرحمة يُراد بها الجَنَّة، كما قال الله تعالى للجنة: "أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكِ مَنْ

=

=

أَشَاءُ"؛ ولكن يُرادُ بالرَّحْمَة معنًى آخرُ، وهو: فِعْلُ الله بالعبد؛ أي رحمته للعبد، والأَوْلَى في هذه الآية أن نقول: يرجو أن يَرْحَمَه الله، ويكون المراد بالرحمة هنا: رَحْمة الله التي هي فِعْلُه، يعني يرجو أن يَرْحَمَه الله بالأمرين: بالنَّجاة من النار وبِدُخُول الجنَّة، وهذا المعنى أحْسَنُ؛ لأنَّ المتبادِرَ في الغالب لمعنى الرَّحْمة أن تكون فِعْلَ الله، يعني أنَّ الله يَرْحَمُكَ، وأيضًا إذا قلنا: رَحْمَة الله صار يرجو أن يَنْجُوَ من النَّار أو من عذاب الآخرة، وأن يفوز بالجنَّة.

وقوله تعالى: {وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ} قال رحمه الله: [كَمَنْ هُوْ عاصٍ بالْكُفْرِ أو غَيْرِهِ] أفادنا المُفَسِّر رحمه الله بهذا التقدير أنَّ الآيَةَ يُبَيِّنُ الله فيها أنه لا يستوي هذا وهذا، هل يستوي من هو قانتٌ آناءَ اللَّيل ساجدًا وقائمًا كَمَنْ هو عاصٍ بالكُفْرِ وغيره؟

الجواب: لا، وهذا من بلاغَةِ القرآن؛ فالقرآنُ فيه أشياءُ كثيرةٌ تُحذَفُ لدَلالَةِ المذكور على المحذوفِ، وهذا من البلاغة؛ لأنَّه إذا حُذِفَ الشَّيْءُ استفاد المخاطَبُ فائدتينِ:

الفائِدَة الأولى: اختصارُ الكلام، وهذا واضِحٌ.

الفائِدَة الثانية: قوَّةُ الانتباه؛ لأنَّ الآية إذا كان فيها شيءٌ مَحْذوف، فإن الذِّهْنَ يتطَلَّعُ إلى هذا الشَّيْء المحْذوفِ، فتَجِدُ الإنسانَ يَتَوَقَّف ليُفَكِّر ويتأمَّل: ما الذي حُذِفَ وما تقديره؟

لكن لو جاء الكلام مُرْسَلًا هكذا لم يحصل له هذا التَّوَقُّف وهذا التَّفكير، فأنت الآن لو قَرَأْتَ الآية الكريمة: {أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ} [الزمر: ٩] لَوَجَدْتَ نفسك متشَوِّقًا إلى شيء آخر، فالكلام ما تَمَّ، ولا بدَّ أنَّ هناك شيئًا آخَرَ، وحينئذٍ يشتَدُّ انتباهُكَ، وتزدادُ

=

=

تـأمُّلًا في المعنـى؛ ولأنَّ هـذا المحـذوفَ لا بـدَّ منـه، فالإنـسانُ يتطلَّـع: مـا هـذا المحذوفُ؟ فالكلامُ الآن ناقص.

بمعنى أنَّ الكلام يحتاجُ إلى شيء، فيتطلَّع الإنسان إلى مَعْرِفَة هذا الشَّيْء، وحينئذٍ يزدادُ في التَّدَبُّر، فهذا من بلاغة القرآن؛ أعني: يَحْذِفُ الله عز وجل أحيانًا أشياءَ يَحْتاجُ المخاطَبُ إليها؛ من أجل هاتين الفائدتين.

قال المُفَسِّر رحمه الله: [وفي قراءة: أَمْ مَنْ] من اصطلاح المُفَسِّر رحمه الله أنه إذا قال: [في قراءَةٍ] أو قال: [بِفَتْحِ كذا وضَمِّ كذا] أو قال: [بالتاء والياء]، فإن القراءة سَبْعِيَّة، وأحيانًا يُعَبِّر فيقول: [وقُرِئَ] فالقراءة شاذَّة غيرُ سَبْعِيَّة.

فإذا أتى بقراءتينِ مُتَساوِيَتَيْنِ مثلًا يقول: [في قراءةٍ] أو: بالضم والفتح أو بالياء والتاء، وما أشبه ذلك من القراءات، فالقراءة سبعية، أما إذا قال: [وقُرِئَ] بصيغة المبني للمَجْهول فالقراءة شاذَّة.

بناءً على هذه القاعدة: تكون القراءة (أَمْ مَنْ) سبعية؛ لأنَّه قال: [وفي قراءةٍ: (أَمْ مَنْ) فأَمْ بمعنى بل والهمزة] قوله: [بمعنى بل والهمزة] أي بَلْ أَمَنْ هو قانتٌ آناء اللَّيل، فتكون للإضراب، والإضرابُ هنا انتقالي.

والفرق بين الإضراب الانتقالي والإضرابِ الإبطاليِّ: أنَّه في الإضرابِ الإبطالي يكون الأَوَّل مُلْغًى، والعمدة على الثاني.

وأمَّا في الانتقالي: فالأَوَّل باقٍ على ما هو عليه، والثاني استئنافيٌّ، لا علاقة له بالأول. وقوله تعالى: {قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ}: {قُلْ} أي يا محمد، أو قل يا من يَصِحُّ منه الخطاب: هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون؛ استفهامٌ بمعنى النفي {قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ} الجواب: لا، لا يستوي الذين يَعْلَمونَ والذين لا يَعْلَمون، وهذا عامٌّ في كُلِّ عِلْم؛ فلا يستوي العالِم والجاهِلُ، حتى في علم النِّجَارة والحِدَادة والكيمياء وغيرها، لا

=

=
يستوي الذي يعلم والذي لا يعلم، لكن هذا لا يقتضي أن يكون العالِمُ مَمْدُوحًا؛ لأنَّ من العُلُوم ما جَهْلُهُ خَيْرٌ مِنْ عِلْمِهِ، فإذا كان العلم مذمومًا وقلنا: لا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون. صار غيرُ العالِم أَفْضَلَ، وإذا كان العِلْمُ ممدوحًا وقلنا: {قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ} صار العالِمُ أفضَلَ.

وإذا جاءت هذه الجُمْلة في علم الشَّريعَةِ فالعالِم أفضل، وفي علم النَّحْو العالِم أفضل؛ أما في علم الكلام فالجاهِلُ أفضل!

كما قال بعض السلف: "الجَهْلُ بالكَلَامِ عِلْمٌ" لأنَّ عِلْمَ الكلام أدى بأصحابه إلى مهالِكَ؛ حتى إن فطاحِلَ عُلَمائِهم يتمَنَّون وهم في سياقِ الموت أنَّهُم ماتوا على دينِ العجائزِ، ودِينُ العجائزِ أَسْلَمُ، وإن كان جَهْلًا ولكنه أسلم من علمٍ يؤدِّي بهم - والله أعلم - إلى الشَّكِّ والحَيْرة.

فقوله: {قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ} هذه من الآيات القليلة اللَّفْظِ الكثيرةِ المعنى؛ لأنَّه يمكن أن تُطَبِّقَها على كلِّ عِلْم، لكن هل هذا العلم مَحْمودٌ أو مذموم؛ فعلى حَسَبِ الحال؛ أي لا يستويانِ كما لا يستوي العالم والجاهل.

وفي حاشية الجمل: "قوله: بتخفيف الميم؛ أي: فالهمزة للاستفهام الإنكاري، كما سيشير له بقوله: أي لا يستويان، وما: اسم موصول بمعنى الذي، مبتدأٌ في محلِّ رفعٍ، خبره محذوف قدَّرَهُ بقوله: كمن هو عاصٍ، وقوله: {هُوَ قَانِتٌ} جُمْلَة اسْمِيَّة صلة الموصول، وقوله: {سَاجِدًا وَقَائِمًا} حالان من قانت، وقوله: {يَحْذَرُ الْآخِرَةَ} حالٌ أخرى متداخِلَة أو مترادِفَة، أو جملة استئنافِيَّة معترضة.

وقوله: [بمعنى بل]؛ أي: التي للإضراب الانتقاليِّ، والهمزة؛ أي: التي للاستفهام الإنكاريِّ، وعلى هذه القراءة تُرْسَمُ الميم في النون كرَسْمِها على قراءة التخفيف، وهذا اتِّباعًا لخطِّ مُصْحَفِ الإمام كما يؤخذ من الجَزَرِيَّة وشَرْحِها لشيخ الإسلام،
=

=

وهذا بالنَّظَرِ لرَسْمِ المصحف، وأما في غيره فتُرْسَمُ ميمًا مفصولةً من ميم (مَنْ) كما في عبارة الشَّارِحِ، و (من) على هذه القراءة مُبتدأٌ أيضًا، والخبر مُقَدَّرٌ كما تقدَّمَ في الإعراب بِعَيْنِه على القراءتين لم يختلف، وقوله: لا يستويان. أي: القانِتُ والعاصي، فهذا تفسيرٌ للنَّفْي المستفاد من همزة الإنكارِ في قوله: {أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ} سواء مُصَرَّح بها على القراءة بها والتي في ضِمْنِ أم على الثانية، وقوله: كما لا يستوي العالم والجاهل تفسيرٌ لقوله: {هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ} إلى آخره، فالاستفهام فيه أيضًا إنكاري". انتهى.

وعبارة السَّمينِ: "قوله: {أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ} قرأ الحَرميَّان: نافعٌ وابنُ كثير بتخفيفِ الميم، والباقون بتشديدها.

فأمَّا الأُولى ففيها وجهان:

أحدهما: أنَّها همزةُ الاستفهامِ دَخَلَتْ على (مَنْ) بمعنى الذي، والاستفهامُ للتقريرِ، ومقابِلُه محذوفٌ، تقديرُه: أمَنْ هو قانتٌ كمَنْ جعل لله أندادًا، أو أَمَنْ هو قانِتٌ كغيرِه، أو التقدير: أهذا القانِتُ خيرٌ أم الكافرُ المخاطَبُ بقوله: {قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا} وَيدُلُّ عليه: {قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ} فحَذَفَ خَبرَ المبتدأِ أو ما يعادل المُسْتَفْهَم عنه، والتقدير أنَّ الأَوَّلانِ أَوْلَى لِقِلَّةِ الحَذْفِ.

والثاني: أنْ تكونَ الهَمْزَةُ للنِّداء، و (مَنْ) منادى، ويكون المنادى هو النَّبِيَّ ﷺ، وهو المأمور بقوله: {قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ} كأنه قيل: يا مَنْ هو قانتٌ، قل كَيْتَ وكَيْتَ.

وأمَّا القراءة الثانية فهي (أم) داخلةً على (مَنْ) الموصولة أيضًا فأُدْغِمَتِ الميمُ في الميم، وفي (أم) حينئذٍ قولان:

أحدهما: أنَّها متصلةٌ، ومعادِلُها محذوفٌ، تقديرُه: آلكافِرُ خيرٌ أمِ الذي هو قانِتٌ.

=

والثاني: أنَّها منقطعةٌ فتُقدَّرُ بـ بل والهمزةِ؛ أي: بل أَمَنْ هو قانِتٌ كغيرِه أو كالكافِرِ المقولِ له: {تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ} ". انتهى.

فتبَيَّن لنا أن قوله: (لا يستويان) أي: القانت والكافر كما لا يستوي العالِم والجاهل، فيكون قوله: (لا يستويان) ليس عائدًا على قوله: {قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ} بل عائدٌ على ما سبقه، وهو {أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا} كمن هو عاصٍ لا يستويان، كما لا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون.

قوله تعالى: {آنَاءَ اللَّيْلِ} يعني ساعاتِ اللَّيلِ لأنَّه أحيانًا يُطْلَبُ من الإنسان أن يقومَ كُلَّ اللَّيل كما في عَشْرِ رمضان الأخيرة، فإن السُّنَّة أن يُحْيِيَ اللَّيل كلَّه، فلو قال: (في) لتَعَيَّنَ أن يكون هناك متَّسَعٌ، فإذا قال: {آنَاءَ اللَّيْلِ} شَمِلَ هذا وهذا.

فإن قال قائل: أما نقول: إنَّه من باب الاستعدادِ للعبادَةِ، كما لو نام بنِيَّةِ قيامِ اللَّيل، يكون داخلًا فيه؟

فالجواب: ربما يكون، لكنْ في بعض الأحيان قد يعمل أعمالًا لا يَسْتَعِدُّ بها للعبادة، ولهذا ليس من المَشْروعِ أن يقوم الإنسانُ اللَّيلَ كلَّه في كلِّ أحيانه، لكن أحيانًا.

ثم قال الله عز وجل: {إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ} قوله: {إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ} إنما: أداة حصرٍ، والحَصْر هو إثبات الحُكْمِ في المَحْصور فيه ونَفْيُه عما سواه، فإذا قيل: إنَّما القائِمُ زيدٌ، فهو كقولنا: لا قائِمَ إلا زيدٌ.

قوله: {إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ} يقول المُفَسِّر رحمه الله: [يَتَّعِظُ].

قوله: {أُولُو الْأَلْبَابِ} أصحابُ العقول، أصحاب تفسير لـ {أُولُو}، والعقول تفسير للألباب؛ جمع لُبٍّ: وهو العقل؛ لأنَّ الإنسانَ بلا عقل قُشُورٌ، ولا يكون إنسانًا حقيقةً إلا بالعَقْل، وعلى هذا فالكُفَّار بجميع أنواعهم قُشُورٌ لا خير فيهم؛

قُلْ يَاعِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (١٠).

{قُلْ يَا عِبَاد الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبّكُمْ} أَيْ عَذَابه بِأَنْ تُطِيعُوهُ {لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا} بِالطَّاعَةِ {حَسَنَة} هِيَ الْجَنَّة {وَأَرْض الله وَاسِعَة} فَهَاجِرُوا إلَيْهَا مِنْ بَيْن الْكُفَّار وَمُشَاهَدَة الْمُنْكَرَات {إنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ} عَلَى الطَّاعَة وَمَا يُبْتَلَوْنَ بِهِ {أَجْرهمْ بِغَيْرِ حِسَاب} بِغَيْرِ مِكْيَال وَلَا مِيزَان[1].

=

لأَنَّهُم ليسوا بعُقَلَاء، كما قال الله تعالى: {صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ} [البقرة: ١٧١].

والعقل الذي يُحْمَدُ فاعله هو عَقْلُ الرُّشْد - أي الذي يَحْجِزُك عما يضُرُّك -، أما عَقْل الإدراك فإنه يستوي فيه المَحْمُود والمَذْموم، عقل الإدراك الذي يترتب عليه التَّكليف، وهو الذي يأتي في كلام الفقهاء؛ يقولون: (مِنْ شروط العبادة: العَقْل) يعني عَقْل الإدراك، أما عَقْلُ الرُّشْد الذي يَحْجِز صاحبه عما يضُرُّه، فهذا لا علاقة بالتَّكليف به، بل إنما يقال: مَنْ حَجَزَهُ عَقْلُهُ عَمَّا يَضُرُّه فهو العاقِلُ حقًّا، ومَنْ لا فَلَا.

قوله: {إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ} أي: لا يتذَكَّرُ إلا هؤلاء.

(١)قوله تعالى: {قُلْ يَاعِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ} [الزمّر: ١٠].

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: {قل} يا محمد لعبادي الذين آمنوا: {ياعبادي الذين آمنوا} بالله، وصدقوا رسوله، {اتقوا ربكم} بطاعته واجتناب معاصيه".

=

قوله تعالى: {لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ} [الزمّر: ١٠]، أي:"للذين أحسنوا في هذه الدينا بعبادة ربهم وطاعته حسنة في الآخرة، وهي الجنة، وحسنة في الدنيا من صحة ورزق ونصر وغير ذلك".

وفي قوله تعالى: {لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ} [الزمّر: ١٠]، وجهان:

أحدهما: أن «الحسنة»: العافية والصحة. قاله السدي.

الثاني: أنها: الجنة. الحسن، وحكاه الطبري.

قال الحسن:"تكون لهم حسنتهم في الآخرة الجنة".

قال ابن كثير:"أي: لمن أحسن العمل في هذه الدنيا حسنة في دنياهم وأخراهم".

قوله تعالى: {وَأَرْضُ اللهِ وَاسِعَةٌ} [الزمّر: ١٠]، أي:"وأرض الله واسعة، فهاجِروا فيها إلى حيث تعبدون ربكم، وتتمكنون من إقامة دينكم".

وفي قوله تعالى: {وَأَرْضُ اللهِ وَاسِعَةٌ} [الزمّر: ١٠]، قولان:

أحدهما: أنه يراد بها أرض الجنة. حكاه النحاس.

الثاني: أن معناه: أن أرض الله واسعة فهاجروا فيها ولا تقيموا مع من يعمل بالمعاصي. وهذا معنى قول مجاهد.

قال مجاهد:"فهاجروا واعتزلوا الأوثان".

قال الطبري: يقول:"وأرض الله فسيحة واسعة، فهاجروا من أرض الشرك إلى دار الإسلام".

قال الزجاج:"ذكر سعة الأرض -ههنا- لِمَن كان يعبد الأصنام. وَأَمَرنا بالمهاجرة عن البَلَدِ الذي يُكَرَهُ فيه على عبادتها، كما قال: {أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا} [النساء: ٩٧] ".

قوله تعالى: {إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ} [الزمّر: ١٠]، أي:"إنما يُعطَى الصابرون ثوابهم في الآخرة بغير حدّ ولا عدّ ولا مقدار".

=

قال الطبري: يقول:"إنما يعطي الله أهل الصبر على ما لقوا فيه في الدنيا أجرهم في الآخرة بغير حساب، يقول: ثوابهم بغير حساب".

قال مالك بن أنس في قوله: {إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب}، قال: "هو الصبر على فجائع الدنيا وأحزانها".

عن مسروق، قال: «يود أهل البلاء يوم القيامة أن أجسادهم كانت في الدنيا تقرض بالمقاريض».

عن جابر، قال: قال رسول الله ﷺ: "يود أهل العافية يوم القيامة أن جلودهم كانت قرضت بالمقاريض مما يرون من ثواب أهل البلاء".

وفي قوله تعالى: {إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ} [الزمّر: ١٠]، وجوه من التفسير:

أحدها: يعني: بغير مَنٍّ عليهم ولا متابعة، حكاه الماوردي عن السدي.

الثاني: لا يحسب لهم ثواب عملهم فقط ولكن يزدادون على ذلك، قاله ابن جريج.

قال ابن جريج:"بلغني أنه لا يحسب عليهم ثواب عملهم ولكن يزادون على ذلك".

الثالث: بغير تقدير، فلا يعطونه مقدرًا لكن جزافًا. وهذا معنى قول قتادة.

قال قتادة:"لا والله ما هُناكم مكيال ولا ميزان".

قال القرطبي:"ولا شك أن كل من سلم فيما أصابه، وترك ما نهي عنه، فلا مقدار لأجرهم".

الرابع: واسعًا بغير تضييق. حكاه الماوردي. ومنه قول الراجز:

يا جمل أُسْقِيْتَ بلا حسابه * سُقْيًا مَلِيكِ حَسَنِ الرِّبَابَه * قتلتني بالدل والخلابة

=

=

وحكي عن علي -كرم الله وجهه- قال: "كل أجر يكال كيلًا ويوزن وزنًا إلا أجر الصابرين فإنه يحثى حثوًا".

الخامس: بغير متابعة ولا مطالبة كما تقع المطالبة بنعم الدنيا. حكاه النحاس.

السادس: معناه: الجنة. رواه أسباط عن السدي.

عن ابن عمر قال: "لما نزلت مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فقال رسول الله ﷺ: رب زد أمتي، فنزلت: {مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً} [البقرة: ٢٤٥]، قال: رب زد أمتي، فنزل: {إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ} [الزمر: ١٠] ".

قال العثيمين: قوله تعالى: {قُلْ يَاعِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ} قوله: {قُلْ} الخطابُ للرَّسول ﷺ، أو لِكُلِّ من يصِحُّ توجيه الخطاب إليه؛ فعلى الأول يكون التَّقدير: قل يا محمَّدُ، وعلى الثاني يكون التقدير: قل أيها الإنسانُ.

وقوله: {يَاعِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ}: (عبادِ) هنا فيها شيء محذوفٌ، وهو الياء التي دلت عليها الكَسْرة في قوله: {يَاعِبَادِ} وحُذِفَتِ الياء تخفيفًا.

قوله: {الَّذِينَ} عَطْف بيان أو وَصْف.

قوله: {الَّذِينَ آمَنُوا} الإيمان في اللغة: التَّصديق أو الإقرار؛ بل نقول: الإقرارُ؛ لأنَّه هو المطابق للإيمان في التَّعَدِّي والعمل، يقال: أَقَرَّ بكذا وآمَنَ بكذا، والتَّصْديق لا يطابِقُه تمامًا، وعلى هذا فنقول: الإيمانُ هو الإقرار، لكنه ليس مجرَّد الإقرار كما قاله بعض طوائف المُبْتَدِعَة - مُرْجِئَة الجَهْمِيَّة - بل نقول: هو الإقرار المُسْتَلْزِم للقَبُول والإذعان، هذا الإيمانُ، إذا لم يستلزم للقَبُول والإذعان فإنه ليس بإيمانٍ.

قوله: {اتَّقُوا رَبَّكُمْ} قال المُفَسِّر رحمه الله: [أي عذابه]، وفي هذا نَظَرٌ، بل المراد: تقوى الله عز وجل، والله سبحانه وتعالى يضيف التقوى أحيانًا إلى نفسه، وأحيانًا إلى النَّار، وأحيانًا إلى يوم الجزاء؛ فقد قال الله تبارك وتعالى: {وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي

=

=

أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ} [آل عمران: ١٣١] بعد أن قال: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٣٠) وَاتَّقُوا النَّارَ} [آل عمران: ١٣٠، ١٣١]؛ فلو فَسَّرْتَ تقوى الله بتقوى عذابه لكان في الآية تكرار.

فالصواب: أنَّ الله يُضيف التقوى أحيانًا إلى نفسه، وأحيانًا إلى النَّار، وأحيانًا إلى يوم الجزاء، كما في قوله: {وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ} [البقرة: ٢٨١].

والصَّحيح: أنَّها تُفَسَّرُ بما تُضاف إليه؛ فقوله: {اتَّقُوا اللهَ} أي: اتَّقوا الله نَفْسَه لِعَظَمَةِ وكمالِ سُلْطانِهِ عز وجل.

قال المُفَسِّر رحمه الله: [{اتَّقُوا اللهَ} أي: عذابه، بأن تطيعوه]، نقول: الصَّحيحُ: أي الله نفسه. وقوله: [بأن تطيعوه] هذا تفسيرٌ للتقوى، وعلى هذا نقول: التقوى: طاعة الله بفِعْل أوامِره واجتنابِ نَواهيه؛ لأنَّ أَصْلَ التقوى مأخوذٌ مِنَ الوِقَايَة، ولهذا يقولون: إنَّ أصلها (وَقْوَى) من الوِقايَة.

والوقاية هي اتخاذُ ما يَقي الإنسانَ، ولا يقي الإنسانَ من عذابِ الله إلا طاعَةُ الله، ولهذا نقول: إنَّ أَجْمَعَ ما قيل في التقوى أنَّها طاعةُ الله؛ كما قال المُفَسِّر رحمه الله؛ أو اتخاذُ وقاية من عذابه بفِعْل أوامره واجتنابِ نَواهيه.

ثم قال تعالى: {لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ}: {لِلَّذِينَ} خبر مُقَدَّم و {حَسَنَةٌ} مبتدأ مؤخَّر {لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا} الإحسانُ يكون في عبادة الله، ويكون إلى عبادِ الله، أما الإحسانُ في عبادة الله فلا أَجْمَع ولا أصدق من تفسيرِ النَّبي ﷺ له حين سأله جبريلُ عن الإيمان؛ فقال: "أَنْ تُؤْمِنَ بالله"؛ وقال ﷺ حين سأله عن الإحسان، فقال: "أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ" فإذا عبد الإنسانُ ربَّه كأنه يراه فسوف يعبُدُه حقَّ العبادة؛ لأنَّه يَعبُد اللهَ كأنَّه يرى الله، وهذا تكون عبادَتُه مبنِيَّةً على كمال اليَقينِ، وإذا كانت كذلك فلا بدَّ أن تكون موافِقَةً للأمر، ولا بد أن تكون خالِصَة.

=

=

إذن: الإحسانُ تمام الإخلاص، وتمام المُتابَعَة؛ فتمامُ الإخلاصِ وتمام المُتابَعَة؛ لقوله: "أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ" وعبادة الله على هذا الوَجْه هي مَبْنِيَّة على تمام اليقين، وهذه المرتبة أعلى من المرتبة الثانية: "فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ" يعني: فإن لم تَعْبُدْه على هذا الوجه فاعْلَمْ أنه يراك.

ويقال: إنَّ الأوَّلَ إحسانُ الطَّلَب، والثاني إحسانٌ في الهَرَب؛ (إحسانٌ في الهَرَب) يعني: العابد طلبًا أكْمَل حالًا من العابِدِ هربًا؛ وهذا يلزم منه أن تكون العبادة خالصةً لله متابَعًا فيها شريعَةُ الله.

أما الإحسان إلى عباد الله فيكون بالمالِ والبَدَنِ وهو كثير؛ فقد تُحْسِن إلى عباد الله بالمالِ؛ كالصَّدْقات والهدايا والهِباتِ، وقد تُحْسِن إلى عباد الله بالبَدَنِ كالمساعدة وما أشبه ذلك، وتُعينُ الرَّجُلَ في دابَّتِه فتحْمِلُه عليها أو تَرْفَعُ عليها متاعه، وتعين عباد الله بالجاهِ والشَّفاعَة عند الحاجة إلى ذلك.

المهم: أنَّ الإحسانَ إلى عباد الله مُتنوِّعٌ كثيرٌ، وقد فسَّرَه بعضهم بأنه كَفُّ الأذى وبَذْلُ النَّدى وطلاقة الوجه؛ فكفُّ الأذى عن النَّاس؛ لأنَّ مَن لم يَكُفَّ أذاه فإنه لم يُحْسِنْ، والثاني: بَذْل الندى. أي: المَعْروف، والثالث: طلاقَة الوجه، بأن تَلقى النَّاس بوجهٍ مُنْطَلِقٍ مُنْشَرِحٍ لا بوجهٍ مُقَطَّب مُعَبَّس.

فالإحسان إذن: إحسانٌ في عبادة الله، وإحسانٌ إلى عبادِ الله؛ ولهذا قال تعالى: {لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا} أي: في عبادة الله، وإلى عباد الله.

وقوله: {فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ} هل نجعل {فِي هَذِهِ الدُّنْيَا} مُتَعَلِّقًا بـ (أَحْسن)؛ أو نقول: هو خبرٌ مُقَدَّم و {حَسَنَةٌ} مبتدأ مؤخَّرٌ، والجملة من المبتدأ والخبر خَبَرٌ {لِلَّذِينَ}؟

الجواب: ننظر: إذا قلنا: {لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ} في هذه الدنيا متعلِّقة بـ (أحسن)، و {حَسَنَةٌ} مبتدأٌ خَبَرُه {لِلَّذِينَ} هذا وجه.

=

=

الوجه الثاني: {لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا} وينتهي الكلام، ثم: {فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ} مبتدأٌ وخَبَرٌ.

والأول أَحْسَنُ؛ فإنَّ إحسانَهُم في الدنيا وجزاؤهم حَسَنَةٌ، هذا ما مشى عليه المُفَسِّر رحمه الله؛ يقول: [{لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا} بالطَّاعَةِ].

إذن: {فِي هَذِهِ الدُّنْيَا} مُتَعَلِّقَة بـ {أَحْسَنُوا} وقول المُفَسِّر رحمه الله: [بالطَّاعَة] فيه قصور؛ وجهه: أَنَّا قُلْنا إنَّ الإحسانَ يَشْمَلُ الإحسان في عبادة الله، والإحسان إلى عباد الله، وعلى كلام المُفَسِّر رحمه الله: في العبادة فقط، ولكنَّ الصَّحيح ما ذكرنا.

قوله: {حَسَنَةٌ} قال المُفَسِّر رحمه الله: [هي الجَنَّة]، ولعله اعتمد في هذه التفسير على قوله تعالى: {لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ} [يونس: ٢٦] فإن الحُسنى هي الجَنَّة، والزيادة: النَّظَرُ إلى وجه الله، ولكن: هل {حَسَنَةٌ} هنا تُطابِقُ {الْحُسْنَى} هناك؟

لا، فالحُسنى اسم تفضيل، وهنا {حَسَنَةٌ} نكِرَة لا تدل على التَّفْضيل، فعندي أن في تَفْسيرِ هذه الآية بما تُفسَّرَ به تلك الآيةُ نظرًا، بل نقول: لهم حَسَنَةٌ، وهذا مُطْلَقٌ، فيُحْتَمَل أنَّ المعنى: للذين أحسنوا في هذه الدنيا حَسَنَةٌ أي: جزاءٌ على إحسانِهِم؛ أي: لكلِّ إحسانٍ يُحْسِنونه حسَنَةً؛ لأنَّ الله تعالى لم يُعَرِّف الكلمة الحسَنَة حتى نقول: إنَّها دَخَلَت عليها (أل) التي للعَهْد، وأيضًا الجَنَّة وصفها الله باسم التفضيل {الْحُسْنَى} التي ليس شيء أحْسَن منها بخلاف {حَسَنَةٌ} وهذه تشبه قول الله تعالى: {رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً} [البقرة: ٢٠١] لأنَّها مطابقة لها.

قوله: {لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللهِ وَاسِعَةٌ}: {وَأَرْضُ اللهِ وَاسِعَةٌ} ما المناسبة بين قوله: {وَأَرْضُ اللهِ وَاسِعَةٌ} وبين قوله: {لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ}؟ المناسبة: أنَّ مِن جُمْلة الإحسانِ في الدنيا الهِجْرَة لا شكَّ؛

=

=

لأنَّ الهجرة من أكبر ما يدُلُّ على صِدْق العامل؛ إذ إن المهاجِرَ يَدَعُ أَهْلَه ووطنه وعَشيرَته وماله لله.

وقوله تعالى: {وَأَرْضُ اللهِ وَاسِعَةٌ} قال المُفَسِّر رحمه الله: [فَهَاجِرُوا إِلَيْهَا مِنْ بَيْنِ الْكُفَّار وَمُشَاهَدَة المُنْكَرَات] وصدق الله عز وجل: {وَأَرْضُ اللهِ وَاسِعَةٌ} فإذا ضاقت بك الأَرْضُ يومًا فثَمَّ السَّعَةُ اخرج تَسْلَمْ في دِينك وعِرْضِك، ولا تَشَحَّ بِمَالِكَ ودارِكَ وأَهْلِكَ وعَشيرتِكَ؛ فإن الدِّينَ أغلى من ذلك كُلِّه.

وقوله: {وَأَرْضُ اللهِ وَاسِعَةٌ} والدَّارُ التي كانوا فيها ضَيِقة، نعم، هي ضيِّقَة لكنَّ ضِيقَها ضيقٌ معنويٌّ؛ لأنَّ السَّعةَ والضيق في الحقيقَةِ إنما يكون في القَلْب، فكم من إنسان في بيتٍ ضَيِّق، حُجَرُه بِقَدْر فِراشِه، وتجده مسرورًا مُنْشَرِح الصَّدْر، وكم من إنسان في قُصُورٍ مُشَيَّدة ولكنه في ضيق وغَمٍّ؛ فسعة الأرض في الحقيقة بالنِّسْبة للمهاجر واضِحَة جدًّا؛ لأنَّ بقاءه يشاهِدُ المُنْكَرَات ويشاهِدُ ما يؤذيه وما يُؤْلِمُه لا شكَّ أن هذا ضيقٌ.

ثم قال تعالى: {إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ} قوله: {إِنَّمَا يُوَفَّى} أي: يُعطَى، و {إِنَّمَا} أداة حصر، والمعنى: ما يُوَفَّى الصَّابرون أجْرَهُم إلا بغير حساب؛ أي: أجرًا كثيرًا أكثرَ من الأَعْمال.

ولماذا قال: {الصَّابِرُونَ} ولم يقل: الصَّابرين؛ والمعروف أنَّ المفعول به يكون منصوبًا فيقال: الصابرين؟

الجواب: لأنَّها نائِبُ فاعل، ونائب الفاعل مفعولٌ به في المعنى، فاعلٌ في اللَّفْظ، يعني أنه يُعْرَبُ إعرابَ الفاعل، ولكنه في المعنى مفعولٌ به؛ قال ابن مالك:

يَنُوبُ مَفْعُولٌ بِهِ عَنْ فَاعِلِ ... فِيمَا لَهُ كَنِيلَ خَيْرُ نَائِلِ

وقوله: {الصَّابِرُونَ} قال المُفَسِّر رحمه الله: [عَلَى الطَّاعَة وَمَا يُبْتَلَوْنَ بِهِ]، فذكر نوعين من أنواع الصَّبر وأضاف عليه واحدًا، وهو: الصَّبْر عن معصية الله، إلَّا أنْ

=

=

يُقال: إنَّ الطاعة بالمعنى الأَعَمِّ تَشْمَل امتثال الأمر واجتنابَ النهي، فيكون قد وفَّى المُفَسِّر رحمه الله أنواعَ الصَّبْر.

أنواع الصَّبْر ثلاثة:

١- صبرٌ على طاعة الله.

٢- وصبرٌ عن مَعْصِيَة الله.

٣- وصَبْرٌ على أقدارِ الله المُؤْلِمَة.

فأعلاها: الصَّبْرُ على طاعة الله، ثم الصَّبْرُ عن معصية الله، ثم الصَّبْر على أقدار الله، هذا من حيث نوعُ الصَّبْر نفسه، أما من حيث الصَّابر، فإنَّ الإنسان أحيانًا يعاني من الصَّبْر عن المعصية أكْثَرَ مما يعاني على الصَّبْر على الطاعة، وكذلك الصَّبْر على البلاءِ قد يعاني منه أكْثَرَ مما يعاني من الصَّبْر على المَعْصِيَة وعلى الطَّاعَة.

لكن نقول من حيث نوعُ الصَّبْر بقطع النظر عن الصَّابِر؛ أفضله: الصَّبْرُ على الطاعة، ثم على المعصية، ثم على الأقدار؛ لأنَّ الصَّبْر على الطَّاعة يحتاج إلى جُهْدٍ نَفْسِيٍّ وجهدٍ بدني، بفعل الطاعة نفْسِها، فمُعالَجَة النَّفْس عندما يؤَذِّن الفَجْر وأنت في الفِراش تبدأ تتمطى وتَسْهو، وتقول: ما زِلْنا مُبَكِّرين، حتى تَفُوتَ الصلاة؛ فهذا يحتاج إلى جُهد، عالِجْ نفسك وقُمْ، أما الصَّبْر على المعصية فيحتاج إلى جُهْدٍ نَفْسِيٍّ فقط؛ لأنَّه كَفٌّ، فتَرْكُ المَعْصِيَة ليس عليك أي تَعَبٍ، لكنَّ النَّفْسَ تَتْعَبُ، إذا كانت المَعْصِيَة مما تدعو إليه النَّفْس وكَفَفْتَ عنها تَعِبَتِ النَّفْسُ لا شك.

وأما الصَّبْر على أقدار الله المؤلِمَة فهو أدناها؛ لأنَّ الأَمْرَ ليس إليك، فالأَمْرُ تَمَّ، فهو كما قال بعضُ السَّلَف: إما أن تَصْبِرَ صَبْرَ الكِرَام، وإمَّا أن تَسْلُوَ سُلُوَّ البهائم. فهو ليس منك، فأيُّ عمل لا بد أن يُصيبَكَ أصابَكَ؛ ويقولون: إنَّ يُوسُفَ ﷺ؛ إنه ابْتُلِي بأنواع الصَّبْرِ الثلاثة:

=

=

أليس هو قد دعا إلى الله وهو في السِّجْن؛ فقال: {أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ} [يوسف: ٣٩] هذا - لا شك - صبْرٌ، إنسانٌ مَسْجونٌ ويدعو النَّاس إلى التَّوحيد!

والصَّبْرُ عن المعصية امتناعُهُ عن موافقة امرأةِ العَزيزِ حين راوَدَتْه عن نفسها.

والصَّبْر على أقدار الله المُؤْلِمة؛ ما حصل من إِخْوَتِه.

وقوله: {إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ}: {أَجْرَهُمْ} أي: ثوابَهم، والله عَزَّ وَجَلَّ بِكَرَمِه سَمَّى الثَّواب: أجرًا من باب اطمئنان العامِلِ إلى استيفائِهِ؛ لأنَّ الأَجْرَ مقابِلَ عملٍ لا بد أن يُسَلَّمَ، كأنَّ العمل والجزاء معاوَضَة وعَقْد بين الله وبين العابِدِ؛ أنَّ الله يعطيه الثَّمَن؛ الأَجْر مع أنَّ الله سبحانه وتعالى هو المتفَضِّل أولًا وآخرًا؛ أولًا بالتَّوفيق للعَمَل، ولولا أنَّ الله أعانك وسَدَّدَك ما قَدَرْتَ، ثم المُتَفَضِّل ثانيًا بالأَجْر.

وقوله: {بِغَيْرِ حِسَابٍ} يقول رحمه الله: [بِغَيْرِ مكيالٍ ولا مِيزانٍ] يعني: الأَجْرُ الذي يعطيه الله عز وجل عن العَمَل ليس على سبيل التَّدْقيق والمعاوَضَة التي تكون بين العباد؛ فالمعاوَضةُ بين العباد عَدْل، يعني: ما يعطيكَ أَكْثَرَ مما تستحِقُّ، وأما ثوابُ الله عز وجل على الصَّبْر فهو أَكْثَرُ، بدون حساب، فالحَسَنَة بعَشْرِ أمثالِها إلى سَبْعِ مئَةِ ضِعْفٍ إلى أضعاف كثيرة، والصَّبْرُ لا حساب له.

إذن: يتوقَّع الصابر بأن له جزاءً لا يدركه عَقْلُه من كَثْرَتِه؛ لأنَّ الله قال: {إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ} [الزمر: ١٠].

كما أنَّ الصَّبْر فيه فائِدَةٌ عظيمة للإنسان نفْسِه، وهو: ترويضُ النَّفْس على التَّحمُّل، كثيرٌ من النَّاس يريد أن تكونَ الأُمُورُ بِسُرْعة، يدعو الله عز وجل بكَشْفِ ضُرٍّ وتتأخَّر الإجابة، فيقول: لماذا؟ وييأَس، نقول: اصْبِر، وقد يَحْصُل للناس مصائِبُ

=

قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ (١١).

{قُلْ إِنِّي أُمِرت أَنْ أَعْبُدَ اللهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّين} مِنَ الشِّرْك(١).

=

عامَّة فتجده يريد السُّرْعة في انجلائها، فنقول: اصْبِر، وطِّنْ نَفْسَك على الصَّبْر، هذه تَرْبِيَة؛ أن تُوَطِّنَ نفسَك على الصَّبْر.

والصَّبْرُ مع انْتِظارِ الفَرَجِ يُعْتبَرُ من أعظم العبادات؛ لأَنَّك إذا كنت تَنْتَظِرُ الفرج فأنت تَنْتَظِرُ الفرج من الله عز وجل، وهذه عبادة، وقد قال النَّبي عليه الصلاة والسلام: "وَاعْلَمْ أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وَأَنَّ الْفَرَجَ مَعَ الْكَرْبِ"؛ فكلما اكْتَرَبَتِ الأمورُ فإن الفرج أَقْرَبُ إليك، "وَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا".

(١)قوله تعالى: {قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ} [الزمّر: ١١].

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل يا محمد لمشركي قومك: إن الله أمرني أن أعبده مفردا له الطاعة، دون كلّ ما تدعون من دونه من الآلهة والأنداد".

قال ابن كثير:"أي: إنما أمرت بإخلاص العبادة لله وحده لا شريك له".

قال ابن عطية:"أمر الله تعالى نبيه في هذه الآية بأن يصدع للكفار فيما أمر به من عبادة ربه".

قال أبو العالية:"أسس الدين على الإخلاص لله وحده لا شريك له".

وقال الجنيد: "الإخلاص سر بين الله تعالى وبين العبد، لا يعلمه ملك فيكتبه، ولا شيطان فيفسده ولا هوى يميله".

قال العثيمين: قوله تعالى: قوله: {إِنِّي أُمِرْتُ} أي: أمرني ربِّي، وهذه الصيغة تأتي بالبناء للمَجْهول؛ لأنَّ الفاعل معلومٌ، وهذا يُشْبِهُ حديث ابن عباس رضي الله عنهما أنَّ الرَّسول ﷺ قال: "أُمِرْتُ أَنْ أَسْجُدَ عَلَى سَبْعَةِ أَعْظُمٍ"؛ (أُمِرْتُ) لأنَّ الآمِرَ معلومٌ، وهو الله.

=

وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ (١٢).

=

فقوله: {قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ}، وجاءت بكلمة {أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ} للإشارة إلى مقامِ النَّبي ﷺ، وأنه عَبْدٌ يُؤْمَر ويُنْهَى، وليس له من حَقِّ الربوبِيَّة شَيءٌ.

وقوله: {أَنْ أَعْبُدَ اللهَ} أي: أتذَلَّل له، والعبادة تطلق على مَعْنيينِ:

المعنى الأول: التَّذَلُّل لله الذي هو فِعْل العابِدِ.

والمعنى الثاني: المُتَعَبَّد به، وهي العبادات على جميع أنواعها، وعلى هذا المعنى يكون تعريفُ شيخِ الإسلام ابن تَيْمِيَةَ العبادةَ في قوله: "العبادةُ اسْمٌ جامِعٌ لكلِّ ما يُحِبُّه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطِنَة والظَّاهِرَة" وقوله: {مُخْلِصًا} حالٌ من فاعل {أَعْبُدَ} أي حالَ كَوْني مُخْلِصًا لله من الشِّرْك، لأنَّ الإخلاص يعني التَّنْقِيَة من الشِّرك؛ لأنَّ العمل إذا شابه الشِّرْك أفسده وأبطله؛ قال الله تعالى في الحديث القُدُسِيِّ: "أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ".

وقوله: {مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ} قال رحمه الله: [مِنَ الشِّرْك]، والمراد بـ {الدِّينَ} هنا: العمل الذي يفعله الإنسان لِيُدَان به، وأما عَمَلٌ لا يُؤَمِّل أن يُدانَ به فهذا لا يُسَمَّى: (دِينًا) وإن كان عَمَلًا، لا بد أن يكون عامِلًا من أجل أن يُدانَ بهذا العمل.

يقول عز وجل: {مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ}، وتقدَّم كثيرًا أنَّ الدِّينَ يُطْلَق على العمل ويطلق على الجزاء، ففي قوله تعالى: {مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ} [الفاتحة: ٤]: أي الجزاء؛ وفي قوله: {لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ} [الكافرون: ٦]؛ أي: العمل.

{وَأُمِرْت لِأَنْ} أَيْ بِأَنْ {أَكُونَ أَوَّل الْمُسْلِمِينَ} من هذه الأمة(١).

(١)قوله تعالى: {وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ} [الزمّر: ١٢]، أي:"وأمرني بأن أكون أول من أسلم من أمتي، فخضع له بالتوحيد، وأخلص له العبادة، وبرئ مِن كل ما دونه من الآلهة".

قال الطبري:"يقول: وأمرني ربي جل ثناؤه بذلك، لأن أكون بفعل ذلك أوَّل من أسلم منكم، فخضع له بالتوحيد، وأخلص له العبادة، وبريء من كل ما دونه من الآلهة".

قال السمعاني:"أي: أول المسلمين من قريش".

قال الزمخشري:"أى: مقدمهم وسابقهم في الدنيا والآخرة. والمعنى: أنّ الإخلاص له السبقة في الدين، فمن أخلص كان سابقا".

قال ابن عطية:"معناه: وأمرت بهذا الذي ذكرت لكي أكون أول من أسلم من أهل عصري وزمني، فهذه نعمة من الله عليه وتنبيه منه".

قال العثيمين: قوله تعالى: {وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ} [الزمر: ١٢].

قال المُفَسِّر رحمه الله: [أي: بِأَنْ]، فجعل اللام بمعنى الباء؛ وذلك لأنَّ أَمَرَ إنما تتعدَّى بالباء ولا تتعدى باللام، فلهذا فسَّرَها المُفَسِّر رحمه الله بالباء، وهذا أحد المَسْلَكَيْنِ للنُّحاة فيما إذا تلا الفِعْلَ حرفٌ لا يتعدَّى به غالبًا فإنهم يجعلون هذا الحَرْف بمعنى الحَرْف الذي يتعدى به العامِلُ؛ أي: الفعل أو غير الفعل غالبًا؛ فمثلًا هنا: {وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ} يجعلون اللام بمعنى الباء؛ وفي قوله تبارك وتعالى: {عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللهِ} [الإنسان: ٦] يجعلون الباء بمعنى مِنْ؛ أي: يَشْرَبُ مِنْها.

والمسلك الثاني للنحاة: أنَّهُم يحوِّلون الفِعْل إلى فعلٍ مناسِبٍ للمُتَعَلِّق، ويُسَمُّون هذا: تَضْمِينًا؛ أي: إنَّ الفعل المذكورَ ضُمِّنَ معنى فِعْلٍ يتعدَّى بالحَرْف المذكور؛ =

=

فمثلًا: {يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللهِ} يقولون: المعنى: يَرْوَى بها، فضُمِّنَ الشُّرْبُ معنى الرِّيِّ.

ولا شك أن هذا يُعْطِي النَّصَّ معنًى أكْثَرَ؛ لأنَّه يُبْقِي الحرف على ما هو عليه، ويُعْطي الفعْلَ المذكور معنًى زائدًا على ما يَدُلُّ عليه لفظه، فيكون هذا المَسْلَك أولى، لكن أحيانًا يَصْعُب على طالب العلم - ولا سيما المبتدئ - أن يُقَدِّرَ الفِعْل المناسب الذي يكون مُضَمَّنًا للفِعْل المذكور، حينئذٍ يلجأ إلى الأسهل، وهو تحويل الحَرْف إلى حرف يناسب الفِعْل المذكور.

فهنا في قوله: {وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ} لا شكَّ أنه من السَّهْل أن أقول: إنَّ اللَّام بمعنى الباء، يعني أُمِرْتُ بأنْ أكونَ.

لكن لو أردنا أن نُضَمِّنَ أُمِرْتُ معنًى يناسبُ اللَّامَ؛ أُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ؛ فهذا يحتاج إلى تأمُّلٍ وتَفْكيرٍ في المعنى؛ لماذا قال: {وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ} ؟

فيمكن أن نُقَدِّرَ: أُمِرْتُ أن أَعْبُدَ الله لِأَنْ أكونَ أَوَّلَ المسلمين، فتكون اللام تعليلًا للفِعْلِ المَحْذوفِ، وهو أن أَعْبُدَ الله لأنْ أكون أَوَّلَ المسلمين؛ يعني: وُجِّهَ الأَمْرُ إليَّ أولًا لأنْ أكونَ أَوَّلَ المسلمين؛ أي: المنقادينَ لِأَمْر الله، وحينئذٍ نستفيد من هذا معنيين: معنى الأمْرِ، ومعنى العبادة التي حُذِفَت لِيَصِحَّ تَعْليقُ الحَرْفِ بها.

قال المُفَسِّر رحمه الله: [{وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ} من هذه الأُمَّة] وكلمة: {أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ} الإسلام يُطْلَق على الانقياد، لأنَّه مأخوذٌ من: أَسْلَمَ أَمْرَه إلى غيره، ومنه الاستسلامُ في الحرب؛ لأنَّ المُسْتَسْلِم ينقادُ للغالب الذي غَلَبَه، فالإسلام هو الانقيادُ ظاهرًا.

وبناءً على هذا: يكون المنافقون مُسْلِمينَ ظاهرًا، ولهذا يُطْلَق الإسلامُ على ضعيف الإيمان، كما قال تعالى: {قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا} [الحجرات: ١٤] وأحيانًا يُطْلَق الإسلام على الشَّريعَةِ كُلِّها فيشمل

=

=

الاستِسْلام ظاهرًا وباطنًا، وهو: الإيمان، ومن ذلك قوله تعالى: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا} [المائدة: ٣]؛ فليس المراد الاستسلامَ الظَّاهِرَ، وإنما المراد: الشَّرائعُ كُلُّها؛ شرائِعُ الإِسْلام كلِّها، {وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ} أي: شرائعَ الإسلامِ كلَّها دينًا.

يقول أهل العلم: الإسلامُ إذا قُرِنَ بالإيمان فُسِّرَ الإسلامُ بالأَعْمال الظاهرة، والإيمانُ بالأَعْمال الباطِنَة، قالوا: ومن ذلك: حديثُ جِبْريلَ لما سأَلَ النَّبي ﷺ عن الإسلام؛ قال: "أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ"، ولما سأله عن الإيمانِ، قال: "أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ؛ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ".

أَمَّا إذا أُفْرِدَ أَحَدُهُما فإنه يَشْمَل الآخَر؛ فالإسلام إذا ذُكِرَ وحده شَمِلَ جَميعَ الشَّرائع، ومنه: الإيمانُ، والإيمان إذا ذُكِرَ وَحْدَه شَمِلَ جَميعَ الشرائِع، ومنه: الإسلامُ.

ويقول المُفَسِّر رحمه الله هنا: [{وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ} من هذه الأمَّة]؛ وقيَّد الآيةَ مع أنَّها مطلقة؛ لأنَّه رحمه الله فَهِمَ أنَّ الأَوَّليَّة هنا أَوَّلِيَّة الزَّمَن، وإذا كانت أَوَّلِيَّة الزَّمَن فإنه لا يَصِحُّ أن يكون النَّبِي ﷺ أوَّلَ المسلمين؛ لأنَّ قَبْله أُمَمًا مُسْلِمَةً كثيرة، فكان لا بدَّ أن نُقَيِّد هذا بأَوَّلِ المسلمينَ من هذه الأُمَّة؛ ومنه قوله تعالى في سورة الأنعام: {قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ} [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣]؛ فعلى ما مشى عليه المُفَسِّر رحمه الله من الفَهْم نقول: وأنا أوَّلُ المسلمين من هذه الأُمَّة.

=

قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣).

{قل إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم}(١).

=

وهناك احتمالٌ آخرُ: أنَّ الأوَّليَّة هنا أوَّليَّة الصِّفَة؛ يعني أنني أَسْبَقُ المسلمينَ من حيثُ التَّقَدُّم إلى الإسلام، كما تقول مثلًا لمن يُخاطِبُك: إنْ كان هذا الذي قُلْتَه حقًّا فأنا أوَّلُ من يساهم؛ مثلًا: لو قال إنه فَتَحَ مَشْروعًا في البلد خَيْرِيًّا، فقلتَ: إذا كان حقًّا فأنا أوَّلُ من يساهم؛ يعني أول من حيث الانقياد والصِّفَة؛ هذا الاحْتِمالُ، وإذا كان هذا المعنى في الآيَةِ الكريمة فإنَّنا لا نحتاج إلى القَيْدِ الذي قاله المُفَسِّر رحمه الله، لأنَّنا نَعْلَمُ أنَّ رسول الله ﷺ هو أوَّلُ من ينقاد لله سبحانه وتعالى، وأنه أَعْظَمُ النَّاس انقيادًا وأَشَدُّهُم.

(١)قوله تعالى: {قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ} [الزمّر: ١٣].

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: قال يا محمد لهم إني أخاف -إن عصيت ربي فيما أمرني به من عبادته، مخلصا له الطاعة، ومفرده بالربوبية- عذاب يوم القيامة، ذلك هو اليوم الذي يعظم هوله".

قال ابن كثير:"يقول تعالى: قل يا محمد وأنت رسول الله: {إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ}، وهو يوم القيامة. وهذا شَرْط، ومعناه التعريض بغيره بطريق الأولى والأحرى".

قال الزمخشري:"فإن عصيت ربى بمخالفة الدليلين: [العقل والوحى]، استوجبت عذابه فلا أعصيه ولا أتابع أمركم، وذلك حين دعوه إلى دين آبائه".

قال ابن عطية:"{أَخافُ إِنْ عَصَيْتُ}، فعل معلق بشرط وهو: العصيان، وقد علم أنه عليه السلام معصوم منه، ولكنه خطاب للأمة يعمهم حكمه ويحفهم وعيده".

قال العثيمين: قوله تعالى: {قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ} قوله: {عَذَابَ} مفعولُ {أَخَافُ}.

=

=

وقوله: {قُلْ إِنِّي أَخَافُ} الخَوْفُ لا يمكن أن نُعرِّفه بأَبْيَنَ مِن لَفْظِه، فكُلُّنا يَعْرِفُ الخَوْف؛ ولهذا نقول: إنَّ الانفعالاتِ النَّفْسِيَّة لا يمكن لأحَدٍ أن يُعَرِّفَها؛ لأنَّه ليس هناك شيءٌ أَبْيَنُ مِن لَفْظِها أبدًا؛ لو قال إنسانٌ: عَرِّفْ لِيَ الكَراهَة فماذا تقول؟

تقول: (الكراهَةُ مَعْرُوفة)؛ فالكراهَةُ هي الكراهَةُ، وكذلك لو قال: عَرِّفْ لي المحبة؟ لا تَقْدِرْ أن تقول: المَحَبَّة هي المَحَبَّة.

ولو قال قائل: المَحَبَّة هي المَيْل؛ فالجواب: المَيْل آثارُ المَحَبَّة، فبعدما يُحِبُّ يَميل؛ ولهذا يقول ابنُ القَيِّم رحمه الله: لا يمكن أن نَحُدَّ المَحَبَّة بأَبْيَنَ مِن لَفْظِها أبدًا؛ فكُلُّ الذين عرَّفوها - فيها أكثر من عشرين تعريفًا - كُلُّهم إنما يُفَسِّرونَها بِلَوازِمِها ونتائجها. وصدق رحمه الله، فالانفعالات النَّفْسِيَّة لا يستطيع الإنسان أن يُعَرِّفَها بأَكْثَرَ مِن لَفْظِها.

قوله: {عَصَيْتُ} المعصية: المُخالَفَة، وتكون بأمْرَيْنِ: إمَّا بتَرْكِ مَأْمورٍ وإمَّا بفِعْلِ مَحْظورٍ، هذا إذا أُفْرِدَتْ عن الطاعة، فإن قرنت بالطَّاعة صارت الطَّاعةُ فِعْلَ المأمور والمَعْصِيةُ ارتكابَ المَحْظورِ؛ وهنا: {عَصَيْتُ} مُفْرَدَة عن الطاعة، فتشمل المعْنَيَينِ: مُخالَفَته بفعل المنْهِيِّ عنه أو بتَرْك المأمور به.

وفي قوله: {رَبِّي} إشارةٌ إلى أنه عز وجل هو الذي له الأَمْرُ والنَّهْيُ؛ لأَنَّه ربٌّ، والرَّبُّ خالقٌ مالكٌ مدبِّر.

وقوله: {عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ} هو يومُ القيامة، ووصَفَهُ الله تعالى في القرآن الكريم بعِدَّة أوصاف؛ منها: العظيم؛ وذلك لشِدَّتِه وشِدَّة أهواله وشِدَّة ما يكون فيه، وإذا رأيت الأوصافَ، أو إذا سَمِعْتَ الأوصافَ التي ذكرها الله عز وجل لهذا اليوم العظيم، فإنه - لا شَكَّ - يَعْتريكَ من الخوف بِقَدْرِ ما أنت مُؤْمِنٌ به؛ فكُلَّما كان الإنسان أقوى إيمانًا باليوْمِ الآخر فهو منه أشَدُّ خوفًا، وكُلَّما ضَعُفَ إيمانه باليوم الآخِرِ ضَعُفَ خَوْفُه منه.

=

قُلِ اللهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي (١٤).

{قُلِ اللهَ أَعْبُد مُخْلِصًا لَهُ دِينِي} مِنَ الشرك.

فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (١٥).

{فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونه} غَيْره فِيهِ تَهْدِيد لَهُمْ وَإِيذَان بِأَنَّهُمْ لَا يَعْبُدُونَ الله تَعَالَى {قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسهمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْم الْقِيَامَة} بِتَخْلِيدِ الْأَنْفُس فِي النَّار وَبِعَدَمِ وُصُولهمْ إِلَى الْحُور الْمُعَدَّة لَهُمْ فِي الْجَنَّة لَوْ آمَنُوا {أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخَسْرَان المبين} البين[1].

=

ولهذا لدينا عبارة مأثورة: كُلُّ من كان بالله أَعْرَفَ كان منه أَخْوَفَ، وكُلُّ من كان أيضًا باليَوْمِ الآخِرِ أَعْرَفَ وأقوى إيمانًا كان أقوى إخافَةً.

(١)قوله تعالى: {قُلِ اللهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي} [الزمّر: ١٤].

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل يا محمد لمشركي قومك: الله أعبد مخلصا، مفردا له طاعتي وعبادتي، لا أجعل له في ذلك شريكا، ولكني أفرده بالألوهة، وأبرأ مما سواه من الأنداد والآلهة".

قال ابن عطية:"{اللهَ أَعْبُدُ} تأكيد للمعنى الأول وإعلام بامتثاله كله للأمر، وهذا كله نزل قبل القتال لأنها موادعات".

قوله تعالى: {فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ} [الزمّر: ١٥]، أي:"فاعبدوا أنتم -أيها المشركون- ما شئتم من دون الله من الأوثان والأصنام وغير ذلك من مخلوقاته، فلا يضرني ذلك شيئًا".

=

=

قال الطبري: أي: " فاعبدوا أنتم أيها القوم ما شئتم من الأوثان والأصنام، وغير ذلك مما تعبدون من سائر خلقه، فستعلمون وبال عاقبة عبادتكم ذلك إذا لقيتم ربكم".

قال ابن كثير:"وهذا أيضا تهديد وتَبَرّ منهم".

قال الزمخشري:"المراد بهذا الأمر الوارد على وجه التخيير: المبالغة في الخذلان والتخلية، على ما حققت فيه القول مرتين".

قال ابن عطية:"صيغة أمر على جهة التهديد كنحو قوله: {اعْمَلُوا ما شِئْتُمْ} [فصلت: ٤٠]، وقوله: {تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ} [الزمر: ٨]، وهذا كثير".

قوله تعالى: {قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ} [الزمّر: ١٥]، أي:"قل -أيها الرسول-: إن الخاسرين- حقًا- هم الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة، وذلك بإغوائهم في الدنيا وإضلالهم عن الإيمان".

قال الطبري: أي: " يقول تعالى ذكره: قل يا محمد لهم: إن الهالكين الذين غَبَنوا أنفسهم، وهلكت بعذاب الله أهلوهم مع أنفسهم، فلم يكن لهم إذ دخلوا النار فيها أهل، وقد كان لهم في الدنيا أهلون".

قال ابن كثير:"أي: إنما الخاسرون كل الخسران {الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ} أي: تفارقوا فلا التقاء لهم أبدا، سواء ذهب أهلوهم إلى الجنة وقد ذهبوا هم إلى النار، أو أن الجميع أسكنوا النار، ولكن لا اجتماع لهم ولا سرور".

قال الزمخشري:"قل إنّ الكاملين في الخسران الجامعين لوجوهه وأسبابه: هم الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ لوقوعها في هلكة لا هلكة بعدها وَخسروا أَهْلِيهِمْ لأنهم إن كانوا من أهل النار فقد خسروهم كما خسروا أنفسهم، وإن كانوا من أهل الجنة فقد ذهبوا عنهم ذهابا لا رجوع بعده إليهم. وقيل: وخسروهم لأنهم لم يدخلوا

=

=

مدخل المؤمنين الذين لهم أهل في الجنة، يعنى: وخسروا أهليهم الذين كانوا يكونون لهم لو آمنوا".

قال ابن عباس:"هم الكفار الذين خلقهم الله للنار، وخلق النار لهم، فزالت عنهم الدنيا، وحرمت عليهم الجنة، قال الله: {خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ} ".

قال ابن زيد:"هؤلاء أهل النار، خسروا أنفسهم في الدنيا، وخسروا الأهلين، فلم يجدوا في النار أهلا وقد كان لهم في الدنيا أهل".

قال مجاهد:"غبنوا أنفسهم وأهليهم، قال: يخسرون أهليهم، فلا يكون لهم أهل يرجعون إليهم، ويخسرون أنفسهم، فيهلكون في النار، فيموتون وهم أحياء فيخسرونهما".

قوله تعالى: {أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ} [الزمّر: ١٥]، أي:"ألا إن خسران هؤلاء المشركين أنفسهم وأهليهم يوم القيامة هو الخسران البيِّن الواضح".

قال الطبري: يقول:"ألا إن خسران هؤلاء المشركين أنفسهم وأهليهم يوم القيامة، وذلك هلاكها هو الخسران المبين، يقول تعالى ذكره: هو الهلاك الذي يبين لمن عاينه وعلمه أنه الخسران".

قال ابن كثير:"أي: هذا هو الخسار البين الظاهر الواضح".

قال الزمخشري:"وصف خسرانهم بغاية الفظاعة في قوله: {أَلا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرانُ الْمُبِينُ}، حيث استأنف الجملة وصدرها بحرف التنبيه، ووسط الفصل بين المبتدأ والخبر، وعرف الخسران ونعته بالمبين".

قال العثيمين: قوله تعالى: {قُلِ اللهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي} في الآية الأُولى قال: {أَعْبُدَ اللهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ} في الأَوَّل يفعل هو يَعْبُد الله مخلصًا له الدِّين، وفي الثاني أُمِرَ أن يُعْلِنَ للمَلَأ أنه مُخْلِصٌ، وإعلانه أنه مُخْلِصٌ؛ يعني أنه متبَرِّئٌ من شِرْكِهم.

=

=

وقوله: {قُلِ اللهَ أَعْبُدُ} إعرابُ اسم الجلالة: مفعولٌ به لـ {أَعْبُدُ} قُدِّم المفعول به للحَصْر؛ يعني لا أعبد غَيْرَه، ونظيره من حيث التَّرْكيبُ قولُه تعالى: في سورة الفاتحة: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ} [الفاتحة: ٥] ثم أكد هذا أيضًا بقوله: {مُخْلِصًا لَهُ دِينِي} يعني: لا أعبد غَيْرَ الله، وفي عبادتي له أيضًا أكونُ مُخْلِصًا له لا يَشوبُ عبادتي إياه شَيءٌ من الشِّرْك.

وقوله: {دِينِي} يعني: عَمَلي، قال المُفَسِّر رحمه الله: [من الشِّرْك].

وإذا جَمَعْت بين الآيتين: الآية الأولى: وهي قوله: {إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ} والثانية هنا؛ عَرَفْتَ شِدَّة امتثال الرَّسولِ عليه الصلاة والسلام لرَبِّه، وأنه عَبَدَ الله مُخْلِصًا له الدِّين، وأَعْلَنَ ذلك للمَلأ غيرَ مُبالٍ بمخالَفَتِهم.

قوله تعالى: {فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ}: {فَاعْبُدُوا} هذا يُحْتَمل أن يكون تهديدًا، ويُحْتَمَل أن يكون تحَدِّيًا، فالمُفَسِّر رحمه الله يقول: [فيه تَهْديدٌ]، ويمكن أن يكون تحَدِّيًا، أما كوْنُه تهديدًا فظاهِرٌ {فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ} لأَنَّه قال بعده: {قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ} إلخ، وأما كونه تَحَدِّيًا فلأَنَّه لمَّا ذكر أنه يعبد الله وحده مُخْلِصًا تحدَّاهم، قال: أنا لا أُبالي، أنتُم اعبُدوا ما شِئتُم وأنا لا أُبالي بكم، فسوف لا أُشْرِك بالله، وسوف أَعْبُد اللهَ وَحْدَه مُخْلصًا.

والقاعدة عندنا في التَّفْسير: أنَّه إذا كانت الآيةُ تَحْمِلُ مَعْنيينِ لا يتنافيان تُحْمَلُ عليهما جميعًا.

وقوله: {مَا شِئْتُمْ} يعني الذي شئتم.

وقوله: {مِنْ دُونِهِ} أي: مِن سواه، اعبدوا ما تشاؤون مِن سواه، مَلِك، وَلِي، شَجَر، حجر، شمس، قمر؛ أي أَحَد تعبدونه، فلا يُهِمُّني، وأنا سوف أبقى مُخْلِصًا لله، وأنتم اعبدوا ما شئتم.

=

يقول المُفَسِّر رحمه الله: [{مِنْ دُونِهِ} غَيْره] أي: غير سواه [فيه تهديدٌ لهم، وإيذانٌ بأنَّهُم لا يعبدون الله تعالى]: [إيذان] يعني إعلان؛ أي: إنَّ هذه الجملةَ فيها تهديدٌ، وفيها أنَّهُم لا يعبدون الله وإنما يَعْبُدون غيره.

وقوله: {قُلْ} يعني: قل لهم مع تهديدك إيَّاهم: {إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ} والجملة فيها تأكيدٌ وفيها حَصْر؛ فالتَّأكيد: {إِنَّ الْخَاسِرِينَ}، والحصر أنَّ طَرَفَيِ الجملة مَعْرِفتانِ: {الْخَاسِرِينَ} {الَّذِينَ خَسِرُوا}، فكأنه قال: إنَّ الخاسرينَ هم الذين خسِروا أنْفُسَهم وأهليهم يوم القيامة.

وقوله: {إِنَّ الْخَاسِرِينَ} الخاسِرُ بيَّنَه الله عز وجل في قوله: {إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا} [العصر: ٢، ٣] يعني: الخُسران ضِدُّ الربح، وذلك أنَّ المُعامِل إما أن يأخُذَ رأس ماله، وإمَّا أن يَخْسَر فيأتيه أَقَلَّ من رَأْسِ ماله، وإما أن يَرْبَحَ فيأتيه أكثر، والخُسْران الحقيقي هو ما ذكره الله هنا {الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ}، فهؤلاء هم الذين خَسِروا، وليس الخاسِرُ من فقد ملايينَ الدَّراهم، وليس الخاسِرُ من فقد أهله في الدنيا، وليس الخاسر من فقد نَفْسَه في الدنيا، بل الخاسِرُ من خسر نفسه وأهله يوم القيامة.

يقول المُفَسِّر رحمه الله: [بِتَخْلِيدِ الْأَنْفُس فِي النَّار وَبِعَدَمِ وُصُولِهِمْ إِلَى الْحُور المُعَدَّة لَهُمْ فِي الْجَنَّة لَوْ آمَنُوا] قوله: بتخليد الأنفس في النار؛ هذا بيانٌ لخسرانِهِم أنْفُسَهم؛ لأنَّه خَسِرَ نفسه في الحقيقة؛ ووجه الخسران: أنَّ حياته في الدُّنيا لم يَسْتَفِدْ منها في الآخرة إطلاقًا، فخسر نفسه، خَسِرَ عُمُرَه كله راح هباءً منثورًا؛ فلو أنه مؤمن مُخْلِص لاستفاد، لكان كلُّ حياته الدنيا رِبْحًا؛ لأنَّه سوف يُخَلَّد في الجنة التي فيها ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سَمِعَت ولا خطر علي قلب بشر؛ أمَّا الآن فسَيُخَلَّد في النار؛ هذه خسارة النفس.

لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللهُ بِهِ عِبَادَهُ يَاعِبَادِ فَاتَّقُونِ (١٦).

{لَهُمْ مِنْ فَوْقهمْ ظُلَل} طِبَاق {مِنَ النَّار وَمِنْ تَحْتهمْ ظُلَل} مِنَ النَّار {ذَلِكَ يُخَوِّف الله بِهِ عِبَاده} أَيْ الْمُؤْمِنِينَ لِيَتَّقُوهُ يَدُلّ عليه {يا عباد فاتقون}[1].

=

وأما خسارَةُ الأَهْل فقد فسَّرها المُفَسِّر رحمه الله: بأنه يَفوته الحُورُ العِينُ في الجنة لو آمن، وهذا وإن كان له وَجْهٌ لكنه بعيدٌ من الصَّواب؛ وذلك لأنَّ الحور في الجنة لم تكن أهلًا له حتى يقال: خَسِرَهم، وإنما المراد: خَسِرُوا أَهْليهم؛ لأنَّ أهليهم إن كانوا مؤمنين فهم في الجَنَّة ولم يَجْتَمِعوا بهم، وإن كانوا كفَّارًا فهم في النار ولم يجتمعوا بهم أيضًا، ولو كانوا مؤمنين وذُرِّيَّتهم مؤمنة لكانوا كما قال الله تعالى: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ} [الطور: ٢١] يعني لن يَجْتَمِع أحدٌ مع أهله في الآخِرَة إلا إذا كان هو وهم مُؤْمِنِينَ، فسيجتمعون اجتماعًا لا فِرَاقَ بعده، أما من لم يكن كذلك فلا اجتماعَ.

وعلى كلِّ حال: الصَّحيحُ أنَّ المراد بـ (أهليهم) يعني أهليهم الذين في الدنيا، حيث خسروا الاجتماع بهم في الآخِرَة.

قال الله عز وجل: {أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ} إِيْ واللهِ، {أَلَا ذَلِكَ} وهذا التَّأكيد البالغ؛ فقوله: {أَلَا} أداة اسْتِفْتاح، والفائِدَة منها: التَّوْكيد والتَّنْبيه {ذَلِكَ} إشارة للبُعْد؛ لأنَّه خُسْرانٌ سحيقٌ - والعياذ بالله - يعني لم يقل: ألا هذا، مع أن ذِكره قريبٌ لكنه خسرانٌ سحيقٌ، فأشير إليه بإشارَةِ البعد، ثم حَصَر، قال: {هُوَ الْخُسْرَانُ} يعني: لا غَيْره، ثم أكَّدَ بفداحَتِه فقال: {الْمُبِينُ} أي: [البَيِّن] الذي لا يَخْفَى على أحد، نسأل الله أن يجعلنا وإياكم من الرَّابِحِينَ.

(١)قوله تعالى: {لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ} [الزمر: ١٦].

=

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره لهؤلاء الخاسرين يوم القيامو في جهنم: {مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ} وذلك كهيئة الظلل المبنية من النار ومن تحتهم من النار ما يعلوهم، حتى يصير ما يعلوهم منها من تحتهم ظللا وذلك نظير قوله جلّ ثناؤه لَهُمْ: {مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ} يغشاهم مما تحتهم فيها من المهاد".

قال الزمخشري:"{وَمِنْ تَحْتِهِمْ} أطباق من النار هي {ظُلَلٌ} لآخرين".

قال مجاهد، في قوله:"{لَهُمْ مِن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ} قال: غواشٍ، {ومِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ} قال: مهاد".

عن سويد بن غفلة، قال: " إذا أراد الله أن يَنسى أهلَ النار؛ جعل لكل إنسان منهم تابوتًا مِن نار على قدْره، ثم أقفل عليه بأقفال من نار، فلا يُعرَف منه عِرق إلا وفيه مِسْمار، ثم جعَل ذلك التابوت في تابوت آخر من نار، ثم يُقْفل بأقفال من نار، ثم يُضْرم بينهما نار، فلا يَرى أحدٌ منهم أنّ في النار أحدًا غيرَه، فذلك قوله: {لَهُمْ مِن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النّارِ ومِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ}، وقوله: {لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش} [الأعراف ٤١] ".

قوله تعالى: {ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللهُ بِهِ عِبَادَهُ} [الزمّر: ١٦]، أي:"ذلك العذاب الموصوف يخوِّف الله به عباده؛ ليحْذَروه".

قال الطبري: يقول" هذا الذي أخبرتكم أيها الناس به، مما للخاسرين يوم القيامة من العذاب، تخويف من ربكم لكم، يخوفكم به لتحذروه، فتجتنبوا معاصيه، وتنيبوا من كفركم إلى الإيمان به، وتصديق رسوله، واتباع أمره ونهيه، فتنجوا من عذابه في الآخرة".

قال الزجاج:"أي: ذلك الذي وصف من العذاب وما أعده لأهل الضلال الذي يخوف الله به عباده".

=

قال ابن كثير:"أي: إنما يَقص خبر هذا الكائن لا محالة ليخوف به عباده، لينزجروا عن المحارم والمآثم".

قال الزمخشري:"{ذلِكَ} العذاب هو الذي يتوعد الله بِهِ عِبادَهُ ويخوّفهم، ليجتنبوا ما يوقعهم فيه".

قال السمعاني:"أي: يحذرهم".

قوله تعالى: {يَاعِبَادِ فَاتَّقُونِ} [الزمّر: ١٦]، أي:"يا عباد فاتقوني بامتثال أوامري واجتناب معاصيَّ".

قال الطبري:"يقول: فاتقوني بأداء فرائضي عليكم، واجتناب معاصيّ، لتنجوا من عذابي وسخطي".

قال ابن كثير:"أي: اخشوا بأسي وسطوتي، وعذابي ونقمتي".

قال السمعاني:"أي: فاحذروا عذابي ".

قال الزمخشري:"ولا تتعرّضوا لما يوجب سخطي، وهذه عظة من الله تعالى ونصيحة بالغة".

قال محمد بن إسحاق:"{واتقوا الله}، أي: أطيعوا الله".

وقرئ: «يا عبادي» ".

قال العثيمين: قوله تعالى: {لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ}

قوله: {لَهُمْ} الضَّميرُ يعود على الخاسِرينَ الذين خَسِرُوا أَنْفُسَهم وأَهْليهم يَوْمَ القيامة وهم الكُفَّار.

قوله: {لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ} من فوق رُؤُوسِهم، وكلمة: {مِنْ فَوْقِهِمْ} تدلُّ على أن هذه الظُّلَل مُحِيطةٌ بهم.

وقوله: {ظُلَلٌ} قال المُفَسِّر رحمه الله: [طِباقٌ {مِنَ النَّارِ}] وهذه الطِّبَاقُ من النار لا نعلم كَيْفِيَّتَها، فلا نعلم هل هي حديدٌ مُحَمَّاة، أو حجارة، أو غير ذلك؟ لكن إذا

=

=

تأمَّلْنا قوله تعالى: {وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ} [البقرة: ٢٤] فقد نقول: إنَّها من الحِجَارة، وليست أيضًا كحِجَارَتِنا، بل هي حجارةٌ لا تُعْلَم كَيْفِيَّتُها.

وقوله: {وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ} أي: [من النار] كما قال المُفَسِّر رحمه الله، وهذا كقوله تعالى: {لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ} [الأعراف: ٤١]. أي: شَيْءٌ يَغْشاهم؛ أي: يُغَطِّيهم.

قوله: {ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللهُ بِهِ عِبَادَهُ}: {ذَلِكَ} أي: المشارُ إليه مِنْ ذِكْرِ هذه الظُّلَل.

قوله: {بِهِ} الضمير يعود على العذاب المَذْكورِ، والباء للسَّبَبِيَّة؛ أي: يخوف بِسَبَبِه، ويجوز أن تقول: للتَّعْدِيَة؛ أي: يُخَوِّف به نَفْسِه.

وقوله: {عِبَادَهُ} قال: [أَيِ المُؤْمِنِينَ لِيَتَّقُوهُ يَدُلُّ عليه: {يَاعِبَادِ فَاتَّقُونِ}] المُفَسِّر رحمه الله سلك في تفسير الآية أنَّ المرادَ بالعباد هنا: شيءٌ خاصٌّ وهم المؤمنون، مع أنَّ ظاهِرَ الآيَةِ العُمُومُ، وأنَّ المراد بالعباد هنا من يتعَبَّدون لله بالمعنى العامِّ، وهي العبودية الكَوْنِيَّة؛ لأنَّ العبادة نوعان: عبادةٌ يَتَعَبَّد الإنسانُ لله بالشَّرْع، وهذه خاصَّةٌ بالمؤمنين؛ وعبادَةٌ يتعَبَّد الإنسان لله بالكَوْن، أي: يكون عبْدًا لله كَوْنًا وقَدَرًا، يفعل الله فيه ما شاء.

فقوله: {إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا} [مريم: ٩٣] هل المراد بالآية هنا: العبادة العامَّة، وأنَّ الله يوجِّهُ الخطاب إلى جَميعِ العِبادِ؛ جميع النَّاس أن يتَّقوه، أو هي خاصَّةٌ؟ يرى المُفَسِّر رحمه الله أنها خاصَّة، ولكن لا دليل على ذلك، وإذا لم يكن هنالك دليلٌ فالأَوْلى إبقاءُ النَّصِّ على عمومه، فكما أنَّ المؤْمِنَ يُخَوَّف بهذا الوَعيدِ فكذلك الكافر، فالكافِرُ أيضًا يُخَوَّفُ، بل إنَّ تَخْويفَ الكافر أَوْكَدُ من تخويف المُؤْمِنِ؛ لأنَّ مع المؤمن ما يُنْجيه من الخُلْدِ في النار، لكنَّ الكافِرَ ليس معه ما يُنْجيه من الخُلُودِ في النار.

=

=

إذن: الأَرْجَحُ العموم؛ وَجْهُه: أنَّ هذا هو ظاهِرُ النَّصِّ، وأنَّ الكافِرَ أَوْلَى أن يُخَوَّف بالنَّارِ من المُؤْمِنِ؛ لأنَّ مع المؤمن ما ينجو به من الخلود في النَّار، وليس مع الكافر شيءٌ ينجو به، فكيف نَصْرِفُ التَّخويف عمن هو أحَقُّ بالتَّخويفِ؟!

إذن: فالصَّحيح أنَّ المراد بالعباد العُمُوم؛ يعني: يُخَوِّف اللهُ بهذا العذابِ جَميعَ النَّاسِ. ثم وجَّه اللهُ الخطابَ إلى النَّاس عُمُومًا، فقال: {يَاعِبَادِ فَاتَّقُونِ}: {يَاعِبَادِ} يعني: جميع العباد، كما قال الله تعالى: {يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ} [لقمان: ٣٣]، وقال تعالى: {يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ} [النساء: ١]، والآيات كثيرةٌ في تَوْجيهِ الأَمْر بالتَّقْوى إلى جميع النَّاس، والكافر محتاجٌ للتَّقْوى؛ كما أنَّ المؤْمِنَ كذلك؛ فقول المُفَسِّر رحمه الله: [يَدُلُّ عليه] فيه نظر، ففي حكم المُفَسِّر رحمه الله نَظَرٌ، وفي الاستدلال لهذا الحُكْم نَظَرٌ. وقوله: {فَاتَّقُونِ} غريبٌ أن تأتي النونُ مع فِعْلِ الأمر، والمعروف أنَّ فِعْل الأمر المقرون بواو الجماعَةِ أو ألفِ الاثْنَينِ أو ياء المخاطبة تُحْذَفُ منه النون؛ وهذه النونُ هي للوِقايَة؛ وأَصْلها: فاتَّقُونِي؛ والدليل: كَسْرُ النون؛ لأنَّها لو كانت نونَ الرَّفْعِ لكانت بِفَتْحِ النون، فإنَّ نون الرفع تكون مَفْتوحَةً.

ومن مثال ذلك أيضًا: قوله تبارك وتعالى في سورة الأنبياء: {فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ} [الأنبياء: ٣٧] بعض الطَّلَبَة يُشْكِل عليه كيف قال: (لا تَسْتَعْجِلونِ) لا الناهية، وتأتي النون مع النَّاهِيَة؟ نقول: النون هنا للوِقَايَة بدليل أنَّها مَكْسُورة، ولو أنَّكَ واصلتَ فقلت: فلا تَسْتَعْجلوني وَجَبَ الكَسْرُ، وكذلك في سورة الذَّارياتِ قوله تعالى: {فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ} [الذاريات: ٥٩]؛ فالنون هنا للوِقايَة وليست نونَ الرَّفْع.

=

وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ (١٧).

{وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوت} الْأَوْثَان {أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا} أقبلوا {إلى الله لهم البشري} بالجنة {فبشر عباد}.

الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ (١٨).

{الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْل فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ} وَهُوَ مَا فِيهِ صَلَاحهمْ {أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمْ الله وَأُولَئِكَ هم أولوا الْأَلْبَاب} أَصْحَاب الْعُقُول[1].

=

أمَّا قوله تعالى: {يَاعِبَادِ فَاتَّقُونِ} فقد سبق معنى التَّقْوى مرارًا، فلا حاجة لإعادتها؛ ومن جملة التقوى تَرْكُ الكُفْر؛ لأنَّ التقوى اتخاذ الوِقايَة من عذاب الله؛ ومن جُمْلَتِها الإيمانُ؛ ولهذا جاءت الآية: {يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ} [لقمان: ٣٣] {يَاأَيُّهَا النَّاسُ} أي: عمومًا؛ وجاءت آية أخرى: {يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ} [الحج: ١]، وكذلك قوله تعالى: {يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا} [النساء: ١].

(١) ذكر سبب النزول.

عن زيد بن أسلم: أن هاتين الآيتين نزلتا في ثلاثة نفر كانوا في الجاهلية يقولون: (لا إله إلا الله): زيد بن عمرو، وأبي ذر الغفاري، وسلمان الفارسي؛ نزل فيهم: {وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ (١٧) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ (١٨)}.

=

=

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٣/ ١٣٢): ثني يونس قال: نا عبد الله بن وهب قال: قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم حدثني أبي به. وهذا إسناد ضعيف جدًا؛ فيه علتان:

الأولى: الإرسال.

الثانية: عبد الرحمن بن زيد بن أسلم؛ متروك الحديث.

وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٧/ ٢١٧)، و"لباب النقول" (ص ١٨٤، ١٨٥) وزاد نسبته لابن أبي حاتم.

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما؛ قال: لما نزلت: {لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ (٤٤)} [الحجر: ٤٤]؛ أتى رجل من الأنصار إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله! إن لي سبعة مماليك، وإني أعتقت لكل باب منها مملوكًا؛ فنزلت هذه الآية: {فَبَشِّرْ عِبَادِ (١٧) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ}.

ذكره السيوطي في "لباب النقول" (ص ١٨٤)، و"الدر المنثور" (٧/ ٢١٨) وقال: "وأخرج جويبر بسنده عن جابر به". وجويبر متروك.

وعن عبد الله بن عمر؛ قال: كان سعيد بن زيد، وأبو ذر، وسلمان، يتبعون في الجاهلية أحسن القول، وأحسن القول والكلام: لا إله إلا الله، قالوا بها؛ فأنزل الله -تعالى- على نبيه ﷺ: {الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ}.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٧/ ٢١٧) ونسبه لابن مردويه.

* قوله تعالى: {وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا} [الزمر: ١٧]، أي:"والذين اجتنبوا طاعة الشيطان وعبادة غير الله".

=

=

قال ابن كثير:"قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، عن أبيه: { والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها } نزلت في زيد بن عمرو بن نُفَيل، وأبي ذر، وسلمان الفارسي. والصحيح أنها شاملةٌ لهم ولغيرهم، ممن اجتنب عبادة الأوثان، وأناب إلى عبادة الرحمن. فهؤلاء هم الذين لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة ".

قال الطبري:"أي: اجتنبوا عبادة كلّ ما عبد من دون الله من شيء".

وقد اختلف أهل التفسير في معنى: «الطاغوت»، على أقوال:

أحدها: أنه الشيطان، وهو قول عمر بن الخطاب، ومجاهد، والشعبي، والضحاك، وقتادة، والسدي، وعكرمة، واختاره ابن كثير، والقاسمي وآخرون.

عن ابن زيد:" {وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا} ، قال: الشيطان هو ها هنا واحد وهي جماعة".

قال الطبري:"و «الطاغوت» على قول ابن زيد هذا واحد مؤنث، ولذلك قيل: أن يعبدوها. وقيل: إنما أُنثت لأنها في معنى جماعة".

الثاني: أنه الساحر، وهو قول أبي العالية، ومحمد ابن سيرين والشعبي.

الثالث: الكاهن، وهو قول جابر، وسعيد بن جبير، والرفيع، وابن جريج.

الرابع: الأصنام والأوثان، وما يدعو إليه الشيطان من عبادة كل ما يعبد من دون الله تعالى. روي ذلك عن مالك.

الخامس: مَرَدَة الإنس والجن. حكاه الماوردي.

السادس: أنه كل ذي طغيان طغى على الله، فيعبد من دونه، إما بقهر منه لمن عبده، أو بطاعة له، سواء كان المعبود إنسانًا أو صنمًا، روي ذلك عن الإمام مالك، وابن القيم، وهذا قول الطبري.

السابع: أنها النفس لطغيانها فيما تأمر به من السوء، كما قال تعالى: {إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ} [يوسف: ٥٣]، ذكره الماوردي.

=

=

والراجح -والله أعلم- أن الطاغوت: كل مُعتدٍ وكل معبود من دون الله، وهو اختيار الإمام الطبري وأبي حيان وغيرهم. وبه قال أكثر أهل العلم.

قال السعدي:"المراد بالطاغوت في هذا الموضع، عبادة غير الله، فاجتنبوها في عبادتها. وهذا من أحسن الاحتراز من الحكيم العليم، لأن المدح إنما يتناول المجتنب لها في عبادتها".

واختلفوا في أصل كلمة «الطَّاغُوت»، على وجهين:

أحدهما: أنه اسم أعجمي معرّب، ومن ثم اختلف هؤلاء في اشتقاقه على أقوال:

أ- قال الشوكاني: "الطاغوت: فعلوت، من طغى يطغي ويطغو، إذا جاوز الحد".

ب-قال سيبويه: "هو اسم مذكَّر" مفرد، أي اسم جنس، يشمل القليل والكثير.

ج- وقال أبو على الفارسي: "إنه مصدر: كرهبوت، وجبروت، يوصف به الواحد، والجمع، وقلبت لامه إلى موضع العين، وعينه إلى موضع اللام"، كجبذ، وجذب، ثم تقلب الواو ألفًا؛ لتحركها، وتحرك ما قبلها، فقيل: طاغوت. واختار هذا القول النحاس.

وقيل: أن أصل «الطاغوت» -في اللغة-: من الطغيان، يؤدي معناه من غير اشتقاق، كما قيل: لآلٍ، من اللؤلؤ".

ثم اختلف في لفظ «الطاغوت» أمفرد هو أم جمع، على قولين:

أحدهما: أنه جمع، قاله المبرد ورده عليه جماعة كالفارسي وابن عطية وآخرون.

الثاني: أنه مفرد، واختلفوا على قولين:

أ-أنه مصدر على وزن: «فَعَلُوت»، أي: طَغَيُوِت، فوقع فيه قلب مكاني بين عينه ولامه فصار على وزن فَلَعُوت، أي: طَيَغُوت، ثم قلبت لامه (الياء) ألفا فصار طاغوت. وهو مصدر يوصف به الواحد والجمع، نظير قولهم: رجل عدل وقوم عدل، إذ في الكلام دليل على الواحد أو الجماعة، وهو قولهم: رجل أو قوم، وقد

=

=

وجد هنا ما يرجح كون المراد به الجماعة وهو قوله: {يُخْرِجُونَهُمْ} [البقرة:٢٥٧]، وذلك ما جعله الزجاج شرطًا للجواز، وذلك ظاهر قول الكسائي وأبي حاتم والطبري وأبي علي الفارسي والواحدي والزبيدي وآخرين.

ب-أنه اسم جنس مفرد لطائفة جاوزت الحد في الطغيان، وقد اختار هذا القول أبو حيان، وحُمِل عليه قول سيبويه بأن: الطاغوت اسم مفرد.

القول الثاني: أن «الطاغوت» اسم عربي مشتق من: الطاغية، قاله ابن بحر.

قوله تعالى: {وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ} [الزمّر: ١٧]، أي:"وتابوا إلى الله بعبادته وإخلاص الدين له".

قال الطبري:"يقول: وتابوا إلى الله ورجعوا إلى الإقرار بتوحيده، والعمل بطاعته، والبراءة مما سواه من الآلهة والأنداد".

قال السعدي:"{وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ} بعبادته وإخلاص الدين له، فانصرفت دواعيهم من عبادة الأصنام إلى عبادة الملك العلام، ومن الشرك والمعاصي إلى التوحيد والطاعات ".

قال قتادة: وأقبلوا إلى الله".

قال السدي: أجابوا إليه".

قوله تعالى: {لَهُمُ الْبُشْرَى} [الزمّر: ١٧]، أي:"لهم البشرى في الحياة الدنيا بالثناء الحسن والتوفيق من الله، وفي الآخرة رضوان الله والنعيم الدائم في الجنة".

قال الطبري:"يقول: لهم البشرى في الدنيا بالجنة في الآخرة".

قال السعدي:"{لَهُمُ الْبُشْرَى} التي لا يقادر قدرها، ولا يعلم وصفها، إلا من أكرمهم بها، وهذا شامل للبشرى في الحياة الدنيا بالثناء الحسن، والرؤيا الصالحة، والعناية الربانية من الله، التي يرون في خلالها، أنه مريد لإكرامهم في الدنيا والآخرة، ولهم البشرى في الآخرة عند الموت، وفي القبر، وفي القيامة، وخاتمة

=

=

البشرى ما يبشرهم به الرب الكريم، من دوام رضوانه وبره وإحسانه وحلول أمانه في الجنة".

قال الزمخشري:"الله عزّ وجل يبشرهم بذلك في وحيه على ألسنة رسله، وتتلقاهم الملائكة عند حضور الموت مبشرين، وحين يحشرون. قال الله تعالى: {يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ} [الحديد: ١٢] ".

قوله تعالى: {فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ} [الزمّر: ١٧ - ١٨]، أي:"فبشِّر -أيها النبي- عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أرشده".

قال الطبري:"يقول جل ثناؤه لنبيه محمد ﷺ: فبشر يا محمد عبادي الذين يستمعون القول من القائلين، فيتبعون أرشده وأهداه، وأدله على توحيد الله، والعمل بطاعته، ويتركون ما سوى ذلك من القول الذي لا يدل على رشاد، ولا يهدي إلى سداد".

قال ابن كثير:"أي: يفهمونه ويعملون بما فيه، كقوله تعالى لموسى حين آتاه التوراة: {فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا} [الأعراف: ١٤٥] ".

عن قتادة: " {فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ}، وأحسنه طاعة الله".

عن السديّ، قوله: " {فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ}، قال: أحسن ما يؤمرون به فيعلمون به".

قال الزمخشري:"وأراد بعباده {الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ}، الذين اجتنبوا وأنابوا لا غيرهم، وإنما أراد بهم أن يكونوا مع الاجتناب والإنابة على هذه الصفة، فوضع الظاهر موضع الضمير، وأراد أن يكونوا نقادا في الدين يميزون بين الحسن والأحسن والفاضل والأفضل، فإذا اعترضهم أمران: واجب وندب، اختاروا الواجب، وكذلك المباح والندب، حرّاصا على ما هو أقرب عند الله وأكثر

=

ثوابا، ويدخل تحته المذاهب واختيار أثبتها على السبك وأقواها عند السبر، وأبينها دليلا أو أمارة، وأن لا تكون في مذهبك، كما قال القائل:

ولا تكن مثل عير قيد فانقادا

يريد المقلد، وقيل: يستمعون القرآن وغيره فيتبعون القرآن. وقيل: يستمعون أوامر الله فيتبعون أحسنها، نحو القصاص والعفو، والانتصار والإغضاء، والإبداء والإخفاء لقوله تعالى {وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى} [البقرة: ٢٣٧]، {وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ} [البقرة: ٢٧١] ".

قال السعدي:"ولما أخبر أن لهم البشرى، أمره الله ببشارتهم، وذكر الوصف الذي استحقوا به البشارة فقال: {فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ} وهذا جنس يشمل كل قول فهم يستمعون جنس القول ليميزوا بين ما ينبغي إيثاره مما ينبغي اجتنابه، فلهذا من حزمهم وعقلهم أنهم يتبعون أحسنه، وأحسنه على الإطلاق كلام الله وكلام رسوله، كما قال في هذه السورة: {اللهُ نزلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا} الآية.

وفي هذه الآية نكتة، وهي: أنه لما أخبر عن هؤلاء الممدوحين أنهم يستمعون القول فيتبعون أحسنه، كأنه قيل: هل من طريق إلى معرفة أحسنه حتى نتصف بصفات أولي الألباب، وحتى نعرف أن من أثره علمنا أنه من أولي الألباب؟ قيل: نعم، أحسنه ما نص الله عليه {اللهُ نزلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا} الآية".

قوله تعالى: {أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللهُ} [الزمّر: ١٨]، أي:"أولئك هم الذين وفقهم الله للرشاد والسداد، وهداهم لأحسن الأخلاق والأعمال".

قال السعدي: أي:"لأحسن الأخلاق والأعمال".

=

قال الطبري: يقول:"الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، الذين هداهم الله، يقول: وفقهم الله للرشاد وإصابة الصواب، لا الذين يعرضون عن سماع الحقّ، ويعبدون ما لا يضرّ، ولا ينفع".

قال ابن كثير:"أي: المتصفون بهذه الصفة هم الذين هداهم الله في الدنيا والآخرة".

قوله تعالى: {وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ} [الزمّر: ١٨]، أي:"وأولئك هم أصحاب العقول السليمة".

قال الطبري:"يعني: أولو العقول والحجا".

قال ابن كثير:"، أي: ذوو العقول الصحيحة، والفطَر المستقيمة".

قال السعدي:"أي: العقول الزاكية. ومن لبهم وحزمهم، أنهم عرفوا الحسن من غيره، وآثروا ما ينبغي إيثاره، على ما سواه، وهذا علامة العقل، بل لا علامة للعقل سوى ذلك، فإن الذي لا يميز بين الأقوال، حسنها، وقبيحها، ليس من أهل العقول الصحيحة، أو الذي يميز، لكن غلبت شهوته عقله، فبقي عقله تابعا لشهوته فلم يؤثر الأحسن، كان ناقص العقل".

قال العثيمين: قوله تعالى: {وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا} أي: ابْتَعَدُوا عن الطَّاغُوت؛ لأنَّه مأخوذٌ من الجَنْب وهو الشَّيْء المُنْفَصِل عن الشَّيْء؛ يعني تقول: إلى جانبي فلان؛ أي: إنَّه مُنْفَصِل غيرُ مُتَّصِل.

وقوله: {وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ} أي: ابْتَعَدوا عنه. والطاغوت اسمٌ من الطُّغْيانِ والتاءُ فيه للمبالَغَة، فما هو الطَّاغوتُ الذي اشْتُقَّ من الطُّغْيانِ؛ يقول ابن القيم رحمه الله: "الطَّاغُوتُ كُلُّ ما تجاوَزَ به العَبْدُ حَدَّهُ من معبودٍ أو مَتْبُوعٍ أو مُطَاعٍ".

فكل ما تجاوز به الإنسان حَدَّه، وإنما قال: ما تجاوز به حَدَّه من أجل أن يَصْدُق عليه أنه طُغْيانٌ من مَعْبودٍ أو مَتبوعٍ أو مُطاعٍ؛ فمثلًا: الأصنامُ التي يَعْبُدها الكُفَّار

=

=

تسمَّى: طواغيت، المَتْبوعينَ من العلماء طَوَاغِيت، المَتْبوعينَ المطاعِينَ من الأمراء كذلك أيضًا طَوَاغيتُ.

لكن كلام ابن القيم ليس على ظاهره، مرادُهُ بالمعبود الذي لا إرادَة له كالأصنام من الجماداتِ، أو المعبود الذي رَضِيَ بِعِبادَتِهم، وأما المعبود الذي عُبد وهو لا يَرْضى بالعبادة فلا يُسَمَّى طاغُوتًا؛ ولهذا لا يُمْكِنُ أن نُسَمِّيَ عيسى بْنَ مريم: (طاغوتًا)؛ وكذلك أيضًا: (المَتْبوعُ)؛ فالعلماء الذين لا يرضون أن يَعْبُدَهم النَّاس ليسوا طواغيتَ، و (المُطاعُ) أيضًا، الأمراء الذين لا يَرْضَوْنَ أن يَعْبُدَهم النَّاس لا يُسَمَّوْن طواغيتَ.

فكلام ابن القيم إذن ليسَ على إطلاقه، ويمكن أن نقول: إنَّ قَوْلَ ابنِ القَيِّم: "ما تجاوز به العَبْدُ حَدَّه من معبودٍ أو متبوعٍ أو مطاعٍ". أنه عائِدٌ على العمل، يعني: أنَّ الطاغوتَ عَمَلُ الإنسان في معبوداته أو من يُطيعُهُم أو من يَتْبَعُهُم؛ يعني معصية الله في طاعَةِ هؤلاء، فيكون الوَصْف الطغيانُ عائِدًا على الفِعْل لا على المفعول، وحينئذٍ نَسْلَمُ من الإشكال الذي قلنا: إنَّه لا بدَّ أن يُقَيَّد المَعْبودُ والمتبوعُ والمطاعُ بأنه راضٍ.

وعلى كلِّ حالٍ: فإن الطاغوت مأخوذ من الطُّغْيان وهو مجاوَزَةُ الحَدِّ، والصيغة فيه صيغَةُ مبالَغَة.

قال المُفَسِّر رحمه الله: [الأَوْثان] ففسَّر الطَّاغوت بالمعبودات وهي الأَوْثان؛ ولهذا قال: {أَنْ يَعْبُدُوهَا}: (أن) هذه مَصْدَرِيَّة، وتأويلُ المَصْدَر بعدها منصوبٌ على أنه بدلٌ من الطاغوت، بدل اشْتِمال، فنقول: {أَنْ يَعْبُدُوهَا} في مَحَلِّ نصبٍ بدلٌ من {الطَّاغُوتَ}.

وقوله: {أَنْ يَعْبُدُوهَا} هم يعبدون الأَصْنامَ بِدُعائِها، ولكن يَدَّعُونَ أَنَّهُم لا يعبدونها إلا لِتُقَرِّبَهُم إلى الله. وقوله: {وَأَنَابُوا} أَقْبَلُوا إلى الله] والإنابة تكون

=

=

بمعنى الإِقْبال؛ كما قال المُفَسِّر رحمه الله، وتكون بمعنى الرُّجوع؛ أي رَجَعوا إلى الله، والرُّجوع إلى الله يَسْتَلْزِم الإقبال عليه؛ لأنَّ الإنسانَ يَفِرُّ بالمَعْصِيَة بعيدًا عن الله، فإذا تاب وأناب ورجع إلى الله فهو مُقْبِلٌ.

وقوله: {لَهُمُ الْبُشْرَى} الجملة هذه خَبَرِيَّة قُدِّم فيها الخَبَر {لَهُمُ} لإفادَةِ الحَصْر؛ لأنَّ ما كان حَقُّه التَّأخيرَ إذا قُدِّمَ أفاد الحَصْر. وقوله: {لَهُمُ الْبُشْرَى} الجملة هذه خَبَر {الَّذِينَ}، فالذين اجتنبوا الطاغوت لهم البشرى؛ فتكون هذه الجملة في مَوْضِع رَفْع على الخَبَر. والبشرى: ما تَحْصُل به البِشَارة، والبشارة هي في الأصل: الخَبَرُ السَّارُّ، وسُمِّيَ الخبر السارُّ بِشارَةً؛ لأنَّه يظهر أَثَرُه على البَشَرَة التي هي الجِلْد، فإنَّ الإنسان إذا أُخْبِر بما يَسُرُّه استنار وَجْهُه وتغَيَّر فسُمِّيَتْ بُشْرَى.

وقول المُفَسِّر رحمه الله: [الجَنَّة] هذا لا شك أنه مما يَدْخُل في البشرى، لكنه أَعَمُّ مِمَّا قال المُفَسِّر رحمه الله، كما قال تعالى: {لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ} [يونس: ٦٤] فمن البُشْرَى الرُّؤْيا الصَّالِحَة يراها الإنسانُ لِنَفْسِه أو يراها له مُؤْمِن، فإن هذه مِنَ البُشْرى.

وكما قال النَّبي ﷺ: "تِلْكَ عَاجِلُ بُشْرَى الْمُؤْمِنِ"، وقال: "الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ يَرَاهَا أَوْ تُرَى لَهُ"؛ مثل: أنْ يرَى مَن يُبَشَّرُ بالجنة؛ أنْ يرى أنَّه في نعيم، وما أشبهَ ذلك، هذا من البُشْرَى.

ومِنَ البُشْرَى أيضًا: أنْ يُوَفَّقَ للعَمَلِ الصَّالِح، فإذا رأيتَ الله سبحانه وتعالى وفَّقَكَ للعَمَلِ الصَّالِح المبنِيِّ على الإخلاص والمتابَعة لرَسولِ الله ﷺ فإنَّ هذا من البُشْرى.

ومن البشرى أيضًا: أنْ يُوفِّقك اللهُ عز وجل لمصاحَبَةِ الأَخْيارِ، فكما جاء في الحديث: "إِنَّ الْمَرْءَ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ؛ فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ"، فإذا وجَدْتَ أنَّ الله وفَّقَك لمصاحَبَةِ الأخيار، فإن هذا عنوانٌ على السَّعادَة.

=

ومن البشرى أيضًا: أنْ يُحِبَ الإنسانُ من يُحِبُّه اللهُ، فإنَّ النَّبي ﷺ سُئِلَ عن الرَّجُلِ يُحِبُّ القَوْم ولمَّا يَلْحَقْ بهم، فقال ﷺ: "مَنْ أَحَبَّ قَوْمًا فَهُوَ مِنْهُمْ"؛ قال أنس بن مالك رضي الله عنه: "مَا فَرِحْنَا بعد الإسلام بشَيْءٍ أَحَبَّ إلينا من هذا الحديث"؛ ثم قال: "فَأَنَا أُحِبُّ النَّبيَّ ﷺ وأُحِبُّ أبا بَكْرٍ وعُمَرَ"؛ فهذه من البُشْرَى.

المهم: أنَّ البُشرى كلُّ خبرٍ سارٍّ، فيشمل ما قاله المُفَسِّر رحمه الله: [الجَنَّة] وهي الغاية لكلِّ إنسانٍ، ويشمل ما كان علامةً على ذلك. قوله تعالى: {فَبَشِّرْ عِبَادِ} أمر اللهُ النَّبي ﷺ بأن يُبَشِّرَ عباد الله بالجَنَّة، وبكل ما يَسُرُّهم حتى في الدنيا، فالمؤْمِنُ مسرورٌ دائمًا وإن أصيب ببلاءٍ فإنه مسرورٌ؛ لأنَّه إذا أصيب بالبلاءِ فَصَبَرَ كان خيرًا له.

قوله: {فَبَشِّرْ عِبَادِ} الدال مكسورة مع أنها مفعولٌ به؛ لأنَّ أَصْلَها (عبادِي) فحُذِفَتِ الياءُ للتَّخْفيفِ؛ كما في قوله تعالى: {وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ} [الرعد: ١١]. أي: مِنْ (والِي)، وإن كان الياء في (والِي) غير الياء في (عبادي)؛ لأنَّ الياء في (والٍ) من أصْلِ الكَلِمَة، وأما هنا فهي كلمةٌ أخرى: الياء.

والمراد بالعباد هنا: خُصوصيَّة العبودِيَّة؛ أي: عباد الله الصَّالحين لا كُل عَبْد.

ثم بيَّن تعالى من صِفاتِهم، فقال: {الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ} هذا من علاماتِ عبادِ الله عز وجل؛ أَنَّهُم لا يُضيِّعونَ الفُرَصَ.

قوله: {يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ} أي: يُصْغونَ إليه، ولم يَقُلْ يَسْمَعونَ؛ لأنَّ الاستماع هو متابعة المُتكَلِّم والإنصاتُ إليه، بخلاف السَّماعِ، ونَضْرِبُ مثلًا لرَجُلٍ مَرَّ بقارئ يقرأ فسَمِعَه يقرأ، ورجل آخر مَرَّ بقارئ يقرأ فجَلَسَ إليه يُنْصِتُ؛ فالأول سامِعٌ، والثاني: مُسْتَمِعٌ؛ ولهذا قال العلماء بناء على هذا الفَرْق: إذا قرأ القارئ آية فيها سجْدَة وسَجَدَ، فإن السَّامِعَ لا يَسْجُد والمُسْتَمِع يَسْجُد؛ لأنَّ المُسْتَمِع متابعٌ، والسَّامِع ليس بمتابعٍ.

=

إذن: هؤلاء الذين يَسْتَمِعون القول لا يضيعون فُرْصَة، والمراد بـ {الْقَوْلَ}: القول (أل) هنا للعَهْد، وتشبه أن تكون للعهد الذِّكْري؛ لقوله: {فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ} أي: أَنَّهُم يَسْتَمِعون القَوْل الحَسَن، ليس كلَّ قَوْل

إذن: المرادُ بالقول هنا: القَوْل الحَسَن، أما اللَّغْوُ أو السَّيِّئ، فإن الله يقول: {وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا} [الفرقان: ٧٢]، وقال: {وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ} [القصص: ٥٥]، فإذا كانوا يُعْرِضون عن اللَّغو لأَنَّه لا فائِدَة فيه، فالمُحَرَّم من باب أَوْلى.

إذن: هؤلاء قومٌ عندهم حَزْم، عندهم شُحٌّ في الوقت، لا يستمعون إلا إلى القَوْل الحسن؛ فإذا استمعوا إلى القَوْل الحَسَن، فنحن نعلم أنَّ الحَسَن فيه ما هو أحسن وما حَسُن، فهم يتَّبِعون: {أَحْسَنَهُ}، فمثلًا: إذا سَمِعوا التَّرغيبَ في صلاة اللَّيل، وأنَّ أَكْثَرَها مثلًا إحدى عَشْرَة ركْعَةً، وأدناها ركعة واحدة، فالذي يتبعونه: الإِحْدى عشرة؛ لأنَّها أَحْسَن، وإذا سمعوا الإنفاقَ في طلب العلم، والإنفاق على فقيرٍ ليس في ضرورةٍ يتبعون: على طَلَبِ العِلْم؛ لأَنَّهُم يتبعون الأَحْسَن.

إذن: لم يفرطوا في الوَقْت، ولم يفرطوا في الأَفْضَل، بل كانوا يَسْتَمِعون كلَّ قولٍ حَسَن، ويتبعون الأَحْسَن منه، فإن تبعوا الحَسَن وتركوا الأَحْسَن، فإنَّهم لا يُلامون على ذلك، لكنهم ليسوا في قِمَّة الكمال؛ إذ الذي في قمة الكَمالِ هو الذي يتَّبعُ الأَحْسَن؛ قال المُفَسِّر رحمه الله: [{فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ} وهو ما فيه صَلَاحُهُم] لكنَّ الأَصْلَح يَتَّبِعون الأَصْلَح فالأَصْلَح.

قال الله تعالى: {أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللهُ}: {أُولَئِكَ} الإشارَةُ للبعيد، وإنما أشار إليهم إشارَةَ البَعيدِ مع قُرْبِ ذِكْرِهم للدَّلالة على عُلُوِّ مَنْزِلَتِهم، وهذا يقع كثيرًا في القرآنِ، يُشيرُ الله إلى الشَّيْءِ القَريبِ بِصيغَةِ البَعيدِ لعُلُوِّ مَرْتَبَتِه؛ كما قال الله تعالى: {الم ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ} [البقرة: ١ - ٢]؛ لأنَّه يقول: {ذَلِكَ

=

=

{الْكِتَابُ} الكتابُ قريبُ، لكن إشارة لعُلُوِّ مَرْتَبَتِهِ؛ وأحيانًا يشير بالقريب لقُرْبِهِ من مريدِهِ، كما في قوله تبارك وتعالى: {وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} [الأنعام: ١٥٥].

يعني ليس بعيدًا عليهم؛ قريبٌ، قريبٌ لهم، {مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ}، وهنا يقول: {أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللهُ} أشار إليهم إشارةَ البعيد إشارةً إلى عُلُوِّ مَرْتَبَتِهِم.

وقوله: {أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللهُ} هذه الجُمْلَة خَبَرِيَّة طرفاها مَعْرِفَة، وقد قال العلماء: إنَّ الجُمْلة الخَبَرِية إذا كان طرفاها مَعْرِفَة فإنها تفيد الحَصْر {أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللهُ} يعني: لا غَيْر.

وقوله: {هَدَاهُمُ اللهُ} يشمل هدايةَ الدَّلالة وهداية التَّوْفيق؛ يعني بَيَّن لهم الحقَّ وعَلِمُوه ثم اهْتَدَوْا به، والنَّاس في هذا المقام ثلاثةُ أَقْسامٍ:

١- قِسْمٌ ضلُّوا عن الهدى عِلْمًا وعَمَلًا.

٢- قِسْمٌ هُدُوا إلى الحَقِّ عِلْمًا وعَمَلًا.

٣- قِسْمٌ هُدُوا إلى الحَقِّ عِلْمًا ولم يَهْتَدوا إليه عَمَلًا.

فهل يمكن أن نقول: وقِسْمٌ اهتدوا إلى الحَقِّ عملًا، ولم يهتدوا إليه عِلْمًا؟

الجواب: لا يمكن؛ لأنَّه لا عَمَلَ بالحَقِّ إلا بعِلْمٍ بالحَقِّ، فالقِسْمَة رُباعية، لكن الطرف الرابع منها مُمْتَنِع.

إذن: في قوله تعالى: {أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللهُ} هداية دلالة وتَوْفيقٍ، وإن شِئْتَ فقل: هداية علم وعمل، فالدلالة العِلْم، والتَّوْفيق العَمَل.

وقوله: {وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ}: {وَأُولَئِكَ} كرَّرَ اسْمَ الإشارة تنويهًا بعُلُوِّ مَرْتَبَتِهِم.

وقوله: {هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ} أي: أصحابُ العُقُولِ؛ لأنَّ الإنسانَ كُلَّما كان للحَقِّ أَتْبَعَ كان أكْمَل عقلًا، وكلما نَقَصَ اتِّباعُ الحَقِّ في عقله كان أدَلَّ على قِلَّةِ عَقْلِه،

=

أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ (١٩).

{أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَة الْعَذَاب} أَيْ {لَأَمْلَأَن جَهَنَّم} الْآيَة {أَفَأَنْت تُنْقِذ} تُخْرِج {مَنْ فِي النَّار} جَوَاب الشَّرْط وَأُقِيمَ فِيهِ الظَّاهِر مَقَام الْمُضْمَر وَالْهَمْزَة لِلْإِنْكَارِ وَالْمَعْنَى لَا تَقْدِر عَلَى هِدَايَته فَتُنْقِذهُ مِنْ النَّار(١).

=

فَأَعْقَلُ النَّاس أَتْبَعُهُم لدين الله لا شكَّ، لأَنَّهُم هم الذين عندهم الحَزْم وانتهاز الفُرَصِ وحِفْظُ الوقت؛ ولهذا قال رحمه الله: [{وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ} أصحاب العقول].

فإن قال قائل: أليس الكُفارُ ذَوي عَقْلٍ؟

فالجوابُ: بلى، لكنهم ذوو عَقْلٍ إدراكيٍّ، لا عَقْلٍ رُشْدِيٍّ؛ ولهذا كانوا مُكَلَّفينَ ومُلْزَمينَ؛ لأنَّ عِنْدَهم عقل إدراكٍ، لكنهم غير مُوَفَّقينَ؛ لأَنَّهُم فقدوا عقل الرُّشْد.

(١)قوله تعالى: {أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ} [الزمّر: ١٩].

قال الطبري: يقول:"أفمن وجبت عليه كلمة العذاب في سابق علم ربك يا محمد بكفره به".

قال مقاتل:"يعني: وجب عليه كلمة العذاب يعني يوم قال لإبليس {..... لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ} [هود: ١١٩/ السجدة: ١٣]".

عن قتادة، قوله: " {أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ}، بكفره".

قال ابن كثير:"يقول تعالى: أفمن كتب الله أنه شَقِي".

قال السعدي:"أي: أفمن وجبت عليه كلمة العذاب باستمراره على غيه وعناده وكفره".

قوله تعالى: {أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ} [الزمّر: ١٩]، أي:"أفتقدر أن تنقذ مَن في النار؟".

=

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: أفأنت تنقذ يا محمد من هو في النار من حق عليه كلمة العذاب، فأنت تنقذه، فاستغنى بقوله: {تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ} عن هذا".

قال ابن كثير: أي:"تَقْدر تُنْقذُه مما هو فيه من الضلال والهلاك؟ أي: لا يهديه أحد من بعد الله؛ لأنه من يضلل الله فلا هادي له، ومن يهده فلا مضل له".

قال السعدي:"فإنه لا حيلة لك في هدايته، ولا تقدر تنقذ من في النار لا محالة".

قال الثعلبي:"أي: هو يكون من أهل النار، كرر الاستفهام كما كرر: {أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ} [المؤمنون: ٣٥] ".

قال الزجاج:"الألف الثانية في {أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ} جاءت مُؤَكِّدةً مُعَادَةً لمَّا طال الكلام، لأنه لا يصلح في العربية أن تأتي بألف الاستفهام في الاسم وألف أُخْرَى في الخبر، والمعنى: أفمن حق عليه كلمة العذاب أفانت تنقذه".

قال القرطبي:"كرر الاستفهام تأكيدا لطول الكلام".

قال الزمخشري:"أصل الكلام: أمّن حق عليه كلمة العذاب فأنت تنقذه، جملة شرطية دخل عليها همزة الإنكار والفاء فاء الجزاء، ثم دخلت الفاء التي في أوّلها للعطف على محذوف يدل عليه الخطاب، تقديره: أأنت مالك أمرهم، فمن حق عليه العذاب فأنت تنقذه، والهمزة الثانية هي الأولى، كرّرت لتوكيد معنى الإنكار والاستبعاد، ووضع {مَنْ فِي النَّارِ} موضع الضمير، فالآية على هذا جملة واحدة. ووجه آخر: وهو أن تكون الآية جملتين: أفمن حق عليه العذاب فأنت تخلصه؟ أفأنت تنقذ من في النار؟ ".

قال العثيمين: قوله تعالى: {أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ} ما هي كلمة العذاب؟ قال المُفَسِّر رحمه الله: هي قوله تعالى: {وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ} [هود: ١١٩].

=

وقيل: كلِمة العَذاب هي قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ (٩٦) وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ} [يونس: ٩٦، ٩٧]، وهذا القولُ أقرَبُ للصواب؛ لأن هذا القَوْلَ أخصُّ ممَّا قال المُفَسِّر رحمه الله؛ لأن قوله تعالى: {وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ} [هود: ١١٩] لا تَدُلُّ على شخصٍ بعَيْنه، بل تَدُلُّ على أن كلِمة الله سبحانه وتعالى اقتَضَت أن تُملأَ النَّار، لكن {الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ} هؤلاء قَوْم بعَيْنهم {لَا يُؤْمِنُونَ (٩٦) وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ} [يونس: ٩٦، ٩٧].

فالصحيح أن المُراد بـ {كَلِمَةُ الْعَذَابِ} هي ما ذكَره الله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ} [يونس: ٩٦] أنهم من أهل النار هؤلاءِ لا يُمكِن أن يُؤمِنوا.

وقوله تعالى: {أَفَمَنْ حَقَّ} كلِمة: {أَفَمَنْ} فيها ثلاث كلِمات: (الهَمْزة والفاء ومَنْ) فالهَمْزة للاستِفْهام، والفاء عاطِفة، و (مَن) يَقول المُفَسِّر رحمه الله عنها: إنها [شَرْطية]. ويَقول آخَرون: إنها مَوْصولة، ويَكون مَعناها حينئذٍ: (أَفالَّذي حَقَّ عليه كلِمة العذاب).

فإن قيل: إن حديث: "خَيَارُكُمْ فِي الجَاهِلِيَّةِ خِيَارُكُمْ فِي الْإِسْلَامِ" قد يُخالِف هذه الآيةَ في المَعنَى؟

قُلنا: لا، لأن مَعنَى قوله ﷺ: "خَيَارُكُمْ فِي الجَاهِلِيَّةِ خِيَارُكُمْ فِي الْإِسْلَامِ" أن العرَب كانوا قبائِلَ، وبعض القبائِل أشرَفُ من بعضٍ، فقال عليه الصلاة والسلام من كان له حسَبٌ وشَرَف في الجاهِلية، فهذا حسَبُه وشرَفُه له إذا فَقِه في دِين الله تعالى.

والرجُل الذَّكيُّ لا يَنطَبِق عليه هذا الحديثُ؛ لأن كونَه ذكيًّا، ثُم يَكون عاقِلًا قد يُحمَد وقد لا يُحمَد، ولاحِظْ أنه أحيانًا قد يَكون الذَّكاء المُفرِط سببًا للضلال - والعِياذُ بالله -؛ لأن الرجُل الذَّكيَّ يُورِد على نفسه أشياءَ، ويَفتَح على نفسه أشياءَ

=

=

مثل: لو كان كذا لكان كذا، ولو كان غافِلًا عن هذا لكان أحسَنَ له؛ ولهذا ما ضَرَّ أصحابَ الكلام والمَنطِق والفلاسِفة إلَّا حِدَّةُ ذَكائِهم، لكن السليم هو الذي يَستَمِرُّ، وقد تَمنَّى بعض أهل الكَلام أن يَموت على دِين عجائِز نَيْسابورَ.

وفي قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ﴾ الهمزة هنا كما بيَّنَّا للاستِفهام، ويُحتَمَل أن يَكون المُرادُ به الاستِفْهامَ الحقيقيَّ، أو أن المُراد به الإنكار، ويَتبَيَّن ذلك من تفسيرها.

وقوله تعالى: ﴿حَقَّ عَلَيْهِ﴾ أي: وجَبَ عليه، وذُكِر الفِعْل مع أن لَفْظة ﴿كَلِمَةُ﴾ مُؤنَّث؛ لوَجْهين:

الوجه الأوَّل: أن تأنيث لفظة ﴿كَلِمَةُ﴾ مَجازِيٌّ.

والوجه الآخَر: أنه مُنفَصِل عن عامِله، ولا يَجِب تأنيث الفِعْل إلَّا إذا كان الفاعِل مُؤنَّثًا حقيقيًّا مُتَّصِلًا، كما قال ابنُ مالك رحمه الله:

وَإِنَّمَا تَلْزَمُ فِعْلَ مُضْمَرِ ... مُتَّصِلٍ أَوْ مُفْهِمٍ ذَاتِ حِرِ

يَقول تعالى: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ﴾، أي: وجَب عليه كلِمة العَذاب وهي أنهم لا يُؤمِنون ولو جاءَتهم كلُّ آية، أو كما قال المُفَسِّر رحمه الله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩] والأوَّلُ أَظهَرُ.

وقوله تعالى: ﴿كَلِمَةُ الْعَذَابِ﴾ يَعنِي: الكلمة التي يَستَحِقُّون بها العَذاب، وهي أن كلَّ مَن خالَف أَمْر الله تعالى فإنه مُستَحِقٌّ للعَذاب.

ثُمَّ قال الله تعالى: ﴿أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ﴾؛ فقوله تعالى: ﴿أَفَأَنْتَ﴾ الخِطاب للرسول ﷺ، يَعنِي: هل تُنقِذه إذا حقَّتْ عليه كلِمة العَذاب؟

الجواب: (لا)، وإذا كان الجَوابُ: (لا)، فهو عَلامة على أن الاستِفْهام للنَّفي، وهنا نَسأَل الهَمْزة في ﴿أَفَمَنْ حَقَّ﴾، والهَمْزة في ﴿أَفَأَنْتَ﴾ هل لكل واحِدة مَعنًى مُستَقِلٌّ، أو أن الثانية تَوْكيد للأُولى؟

=

=

الجواب: إن كانت الجُمْلتان جُمْلةً واحِدة فالثانية تَوْكيد للأُولى، وإن كانت كلُّ جُملة مُستَقِلَّة عن الأخرى فالثانية أَصلِيَّة، يَعنِي: تَأسيسية لا تَوْكيدية، ومَهما يَكُن من أَمْر فإن مثل هذا التَّركيبِ أَعنِي: إذا أَتَت همزة الاستِفْهام وبعدها حَرْف عَطْف - قد سبَقَ لنا مِرارًا - أن لعُلماء النَّحْو في ذلك قَوْلين في الإعراب:

القول الأَوَّلُ: منهم مَن يَرَى أن الهَمْزة داخِلة على جُملة مُقدَّر تُناسِب المَقام، وحَرْف العَطْف على تِلكَ الجُمْلةِ المَحذوفة.

القولُ الآخَرُ: ومِنهم مَن يَرَى أن الهَمْزة داخِلة على الجُمْلة التي بعد حَرْف العَطْف، فيَكون حرف العَطْف على ما سبَقَ، وقُدِّمَت الهَمْزة للصدارة.

والقول الثاني أيسَرُ؛ لأن القول الأَوَّلُ صعوبتُه أنه قد يَتعَذَّر على الإنسان مَعرِفة المُناسِب للسِّياق، أو ربَّما يُقدِّر ما يَظُنُّه مُناسِبًا، وليس بمُناسِب.

وقوله تعالى: ﴿تُنْقِذُ﴾ فسَّرَها المُفَسِّر رحمه الله بمَعنَى: [تُخرِج]، لكنه تَفسير قاصِر؛ لأن كلِمة (تُخرِج) لا تَدُلُّ على أنه مُنقِذٌ من هلَكة، بل تَدُلُّ على معنًى أَخصَّ، ولا يَنبَغي أن نُفسِّر الأخصَّ بالأَعَمِّ؛ لأنك إذا فسَّرْت الأخصَّ بالأعَمِّ نقَصْتَ التَّفسير، فالإخراج يَكون إنقاذًا ويَكون غير إنقاذ، لكن الإنقاذ يَكون عن هلَكة، ولهذا لو فسَّر ﴿تُنْقِذُ﴾ بـ (تُنجِي) لكان أَوْضَحَ؛ لأن الإِنْجاء أيضًا يَكون من هلَكة، وَيكون قوله تعالى: ﴿أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ﴾ أي: تُنجِي مَن في النار، أي: مِن عَذابها.

قوله تعالى: ﴿مَنْ فِي النَّارِ﴾: ﴿مَنْ﴾ بمَعنَى (الذي)، ومَوْقعها الإعرابي مَفعولٌ به للفِعْل ﴿تُنْقِذُ﴾، وجُملة ﴿فِي النَّار﴾ جارٌّ ومجَرور مُتعَلِّق بالفِعْل ﴿تُنْقِذُ﴾، والتَّقدير: مَن دخَل في النار، أو يُقدَّر بما يُناسِب السِّياق، فان قُدِّر بكَلِمة (داخِل) مثَلًا قُلْنا: لا يَصلُح في صِلة المَوْصول؛ لأنك إذا قَدَّرْت (داخِل) تَحتاج إلى تَقدير مُبتَدَأ لتكون جُملة، لكن إذا قدَّرْت فِعْلًا ما احتَجْنا إلى تقدير شيءٍ آخَرَ، فنَقول: إنه في جميع صِلات المَوْصول لا يُقدَّر فيها إلَّا فِعْل؛ لأنك لو قَدَّرتَ اسمًا

=

=

احتَجْت إلى تَقدير مُبتَدَأ؛ لتَتِمَّ الجُملة، فيَكون التقدير مرَّتَيْن، أمَّا إذا قدَّرْت فِعْلًا صار التَّقدير مرَّة واحِدة.

وقوله تعالى: {أَفَمَنْ حَقَّ} قال المُفَسِّر رحمه الله: (مَنْ) شَرْطية، وهذا أَحَدُ الوَجهين في (مَن).

والوجهُ الآخَرُ: قال بعض العُلَماء رحمهم الله: إن (مَن) اسمُ مَوْصول، والمَعنَى: أَفالَّذي حَقَّ عليه كلِمة العَذاب تُنقِذه أنت، ودائِمًا اسمُ الشَّرْط والمَوصول يَتَعاوَران، أي: يُستَعار بعضُهما مَكانَ الآخَر.

قوله تعالى: {مَنْ فِي النَّارِ} قال المُفَسِّر رحمه الله: جواب الشَّرْط: وأُقيم فيه الظاهِر مَقام المُضمَر ومَعنى كلامه أنه أُقيم فيه الظاهِر الذي هو (مَن) مَقام المُضمَر، ويكون المَعنى على هذا الوَجْهِ: أفمَنْ حَقَّ عليه كلِمة العَذاب أفأَنْت تُنقِذه وكلام المُفَسِّر رحمه الله هذا يُوحِي بأن الجُملَتَيْن مُرتَبِطَتان، وليس كلُّ واحِدة مُستَقِلَّة عن الأخرى.

ولكِنْ هناك احتِمالٌ آخَرُ خِلافُ ما قاله المُفَسِّر رحمه الله وهو أن الثانية مُنفَصِلة عن الأُولى، وأن تَقدير الجُملة الأُولى: {أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ} تَدفَع عنه أو كلِمة نحوها، يَعنِي: أَفتَدْفَع عمَّن حَقَّ عليه كلِمة العَذاب، ثُمَّ استَأْنَف فقال: {أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ}، ولها مَعنَيان؛ الأَوَّلُ: أن تَجعَله مُؤمِنًا بحيث لا يَستَحِقُّ النار، والثاني: تُنقِذه مِن النار إذا دخَل فيها.

والحاصِلُ: أن مُؤَدَّى الجُمْلتين واحِد: أن مَن حَقَّ عليه كلِمة العَذاب فإنه لا يُمكِن لا للرسول ﷺ ولا لغيره أن يُنقِذه من النار.

وقول المُفَسِّر رحمه الله: [وأُقيم فيه الظاهِر مَقام المُضمَر يُفيد مَعانِيَ، منها: أن مَن حَقَّ عليه كلِمة العذاب فهو في النار، لأنه لو قال: أَفأَنْتَ تُنقِذه. لكان الإنسان

=

=

يَقول: من أيِّ شَيءٍ أُنقِذه، فإذا قال: أَفأَنْتَ تُنقِذ مَن في النار. علِمْنا أن هذا الذي حَقَّ عليه كلِمة العَذاب في النار.

يَقول المُفَسِّر رحمه الله: والهمزة للإنكار يَعنِي الهَمزة المَوْجودة في: {أَفَمَنْ} وفي: {أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ} وهُما هَمْزة واحِدة على القول بأن الجُمْلتين واحِدة، فتَكون الثانية تَوْكيدًا للأُولى.

والحاصِلُ: أن الله تعالى يَقول للرسول عليه الصلاة والسلام: هل مَن حقَّتْ عليه كلِمة العذاب يُمكِن أن تمنَعه مِن استِحْقاقها، وتُنقِذه.

والجَوابُ: أنه لا يُمكِن لا هذا ولا هذا؛ لأن النبيَّ ﷺ لا يَملِك أن يَهدِيَ أحدًا حتى لا تَحِقُّ عليه كلِمة العَذاب، ولا يُمكِن أن يُنقِذ أحَدًا من النار؛ وَيدُلُّ عليه قوله عليه الصلاة والسلام حين نزَل قوله تعالى: {وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ} [الشعراء: ٢١٤] جمَعَ أَقارِبَه وصار يُخصِّصُهم: يا فُلان ابنَ فلان لا أُغنِي عنك من الله شَيئًا. إلى أن قال ﷺ: "يَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَلِينِي مِنْ مَالِي مَا شِئْتِ لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئًا"، فهي ابنتُه يَقول لها: المال أَستَطيع أن أَنفَعَكِ به، ولكن لا أُغنِي عنكِ من الله شيئًا، فإذا كان لا يُغنِي عن ابنَتِه شيئًا فمَن سِواها من بابِ أَوْلى.

فإن قال قائِل: كيف نَجمَع بين هذا وبين شفاعة النبيِّ ﷺ لعَمِّه أبي طالب حتى كان في ضَحضاحٍ من نار وعليه نَعْلان من نارٍ يَغلِي منهما دِماغُه؛ فكيف هنا أَغنَى شَفْع ونَفَعَتْه الشفاعة؟

فيُقال: أوَّلًا: الرسول عليه الصلاة والسلام لم يَتمَكَّن من إخراجه من النار، وإذا لم يَتمَكَّن من إخراجه من النار لم يَكُن مُعارِضًا للآية، لأن الله تعالى قال: {أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ}، والنبيُّ ﷺ ما أَنقَذَه.

ثانيًا: أن التَّخفيف عن أبي طالِب ليس من أجل أنه عمُّ الرسول ﷺ، فهذا أبو لَهَبٍ عَمُّه ولكن لم يُغْنِ عنه شيئًا، لكن لِما قام به أبو طالب من الدِّفاع العظيم عن

=

=

الإسلام وعن رسول الإسلام ﷺ، فإنه دافَع عنه مُدافَعةً عظيمة، بل إنه كان يَمدَح الرسول ﷺ في المَحافِل وشَهِد له بالرِّسالة، فقال:

لَقَدْ عَلِمُوا أَنَّ ابْنَنَا لَا مُكَذَّبٌ ... لَدَيْنَا وَلَا يُعْنَى بِقَوْلِ الْأَبَاطِلِ

هذا بَيْتٌ من لامِيَّته المشهورة التي قال عنها ابنُ كثيرٍ رحمه الله قال: "هذه يَنبَغي أن يمون من المُعلَّقات، بل هي أَبلَغُ من المُعلَّقات، والمُعلَّقات هي قصائِدُ اختارَها العرَب وسَمَّوها: المُعلَّقاتِ السَّبعَ، وأَضافوا إليها ثلاثًا سَمَّوْها: المُعلَّقاتِ العَشرَ، وهذه القصائِدُ علَّقوها في جوف الكعبة حِفاظًا عليها وتَنويهًا بها، لكن لامِيَّة أبي طالب أَشَدُّ وأَشَدُّ، يَعنِي: أحسَنُ وأعذَبُ، فشهِد للرسول ﷺ بأنه غير مُكذَّب، وأنه لا يُعنَى بقول الأَباطِل: السحَرة، بل إنه ﷺ أصدَقُ الناس وأنزَهُ الناس.

ثُمَّ يَقول في قصيدةٍ أُخرى:

وَلَقَدْ عَلِمْتُ بِأَنَّ دِينَ مُحَمَّدٍ ... مِنْ خَيْرِ أَدْيَانِ الْبَرِيَّةِ دِينَا

لَوْلَا المَلَامَةُ أَوْ حَذَارِ مَسَبَّةٍ ... لَرَأَيْتَنِي سمْحًا بِذَاكَ مُبِينَا

مثل هذا الكَلامِ لو سمِعه الناس آمَنوا، فهو في الحقيقة داعِية للإسلام لكنه غير مُسلِمٍ، نَسأَل اللهَ تعالى العافِيَةَ!.

إِذَنِ: التَّخفيفُ عنه لا من أَجْل أنه عمُّ الرسول ﷺ، لكن لأَجْل أنه دافَع عن الإسلام وحمَى النبيَّ ﷺ حِمايةً تامَّة، وأَعاله أيضًا فإنه بَعْد موت جدِّه عبد المُطَّلِب كان عند عَمِّه أبي طالِب، وهذا معروف، فمِن عدْل الله عز وجل أن الله شكَرَ هذا العَمَلَ وخفَّف عنه بشفاعة النبيِّ ﷺ حتى صار "فِي ضَحْضَاحٍ مِنْ نَارٍ وَعَلَيْهِ نَعْلَانِ مِنْ نَارٍ يَغْلِي مِنْهُمَا دِمَاغُهُ"، أَعاذَني الله تعالى وإيَّاكم من النار.

وقوله تعالى: {أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ}، قال المُفَسِّر رحمه الله: والمعنى: لا تَقدِر على هِدايته فتُنقِذه من النار وصدَق الله سبحانه وتعالى، فالإنسان لا يُمكِن

=

لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعْدَ اللهِ لَا يُخْلِفُ اللهُ الْمِيعَادَ (٢٠).

{لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقُوا رَبّهمْ} بِأَنْ أَطَاعُوهُ {لَهُمْ غُرَف مِنْ فَوْقهَا غُرَف مَبْنِيَّة تَجْرِي مِنْ تَحْتهَا الْأَنْهَار} أَيْ مِنْ تَحْت الْغُرَف الْفَوْقَانِيَّة وَالتَّحْتَانِيَّة {وَعْد الله} مَنْصُوب بِفِعْلِهِ الْمُقَدَّر {لَا يُخْلِف الله الْمِيعَاد} وَعْده[1].

=

أن يُنقِذ أحَدًا من النار أبَدًا، فإذا كان نبيُّ الله ﷺ لا يَقدِر على ذلك فمَن دُونَه من بابِ أَوْلى.

(١)قوله تعالى: {لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ} [الزمّر: ٢٠].

قال مقاتل:"وحدوا ربهم ".

قال الطبري: يقول:"لكن الذين اتقوا ربهم بأداء فرائضه واجتناب محارمه".

قال السعدي:"لكن الغنى كل الغنى، والفوز كل الفوز، للمتقين الذين أعد لهم من الكرامة وأنواع النعيم، ما لا يقادر قدره".

قوله تعالى: {لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ} [الزمّر: ٢٠]، أي:"لهم في الجنة غرف مبنية بعضها فوق بعض".

عن مجاهد:"{لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ}، قال: علالي".

قال الطبري: يقول:"لكن الذين اتقوا ربهم بأداء فرائضه واجتناب محارمه، لهم في الجنة غرف من فوقها غرف مبنية علاليّ بعضها فوق بعض".

قال السعدي:"{لَهُمْ غُرَفٌ} أي: منازل عالية مزخرفة، من حسنها وبهائها وصفائها، أنه يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها، ومن علوها وارتفاعها، أنها ترى كما يرى الكوكب الغابر في الأفق الشرقي أو الغربي، ولهذا قال: {مِنْ

=

=

فَوْقِهَا غُرَفٌ} أي: بعضها فوق بعض {مَبْنِيَّةٌ} بذهب وفضة، وملاطها المسك الأذفر".

قال ابن كثير:"ثم أخبر عن عباده السعداء أنهم لهم غرف في الجنة، وهي القصور الشاهقة، {مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ}، أي: طباق فوق طباق، مَبْنيات محكمات مزخرفات عاليات".

قال ابن كثير:"ثم أخبر عن عباده السعداء أنهم لهم غرف في الجنة، وهي القصور الشاهقة {مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ}، أي: طباق فوق طباق، مَبْنيات محكمات مزخرفات عاليات.

عن علي، رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "إن في الجنة لغرفًا يُرَى بطونها من ظهورها، وظهورها من بطونها" فقال أعرابي: لمن هي يا رسول الله؟ قال: "لمن أطاب الكلام، وأطعم الطعام، وصلى لله بالليل والناس نيام".

و قال رسول الله ﷺ: " إن فى الجنة غرفا يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها أعدها الله لمن أطعم الطعام وألان الكلام وتابع الصيام وصلى بالليل والناس نيام".

عن أبي هريرة، رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: "إن أهل الجنة ليتراءون في الجنة أهل الغرف، كما تراءون الكوكب الدري الغارب في الأفق الطالع، في تفاضل أهل الدرجات". فقالوا: يا رسول الله، أولئك النبيون؟ فقال: "بلى، والذي نفسي بيده، وأقوام آمنوا بالله وصدقوا الرسل".

قوله تعالى: {تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ} [الزمّر: ٢٠]، أي:"تجري مِن تحت غرفهم ومنازلهم الأنهار".

قال الطبري: يقول:"تجري من تحت أشجار جناتها الأنهار".

قال ابن كثير:"أي: تسلك الأنهار بين خلال ذلك، كما يشاءوا وأين أرادوا".

=

=

قال السعدي:"{تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ} المتدفقة، المسقية للبساتين الزاهرة والأشجار الطاهرة، فتغل بأنواع الثمار اللذيذة، والفاكهة النضيجة".

عن أبي مالك قوله: " {تجري من تحتهم الأنهار}، يعني: تحت منازلهم وأرضهم".

قال مسروق: "أنهار الجنة تجري في غير أخدود، ثمرها كالقلال، كلما نزعت ثمرة عادت مثلها أخرى، والعنقود اثنا عشر ذراعا".

قوله تعالى: {وَعْدَ اللهِ لَا يُخْلِفُ اللهُ الْمِيعَادَ} [الزمّر: ٢٠]، أي:"وعدها الله عباده المتقين وعدًا متحققًا، لا يخلف الله الميعاد".

قال الطبري:"يقول جل ثناؤه: وعدنا هذه الغرف التي من فوقها غرف مبنية في الجنة، هؤلاء المتقين، والله لا يخلفهم وعده، ولكنه يوفي بوعده".

قال ابن كثير:"أي: هذا الذي ذكرناه وعد وعده الله عباده المؤمنين {إِنَّ اللهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ} ".

قال السعدي:"وقد وعد المتقين هذا الثواب، فلا بد من الوفاء به، فليوفوا بخصال التقوى، ليوفيهم أجورهم".

قال العثيمين: قوله تعالى: {لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا} هذا الاستِدراكُ من أحسَن ما يَكون؛ فلمَّا قال تعالى: {أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي} استدرَك هذه الحالَ، أَعنِي: حالَ مَن لا يَدخُل النار، فقال تعالى: {لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ... } إلخ.

لكن هنا لا تَعمَل؛ لأنها مخُفَّفة، وإذا خُفِّفَت تَكون لمُجرَّد العَطْف فقَطْ، ومَعناها: الاستِدْراك، وعليه يكون {الَّذِينَ} مُبتَدَأ، وخبَرُه جُملة {لَهُمْ غُرَفٌ}.

وقال المُفَسِّر رحمه الله: {لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ} بأن أَطاعوه فأَفادَنا المُفَسِّر رحمه الله بأن التَّقوى هي الطاعة، وأَجمَع ما قِيل في التَّقوى: أنها طاعة الله عز وجل

=

بامتِثال أَمْره، واجتِناب نَهيِه؛ لأنه أَمَر ونَهَى لا للهَوى؛ ولهذا مَن أَطاع الله تعالى لمُجرَّد الهوى لا يَكون كمَن أَطاع الله تعالى؛ لأن الله تعالى أَمَر أو نَهَى، هناك كثيرٌ من الناس يُطيع الله تعالى؛ لأن نَفْسه تَهْوى ذلك، لكن الطاعة الحقيقية هي التي يَكون الباعِث عليها امتِثال أمر الله تعالى تَرْكًا للمَنهِيَّات وفِعْلًا للمَأمورات.

وقوله تعالى: {لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ}: {اتَّقَوْا رَبَّهُمْ} إشارة إلى أن تَقواهم مَبنِيَّة على أَساس؛ لأنه ربهم، والرُّبوبية هنا تَشمَل الربوبية القدَرية والرُّبوبية الشَّرْعية؛ لأن الله تعالى ربٌّ مالِكٌ للكون قدَرًا، ومالِكٌ للحُكْم شَرْعًا، فهُمْ يَتَّقون ربهم؛ لأنه الذي خلَقَهم، ورزَقهم، وأَعَدَّهم، وأَمَدَّهم، يَعبُدون ربهم؛ لأنه الحاكِم فيهم، وهو الذي يَأمُرهم ويَنهاهُم، فتقومون بأَمْره ويَدَعون نَهيَه.

مَسأَلة: هناك بعض الناس عندما يُؤدِّي عِبادة من العِبادات يَتَّخِذها عادةً ليس كأَمْر من الله تعالى، فهل يُؤجَر على فِعْل هذا؟

الجَوابُ: أنه على كل حال تَبرَأ الذِّمَّة بذلك، لكنه لم يَصِل إلى درَجة الكَمال؛ ولهذا نحن نَقول دائِمًا: يَنبَغي للإنسان عند فِعْل العِبادة أن تَكون له ثلاثُ نوايا: نِيَّة العمَل، ونِيَّة المَعمول له، ونِيَّة المُتابَعة.

فنِيَّة العمَل هي أن الرجُل يَنوِي عند الظُّهر صلاة الظُّهر، ونِيَّة المَعمول له أنه يُريد بذلك التَّقرُّب لله عز وجل، وهذا كثيرًا ما يَغفُل الإنسان عنه، ويَصُدُّه الشيطان عن ذلك.

ونِيَّة المُتابَعة للرسول ﷺ، فكُلُّ هذه المَعاني - نَسأَل الله تعالى أن يَعفوَ عنَّا - تَغيب عنَّا كثيرًا؛ لأنك إذا نوَيْت أو إذا شعَرْت بهذه النِّيةِ أَحبَبْت الله عز وجل، وأَحبَبْت الرسول ﷺ، وشعَرْت بأنك عبد لله مُتَّبِع للرسول ﷺ، وتَجِد للعِبادة طَعمًا لا تَجِده إذا أَتَيْت بها على سَبيل العادة.

ولهذا نَقول: عادات المُوظَّف عِبادات، وعِبادات الغافِل عادات.

=

وقوله تعالى: {لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ} غُرَف جمع غُرْفة، والغُرْفة هي البِناء العالي؛ لأن البِناء العاليَ إذا كان في الأسفَل يُسمَّى: حُجْرة، وإذا كان فوقُ يُسمَّى: غُرْفة، وهذه الغُرَفُ مَبنيَّة يَقول عنها: {مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ} يَعنِي: طبَقات قُصور عالية شامِخة، مَبنيَّة من لبِنات من الذهَب والفِضَّة، فلهم جَنَّتان من ذهَب آنيَتُهما وما فيهما، وجَنَّتان من فِضَّة آنيَتُهما وما فيهما، وهذه الغُرَفُ المَبنيَّةُ من الذهَب والفِضَّة أيضًا ليست على ما نُشاهِد في الدنيا من اللَّمَعان والحُسْن الجَذَّاب، بل هي أَشَدُّ وأعظَمُ، فلا يُمكِن أن نَتَصوَّر حُسْن هذه الغُرَفِ، ولا مَوادَّ بِنائِها أبدًا، لأن الله تعالى يَقول: {فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [السجدة: ١٧]، ويَقول في الحديث القُدسيِّ: "أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ". وهي ليس فيها شيء ممَّا في الدُّنيا إلَّا الأَسْماء فقط، لكن الحقائِق تَختَلِف اختِلافًا عظيمًا، فهي فيها عِنَب، نَخْل، ورُمَّان، لكن ليس كالمَوجود عِندنا في الدُّنيا، بل هي شيء لا يُمكِن أن يَتصَوَّره الإنسان، فهذه الجَنَّةُ مُعدَّة للمُتَّقين الذين اتَّقَوْا ربهم كما قال تعالى: {وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ} [آل عمران: ١٣٣].

فالعمَل يَسير والعِوَض كثير، فالعمَل يَسير على مَن يَسَّره الله تعالى عليه، والله تعالى يُيَسِّره على مَن صدَق النِّيَّة في التَّوجُّه إلى الله تعالى، ولم يَركَن إلى الدنيا، لأن الرُّكون إلى الدُّنيا ولا سيَّما ممَّن أعطاه الله تعالى العِلْم ذُلٌّ وانحِطاط؛ قال تعالى: {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (١٧٥) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ}، والمَثَل أَخَسُّ الأمثال؛ قال تعالى: {فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ

=

=

يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ ... } إلخ [الأعراف: ١٧٤ - ١٧٦].

فهذه الغُرَفُ التي أعدَّها الله تعالى للمُتَّقين الذين أَخلَصوا النِّيَّة لله تعالى رجاءَ الوُصول إلى ثوابه، ولا يَفعَلون طاعة إلَّا وهُمْ يُؤمِنون بأنَّ لها ثوابًا في هذه الجَنَّةِ؛ لأن هذه العَقيدةِ يَحمِلك على إحسان العِبادة، فإذا علِمْت أنه ما من عِبادة تَقوم بها إلَّا من أَجْل الحُصول على هذا الثوابِ سَوْف تَحرِص على العمَل، وتُتقِن العمَل.

وقوله تعالى: {تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ} أي: من تَحْت هذه الغُرَفِ العُليا وما تَحتَها.

و {الْأَنْهَارُ} جمع نهْر أو نهَر؛ لأن نهر أو نهر من الكلمات الثلاثية التي ثانيها حرفُ حَلْق؛ ومثلها بحر، فيَجوز فيها تَسكين الحَرْف الثاني وفَتْحُه، تَقول:

و {الْأَنْهَارُ} جمع نَهْر أو نهَر؛ لأن الكلِماتِ الثلاثيةَ التي ثانيها حَرْف حَلْق مثل كلمة نَهْر وبَحْر يَجوز فيها تَسكين الحَرْف الثاني وفَتْحُه، تَقول: نَهَر ونَهْر وبَحْر وبَحَر، فهنا نَقول: أنهار جَمْع: نَهْر، وهي أربعة أنواع بيَّنها الله تعالى في سورة القِتال، فقال: {مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى} [محمد: ١٥]؛ فهذه أربعةُ أنواعٍ.

فمِن نِعَم الله تعالى {أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ}، يَعنِي: غير قابل لأَنْ يَكون آسِنًا، والآسِ هو المُتغيِّر، وأنتم تَعلَمون أن الماء إذا بَقِيَ في الإناء مُدَّة أو في مَقرِّه في البِئْر مُدَّة يَتغيَّر.

ومِن نِعَم الله تعالى أنها أنهار لا تُحلَب من الضُّروع، ولا تَأتِي من نَحْل؛ أنهار تَمشِي على الأرض تَجرِي، وقد جاء في الأَثَر: "أَنَّها تَجرِي بلا أُخدودٍ" أي: بلا مجَارٍ على وجهِ الأَرْض، ولا تَحتاج إلى حَفْر سَواقٍ، ولا إلى جُدران تَمنَع من سَيَلان

=

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا

=

الماء، بل تَجري بدون شيء، وورَد أيضًا: "أنها تَجرِي باختِيار الإنسان حيث يُوجِّه النهرَ حيث شاء، ويُمسِكه حيث شاء"؛ لأن الله تعالى يَقول: {وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [الزخرف: ٧١]، نَسأَل الله تعالى أن يَجعَلنا وإيَّاكم مِنهم.

ومِن نِعَم الله تعالى علينا في الأرض أن: نَهْر النِّيل وسَيْحونَ وجَيْحونَ من الجَنَّة، وقد ورَد فيه الحديث أنها "مِنْ أَنْهَارِ الجَنَّةِ"، لكن المَعنى أنها تُشبِه أنهار الجَنَّة بالصَّفاء، وليس مَعناه: أنها نزَلَت من السَّماء، فهو من باب التَّشبيه البَليغ.

وقوله تعالى: {وَعْدَ اللهِ لَا يُخْلِفُ اللهُ الْمِيعَادَ}: {وَعْدَ} يَقول المُفَسِّر رحمه الله: [مَنصوب بفِعْله المُقدَّر]، أي: وعَدوا وَعْدَ الله، أو على رأيٍ آخَرَ محُتَمَل: التَّقدير أَنجَزوا وعدَ الله، يَعنِي: أَنجَز الله لهم وَعْده، وعلى هذا يَكون مَنصوبًا بفِعْلٍ مُقدَّر من غير فِعْله، أمَّا على رأيِ المُفَسِّر رحمه الله فهو مَصدَرٌ مَحذوف العامِل.

قوله تعالى: {لَا يُخْلِفُ اللهُ الْمِيعَادَ} قال المُفسِّر رحمه الله: وَعْدَهُ فأَفادَنا بأَنَّ (أل) هُنا نائِبة مَناب الضمير، وأن المِيعاد بمَعنَى: الوَعْد؛ فقوله تعالى: {لَا يُخْلِفُ اللهُ الْمِيعَادَ} أي: أنه لا يُخلِف ما وعَدَه بشيء آخَرَ؛ لأن لفظة (أَخلَفَ) تَدُلُّ على إبدال شيء بشيء، كما قال تعالى: {وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ} [سبأ: ٣٩]، بخِلاف (خلَفَ) فإنها تَدُلُّ على خُلفِ شيءٍ لشيءٍ، فيُقال: خلَفَه. أي: أتى بعدَه، أَخلَفَه بمَعنَى: جعَل له بَديلًا؛ ولهذا يَقول المُصاب: "اللَّهُمَّ آجِرْنِي فِي مُصِيبَتِي وَأَخْلِفْ لِي خَيْرًا مِنْهَا"، يَعنِي: أَعطِني بدَلًا عنها.

وقوله تعالى: {لَا يُخْلِفُ اللهُ الْمِيعَادَ} إنما كان كذلك لكمال صِدْقه، وكمال قُدْرته، لأن إخلاف الميعاد إمَّا أن يَكون لكذِب الواعِد، وإمَّا أن يَكون لعَجْزه، والله عز وجل مُنزَّهٌ عن هذا وهذا، فهو كامِل الصِّدْق كامِل القُدْرة.

مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (٢١).

{أَلَمْ تَرَ} تَعْلَم {أَنَّ الله أَنْزَلَ مِنْ السَّمَاء مَاء فَسَلَكَهُ يَنَابِيع} أَدْخَلَهُ أَمْكِنَة نَبْع {فِي الْأَرْض ثُمَّ يُخْرِج بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانه ثُمَّ يَهِيج} يَيْبَس {فَتَرَاهُ} بَعْد الْخُضْرَة مَثَلًا {مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلهُ حُطَامًا} فُتَاتًا {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى} تَذْكِيرًا {لِأُولِي الْأَلْبَاب} يَتَذَكَّرُونَ بِهِ لِدَلَالَتِهِ عَلَى وَحْدَانِيَّة الله تَعَالَى وَقُدْرَته(١).

---

(١)قوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً} [الزمّر: ٢١].

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: {أَلَمْ تَرَ} يا محمد {أَنَّ اللهَ أَنزلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً} وهو المطر".

قال ابن كثير:"يخبر تعالى: أن أصل الماء في الأرض من السماء كما قال تعالى: {وَأَنزلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا} [الفرقان: ٤٨]".

قوله تعالى: {فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ} [الزمّر: ٢١]، أي:"فأدخله في عيون وأنهار من الأرض".

قال الطبري:"يقول: فأجراه عيونا في الأرض، وأحدها ينبوع، وهو ما جاش من الأرض".

قال ابن قتيبة:"أي: أدخله [فيها] فجعله ينابيع: عيونا تنبع".

قال أبو عبيدة:"{يَنَابِيعَ}: واحدها: «ينبوع»، وهو ما جاش من الأرض".

قال الزجاج:"{ينابيعُ}: الأمكنة التي ينبع منها الماء".

قال ابن كثير:"فإذا أنزل الماء من السماء كَمَن في الأرض، ثم يصرفه تعالى في أجزاء الأرض كما يشاء، ويُنبِعه عيونًا ما بين صغار وكبار، بحسب الحاجة إليها".

=

=

قال ابن عباس:"ليس في الأرض ماء إلا نزل من السماء، ولكن عروق في الأرض تغيره، فذلك قوله تعالى: {فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ}، فمن سره أن يعود الملح عذاب فليصعده".

عن ابن جريج، في قوله: " {فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ}، قال: عيونًا".

قال الشعبي:"كلّ ندى وماء في الأرض من السماء نزل".

وقال سعيد بن جبير: "أصله من الثلج يعني: أن الثلج يتراكم على الجبال، فيسكن في قرارها، فتنبع العيون من أسافلها".

قوله تعالى: {ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ} [الزمّر: ٢١]، أي:"ثم يُخْرج بهذا الماء زرعًا مختلفًا ألوانه وأنواعه".

قال ابن كثير:"أي: ثم يخرج بالماء النازل من السماء والنابع من الأرض زرعا {مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ}، أي: أشكاله وطعومه وروائحه ومنافعه".

قال الزجاج:"ألوانه خُضْرة وصُفْرة وحُمْرة وبياض وغير ذلك".

عن الحسن بن مسلم بن يَنّاق، قال: " ثم أنبت بذلك الماء الذي أنزله من السماء فجعله في الأرض عيونا زرعا {مختلفا ألوانه}، يعني: «أنواعا مختلفة من بين حنطة وشعير وسمسم وأرز، ونحو ذلك من الأنواع المختلفة» ".

قوله تعالى: {ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا} [الزمّر: ٢١]، أي:"ثم ييبس بعد خضرته ونضارته، فتراه مصفرًا لونه".

قال ابن كثير:"أي: بعد نضارته وشبابه يكتهل {فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا}، قد خالطه اليُبْس".

قال الأصْمَعي: "يقال للنبْتِ -إذَا تَمَّ جفافه-: قد هَاجَ يَهِيجُ هيجًا".

قال ابن قتيبة:"{ثم يهيج}، أي: ييبس".

قال أبو عبيدة:"إذا ذوى الرّطب كله فقد هاج ويقال: هاجت الأرض، وهو إذا ذوى ما فيها من الخضر".

=

=

قال الطبري:" {فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا}، يقول: فتراه من بعد خُضرته ورطوبته قد يبس فصار أصفر، وكذلك الزرع إذا يبس اصفرّ".

عن الحسن بن مسلم بن بيان، قال: " ثم ييبس ذلك الزرع من بعد خضرته، يقال للأرض إذا يبس ما فيها من الخضر وذوي: هاجت الأرض، وهاج الزرع".

قوله تعالى: {ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا} [الزمّر: ٢١]، أي:"ثم يجعله حطامًا متكسِّرًا متفتتًا".

قال أبو عبيدة:"بعد صفرته، أي: رفاتا، والحطام والرّفات والدرين واحد فى كلام العرب وهو ما يبس فتحاتّ من النبات".

قال ابن كثير:"أي: ثم يعود يابسا يتحطم".

قال ابن قتيبة:" {ثم يجعله حطاما}، مثل: الرفات والفتات".

قال الطبري:"والحطام: فتات التبن والحشيش، يقول: ثم يجعل ذلك الزرع بعد ما صار يابسا فُتاتا متكسرا".

قوله تعالى: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ} [الزمّر: ٢١]، أي:"في فِعْل الله ذلك لَذكرى وموعظة لأصحاب العقول السليمة".

قال الطبري: يقول:"إن في فعل الله ذلك كالذي وصف لذكرى وموعظة لأهل العقول والحجا يتذكرون به، فيعلمون أن من فعل ذلك فلن يتعذر عليه إحداث ما شاء من الأشياء، وإنشاء ما أراد من الأجسام والأعراض، وإحياء من هلك من خلقه من بعد مماته وإعادته من بعد فنائه، كهيئته قبل فنائه، كالذي فعل بالأرض التي أنزل عليها من بعد موتها الماء، فأنبت بها الزرع المختلف الألوان بقدرته".

قال السمعاني:"الذكرى هي: التذكرة".

قال ابن كثير: {لأولِي الألْبَابِ} " أي: الذين يتذكرون بهذا فيعتبرون إلى أن الدنيا هكذا، تكون خَضرةً نضرةً حسناء، ثم تعود عَجُوزا شوهاء، والشاب يعود شيخا

=

=

هَرِما كبيرا ضعيفا قد خالطه اليبس، وبعد ذلك كله الموت. فالسعيد من كان حاله بعده إلى خير، وكثيرًا ما يضرب الله تعالى مثل الحياة الدنيا بما ينزل الله من السماء من ماء، وينبت به زروعا وثمارا، ثم يكون بعد ذلك حُطاما، كما قال تعالى: {وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا} [الكهف: ٤٥] ".

قال العثيمين: قوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ... } الهَمزة هنا للاستِفهام، والغالِب أن هَمْزة الاستِفهام إذا دخَلَت على نفيٍ تَكون للتَّقرير، فمَعنَى: {أَلَمْ تَرَ} أي: قد رأَيْت، ونَظير هذا قوله تعالى: {أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ} [الشرح: ١]، أي: قد شَرَحْنا لك صَدْرك، فيَكون الاستِفْهام هنا للتَّقرير، أمَّا (لم) فهِيَ حرف جَزْم ونفيٍ وقَلْب.

وتَفسير المُفَسِّر رحمه الله: تَرى بـ[تَعلَم] فيها احتِمال: أن الرُّؤية هنا رُؤية العِلْم، واحتِمال: أن الرُّؤية رُؤية البصَر، فإن كان شيء مُشاهَدًا للإنسان حيث يَكون حولَه، فهي رُؤية بصَر تَتْبَعها رُؤية العِلْم، وإن كان بعيدًا يَسمَع عنه سماعًا فهي رُؤْية عِلْم.

والخِطاب في قوله تبارك وتعالى: {أَلَمْ تَرَ}، إمَّا للنبيِّ ﷺ، وإمَّا لكل مَن يَصِحُّ خِطابه.

وقوله تعالى: {مِنَ السَّمَاءِ} أي: من العُلوِّ، وليس المُرادُ بذلك السَّماءَ السَّقْف المَحفوظ، لأنه من المعلوم أن المطَر يَنزِل من السَّحاب، والسَّحاب مُسخَّرٌ بين السماء والأرض، وعلى هذا يَكون المُرادُ بالسماء العُلوَّ.

وقوله تعالى: {مَاءً} هو المَطَر.

وقوله تعالى: {فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ}، سلَكه بمَعنَى: أَدخَله، ومنه سَلْك الخَرَز، يُدخَل فيها حتى يَنظِمها، واليَنابيع جَمْع يَنبوع، يَقول المُفَسِّر رحمه الله:

=

[أدخَله في أَمكِنةٍ في الأرض]، يَعنِي: يَنبُع متى أَراده الإنسان، وذلك من تمَام الحِكْمة وتمَام الرَّحْمة؛ لأن هذا الماءَ لو بَقِيَ على ظَهْر الأرض لأَنْتَن وفسَد ولأَفسَد غيره أيضًا، فكان من رحمة الله أن يُدخِله في الأرض يُخزِّنه كما قال تعالى في آيةٍ أُخرى: {وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ} [المؤمنون: ١٨]، {وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ} [الحجر: ٢٢].

وقوله تعالى: {ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ}: {ثُمَّ} تَدُلُّ على التَّرتيب بمُهْلة؛ لأن هذا الذي يَنزِل يَخرُج بالمطَر لا يَخرُج فورًا، لكنه يَخرُج بالتَّدريج، ومن سُنَّة الله سبحانه وتعالى أن تكون الأشياء بالتَّدريج؛ لئَلَّا يَحصُل التَّصادُم في الكون.

قوله تعالى: {يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا}: {بِهِ} الباء للسَّببية، أي: بسَبَبه، وليس المطَرُ هو الذي يَخلُق هذا النَّباتَ، لكنه سبَبٌ له.

وقوله تعالى: {زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ} هذه صِفة للزَّرْع، لكن هل المُختَلِف الزَّرع أو لَونُه؟

الجَوابُ: أن المُختَلِفَ ألوانُه لأن الصِّفة هنا عادت إلى غير المَوْصوف مَعنًى، ويُسمِّي عُلَماء النحو رحمهم الله هذا النَّعتَ نعتًا سبَبِيًّا؛ لأن مَعناه يَعود إلى غير المَنعوت، فهو تابع للمَنعوت في الإعراب، ولكن مَعناه لغيره، كما قُلْت: رأيت رجُلًا كريمًا أبوه. فالكريم أَبوه، وإجراء الصِّفة على الأبِ لا على الرجُل؛ لهذا تَقول: (كريمًا) نَعْت لـ (رَجُلًا) أو صِفة لـ (رجُلًا)، مع أن حقيقة الوَصْف في غيره، فيُسمَّى هذا: نعتًا سببيًّا.

قوله تعالى: {مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ} هل المُراد بالألوان: الأَشْكال أو الأَلْوان التَّلوينُ أو يَشمَلهما؟

الظاهِر أنه يَشمَل هذا وهذا، فأَلوانه يَعنِي أصنافه، ويَعنِي أيضًا اللون، فهذا الزَّرعُ الذي يَخرُج من الأرض بالمطَر تُشاهِدونه يَختَلِف في ألوانه، ويَختَلِف في أَشكاله،

=

واخرُجوا إن شِئْتم إلى أدنى شارع ستَجِدون الاختِلاف العجيب، تَجِدون شجَرتين إلى جَنْب، ومع ذلك تَجِد هذه أوراقها مخُتَلِفة عن هذه، وتَجِد لونها مخُتلفًا عن هذه، وتَجِد الزهرات التي فيها أيضًا تَختَلِف، وتَجِد الثمَر الذي يَخرُج منها يَختَلِف مع أن الماء واحد والأرض واحِدة.

قوله تعالى: {ثُمَّ يَهِيجُ} يَعنِي: [يَيْبَس] {فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا} أي: أن هذا النباتَ الذي خرَج يَسُرُّ الناظِرين، مخُتَلِف الألوان أَصابه رِيح أو حَرٌّ شديد أو مع طول الزمَن يَيْبَس {فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا} بعد أن كان أَخضَرَ {ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا} فُتاتًا مُتحطِّمًا؛ لأنه إذا يَبِس تكسَّر، ثُم تَحطَّم.

وقوله: [{إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى} تَذكيرًا] {لِأُولِي الْأَلْبَابِ} يَعنِي: العُقول الذي [يَتَذكَّرون به لدَلالته على وَحْدانية الله تعالى وقُدْرته].

قوله تعالى: {إِنَّ فِي ذَلِكَ} المُشار إليه كل ما سبَق من إنزال المَطَر من السماء، وإدخاله يَنابيعَ في الأرض، وإخراج الزَّرع به، وعود الزرع إلى الاصفِرار والتَّحطُّم، فهذه عِدَّة أشياءَ تُذكِّر الإنسان: إنزاله من السماء وإدخاله في الأرض، وإخراج الزَّرْع به واختِلاف الألوان، وهذا كلُّه آية وذِكرى يَتذكَّر به أُولو الأَلباب على قُدْرة الله عز وجل، وعلى رحمته، وعلى حِكْمته.

فقوله تعالى: {ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ...} إلخ، أي: يَتذكَّر به أُولو الأَلْباب على أن كل ما كمَل من الدُّنيا عاد ناقِصًا، ويَدُلُّ على هذا قوله تعالى: {إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ} [يونس: ٢٤]، فالذِّكْرى هنا ليسَت مُجرَّد الدَّلالة على وَحْدانية الله تعالى وقُدرته، بل هي أَشمَلُ.

=

أَفَمَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢٢).

{أَفَمَنْ شَرَحَ الله صَدْره لِلْإِسْلَامِ} فَاهْتَدَى {فَهُوَ عَلَى نُور مِنْ رَبّه} كَمَنْ طُبِعَ عَلَى قَلْبه دَلَّ عَلَى هَذَا {فَوَيْل} كَلِمَة عَذَاب {لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبهمْ مِنْ ذِكْر الله} أَيْ عَنْ قَبُول الْقُرْآن {أُولَئِكَ فِي ضَلَال مُبِين} بَيِّن[1].

=

ومن أهمِّها: الدَّلالة على أن ما كمَل في الدنيا فمَآله إلى النَّقْص، فالصِّحَّة مَآلها إلى المرَض، والحياة مَآلها إلى الموت، وهكذا قِسْ كل ما في الدنيا على هذا المِثالِ.

(١)قوله تعالى: {أَفَمَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ} [الزمّر: ٢٢].

قال مقاتل:"يقول: {أفمن} وسع الله قلبه للتوحيد {فهو على نور}، يعني: على هدى {من ربه}، يعني: النبي - ﷺ -".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: أفمن فسح الله قلبه لمعرفته، والإقرار بوحدانيته، والإذعان لربوبيته، والخضوع لطاعته، فهو على بصيرة مما هو عليه ويقين، بتنوير الحق في قلبه، فهو لذلك لأمر الله متبع، وعما نهاه عنه منته فيما يرضيه، كمن أقسى الله قلبه، وأخلاه من ذكره، وضيقه عن استماع الحق، واتباع الهدى، والعمل بالصواب؟ ".

قال ابن كثير:"أي: هل يستوي هذا ومن هو قاسي القلب بعيد من الحق؟! كقوله تعالى: {أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا} [الأنعام: ١٢٢] ".

قال السمعاني:"يحتمل أن يكون النور قبل أن يسلم، ويحتمل أن يكون بعد الإسلام، ثمرة إسلامه، وأما شرح الصدر: هو التوطئة للإسلام والتمهيد له".

=

=

عن قتادة، قوله: " {أَفَمَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ}، يعني: كتاب الله، هو المؤمن به يأخذ، وإليه ينتهي".

عن السديّ، قوله: " {أَفَمَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ}، قال: وسع صدره للإسلام، والنور: الهدى".

قال مجاهد:"ليس المنشرح صدره مثل القاسي قلبه".

وفي الحديث:"«إن النور إذا دخل الصدر انفسح». قيل: هل لذلك من علم يعرف به؟ قال: «نعم. التجافى عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود والاستعداد للموت قبل نزوله» ".

قوله تعالى: {فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللهِ} [الزمّر: ٢٢]، أي:"فويل وهلاك للذين قَسَتْ قلوبهم، وأعرضت عن ذكر الله".

قال الطبري: يقول:"فويل للذين جفت قلوبهم ونأت عن القرآن الذي أنزله تعالى ذكره، مذكرا به عباده، فلم يؤمن به، ولم يصدّق بما فيه".

قال مقاتل:"يعني: الجافية قلوبهم فلم تلن، يعني: أبا جهل {من ذكر الله}، يعني: عن توحيد الله"

قال ابن كثير:"أي: فلا تلين عند ذكره، ولا تخشع ولا تعي ولا تفهم".

وفي معنى "الويل"، أقوال:

أحدها: أنه ما يسيل من صديد في أصل جهنم. قاله أبو العياض، وشقيق.

الثاني: أنه الحزن، قاله ابن كيسان.

يقال: تويل الرجل إذا دعا بالويل، وإنما يقال ذلك عند الحزن والمكروه، ومنه قوله: {فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ} [البقرة: ٧٩]، ومنه قول الشاعر:

تَوَيّل إذ ملأتُ يدي وكانَتْ... يميني لا تعلّلُ بالقليل

الثالث: أن الويل وادٍ في جهنم، وهذا قول عطاء بن يسار.

=

=

الرابع: أنه النار، قاله عمر مولى عفرة.

قوله تعالى: {أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ} [الزمّر: ٢٢]، أي:"أولئك في ضلال بيِّن عن الحق".

قال مكي:"أي: في ضلال عن الحق ظاهر".

قال الطبري: يقول:"هؤلاء القاسية قلوبهم من ذكر الله في ضلال مبين، لمن تأمله وتدبره بفهم أنه في ضلال عن الحق جائر".

قال الزجاج:"يعني: القاسية قلوبهم. الآية".

وقال مقاتل:"يعني: أبا جهل يقول الله- تعالى- للنبي- ﷺ- ليس المنشرح صدره بتوحيد الله كالقاسي قلبه ليسا بسواء".

قال العثيمين: قوله تعالى: {أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ} قال المُفَسِّر رحمه الله: [كمَن طبَع اللهُ على قَلْبه {أَفَمَنْ} الهَمْزة للاستِفهام والفاء عاطِفة، واختَلَفوا في المَعطوف عليه على قولين: إمَّا شيء مُقدَّر، أو على ظاهِر ما سبَق.

وقوله تعالى: {شَرَحَ} أي: وسَّع، ومنه قولنا: فُلان شرَح الكِتاب، يَعنِي: وَسَّعه، ومنه: شرَحَ صَدْره للإسلام.

ويُحتَمَل أن يُراد ما في الصَّدْر، ويَكون المَعنَى أن الله تعالى يُوسِّع القَلْب فيَجعَله مُنفَتِحًا للإسلام لا يَضيق به ذَرْعًا، ويُحتَمَل أنه الصَّدْر نَفْسه؛ لأن الإنسان يُحِسُّ بالشيء إذا أَغمَّه أن صَدْره ضاق، وإذا جاءَه ما يُفرِحه نَفْس الصَّدْر يَنشرِح - وإن كان الأصل القَلْب، لكن مكان القَلْب يَكون فيه اتِّساع وضِيق - وهذا شيءٌ مُشاهَد، فإبقاء الآية على ظاهِرها، وهو أن المُراد بالصَّدْر حقيقته، أي: أن حقيقة الصَّدْر أَوْلى، فيَنشَرِح الصدر للإسلام، ويَتقبَّل جميع شرائعه؛ إن أُمِر بالشيء انشَرَح لقَبوله والعمَل به، وإن نُهِيَ عن شيء انشَرَح لقَبوله واجتِنابه، وإن أُخبِر عن

=

=

شيء انشَرَح لقَبوله وتصديقه وهكذا، وقِسْ هذا برجُل فاسِق إذا أمَرْته بالصلاة تَجِده يَضيق صَدْره وربما يَقول: أنا لا أُصلِّي لك! دَعْني! وبعض الناس إذا أمَرْته وذكَّرْته فرِحَ وانشَرَح صَدْره، وقد بيَّن الله تعالى في سورة الأنعام صورةً مُقرَّبة لهذا المَعنَى فقال سبحانه وتعالى: {فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا} يَعنِي: شديد الضيق {كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ} [الأنعام: ١٢٥] يَعنِي: كأنه إذا عُرِض عليه الإسلام يَصعَّد في السماء، أي: يَتكَلَّف الصعود.

وقدِ اختَلَف العُلَماء رحمهم الله في مَعنَى {يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ} هل مَعناه: ما اشتُهِر الآنَ من أن الإنسان كُلَّما ارتَفَع في الجوِّ كثُر عليه الضَّغْط، أو أن المَعنى: يَصعَد جَبَلًا عاليًا شامِخًا يَتعَب في رُقيِّه، فالمُفسِّرون السابِقون لا شَكَّ أنهم لا يَعرِفون عن مَسأَلة الضَّغْط، والمُتأخِّرون يَعرِفونه، والله عز وجل يَعلَم هذا وهذا، والآية صالِحةٌ للأَمْرين؛ لأنك لو تَصوَّرت جبَلًا صَعْبَ الرُّقيِّ، وعاليًا يَعنِي: في السماء، مَعناه: عالٍ، وصَعِده الإنسان يَتكلَّف لا سيَّما إن كان عنده ضَغْط يَتعَب جِدًّا، وإذا قُلْنا: إن المُراد بذلك أن الإنسان يَصعَد في السماء فوق الغِلاف الجَويِّ فهو ظاهِر أيضًا.

قول الله عز وجل: {أَفَمَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ} من عَلامة شَرْح الصَّدْر: قَبول الخبَر، وتَصديقه، وقَبول الأمر وامتِثاله، وقَبول النهي واجتِنابه، أي: لا يَكون عنده تَردُّد فهذا لا شَكَّ أنه كما قال تعالى: {فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ}.

قال المُفَسِّر رحمه الله: فاهتَدى فهو على نور فأَفادَنا المُفَسِّر رحمه الله أن في الآية حَذْفًا، تَقديره: فاهتَدَى، ويُؤيِّده: {فَهُوَ عَلَى نُورٍ}، لكن الواقِع: أنه لا حاجةَ لهذا التَّقديرِ؛ لأن قوله تعالى: {أَفَمَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ}

=

=

أَيْ: بمُجرَّد أن يَشرَح الله تعالى صَدْره للإسلام يَصير على نور، وهو إذا شرَحَ الله تعالى صَدْره للإسلام فهو سيَهتَدي قَطْعًا.

وقوله: {نُورٍ} يُحتمَل أن يَكون نورًا حِسِّيًّا، أو مَعنَويًّا، فالمَعنوِيُّ، أَيْ: على نورٍ، والحِسِّيُّ أي: ولو كان في حُجْرةٍ مُظلِمة فهو على نور، يَعنِي: يَجِد نَفْسه أنه يَمشِي على نور.

وهو يَشمَل نور الدنيا ونور الآخِرة، قال الله تعالى: {يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ} [الحديد: ١٢].

وقوله تعالى: {مِنْ رَبِّهِ}، الربوبية هنا مُضافة إلى هذا الذي شرَحَ الله تعالى صَدْره للإسلام، وهي رُبوبية خاصَّة؛ لأنها أُضيفَت إلى مَن هَداه الله تعالى.

وفي الآية شيء محَذوف دلَّتْ عليه الهَمزة، وقَدَّره المُفسِّر رحمه الله بقوله: [كمَن طُبِع على قَلْبه]، ولو أن المُفَسِّر رحمه الله قال: (كمَن ضاقَ صَدْره بالإسلام)، لكان هذا أنسَبَ في المُقابِلة؛ لأنه يَنبَغي أن تَجعَل مُقابِل الشيء مُضادًّا له، ولا تَأتي بشَيْء آخَرَ.

فمثَلًا: لو قال الله تعالى: (أَفَمَن وسَّع الله قَلْبه) لكان المُناسِب أن يَكون المُقدَّر كما قال المُفَسِّر رحمه الله، لكن في قوله تعالى: {أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ} يَكون التَّقدير المُناسِب كمَن ضَيَّق الله تعالى صَدْره بالإسلام فضاق به ذَرْعًا.

وجوابُ هذا الاستِفْهامِ المَذكور في الآية: (لا)، فيَكون الاستِفهام مع المُقدَّر للنَّفيِ، أي: مَن لم يَشرَح الله تعالى صَدْره للإسلام فإن قَلْبه مُظلَم - والعِياذُ بالله تعالى - ليس فيه نور، لا نور عِلْم ولا نور إيمان.

وقوله رحمه الله: [{فَوَيْلٌ} أي: كلِمة عَذاب {لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ}]، {وَيْلٌ} مُبتَدَأ و {لِلْقَاسِيَةِ} خبَره و {مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ} مُتعَلِّق بالقاسِية {وَيْلٌ} قال المُفَسِّر رحمه الله: إنها كلِمة عَذاب وما قاله المُفَسِّر رحمه الله أصَحُّ ممَّا قيل: إنها

=

=

وادٍ في جَهنَّمَ؛ لأن الإنسان يُقال له: ويلٌ لك من كذا في غير النار؛ قال تعالى: {فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ} [البقرة: ٧٩]، فهي كلِمة عَذاب ووعيد.

وقوله تعالى: {لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللهِ} القاسِية اسمُ فاعِل، و {قُلُوبُهُمْ} فاعِلٌ به، والقاسِي ضِدُّ اللَّيِّن، واللَّيِّن قَلْب المُؤمِن، والقاسِي قَلْب الكافِر.

وقوله تعالى: {مِنْ ذِكْرِ اللهِ} أي: عن قَبول القُرآن، فأَفادَنا المُفسِّر رحمه الله: أن {مِنْ} بمَعنَى (عَنْ)، وأن المُراد بـ {ذِكْرِ اللهِ}: القُرآن، والمَعنَى: فوَيْلٌ للذين تَقسُو قلوبُهم عن القرآن، لكن الأَوْلى إبقاء الآية على ظاهِرها.

ويُحتَمَل أن يَكون قوله تعالى: {مِنْ ذِكْرِ اللهِ} أي: بسبَب ذِكْر الله تعالى: فتكون (مِن) للسَّببية أي: تَقسو قلوبُهم بسبَب ذِكْر الله تعالى، ويُحتَمَل أن المُراد بذِكْر الله تعالى ما هو أعمُّ من القرآن، ويَكون المَعنَى: أن هؤلاءِ كلَّما ذُكِر الله تعالى قسَتْ قُلوبهم.

ووجهُ ذلك: أنهم لا يُريدون ذِكْر الله تعالى، فإذا كرِهوا ذِكْر الله تعالى قَسا القَلْب عُقوبةً لهم، ويَدُلُّ لهذا قوله تعالى: {وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (١٢٤) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ} [التوبة: ١٢٤، ١٢٥].

فتَجِد هَؤلاءِ القومَ أَعنِي: المُؤمِنين تَزيدهم السُّورة إيمانًا، والذين في قُلوبهم مرَض تَزيدهم رِجْسًا إلى رِجْسهم.

إِذَنْ نَقول: القاسِية قُلوبهم من ذِكْر الله تعالى يَعنِي الذين إذا ذُكِر الله تعالى قسَتْ قُلوبهم، فلا يَقبَلونه، وإذا لم يَقبَلوه ازدادت قُلوبُهم قَسوةً وقوله تعالى: {أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ}: {أُولَئِكَ} المُشار إليهم همُ القاسِية قلوبُهم.

=

اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ ذَلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٢٣).

{الله نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيث كِتَابًا} بَدَل مِنْ أَحْسَن أَيْ قُرْآنًا {مُتَشَابِهًا} أَيْ يُشْبِه بَعْضه بَعْضًا فِي النَّظْم وَغَيْره {مَثَانِيَ} ثُنِيَ فِيهِ الْوَعْد وَالْوَعِيد وَغَيْرهمَا {تَقْشَعِرّ مِنْهُ} تَرْتَعِد عِنْد ذكره وَعِيده {جُلُود الَّذِينَ يَخْشَوْنَ} يَخَافُونَ {رَبّهمْ ثُمَّ تَلِينَ} تَطْمَئِنّ {جُلُودهمْ وَقُلُوبهمْ إِلَى ذِكْر الله} أَيْ عِنْد ذِكْر وَعْده {ذَلِكَ} أَيْ الْكِتَاب {هدى الله يهدي به من يشاء ومن يضلل الله فما له من هاد[1].

=

وقوله تعالى: {فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ} قال المُفَسِّر رحمه الله: بمعنَى بَيِّن، والأحسَن أن تكون للظَّرْفية، وما أَحسَنَها في هذا المَوضِع إشارةً إلى أن الضَّلال قد أَحاط بهم من كل جانِب كما تُحيط الحُجْرة بساكِنها، وإذا كان الضَّلال قد أَحاط بهم من كل جانِب، فإنه لا يُرجَى لهم خَيْر - والعِياذُ بالله تعالى -؛ لأنهم في ضَلالٍ مُبين.

وعندما تُقابِل قوله تعالى: {أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ} بقوله تعالى: {فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ} يَتبَيَّن لك أن النور في الآية: نور العِلْم ونور الإيمان وضِدُّ العِلْم الضَّلال.

(١) ذكر سبب النزول.

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما؛ قال: قالوا: يا رسول الله! لو حدثتنا؛ فنزل: {اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ ذَلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٢٣)}.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٣/ ١٣٥): ثنا نصر بن عبد الرحمن الأودي قال: ثنا حكام بن سلم عن أيوب بن موسى عن عمرو بن قيس الملائي عن ابن

=

=

عباس به. وهذا سند صحيح؛ رجاله ثقات إن كان أيوب بن موسى هو ابن عمرو القرشي، وإن كان غيره فلم نعرفه.

وعن عون بن عبد الله: أن أصحاب النبي ﷺ ملّوا ملّة؛ فقالوا: يا رسول الله! حدثنا؛ فأنزل الله: {اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ...} إلى آخر الآية، قال: ثم ملوا ملّة أخرى؛ فقالوا: يا رسول الله! حدثنا شيئًا فوق الحديث ودون القرآن؛ يعنون: القصص؛ فأنزل الله تبارك وتعالى: {الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (١)} إلى قوله -تعالى-: {نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ (٣)} [يوسف: ٣]؛ قال: فإن أرادوا الحديث؛ دلهم على أحسن الحديث، وإن أرادوا القصص؛ دلهم على أحسن القصص: القرآن.

أخرجه أبو عبيد في "فضائل القرآن" (ص ٥٣، ٥٤)، وأبو نعيم في "حلية الأولياء" (٤/ ٢٤٨)، وابن عبد البر في "جامع بيان العلم وفضله" (٢/ ١٠٠٤ رقم ١٩١٤ - معلقًا) من طريق حجاج الأعور ووكيع بن الجراح عن المسعودي عن عون به.

وهذا مرسل صحيح الإسناد، والمسعودي وإن اختلط بآخره؛ لكن الراوي عنه هنا هو وكيع بن الجراح، وقد سمع منه قبل الاختلاط؛ كما قال الإمام أحمد وابن معين. انظر: "الكواكب النيرات" (ص ٢٨٨).

* قوله تعالى: {اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ} [الزمّر: ٢٣].

قوله تعالى: {كِتَابًا مُتَشَابِهًا} [الزمّر: ٢٣]، أي:"قرآنًا متشابهًا يشبه بعضه بعضًا في الفصاحة، والبلاغة، والتناسب، بدون تعارضٍ ولا تناقض".

قال الطبري:"يقول: يشبه بعضه بعضا، لا اختلاف فيه، ولا تضادّ".

قال ابن قتيبة: أي: " يشبه بعضه بعضا، ولا يختلف".

=

=

قال أبو عبيدة:" {مُتَشابِهًا}، يصدّق بعضه بعضا ويشبه بعضه بعضا".

قال الزجاج:"يشابه بعضه بعضًا في الفضل والحكمة، لا تناقض فيه".

قال السدي:"المتشابه: يشبه بعضه بعضا".

قال قتادة:"الآية تشبه الآية، والحرف يشبه الحرف".

قال سعيد بن جبير:"يشبه بعضه بعضا، ويصدّق بعضه بعضا، ويدلّ بعضه على بعض".

قوله تعالى: {مَثَانِيَ} [الزمّر: ٢٣]، أي:"تُثَنَّى وتكرر فيه المواعظ والأحكام، والحلال والحرام، وتُردَّد فيه القصص والأخبار دون سأم أو ملل".

قال الطبري:"يقول: تُثنى فيه الأنباء والأخبار والقضاء والأحكام والحجج".

قال ابن قتيبة:" {مثاني} أي: تثنى فيه الأنباء والقصص وذكر الثواب والعقاب".

قال الحسن:"ثنى الله فيه القضاء، تكون السورة فيها الآية في سورة أخرى آية تشبهها، وسئل عنها عكرمة «فقال: ثنى الله فيه القضاء» ".

قال قتادة:"ثَنَى الله فيه الفرائض، والقضاء، والحدود".

قال ابن عباس:"كتاب الله مثاني، ثنى فيه الأمر مرارا". وروي عن السدي مثله.

عن ابن زيد قوله: " {مَثَانِيَ}: مردّد، رُدِّد موسى في القرآن وصالح وهود والأنبياء في أمكنة كثيرة".

عن مجاهد، قوله: " {كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ}، قال: في القرآن كله".

قال ابن كثير:"هذا مَدْحٌ من الله – عز وجل – لكتابه القرآن العظيم المنزل على رسوله الكريم... وقال بعض العلماء: وُيرْوى عن سفيان بن عيينة معنى قوله: {مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ} أنّ سياقات القرآن تارةً تكونُ في معنى واحد، فهذا من المتشابه، وتارةً تكونُ بذكر الشيء وضده، كذكر المؤمنين ثم الكافرين، وكصفة الجنة ثم صفة النار، وما أشبه هذا، فهذا من المثاني، كقوله تعالى: {إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ وَإِنَّ

=

=

{الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ} [الانفطار: ١٤، ١٣]، وكقوله {كَلا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ} [المطففين: ٧]، إلى أن قال: {كَلا إِنَّ كِتَابَ الأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ} [المطففين: ١٨]، {هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ} [ص: ٤٩]، إلى أن قال: {هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ} [ص: ٥٥]، ونحو هذا من السياقات فهذا كله من المثاني، أي: في معنيين اثنين، وأما إذا كان السياق كله في معنى واحد يشبه بعضه بعضا، فهو المتشابه وليس هذا من المتشابه المذكور في قوله: {مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ} [آل عمران: ٧]، ذاك معنى آخر".

قوله تعالى: {تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ} [الزمّر: ٢٣]، أي:"تعتري هؤلاء المؤمنين خشيةٌ، وتأخذهم قشعريرة عند تلاوة آيات القرآنُ، هيبةً من الرحمن وإجلالًا لكلامه".

قال الطبري: يقول:"تقشعرّ من سَماعه إذا تلي عليهم جلود الذين يخافون ربهم".

قال الزجاج:"يقول: إذا ذكرت آيات العذاب اقشعرت جلود الخاشعين للهِ".

قال ابن قتيبة:"من آية العذاب".

قال ابن كثير:"أي هذه صفة الأبرار، عند سماع كلام الجبار، المهيمن العزيز الغفار، لما يفهمون منه من الوعد والوعيد. والتخويف والتهديد، تقشعر منه جلودهم من الخشية والخوف".

قوله تعالى: {ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ} [الزمّر: ٢٣]، أي:"تطمئن وتسكن قلوبهم وجلودهم إلى ذكر الله".

قال ابن قتيبة:"من آية العذاب وتلين من آية الرحمة".

قال الزجاج:"إذا ذكرت آيات الرحمة لأنت جلودهم وقلوبهم".

قال الطبري: {إِلَى ذِكْرِ اللهِ}، " يعني: إلى العمل بما في كتاب الله، والتصديق به".

=

=

قال ابن كثير:"لما يرجون ويُؤمِّلون من رحمته ولطفه، فهم مخالفون لغيرهم من الكفار من وجوه:

أحدها: أن سماع هؤلاء هو تلاوة الآيات، وسماع أولئك نَغَمات لأبيات، من أصوات القَيْنات.

الثاني: أنهم إذا تليت عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبكيا، بأدب وخشية، ورجاء ومحبة، وفهم وعلم، كما قال: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ} [الأنفال: ٢ - ٤] وقال تعالى: {وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا} [الفرقان: ٧٣] أي: لم يكونوا عند سماعها متشاغلين لاهين عنها، بل مصغين إليها، فاهمين بصيرين بمعانيها؛ فلهذا إنما يعملون بها، ويسجدون عندها عن بصيرة لا عن جهل ومتابعة لغيرهم، أي: يرون غيرهم قد سجد فيسجدون تبعا له.

الثالث: أنهم يلزمون الأدب عند سماعها، كما كان الصحابة، رضي الله عنهم عند سماعهم كلام الله من تلاوة رسول الله ﷺ تقشعر جلودهم، ثم تلين مع قلوبهم إلى ذكر الله. لم يكونوا يتصارخُون ولا يتكلّفون ما ليس فيهم، بل عندهم من الثبات والسكون والأدب والخشية ما لا يلحقهم أحد في ذلك؛ ولهذا فازوا بالقِدح المُعَلّى في الدنيا والآخرة".

عن معمر ، قال: "تلا قتادة {تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ، ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله}، قال: «هذا نعت أولياء الله نعتهم الله أن تقشعر جلودهم ، وتبكي أعينهم ، وتطمئن قلوبهم إلى ذكر الله ، ولم ينعتهم بذهاب عقولهم ، والغشيان عليهم ، وإنما هذا في أهل البدع وهذا من الشيطان» ".

=

=

قوله تعالى: {ذَلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ} [الزمّر: ٢٣]، أي:"ذلك القرآن الذي تلك صفتُه هو هدى الله يهدي به من شاء من خلقه".

قال الزجاج:"يقول: الذي وهبه الله لهم من خشيته وخوف عَذَابِهِ ورجاء رحمته هدي الله".

قال الطبري: يقول:"هذا الذي يصيب هؤلاء القوم الذين وصفت صفتهم عند سماعهم القرآن من اقشعرار جلودهم ثم لينها ولين قلوبهم إلى ذكر الله من بعد ذلك، توفيق الله إياهم وفَّقهم له، يهدي تبارك وتعالى بالقرآن من يشاء من عباده".

قال الطبري:"وقد يتوجَّه معنى قوله: {ذَلِكَ هُدَى} إلى أن يكون ذلك من ذكر القرآن، فيكون معنى الكلام: هذا القرآن بيان الله يهدي به من يشاء، يوفق للإيمان به من يشاء".

قوله تعالى: {وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ} [الزمّر: ٢٣]، أي:"ومن يضلله الله عن الإيمان بهذا القرآن؛ لكفره وعناده، فما له مِن هاد يهديه ويوفقه".

قال الطبري: يقول:"ومن يخذله الله عن الإيمان بهذا القرآن والتصديق بما فيه، فيضله عنه، فما له من مُوَفِّق له، ومسدد يسدده في اتباعه".

قال الصابوني:"أي:"ومن يخذلْه اللهُ فيجعل قلبه قاسيًا مظلمًا، فليس له مرشدٌ ولا هاد بعد الله".

قال العثيمين: قوله تعالى: {اللهُ نَزَّلَ} جُملة خبَرية اسمِيَّة الصَّدْر، فِعْلية العَجُز {نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا}، و {نَزَّلَ} من الفِعْل المُضعَّف ويَأتي التَّعبير أحيانًا بـ (أَنزَل) من الرُّباعيِّ المَزيد بالهَمْزة، واختَلَف العُلَماء رحمهم الله: هل هُما بمَعنًى واحِد أو لا؟ والصحيحُ: أن مَعناهما واحِد إلَّا مع وجود قرينة، فمعَ وجود القرينة يَكون التَّنزيل لما يَنزِل شيئًا فشيئًا، والإِنْزال لِما يَنزِل جُملةً واحِدة، لكن هذا لا يَكون إلَّا مع القرينة، أمَّا مع عدَم القَرينة فأَنزَل ونَزَّل المُضعَّف بمَعنًى واحِدٍ؛

=

ولهذا يَقول الله عز وجل: {وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا} [الفرقان: ٤٨]، ويَقول: {وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا} [ق: ٩]، وهُما بمَعنًى واحِد.

وكذلك في القُرآن؛ فمرَّة يَقول الله تعالى: {وَأَنْزَلْنَا}، وأُخرى يَقول: {وَنَزَّلْنَا} وهُما بمَعنًى واحِد، لكن مع وجود القَرينة يَكون التَّنزيل شيئًا فشيئًا، كما في قوله تعالى: {وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا} [الإسراء: ١٠٦].

فهُنا (نَزَّلنا) تَختَلِف عن (أَنزَلنا) فهي بمَعنَى: التَّنزيل شيئًا فشيئًا، بدليل قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: {وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ}

وقوله تعالى: {أَحْسَنَ الْحَدِيثِ}، أمَّا {أَحْسَنَ} فهي اسمُ تَفضيل من الحُسْن، والحُسْن يَتضمَّن حُسْن الأُسلوب وحُسْن المَوْضوع، ويَشمَلهما قوله تعالى: {أَحْسَنَ} يَعنِي: أحسَن في أُسلوبه، وأَحسَن في مَوْضوعه:

أمَّا الأُسلوب فأَنْ يَكون مُطابِقًا للبلاغة في غايتها؛ إيجازٌ في مَوْضِع الإيجاز، وإطنابٌ في مَوْضِع الإطناب، وتَوْكيدٌ في مَوضِع التَّوْكيد، وتَخليةٌ من التَّوكيد في مَوْضِع يَقتَضي ذلك، وهُلمَّ جرًّا.

وأمَّا {أَحْسَنَ} في المَوْضوع، فلأَنَّ مَوْضوعه أخبارٌ وأحكام، فالأَخْبار أَحسَنها أَصدَقها، وأَنفَعها في العِبْرة، والأَحكام أَحسَنها أَعدَلُها، وأَقومُها بمَصالِح العِباد، والقُرآن الكريم مُتضمِّنٌ للأَحْسَنَيْن الأُسلوب والمَوْضوع.

وقوله رحمه الله: [{كِتَابًا} بدَل من {أَحْسَنَ}]، أو عَطْف بَيان، فتكون عَطْف بَيان إذا جعَلْنا {كِتَابًا مُتَشَابِهًا} شَيئًا واحِدًا، وتَكون بدَلًا إذا جعَلْنا {كِتَابًا} مُستَقِلًّا عن {مُتَشَابِهًا}.

=

فيَصِحُّ أن نَقول: بدَلًا أو عَطْف بَيان بشَرْط أن يُوصَل بما بعدَه {كِتَابًا مُتَشَابِهًا}؛ وذلك لأن عَطْف البَيان يَكون مُبيِّنًا للمَعطوف عليه؛ ولهذا سُمِّيَ: عَطفَ بَيانٍ، ولا يَكون مُبيِّنًا إلَّا إذا جعَلْنا كلِمة (مُتَشابِهًا) صِفةً لازِمة.

و {كِتَابًا} أي: مَكتوبًا؛ لأن صيغة فِعال تَأتي بمَعنَى مَفعولٍ كثيرًا، ومنه: الغِراس، والبِناء، والكِساء، والفِراش، والوِطاء، وأَمثِلةُ هذا كَثيرة في اللغة العربية.

و {كِتَابًا} بمَعنَى: مَكتوبٍ، والقُرآن مَكتوب في ثلاثة أشياءَ: في اللَّوْح المَحفوظ، وفي الصُّحُف التي بأَيْدي المَلائِكة، وفي الصُّحُف التي بأَيْدينا.

وقول المُفَسِّر رحمه الله: [{مُتَشَابِهًا} أي: قُرآنًا] هذا مَعنوِيٌّ، والفَرْق بين التَّفسير اللَّفْظيِّ والمَعنَوِيِّ أننا إذا أَرَدْنا أن نُفسِّر تفسيرًا لفظيًّا أَتَيْنا باللفظ نَفْسه، وإذا أَرَدْناه مَعنويًّا أَتَيْنا بالمعنى.

قال المُفَسِّر رحمه الله: [{مُتَشَابِهًا} قال: أي: يُشبِه بعضُه بعضًا في النَّظْم وغيره] أي: يُشبِه بعضُه بعضًا في النَّظْم، واعلَمْ أنه لا يُراد بالنَّظْم هنا ما يُقابِل النَّثْر، فإن القُرآن ليس شِعرًا، لكن في النَّظْم، أي: نَظْم الكلام وتَنظيمه حتى يَكون مُشبِهًا بعضُه لبعض.

فقوله تعالى: {كِتَابًا مُتَشَابِهًا} يَعنِي: كِتابة يُشبِه بعضُها بعضًا في الكَمال والجَوْدة وحُسْن المَوْضوع، فلا تَجِده مُتناقِضًا أبدًا، ولا تَجِده مختَلِفًا أبدًا، لكن بحسَب المَقام تارةً يَكون المَقام يَقتَضي الاختِصار، وتارةً يَكون المَقام يَقتَضي البَسْط، فإذا نظَرْنا إلى سورة: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ} والسورة التي قَبلَها وجَدْنا بينهما تَشابُهًا في الحُسْن، حيث إن كل سورة كانت مُناسِبةً للحديث أو للمُتحدَّث عنه، فسُورة: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ} تَتحدَّث عن الربِّ عز وجل وأسمائه وصِفاته فجاءَت بالأُسلوب المُناسِب، وسورة: {تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ} تَتحدَّث عن رجُلٍ كافِر،

=

فجاءَت بالأُسلوب المُناسِب؛ فالتَّشابُه مَعناه أنه كلام جاء على الوَجهِ المُناسِب لمَوْضوعه.

وقوله رحمه الله: [{مَثَانِيَ} ثُنِّيَ فيه بالوَعْد والوَعيد وغيرهما]، أي: يُؤتَى بالوَعْد، ثُمَّ يَعقُبه الوعيد، فيُؤتَى بذِكْر النار، ثُم يَعقُبه ذِكْر الجنَّة، ويُؤتَى بصِفات المُؤمِنين، ثُمَّ يُؤتَى بصِفات غيرهم، وكلمة {مَثَانِيَ} عامَّة فتَحتَمِل أن يَكون ذِكْر الوَعيد وذِكْر التَّوْحيد وذِكْر قصص الأنبياء عليهم السلام ... إلخ.

ففي قوله تعالى: {اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا} [البقرة: ٢٧٥] جاء بضِدِّهم، أَعنِي: الَّذين كفَروا: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ}، وفي قوله تعالى: {فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ} [هود: ١٠٥]، وقوله تعالى: {يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ} [آل عمران: ١٠٦]، وانظُرْ إلى قوله تعالى في سورة الكهف لمَّا ذكَر ما للمُؤمِنين من الثواب في الجَنَّة ذكَر ما للكُفَّار من العِقاب في النار، والأمثال في هذا كثيرة جِدًّا.

فقوله تعالى: {مَثَانِيَ} الـ {مَثَانِيَ} مَأخوذ من التَّثنية؛ لأن القُرآن مَثانٍ، يَعنِي: من اثنَيْن اثنَيْن؛ والمَثاني أنه يَقرُن المَعنَى وما يُقابله، فتَأمَّلِ الآياتِ الكريمةَ تَجِد أنه إذا ذُكِرت النار ذُكِرت بعدها الجنَّة، وإذا ذُكِر أهلُ النار ذُكِر بعدهم أهلُ الجَنَّة، وهكذا، وذلك من أجل أن لا يَملَّ السامِع من موضوعٍ واحِد، ومن أَجْل أن يَتَنقِل من تَخويف إلى تَرغيب فيَنشَط لفِعْل الواجباتِ، ويَحذَر من فِعْل المُحرَّمات، وهذا من أَساليب البَلاغة الكامِلة.

قوله تعالى: {تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ} قال المُفَسِّر رحمه الله: [تَقشَعِرُّ: تَرتَعِد عند ذِكْر وَعيده {جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ} يَخافون ربَّهم]، قوله تعالى: {تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ} أي: عند الوَعيد أو ذِكْر النار أو ما يُوجِب الخوف والفَزَع كذِكْر ما حَلَّ بقوم نوحٍ وقوم لوطٍ عليهما السلام وغيرِهم.

=

ثُمَّ يَقول: [{يَخْشَوْنَ} يَخافون]، وهذا التَّفسيرُ ضعيف؛ لأنه فُسِّر المعنى بما دونَه، إذ قُلْنا: إن الخَشية هي الخوف مع العِلْم، واستَدْلَلْنا لذلك بقوله تعالى: {إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ} [فاطر: ٢٨].

فلو أن المُفَسِّر رحمه الله قال: يَخشَوْن ربهم خوفًا مَبنيًّا على العِلْم بعظَمته لكان التفسيرُ صوابًا، لكن الآنَ نَعتَبِر التفسير قاصِرًا.

فقوله تعالى: {تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ} أي: أن الجُلود عندما تَسمَع آياتِ الوعيد والتَّخويف تَرتَعِد وتَخاف وتَضطَرِب، وقد كان بعض السلَف يَمرَض أيَّامًا حتى يُعاد إذا سمِع بعض الآيات، كما جرى ذلك لأميرِ المُؤمِنين عمرَ بنِ الخَطَّاب رضي الله عنه حين تَلا قوله تعالى: {إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ (٧) مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ} [الطور: ٧، ٨]، فمَرِض أيامًا حتى عادَه الناس.

وقوله تعالى: {تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ} الذين يَخشَوْنه، أي: يَخافونه مع العِلْم بعظَمته وجَلاله؛ لأن الخَشْية لا تَكون إلَّا بعِلْم كما قال الله تعالى: {إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ} [فاطر: ٢٨].

وقد فرَّق العُلَماء رحمهم الله بين الخَشْية والخوف بوُجوهٍ:

أوَّلًا: أن الخَشْية تَكون مَقرونةً بعِلْم.

وثانيًا: أن الخَشْية تَكون من عظَمة المَخشيِّ وإن كان الخاشِي عظيمًا.

أمَّا الخوف فيَكون من ضَعْف الخائِف، وإن كان المَخوف منه غيرَ عَظيم.

فهذان فَرْقان بين الخَشية وبين الخَوْف؛ فالخَشْية تَكون بعِلْم، والخَوْف قد يَكون بوَهْم: فإنه قد يَرى الإنسان شبَحًا من بُعْدٍ ويَخافه وليس بشيء.

وقوله تعالى: {يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ} هذه الرُّبوبيةُ من الرُّبوبية الخاصَّة التي مَنَّ الله تعالى عليهم بها بالخَشْية التي أَلقاها في قُلوبهم.

=

=

وقوله تعالى: {يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ} تَلين أي: تَطمَئِنُّ وتَهدَأ بعد القَشعريرة، فتَلين أي: تَطمَئِنُّ وتَهدَأ {إِلَى ذِكْرِ اللهِ} أي: مُنقادةً إلى ذِكْره، فتكون هذه اللُّيونةُ غايتها ذِكْر الله عز وجل. ولكن لا شَكَّ أن ذِكْر اللِّين أبلَغُ من ذِكْر الطُّمأنينة؛ لأن القَشعريرة تَقتَضي نُشوز الجِلد وارتفاعه وتَصلُّبه، والذي يُقابِل ذلك اللِّينُ والهُدوءُ والطُّمأنينةُ، فتَفسير المُفَسِّر رحمه الله أيضًا اللينَ بالطُّمأنينة تَفسيرٌ باللازِم في الواقِع، وإلَّا فإن اللِّين غير الطُّمأنينة؛ لأن الجِلْد إذا اقشَعَرَّ يَتصَلَّب؛ ولهذا تَجِد أطراف الإنسان تَبرُد لانحِسار الدَّمِ عنها بعضَ الشيء، فإذا هدَأ الرَّوْع فإنه يَلين وَيزول ذلك التَّصلُّبُ.

ولين القَلْب ضِدُّ قَسْوته يَعنِي عندما يَسمَعون الوعيد تَقشَعِرُّ الجُلود وتَنفِر القُلوب، ثُم بعد ذلك تَلين الجُلود والقُلوب {إِلَى ذِكْرِ اللهِ}.

قال المُفَسِّر رحمه الله: [أي: عند ذِكْر وَعْده] ولكن الصواب: أنها عند ذِكْر الله تعالى مُطلَقًا حتى الوعيد إذا تَأمَّل الإنسان وهدَأَت نَفْسُه بعد أن ورَدَ عليها ما يُخوِّفه فإنه يَلين حتى للوعيد فتَخصيص المُفَسِّر رحمه الله ذلك بذِكْر الوَعْد في النَّفْس منه شيء، ومع ذلك فله وَجهٌ إذا كان القُرآن مَثانيَ وجاء ذِكرُ النار ثُم جاء بعده ذِكْر الجَنَّة لانَتِ القلوبُ، أو ذِكْر أهل النار وجاء بعده ذِكْر أهل الجنَّة لانَتِ القُلوب أيضًا.

وقوله تعالى: {إِلَى ذِكْرِ اللهِ} لم يَقُل: لذِكْر الله. بل قال: {إِلَى ذِكْرِ اللهِ} وكأَنَّ هذا اللِّينَ صار له غاية وهو ذِكْر الله عز وجل.

وقوله تعالى: {إِلَى ذِكْرِ اللهِ} هل هو من باب إضافة المَصدَر إلى الفاعِل يَعنِي: إلى ما ذكَرهم الله به، أو من باب إضافة المَصدَر إلى المَفعول به أي: إلى ذِكْرهمُ اللهَ؟

=

=

الجَوابُ: هذا وهذا، فالكلِمة صالِحةٌ لهذا وهذا، أي: إلى ذِكْرِهِم لله، أو إلى ما ذكَرَهم الله به، وهو القُرآن الذي جعَله الله تعالى به مَثانيَ.

ثُم إنَّه لا مانِعَ أن أَقول: صلَح قَلْبي وعمَلي؛ وهذا لأن الله تعالى وصَف الجُلود نَفسَها فقال: {تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ} واقشِعْرار الجُلود مَبنيٌّ على خوف القَلْب، فذَكَر اللهُ تعالى أن هذه القَشعريرةَ تَزول، وأنها تَتَحوَّل إلى لين، وكذلك القَلْبُ الذي هو أصلُها.

وقد ذكَر شيخُ الإسلام رحمه الله أن هناك أُناسًا يُصعَقون عند سَماع بعض الآيات وذمَّهم، وذكَر أن الصحابة رضي الله عنهم لم يَكونوا كذلك - كما في الآية -، وذلك لأن هُناك فَرقًا بين قَشعريرة الجِلْد وبين الذي يُصعَق، فالذي يُصعَق يُغشَى عليه، والخَشية المَطلوبة أن يَكون عند الإنسان عِلْم بالله تعالى وعظَمته وخوف منه، أمَّا أن يَعجِز عن تَحمُّل ما ورَد على قلبه حتى يُصعَق ويَموت، أو يَفعَل فِعْل المَجانين كالذي تَجِده يَقول: الله! الله! الله! الله! فهذا خِلاف ما كان عليه السلَف.

ولذلك عند الصُّوفية تَسبيحة يُسمُّونها: الغبيرة، وهي أنهم يَأتون بأسواط معهم، ثُمَّ يَجلِسون حِلَقًا، ثُم يَتكَلَّم الذي يَذكُر الله تعالى، فإذا زعَق (لا إلهَ إلَّا اللهُ)، وسُبحان الله. خبَّطوا بالأَسْواط على الأرض، والجَيِّد منهم الذي يُثير غُبارًا على الأرض أكثرَ؛ لأنه يَكون عنده انفِعال بقُوَّة وشِدَّة، فيُسمُّون هذه: الغبيرة. وأَظُنُّ بعضهم يَقول لبعض: هل غبرت اليومَ.

وقوله تعالى: {ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ} لِين القُلوب ليس فيه مَجاز، بل على الحقيقة الحِسِّيَّة، لأن لين القَلْب الذي هو لِين المَلمَس ليس بوارِد هنا، فالظاهِر أنه لا يَكون كالجِلْد يَقِف ويَتصَلَّب، فإن كان يَقِف ويَتصلَّب فيَسأَل عن هذا عُلماء التَّشريح إذا قالوا: إنه عند الخَوْف يَتصلَّب فصار اللين حِسِّيًّا.

=

أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (٢٤).

{أَفَمَنْ يَتَّقِي} يَلْقَى {بِوَجْهِهِ سُوء الْعَذَاب يَوْم الْقِيَامَة} أَيْ أَشَدّه بِأَنْ يُلْقَى فِي النَّار مَغْلُولَة يَدَاهُ إلَى عُنُقه كَمَنْ أَمِنَ مِنْهُ بِدُخُولِ الْجَنَّة {وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ} أَيْ

=

وقوله تعالى: {ذَلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ} يُحتَمَل أن يَكون المُشار إليه باسْمِ الإشارة (ذلك) ما حصَل لهم من الخَشْية، وعلى هذا فيَكون المُراد بالهِداية هِداية التَّوفيق؛ لأن الخَشْية عمَل، ويُحتَمَل أن يَكون المُشار إليه بـ {ذَلِكَ هُدَى اللهِ} الكِتاب الذي هو أحسَنُ الحديث، فتَكون الهِدايةُ هنا هِدايةَ دَلالة؛ لأن الكِتاب يَهدِي بمَعنَى: يَدُلُّ، والتَّوفيق بيَدِ الله عز وجل.

قال المُفَسِّر رحمه الله: [{ذَلِكَ} أيِ: الكِتاب] أَفادَنا المُفَسِّر رحمه الله أن الإشارة في قوله ذلك تَعود إلى الكِتاب، وعلى هذا فيَكون المُراد بالهِداية هنا هِداية الدَّلالة، فإن القُرآن هُدًى بمَعنَى أنه دالٌّ على كل خَير، بل على كل شيء؛ لقوله تعالى: {وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ} [النحل: ٨٩].

فقوله تعالى: {يَهْدِي بِهِ} هنا الهِداية هِدايةُ الدَّلالة والتَّوفيق؛ لأنها أُضيفت إلى الله عز وجل، والله سبحانه وتعالى بيَدِه الهِدايتان، والباء في قوله تعالى: {يَهْدِي بِهِ} لم يُبيِّن المُفَسِّر رحمه الله مَعناها، ولكن مَعناها: السَّببية.

وقوله تعالى: {وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ} هذه جُمْلة شَرْطية بيَّن الله تعالى فيها أن مَن كتَبه ضالًّا فما أَحَدٌ يَهديه.

وقوله تعالى: {فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ} أَصلُها (هادِي) بالياء، لكن حُذِفت الياء لالتِقاء الساكِنين وهُما التَّنوين في الدال والياء الساكِنة المَحذوفة، ويَجوز إبقاؤُها فيُقال: هادِي، لكنها تُحذف كثيرًا للتَّخفيف والتِقاء الساكِنين.

كُفَّار مَكَّة {ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ} أَيْ جَزَاءَهُ.

كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (٢٥).

{كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلهمْ} رُسُلهمْ فِي إتْيَان الْعَذَاب {فَأَتَاهُمُ الْعَذَاب مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ} مِنْ جِهَة لَا تَخْطِر بِبَالِهِمْ.

فَأَذَاقَهُمُ اللهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٢٦).

{فَأَذَاقَهُمْ الله الْخِزْي} الذُّلّ وَالْهَوَان مِنْ الْمَسْخ وَالْقَتْل وَغَيْره {فِي الْحَيَاة الدُّنْيَا وَلَعَذَاب الْآخِرَة أَكْبَر لَوْ كَانُوا} أَيْ الْمُكَذِّبُونَ {يَعْلَمُونَ} عَذَابهَا ما كذبوا.

وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٧).

{وَلَقَدْ ضَرَبْنَا} جَعَلْنَا {لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآن مِنْ كُلّ مَثَل لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ} يَتَّعِظُونَ[1].

---

(١)قوله تعالى: {أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ} [الزمّر: ٢٤].

اختلف أهل التفسير في صفة اتقاء هذا الضالّ بوجهه سُوء العذاب، على قولين:

أحدهما: أنه يُرْمى به في جهنم مكبوبا على وجهه، فذلك اتقاؤه إياه. قاله مجاهد، قال مجاهد:"يجر على وجهه في النار".

الثاني: أنه ينطلق به إلى النار مكتوفا، ثم يُرمى به فيها، فأوّل ما تَمس النار وجهه، وهذا القول يُذكر عن ابن عباس بسند ضعيف، وبه قال عطاء، ومقاتل.

قال عطاء:"يُرمى به في النار منكوسًا، فأول شيء منه تمسُّه النار وجهُه".

قال مقاتل:"يقول ليس الضال الذي يتقي النار بوجهه كالمهتدي الذي لا تصل النار إلى وجهه، ليسا بسواء، يقول: الكافر يتقي بوجهه شدة العذاب وهو في النار مغلولة يده إلى عنقه، وفي عنقه حجر ضخم مثل الجبل العظيم من كبريت تشتعل =

=

النار في الحجر وهو معلق في عنقه وتشتعل على وجهه فحرها ووهجها على وجهه لا يطيق دفعها عن وجهه من أجل الأغلال التي في يده وعنقه".

قال الفراء:"يقال: إن الكافر تنطلق به الخزنة إلى النار مغلولا، فيقذف به في النار، فلا يتقيها إلا بوجهه".

قال الأخفش:"فهذا لم يظهر له خبر في اللفظة ولكنه في المعنى - والله أعلم - كأنه «أفمن يتقي بوجهه أفضل أم من لا يتقي» ".

قال الزمخشري:"معناه: أن الإنسان إذا لقى مخوفا من المخاوف استقبله بيده، وطلب أن يقي بها وجهه، لأنه أعز أعضائه عليه والذي يلقى في النار يلقى مغلولة يداه إلى عنقه، فلا يتهيأ له أن يتقى النار إلا بوجهه الذي كان يتقى المخاوف بغيره، وقاية له ومحاماة عليه. وقيل: المراد بالوجه الجملة، وقيل: نزلت في أبى جهل".

قال ابن كثير:"اكتفى في هذه الآية بأحد القسمين عن الآخر، كقول الشاعر:

فَمَا أَدْري إذَا يَمَّمْتُ أَرْضًا... أريدُ الخيرَ: أيّهما يَليني؟

يعني: الخير أو الشر".

قوله تعالى: {وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ} [الزمّر: ٢٤]، أي:"وقيل يومئذ للظالمين: ذوقوا وبال ما كنتم في الدنيا تكسبون من معاصي الله".

قال مقاتل:"وقالت الخزنة: للظالمين: {ذوقوا} العذاب ب {ما كنتم تكسبون} من الكفر والتكذيب".

قال الطبري:"يقول: ويقال يومئذ للظالمين أنفسهم بإكسابهم إياها سخط الله. ذوقوا اليوم أيها القوم وبال ما كنتم في الدنيا تكسبون من معاصي الله".

قال ابن كثير:"ويُقْرَعُ فيقال له ولأمثاله من الظالمين: {ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ} ".

=

=

قوله تعالى: {كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ} [الزمّر: ٢٦].

قال الطبري: يقول: " كذب الذين من قبل هؤلاء المشركين من قُريش من الأمم الذين مضوا في الدهور الخالية رسلهم، فجاءهم عذاب الله من الموضع الذي لا يعلمون بمجيئه منه".

قال مقاتل:"يعني: قبل كفار مكة كذبوا رسلهم بالعذاب في الآخرة بأنه غير نازل بهم {فأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون}، وهم غافلون عنه".

قال ابن كثير:"يعني: القرون الماضية المكذبة للرسل، أهلكهم الله بذنوبهم، وما كان لهم من الله من واق".

قال الزمخشري:"{مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ}، من الجهة التي لا يحتسبون، ولا يخطر ببالهم أن الشر يأتيهم منها، بينا هم آمنون رافهون إذ فوجئوا من مأمنهم. والخزي: الذل والصغار، كالمسخ والخسف والقتل والجلاء، وما أشبه ذلك من نكال الله".

قوله تعالى: {فَأَذَاقَهُمُ اللهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} [الزمّر: ٢٦]، أي:"فأذاق الله الأمم المكذبة العذاب والهوان في الدنيا".

قال السمعاني:"أي: العذاب الذي يخزيهم".

قال الطبري: يقول: " فعجل الله لهؤلاء الأمم الذين كذبوا رسلهم الهوان في الدنيا، والعذاب قبل الآخرة، ولم ينظرهم إذ عتوا عن أمر ربهم".

قال ابن كثير:"أي: بما أنزل بهم من العذاب والنكال وتشفي المؤمنين بهم، فليحذر المخاطبون من ذلك، فإنهم قد كذبوا أشرف الرسل، وخاتم الأنبياء، والذي أعده الله لهم في الآخرة من العذاب الشديد أعظمُ مما أصابهم في الدنيا ".

=

=

قال النسفي: {الخزى}:"الذل والصغار كالمسخ والخسف والقتل والجلاء ونحو ذلك من عذاب الله".

قال المبرد: "يقال لكل ما نال الجارحة من شي قد ذاقته، أي وصل إليها كما تصل الحلاوة والمرارة إلى الذائق لهما. والخزي من المكروه، والخزاية من الاستحياء".

قوله تعالى: {وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ} [الزمّر: ٢٦]، أي:"ولعذاب الآخرة الذي أُعدَّ لهم أعظم بكثير من عذاب الدنيا".

قال الطبري:"يقول: ولعذاب الله إياهم في الآخرة إذا أدخلهم النار، فعذّبهم بها، أكبر من العذاب الذي عذّبهم به في الدنيا".

قال السمعاني:"أي: عذاب الآخرة وهو عذاب النار أكبر من كل عذاب".

قوله تعالى: {لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ} [الزمّر: ٢٦]، أي:"لو كان هؤلاء المشركون يعلمون أن ما حلَّ بهم؛ بسبب كفرهم وتكذيبهم لاتَّعظوا".

قال النسفي:"لآمنوا ".

قال الطبري: "يقول: لو علم هؤلاء المشركون من قريش ذلك".

قوله تعالى: {وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ} [الزمّر: ٢٧].

قال الطبري: يقول:"ولقد مثلنا لهؤلاء المشركين بالله من كل مثل من أمثال القرون للأمم الخالية، تخويفا منا لهم وتحذيرا".

قال السمعاني: {مِنْ كُلِّ مَثَلٍ} "أي: شبه ومثال".

قوله تعالى: {لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ} [الزمّر: ٢٧]، أي:"لعلهم يتعظون ويعتبرون بتلك الأمثال والزواجر".

قال الطبري: "يقول: ليتذكروا فينزجروا عما هم عليه مقيمون من الكفر بالله".

قال السمعاني:"أي: يتذكرون ما فيه من الأمثال".

=

=

قال العثيمين: قوله تعالى: {يَتَّقِي} قال المُفَسِّر رحمه الله: [يَلْقَى]، لكِنَّ المُتَّقِيَ للعَذاب هو من يُحاوِل النَّجاة منه، لكِنَّ المُلاقِيَ للشيء قد يُلاقيه ببُشرى وفرَحٍ وسُرور، فتَفسير {يَتَّقِي} بـ(يَلقَى) لا شَكَّ أنه قاصِر، ولكنه بعض الأحيان يُفسِّر المُفَسِّر رحمه الله القُرآن بما يُقارِبه كما فسَّر قوله تعالى قال: {سُوءَ الْعَذَابِ} بـ[أَشَدَّه]، ففسَّر كلِمة سُوء بأَسوَأ، وأَسوَأُ لا شَكَّ أنه اسم تَفضيل، وسوء ليس كذلك، وعلى هذا فيَكون المُفَسِّر رحمه الله فسَّر الكِتاب بما هو أعلى مِنه، والواجِب: أن يَكون المُفسِّر مُطابِقًا للمُفسَّر، ولو قال المُفَسِّر رحمه الله: العَذاب السيِّئ لكان أَبلَغ مُطابَقة للقُرآن.

والعَذاب هو الشيء الذي يُصيب الإنسان إصابةً مُباشِرة يُقال: ذاقه، لكن ليس باللسان، إنما لمَّا أَصابه مُباشَرة صار كالمَطعوم الذي يُدخِله الإنسان في جَوْفه، وعلى كل حال فإحساسُ الوَجْه بالعَذاب أَشَدُّ من إحساس بقية الجَسَد، ويَكون الوَصْف للعَذاب نفسِه إذا كان أَسوَأَ العذاب، ويَكون في الوجه صار أَشَدَّ على الإنسان ممَّا لو كان في طرَف آخَرَ، لكن الذي يَظهَر لنا: أن سوء العَذاب ليس على اسمِ تَفضيل، ولكنه من باب إضافة الصِّفة إلى مَوْصوفها، يَعنِي: العَذاب السيِّئ.

ومن هذا البابِ أيضا كلِمتا (خَيْر) و (شَر) تُطلَقان على باب اسم التَّفضيل إذا قلت: هذا خيرٌ من هذا وهذا شَرٌّ من هذا. وقد تُطلَقان ويُراد بها الوَصْف بالشَّرِّ فقط، كما تَقول: (هذا شرٌّ)، (هذا خَيْر).

وقول المُفَسِّر رحمه الله: [بأن يُلقَى في النار مَغلولةً يَدُه إلى عُنُقه] كأنه أُخِذ من كونه يَتَّقي العَذاب بوَجهه؛ لأنه لو كانت يَدُه مُطلَقة لاتَّقَى العَذاب بيده، ولكنِّي أَقول: لا يَلزَم منِ اتِّقاء العَذاب بوَجْهه أن تُغَلَّ يدُه؛ لأن يدَه قد تَكون مُرسَلة غير مُقيَّدة، ولكن لا يَستَطيع أو يَظُنُّ أن مُدافعته بوجهِه أَشَدُّ، فيُدافِع بوجهه.

=

قال المُفَسِّر رحمه الله في جواب الشَّرْط في ذِكْر المُعادِل: [كمَن أمِن منه في دُخول الجَنَّة؟].

والجَوابُ: لا، وحينئذٍ يَكون الاستِفْهام للنَّفي، يَعنِي: لا يَستَوي مَن يَتَّقِي بوَجْهه سُوء العذاب مع من أمِن العَذاب ولم يَتَّقِه ثُمَّ قال رحمه الله: [{وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ} أي: كُفَّار مَكَّةَ {ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ} أي: جزاءَهُم]؛ وقوله: [{لِلظَّالِمِينَ} أي: كُفَّار مكَّةَ] كأنه أَخَذه من قوله تعالى: {كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ} وإلَّا فإن الظالِمين هنا عامٌّ، لفظ عامٌّ يَشمَل كفَّار مكَّةَ وغيرهم، وهذا هو الأَوْلى.

فإن قيل: {كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ} يَدُلُّ على أن هذا في المُتأخِّرين؟

قُلنا: نعَمْ، هو يَدُلُّ على أنه في المُتأخِّرين، لكن كل رَسول قد سبَقه رسول، فهنا نَقول: كذَّبَت قبلَهم قومُ نوحٍ وثَمودُ، كذَّبت قبلهم قوم عاد، وهَلُمَّ جرًّا، فيَكون (الظالِمون) عامًّا لكُفَّار مكَّةَ ولغيرهم، لكن أوَّل مَن يَدخُل فيهم بلا شَكٍّ كفَّار مكَّةَ؛ لأن القُرآن نزَل توبيخًا لهم وإنذارًا ودَعوةً.

قال المُفَسِّر رحمه الله: [{فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ} من جِهةٍ لا تَخطُر ببالهم] وهذا في التَّفسيرُ أشَدُّ وأبلَغُ من أن يَكون من أن يَأتيَهُمُ العَذاب وهم على أُهْبة الاستِعْداد له.

قوله رحمه الله: [{فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ} من الذُّلِّ والهَوان من المَسخِ والقَتْل وغيره] {فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ} فأَذاقهمُ الله تعالى، أي: مسَّهُم به حتى كأنهم طعِموه وذاقوه بمَذاقاتهم.

وقول المُفَسِّر رحمه الله: [من المَسْخ والقَتْل وغيره] المَسْخ مثل اليَهود الذي قال الله لهم: {كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ} [البقرة: ٦٥]، والقَتْل مثل قَتْل بني إسرائيلَ أنفسَهم حينما أُمِروا بالتوبة وقيل لهم: إن كُنْتم صادِقين في التَّوْبة فاقتُلوا أَنفُسكم.

=

يَقول المُفَسِّر رحمه الله: [وغيره] وذلك مثل الإِهْلاك بالصاعِقة والرَّجْفة وما أَشبَهَها، فالمُهِمُّ أن المُكذِّبين للرُّسُل كلُّهم أَهلَكهم الله عز وجل.

فإن قال قائل: أليس مِن الرُّسُل مَن قُتِل؟

فالجَوابُ: بلى، ولكن هؤلاء الذين قُتِلوا إمَّا أن يَكونوا لم يُؤمَروا بالقِتال فاعتَدَى عليهم مَنِ اعتدَى بدون قِتال، وإمَّا أنهم أُتوا على غِرَّة دون أن يُجاهَروا بالقَتْل، ثُمَّ إذا قُتِلوا هل مَعنَى ذلك أن ما دُعوا إليه يَموت بمَوْتهم؟ لا، قد يَبقَى فيَكون هذا نَصْرًا لهم ولو بعدَ وفاتهم، فأَذاقهم الله تعالى الذُّلَّ والهَوان من المَسْخ والقَتْل وغيره في الحَياة الدُّنيا.

وقوله تعالى: {وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ} أي: لو كانوا أي: المُكذِّبون يَعلَمون عذابَها ما كذَّبوا، فقول المُفَسِّر رحمه الله: (ما كذَّبوا) هو جَواب (لو) المَحذوفة.

ثُمَّ قال سبحانه وتعالى: {وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ}.

قوله تعالى: {ضَرَبْنَا} يَقول المُفَسِّر رحمه الله: [جعَلنا]، ولعلَّ الضَّرْب أَخَصُّ من الجَعْل، وهذا التَّفسيرُ تَفسيرٌ بما هو أَعَمُّ؛ لأن ضَرْب المثَل ليس مُجرَّدَ جَعْلٍ له، بل ضَرْب المثَل للاعتِبار به، فضرَبْته مثَلًا أي: جعَلْته شبَهًا حتى يَعتَبر به؛ فقوله: {ضَرَبْنَا} أي: بيَّنَّا {لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ}، والجُملة هنا مُؤكَّدة بمُؤكِّداتٍ ثلاثة: وهي اللَّام، و (قد)، والقسَم المُقدَّر؛ لأن تأكيد الكلام في مثل هذا التركيب: (واللهِ لقَدْ) فيَكون مُؤكَّدًا بمُؤكِّداتٍ ثلاثة.

وقوله تعالى: {وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ} إذا قال قائِل: كيف يُؤكَّد هذا وهو أَمْرٌ مَعلوم، والغالِب أن التأكيد إنما يُصار إليه للحاجة إليه؟

=

=

فالجَوابُ: أن التَّأكيد قد يَكون للحاجة إليه عندما يَكون المُخاطَب شاكًّا أو مُنكِرًا، وقد يَكون التَّأكيد لأهمية المُؤكَّد وإن لم يَكُن ثَمَّة إنكار أو تَردُّد، ومنه هذه الآيةُ فإن ضَرْب الله تعالى الأَمْثال للناس في القُرآن أَمْرٌ مَحسوس مُدرَك، ولكن لأَهَمِّيته أكَّده الله عز وجل: {لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ} أي: من كل شَبَه، فيَضرِب الله تعالى الأشباه والنظائِر ليَحذَر مَن كان على مِثْل هذا النَّظيرِ وهذا الشبيهِ حتى لا يَقوم بمِثْل ما فعَل.

وقوله تعالى: {لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ} يَشمَل كل الناس المُؤمِن والكافِر؛ لأَجْل أن يَتذكَّر هؤلاء وهؤلاء.

قال المُفَسِّر رحمه الله: [{لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ} يَتَّعِظون] و (لعَلَّ) هنا للتَّعليل وهو أحَد معانيها، ومن مَعانيها التَّرجِّي مثل: لعَلَّ الحبيبَ قادِمٌ، ومن مَعانيها الإِشْفاق مثل: لعلَّ الحبيبَ هالِكٌ، ففي الأوَّل: لعَلَّ الحَبيب قادِم، رجاءٌ، وفي الثاني إِشْفاق يَعنِي: أَخشَى أن يَكون هالِكًا، وتَأتي للتَّعليل كما في هذه الآيةِ، وكما في قوله تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [البقرة: ١٨٣]، وقوله تعالى: {لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا} قد تَكون هذه للتَّوقُّع، وقوله تعالى: {لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ} [الشعراء: ٣] للتَّوقُّع أيضًا، وهي في القرآن كثير، وقوله تعالى: {لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ} [غافر: ٣٦] للتَّرجِّي، ويُحتَمَل أن تَكون للتَّعليل، وإنَّما هو كثير في القُرآن.

وإنما بيَّنته لئَلَّا يَظُنَّ بعض الناس أنها للتَّرجِّي في كل مَكان فيقول: كيف يَترجَّى الله عز وجل الشيءَ وهو قادِر على كل شيء؟ نَقول: (لعَلَّ) إذا جاءَت في كلام الله تعالى فهي للتَّعليل.

=

قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٢٨).

{قُرْآنًا عَرَبِيًّا} حَال مُؤَكِّدَة {غَيْر ذِي عِوَج} أَيْ لَبْس وَاخْتِلَاف {لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ} الْكُفْر(١).

=

وقوله المُفَسِّر رحمه الله: {يَتَذَكَّرُونَ} يَعنِي: [يَتَّعِظون]؛ لأن هذا هو الغرَض من ضَرْب الأمثال.

(١)قوله تعالى: {قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ} [الزمّر: ٢٨].

قال الطبري: يقول: لقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل قرآنا عربيا {غَيْرَ ذِي عِوَجٍ}، يعني: ذي لبس".

قال مقاتل:"يعني: ليس مختلفا، ولكنه مستقيم".

قال الزمخشري: أي:"مستقيما بريئا من التناقض والاختلاف".

قال السمعاني:"أي: أنزلنا قرآنا عربيا غير ذي لبس".

عن مجاهد: " {قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ}: غير ذي لبس".

وقال السدي:"غير مخلوق".

وقال بكر بن عبد الله المزني: "غير ذي لحن".

قال الزجاج:"{عَرَبِيًّا} منصوب على الحال. المعنى: ضَرَبْنا للنْاس في هذا القرآن في حال عربيَّته وبيانه. وذكر {قرآنًا} توكيدًا، كما تقول: جاءني زيدا رَجُلًا صالِحًا. وجاءني عمرو إنْسَانًا عَاقِلًا. فَتَذْكُرُ «رَجُلًا».. و «إنسانًا» توكيدا".

قال الزمخشري:"يجوز أن ينتصب {عَرَبِيًّا} على المدح... فإن قلت: فهلا قيل: مستقيما: أو غير معوج؟ قلت: فيه فائدتان، إحداهما: نفى أن يكون فيه عوج قط، كما قال: ولم يجعل له عوجا والثانية: أن لفظ العوج مختص بالمعاني دون الأعيان. وقيل: المراد بالعوج: الشك واللبس. وأنشد:

وقد أتاك يقين غير ذى عوج... من الإله وقول غير مكذوب".

=

=

قال الشافعي رحمه الله: "فأقام - الله - عز وجل - حجته بأن كتابه عربي، في كل آية ذكرناها".

قوله تعالى: {لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ} [الزمّر: ٢٨]، أي:"لعلهم يتقون الله بامتثال أوامره واجتناب نواهيه".

قال الطبري:"يقول: جعلنا قرآنا عربيا إذ كانوا عربا، ليفهموا ما فيه من المواعظ، حتى يتقوا ما حذرهم الله فيه من بأسه وسطوته، فينيبوا إلى عبادته وإفراد الألوهة له، ويتبرّءوا من الأنداد والآلهة".

قال العثيمين: قال المُفَسِّر رحمه الله: [{قُرْآنًا عَرَبِيًّا} حال] يَعنِي: أن (قُرآنًا) هذه حال، و (عربيًّا) حالٌ أُخرى، يَعنِي: هذا القُرآنُ الذي فيه من كل مثَل هو قُرآن، والقُرآن تَأتي بمَعنَى المَصدَر، وتَأتي بمَعنَى اسمِ الفاعِل أو المَفعول، فمِن إِتْيانها مَصدَرًا: الغُفران والشُّكْران، وأنا أَقصِد بهذا وَزْن: فُعْلان تأتي مَصدَرًا مثل: الغُفران والشُّكران والقُرآن، وهذا المَصدَرُ في لفظ القُرآن يُحتَمَل أنه بمَعنَى اسمِ المَفعول، فـ (قُرآن) بمَعنَى: مَقروء، وعلى هذا فيَكون بمَعنَى: مَتلُوٍّ، ويُحتَمَل أن يَكون اسمَ فاعِل بمَعنَى: قارِئ، وهو من: قرَأَ الماء إذا جمَعَه في الحَوْض، والقُرآن إذا تَأمَّلت وجَدْت أن الوَصْفين يَنطَبِقان عليه، فهو مَتلُوٌّ وجامِع.

ولهذا قال العُلَماء رحمهم الله في عِلْم أُصول التَّفسير: إنه يَصِحُّ أن يَكون بمَعنى اسمِ الفاعِل، ويَصِحُّ أن يَكون بمَعنَى اسم المَفعول.

وقوله تعالى: {عَرَبِيًّا} أي: باللُّغة العَرَبية التي هي لِسان محُمَّدٍ ﷺ ولسان القَوْم الذين بُعِث فيهم، والعربية هي أفضَلُ الأَلْسُن وأَعربُها وأَفصَحُها وأَبيَنُها؛ ولهذا اختارها الله عز وجل لرِسالة مُحمَّدٍ ﷺ.

فإن قيل: أَليسَ في القُرآن من الكلِمات ما أصلُه أَعجميٌّ في القُرآن؟

=

=

قُلْنا: بلى فيه، ولكِنَّ هذه الأَلفاظَ التي أَصلُها غير عرَبيٍّ لمَّا نطَق بها العرَب عرَّبوها وصارت عربية؛ ولهذا لا تَخلو هذه الكلِماتُ المُعرَّبة من تَغييرٍ بعض الشيء، فلا بُدَّ أن يَكون فيها شيء من التَّغيير في الغالِب، فإذا نطَق بها العرَب واستَخدَموها وسادت في أَلسِنَتهم صارت مُستعَرَبة. إذا فهي كلِمات مُستعرَبة من قوم مُستَعرِبين أيضًا؛ لأن أصل العرَب مُستَعرِبين؛ لأنهم ليسوا عربًا في الأصل، فإسماعيلُ عليه السلام هو ابنُ إبراهيمَ عليه السلام، وليس لُغتُه العَربيةَ، لكن لمَّا جاء عرَب جُرْهم إلى أُمِّ إسماعيلَ عليه السلام ونزَلوا عندها صار عربيًّا، واستَمَرَّتِ العُروبة إلى يومنا هذا. ودليل هذا أيهما أَفضَلُ، رسالةُ محُمَّد عليه الصلاة والسلام وأُمَّته أو الرِّسالات الأُخرى وأُمَّتهم؟

الجَوابُ: رِسالة النبيِّ ﷺ: إِذَن: ليس هناك شَكٌّ؛ ولهذا ورَدَ في حديث، لكِنْ فيه نظَر: أن اللغة العربية لُغة أهل الجَنَّة.

وكون الله تعالى اختار هذه الرِّسالةَ العظيمة في اللغة العربية يَكفِي؛ لقوله تعالى: {اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ} [الأنعام: ١٢٤]، فصار هذا المكانُ صالِحًا لهذه الرِّسالةِ العَظيمة؛ لأنه عظيم؛ ومَعلوم أن البيان لو جاء بغير اللغة العربية ما أَبانَ، لكن كونه اختار أن يَكون في هؤلاءِ العرَبِ، وبِلُغتهم فهذا دليل على فَضْلهم.

فإذا قال قائِل: إن الرسول عليه الصلاة والسلام خاصٌّ بالعرَب؟

قُلْنا: نعَمْ، هو بُعِث في الأُمِّيِّين، لكن لجميع الناس كما لو أن أحَدًا صار في الشرق أو في الغرب وهو أميرٌ على جميع المَنطِقة على جميع القارَّة التي هو فيها، فهذا مُحمَّد عليه الصلاة والسلام بُعِث في هؤلاء القومِ، لكن إلى جميع الناس، ومَعلوم أنه لا بُدَّ أن يُبعَث في قوم، فافْرِضْ أنه بُعِث في العجَم وهو رسول إلى الناس فهو نفس الشيء.

=

ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٢٩).

{ضَرَبَ الله} لِلْمُشْرِكِ وَالْمُوَحِّد {مَثَلًا رَجُلًا} بَدَل مِنْ مَثَلًا {فِيهِ شُرَكَاء مُتَشَاكِسُونَ} مُتَنَازِعُونَ سَيِّئَة أخلاقهم {ورجلا سالما} خَالِصًا {لِرَجُل هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا} تَمْيِيز أَيْ لَا يَسْتَوِي الْعَبْد لِجَمَاعَةٍ وَالْعَبْد لِوَاحِدٍ فَإِنَّ الْأَوَّل إذَا طَلَبَ مِنْهُ كُلّ مِنْ مَالِكَيْهِ خِدْمَته فِي وَقْت وَاحِد تَحَيَّرَ فِيمَنْ يَخْدُمهُ مِنْهُمْ وَهَذَا مَثَل لِلْمُشْرِكِ وَالثَّانِي مَثَل لِلْمُوَحِّدِ {الْحَمْدُ لِلَّهِ} وَحْده {بَلْ أَكْثَرهمْ} أَيْ أَهْل مَكَّة {لَا يَعْلَمُونَ} مَا يَصِيرُونَ إلَيْهِ مِنْ العذاب فيشركون(١).

=

وقوله تعالى: {غَيْرَ ذِي عِوَجٍ} هذا الوَصفُ سَلبي وليس ثُبوتيًّا، واعلَمْ أنه لا يُوجَد في أوصاف القُرآن ما هو سَلْبيٌّ مَحض؛ لأن السَّلبيَّ المَحْض ليس فيه مَدْح، بل كل شيءٍ وُصِف به القرآن على وجه النَّفي فإن ذلك لكمال ضِدِّه؛ ولا بُدَّ أن يَتضمَّن الكَمال أيضًا في قوله تعالى: {لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ} [الإخلاص: ٣] لم يَلِد ولم يُولَد؛ لكَمال وحدانِيَّته.

فإذا قال تعالى: {غَيْرَ ذِي عِوَجٍ} أي: لكَمال استِقامته، بَلْ قال الله تعالى: {إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ} [الإسراء: ٩]، {يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ} فالقُرآن الكريم يَهدي للتي هي أَقومُ في أمور الدِّين وفي أمور الدُّنيا على وجهٍ ليس في اعوِجاج بوَجهٍ من الوُجوه؛ ولهذا قال تعالى: {غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ} أي: لأَجْل أن يَتَّقوا، فبيَّن الله تعالى لنا بهذا القُرآنِ، وجعَله غيرَ ذي عِوَج من أَجْل تَقواه عز وجل.

(١) قوله تعالى: {ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ} [الزمّر: ٢٩].

=

=

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: مثل الله مثلا للكافر بالله الذي يعبد آلهة شَتَّى، ويطيع جماعة من الشياطين، والمؤمن الذي لا يعبُد إلا الله الواحد، يقول تعالى ذكره: ضرب الله مثلا لهذا الكافر رجلا فيه شركاء. يقول: هو بين جماعة مالكين متشاكسين، يعني: مختلفين متنازعين، سيئة أخلاقهم، من قولهم: رجل شكس: إذا كان سيئ الخلق، وكل واحد منهم يستخدمه بقدر نصيبه ومِلْكه فيه، ورجلا مسلما لرجل، يقول: ورجلا خُلُوصا لرجل يعني المؤمن الموحد الذي أخلص عبادته لله، لا يعبد غيره ولا يدين لشيء سواه بالربوبية".

قال الزمخشري:"واضرب لقومك مثلا، وقل لهم: ما تقولون في رجل من المماليك قد اشترك فيه شركاء بينهم اختلاف وتنازع: كل واحد منهم يدعى أنه عبده، فهم يتجاذبونه ويتعاورونه في مهن شتى ومشاده، وإذا عنت له حاجة تدافعوه، فهو متحير في أمره سادر، قد تشعبت الهموم قلبه وتوزعت أفكاره، لا يدرى أيهم يرضى بخدمته؟ وعلى أيهم يعتمد في حاجاته. وفي آخر: قد سلم لمالك واحد وخلص له، فهو معتنق لما لزمه من خدمته، معتمد عليه فيما يصلحه، فهمه واحد وقلبه مجتمع، أى هذين العبدين أحسن حالا وأجمل شأنا؟ والمراد: تمثيل حال من يثبت آلهة شتى، وما يلزمه على قضية مذهبه من أن يدعى كل واحد منهم عبوديته، ويتشاكسوا في ذلك ويتغالبوا، كما قال تعالى: {وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ} [المؤمنون: ٩١]، ويبقى هو متحيرا ضائعا لا يدرى أيهم يعبد؟ وعلى ربوبية أيهم يعتمد؟ وممن يطلب رزقه؟ وممن يلتمس رفقه؟ فهمه شعاع، وقلبه أوزاع، وحال من لم يثبت إلا إلها واحدا، فهو قائم بما كلفه، عارف بما أرضاه وما أسخطه، متفضل عليه في عاجله، مؤمل للثواب في آجله. وفيه صلة شركاء، كما تقول: اشتركوا فيه. والتشاكس والتشاخس: الاختلاف، تقول: تشاكست أحواله، وتشاخست أسنانه سلما لرجل خالصا".

=

=

عن مجاهد، قوله:" {رَجُلا فِيه شُرَكاءُ مُتَشاكِسُونَ وَرَجُلا سالِمًا لِرَجُلٍ}، قال: هذا مثل إله الباطل وإله الحق".

قال السدي:"مثل لأوثانهم التي كانوا يعبدون".

عن قتادة، قوله: " {ضَرَبَ اللهُ مَثَلا رَجُلا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ}، قال: هذا المشرك تتنازعه الشياطين، لا يقر به بعضهم لبعض. {وَرَجُلا سَالِمًا لِرَجُلٍ}، قال: هو المؤمن أخلص الدعوة والعبادة".

قال ابن عباس:"الشركاء المتشاكسون: الرجل الذي يعبد آلهة شتى كلّ قوم يعبدون إلها يرضونه ويكفرون بما سواه من الآلهة، فضرب الله هذا المثل لهم، وضرب لنفسه مثلا يقول: رجلا سَلِمَ لرجل. يقول: يعبدون إلها واحدا لا يختلفون فيه".

قال ابن زيد:"أرأيت الرجل الذي فيه شركاء متشاكسون كلهم سيئ الخلق، ليس منهم واحد إلا تلقاه آخذا بطرف من مال لاستخدامه أسواؤهم، والذي لا يملكه إلا واحد، فإنما هذا مثل ضربه الله لهؤلاء الذين يعبدون الآلهة، وجعلوا لها في أعناقهم حقوقا، فضربه الله مثلا لهم، وللذي يعبده وحده {هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُون}، وفي قوله: «وَرَجُلا سالِمَا لِرَجُلٍ»، يقول: ليس معه شرك".

عن مجاهد، عن ابن عباس أنه قرأها: «سَالِمًا لِرَجُلٍ»، -يعني بالألف-، وقال: ليس فيه لأحد شيء".

وقرأ ذلك عامة قرّاء المدينة والكوفة: " {وَرَجُلا سَلَمًا لِرَجُلٍ}، بمعنى: صلحا".

قوله تعالى: {هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا} [الزمّر: ٢٩]، أي:"هل يستويان في حسن الحال، وراحة البال؟ فكذلك لا يتساوى المؤمن الموحِّد مع المشرك الذي يعبد آلهة شتى".

=

=

قال الزجاج: أي: هل يَسْتَوِي مَثَلُ الموَحِّدِ وَمَثَلُ المشرك".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: هل يستوي مثلُ هذا الذي يخدم جماعة شركاء سيئة أخلاقهم مختلفة فيه لخدمته مع منازعته شركاءه فيه والذي يخدمُ واحدا لا ينازعه فيه منازع إذا أطاعه عرف له موضع طاعته وأكرمه، وإذا أخطأ صفح له عن خطئه، يقول: فأيّ هذين أحسن حالا وأروح جسما وأقلّ تعبا ونصبا؟ ".

عن ابن عباس: " {هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ}، يقول: من اختُلف فيه خير، أم من لم يُخْتَلَف فيه؟ ".

قوله تعالى: {الْحَمْدُ لِلَّهِ} [الزمّر: ٢٩]، أي:"فالثناء الكامل التام لله وحده".

قال الطبري:"يقول: الشكر الكامل، والحمدُ التامّ لله وحده دون كلّ معبود سواه".

قال الزمخشري:"الحمد لله الواحد الذي لا شريك له دون كل معبود سواه، أي: يجب أن يكون الحمد متوجها إليه وحده والعبادة، فقد ثبت أنه لا إله إلا هو".

قوله تعالى: {بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} [الزمّر: ٢٩]، أي:"بل المشركون لا يعلمون الحق فيتبعونه".

قال الطبري:"يقول جل ثناؤه: وما يستوي هذا المشترك فيه، والذي هو منفرد ملكه لواحد، بل أكثر هؤلاء المشركين بالله لا يعلمون أنهما لا يستويان، فهم بجهلهم بذلك يعبدون آلهة شتى من دون الله".

قال الزمخشري:" {بل أكثرهم لا يعلمون} فيشركون به غيره".

قال العثيمين: قوله تعالى: {ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا} لما قال الله تعالى: {وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ} [الزمر: ٢٧]، فبيَّن الله عز وجل هذا المَثَلَ العَظِيم، فقال تعالى: {ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ} أي: مُتَنازِعون مُختَلِفون كل واحِدٍ منهم يَقول: أنا

=

=

صاحِبه، أنا الذي أُريد أن أَستَخْدِمه. وما أَشبَه ذلك، فهُم دائِمًا في نِزاع وفي خُصومة؛ لأن كل واحدٍ منهم يُريد أن يَنفَرِد به عن الآخَر.

والرجُل الثاني: {وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ}: {سَلَمًا} أي: سالِمًا لهذا الرجُلِ لا يَشرَكه فيه أَحَدٌ.

فإن قال قائِل: بِمَ عرَفْتم أن {سَلَمًا} بمَعنَى: سالِمًا من الشُّرَكاء؟

قُلنا: عرَفْنا ذلك بذِكْر المُقابِل، وهو قوله تعالى: {فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ}؛ لأن الكلِمة تُعرَف بالسِّياق وبذِكْر المُقابِل، ومن أَبرَز مِثالٍ على ذلك قوله تبارك وتعالى: {فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انْفِرُوا جَمِيعًا} [النساء: ٧١].

فلو قال لك قائِل: ما مَعنَى: ثُبَاتٍ؟ لفَهِمْت مَعناها ممَّا بعدَها: {أَوِ انْفِرُوا جَمِيعًا}، فيَكون الثَّبات ضِدَّ المُجتَمِعين، أي: فُرادى: فانفِروا فُرادى أو انفِروا جميعًا.

وهذه من قواعِد التَّفسير أن يُعرَف تَفسير الكلِمة بذِكْر ما يُقابِلها.

إِذَنْ: يَجِب أن نَعرِف الفَرْق بين المملوك الذي فيه الشُّرَكاء المُتَشاكِسون والمملوك الذي ليس فيه شُرَكاءُ، ثُمَّ نَقيس عليه المُخلِص لله تعالى الذي يَعبُد الله تعالى وحدَه، والذي يَعبُد مع الله تعالى غيرَه؛ ولهذا قال تعالى: {هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا} [هود: ٢٤]، أي: هل يَستَوي رجُلان: أحدُهما فيه شُرَكاءُ مُتَشاكِسون والآخَر سَلَمٌ لرجُل؟ هل يَستَوِي هذان؟

الجَوابُ: لا، فالاستِفْهام حينئذٍ بمَعنَى النَّفي، يَعنِي: لا يَستَوِيان، والاستِفهام يَأتي لمَعانٍ كثيرة كما هو مَعروف في عِلْم البَلاغة، ولكنه إذا أَتَى في مَوضِع النفيِ فإنه يَكون مُشْربًا معنَى التَّحدِّي؛ لأنه لو قيل: لا يَستَوِيان لفَهِمنا انتِفاء استِوائِهما.

لكن إذا قيل {هَلْ يَسْتَوِيَانِ} فهِمنا أَمْرين:

الأمر الأوَّل: انتِفاء الاستِواء.

والأمر الثاني: التَّحدِّي.

=

=

ونَقول: هل عِندك شيء يُثبِت أنهما يَستَوِيان، فيَكون تَحويل النَّفيِ إلى استِفْهام أبلَغَ في النفي وبين {هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا}؟ الجَواب: لا.

قوله تعالى: {الْحَمْدُ لِلَّهِ} حَمِد نَفْسه عز وجل لكَمال صِفاته وكَمال إنعامه، ومن إنعامه أنه يَضرِب الأَمْثال للناس في القُرآن لعلهم يَتَذكَّرون مع أنه عز وجل غَنيٌّ عنهم، ومَن كفَر فإن الله تعالى غَنيٌّ عن العالَمِين كلِّهم، لكن رحمته تأبَى إلَّا أن يُبيِّن لعِباده ما يَحتاجون إليه في أمور دِينهم ودُنياهم، ولهذا قال بعد هذا البَيانِ التامِّ في المثَل: {الْحَمْدُ لِلَّهِ}.

وقوله تعالى: {بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} وحرف {بَلْ} هنا للإِضْراب الانتِقالي، والإضراب له مَعنَيان:

المَعنَى الأوَّل: إضراب انتِقالي يَعنِي: يَنتَقِل من شيء إلى آخَرَ.

والمَعنَى الثاني: إضراب إبْطالي، يَعنِي: يُبطِل الأوَّل ويُثبِت الثانيَ.

فإذا قلت: ما قام زَيْدٌ بل عَمرٌو؟ فهذا إضراب إبطال، أي: أَبطَلت الأوَّل وأَثبَتَّ الثانيَ؛ وفي قوله تعالى: {بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ} [النمل: ٦٦]، هذا انتِقال من مَعنًى إلى مَعنًى أشَدَّ منه.

وفي هذه الآيةِ: {بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} إضراب انتِقال؛ لأنه لم يَسبِق شيءٌ أَبطَلته.

وقوله تعالى: {بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} والمُراد بـ (أَكثَرُهُمْ) هنا: أكثَرُ الناس، كما جاء ذلك في آياتٍ أُخرى: {وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ}؛ وانتِفاء العِلْم هنا لانتِفاء لازِمه: العمَل والامتِثال، فأَكثَرُ الناس في جَهْل، وأَكثَرُ الناس في غَيٍّ؛ في جَهْلٍ لا يَعرِفون الحقَّ، وفي غَيٍّ لا يَقبَلون الحقَّ، ولا يَعمَلون به، وكلُّهم يَصِحُّ أن نَنفيَ عنه العِلْم، أمَّا من كان في جَهْلٍ فنَفْي العِلْم عنه واضِحٌ، وأمَّا مَن كان في غَيٍّ مع العِلْم فنَفيُ العِلْم عنه لأنه لم يَنتَفِع به ولم يَعمَل به.

=

=

يَقول المُفَسِّر رحمه الله: [{ضَرَبَ اللَّهُ} للمُشرِك والمُوحِّد مثَلًا]، وتَقييد المُفَسِّر رحمه الله بالمُشرِك والمُوحِّد واضِح؛ لأن المثَل المَضروب وهو العَبْد المملوك بين شُرَكاءَ والعَبْد الخالِص يَنطَبِق تمامًا على المُشرِك والمُوحِّد.

وقوله تعالى: [{رَجُلًا} بدَل من {مَثَلًا}]، والبدَل يَقول فيه ابنُ مالِكٍ رحمه الله:

التَّابِعُ المَقْصُودُ بِالحُكْمِ بِلَا ... وَاسِطَةٍ.............

فقوله: (التَّابِعُ المَقْصُودُ بِالْحُكْمِ) خرَج به بقيَّة التَّوابع؛ وقوله: (بِلَا وَاسِطَةٍ) خرَج به المَعطوف بـ (بَلْ)، فإن المعطوف بـ (بَلْ) إذا كان للإِضْراب الإبطاليِّ فإنه يَكون هو المَقصودَ بالحُكْم، لكنه بواسِطة فلا يُسمَّى: بدَلًا، فهنا قال تعالى: {ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا}، فلو حذَف (مثَلًا)، وقال: ضرَب الله رجُلًا. يَصِحُّ الكلام؛ لأن المَقصود هو كلِمة رجُل، وأنت لو قُلت: رأيت مُحمدًا عليًّا. عليًّا بدَل؛ لأن المَقصود هو عليٌّ إذا خاطَبني مُخاطِب وقال: رأَيْت عليًّا مُحمَّدًا عرَفْت أنه أَراد محمَّدًا ولم يُرِد عليًّا؛ لأن محمدًا بدَل من عليٍّ.

والبدَل هو المَقصود بالحُكْم، لكن قد يَكون سببُه الغلَطَ، وقد يَكون سببُه النِّسيان، أو غير ذلك من الأسباب.

المُهِمُّ: أن البَدَل هو ما حدَّهُ ابنُ مالِكٍ رحمه الله بقوله:

التَّابِعُ المَقْصُودُ بِالحُكْمِ بِلَا ... وَاسِطَةٍ هُوَ المُسَمَّى بَدَلَا

يَقول المُفَسِّر رحمه الله: [{فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ} مُتَنازِعون سَيِّئةٌ أَخلاقُهم] أُخِذ سُوءُ الخُلُق من قوله تعالى: {مُتَشَاكِسُونَ}؛ لأن المُشاكَسة تُنبِئ عن سُوء الخُلُق إذ إن حُسْن الخُلُق يَتَنازَل عن حقِّه، ولو كان في ذلك أَذِيَّة له أو ضرَر عليه؛ لأن حُسْن أخلاقه تَتغلَّب على أَخْذه بحَقِّه.

وهكذا يَنبَغي للإنسان أن يَكون حسَن الأخلاق وأن يَتَغاضى عن بعض حَقِّه، ولو كان في ذلك أذيَّةٌ لنَفْسه، وأنه إن قالت له نَفْسه: إن تَواضُعَك وعَفوَك عن حقِّك ذُلٌّ

=

=

لك. لِيَعلَمْ أن هذا من وَساوِس الشَّيْطان؛ لأن النبيَّ ﷺ قال: "مَا زَادَ اللهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا، وَمَنْ تَوَاضَعَ للهِ رَفَعَهُ اللهُ"، فلا تَغلِبك نَفْسك وتَأخُذك العِزَّة بالإِثْم فتَقول: لا يُمكِن أن أَسكُت عن هذا الرجُلِ - وأنا مَن أنا! - حتى يَعتَدِيَ عليَّ أنا فلانُ ابنُ فلان. فلْيَعلَم أن هذا من الشَّيْطان، ويَتذَكَّر قوله تعالى: {فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ} [الشورى: ٤٠]، وقوله تعالى {وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) وَمَا يُلَقَّاهَا} أي: ما يُوفَّق لها {وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ} [فصلت: ٣٤ - ٣٥].

وقول المُفَسِّر رحمه الله: [(ورَجُلًا سالِمًا لرجُل)] قوله: (سالِمًا) هي قِراءة، والمُفسِّر رحمه الله فسَّر عليها، والسالِم يَعنِي: الخالِص كما فسَّرَها خالِصًا لرجُل {هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا} يقول: (مثَلًا) تَمييز.

والتَّمييز هو من مَيَّز إذا بَيَّن، وقد حدَّه ابنُ مالِكٍ رحمه الله في الألفية فقال:

اسْمٌ بِمَعْنَى (مِنْ) مُبِينٌ نَكِرَهْ ... يُنْصَبُ تَمْيِيزًا بِمَا قَدْ فَسَّرَهْ

ومِثاله: قولهم: تَصبَّب زيدٌ عرَقًا. فعرَقًا هذه تَمييز، بتَطبيقها على التَّعريف نَجِد أنها اسمٌ بمَعنى (مِن)؛ لأنك تَقول: تَصبَّب من العرَق. و (مُبِينٌ) أي: مُفسِّر لكلِمة (تَصبَّب)؛ لأن (تَصبَّب) لا نَدرِي تَصبَّب دمًا أم تَصبَّب ماءً، أم تَصبَّب عرَقًا، فبيَّن المُتصبِّب وهو نكِرة.

قال المُفَسِّر رحمه الله: [ومَعنَى الآية أنه لا يَستَوِي العبد لجَماعةٍ والعَبْد لواحِد، فإن الأوَّل إذا طلَب منه كُلٌّ من مالِكيه خِدْمته في وقتٍ واحِد تَحيَّر فيمَن يَخدُمه منهم]؛ فقوله رحمه الله: [لا يَستَوِي] بيَّنَ رحمه الله أن الاستِفْهام في قوله تعالى: {هَلْ يَسْتَوِيَانِ} للنَّفْي حيث فسَّره بنَفْيٍ أيضًا.

=

=

وقوله رحمه الله: [لا يَستَوِي العَبْد لجَماعة والعَبْد لواحِد] صحيح، لأنه لا يَستَوِي العَبْد لواحِد يَتصَرَّف فيه متى شاء، فمتى شاء قال: اخدُمْني. ومتى شاء قال: استَرِحْ. ومتى شاء باعَهُ، ومتى شاء أَجَّره، لا يَستَوِي العبد لجماعة مُتَشاكِسين أخلاقُهم سَيِّئة، تَنازُعُهم دائِمٌ، فلو قال أحَدهم: تعالِ اخْدُمْني. وقال الثاني: اخدُمْني أنا. وقال الثالِث: اخدُمْني أنا. وقال الرابعُ: اخدُمْني أنا!! صار أحَدُهم أخَذ باليَد اليُمنى والثاني باليَد اليُسرى والثالِث بالرِّجْل اليُمنى والرابِع بالرِّجْل اليُسرى، ثُم مزَّعوا العبد؛ لأن كلَّ واحِد يُريد أن يَكون عنده هو الذي يَخدُمه.

كذلك أيضًا في البيع لو أَراد أحدُهم: قال أنا أُريد بَيعَه. وقال الثاني: لا أُريدُه. والثالِثُ قال: أنا أُريد تَأجيرَه. والرابعُ قال: أُريد إعارَتَه؛ فدائِمًا في نِزاع وشِقاق، فالعَبْد نَفسُه في قلَق وفي حَيْرة وفي بلاء، والشرَكاء أيضًا كذلك مُتَشاكِسون دائِمًا، لا يُمكِن أن يَستَوِيَ هذا مع رجُل، وهذا لا شَكَّ أنه مثَل تَقريبي، وإلَّا فالفَرْق عظيم بين عِبادة الله عز وجل وعِبادة غيرِه معَه، فالله تعالى أعظَمُ، ولكنه يُقرِّب هذا للعِباد كما قرَّب المَعاد بالماء يَنزِل من السَّماء ثُم تَنبُت به الأرض، إذ يَبقَى نبات الأرض بعد نُزول المطَر مُدَّة حسَب الأرض وحسَب كَثْرة المطَر وحسَب الجَوِّ المُناسِب وحسَب الفَصْل، لكن يَبقَى البَعْث؛ قال تعالى: {فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ (١٣) فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ} [النازعات: ١٣، ١٤].

فالأَمثال قد لا تَكون مُطابِقة تَمامًا، فقد يَكون مَورِد المثَل أَسرَعَ من المثَل لكن يُذكَر على سَبيل التَّقريب، ولا شَكَّ أن عِبادة الله عز وجل وحدَه وعِبادة غيره معه بينهما فرقٌ أعظَمُ من الفَرْق بين الرجُل السالِم للرَّجُل والرجُل المُشترَك بين شُركاءَ مُتَشاكِسين.

=

=

يَقول المُفَسِّر رحمه الله: [هذا مثَل للمُشرِك والثاني مثَل للمُوحِّد] والمُراد بالثاني (رجُلًا سالِمًا لرجُل) هذا للمُوحِّد والأوَّل للمُشرِك؛ والمَقصود من ضَرْب هذا المثَل هنا: التَّحذير من الشِّرْك بالله عز وجل.

ثُم اعلَمْ أن الشُّرَكاء في العَبْد مُتَشاكِسون، لكن مع الله عز وجل يَقول الله تعالى في الحَديث القُدسيِّ: "أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ"؛ لأن الشُّرَكاء المُتَشاكِسين لا يُمكِن أن يَتنازَل أحَدُهم عن نَصيبه، لكن الشِّرْك بالله تعالى يَدَع اللهُ تعالى المُشرِكَ وشِرْكَه: "مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ".

ولهذا قال: [{الْحَمْدُ لِلَّهِ} وحدَهُ]، وإذا كان الحَمْد له وحدَه وجَبَ أن تكون العِبادة له وحدَهُ؛ لأنه أَهْل الحَمْد وأهل العِبادة سبحانه وتعالى، فهو وحدَه المُستَحِقُّ لأن يُعبَد.

قال المُفسِّر رحمه الله: [{بَلْ أَكْثَرُهُمْ} أي: أهل مَكَّةَ {لَا يَعْلَمُونَ} ما يَصيرون إليه من العَذاب فيُشرِكون]؛ فقوله تعالى: [{بَلْ أَكْثَرُهُمْ} أي: أهل مَكَّةَ] هذه عادة المُفَسِّر رحمه الله حيثُ نَجِده دائِمًا ولا سيَّما في الآيات والسُّور المَكِّيَّة يَجعَل مِثل هذا الخِطاب مُنصَبًّا على أهل مَكَّةَ، ولكن الذي يَنبَغي فِعْله أن نَجعَل دَلالة القرآن عامَّةً دائِمًا إلَّا عند الضرورة؛ لأن القُرآن نزَل لجَميع الخَلْق إلى يوم القيامة، فتَخصيصه بأهل مكَّةَ يَعنِي أنه لا يَتناوَل غيرَهم إلَّا بالقِياس، لكن إذا أَخَذْنا بدَلالة اللَّفْظ العامة شمِل أهل مكَّةَ وغيرَهم بالنَّصِّ، وهناك فَرْق بين شُمول الحُكْم بالنَّصِّ وشُموله بالقِياس.

فالصحيحُ: أن الضمير في {أَكْثَرُهُمْ} يَعود على أكثر الخَلْق، وأنهم لا يَعلَمون؛ ولهذا ثبَت في الحديث الصحيح: أن الله تعالى يَقول: "يَا آدَمُ. فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ. فَيَقُولُ: أَخْرِجْ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ بَعْثًا إِلَى النَّارِ أَوْ بَعْثَ النَّارِ. فَيَقُولُ: يَا رَبِّ،

=

إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ (٣٠).

{إنَّك} خِطَاب لِلنَّبِيِّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ {مَيِّت وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ} سَتَمُوتُ وَيَمُوتُونَ فَلَا شَمَاتَة بِالْمَوْتِ نَزَلَتْ لَمَّا اسْتَبْطَئُوا مَوْته صَلَّى الله عليه وسلم.

ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ (٣١).

{ثُمَّ إنَّكُمْ} أَيّهَا النَّاس فِيمَا بَيْنكُمْ مِنْ المظالم {يوم القيامة عند ربكم تختصمون}(١).

=

وَمَا بَعْثُ النَّارِ؟ قَالَ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعُ مِئَةٍ وَتِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ"، وهؤلاءِ همُ الأَكثَرُ، فأكثَرُ الخَلْق لا يَعلَمون إمَّا لجَهْلهم أو لغَيِّهم، فإن كانوا لجَهْلهم فكما قلت قبلُ: فهُم قد انتَفَى عنهم العِلْم، وإن كان لِغَيِّهم فإن العِلْم انتفَى عنهم؛ لانتِفاء فائِدته حيث لم يَستَرْشِدوا به.

(١)قوله تعالى: {إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ} [الزمّر: ٣٠].

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: إنك يا محمد ميت عن قليل، وإن هؤلاء المكذّبيك من قومك والمؤمنين منهم ميتون".

قال ابن قتيبة:"أي: ستموت ويموتون".

قال الزمخشري:"كانوا يتربصون برسول الله ﷺ موته، فأخبر أن الموت يعمهم، فلا معنى للتربص، وشماتة الباقي بالفاني".

قال ابن كثير:"الآية من الآيات التي استشهد بها الصديق -رضي الله عنه- عند موت الرسول ﷺ، حتى تحقق الناس موته، مع قوله: {وَمَا مُحَمَّدٌ إِلا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ} [آل عمران: ١٤٤]".

=

=

عن عائشة قالت: "دخل أبو بكر على النبي ﷺ وقد مات، فقبله وقال: وا نبياه!... وا خليلاه!. وا صفياه!... ثم تلا: {وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ} الآية. وقوله: {إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ} ".

وعن قتادة: "نعى إلى نبيه نفسه، ونعى إليكم أنفسكم".

قال السمرقندي: (يعني: أنت ستموت وهم سيموتون، ويقال: إنك ميت وإنهم ميتون يعني: إنك لميت لا محالة، وإنهم لميتون لا محالة، والشيء إذا قرب من الشيء سمي باسمه؛ فالخلق كلهم إذا كانوا بقرب من الموت فكل واحد منهم يموت لا محالة فسماهم ميتين).

ولأن كل ما هو كائن فهو قريب وكأنه قد كان.

قال الزمخشري: (والمعنى في قوله: {إنك ميت وإنهم ميتون (٣٠)} [الزمر:٣٠]، إنك وإياهم وإن كنتم أحياء فأنتم في عداد الموتى؛ لأن ما هو كائن فكأن قد كان).

وقال الرازي: (وقوله تعالى: {إنك ميت وإنهم ميتون (٣٠)} [الزمر:٣٠]، أي: إنك وإياهم وإن كنتم أحياء فإنك وإياهم في أعداد الموتى؛ لأن كل ما هو آت آت).

ولأن استعمال الاسم فيما يؤول إليه دليل على تحقق وقوعه وتأكده.

قال ابن كثير: (ومعنى هذه الآية: ستنقلون من هذه الدار لا محالة، وستجتمعون عند الله تعالى في الدار الآخرة).

وإذا قيل: ما فائدة إخبارهم بهذا؟.

فإن القرطبي أجاب بقوله: (فاحتمل خمسة أوجه:

أحدها / أن يكون ذلك تحذيرا من الآخرة.

الثاني / أن يذكره حثا على العمل.

الثالث / أن يذكره توطئة للموت.

=

=

الرابع / لئلا يختلفوا في موته كما اختلفت الأمم في غيره، حتى أن عمر رضي الله عنه لما أنكر موته احتج أبو بكر رضي الله عنه بهذه الآية فأمسك.

الخامس / ليعلمه أن الله تعالى قد سوى فيه بين خلقه مع تفاضلهم في غيره؛ لتكثر فيه السلوة، وتقل فيه الحسرة). والله أعلم.

قوله تعالى: {ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ} [الزمّر: ٣١]، أي:"ثم إنكم جميعًا -أيها الناس- يوم القيامة عند ربكم تتنازعون، فيحكم بينكم بالعدل والإنصاف".

قال الطبري:"يقول: ثم إن جميعكم المؤمنين والكافرين يوم القيامة عند ربكم تختصمون فيأخذ للمظلوم منكم من الظالم، ويفصل بين جميعكم بالحقّ".

وفي قوله تعالى: {ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ} [الزمّر: ٣١] وجوه من التفسير:

أحدها: أن المخاصمة في الدماء، قاله عكرمة.

الثاني: أنها في المداينة، قاله الربيع بن أنس.

الثالث: يعني: مخاصمة أهل الإسلام وأهل الكفر. قاله ابن زيد.

قال الماوردي: يعني: " في الإيمان والكفر، فمخاصمة المؤمنين تقريع، ومخاصمة الكافرين ندم".

الرابع: يعني: بذلك اختصام أهل الإسلام. قاله ابن عمر.

قال ابن عمر:"نزلت علينا هذه الآية وما ندري ما تفسيرها حتى وقعت الفتنة، فقلنا: هذا الذي وعدنا ربُّنا أن نختصم في {ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ} ".

=

=

قال إبراهيم:"لما نزلت: {إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ثُمَّ إِنَّكُمْ} ... الآية، قالوا: ما خصومتنا بيننا ونحن إخوان، قال: فلما قُتل عثمان بن عفان، قالوا: هذه خصومتنا بيننا".

عن أبي العالية، قوله: " {ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ}، قال: هم أهل القبلة".

الخامس: يخاصم الصادق الكاذب، والمظلوم الظالم، والمهتدي الضال، والضعيف المستكبر. قاله ابن عباس.

قال يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب بن الزبير: "لما نزلت: {إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ}، قال الزبير: يا رسول الله، أينكر علينا ما كان بيننا فى الدنيا مع خواصّ الذنوب؟ فقال النبي: ﷺ"نَعَمْ حتى يُؤَدَّى إلى كُلِّ ذي حَقٍّ حَقُّهُ".

وفي المسند عن أبي ذر رضي الله عنه أنه قال: رأى رسول الله ﷺ شاتين ينتطحان، فقال: "أتدري فيم ينتطحان يا أبا ذر؟ " قلت: لا. قال: "لكن الله يدري وسيحكم بينهما".

وعن ابن عباس أنه قال: "يختصم الناس يوم القيامة، حتى تختصم الروح مع الجسد، فتقول الروح للجسد: أنت فعلت. ويقول الجسد للروح: أنت أمرت، وأنت سولت. فيبعث الله ملكا يفصل بينهما، فيقول لهما إن مثلكما كمثل رجل مقعد بصير والآخر ضرير، دخلا بستانا، فقال المقعد للضرير: إني أرى هاهنا ثمارا، ولكن لا أصل إليها. فقال له الضرير: اركبني فتناولها، فركبه فتناولها، فأيهما المعتدي؟ فيقولان: كلاهما. فيقول لهما الملك. فإنكما قد حكمتما على أنفسكما. يعني: أن الجسد للروح كالمطية، وهو راكبه".

السادس: يختصم المؤمن والكافر، ويخاصم المظلوم الظالم. قاله الزجاج.

=

=

السابع: أن تخاصمهم هو: تحاكمهم إلى الله تعالى فيما تغالبوا عليه في الدنيا من حقوقهم خاصة دون حقوق الله ليستوفيها من حسنات من وجبت عليه في حسنات من وجبت له. أفاده الماوردي.

قال الطبري:"وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: عني بذلك: إنك يا محمد ستموت، وإنكم أيها الناس ستموتون، ثم إن جميعكم أيها الناس تختصمون عند ربكم، مؤمنكم وكافركم، ومحقوكم ومبطلوكم، وظالموكم ومظلوموكم، حتى يؤخذ لكلّ منكم ممن لصاحبه قبله حق حقُّه، وإنما قلنا هذا القول أولى بالصواب لأن الله عم بقوله: {ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ} خطاب جميع عباده، فلم يخصص بذلك منهم بعضا دون بعض، فذلك على عمومه على ما عمه الله به، وقد تنزل الآية في معنى، ثم يكون داخلا في حكمها كلّ ما كان في معنى ما نزلت به".

قال الزمخشري:"{تختصمون}، فتحتج أنت عليهم بأنك بلغت فكذبوا، فاجتهدت في الدعوة فلجوا في العناد، ويعتذرون بما لا طائل تحته، تقول الأتباع: {أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا} [الأحزاب: ٦٧]، وتقول السادات: أغوتنا الشياطين وآباؤنا الأقدمون، وقد حمل على اختصام الجميع وأن الكفار يخاصم بعضهم بعضا، حتى يقال لهم: {لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ} [ق: ٢٨]، والمؤمنون الكافرين يبكتونهم بالحجج، وأهل القبلة يكون بينهم الخصام".

قال ابن كثير:"معنى هذه الآية: ستنقلون من هذه الدار لا محالة وستجتمعون عند الله في الدار الآخرة، وتختصمون فيما أنتم فيه في الدنيا من التوحيد والشرك بين يدي الله عز وجل، فيفصل بينكم، ويفتح بالحق وهو الفتاح العليم، فينجي المؤمنين المخلصين الموحدين، ويعذب الكافرين الجاحدين المشركين المكذبين. ثم إن هذه الآية - وإن كان سياقها في المؤمنين والكافرين، وذِكْر

=

=

الخصومة بينهم في الدار الآخرة - فإنها شاملة لكل متنازعين في الدنيا، فإنه تعاد عليهم الخصومة في الدار الآخرة".

قال العثيمين: قوله تعالى: {إِنَّكَ} الخِطاب لرسول الله ﷺ، و {مَيِّتٌ} وَصْفٌ له في المُستَقبَل، {وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ} كذلك وأَكَّد الموتَ مع العِلْم به يَقينًا من أَجْل أن عمَل هؤلاء الذين كذَّبوا النبيَّ ﷺ عمَلُ مَن لم يُوقِن بالموت؛ لأن مَن أَيقَن بالموت حقيقةً فلا بُدَّ أن يَعمَل له، لكنهم هُمْ لا يَعمَلون له فكان عدَم عمَلهم له كالمُنكِر أو بمَنزِلة المُنكِر؛ فلهذا أُكِّد.

وقوله تعالى: {مَيِّتٌ} بتَشديد الياء يُقال لمَن سيَموت وهو حَيٌّ، وأمَّا (مَيْت) فيُقال لمَن وقَع به الموت، أي: بعد فِراق حَياته يُقال: مَيْت، وربما يُقال: مَيِّت، لكن الأكثر مَيْت، فعلى هذا يُفرَّق بين أن يُوصَف الحيُّ بالموت فيُقال فيه: مَيِّت. وبين أن يُوصَف المَيْت بالموت فيُقال: مَيْت.

ثم قال تعالى: {ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ}.

قوله تعالى: {إِنَّكُمْ} الخِطاب للنَّبيِّ عليه الصلاة والسلام ومَن عانَده وكفَر به.

وقوله تعالى: {عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ} عند ربِّكم الذي خلَقكم أوَّلَ مرَّة وأَعادَكم ثانيَ مرَّة.

وقوله تعالى: {تَخْتَصِمُونَ} عِنده أيُّكم على الحقِّ، ونحن نَعلَم الآنَ نَتيجةَ هذه الخُصومةِ مَن سيَغلِب؟

الجَوابُ: المُؤمِنون لا شَكَّ؛ قال الله تبارك وتعالى: {وَلَنْ يَجْعَلَ اللهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا} [النساء: ١٤١]؛ فالكافِر لا سبيلَ له على المُؤمِن، فالنتيجةُ - والحمد لله تعالى - مَعلومة أن المُؤمِنين هُمُ الغالِبون يوم القِيامة وهُمُ الخاصِمون لأَعدائِهم.

=

=

قوله تعالى: {إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ} قال المُفَسِّر رحمه الله: [{إِنَّكَ} الخِطاب للنَّبيِّ ﷺ].

فقوله تعالى: [{مَيِّتٌ} أي: [ستَموت]، وقوله تعالى: {وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ} قال المُفَسِّر رحمه الله: [ستَموت ويَموتون]، وكما يَقول العامَّة عِندنا: الوَعْد قُدَّام. قُدَّام يَعنِي: يوم القِيامة؛ لأن الله تعالى يوم القيامة يَفصِل بين العِباد سَوْف يَتَنازَع الناس في أعمالهم ودِياناتهم ويَتَنازَعون في حُقوقهم الخاصَّة، فيَفصِل الله تعالى بينهم يوم القِيامة؛ يَقول رحمه الله: [فلا شَماتةَ بالمَوْت] يَعنِي: أنك إذا مِتَّ فلا شَماتةَ عليك؛ لأنهم سيَموتون مِثْلك.

ثُمَّ قال رحمه الله: [نزَلَت لمَّا استَبْطَؤوا مَوْته ﷺ] يَعنِي: أن سبَب نُزولها أن قُرَيْشًا استَبْطؤوا موت النبيِّ ﷺ، فنَزَلت هذه الآيةُ تُخبِره أنه سيَموت، وإذا مات فهم أيضًا سيَموتون ويَختَصمون يوم القِيامة.

ولكن هذه الدَّعوى تَحتاج إلى دَليل؛ لأننا إن نظَرْنا في سبَب النُّزول لا نَجِد هذا، فإذا كان كذلك فلا يَنبَغي أن نَتخَيَّل سببًا للنُّزول في مَعنَى آية من كِتاب الله تعالى؛ لأنَ سبَب النُّزول خبَر مَحضٌ، والخبَر المَحضُ لا دَخلَ للعَقْل فيه، ولكننا نَقول: ذكَرَ الله تعالى هذه الجُملةَ إشارةً إلى أنه لن يَضيع عمَلُك ولا عمَلُهم، فلن يَضيع عمَلُك بدَعْوتك إلى التوحيد، ولن يَضيع عمَلهم بالإِشْراك، فإن لكم مَوْعِدًا ستَجتَمِعون فيه وتَختَصِمون فيه عند الله عز وجل، فيَكون في هذا تَسلية للرسول ﷺ، وفيه تَحذيرٌ للمُشرِكين.

فهو من وَجهٍ: تسلية وتَطمينٌ للرسول عليه الصلاة والسلام، وهو من وجهٍ آخَرَ: تَحذيرٌ للمُشرِكين بأنهم سيَموتون وسيَكون أيضًا مَوتُهم عن قُرْب، وسيَكون مُؤَكَّدًا لا إشكالَ فيه.

=

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ (٣٢).

{فَمَنْ} أَيْ لَا أَحَد {أَظْلَم مِمَّنْ كَذَّبَ عَلَى الله} بِنِسْبَةِ الشَّرِيك وَالْوَلَد إلَيْهِ {وَكَذَّبَ بِالصَّدْقِ} بِالْقُرْآنِ {إذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّم مَثْوًى} مَأْوًى {لِلْكَافِرِينَ} بَلَى[1].

=

وقال المُفَسِّر رحمه الله: [{ثُمَّ إِنَّكُمْ} أَيُّها الناس فيما بينكم من المَظالِم] وهذا عجَبٌ من المُفَسِّر رحمه الله حيث صرَف الخِطاب {إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ (٣٠) ثُمَّ إِنَّكُمْ} إلى عُموم الناس، فقال رحمه الله: [أَيُّها الناسُ] والسِّياق يَأبَى هذا التَّفسيرَ، بل الخِطاب للنبيِّ ﷺ ومَن كفَر به؛ هذا هو المُتعَيِّن.

وقوله تعالى: {تَخْتَصِمُونَ} أي: في المَظالِم التي بينكم من الحقِّ والباطِل، فأنت تَدعو إلى التَّوْحيد وهم يُنكِرون ذلك، ولكم مَوعدٌ تَختَصِمون فيه.

وقوله تعالى: {ثُمَّ إِنَّكُمْ} أي: الرسول ﷺ ومَن كذَّبه {يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ}.

وفي قوله تعالى: {عِنْدَ رَبِّكُمْ} إشارة إلى أن هذا الاختِصامَ من مُقتَضى رُبوبيته عز وجل؛ لأنه حكَمٌ عَدْل، ومِن عَدْله: أنه يَفصِل بين المُتَنازِعين فيه يوم القيامة كما يَفصِل بين المُتَنازِعين في الحُقوق الخاصة.

(١) قوله تعالى: {فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللهِ} [الزمّر: ٣٢]، أي: "لا أحد أظلم ممن افترى على الله الكذب: بأن نسب إليه ما لا يليق به كالشريك والولد، أو قال: أوحي إليَّ، ولم يوحَ إليه شيء".

قال الطبري: يقول: "فمن من خلق الله أعظم فرية ممن كذب على الله، فادّعى أن له ولد وصاحبة، أو أنه حرَّم ما لم يحرمه من المطاعم".

=

قال الزجاج:"المعنى: أيّ أحد أظلم ممن كذب على الله وكذب نبيه - ﷺ -".

قال ابن كثير:"يقول تعالى مخاطبا للمشركين الذين افتروا على الله، وجعلوا معه آلهة أخرى، وادعوا أن الملائكة بنات الله، وجعلوا لله ولدا - تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا -".

قال الصابوني:"الاستفهام إنكاري بمعنى النفي، أي: لا أحد أظلم ممن كذب على الله بنسبة الشريك له والولد".

قوله تعالى: {وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ} [الزمّر: ٣٢]، أي:"ولا أحد أظلم ممن كذَّب بالحق الذي نزل على محمد ﷺ".

قال الطبري:"يقول: وكذّب بكتاب الله إذ أنزله على محمد، وابتعثه الله به رسولا وأنكر قول لا إله إلا الله".

قال ابن كثير:"ومع هذا كذبوا بالحق إذ جاءهم على ألسنة رسل الله، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين".

قال ابن كثير:"أي: لا أحد أظلم من هذا؛ لأنه جمع بين طرفي الباطل، كذب على الله، وكَذَّب رسول الله، قالوا الباطل وردوا الحق ".

عن قتادة: " {وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ} ، أي: بالقرآن".

قوله تعالى: {أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ} [الزمّر: ٣٢]، أي:"أليس في النار مأوى ومسكن لمن كفر بالله، ولم يصدق محمدًا ﷺ ولم يعمل بما جاء به؟ ".

قال الطبري:"يقول تبارك وتعالى: أليس في النار مأوى ومسكن لمن كفر بالله، وامتنع من تصديق محمد ﷺ، واتباعه على ما يدعوه إليه مما أتاه به من عند الله من التوحيد، وحكم القرآن؟ ".

قال الصابوني:"الاستفهام هنا تقريري، أي: بلى لهم مأوى ومكان".

=

عن حسان بن عطية قال: "إن في جهنم سبعون ألف قصر، في كل قصر سبعون ألف دار في كل دار سبعون ألف بيت في كل بيت سبعون ألف غار، في كل غار سبعون ألف ثعبان، في قم كل ثعبان سبعون ألف عقرب".

عن الحسين بن يحيى الخشني:"ليس في جهنم دار ولا مغار ولا غل ولا قيد ولا سلسلة إلا واسم... عليه مكتوب قال: فحدث أبا سليمان فبكى، ثم قال لي:... فكيف به لو قد جمع هذا كله عليه فجعل القيد في رجله، والغل في يديه، والسلسلة في، عنقه ثم أدخل وأدخل الغار".

قال العثيمين: قوله تعالى: {فَمَنْ}: (مَنْ) هذه استِفْهامية، وقوله تعالى: {إِذْ جَاءَهُ}: (إِذْ) ظَرْفٌ بمَعنى: حين؛ والاستِفهام في قوله: {أَلَيْسَ} للتَّقرير.

يَقول الله تعالى: {فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللهِ} هذا الاستِفْهام هنا بمَعنَى النفي، أي: لا أَحَدَ أَظلَمُ ممَّن كذَب على الله تعالى.

يَقول المُفَسِّر رحمه الله: [{فَمَنْ} أي لا أَحَدَ] وتَحويل المُفَسِّر رحمه الله الاستِفهامَ إلى نفيٍ يُفيد أن مَعنَى الاستِفْهام النفيُ، والمَعنَى: لا أَحَدَ أَظلَمُ فلا أحَدَ ممَّن كذَب على الله تعالى، أي: قال عليه الكذِب.

قال المُفَسِّر رحمه الله: [بنِسْبة الشَريك والولَد إليه] وهذا على سَبيل التَّمثيل لا الحَصْر، فمَن قال: إن لله ولَدًا فقَد كذَب على الله تعالى، ومَن قال: إن لله تعالى شَريكًا. فقد كذَب على الله تعالى؛ لأن الله تعالى لا يُوصَف بهذه الصِّفاتِ التي وصَفوه بها، ومَن فعَل ذلك فقد كذَب على الله تعالى، ومَن قال: إن الله مُماثِلٌ لخَلْقه. فقد كذَب على الله تعالى، ومَن قال: إن الله حَرَّم السائِبة والوَصيلة والحامِ. فقد كذَب على الله تعالى.

المُهِمُّ: أن ذِكْر المُفَسِّر رحمه الله لهذين الأَمْرين فقَطِ المرادُ به التَّمثيلُ لا الحصرُ، فالكذِب على الله تعالى كثير، وبعضُها أَشَدُّ من بعض.

=

=

وقوله تعالى: {كَذَبَ عَلَى اللهِ} أي: افترى عليه الكذِب، إمَّا بنِسْبة الشريك إليه، أو بأنه حرَّم شيئًا ولم يُحرِّمه، أو أحَلَّ شيئًا ولم يُحِلَّه، أو أَوجَب شيئًا ولم يُوجِبه، أو عطَّل صِفةً من صِفاته أو أثبَت له ما لم يَصِفْ به نَفْسه، أو غير ذلك ممَّا يَكون فيه الكذِب على الله تعالى، فلا أحَدَ أَظلَمُ ممَّن كذَب على الله تعالى، والكذِب على الله تعالى ليس كالكذِب على البَشَر، والكذِب على الرسول ﷺ ليس كالكذِب على غيره من البشَر، قال النبيُّ ﷺ: "إنَّ كذِبًا عَلَيَّ لَيْسَ كَكَذِبٍ عَلَى أَحَدٍ مَنْ كذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ".

قال رحمه الله: [{وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ} بالقُرآن {إِذْ جَاءَهُ}]، ولا شَكَّ أن القرآن صِدْق، بل إنه صِدْقٌ وعَدْل كما قال سبحانه وتعالى: {وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا} [الأنعام: ١١٥]، فهو باعتِبار الأخبار صِدْق، وباعتِبار الأحكام عَدْل، لكن المَسأَلة أعَمُّ ممَّا قال المُفَسِّر رحمه الله؛ فقوله تعالى: {بِالصِّدْقِ} أي: بما كان صادِقًا سواءٌ في القرآن أو في السُّنَّة، فإنه داخِلٌ في قوله تعالى: {وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ}.

وقوله تعالى: {وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ} فجَمَع بين الأَمْرين (كذَّب بالصِّدْق) أي: نسَب الصِّدقَ إلى الكَذِب فقال: هذا كذِبٌ. ومن ذلك: تكذيب قُريشٍ للرسول ﷺ حيث قالوا: إنه ساحِرٌ كذَّاب.

وقوله تعالى: {إِذْ جَاءَهُ} يَعنِي: إذ أَتاه، وليس شيئًا مَنقولًا له، بل هو قد أَتاه مُباشَرةً وأُخبِر به على لِسان الصادِق، فيُكذِّب به، فلو أن أحَدًا حدَّثَنا عن شيخه، وشيخُه عن شيخِه، وشيخُه عن شيخِه، حتى وصَل إلى الرسول ﷺ فهل يُمكِن أن نُكذِّب هذا إذا كان في أحَد الرواة من هو مُتَّهَم بالكذِب؟

الجَوابُ: نعَمْ يُمكِن، لكن إذا جاءَنا الخبَر من الرسول مُباشَرة فإن تَكذيبه كُفْر؛ ولهذا لو أن أحَدًا من الناس كذَّب حديثًا في أحدِ كُتُب الحديث وقُلْنا له: لَمَ

=

=

كذَّبْت؟ هل عندك شَكٌّ في أن الرسول ﷺ قاله؟ قال: لا شَكَّ عِندي أنه قاله، لكنه كذِب؛ فنَقول: هذا كافِرٌ؛ لأن الصِّدْق جاء بإِقْراره على نَفْسه، أمَّا لو قال: هذا كذِب لأن أحَدَ الرُّواة كاذِب أو كذَّاب فأنا أُنكِره لهذا. فلا يَكفُر؛ بل قد يَكون هذا هو الواجِبَ عليه إذا كان هذا مُؤدَّى اجتِهاده، ففائِدة قوله تعالى: {إِذْ جَاءَهُ} أنه لا واسِطةَ بينَه وبين مَن جاء بالصِّدْق حتى يُقال: لعلَّ له عُذرًا وأنت تَلوم؛ فليس هناك واسِطة.

ثُمَّ قال الله تعالى: {أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ} هذا الاستِفهامُ للتَّقرير، والغالِب: أن هَمزة الاستِفهام إذا دخَلت على ما يُفيد النفيَ الغالِبُ أن تَكون للتَّقرير، وجوابُها يَكون بالإثبات بلَفْظة (بلَى) مِثْل قوله سبحانه وتعالى: {أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ} [الشرح: ١]، فالاستِفْهام هنا للتَّقرير، ومَعناه: قد شرَحْنا لك صَدْرك، ومثله قوله تعالى: {أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ} [التغابن: ٥]، والمَعنَى: قد أَتاكُم، وأَمثِلة ذلك في القُرآن كثيرةٌ.

وكلِمة الكافِرين في قوله تعالى: {أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ} إظهار في مَقام الإِضْمار، وكان مُقتَضى السِّياق أن يَقول: أَلَيْسَ في جَهنَّمَ مَثوًى له، والإظهار في مَقام الإِضْمار له فَوائِدُ ذكَرْناها سابِقًا منها:

١- العُموم، وهذا يَعنِي: أن مَثوًى له ولغَيْره من الكافِرين.

٢- تَسجيل الوَصْف على هَؤلاء بأنهم كُفَّار، يَعنِي: إثبات أن هؤلاءِ كفَّار.

٣- إفادة التَّعليل؛ لأنه لو قال: أَليْس في جَهنَّمَ مَثوًى له. لم نَستَفِد ما هي العِلَّةُ في أن مَثواه جهنَّمَ، لكن إذا قال تعالى: {أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ} عرَفْنا أن العِلَّة كُفْرهم؛ ففيه بَيان العِلَّة.

فصار الإظهار في مَوضِع الإضمار له ثلاث فوائِدَ هنا.

=

وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (٣٣).

{وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ} هُوَ النَّبِيُّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ {وَصَدَّقَ بِهِ} هُمْ

=

وكلِمة: {جَهَنَّمَ} قيل: إنها من الأسماء المُعرَّبة، وأَصلُها في اللغة الفارِسية (كَهنام). وقيل: إنها اسْمٌ عرَبيٌّ، وأنها مَأخوذة من الجهمة، يَعنِي: الظُّلْمة والنار؛ لبُعْد قَعْرها - أَعاذَني الله تعالى وإيَّاكم منها -، سَوداءُ مُظلِمة، فالله تعالى أعلَمُ، سواءٌ هذا أو هذا.

المُهِمُّ: أنها تُستعمَل في لغة العرَب للنار العَظيمة المُسوَدَّة.

قال المُفَسِّر رحمه الله: [{أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ}: بَلى] وهذا هو جوابُ {أَلَيْسَ} وأَشباهِها، وحاصِلُه: أنه إذا دخَلَت همزة الاستِفْهام على ما يُفيد النفيَ فجوابُ التَّقرير (بلَى)، ولو قُلْت: (نَعَمْ) لكان نَفيًا، فإذا قلت: أَلَمْ يَقُمْ زَيدٌ؟ فقال المُخاطَب: (نعَمْ)؛ يَعنِي: لم يَقُم، وإذا قُلت: أَلَمْ يَقُم زَيدٌ؟ فقال المُخاطَب: (بلى) أي: قد قامَ؛ ولهذا يُروَى عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: {أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى} [الأعراف: ١٧٢]، قال: "لو قالوا: (نعَمْ) لكَفَروا"؛ لأنهم إذا قالوا: (نعَمْ) يَعنِي: لسْتَ ربَّنا، هذا هو المَشهور في اللُّغة العربية، لكن ربما يأتي الجوابُ بـ (نَعَمْ) مُرادًا به الإثباتُ، ومنه قول الشاعِر:

أَلَيْسَ اللَّيْلُ يَجْمَعُ أُمَّ عَمْرٍو ... وَإِيَّانَا فَذَاكَ لنَا تَدَانِي
نَعَمْ وَتَرَى الهِلَالَ كَمَا أَرَاهُ ... وَيَعْلُوهَا النَّهَارُ كَمَا عَلَانِي

لو قال قائِل: لعَلَّ هذه ضرورةٌ؟

قُلنا: لا، لأنه لو أَتى بـ (بلى) بدَلَ (نعَم) استَقام البيتُ، فإن الشاعِر لو قال: بلَى وَترَى الهِلال كما أَراه. استَقام البيتُ.

وعلى كل حال: المُفَسِّر رحمه الله أَجاب بـ (بَلى) أي: لإِثْبات ما ذكَر أن في جَهَنَّم مَثوًى للكافِرين.

الْمُؤْمِنُونَ فَالَّذِي بِمَعْنَى الَّذِينَ {أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ} الشِّرْك[١].

(١)قوله تعالى: {وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ} [الزمّر: ٣٣].

قال الزمخشري:"والذي جاء بالصدق وصدق به هو رسول الله ﷺ: جاء بالصدق وآمن به، وأراد به إياه ومن تبعه، كما أراد بموسى إياه وقومه في قوله: {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ} [المؤمنون: ٤٩]، فلذلك قال: {أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ} [الزمر: ٣٣]، إلا أن هذا في الصفة وذاك في الاسم. ويجوز أن يريد: والفوج أو الفريق الذي جاء بالصدق وصدق به، وهم الرسول الذي جاء بالصدق، وصحابته الذين صدقوا به. وفي قراءة ابن مسعود: «والذين جاءوا بالصدق وصدقوا به». وقرئ: «وصدق به». بالتخفيف، أى: صدق به الناس ولم يكذبهم به، يعنى: أداه إليهم كما نزل عليه من غير تحريف. وقيل: صار صادقا به، أى: بسببه، لأن القرآن معجزة، والمعجزة تصديق من الحكيم الذي لا يفعل القبيح لمن يجريها على يده، ولا يجوز أن يصدق إلا الصادق، فيصير لذلك صادقا بالمعجزة".

وفي الذي جاء بالصدق أربعة أقوال:

أحدها: أنه جبريل، قاله السدي.

الثاني: أنه رسول الله -ﷺ-، قاله علي بن ابي طالب، وقتادة،ومجاهد، وأبو العالية، والسدي، وابن زيد.

عن قتادة، في قوله تعالى: {والذي جاء بالصدق وصدق به} [الزمر: ٣٣] قال: «هو النبي ﷺ»، {وصدق به} [الزمر: ٣٣] قال قتادة: «وصدق به المؤمنون» ".

الثالث: أنهم المؤمنون جاءوا بالصدق يوم القيامة، قاله الحسن، وأبو صالح،حكاه النقاش.

قال الحسن:"المؤمن هو جاء به، وصدّقه".

=

=

عن أبي صالح -من طريق محمد بن جحادة- أنه قرأ: " {والَّذِي جاءَ بِالصِّدْقِ وصَدَقَ بِهِ}، مخففة، قال: هو المؤمن جاء به صادقًا، وصدَقَ به".

الرابع: أنهم الأنبياء، قاله عطاء، والربيع. وكان يقرأ: «والذين جاءوا بالصدق وصدقوا به».

قال عطاء: " {والَّذِي جاءَ بِالصِّدْقِ} الأنبياء، {وصَدَّقَ بِهِ} الأتباع".

وفي «الصدق» ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه «لا إله إلا الله»، قاله ابن عباس.

الثاني: انه القرآن، قاله مجاهد، وقتادة.

قال مجاهد:"هم أهل القرآن، يجيئون بالقرآن يوم القيامة يقولون: هذا ما أعطيتمونا قد اتَّبعنا ما فيه".

الثالث: أنه البعث والجزاء. أفاده الماوردي.

وفي الذي صدق به ستة أقوال:

أحدها: أنه رسول الله -ﷺ-، قاله ابن عباس، والسدي.

الثاني: المؤمنون من هذه الأمة، قاله الضحاك، ومجاهد، وقتادة، وابن زيد.

قال مجاهد:"الذين يجيئون بالقرآن يوم القيامة، فيقولون: هذا الذي أعطيتمونا فاتبعنا ما فيه".

قال ابن كثير:"وهذا القول عن مجاهد يشمل كل المؤمنين، فإن المؤمن يقول الحق ويعمل به، والرسول ﷺ أولى الناس بالدخول في هذه الآية على هذا التفسير، فإنه جاء بالصدق، وصدق المرسلين، وآمن بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون، كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله".

الثالث: أتباع الأنبياء كلهم، قاله الربيع.

=

=

الرابع: أنه أبو بكر، رضي الله عنه حكاه الطبري عن علي رضي الله عنه، وبه قال أبو العالية، وذكره النقاش عن عون بن عبد الله.

الخامس: أنه علي كرم الله وجهه، حكاه ليث عن مجاهد.

السادس: أنهم المؤمنون قبل فرض الجهاد من غير رغبة في غنم ولا رهبة من سيف. أفاده الماوردي.

قال الزجاج -بعد أن ذكر بعض الأقوال السابقة-: "وجميع هذه الوجوه صحيح".

قال السمعاني: "أظهر الأقاويل: أن معنى قوله: {والذي جاء بالصدق} محمد {وصدق به} هم المؤمنون".

قال الطبري: "الصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله تعالى ذكره عنى بقوله: {وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ}، كلّ من دعا إلى توحيد الله، وتصديق رسله، والعمل بما ابتعث به رسوله من بين رسل الله وأتباعه والمؤمنين به، وأن يقال: الصدق هو القرآن، وشهادة أن لا إله إلا الله، والمصدّق به: المؤمنون بالقرآن، من جميع خلق الله كائنا من كان من نبيّ الله وأتباعه، وإنما قلنا ذلك أولى بالصواب، لأن قوله تعالى ذكره: {وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ} عَقيب قوله: {فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ} وذلك ذم من الله للمفترين عليه، المكذبين بتنزيله ووحيه، الجاحدين وحدانيته، فالواجب أن يكون عَقيب ذلك مدح من كان بخلاف صفة هؤلاء المذمومين، وهم الذين دعوهم إلى توحيد الله، ووصفه بالصفة التي هو بها، وتصديقهم بتنزيل الله ووحيه، والذي كانوا يوم نزلت هذه الآية، رسول الله ﷺ وأصحابه ومن بعدهم، القائمون في كل عصر وزمان بالدعاء إلى توحيد الله، وحكم كتابه، لأن الله تعالى ذكره لم يخص وصفه بهذه لصفة التي في هذه الآية على أشخاص بأعيانهم، ولا على أهل زمان دون غيرهم،
=

=

وإنما وصفهم بصفة، ثم مدحهم بها، وهي المجيء بالصدق والتصديق به، فكل من كان كذلك وصفه فهو داخل في جملة هذه الآية إذا كان من بني آدم.

ومن الدليل على صحة ما قلنا أن ذلك كذلك في قراءة ابن مسعود «وَالَّذِينَ جَاءُوا بِالصِّدْقِ وَصَدَّقُوا بِهِ»، فقد بين ذلك من قراءته أن الذي من قوله: {وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ}، لم يعن بها واحد بعينه، وأنه مراد بها جِمَاع ذلك صفتهم، ولكنها أخرجت بلفظ الواحد، إذ لم تكن موقتة".

قوله تعالى: {أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ} [الزمّر: ٣٣]، أي:"أولئك هم الذين جمعوا خصال التقوى".

قال الطبري:"يقول جل ثناؤه: هؤلاء الذين هذه صفتهم. هم الذين اتقوا الله بتوحيده والبراءة من الأوثان والأنداد، وأداء فرائضه، واجتناب معاصيه، فخافوا عقابه".

عن ابن عباس: " {أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ}، يقول: اتقوا الشرك".

قال العثيمين: قوله تعالى: (الذي) مُبتَدأ، وخبَرُه جملة: {أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ} فتَضمَّنَت هذه الجُملةُ جُمْلتين جملةً كُبرى وجملةً صُغرى؛ فالجُملة الكُبرى هي المُتضَمِّنة للمُبتَدَأ والخبَر، والصُّغرى هي الخبَر المُكوَّن من مُبتَدَأ وخبَر، فالجُمْلة الصُّغرى هي ما وقَعَت خبَرًا، وتُسمَّى: جملةً صُغرى؛ لأنها في مَقام المُفرَد والجُملة الكبرى هي المُكوَّنة من مُبتَدَأ وخبَر أو فِعْلٍ ومَعموله.

وقوله تعالى: {وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ} فيه شيء من الإشكال يَتَبادَر إلى الذِّهْن وهو أَخبَر عن الذي، وهو اسمٌ مُفرَد بكلِمة دالَّة على الجَمْع وهي قوله تعالى: {أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ} ولم يَقُل: أُولئك هو المُتَّقي؟ ووجهُ ذلك: أن (الذي) اسمٌ مَوْصولٌ والاسمُ المَوْصول يُفيد العُموم حتى وإن كان مُفرَدًا فإنه يُفيد العُموم؛ ولهذا صحَّ الإخبار عنه بالجَمْع مع كونه مُفرَدًا.

=

=

يَقول الله عز وجل: {وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ}: (الذي جاءَ بالصِّدْق) عامٌّ يَشمَل: كل مَن جاء بالصِّدْق، من الرسُل عليهم الصلاة والسلام والأنبياء والصادِقين من غيرهم.

ومن ذلك مثَلًا: كَعبُ بنُ مالِك رضي الله عنه، فقد جاء بالصِّدْق حين تَخلَّف عن غزوة تَبوكَ، وأَخبَر بالصِّدْق وأمَرَنا الله عز وجل أن نكون معهم لمَّا ذكَر قِصَّتهم قال تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ} [التوبة: ١١٩].

وقوله: {وَصَدَّقَ بِهِ} أي: صدَّق بالصِّدق الذي قامَتِ البَيِّنة على صِدْقه، والصِّدْق هو مُطابَقة الواقِع للخبَر، والكذِب مخُالَفته، يَعنِي: مَن أَخبَر بما يُطابِق الواقِع فهو صادِق، ومَن أَخبَر بما يُخالِف الواقِع فهو كاذِب.

وقوله تعالى: {وَصَدَّقَ بِهِ} أي بما قامَتِ البَيِّنة على صِدْقه، {أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ} يَعنِي: الذين اتَّقَوُا الله عز وجل فلم يَقولوا كذِبًا واتَّقَوا الله عز وجل ولم يَردُّوا صِدْقًا.

يَقول المُفَسِّر رحمه الله: [{وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ} وهو النبيُّ ﷺ]، وهذا تَخصيصٌ للعُموم بما لا دَليلَ عليه، والذي يَنبَغي إذا جاء القُرآن عامًّا إبقاؤُه على عُمومه، بل هو الواجِب أن يَبقَى على عُمومه إلَّا بدَليل، وهنا ليس هناك دَليل يَجعَل هذا خاصًّا بالنبيِّ ﷺ.

فالواجِبُ: أن نَجعَله عامًّا؛ لأن حَمْله على الخاصِّ بلا دَليلٍ قُصورٌ في مَدلول القُرآن.

إِذَنْ: يَشمَل النبيَّ ﷺ وغيرَه.

وقوله تعالى: {وَصَدَّقَ بِهِ} قال المُفَسِّر رحمه الله: [وهُمُ المُؤمِنون] هذا أيضًا خطَأ؛ لأننا لو فسَّرْنا الآية بما فسَّرها به المُفَسِّر رحمه الله لزِم من ذلك تَشتيت في الضمائِر، وعدَم انسِجام الكلام؛ فقوله سبحانه وتعالى: {وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ

=

=

وَصَدَّقَ بِهِ} هذه مَعطوفة على الجُملة التي هي صِلة المَوْصول، وإذا كانت مَعطوفةً على الجُمْلة التي هي صِلة المَوْصول لزِم أن يَكون المُتَّصِف بها المَوْصول ما دامَت مَعطوفة على الصِّلة فهي من جُملة الصِّلة، والصِّلة وَصْفٌ للمَوْصول.

والمُفَسِّر رحمه الله وعفا عنه شتَّتَ الضمائِر، فجعَل الضمير الأوَّل للرسول ﷺ، والضميرَ الثانيَ للمُؤمِنين، والحَقُّ أنهما يَرجِعان إلى شيء واحِد وهو المَوْصول؛ لأن صِلة المَوْصول صِفةٌ له، والمعطوف على الصِّلة صِفةٌ له أيضًا.

إِذَنْ: {وَصَدَّقَ بِهِ} يَشمَل كلَّ أحَد، حتى النبيُّ عليه الصلاة والسلام صدَّق بأنه رسول الله ﷺ، فكان يَقول أحيانًا: "أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ"، فقد صدَّق بأنه رسول الله ﷺ، وأن ما أُنزِل إليه من ربِّه هو الحقُّ، وأوَّلُ مَن يَدخُل في هذه الآيةِ بعد الرسول ﷺ أبو بكرٍ الصَّدِّيق رضي الله عنه، فإن أبا بَكرٍ الصَّدِّيق رضي الله عنه جاء بالصِّدْق رضي الله عنه، وصَدَّق به حتى إنه في أَضيقِ حالٍ للرسول عليه الصلاة والسلام ليلةَ الإسراء حينما أَشاعَت قريشٌ بأن الرسول عليه الصلاة والسلام كذَب وصار يُخرِّف ويَقول ما لا يُمكِن، فلمَّا بلَغه الخبَرُ قال: "إن كان قد قال ذلك فهو صادِقٌ"، فمِن ذلك اليومِ سُمِّي بـ(الصَّدِّيق) رضي الله عنه.

قال المُفَسِّر رحمه الله: [فهُمُ المُؤمِنون، فالذي بمَعنَى الذين]، يَعنِي: أنها اسمٌ مُفرَد، لكن بمَعنَى الجَمْع؛ لكونها دالَّة على العُموم.

وقوله رحمه الله: [{أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ} الشِّرْكَ] {أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ} أتى باسْمِ الإشارة للبَعيد لعُلوِّ مَرتَبتهم ولم يَقُل: هؤلاءِ. بل قال تعالى: {أُولَئِكَ} و{أُولَئِكَ} يُشار بها للبَعيد، وإنما أُشير لها إشارة البَعيد مع دُنوِّ التَّحدُّث عنهم؛ لعُلوِّ مَرتَبتهم.

=

=

وقول المُفَسِّر رحمه الله: [{الْمُتَّقُونَ} الشِّرْكَ] من أَغرَب ما يَكون؛ لأن الحديث الآنَ عن الصِّدْق والتَّصديق بالصِّدْق، فأين الشِّرْك؟ فإنه لم يَتَقدَّم له ذِكْر، ولو أَرَدْنا أن نُخصِّص لقُلْنا: أُولئِك هُمُ المُتَّقون الكذِبَ والتَّكذيبَ بالحقِّ، مع أن الذي يَدُلُّ عليه الدليلُ: أن المَعنَى: أُولئك هُمُ المُتَّقون اللهَ تعالى، وذلك لأن التَّقوى إذا أُطلِقَت فإنما يُراد بها تَقوى الله تعالى، أمَّا إذا قُيِّدت فهي حَسبما قُيِّدت به، فقوله تعالى: {وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ} [البقرة: ٢٨١] هذا لليوم، وقوله سبحانه وتعالى: {وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ} [آل عمران: ١٣١] هذا للنَّار.

وقوله تعالى: {وَاتَّقُوا اللهَ} هذا لله تعالى؛ وعند الإِطْلاق لله تعالى؛ لأن الله تعالى أحقُّ أن يُتَّقى عز وجل؛ فهنا نَقول: ({أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ} الله)؛ ولهذا جاؤُوا بالصِّدْق وصدَّقوا به تَقوَى لله عز وجل.

الفهرس

إِلَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ (٤٠).. ٥
أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ (٤١).. ٥
فَوَاكِهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ (٤٢).. ٥
فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٤٣).. ٥
عَلَىٰ سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ (٤٤).. ٥
يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ (٤٥).. ٥
بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ (٤٦).. ٥
لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ (٤٧).. ٥
وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ (٤٨).. ٦
كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ (٤٩).. ٦
فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٥٠).. ٢٦
قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ (٥١).. ٢٦
يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ (٥٢).. ٢٦
أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ (٥٣).. ٢٦
قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ (٥٤).. ٢٧
فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ (٥٥).. ٢٧
قَالَ تَاللهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ (٥٦).. ٢٧
وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (٥٧).. ٢٧
أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ (٥٨).. ٢٧
إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٥٩).. ٢٧

إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٦٠) ٢٧
لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ (٦١) ٢٧
أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ (٦٢) ٥١
إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ (٦٣) ٥١
إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ (٦٤) ٥١
طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ (٦٥) ٥١
فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ (٦٦) ٥٢
ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ (٦٧) ٥٢
ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ (٦٨) ٥٢
إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ (٦٩) ٥٢
فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ (٧٠) ٥٢
وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ (٧١) ٥٢
وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ (٧٢) ٥٢
فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ (٧٣) ٥٢
إِلَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ (٧٤) ٥٢
وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ (٧٥) ٧٩
وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (٧٦) ٧٩
وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ (٧٧) ٧٩
وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (٧٨) ٧٩
سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ (٧٩) ٨٠
إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٨٠) ٨٠

إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (٨١). ٨٠

ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ (٨٢). ٨٠

وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ (٨٣). ٩٥

إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٤). ٩٦

إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ (٨٥). ٩٦

أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللهِ تُرِيدُونَ (٨٦). ٩٦

فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٨٧). ٩٦

فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ (٨٨). ٩٦

فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ (٨٩). ٩٦

فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ (٩٠). ٩٦

فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (٩١). ٩٦

مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ (٩٢). ٩٧

فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ (٩٣). ٩٧

فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ (٩٤). ٩٧

قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ (٩٥). ٩٧

وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ (٩٦). ٩٧

قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ (٩٧). ٩٧

فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ (٩٨). ٩٧

وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٩٩). ٩٧

رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠٠). ٩٨

فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ (١٠١). ٩٨

فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَابُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَاأَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢). ٩٨
فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١٠٣). ٩٨
وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَاإِبْرَاهِيمُ (١٠٤)...٩٨
قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٠٥)...........................٩٨
إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (١٠٦). ٩٩
وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧)...٩٩
وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٠٨)...٩٩
سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (١٠٩)..٩٩
كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١١٠)...٩٩
إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١١١). ٩٩
وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ (١١٢)...............................٩٩
وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ (١١٣). ٩٩
وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ (١١٤)..................................١٦٨
وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (١١٥). ١٦٨
وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ (١١٦). ١٦٨
وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ (١١٧). ١٦٨
وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (١١٨).....................................١٦٨
وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ (١١٩). ١٦٨
سَلَامٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ (١٢٠). ١٦٨
إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٢١).......................................١٦٩

إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١٢٢). ١٦٩
وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٢٣). ١٧٧
إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ (١٢٤). ١٧٧
أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ (١٢٥). ١٧٧
اللهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (١٢٦). ١٧٧
فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٢٧). ١٧٨
إِلَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ (١٢٨). ١٧٨
وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٢٩). ١٧٨
سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ (١٣٠). ١٧٨
إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٣١). ١٧٨
إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١٣٢). ١٧٨
وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٣). ١٩٢
إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (١٣٤). ١٩٢
إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ (١٣٥). ١٩٣
ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ (١٣٦). ١٩٣
وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ (١٣٧). ١٩٣
وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٣٨). ١٩٣
وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٩). ٢٠٣
إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١٤٠). ٢٠٣
فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ (١٤١). ٢٠٣
فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ (١٤٢). ٢٠٤

فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣). ٢٠٤
لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤٤). ٢٠٤
فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ (١٤٥). ٢٠٤
وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ (١٤٦). ٢٠٤
وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ (١٤٧). ٢٠٤
فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ (١٤٨). ٢٠٤
فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ (١٤٩). ٢٢٧
أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ (١٥٠). ٢٢٧
أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ (١٥١). ٢٢٧
وَلَدَ اللهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٥٢). ٢٢٧
أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ (١٥٣). ٢٢٧
مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (١٥٤). ٢٢٨
أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (١٥٥). ٢٢٨
أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ (١٥٦). ٢٢٨
فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٥٧). ٢٢٨
وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٥٨). ٢٢٨
سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٥٩). ٢٢٨
إِلَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ (١٦٠). ٢٢٨
فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ (١٦١). ٢٢٨
مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ (١٦٢). ٢٢٨
إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ (١٦٣). ٢٢٩

وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ (١٦٤). ٢٢٩
وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ (١٦٥).......... ٢٢٩
وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ (١٦٦).......... ٢٢٩
وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ (١٦٧).......... ٢٢٩
لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ (١٦٨).......... ٢٢٩
لَكُنَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ (١٦٩).......... ٢٢٩
فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (١٧٠). ٢٢٩
وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١).......... ٢٧١
إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ (١٧٢). ٢٧١
وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣). ٢٧١
فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ (١٧٤).......... ٢٧١
وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (١٧٥). ٢٧١
أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ (١٧٦). ٢٧١
فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ (١٧٧). ٢٧١
وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ (١٧٨). ٢٧٢
وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (١٧٩).......... ٢٧٢
سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٨٠). ٢٧٢
وَسَلَامٌ عَلَىٰ الْمُرْسَلِينَ (١٨١).......... ٢٧٢
وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٨٢).......... ٢٧٢
سُورَة ص ٣٠٠
بسم الله الرحمن الرحيم ٣٠٢

ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ (١). ٣٠٢
بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ (٢). ٣٠٢
كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوْا وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ (٣).......... ٣١٢
وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (٤).......... ٣١٩
أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ (٥). ٣٢٢
وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ (٦). ٣٢٢
مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ (٧). ٣٢٧
أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ (٨). . ٣٢٨
أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ (٩).......... ٣٣٧
أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ (١٠)........ ٣٣٧
جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ (١١).......... ٣٤٦
كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ (١٢).......... ٣٤٦
وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ (١٣).......... ٣٤٦
إِنْ كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ (١٤). ٣٤٦
وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ (١٥). ٣٦٠
وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ (١٦). ٣٦٥
اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ (١٧).......... ٣٦٨
إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ (١٨). ٣٧٥
وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ (١٩).......... ٣٧٥
وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ (٢٠). ٣٨٠
وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ (٢١).......... ٣٨٨

إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ (٢٢). ٣٨٨

إِنَّ هَـٰذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ (٢٣). ٣٨٩

قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ (٢٤). ٣٨٩

فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ (٢٥). ٣٨٩

يَادَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ (٢٦). ٤١٨

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ (٢٧). ٤٢٤

أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ (٢٨). ٤٢٥

كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ (٢٩). ٤٣١

وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (٣٠). ٤٣٨

إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ (٣١). ٤٣٨

فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ (٣٢). ٤٣٨

رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ (٣٣). ٤٣٨

وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ (٣٤). ٤٥٦

قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ (٣٥).
.... ٤٥٦
فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ (٣٦). ٤٥٦
وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ (٣٧).................................. ٤٥٦
وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ (٣٨). ٤٥٦
هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٩). ٤٥٧
وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ (٤٠)................................ ٤٥٧
وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ (٤١). ٤٨٤
ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ (٤٢). ٤٨٤
وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (٤٣). ٤٨٥
وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (٤٤).
.... ٤٨٥
وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ (٤٥). ٥٠٨
إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ (٤٦). ٥٠٨
وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ (٤٧). ٥٠٨
وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ (٤٨). ٥١٤
هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ (٤٩). ٥١٥
جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ (٥٠). ٥١٥
مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ (٥١)...................... ٥١٥
وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ (٥٢). ٥١٥
هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ (٥٣). ٥١٥

إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ (٥٤). ٥١٥
هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ (٥٥). ٥٢٦
جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ (٥٦). ٥٢٦
هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ (٥٧). ٥٢٦
وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ (٥٨). ٥٢٦
هَذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُو النَّارِ (٥٩). ٥٢٦
قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ (٦٠). ٥٢٦
قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ (٦١). ٥٢٦
وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ (٦٢). ٥٢٦
أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ (٦٣). ٥٢٧
إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ (٦٤). ٥٢٧
قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٦٥). ٥٤٣
رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ (٦٦). ٥٤٣
قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ (٦٧) ٥٤٧
أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ (٦٨). ٥٤٧
مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ (٦٩). ٥٤٧
إِنْ يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (٧٠). ٥٤٧
إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ (٧١). ٥٥٣
فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٧٢). ٥٥٣
فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٧٣). ٥٥٣
إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٧٤). ٥٥٣

قَالَ يَاإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ (٧٥). ٥٥٣
قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (٧٦). ٥٥٤
قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٧٧). ٥٥٤
وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ (٧٨). ٥٥٤
قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٧٩). ٥٥٤
قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (٨٠). ٥٥٤
إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (٨١). ٥٥٤
قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢). ٥٥٤
إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣). ٥٥٤
قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ (٨٤). ٥٥٤
لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٥). ٥٥٥
قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ (٨٦). ٥٧٧
إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (٨٧). ٥٧٧
وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ (٨٨). ٥٧٧
سُورَة الزُّمَر ٥٩٨
بسم الله الرحمن الرحيم. ٦٠٢
تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١). ٦٠٢
إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ (٢). ٦٠٧
أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ

(٣). ٦١١
لَوْ أَرَادَ اللهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٤). ٦٢٠
خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ (٥). ٦٢٥
خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ (٦). ٦٣٢
إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٧). ٦٤٣
وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ (٨). ٦٨٨
أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ (٩). ٦٩٨
قُلْ يَاعِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (١٠). ٧١١
قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ (١١). ٧٢١
وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ (١٢). ٧٢٢
قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣). ٧٢٦

قُلِ اللهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي (١٤). ٧٢٨
فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (١٥). ٧٢٨
لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللهُ بِهِ عِبَادَهُ يَاعِبَادِ فَاتَّقُونِ (١٦). ٧٣٣
وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ (١٧). ٧٣٨
الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ (١٨). ٧٣٨
أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ (١٩). ٧٥١
لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعْدَ اللهِ لَا يُخْلِفُ اللهُ الْمِيعَادَ (٢٠). ٧٥٩
أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ (٢١). ٧٦٥
أَفَمَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢٢). ٧٧٢
اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ ذَلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٢٣). ٧٧٨
أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ

(٢٤). ٧٩٠
كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (٢٥). ٧٩١
فَأَذَاقَهُمُ اللهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٢٦).
.... ٧٩١
وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٧). ٧٩١
قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٢٨)............................. ٧٩٩
ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا
الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٢٩)............................... ٨٠٢
إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ (٣٠). ٨١٢
ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ (٣١)............................ ٨١٢
فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى
لِلْكَافِرِينَ (٣٢). ٨١٩
وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (٣٣)........................ ٨٢٤
الفهرس.. ٨٣٢